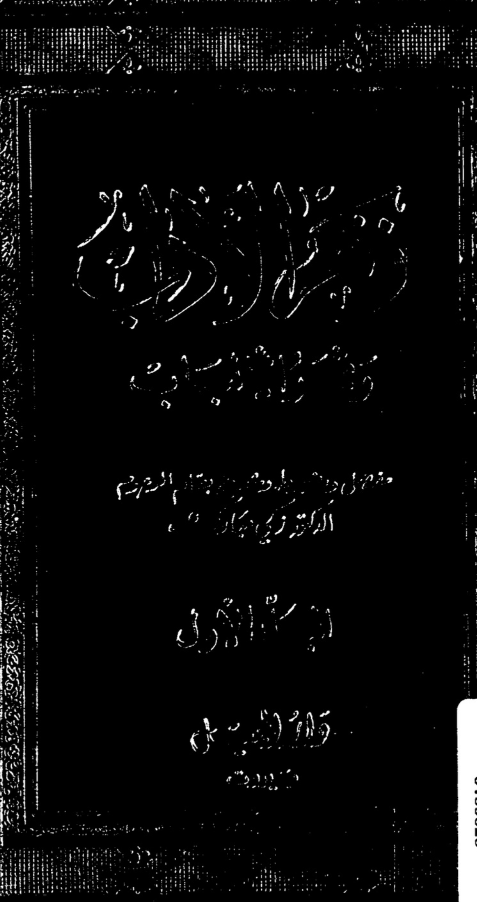

زهر الآداب
وثمر الألباب
مفصل ومضبوط ومشروح بقلم المرحوم
الدكتور زكي مبارك
الجزء الأول
دار الجيل
بيروت

زهر الآداب



زهر الآداب

وثمر الألباب

لإبراهيم بن على الحصرى، القيروانى، المتوفى فى عام ٤٥٣ من الهجرية

مفصل ومضبوط ومشروح بقلم المرحوم

الدكتور زكى مبارك

حققه وزاد فى تفصيله وضبطه وشرحه

محمد محيي الدين عبد الحميد

الجزء الأول

دار الجيل

للنشر والتوزيع والطباعة

بيروت - لبنان

ص. ب. ٨٧٣٧



الطبعة الرابعة

مقدمـــة الناشر

احياء التراث العربي، بتحقيقه تحقيقاً علمياً دقيقاً وضبطه وشرح ما غمض من معانيه ومراجعة نصوصه الأصلية؛ مهمة جليلة ومسؤولية بالغة تصدى لها العديد من أكفأ وأخلص رجالات الأدب في عصرنا الحاضر، وفي طليعتهم الدكتور زكي مبارك.

.. إن تحقيق هذه الروائع الأدبية وشرحهـا رسالة سامية ... وكذلك نشرها وتقديمها إلى القارىء العربي بالصورة اللائقة؛ رسالة يتصدى لحملهـــا الناشر الواعي لأهمية تراثنا العربي المقدّر لقيمته، الحريص على إغناء الثقافة العربية، والبــاذل لكل جهد مهما عظم في سبيل تقديم روائع القديم في أبهى وأحدث حلة تبويباً وإخراجاً وطباعة.

بين روائع التراث العربي يتألق كتاب «زهر الآداب، وثمر الألباب» كالدرة النادرة، وقد زاد من قيمته جهدٌ لا يقـــارن به جهد بذله الأديب العملاق، الدكتور زكي مبارك في تحقيقه وضبطه وشرح نصوصه.

كتاب «جمَع كلّ غريبة». بل خزانة من خزائن الأدب العربي عامرة بأخبار الأدب والأدباء، حافلة بألوان البلاغة والشعر والانشاء وبكل مـا يصور بصدق العصر الذي عاش فيه مؤلفه أبو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني في القرن الخامس الهجري، ويبين بوضوح العادات الاجتماعية التي كانت محمودة في عصره؛ حتى أن دارس الآداب المهتم بذلك العصر ليكتفي بدراسة هذا الكتاب كمرجع رئيسي شامل.

لذلك العصر من حياة الأدب طابع خاص ، أظهر سماته إجادة الوصف ؛ وصف مـــا تقع عليه العين من مرئيات أو ما يجري في الخاطر من أفكار ، بل ووصف أهواء النفس ونزعاتها الوجدانية ، وصفاً مفصلاً مقصوداً ، حتى أصبح العصر غنياً إلى درجة مميزة بالتعـــابير الرائعة الناضجة في معظم أبواب الوصف . . يرافقها تنظيم كامل للأفكار ، مما يعوّد القارىء تذوّق الاسلوب البديع ويحبب اليه النثر الجيد وأصوله الفنية .

اننا إذا قسنا أعمال أدباء ذلك العصر بالمقاييس العصرية لانطبق عليهـــا مفهوم النظرية الحديثة « الفن للفن » . . فقد عرفوا اللغة معرفة جيدة حتى وقفوا على أسرارها وطرائق تعبيرها ، فجمعوا شتاتها لتصبح طوع أفكارهم وأقـــلامهم في نتاج منسّق متكامل .

وان دار الجيل التي تعتز بما قدمت من كتب التراث.. كتاب « العمدة » لابن رشيق تحقيـــق الاستاذ محيي الدين عبد الحميد ، ليزيدها اعتزازاً أن تقدم تباعاً مجموعة أعمال الدكتور زكي مبارك : **النثر الفني** ، **الموازنة بين الشعراء** ، **التصوف الاسلامي** ، **المدائح النبوية** ، **الاخلاق عند الغزالي** . . ودرة هذه الأعمال هذا الكتاب الذي تقدمه الدار اليوم : **زهر الآداب** . .

إنه دائرة معارف أدبية ، لا غنى للقـــارىء الأديب الباحث عن المعرفة والمتطلع الى التزيد من بحور الفنون الأدبية ، عن اقتنائه .

والله الموفق

دار الجيـــــل

مقدمة الطبعة الأولى

الُحصْرى القيروانى ، أبو الحسن الُحصْرى ، طرَف من أخباره ، حياته الأدبية ، دَاليته ودالية شوقى ، أبو إسحاق الُحصْرى : شعره ونثره ، طريقته فى التأليف ، التعريف بزهر الآداب ، إغفال المجون ، تهذيب كتب المتقدمين ، رأى الدكتور طه حسين ، تهذيب زهر الآداب ، تفصيله وضبطه وشرحه ، قيمته الأدبية .

الحصرى ، القيراونى

الحصرى — بضم الحاء المهملة ، وسكون الصاد المهملة و بعدها راء مهملة — نسبة إلى الُحصْرِ أو بيعها ، كما ذكر ابن خلكان — والقيروانى : نسبة إلى مدينة القَيْروان .

ويَعْرِفُ تاريخُ الآداب رجلين بهذا الاسم ، أولهما :

أبو الحسن الحصرى

وأبو الحسن هذا هو: على بن عبد الغنى، الفِهْرِى، المقرىء ، الضرير، القيروانى، وقد كان — كما ذكر ابن بَسّامٍ فى الذخيرة — بَحْرَ بَرَاعة ، ورأس صناعة ، وزعيم جماعة .

طرأ على الأندلس — كما قال ابن بسام أيضا — فى منتصف المائة الخامسة من الهجرة ، بعد خراب وَطنه من القيروان ، والأدبُ بأفق الأندلس يومئذٍ نافقُ السّوق ، معمور الطريق ، فتهاداه ملوكُ الطوَائف تهَادِىَ الرياض بالنسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأُنس المقيم .

ولكنه ، فيما نُقِل ، لم يطمئن هناك ، فاحتمل على مُضَض بَيْنَ زمانه ،

وبُعْدِ قُطره ، ثم اشتملت عليه مدينةُ طَنْجَةَ بعد خلع ملوك الطوائف ، وتُوُفى بها سنة ٤٨٨ هجرية .

طرف من أخباره

ذُكِر أنه لما كان مقيما بمدينة طَنْجة أرسل غلامَهُ إلى المعتمد بن عبّاد صاحبِ إشبيليّة ، واسمها فى بلادهم حِمْص ، فأبطأ عنه ، وبلغه أن المعتمد لم يَحفِلْ به ، فقال :

نَبِّه الرَّكْبَ الهُجُوعا ۞ وَلُمِ الدَّهْرَ الفَجُوعا(١)
حِمْصُ الجنَّة قالت ۞ لغلامى : لا رُجوعا
رَحِمَ اللهُ غلامى ۞ مات فى الجنة جُوعا

وهذه الأبيات غاية فى خفة الروح .

وحُكى أن المعتمد بن عباد بعث إلى أبى العرب الزبيدى خمسمائة دينار ، وأمره أن يتجهز بها ويتوجَّهَ إليه . وكان بجزيرة صِقِلّية وهو من أهلها ، وبعث مثلها إلى أبى الحسن الحُصْرى ، وهو بالقيروان ، فكتب أبو العرب :

لا تَعْجَبَنَّ لرأسى كيف شاب أسًى ۞ وأعجبْ لأسْوَدِ عينى كيف لم يَشِبِ
البحر للرُّوم لا يجرى السَّفِينُ به ۞ إلا على غَرَرٍ والبَرّ للعرَب

وكتب له الحُصْرى :

أمَرْتَنِى بِرُكوب البحر أقْطَعُهُ ۞ غيرى،لك الخير،فاخْصُصْهُ بذا الداء
ما أنت نوحٌ فتُنجِينى سفينتهُ ۞ ولا المسيحُ أنا أمشى على الماء

حياته الأدبيـة

ذكروا أنه كان عالماً بالقراءات وطُرُقِهَا ، وأنه أقرأ الناس القرآنَ الكريمَ

---
(١) فى الطبعة السابقة « ولم الدهر » (م) .

بسَبْتَةَ وغيرها ، وأن له قصيدة نظمها فى قراءات نافع ، عَدَدُ أبياتها ٢٠٩ ، وأن له ديوان شعر ، وهو القائل :

أقول لهُ وقــد حيَّا بكأسٍ لها من مِسْكِ رِقَّتِهِ خِتَامُ :
أمِنْ خَدَّيك يُعْصَر؟ قال: كلا متى عُصِرَتْ من الورد المدَامُ ؟

وأشهر قصائده تلك الدالية التى أُفتنَّ فى معارضتها الشعراء[١] ولنذكرها هنا لقيمتها وأثرها فى تاريخ الآداب العربية ، قال :

يالَيـل الصبّ متى غَدُهُ أقيــامُ الساعةِ موعدُهُ
رَقَدَ السُّمَّارُ وأرّقَهُ أسَفٌ للبين يُرَدِّدُهُ
فبكاهُ النَّجْمُ ورقّ لهُ ممـا يرعاه ويَرْصُدُهُ
كلِفٌ بغزالٍ ذى هَيَفٍ خَوْفُ الواشينَ يُشَرِّدُهُ
نصَبَتْ عينايَ لهُ شَرَكاً فى النوم فعزّ تَصَيُّدُهُ
وكَفَى عجَباً أنى قَنِصٌ للسِّرْب سَبَانِى أغْيَدُهُ
صَنَمٌ للفتنة مُنْتَصِبٌ أهواه ولا أتَعَبَّدُهُ
صــاحٍ والخمر جَنَى فَمِهِ سكرانُ اللحظ مُعَرْبِدُهُ
يَنْضُو من مُقْلَتِهِ سَيفاً وكأنَّ نُعَاساً يُغْمِدُهُ
فيريقُ دَمَ العشاقِ به والويلُ لمن يَتَقَلَّدُهُ
كَلاَّ لا ذنبَ لمن قتَلت عيناه ولم تَقْتل يَدُهُ
يامن جَحَدَتْ عيناه دَمِى وعلى خدّيهِ تَوَرُّدُهُ
خدّاك قدِ اعترَفا بدمى فعلامَ جُفُونُك تجحدُهُ
إنى لأُعيذك من قتْــلِى وأظنك لا تتعمّدُهُ

---

(١) تجد هذه المعارضات فى مجموعة صغيرة نشرها الأديب محيى الدين افندى رضا سنة ١٩١٩

بالله هَبِ المشتاق كرًى ... فلعلّ خيالك يُسْعِدُهُ
ماضرّك لو داويتَ ضَنًى ... صَبٍّ يُدْنيكَ وتُبعِدُهُ
لم يُبْقِ هواكَ لَهُ رمَقاً ... فَلْتَبْكِ عليه عُوّدُهُ
وغداً يَقضى أو بعد غدٍ ... هل من نَظَرٍ يتزوّدُهُ؟
يا أهل الشوق لنا شَرَقٌ ... بالدمع يفيض مورّدُهُ
يهوَى المشتاق لقاءكمُ ... وصُرُوفُ الدهر تُبعِّدُهُ
ما أحلى الوصل وأعذبَهُ ... لولا الأيام تنكّدُهُ
بالبين وبالهِجران فيا ... لَفؤادى كيف تجلُّدُهُ

وممن عارض هذه القصيدةَ من المتقدمين نجمُ الدين القمراوى إذ يقول:

قد ملّ مريضَك عُوّدُهُ ... ورَثَى لأسيركَ حُسَّدُهُ
لم يُبقِ جفاكَ سِوَى نفَسٍ ... زفراتُ الشوق تُصَعِّدُه
هاروت يُعنعِنُ فن السحـ ... ـر إلى عينيك ويُسْنِدُهُ
وإذا أغمدتَ اللحظَ فتكْـ ... ـتَ فكيف وأنت تجرِّدُه
كم سهَّلَ خدُّك وجْهَ رِضاً ... والحاجب منك يُعقِّدُه
ما أشْرَكَ فيك القلبُ فَلِمْ ... فى نار الهجر تُخلِّدُه؟

وناصح الدين الأرّجانى إذ يقول:

هل أنت بِطُولك مُسْعِدُه ... ياليل فَصُبْحكُ موعِدُه
لا كان قصيرَ الليل فتًى ... ميعادُ منيّتهِ غدُهُ
فى صدرى من كَلَفٍ بِكُمُ ... جُنْدٌ للشوق يُجَنِّدُه
أعليلُ اللحظ وعِلّتُه ... منها المتألّم عُوَّدُه
عيناكِ لسفك دمى جَنَتا ... فالصُّدغ علامَ تجعّدُه
ودمى لا يحسن محمله ... فى الناسِ فَلِمْ تتقلّدُهُ
لم أنسَ برامة موقفنا ... والشمل أظلّ تبدُّدُهُ

رَشَأٌ قد أفلتَ من شَرَكى والبين غـــدا يتصيَّدُهُ
سِربٌ قد عنَّ بذى سَلَمٍ وغـدا بفؤادى أغْيَدُهُ
وتطاول يُتْبِعُهم نَظَراً صبٌّ قد طال تبلُّدُهُ
حرّان القلب مُتَيَّمُهُ حيران الطرف مُسَهَّدُهُ

وأبرع مَنْ عارضها من المعاصرين فَخْرُ مِصْرَ والشرق أميرُ الشعراء أحمدُ شوقى (بك) إذ يقول :

مُضْناك جفاهُ مَرْقَدُهُ وبكاهُ ورحَّم عُوَّدُهُ
حيرانُ القلب مُعَذَّبُهُ مقروح الجفن مُسَهَّدُهُ
أودى حُرَقاً إلا رمَقاً يُبْقيهِ عليك وتُنْفِدُهُ
يستهوى الوُرْقَ تأوُّههُ ويذيب الصخر تنهُّدُهُ[١]
ويُناجى النجم ويتبعهُ ويُقيم الليـــلَ ويُقْعِدُهُ
ويعلِّم كلَّ مطوَّقةٍ شَجَناً فى الدَّوح تردُّدُهُ
كم مدَّ لطيفك من شَرَكٍ وتأدَّبَ لا يتصيَّدُهُ
فعساك بغُمضٍ مُسْعِفُهُ ولعلَّ خيالك مُسْعِدُهُ
الحسن حلفتُ « بيوسُفِهِ » و « السورةِ » أنك مُفْرَدُهُ
قد ودَّ جمالك او تبسـ حوراءُ الخلد وأمردُهُ
وتمنّتْ كل مُقَطِّعةٍ يَدَهَا لو تُبْعَثُ تشهدهُ
جحدت عيناك زكىَّ دمى أكذلك خدُّكَ يجْحَدُهُ
قد عزَّ شهودى إذ رمَتَا فأشرت لخدك أشهدُهُ
وهممت بجيدك أشرِكُهُ فأبى واستكبر أصْيَدُهُ
وهَزَزْتُ قوامك أعْطِفُهُ فنبا وتمنّع أملَـــدُهُ[٢]

---

(١) الورق : جمع ورقاء وهى الحمامة (٢) الأملد والأملود : الغصن اللين الناعم

سببٌ لرضاك أُمهِّدُهُ ما بال الخصر يُعقِّدُهُ
بينى فى الحب وبينك ما لا يقدر واشٍ يُفسِدُه
ما بال العــاذل يفتح لى باب السُّلوان وأوصِدُه
ويقول: تــكاد تُجنُّ به فأقول: وأُوشِكُ أعْبده
مولاىَ وروحِى فى يَدِهِ قد ضيَّعها، سَلِمتْ يَدُه!
ناقوسُ القلب يَدُقُّ لهُ وحنايا الأضْلُع مَعْبَدُهُ
حُسَّادى فيــه أعــذرهم وأحقُّ بعذرى حُسَّدُهُ
قَسَماً بثنايا لؤلؤهــا قسم اليــاقوتَ مُنضِّدُهُ
ورُضــابٍ يوعَدُ كوثرَهُ مقتول العشق ومُشْهَدُهُ
وبخالٍ كاد يُحَجُّ لهُ لوكان يُقبَّل أسودُهُ
وقوامٍ يَرْوِى الغصنُ لَهُ نسباً والرمح يُفنِّدُهُ
وبخَصْرٍ أوهنَ من جَلَدِى وعَوَادِى الهجر نبدِّدهُ
ماخنت هواكَ ولاخَطَرَتْ سَلْوَى بالقلب تبرِّدهُ

وإنما ذكرت حياة أبى الحسن الْحُصْرى، وشيئاً من أخباره، لأنى رأيت أكثر الناس يحسبونه صاحب زهر الآداب، ولأنى أحب دائما أن أقدم للقارىء ما يُمتِعُ عقله ووجدَانه من المعارف الأدبية، لأيَّة مناسبة؛ ولأن أبا الحسن الحُصْرى ابن خالة أبى إسحاق الحصرى صاحب زهر الآداب، وفى هذه القرابة ما يدعو للتنويه به فى هذا المقام، والظَّفَر للقارىء على أىّ حال[1].

---

(١) فى كتاب «الموازنة بين الشعراء» فصل مسهب فى الموازنة بين الحصرى وشوقى؛ فليرجع إليه القارىء إن شاء.

أبو إسحاق الحصرى

أما أبو إسحاق الحُصْرى فهو إبراهيم بن على بن تميم، المتوفى سنة ٤٥٣ هجرية وقد عُنى به كثير من كُتّاب التراجم : فتكلم عنه ابنُ رَشِيقٍ فى الأنموذج ، وابن بَسّام فى الذخيرة ، والرشيد بن الزبير فى الجنان ، وابن خلكان فى وَفيَات الأعيان .

وقد كان شباب القيروان — فيما قالوا - يجتمعون عنده ، ويأخذون عنه ، وكان لديهم من المُكْرَمين .

شعره ونثره

أورد ابنُ رشيقٍ من شعره هذين البيتين :

إنى أحِبُّك حُبًّا ليس يبلغُهُ ... فَهْمٌ ، ولا ينتهى وصفٌ إلى صِفتِهْ

أقصى نهاية علمى فيه معرفتى ... بالعَجز مِنّىَ عن إدراكِ مَعْرِفَتِهْ

وأورد له ابن بسّام هذين البيتين :

أورَدَ قلبى الردى ... لامُ عِذارٍ بَدَا

أسود كالكفر فى ... أبيضَ مثل الهدى

واختار له ياقوت هذه المقطوعة :

يا هل بكيت كما بَكَتْ ... وُرْقُ الحمائم فى الغُصُونِ

هتفت سُحيرا ، والربى ... للقطر رافعة الجفون

فكأنها صاغت عَلَى ... شَجْوِى شَجَى تلك اللحون

ذكّرْتَنى عهداً مضى ... للأنس منقطع القرين

فتصرمت أيامها ... وكأنها رَجْعُ الْجُفُونِ

واختار له أيضاً :

كتمتُ هواكَ حتى عيل صبرى وأدتنى مكاتمتى لرمسى
ولم أقدر على إخفاء حال يحول بها الأسى دون التأسى
وحسبك مالك لحظى ولفظى وإظهارى وإضمارى وحسى
فإن أنطِقْ ففيك جميعُ نُطقى وان أسكت ففيك حديث نفسى

ولو نقلت إلينا من شعره طائفة صالحة لاستطعنا أن نعيّن منزلته بين الشعراء .

أما نثره فمُستَملَح ، ويغلب فيه السَّجْعُ المقبول ، الخالص من شوائب الصنعة والتكلف ، والسجع فى الأصل حلية وزينة ، وإنما يعاب عند الغُلُوّ والإغراق .

وإليكم أنموذجاً مما جاء من نثره فى مقدمة كتابه ، قال :

« ولم أذهب فى هذا الاختيار ، إلى مطولات الأخبار ، كأحاديث صعصعة ابن صَوْحان ، وخالد بن صفوان ، ونظائرها ؛ إذ كانت هذه (يريد الفِقَر الصغيرة) أجمل لفظا ، وأسهل حفظا ، وهو كتاب يتصرف فيه الناظر من نثره ، إلى شعره ، ومطبوعه ، إلى مصنوعه ، ومحاورته ، إلى مفاخرته ، ومناقلته ، إلى مساجلته ، وخطابه المبهت ، إلى جوابه المُسكِت ، وتشبيهاته المصيبة ، إلى اختراعاته الغريبة ، وأوصافه الباهرة ، إلى أمثاله السائرة ، وجِده المعجِب ، إلى هزله المطرب ، وجزْله الرائع ، إلى رقيقه البارع » .

وهذا كما ترى سجعٌ يجمع بين دِقَّة الصُنع ، ورِقَّة الطبع ، فهو فى دقته مطبوع ، لا مصنوع .

طريقته فى التأليف

الأدبُ لا موضوعَ له ، كما يقول أستاذنا الجليل الشيخ سيد المرصفى ، وكذلك كان يفهمه أبو إسحاق الُحصْرى ، فهو لا يحفِل بترتيب المسائل ، ولا بتبويب الموضوعات . وإنما يتصرف من الجد إلى الهزل ، ومن الأوصاف

إلى التشبيهات ، ومن الشعر إلى النثر ، ومن المطبوع إلى المصنوع ، وهذه الطريقة من أهم الطُّرُق فى التأليف ، و إن عابها مَنْ لا يفرق بين الموضوعات العلمية ، والموضوعات الأدبية .

ذكروا أنه ترك كتاباً اسمه « المَصُون فى سر الهوى المكنون » فى مجلد واحد ، فيه مُلَح وآداب ، أما كتابه الخالد فهو « زهر الآداب ، وثمر الألباب » و إنه ليسجع حتى فى تسمية كُتبه ، وكذلك كان يفعل فى عهده المؤلفون .

التعريف بزهر الآداب

كان المتقدمون لا يَصِفُونَ زهر الآداب إلا بأنه « جَمَع كلّ غَرِيبَةٍ » وهو وصف صادق ، و إنى ذاكرٌ هنا بعضَ صفات هذا الكتاب ، وعلى الأخص الصفات التى تعين منهج مُؤلِّفه ، وتميز اتجاه بعض الأفكار فى العصر الذى عاش فيه .

و إنا لنجده :

أولا : يهتم ببراعة المطلع ، وحسن الختام ، فيبدأ كتابه بهذه الجملة :

« الحمد لله الذى اختص الإنسان بفضيلة البيان ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، المرْسَلِ بالنور المبين ، والكتاب المستبين ، الذى تحدّى الخلق أن يأتوا بمثله ، فعجزوا عنه ، وأقروا بفضله ، وعلى آله وسلم تسليما كثيراً »

و يختمه بهذه العبارة :

« وقال ابن الأعرابى : أمدح بيتٍ قاله المحدَثون قول أبى نُواس :

أخذت بحبلٍ من حِبال محمَّدٍ أمِنْتُ به من طارقِ الحدَثان[1] » .

ثانياً : يُعْنَى عنايةً خاصة بالكلام عن الصحابة والتابعين ، فينقل أخبارهم ، و يدوِّن آثارهم ، وكانت هذه فيما يظهر عادة إسلامية ، فى ذلك الحين .

---

(١) فى بعض النسخ الخطية فصل فى صفات الله — عزوجل — ختم به الكتاب وذلك توفيق فى حسن الختام ــ هكذا ، وفى نسخة أن ختام الكتاب فصل فى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم (م) .

ثالثاً : يجعل الكلام في المصيبة بأبناء النبوة باباً من أبواب الأدب ؛ فينقل هذه التعابير :

قد نُعِيَ سَليلٌ من سُلالة النبوة ، وفرع من شجرة الرسالة ، وعضو من أعضاء الرسول ، وجزء من أجزاء الوصيّ والبتول .

تجدّد في بيت الرسالة رُزْء جدد المصائب ، واستعاد النوائب .

إنها لمصيبة تحيّفت جانب الوحي المنزل ، وذكّرت بموت النبي المرسل . إلخ إلخ :

ويتصل بهذا عنايته بأوصاف الأشراف ، كنقله هذه العبارات :

«استقى عِرقه من منبع النبوة ، ورضعت شجرته من ثدى الرسالة ، وتهدّلت أغصانه عن نَبعة الإمامة ، وتبحبحت أطرافه في عَرْصَة الشرف والسيادة ، وتَفَقَّأت بيضته من سُلالة الطهارة ، قد جذب القرآن بضَبْعِه ، وشقّ الوحي عن بصره وسمعه » إلخ إلخ .

وهـذا الاتجاه يدل على وجهة سياسية خاصة ، فَصَّلْتُها بعضَ التفصيلِ في كتاب « الأخلاق عند الغزالي » وإلاّ فإن النبي يقول : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» بل الله يقول : « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ » .

رابعاً : يُبْدِىء الحُصْرى ويُعِيد في الكلام عن البلاغة والبلغاء ، والشعر والشعراء ، والإنشاء والمنشئين ، وكذلك كان أهـلُ عصره يهتمون بدر النثر والشعر، ونحن مَدِينون لهم بمايتصل بهذا الباب من المعارف الأدبية .

خامساً : يذكر كثيراً من الآداب الاجتماعية التي كان يحمدها الناس لعهده، فيذكر مايجمل في معاملة الملوك ، ويتحدث عن فضل الليل ، والحرص على الأدب، وواجب النُّسّاخ ، وما إلى ذلك ممـا يتصل بما على المرء من الواجبات . وما له من الحقوق .

١٧

إغفال المجون

وقد جرى أبو إسحاق الحصرى فى زهر الآداب على إغفال المُجُون ، فنجده يقول عن راشد بن أرشد :

« وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره ، وصُنتُ الكتاب عن ذكره » .

وقد صرحت بإنكار هـذا المنهج فى « مدامع العشاق » و بينت هناك أن حرص الُحصرى على الأخلاق ضيّع علينا ما أعرض عنـه من الآثار الأدبية ، وكنا فى حاجة إلى أن نعرف كل ماترك الأولون !

وأحب أن يعلم القارىء أن المجون لون من ألوان الغذاء التى تحيا بها العقول، فـكما أن الأجسام تحتاج فى تغذيتها إلى المواد المختلفة ، والعناصر المتنوعة : من المِلْح ، والُحلو ، والمرّ ، كذلك العقولُ تحتاج فى تغذيتها إلى المعارف المتباينة : من جِدّ القول وهَزْله ، وحُلوهِ ومُرِّه ، ولـكنّ أكثر الناس لا يفقهون !

على أن الحصرى لم يُخْلِ كتابه من المجون ، بل ومن فاحشِ المجون ، وللقارىء أن يتتبع ما وقع من ذلك فى ألفاف الـكتاب ليرى كيف غُلِب لمؤلف على أمره ، فأباح ما لا يباح !

تهذيب كتب المتقدمين

يهتم كثير من علماء العصر بتهذيب كتب المتقدمين ، وهــــذا التهذيب ينحصر فى حذف المجون وضم بعض الموضوعات إلى بعض ، وأنا أنــكر هــذا الأسلوب ، والعهد قريب بمـا كتبه أستاذنا الدكتور طه حسين فى نقد مهذّب الأغانى الذى أظهره الأستاذ الـكبير محمد بك الخضرى منذ أسابيع ، ويرجَّح أن يترك المعاصرون هـذه الطريقة المنكرة ، بعد تلك الحملة التى أصابهم بها صاحب حديث الأربعاء .

تهذيب زهر الآداب

ولقد رأيت أن أترك تلك الطريقة فى تهذيب زهر الآداب ؛ لأن المؤلف لم يرد أن يكون كتابه ذا فصول وأبواب ، وإنما أراد أن يتصرف القارىء فيه من الشعر إلى النثر ، ومن الجد إلى الهزل ، إلى آخر ما قال .

وقد ظلّ بين يدىّ نحو تسعة أشهر ، وأنا معتقل فى سنة ١٩٢٠ ، فقرأته ، ثم قرأته ، وعُنيتُ بضبطه ، وتصحيح ماوقع فيه من الأغلاط ؛ ثم رأيت أن أفصله ، والتفصيل فيما أريد سو أن أضع عنواناً لكل موضوع ، وما أكثر ما فى الكتاب من الموضوعات ؛ لأن المؤلف وضع قليلا من العناوين ، ثم أخذ يستطرد من معنى إلى معنى ، ومن غرض إلى غرض ، من غير أن يهتم بالترتيب والتبويب.

وأرجو أن لايجد القارىء فى هذا الصُّنع تشويها لعمل المؤلف فقد أبقيت الكتاب كما هو ، وأبقيت على عناوينه وأبوابه ، وفِقَرِهِ وفصوله ، ووضعت ماأبدعت من العناوين فى بُنْط خاص ، فإذا شاء القارىء أن يعرف كيف وَضع الكتابَ مؤلفه فليرفع فقط ماجَدّ منَ العناوين .

أهمية هذا التفصيل

على أننى مطمئن إلى ماصنعت ؛ فقد كان الكتاب متقاذف الأرجاء ، بسبب ما كثر فيه من الاستطراد ، فأصبح بفضل هذا التفصيل، محدود الموضوعات، بحيث يهتدى فيه القارىء إلى مئات المسائل الأدبية ، من غير أن يكلف نفسه عناء البحث والتنقيب .

ولم أحجم عن تكرار العنوان الواحد حين يقتضى المقام ذلك ، وربما أضفت كلة يتميز بها العنوان الجديد[1] .

الضبط والشرح

كان زهر الآداب مطبوعا على هامش العقد الفريد[2] ، من غير ضبط ولا شرح ، وكان يكفى أن يطبع الكتاب طبعة أزهرية ليصبح مثالا فى المسخ والتشويه ، ولتَقْذَى فى قراءته العيون ، وتضل فى فهمه العقول ؛ فأنفقت من جُهْدى ومن وقتى ، فى تحقيق ماجناه مَرُّ السنين وعَبَثُ الجاهلين ، ما لا أمُنُّ به على القارىء إلا وأنا آسفٌ محزون ؛ لأنى مَدِينٌ لمن طبعوه أولَ مرة على أىّ حال ، أحسن الله جزاءهم ، وتجاوز عمّا رماهم به الزمن من ألوان الضعف والقُصُور .

فى الطبعة القديمة كثيرٌ من الأغلاط ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان الأدب يوم ظَهَرَتْ قليلَ الأنصارِ ، وقد اعتمدت فى ضبط هذه الطبعة على مراجعة الأصول التى أخذ منها زهر الآداب ، وعلى ما أثق به من مختلف المعاجم والقواميس ، فإن استطاع القارىء أن يلفتنى إلى خطإ فاتنى إصلاحه ، فإنى بشكره خليق .

---

(١) قد اتخذنا خطة أخرى فى هذه الطبعة سنتحدث عنها بعد (م)

(٢) وطبع نصفه مستقلا فى المطبعة الوهبية ، بدون تأريخ (م)

أما الشرح فقد اجتهدت فى أن يكون غاية فى الإيجاز ؛ لأن الإطناب فى شرح الكتب الأدبية من جملة العيوب ، وقد تمر الصفحة بلا شرح ، حين تستغنى عن ذلك ؛ لأنى أمقت التكلف ، وأُبغِض المتكلّفين .

وقد قسمت الكتاب إلى أربعة أجزاء ، وكان المؤلف قسمه إلى ثلاثة ، وهى مسألة اعتبارية ؛ لأن الكتاب فى الأصل مبنى على التنقل والاستطراد .

قيمة زهر الآداب

كان المتقدمون يُعْنون بدراسة الكامل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، والنوادر لأبي على القالى ، وكانت هذه الكتبُ أصولَ الأدبِ عندهم كما ذكر ابن خلدون ، وعندى أن زهر الآداب أغزر مادةً ، وأكبر قيمةً من جميع تلك المصنّفات ؛ لأن ذوق الحُصرى ذوقٌ أدبيٌّ صِرْف، أما أولئك فقد كانت أهواؤهم موزعةً بين اللغة ، والرواية، والنحو، والتصريف .

إن زهر الآداب دائرة معارف أدبية ، شاء الله أن تسلم من جناية الليالى والحمد لله على أن كنت المُوَفَّق إلى إحياء هذا الأثر النفيس .

محمد زكى عبد السلام مبارك

٢٢ فبراير سنة ١٩٢٥

مقدمة الطبعة الثانية

موضع زهر الآداب ، الوصف عند كتاب القرن الرابع ، نماذج من التعابير الوصفية ، نظرية الفن للفن وقيمة الزخرف والصنعة ، الخصومات الأدبية في القرن الرابع

رأى القارىء فى مقدمة الطبعة الأولى إشاراتٍ إلى الخصائص التى امتاز بها زهر الآداب ، ونريد فى هذه الكلمة أن ننص على أن هذا الكتاب أريد به أن يكون صورة للعصر الذى عاش فيه مؤلفه رحمه الله ، وإنه ليذكر أن أبا الفضل العباس بن سليمان رحل إلى المشرق فى طلب الكتب « باذلاً فى ذلك ماله ، مستعذباً فيه تعبه ، إلى أن أورد من كلام بلغاء عصره ، وفصحاء دهره ، طرائف طريفة ، وغرائب غريبة » ثم سأله أن يجمع له من مختارها كتاباً يكتفى به عن جملتها . وأن يضيف إلى ذلك من كلام المتقدمين ما قارَبه وقارَنه وشابهه وماثله إلخ فغايةُ الكتابِ إذاً تخيُّر ماطاب من ثمرات العقول فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس .

ولنذكر أولا أن الحصرى توفى سنة ٤٥٣ ، ولكننا نرجح أنه وَضَعَ زهر الآداب قبل وفاته بأكثر من عشرين عاماً ، فقد حدثنا فى أثناء كتابه أنه يعاصر الثعالبى : إذ قال «وأبومنصور يعيش إلى وقتنا هذا » حين أشار إلى مختار ما كتبه الميكالى إليه . والثعالبى توفى سنة ٤٢٩ ؛ وإنما عيَّنا أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس لأن الحصرى أشار إلى أن فيمن نقل عنهم مَنْ أدركه بعمره ، أو لحقه أهلُ دهره . ولذلك العهد من حياة الأدب طابع خاص ، فصلت خصائصه ومميزاته فى كتابى الذى وضعته بالفرنسية عن النثر فى القرن الرابع ، وإنى لمشير هنا إلى بعض الجوانب البارزة فى أدب ذلك العصر ؛ ليكون القارىء

على بينة من الروح الذى استوحاه مؤلف زهر الآداب .

أظهر ميزة فى ذلك العصر هى إجادة الوصف ، فقد اهتم كتّابه اهتماماً عظيما بوصف ما وقعت عليه أعينُهم أو جرى فى خواطرهم ، ولم يكن الوصفُ عندهم مما يأتى عفواً عند المناسبات الطارئة ، كما كان الحال فى أوائل العصر الإسلامى ، لا ، بل تعمدوا استقصاء الموضوعات الوصفية : فأطالوا الحديث عن الأزهار ، والرياض، والنبات، والنسيم ، والرياح، والليل،والنجوم ، والجداول ، والغُدْران ، والأنهار ، والبحار ، والأحواض ، والقصور ، ومنازل اللهو ، ومجالس الشراب ، والنساء، والغلمان ، والجوارى السود ، والقيان، وآلات الطرب ، ومحاسن الشباب ، وأهوال المشيب ، والرعدوالبرق، والمطر والثلج ، والصحو،والبلاغة والشعر والنثر ، والخيل ، والسيوف ، والنار ، والأفاعى . والثعابين ، والطيور ، والأطعمة ، والفواكه ، والسكاكين ، والكئوس ، والخواتم ، والحلى ، والقلائد ، والمحابر ، والأقلام ، والسفن ، والدواب ، والجيوش ، والأساطيل ، وأيام الصيف والشتاء والربيع .

وأطنبوا فى وصف المعانى الوجدانية ، كما أطنبوا فى وصف المرئيات ، فتكلموا عن أهواء النفوس ونزعاتها ، فوصفوا الحقد ، والبغض ، والكرم ، والنبل ، وعرضوا لما يقع لأهل المهن وللرؤساء من الهَنَات والعورات . كل ذلك بطريقة مقصودة تدل على أنه كان لهم برنامج خاص لم يعرفه أسلافهم . وهذا المذهب له عيوبه ومزاياه : فعيبه أنه حملهم على التكلف والإسراف ، وحسنه أنه حملهم على تنظيم أفكارهم ، وترتيب أغراضهم ، فإن القارىء يرى لهم قوة فى تصوير المرئيات والمعنويات لا يراها لمن سبقوهم ، وذلك بفضل هذا الاتجاه الذى جعل فى عصرهم مدرسة وصفية لا نراها فى عصر الخلفاء ولا عهد بنى أمية ولا أوائل أيام بنى العباس .

ولا ننكر أن الكتّاب السابقين أجادوا الوصف فى كثير من الموضوعات

ولكننا نقرر أن كتّاب القرن الرابع عمدوا إلى كل ما يقع عليه الحس ، أو يجرى فى الخاطر ، أو ينقده العقل ، فوصفوه وصفا مفصلا مقصوداً بطريقة لم يفكر فى مثلها المتقدمون .

* * *

وقد قدم لنا صاحب زهر الآداب شواهد كثيرة فى مواطن متفرقة من كتابه عن الأوصاف التى عُنى بها كتابُ ذلك العصر . فلنثبت منها شيئا ليرى القارىء صدق ما نراه من قصد رجال ذلك العهد إلى إجادة الوصف .

من ذلك قولهم فى وصف الماء :

ماء كالزجاج الأزرق .

غدير كعين الشمس .

ماء كلسان الشمعة ، فى صفاء الدمعة ، يسبح فى الرَّضْرَاض ، سبح النَّضْنَاض .

ماء أزرق كعين السِّنور ، صاف كقضيب البلور .

غدير ترقرقت فيه دموع السحائب ، وتواترت عليه أنفاس الرياح الغرائب .

وقولهم فى وصف سكين :

« سكين كأن القَدَرَ سائقُها ، أو الأجَلَ سابقُها ، مُرهَفة الصدر ، ممنْطَقَةُ الخصر ، يجول عليها فرند العِتق ، ويموج فيها ماء الجوهر ، كأن المنية تبرق من حدها ، والأجل يلمع من متنها ، رُكِّبت فى نصاب آبنوس ، كأن الحدق نفضت عليه صبغها ، وحب القلوب كَسَتْهُ لباسها ، أخذ لها حديدها الناصع بحظ من الروم ، وضرب لها نصابها الحالك بسهم من الزنج ، فكأنها ليل من تحت نهار ، أو مجمر أبدى سنا نار ، ذات غِرار ماض ، وذُباب قاض .

سكين أحسن من التلاق ، وأقطع من الفراق ، تفعل فعل الأعداء ، وتنفع نفع الأصدقاء » .

وقولهم فى وصف متكبر :

« قد أسكرته خمرة الكبر ، واستغرقته لذة التيه ، كأن كسرى حامل غاشيته ، وقارون وكيل نفقته ، و بلقيس إحدى داياته ، وكان يوسف لم ينظر إلا بطلعته ، وداود لم ينطق إلا بنغمته ، ولقمان لم يتكلم إلا بحكمته ، والشمس لم تطلع إلا من جبينه ، والغمام لم يَبْدُ إلا من يمينه » .

وكان من أثر ذلك أن أصبح هذا العصر غنياً جداً بالتعابير الوصفية الرائعة فى أكثر أبواب الوصف . ومَنْ ذا الذى يرتاب فى جمال قولهم فى وصف النثر والنظم مما اختاره صاحب زهر الآداب :

نثر كنثير الورد ، ونظم كنظم العقد .

نثر كالسحر أو أدق ، ونظم كالماء أو أرق .

رسالة كالروضة الأنيقة ، وقصيدة كالمخدَّرة الرشيقة .

نثر كما تفتّح الزَّهر ، ونظم كما تنفّس السَّحَر .

وقولهم فى أوصاف النساء :

هى روضة الحسن ، وضَرة الشمس ، و بدر الأرض .

هى من وجهها فى صباح شامس ، ومن شعرها فى ليل دامس ، كأنها فلقة قمر على بُرج فضة .

بدر التِّم يضىء تحت نقابها ، وغصن البان يهتز تحت ثيابها .

لها عنق كإبريق اللجين ، وسرة كمدهن العاج .

مطلع الشمس من وجهها ، ونبت الدر من فمها ، وملقط الورد من خدها ، ومنبع السحر من طرفها ، ومبادى الليل من شعرها ، ومغرس الغصن من قدها ، ومهيل الرمل من ردفها . . . إلخ .

وقولهم فى صفات الغلمان :

جاءنا فى غِلالة تنمّ على ما يستره ، وتحنو مع رقتها على ما يظهره .

الجنة مجتناة من قربه ، وماء الجمال يترقرق فى خده ، ومحاسن الربيع بين سَحْرِه وَنحْرِه ، والقمر فضلة من حسنه .

له طُرّة كالغَسَق ، على غُرة كالفلَق .

الحسن ما فوق أزراره ، والطيب ما تحت إزاره .

هو قمر فى التصوير ، وشمس فى التأثير .

وجه بماء الحسن مغسول ، وطرف بمِرْوَدِ السحر مكحول

شادنٌ فاترٌ طرفُه ، ساحرٌ لفظه ، تكاد القلوب تأكله ، والعيون تشربه .

السحر فى ألحاظه ، والشَّهد فى ألفاظه .. إلخ .

ولقد ظلت هذه التعابير الوصفية منبعاً يستقى منه الكتّاب إلى العصر الحديث ، والنقاد فى مصر أُعجبوا بقول حافظ إبراهيم فى وصف الصهباء :

خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى يوم عرس

وهو خيال سبق إليه كتاب القرن الرابع ، ورّدده ابن خفاجة إذ قال :

وشربتها عذراء تحسب أنها معصورة من وَجْنَتَىْ عذراء

وقد ظن أستاذنا الدكتور طه حسين أن حافظ إبراهيم أول من ألمّ بهذا[1] الخيال فنقده وسفّهه حين عرض لنقد ترجمة البؤساء . فلينقل المعركة إذن إلى ميدان القرن الرابع ، وإن كنت لا أدرى كيف يعاف الشراب المعصور من خدود الملاح .

وكذلك أعجب النقاد بقول السيد توفيق البكرى فى وصف النساء

« صدور كالإغريض ، أو صُدُور البُزَاة البيض »

---

(١) الذى أذكره أن أدباء مصر ذهبوا إلى أن حافظا امتاز بذكر قيد « فى يوم عرس » فأما أصل التشبيه فما أحسب أنه غاب عنهم أن حافظا مسبوق به ،وإنما خص يوم العرس لكثرة مايغطى الحسان فيه وجوههن بالأصباغ وألوان التحاسين . ولهذا مدخل فى التشبيه (م) .

وهى عبارة مأخوذة من قول الثعالبى فى وصف آثار السرى الرفاء :

«كأنها أطواق الحمام ، وصدور البزاة البيض ، وأجنحة الطواويس ، وسوالف الغزلان ، ونهود العذارى الحسان ، وغَمَزَات الحدق الملاح »

وكذلك يمكن رد أكثر التعابير الوصفية التى يُغرم بها كتابُ الصنعة فى العصر الحاضر من امثال الأساتذة : صادق عنبر ، ومحمد السباعى ، ومحمد هلال

وكان القرن الرابع يؤدى للقرون التى تلته ما أخذه عن القرون التى سبقته ، فقد كان كُتّابه مولَعين بحل الشعر لا يرون معنى بديعاً ، ولا حيالا طريفاً إلا اقتبسوه ، وأضافوه إلى ثروتهم النثرية

وقد أشاع كتاب القرن الرابع نظرية (الفن للفن) وإن لم يدركوا ما لهذه النظرية من الأوضاع والتقاليد ؛ فقد عودوا القراء تذوق الكتابة البديعة ، وحببو إليهم النثر المصنوع ، فأصبح المتأدبون يتأملون مواقع الألفاظ وقرار التراكيب ، وصارت فنون البديع من تورية وجناس وطباق أصولا فنية يجد القارىء لذة ومُتعة حين يراها وقعت موقعاً حسناً وأصابت الغرض الذى وضعت له ، ولو كان غرضاً لفظياً لا يتوقف عليه تمام المعنى المقصود

* * *

ولكن أليس لهذا الزخرف قيمة فى فهم ذلك العصر ؟ بلى ، إنه يدلنا على أن أولئك الناس عرفوا لغتهم معرفة جيدة ، ووقفوا على أسرارها وطرائق تعبيرها ، وكان همهم أن يرتبوا الألفاظ والمعانى والتعابير والأخيلة ، حتى استطاع كاتبهم أن يحشر أرباب الصناعات فى صعيد واحد ثم ينطقهم بأسرار البلاغة ، كل على طريقته وبأسلوبه الذى يختاره فى مقر مهنته ومهد عمله . وما نحسب كتاب القرون الأولى مثلا كانوا يفكرون فى جمع شتات اللغة لتصبح طوع أفكارهم وأقلامهم ، وإنما كانوا قوما يكتفون فى سبيل الوصول إلى أغراضهم بالعبارة

الواضحة الموجزة التى يفهمها عامة الناس وخاصتهم . أما كتاب هـذا القرن فقد أصبحوا فى حاجة إلى صفوة تقرأ لهم وتفهم عنهم ؛ إذ أصبح خيالهم قويا ، ولغتهم غنية ، لايدرك أسرارها الجمهور ؛ فليس كل قارىء ولا كل سامع بمستطيع أن يتذوق تشبيه الخط الجميل بأزهار الربيع ، والألفاظ بقلائد النحر، والمعانى بلآلىء ، ولا أن يدرك كيف تتمنى كل جارحة أن تكون أذنا تلتقط درر الكلام وجواهره ، أو عينا تجتلى مطالعه ومناظره ، أو لسانا يدرس محاسنه ومفاخره .

إذن فالصنعة التى عُرف بها كتاب القرن الرابع لها وجهان : وجه جميل يدل على حذقهم وبراعتهم ، ووجه آخر يدل على بعدهم من غاية البيان وهى الوضوح ، إذ كان الإغراق فى الصنعة بابا من الغموض

* * *

ومن أهم الجوانب التى تمثل الحياة العقلية فى ذلك العصر الخصومات العنيفة التى قامت بين الكتاب ؛ فقد كانت بينهم مناوشات ومجادلات نشأت عن أطماعهم فى الحياة المادية ، وكانوا يمثلون غالبا طوائفَ من الأفكار الدينية والسياسية يقومون فى الدفاع عنها بما تقوم به الجرائد المغرضة فى العصر الحاضر ، وكان لهم من القوة ما كان للشعراء ؛ فلم يكن بد من أن يتنافس أصحاب الملك فى تقريبهم ، ولم يكن بد كذلك من أن يتنافس هؤلاء فى الاستئثار بالحظوة عند الوزراء والرؤساء والملوك

وفى الرسالة التى كتبها بديعُ الزمان إلى أبى نَصْر بن المرزبان فقَرَاتٌ مُرة تمثل ما كان عليه كتاب ذلك العصر من الطمع فى المناصب الرسمية ومن ضعف الخلق عند الغنى ، ومن النُّبل عند الفقر : إذ « تنسيهم أيامُ اللدونة ، أوقاتَ الخشونة ، وأزمان العذوبة ، ساعات الصعوبة » وقد كانوا كما قال : « ما اتسعت دورهم ، إلا ضاقت صدورهم ، ولا أُوقدت نارهم إلا انطفأ نورهم ، ولا زاد مالهم إلا ؛

معروفهم ، ولاوَرِمَتْ أكياسُهم إلا ورمت أنوفهم ، ولا صلحت أحوالهم ، إلا فسدت أعمالهم ، ولافاض جاهم، إلا غاضت مياههم ، ولالانت بُرُودهم ، إلا صلبت خدودهم »[١]

وفى تلك المنافسات الشديدة ، وتلك الدسائس الملعونة ، التى كانت تقع بين الكتاب ، دليلٌ على جَشَعهم فى حب الحياة ، وفهمهم لها فهما ماديا يتناسب مع تلك العبقريات الفنية التى ظهرت فى فقَرِهم ورسائلهم وأبحاثهم ؛ فإنه من المؤلم أن تظل قوة الحقد ويقظة الأثَرَة ، وشدة العداوة ، فى كل عصر من السِّمَاتِ الغالبة على كبار الكتاب ، ومن النادر أن تجد كاتبا كريما يعطف على زملائه ، ويحب لهم الخير ، ويتمنى لهم السَّداد . وقديما أفزعت هذه الظاهرة عبدَ الحميد بن يحيى — وكان رجلا نبيلا — فكتب وصيته المعروفةَ يدعو بها الكتابَ إلى التعاون ونبذ الأحقاد ، وفى أيامنا تُبعث تلك الشمائل من جديد ؛ فلا نجد كاتبا فى العالم العربى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بحيث نظن أن شبوب العبقرية يوحى بالطمع ، والاستبداد بالفضل ، والاستئثار بالجاه

وأهم الخصومات التى وقعت بين كتاب ذلك العصر خصومة الهمذانى والخوارزمى ، وخصومة التوحيدى والصاحب بن عباد

أما خصومة الهمذانى والخوارزمى فترجع إلى رغبة الهمذانى فى الظهور ، وطمعه فى الانفراد بالشهرة ، وأهم مصدر لهذه الخصومة الرسالة المطولة التى كتبها الهمذانى فى وصف المناظرة التى قامت بينه وبين الخوارزمى ، وهى رسالة مغرضة مملوءة بالتحامل والصَّغَرنة ، وليس فيها أفكار جدية تجعل خصومة بين عقلين ، إنما هى محاورات لفظية تدل على غلبة الزخرف وتمكنه فى السيطرة على عقول أهل

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٤٥

ذلك الجيل . ولو أن الخوارزمى دوّن بدوره تلك المناظرة لرأينا وجهين فى بَسْطِ ذلك الحادِث الأدبى ، واستطعنا أن نستخلص من مقابلة النصين نفس الرجلين ، ولـكن الهمذانى تـكلم وحده ؛ فعرفنا فقط مبلغ زهوه وكبريائه وطمعه فى كَبْتِ كاتب كان يومئذ على رأس الـكاتبين .

أما خصومة التوحيدى لابن عباد فترجع فيما ذكر كتاب التراجم إلى سبب مادى ، وذلك أن التوحيدى رَغِبَ فى مال ابن عباد وجاهه ، فضاق عنه صدر هذا ، فـكتب التوحيدى كتابه « أخلاق الوزيرين » وهو كتاب جارح كشف به عورات ابن العميد وابن عباد . ثم عاد إليهما بالتجريح أيضا فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » وأسلوبُهُ فى الهجاء أسلوب خطر فظيع ؛ إذ يختلق الحوادث والإشارات وينطقهما برسائل ومقطوعات تهوى بهما إلى الحضيض . ويعتبر التوحيدى من الوجهة الفنية رجلا خصب الذهن ، غنى اللغة ، وافر المحصول ، قوى الخيال .

وقد تنبه المتأدبون إلى تحامل التوحيدى وإسرافه فى التعصب والتحامل وشاع الاعتقاد بأن كتابه « أخلاق الوزيرين » كتاب مشئوم ، لايملكه أحد إلا انعكست أحواله ، ويذكر ابن خلكان أنه جرب هذا وجر به مَنْ يثق به[1] فإذا صح هذا الوهم كان التوحيدى قد عوقب على بغيه وظلمه وبهتانه ؛ فقد أنطر الصاحب بن عباد بعباراتٍ مخجلة يَنْدَى لها وجه القـارى ، وينفر منها الطبع والذوق ، وإن كانت وضعت بأسلوب شائق خلاب .

* * *

---

(١) ارجع إلى « وفيات الأعيان » ج ٢ ص ٢٧٠

تلك ، أيها القارىء ، كلمة وجيزة أقدم بها الطبعة الثانية ، راجيا أن تكون كافية فى وصف الاتجاهات الفنية والعقلية التى عمل فى ظلالها مؤلف زهر الآداب، وإنى لآمل أن يكون فى هذه الطبعة من آثار الجهد والحرص على الصواب بعض ما يجب فى خدمة الأدب العربى الذى أصبح إحياؤه ونشره من أظهر محامد مصر فى العصر الحديث .

زكى مبارك

مصر الجديدة فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى اختصَّ الإنسانَ بفضيلةِ البيانِ ، وصلى الله على محمدٍ خاتمِ النبيين ، المرسلِ بالنور المبين ، والكتابِ المستبين ، الذى تحدَّى الخَلْقَ أن يأتُوا بمثله فعجزوا عنه ، وأقرّوا بفَضْلِهِ ، وعلى آله وسلم تسليما كثيراً .

وبعد ؛ فهذا كتابٌ اخترتُ فيه قطعةً كاملةً من البلاغات ؛ فى الشعر والخبر، والفصول والفِقَر[1] ، مما حسُن لفظُهُ ومعناه ، واسْتُدِلَّ بِفَحْوَاهُ على مَغْزَاهُ[2] ، ولم يكن شارداً حُوشِيًّا[3] ، ولا ساقطاً سُوقِيًّا[4] ، بل كان جميع مافيه ، من ألفاظه ومعانيه ، كما قال البحترى[5] :

فى نظامٍ من البلاغةِ ماشَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ نِظَامُ فَرِيدِ[6]
حُزْنَ مستعمَلَ الكلامِ اختياراً وتجَنَّبْنَ ظُلْمَةَ التعقيدِ
وركِبْنَ اللفظَ القريبَ فأدركْـ ـنَ به غايةَ المرادِ البَعِيدِ

ولم أذهب فى هذا الاختيار ، إلى مطولات الأخبار ، كأحاديث صَعْصَعَةَ

---

(١) الفقر : جمع فقرة ـ بكسر الفاء وفتحها ـ وهى فصل أو بيت شعر ، وتقول : ما أحسن فقر كلامه ، أى نكته ، وهى فى الأصل حلى تصاغ على شكل فقر الظهر

(٢) مغزى الكلام : هو المراد منه ، ولحواه : هو مايفهم منه ذلك المراد

(٣) الحوشى : الوحشى ، وقد وصف زهير بأنه كان لا يتتبع حوشى الكلام .

(٤) السوقى : نسبة إلى السوقة ، وهم عامة الناس

(٥) البحترى : شاعر مبدع من شعراء الدولة العباسية ، ولد فى منبج ـ بين الفرات وحلب ـ فى سنة ٢٠٦ وتوفى فى سنة ٢٦٤

(٦) الفريد : هو الدر الذى يفصل بين الذهب فى القلادة المفصلة ، فالدر فيها فريد . والذهب مفرد ، بتشديد الراء .

ابن صُوحَان(١) ، وخالد بن صَفْوَان (٢) ، ونظائرها ؛ إذ كانت هذه أجملَ لفظاً ، وأسهلَ حفظاً .

منهج المؤلف في الكتاب

وهو كتابٌ يتصرَّف الناظرُ فيه من نثره إلى شعرهِ ، ومطبوعهِ إلى مصنوعه ، ومحاورتهِ إلى مفاخرته ، ومُنَاقَلَتِهِ(٣) إلى مُسَاجَلَتِهِ(٤) ، وخطابه المبهت(٥) إلى جوابه المُسْكت ، وتشبيهاته المُصيبة إلى اختراعاته الغريبة ، وأوصافه الباهرة إلى أمثاله السائرة ، وجِدِّهِ المعجب(٦) إلى هَزْلِهِ المُطْرِب ، وجَزْلِهِ الرائع إلى رقيقه البارع .

وقد نَزَعْتُ فيما جمعت عن ترتيب البيوت(٧) ، وعن إبعاد الشكل عن شكله ، وإفراد الشيء من مِثْلِهِ ؛ فجعلتُ بعضَه مُسَلْسَلاً(٨) ، وتركتُ بعضَه مُرْسَلاً(٩) ؛ ليحصلَ مُحَرَّرَ النَّقْدِ(١٠) ، مُقَدَّرَ السَّرْد(١١) ؛ وقد أخذ بِطَرَفَيِ التأليف ، واشتمل على حاشِيَتَيِ التصنيف ؛ وقد نَعِزُ المعنى ، فألحق الشَّكْلَ بنظائره ، وأعلّق الأول بآخره ، وتبقى منه بقية أفرّقها في سائره(١٢) ليسلَمَ من التطويل المملّ ، والتقصير المخلّ ، وتظهر في التجميع إفادةُ الاجتماع ؛ وفي التفريق لَذَاذَة

---

(١) صعصعة بن صوحان : خطيب بليغ من سادات عبد القيس . شهد صفين مع علي ، ونفاه المغيرة من الكوفة إلى الجزيرة أو إلى البحرين بأمر معاوية ، فمات فيها حوالى سنة ستين للهجرة (٢) خالد بن صفوان : كان من مشاهير الفصحاء وله أخبار مع عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، توفي نحو سنة ١١٥

(٣) ناقل الشاعر : ناقضه ، ورجل نقل بفتح فكسر وذو نقل بفتحتين ، إذا كان جليلا مناقلا (٤) المساجلة : المفاخرة (٥) المبهت : المحير (٦) المعجب : الذي يعجبك جماله (٧) البيوت كالأبيات : جمع بيت (٨) مسلسل : من السلسلة بفتح السين وهي وهي اتصال الشيء بالشيء (٩) مرسل : غير مسلسل (١٠) النقد : الوزن (١١) السرد : النسج ، والتحرير ، ومثله التقدير : الضبط (١٢) سائره : باقيه

الإمتاع ، فيكمل منه ما يُونِقُ القلوبَ والأسماع(١) ؛ إذ كان الخروجُ من جِدٍّ إلى هَزْل ، ومن حَزْن إلى سَهْل(٢) أنفَى للكَلَل(٣) ، وأبعدَ من الملَلِ ؛ وقد قال إسماعيل بن القاسم [هو أبو العتاهية](٤) :

لا يُصْلِحُ النفسَ إذ كانت مُدَابِرةً إلا التنقُّلُ من حالٍ إلى حالِ(٥)

الداعى لتأليف الكتاب

وكان السببُ الذى دعانى إلى تأليفه ، ونَدَبنى إلى تصنيفه ، ما رأيته من رغبة أبى الفضل العباس بن سليمان — أطال الله مُدَّته ، وأدام نعمته! — فى الأدب(٦) ، و إنفاقِ عمره فى الطلب وماله فى الكتب ؛ وأن اجتهادَه فى ذلك حمله على أن ارتحل إلى المشرق بسببها ، وأغمضَ فى طلبها(٧) ، باذلا فى ذلك ماله ، مستعذباً فيه تعبَهُ ، إلى أن أورد من كلامِ بلغاء عصره ، وفصحاء دهره ، طرائف طريفة ، وغرائب غريبة ، وسألنى أن أجمعَ له من مُختارها كتاباً يكْتَفى به عن جملتها ، وأُضيفَ إلى ذلك من كلام المتقدّمين ماقارَبه وقارَنه ، وشابهه وماثله ؛ فسارعتُ إلى مراده ، وأعنته على اجتهاده ، وألَّفتُ له هذا الكتاب ، ليستغنى به عن جميع كتبِ الآداب ؛ إذ كان موشَّحًا من بدائع البديع(٨) ، ولآلىء الميكالى ، وشهىّ الخوارزمى ، وغرائب الصاحب ، ونفيس قابُوس ، وشذور أبى منصور(٩) بكلامٍ يمتزجُ بأجزاء النفس لطافة ، و بالهواء رقة ، و بالماء عذو بة .

---

(١) يونق : يعجب (٢) الحزن : ماغلظ من الأرض ، ويقابله السهل (٣) الكلل : الإعياء ، ومثله الكلال (٤) ديوان أبى العتاهية ٢٢٣ ، وفيه « لن يصلح النفس إذ كانت مدبرة » وفى نسخة « إن كانت مصرفة » (م)

(٥) مدابرة : ذات سأم وملال ، والمدابرة فى الأصل : الهزيمة (٦) فى الأدب : متعلق بكلمة رغبة (٧) أغمض وغمض : ذهب ، وغمض السيف فى اللحم : غاب

(٨) موشح : مرصع (٩) البديع والميكالى والخوارزمى والصاحب وقابوس وأبو منصور : كل هؤلاء أعلام سيورد المؤلف طرفا من منظومهم ومنثورهم ، وهم من رجال القرن الرابع ، وسنذكر تراجمهم حين يعود المؤلف إلى الحديث عن آثارهم الأدبية

وليس لى فى تأليفه من الافتخار ، أكثرُ من حُسْن الاختيار ؛ واختيارُ المرء قطعةٌ من عقله ، تدلُّ على تخلُّفه أو فَضْلِه ؛ ولا شكّ ــ إن شاء الله ــ فى استجادة ما استجدت ، واستحسانِ ما أَوْرَدت ؛ إذ كان معلوما أنه ما انجذبت نفسٌ ، ولا اجتمع حسّ ، ولامال سِر ، ولا جال فِكر ، فى أفضلَ مِن معنًى لطيفٍ ، ظهر فى لفظٍ شريف ؛ فكَسَاه من حسن الموقع ، قبولا لا يُدفع ، وأبرزه يَخْتَالُ من صفاء السبك [ونقاء السّلك] وصحة الدّيباجة ، وكثرة المائية ، فى أجمل حُلة ، وأجلى حلية :

يستنبط الروحَ اللطيف نسيمهُ أَرَجاً ، ويؤكل بالضمير ويُشْرَبُ[١]

وقد رغبتُ فى التجافى عن المشهور ، فى جميع المذكور ، من الأسلوبِ الذى ذهبتُ إليه ، والنحو الذى عوّلتُ عليه ؛ لأن أوّل ما يقرع الآذان ، أَدْعى إلى الاستحسان ، مما مجَّتْه[٢] النفوسُ لطول تكراره ، ولفَظَتْه[٣] العقولُ لكثرة استمراره ؛ فوجدت ذلك يتعذّر ولا يتيسر ، ويمتنع ولا يتّسع[٤] ؛ ويُوجب ترك ماندر إذا اشتهر ؛ وهذا يوجب فى التصنيف دَخَلا[٥] ، ويكسب التأليف خَلَلا ؛ فلم أُعْرِض إلا عما أهانه الاستعمال ، وأَذَاله الابتذال[٦] ؛ والمعنى إذا استدعى القلوبَ إلى حِفْظه ، ماظهر من مُسْتَحْسَن لفظه ؛ من بَارع عبارة[٧] ، وناصع استعارة ، وعُذُوبَةِ موردِ ، وسهوله مَقْصِد ، وحسن تفصِيل ، وإصابة تمثيل ؛ وتَطَابُق أَنْحاء ، وتجَانُس أَجزاء ، وتمكُّن ترتيب ، ولطافة تهذيب ، مع صحَّة طبع وجودة إيضاح ، يثقفه تثقيفَ القِداح ، ويصوره أفضلَ تصوير ، ويقدّره أكمَل تقدير ؛ فهو مشرق

---

(١) يستنبط : يستخرج (٢) مجته : مقتته (٣) لفظته : رمته (٤) يتسع : يسهل
(٥) الدخل والدخل : العيب ، ونخلة مدخولة : عفنة الجوف (٦) أذاله : أهانه
(٧) من إضافة الصفة للموصوف ، أى عبارة بارعة ، وكذلك مابعده

فى جوانب السمع ، لا يُخْلِقه عَوْدُه عَلَى المستعيد[1] :

وهو المُشَيَّع بالمسامع إن مَضَى وهو المضاعف حُسْنُه إن كُرِّرا

وإن كنتُ قد استدركتُ على كثير ممن سبقنى إلى مثل ما جرَيْتُ إليه ، واقتصرت فى هذا الكتاب عليه ، لِمُلَحٍ أوردتُها كنَوَافِثِ السحرِ[2] ؛ وفِقَر نظمتها كالغِنَى بعد الفقْر ، من ألفاظ أهلِ العصر ، فى محاوِل النثر ، ومعقود الشعر ؛ وفيهم من أدركتهُ بعُمْرى ، أو لحقه أَهْلُ دهرى ؛ ولهم من لطائف الابتداع ، وتوليدات الاختراع ، أبكارٌ لم تَفْتَرِعْها الأسماع[3] ، يَصْبُو إليها القلبُ والطَّرْف ، ويَقْطُرُ منها ماءُ المَلاَحة والظَّرفِ ، وتمتزجُ بأجزاء النفس ، وتسترجع نافِرَ الأُنس ، تخلَّلَت تضاعيفَه ، ووشَّحَتْ تأليفه ، وطرّزت ديباجه ، ورصَّعت تاجه ، ونَظَمت عقوده ، ورقمت بُرودَه ؛ فنوْرُها يَرِفّ ، ونُورُها يشِفّ ، فى روضٍ من الكلم مُونِق ، ورَوْنَق من الحِكَم مشرِق :

صفا ونَقَى عنه القَذَى فكأنهُ إذا ما استشفّته العيون مصعّد[4]

فهو كما قلت :

بديعُ نَثْرٍ رقّ حتَّى غَدا يَجْرِى مع الرُّوح كما تجرى
من مُذْهَبِ الوَشْيِ على وجههِ ديباجة ليسَتْ مِنَ الشعرِ[5]
كزهرةِ الدنيا وقد أقبلت تَرُودُ فى رَوْنَقِها النَّضْرِ[6]
أو كالنسيم الغض غِبَّ الحَيَا يَخْتَال فى أردية الفَجْرِ[7]

ولعل فى كثير مما تركتُ ، ما هو أجودُ من قليل مما أدركت ؛ إذ كان اقتصاراً من كلٍّ على بَعْض ، ومن فَيْضٍ على بَرْض[8] ؛ ولكنى اجتهدتُ فى اختيار

---

(١) لا يخلقه : لا يذهب بجدته ورونقه (٢) الملح : جمع ملحة ، وهى الكلمة المستملحة المستعذبة . والنوافث : جمع نافثة ، وهى الساحرة (٣) افترع البكر : فض بكارتها
(٤) تصعد : ارتفع (٥) وشى مذهب : مطرز بالذهب
(٦) ترود : تختال (٧) غب الحيا : عقب المطر (٨) فيض : كثير ، وبرض : قليل

ماوجدتُ ؛ وقد تدخلُ اللفظةُ فى شناعة اللفظات،ويمرُّ البيت فى خِلَال الأبيات، وتعرض الحكايةُ فى عرض الحكايات ، يتمُّ بها المعنى المراد ، وليست مما يُسْتَجاد، ويبعث عليها فَرْطُ الضرورة إليها [فى إصلاح خَلَل] ؛ فمهما تَرَهُ من ذلك فى هذا الاختيار ، فلاتُعْرِضْ عنه بطَرْفِ الإنكار ؛ وما أقلَّ ذلك فى جميع المسالك الجارية فى هذا الكتاب ، الموسوم بـ«زَهْرِ الآداب ،وثمر الألباب» لكنى أردت أنْ أُشاركَ من يخرج من ضيق الاغترار ، إلى فسحة الاعتذار :

ويسىء بالإحسان ظنًّا ،لا كمن يَأْتيك وهو بشِعْرِه مَفْتُونُ[1]

والله المؤيد والمسدّد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

[إنَّ من البيان لَسِحْراً]

الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم بين يدى رسول الله

روى عن عبد الله بن عبّاس ــ رضوان الله عليهما !ــ قال :

وَفَدَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزِّبْرِقَانُ بن بَدْر وعَمْرُو بن الأهتم ؛ فقال الزبرقان : يارسولَ الله ! أناسيدُ تميم ، والمطاعُ فيهم ، والمجابُ منهم ، آخُذُ لهم بحقّهم ، وأمنعهم من الظلم ، وهذا يعلم ذلك ــ يعنى عَمْرا .

فقال عَمْرو : أجَلْ يارسولَ الله ؛ إنه مانعٌ لِحَوْزَته[2] ، مُطَاعٌ فى عشيرته ، شديد العَارِضَة فيهم[3] .

فقال الزبرقان : أَمَا إنه والله قد علم أكثرَ مماقال ، ولكنه حسدنى شَرفى !

فقال عمرو : أما لئن قال ماقال ؛ فوالله ما علمته إلا ضَيّق العَطَن[4] ، زَمِرَ المروءة[5] ، أحْمَقَ الأبِ ، لئيمَ الخالِ ، حديثَ الغِنَى .

---

(١) هكذا حور المؤلف البيت ، وهو لأبى تمام ، ونصه فى الأصل :

ويسىء بالإحسان ظنا لا كمن هو بابنه وبشعره مفتون

(٢) حوزة الرجل : مايحوزه ويملكه (٣) العارضة : البديهة وقوة الكلام

(٤) العطن : المناخ حول الورد ، وضيق العطن : كناية عن البخل

(٥) زمر المروءة ــ بالراء ــ أى قليلها ، وفى نسخة زمن : أى بالى

فرأى الكراهَةَ في وَجْه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا اختلفَ قولُه؛ فقال: يارسول الله؛ رضيتُ فقلتُ أحسنَ ما علمت، وغضبتُ فقلت أقْبَحَ ما علمت، وما كذبت في الأُولى، ولقد صَدَقْتُ في الثانية!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ من البيان لسحرا، وإنّ من الشعرِ لحِكْمَة. ويروى حُكَما، والأول أصح.

والذي روى أهل الثَّبَت، من هذا الحديث أنَّهُ قَدِم رجلان من أهْل المشرق فخطبا؛ فعجِب الناسُ لبيانهما؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ من البيان لسِحْرا، أو إن من بعض البيان لسحرا[1].

ترجمة عمرو ابن الأهتم

وعَمْرو بن الأهتم هو: عَمْرو بن سِنَان بن سُمَيّ [بن سِنَان بن خالد] ابن مِنْقَر ابن عُبيد بن الحارث، والحارث هو: مُقَاعس بن عمرو بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم. وسُمّى سِنان الأهتم لأنَّ قيس بن عاصم المِنْقَرِى سيدَ أهلِ الوَبَرِ ضربه بقوسه فهتَمَ فاه. هـذا قولُ أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة. وقال غيره: بل هُتِمَ فُوه يوم الكُلاب الثاني، وهو يومٌ كان لبني تميم على أهل اليمن. وكان عمرو يلقب المُكَحَّلَ لجماله، وبنو الأهتم أهلُ بيتِ بلاغةٍ في الجاهلية والإسلام. وعبد الله بن عمرو بن الأهتم هو جدّ خالد ابن صَفْوَان وشَبيب بن شَيْبَةَ. وكان يقال: الخطابة في آلِ عَمْرو، وكان شعره حُلَلاً منشَّرَة عند الملوك تأخذُ منه ما شاءت. وهو القائل:

ذريني فإن البخلَ يا أمّ مالكٍ ... لصالحِ أخلاقِ الرجالِ سَرُوقُ
لَعَمْرُكِ ما ضاقت بلادٌ بأهلها ... ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تَضِيقُ[2]

ترجمة الزبرقان ابن بدر

والزبرقان: اسمه حُصَين بن بَدْر بن امرئ القيس [بن الحـارث] بن

(١) أنظر القصة كما رواها أولا في مجمع الأمثال للميداني (١/٦ بولاق) (م)
(٢) هذا البيت ورد أيضا في أبيات بشار التي مطلعها:

خليلي إن العسر سوف يفيق ... وإن يسارا في غد لخليق

بَهْدَلَةَ بن عوف بن كعب بن سعيد . وسمى الزّبرقان لجماله ؛ والزبرقان : القمر [قبل تمامه] وقيل : لأنّه كان يُزَبْرِقُ عمامته ، أي يصفّرها في الحرب .

وكانوا يسمّون الكلام الغريب « السِّحر الحلال » ، ويقولون : اللفظ الجيل من إحدى النّفثَاتِ فى العقَد[١] .

عمر بن عبد العزيز ثم يتقدم وفد قومه

وذكر بعضُ الرُّواة أنه لما استُخْلِفَ عمرُ بنُ عبد العزيز رضى الله عنه قدِم عليه وفودُ أهلِ كل بلد ؛ فتقدم إليه وَفْدُ أهلِ الحجاز ، فاشرَأَبَّ منهم غلامٌ للكلام[٢] ، فقال عمر : ياغلام ؛ ليتكلّمْ مَنْ هو أَسَنّ منك ! فقال الغلام : يا أمير المؤمنين ! إنما المرء بأصْغَرَيْهِ قلبه ولسانِهِ ، فإذا منَح اللهُ عبدَه لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد أجاد له الاختيار ؛ ولو أن الأمور بالسنّ لكان هاهنا مَنْ هو أحقّ بمجلسك منك .

فقال عمر : صدقت ، تكلم ؛ فهذا السحرُ الحلال ! فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد التهنئة لا وَفْدُ الْمَرْزِئة[٣] ، ولم تُقْدِمْنا إليك رغبةٌ ولا رهبة ؛ لأنّا قد أمِنّا فى أيامك ما خِفنا ، وأدركنا ما طلبنا !

فسأل عمر عَنْ سِنّ الغلام ، فقيل : عشر سنين .

وقد روى أن محمد بن كعب القرظى كان حاضراً ، فنظر وَجْه عمر قد تهلّل عند ثَناء الغلام عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لايغلبَنّ جهلُ القوم بك معرفتَك بنفسك ؛ فإنّ قوماً خَدَعهم الثناء ، وغرّهم الشكر ، فزلّت أقدامُهم ، فهوَوْا فى النار[٤] . أعاذك الله أن تكون منهم ، وألحقك بسَالِف هذه الأمة ؛ فبكى عمر حتى خِيفَ عليه ، وقال : اللهم لاتُخْلِنا من واعظ !

---

(١) النفثات : جمع نفثة ، وهى أن تتفل الساحرة بريقها على ما تعقده ، وفى نسخة « النفاثات » جمع نفاثة وهى الساحرة نفسها (م) (٢) اشرأب : تطلع

(٣) المرزئة : الاستجداء وطلب النوال (٤) هووا : سقطوا ، من هوى يهوى على وزن ضرب يضرب ، بخلاف هوى يهوى على وزن علم يعلم فإنه بمعنى أحب

وقد رُوى أن عمرَ قال للغلام: عِظْنى، فقال هذا الكلام، وفيه زيادة يسيرة ونقص .

أخذ قولَ عمر: «هـذا السحر الحلال» أبو تمام فقال يعاتب أبا سـعيد محمد بن يوسف الطائى:

إذا ما الحاجةُ انبعَثَتْ يدَاها ... جَعَلْتَ المَنْعَ منكَ لها عِقَالاَ

فأين قصائدٌ لى فيكَ تأبىٰ ... وتأنفُ أنْ أُهَان وأنْ أُذالا

هى السِّحْرُ الحلالُ لمُجْتَليه ... ولم أرَ قبلها سِحْراً حَلاَلا

من ابن العميد لبعض إخوانه

وكتب أبو الفضل بن العميد[1] إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب وردَ إليه [فأحمده] :

وَصلَ ماوصلْتَنِى به ، جعلنى الله فداكَ ، من كتابك ، بل نعمتك التامة ، ومُنّتك العامة ؛ فقرّتْ عينى بوروده ، وشُفِيَتْ نفسى بوفوده ، ونَشَرْتُه فحكى نسيمَ الرياض غِبَّ المطر ، وتنفُّسَ الأنوار[2] فى السَّحَر ، وتأمَّلْتُ مُفْتَتَحه ، وما اشتمل عليه من لطائف كَلِمِك ، وبدائع حِكَمِك ؛ فوجدته قد تحمَّل من فنون البرّ عنك ، وضروب الفَضْل منك ، جِدًّا وهَزْلا ، ملأ عينى ، وعَمَرَ قلبى ، وغلب فِكْرِى ، وبَهَرَ لُبِّى ؛ فبقيتُ لا أدرى : أسُمُوطُ دُرٍّ خَصَصْتَنِى بها ، أم عقود جوهر مَنَحْتَنِيها ؟ كما لا أدرى أبكراً زَفَفْتَهَا فيه ، أم روضةً جهزتها منه ؛ ولا أدرى أخدوداً ضُرِّجت حياءً ضمّنته ؛ أم نجوما طلعت عِشاءً أودعته ؛ ولا أدرى أجِدُّك أبلغ وألطف ، أم هَزْلك أرفع وأظرف ؛ وأنا أُوَكِّلُ بتَتَبُّع ما انطَوَى عليه نَفْساً لا ترى الحظَّ إلا ما اقْتَنَتْـه منه ، ولا تَعُدُّ الفضل إلا فيما أخذَته عنه ، وأُمَتِّع بتأمّله عينا لا تَقرُّ إلاَّ بمثله ، ممـا يَصْدُر عن يَدِك ، ويَرِدُ من عندك ، وأُعْطِيه نظراً لا يمله ، وطَرْفاً لا يطرِف دونه ، وأجعله مِثالا أرْتَسمه وأحْتَذِيه ،

(١) كان ابن العميد إمام الكتاب فى عصره حتى قيل فيه «بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد» . توفى سنة ٣٦٩ بعد أن تولى كثيرا من المناصب العالية

(٢) الأنوار : جمع نور ــ بفتح النون ــ وهو نوار الزهر

وأمتّع خلقى بروْنقه ، وأغذّى نفسى ببهْجته ، وأمزج قريحتى برقّته ، وأشْرَحُ صَدْرِى بقراءته ، ولئن كنتُ عن تحصيل ما قلتَه عاجزاً ، وفى تعديد ما ذكرته متخلفاً ؛ لقد عرفت أنه ما سمعتُ به من السِّحْرِ الحلال .

من وصف الكلام بالسحر

وقال بعض المحدثين يمدح كاتباً :

و إذا جرَى قلمٌ له فى مُهْرَقٍ عَجْلانَ فى رَفَلانِهِ وَوَجِيفِهِ [(١)]
نظمت مراشفُهُ قلائدَ نُظّمَتْ بنَفِيسِ جَوْهَرِ لفظه وشريفه
بِدْعاً من السِّحْرِ الحلال تولّدَتْ عن ذهنٍ مصقول الذكاء مَشُوفِهِ [(٢)]
مَثَلاً لضاربِهِ وزادَ مُسَافِرٍ جُعِلت وتحفةَ قادمٍ لِأَلِيفِهِ

وصف رجل محبوب

وعلى ذكر قوله «وتُحْفَة قادم» قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : وصف رجلٌ رجلا فقال : كان والله سَمْحاً سهلاً ، كأنما بينه و بين القلوب نَسَبٌ ، أو بينه و بين الحياةِ سبَبٌ ، إنما هو عيادة مريض ، وتُحْفَة قادم ، وواسِطَةُ عِقْد .

عود إلى وصف الكلام بالسحر

وأخذ بعضُ بنى العباس رجلا طالبيًّا ، فهمَّ بعقوبته ، فقال الطالبى : والله لولا أنْ أُفْسد دينى بفساد دنياك لملكْتَ من لسانى أكْثَرَ مما ملكتَ من سَوْطك ، والله إنَّ كلامى لَفَوْقَ الشعر ، ودون السِّحْر ، و إن أيسره ليَثْقُبُ الخَرْدَل ، ويحطّ الجَنْدل .

وقال على بن العباس [(٣)] يَصِفُ حديثَ امرأةٍ :

وحديثُها السِّحْرُ الحلالُ لَوَ انه لم يَجْنِ قتلَ المسلم المتحرِّزِ [(٤)]
إن طال لم يُملَلْ ، و إنْ هى أَوْجَزَتْ وَدَّ المحدَّثُ أنها لم تُوجِزِ
شَرَكُ العقول ، ونزهة ما مِثْلُهَا للمطمئن ، وعُقْلَة المستوفِزِ [(٥)]

---

(١) المهرق بفتح الراء : الصحيفة ، والجمع مهارق — عجلان : مسرع — الرفلان : السير فى تبختر — والوجيف : السير السريع (٢) المشوف : المجلو

(٣) هو ابن الرومى المتوفى سنة ٢٨٣ (٤) المتحرز : المتحفظ (٥) الشرك : الفخ — العقلة العقال ، المستوفز : المستعجل — والشاعر يذكر أن حديث هذه المرأة نزهة للمطمئن وعقال لمن يهم بالانصراف .

أَلَمَّ فى بيته الآخر بقول الطائى :

كَوَاعِبُ أَتْرابٌ لغيداءَ أصبحتْ وليس لها فى الحسن شَكْلٌ ولا تِرْبُ(١)

لها منظرٌ قَيْدُ النواظِرِ لم يَزَلْ يَرُوح ويَغْدُو فى خَفَارَتِهِ الْحُبُّ(٢)

وأول من استثار هذا المعنى امرؤ القيس بن حُجر الكندى فى قوله :

وقد أغتدِى والطيرُ فى وُكُنَاتِهَا بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ(٣)

وقالت عُلَيَّة بنت المهدى :

اشرب على ذكر الغَزَال الأغْيد الحلو الدّلال

اشرب عليه وَقُلْ له : يا غُلَّ ألباب الرجالِ(٤)

علية بنت المهدى أخت الرشيد

وكانت عُلَيَّةُ لطيفةَ المعنى ، رقيقةَ الشعرِ ، حسنةَ مجارى الكلام ، ولها ألحانٌ حِسَانٌ ، وعَلِقَتْ بغلام اسمه « رشأ » وفيه تقول :

أضحى الفؤاد بزينبا صبًّا كئيباً مُتْعَبا

فَجَعَلْتُ زَيْنَبَ سُتْرَةً وكَتَمْتُ أمراً مُعْجِبا

[قولها : بزينب تريد برشأ] .

فنُمِىَ الأمر إلى أخيها الرشيد ، فأبعده ، وقيل : قتله ، وعَلِقَتْ بعده بغلام اسمه « طَلٌّ » ، فقال لها الرشيد : والله لئن ذكَرْتِهِ لأقتلنّك! فدخل عليها يوماً

---

(١) الكواعب : جمع كاعب ، وهى الفتاة تكعب ثديها : أى نتأ كالكعب ، أتراب : خدينات ، وتاربت الفتاة : خادنتها ، قال كثير :

تارب بيضا إذا استلعبت كأم الظباء ترف الكباثا

وقد يراد بالأتراب الشبيهات فى السن والحسن — والغيداء : الناعمة

(٢) قيد النواظر : هو للنواظر كالقيد — الخفارة : الحماية (٣) الوكنات : جمع وكنة ، وهى العش ، والمنجرد : الفرس سقط شعره من الضمور ، والأوابد : الوحوش النافرة ، والهيكل : الضخم (٤) الغل : هو الطوق يوضع فى عنق الأسير

على حين غَفْلة وهى تقرأ : فإن لم يُصِبها وابلٌ فما نهى عنه أميرالمؤمنين ، فضحك، وقال : ولا كلّ هذا ، وهى القائلة :

ياعاذِلى قد كنتُ قبلكَ عاذلا حتى ابتُليتُ فصرت صبًّا ذاهلا
الحب أول ما يكون مَجانة فإذا تحكَّم صار شُغْلا شاغِلا[1]
[أرْضى فيَغْضَبُ قاتلى فتعجّبوا يَرْضىالقتيلُ ولا يُرضّى القاتلا]

وهى القائلة :

وُضع الحبّ على الجْوْر ، فلو أنصف المعشوق فيه لَسَمُجْ[2]
[وقليلُ الحب صرفاً خالصاً لك خير من كثيرقد مزِجْ]
ليس يُسْتَحْسَنُ فى نَعْتِ الهوى عاشق يُحْسِنُ تأليفَ الُحجَجْ

أشباه لشعر علية بنت المهدى

وكأنها ذهبت فى الأول إلى قول العباس بن الأحنف :

وأحْسَنُ أيام الهوى يومُكَ الذى تُروّع بالهجران فيه و بالعتْبِ
إذالم يكن فىالحبسُخْطٌولارضاً فأينحلاوَاتُ الرسائلوالكُتْب

وقد زاد النميرى فى هذا فقال :

رَاحَتِى فى مقالة العُذّال وشِفائى فى قِيلهمْ بَعْدَ قال
لا يَطيبُ الهوى ولا يحسُنُ الحبُّ لصبٍّ إلاّ بِخَمْسِ خصال
بسماع الأذَى ، وعذْل نصيحٍ ، وعِتابٍ ، وهِجْرَةٍ ، وتقَال[3]

وقال بعض المحدثين :

لولا اطّرادُ الصيد لم تكُ لذةٌ فتطارَدِى لى فى الوصال قليلا[4]
هذا الشراب أخُو الحياةِ وما لهُ من لذةٍ حتى يُصِيبَ غليلا[5]

---

(١) المجانة : العبث (٢) سمج : قبح (٣) التقالى : التباغض
(٤) اطراد الصيد : جريه (٥) الغليل : الظمأ الشديد

وقال آخر :

دَعِ الصبَّ يَصْلَىٰ بالأذى من حبيبهِ   فإنّ الأذى ممن تُحبُّ سُرورُ[١]

غُبارُ قطيعِ الشاء فى عَيْنِ ذئبها   إذا ما تلا آثارهُنّ ذَرُورُ[٢]

وأنشد الأصمعى [لجميل بن معمر العذرى][٣] :

لاخَيْرَ فى الحبِّ وقفاً لا تحرِّكهُ   عواضُ اليأس أو يَرْتاحه الطَّمعُ

لو كان لى صَبْرُها أو عندها جَزَعِى   لكنتُ أَمْلِكُ ما آتِى وما أَدَعُ

إذا دعا باسْمِها داعٍ ليحزننى   كادت له شُعْبة من مُهْجَتى تقعُ[٤]

وهذا البيت كقول على بن العباس الرومى :

لا تُكْثِرَنَّ ملامةَ العشاقِ   فكفاهُمُ بالوَجْدِ والأشواقِ

إن البلاء يطاقُ غيرَ مُضاعَفٍ   فإذا تضاعَفَ كانَ غيرَ مُطاقِ

لا تُطفِئَنَّ جَوًى بلَوْمٍ ؛ إنهُ   كالريح تُغْرِى النار بالإحراق

ويشبه بَيْتَ عليّة الآخر بيتٌ أنْشِدَ فى شعرٍ رُوِى لأبى نواس ، ورواه قوم لعنان جارية الناطفى[٥] وهو :

حلو العتابِ يهيجُهُ الإدلالُ   لم يَحْلُ إلا بالعتابِ وصالُ

لم يَهْوَ قطُّ ولم يُسَمَّ بعاشقٍ   مَنْ كان يصرف وجهه التَّعْذَالُ[٦]

---

(١) يصلى : يحترق (٢) الذرور : هو الملح يذر على اللحم والفلفل يوضع على الثريد وهو كذلك الدواء فى العين . والمراد أن غبار الشاء فى عين الذئب هو كالتوابل توضع على الطعام

(٣) الأصمعى هو عبدالملك بن قريب ، ونسب إلى جده أصمع ، نشأ بالبصرة ، وأخذ عن فصحاء البادية ، واتصل بالرشيد، وتوفى سنة ٢١٦ (٤) شعبة : قطعة

(٥) الناطفى :رجل من أهل بغداد ، وعنان: شاعرة ماجنة سمع بها الرشيد فاشتراها بعد أن غالى بها سيدها ، ولها أخبار كثيرة مع أبى نواس توفيت فى نحو سنة ٢٠٠

(٦) التعذال : اللوم ، ومثله العذل

وجميعُ أسبابِ الغرام يسيرة ... ما لم يكن غَدْرٌ ولا استبدالُ
تصف القضيبَ على الكثيب قَنَاتُها ... ولها من البدر المنير مِثَالُ
ولرُبَّ لابسةٍ قِنَاعَ مَلاَحةٍ ... حسناء سار بحسنها الأمثالُ
كَسَتِ الحَدَاثةُ طَرْفَها وجمالها ... نُوراً فماء شبابها يَخْتَال[1]
وكأنها والكأسُ فوق بَنانها ... شمسٌ يمدُّ بها إليك هِلاَلُ
حتى إذا ما استأنست بحديثها ... وتكلمت بلسانها الجِرْيَالُ[2]
قلنا لها : إن صدَّقت أقوالَهَا ... أفعالُها وجرى بهنَّ الفَالُ
قولي فليس تَرَاكِ عينُ نميمة ... حَضَرَ النصيحُ وغابَتِ العذّالُ
وضميرُ ما اشتملتْ عليه ضلوعُنا ... سِرٌّ لدى أبوابه أَقْفَالُ

ماقيل في معنى «قيد الأوابد»

وقد أخذ أبو الطيب المتنبي معنى «قيد الأوابد» ، فقال يصف كلباً :

نَيْلُ المُنى وحكْمُ نفس المُرسِلِ ... وعُقْلَةُ الظبي وحَتْفُ التَّتْفُلِ[3]
كأنه من علمه بالمَقْتل ... عَلَّمَ بِقْرَاط فِصَادَ الأَكْحَلِ[4]

وقال في بني حمدان :

مُتَصَعلِكِينَ عَلَى كَثافة ملكهم ... متواضعينَ على عظيم الشانِ[5]
يَتقَيَّلُونَ ظلالَ كلِّ مُطهَّمٍ ... أجَلِ الظليم ورِبْقَةِ السِّرْحَانِ[6]

وقال أعرابي يصف فرساً : إنه لَدَرَكُ الطالب ، ومَنْجَى الهارب ، وقَيْد الرِّهان ، وزين الفِناء .

---

(١) يختال: يترقرق (٢) الجريال : الخمر ، يريد الشاعر أن يصف تلك الحسناء بعدم التحرز في الحديث وقد لعبت برأسها الصهباء .

(٣) التتفل: الثعلب، وفي النسخ القديمة (المثقل) وهو تصحيف (٤) بقراط : من كبار الأطباء القدماء ،والأكحل: عرق في اليد(٥) متصعلك:متظاهر بالفقر،والكثافة: الضخامة (٦) مطهم : مضمر دقيق الجسم ، والظليم : ذكر النعام، والربقة : الرباط ، والسرحان الذئب . والمعنى أنهم يتقيلون ظلال كل جواد في عدوه أجل الظليم وقيد الذئب

وقالَ بعضُ أهل العصر فى وصفِ غلام : وَجْهُه قَيْدُ الأبصار ، وأَمَدُ الأفكار ، ونهاية الاعتبار .

وقال أبو القاسم إسماعيل بن عَبَّادٍ[١] :

وقد أغتدِى للصَّيْدِ غُدْوَةَ أصْيَدٍ ... أُعاجِلُ فِيها الوحشَ والوحْشُ هُجَّدُ[٢]

فعنَّتْ ظِبَاءٌ خِفْنَ تحْتِىَ مطلقَ الْـــيدين به أيْدِى الوحُوش تقيّدُ[٣]

فأدركتها والسيفُ لَمْعَـــة بَارِق ... ولم يُغْنهَا إحضَارُهَا حين تجهَدُ[٤]

وقد رُعْتُهَا إذ كانَ شـعرِىَ رائعاً ... وطَرْفُ مشيبى عن عِذَارِىَ أرْمَدُ[٥]

وما بَلَغَتْ حـدَّ الثلاثين مُـدَّتى ... وهـــذا طِراز الشيب فيه يُمدَّدُ[٦]

ما يستملح مما قيل فى حسن الحديث

وأبياتُ ابن الرومى من أجود ما قيل فى حسن الحديث ، وقد توسَّع الشعراء فى هذا الباب ، وكَثُر إحسانهم ، كما كَثُر افتنانهم ، وسأجرى شأْواً فى مختار ما قيل فى ذلك ، وأعود إلى ما بدأتُ به .

قال القُطامى ــ واسمه عُمَيْر بن شُيَيْمٍ التغلبى[٧]، وسمى القُطَامى لقوله :

يَحُطُّهنَّ جانباً فجـــانبا ... حطَّ القُطَامِىِّ القَطا القَواربا[٨]

وقال أبو عبيدة : ويقال للصقر قُطامى وقَطامى :

وفى الخُدور غماماتٌ بَرَقْنَ لنا ... حتى تصيَّدْنَنَا من كلِّ مُصْطاد

يقتُلْننَا بحـديثٍ ليس يَعلمه ... مَنْ يتقين ولا مكْنونُهُ بادِى[٩]

---

(١) هو الصاحب بن عباد المشهور، المتوفى ٣٨٥ (٢) الأصيد : من يرفع رأسه كبرا

(٣) عنت : عرضت ، ومطلق اليدين : وصف للفرس بالسرعة

(٤) الإحضار: نوع من السير السريع ، وتجهد : تتعب (٥) أرمد : كليل البصر، يريد أن الشيب لم يسم ببصره إلى عذاره

(٦) الطراز : الموضع الذى تنسج فيه الثياب الجياد

(٧) فى النسخ القديمة (الثعلبى) وهو تحريف (٨) القوارب : طالبات الماء

(٩) يتقين : يخفن ، وباد : ظاهر .

فهنّ يَنبذن من قول يُصِبْنَ به   مواقعَ الماء من ذى الغُلّةِ الصّادى (١)

وقال أبو حيَّة النُّميرى ، واسمه الهيثم بن الرَّبيع :

وَخَبَّرَكِ الواشُونَ أن لن أُحبَّكُم   بلى وسُتُورِ اللهِ ذاتِ المحارمِ
وإن دماً ، لوْ تعلمينَ ، جنيته   على الحىّ جَانِى مِثْلِهِ غيرُ سالمِ (٢)
أصدُّ وما الصدُّ الذى تعلمينهُ   عـزاءٌ بكُم إلا ابتلاع العَلاقمِ (٣)
حياءً وَتُقْيا أنْ تشيعَ نميمةٌ   بنا وبكم ، أفّ لأهل النمائمِ (٤)
أما إنه لو كان غيرَكِ أرْقَلَتْ   إليه القَنا بالراعفات اللهاذمِ (٥)
ولكنه واللهِ ما طلّ مُسْلماً   كَغُرِّ الثنايا واضحاتِ الملاغمِ (٦)
إذا هنّ ساقَطْنَ الأحاديثَ للفتى   سُقُوطَ حَصَى المرْجان من كفِّ ناظمِ (٧)

---

(١) مواقع الماء من الظمآن : كناية عن الأحشاء ، والمراد أن حديثهن يشفى الصب المغرم كما يطفىء الماء لوعة الغليل !

(٢) «لو تعلمين» جملة معترضة، ولو هنا للتمنى (٣) العلاقم: جمع علقم ، وهو الحنظل وكل شىء مر . ورواية المبرد :

أصد وما الصد الذى تعلمينه   شفاء لنا إلا اجتراع العلاقم

والاجتراع : مصدر اجترع الماء أى ابتلعه

(٤) تقيا : خوف ، ورواية المبرد بقيا ، وأف لأهل النمائم : تبالهم !

(٥) أرقلت : أسرعت ، والراعفات والرواعف : الرماح تسيل الرعاف ـ بضم الراء ـ وهو الدم ، واللهاذم : القواطع ، والمفرد لهذم على وزن جعفر (٦) الغر : البيض ، والملاغم : هى طرف الأنف وماحوله إلى الشفتين ، والوضوح : البياض والإشراق، وطل : من قولهم دم مطلول إذا مضى هدرا . وأثبت هذا البيت فى النسخ القديمة هكذا :

ولكنه والله ماطل مسلما   لغر الثنايا واضحات الملاغم

وهو تحريف . هذا ورواية المبرد «ولكن لعمر الله» إلخ، والكاف فاعل «طل» فى قوله «ماطل مسلما كغر الثنايا» . (٧) وقع عن المبرد «سقاط حصى المرجان»(م)

رَمَيْن فأَنْفَذْنَ القلوبَ ، ولا تَرَى دَماً مائراً إلا جَوًى فى الحيازِمِ[١]

وقال أيضاً :

حديثٌ ـ إذَا لم تَخْشَ عيناً ـ كأنه إذاساقَطَتْهُ الشَّهْدُ أو هُوَ أَطْيَبُ

لَوَ أنك تستشفى به بعد سكْرَةٍ من الموت كادتْ سَكْرَةُ الموت تذْهَب

إلى هذا ينظر قولُ الآخَرِ وإن لم يكن منه :

أقــول لأصْحَابى وهم يعذِلوننى ودَمْعُ جُفُونى دائمُ العَـبَرَات

بذكر مُـنَى نفسى فبلُّوا ، إذا دَنَا خروجى من الدنيا ، جُفُوفَ لهاتى[٢]

وقال سديف مولى بنى هاشم يصفُ نساء :

و إذا نطقْنَ تخَالُهُنَّ نَوَاظِماً دُرًّا يُفَصِّلُ لُؤلؤاً مكنوناً

و إذا ابتسمْنَ فإنهنَّ غمامةٌ أو أُقحوان الرَّمْلِ بات مَعِينا[٣]

و إذا طَرَفْنَ طرفن عن حَدَقِ المَهَا وَفضلْنَهُنَّ مَحَاجِــراً وجُفُونا[٤]

وكأَنَّ أجيــــادَ الظباء تَمُدّها وَخُصُورهنَّ لطافــةً ولُدُونا[٥]

وأصحُّ ما رأت العيونُ مَحَاجراً ولَهُنَّ أمرضُ ما رأيت عيونا[٦]

---

(١) أنفذن القلوب : من قولهم «رميته فأنفذته» إذا أنفذت فيه السهم . ورواية المبرد «أقصدن القلوب» بمعنى أصبنها من قولهم أقصدت الرجل إذا طعنته فلم تخطىء مقاتله ، ومائر : سائل ، والحيازم: جمع حيزوم، وهو ما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر

(٢) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق ، وهذا البيتان من الشعر الرائع

(٣) الأقحوان : زهر أبيض تشبه به الثغور الناصعه البياض ، والمعين : الممطور ، والمطر يزيد الزهر نضرة .

(٤) طرفن: حركن عيونهن ، والمها : الغزلان (٥) الأجياد : جمع جيد ـ بكسر الجيم ـ وهو العنق ، واللدون واللدونة ـ بضم اللام ـ الرقة

(٦) اللام فى «لهن» لام الابتداء، والمقصود بها التوكيد ،وفى هذا المعنى يقول جرير:

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا (م)

وكأنهن إذا نهضن لحاجة ... ينهضن بالعقدات من يبرينا[١]

وقال الطائي[٢] :

تعطيك منطقها فتعلم أنه ... لجنى عذوبته يمر بثغرها

وأظنه حبل وصالها لمحبها ... أوهى وأضعف قوة من خصرها

أخذه أبو القاسم بن هانيء[٣] ، فقال يمدح جعفر بن علي ، إلا أنه قلبه فقال:

قد طيب الأفواه طيب ثنائه ... من أجل ذا تجد الثغور عذابا

وكأنما ضرب السماء سرادقاً ... بالزاب ، أو رفع النجوم قبابا[٤]

أرضاً وطئت الدر رضراضاً بها ... والمسك ترباً والرياض جنابا[٥]

---

(١) العقدات : جمع عقدة ، وهي السفح والكثيب ، ويبرين : اسم مكان من أصقاع البحرين ، يقول فيه أبو زياد الكلابي .

أراك إلى كثبان يبرين صبة ... وهذا لعمري لوقنعت كثيب

وإن الكثيب الفرد من أيمن الحمى ... إلى ، وإن لم آته ، لحبيب

(٢) نسبه شاذة إلى طيء ، وكلما ذكر « الطائي » فالمراد أبو تمام ، وهو شاعر فحل من شعراء الدولة العباسية . ولد في جاسم ـ وهي قرية قريبة من دمشق ـ في سنة ١٩٠ للهجرة ، ونقل صغيراً إلى مصر ، وأقام بهامدة يسقى الماء في جامع عمرو ، ثم رحل إلى مقر الخلافة بعد أن نبغ في الشعر والأدب ، فاتصل بالمعتصم ووزيره محمد بن الزيات ، ثم ولاه الحسن بن وهب بريد الموصل فأقام بها إلى أن مات سنة ٢٣١ . وله ديوان

(٣) محمد بن هانيء : من أكبر شعراء الأندلس وأشهرهم . وكان يسمى « متنبي الغرب » لجزالة شعره وقوة عارضته ، وهو صاحب الكافية المشهورة التي يقول في مطلعها :

فتكات لحظك أم سيوف أبيك ... وكؤوس خمر أم مراشف فيك

توفي في سنة ٣٦٢ ، بعد أن جاب كثيراً من الأقطار واتصل بكثير من الرؤساء . أما جعفر بن علي ممدوحه فقد توفي سنة ٣٦٤ .

(٤) الزاب : من أعمال أفريقية (٥) الرضراض : صغار الحصى

وقال الطائى :

بَسَطَتْ إليك بنانةً أُسْرُوعا تَصِفُ الفِرَاقَ ومُقْلةً يَنْبُوعا[1]
كادتْ لعِرْفَانِ النَّوى ألفاظُها من رِقّةِ الشَّكْوَى تكونُ دُمُوعا

ومن جيِّد هذا المعنى وقديمه قولُ النابغة الذبيانى[2] :

لو أنها عَرَضَتْ لأَشْمَط رَاهبٍ عَبَدَ الإلٰهَ صَرُورَةٍ مُتَعبِّدِ[3]
لرنَا لِبَهجتها وطِيب حَدِيثها ولخالَهُ رشداً وإن لم يَرْشُدِ
نَظَرَتْ إليكَ بحاجةٍ لم تَقْضِها نَظَرَ السليمِ إلى وجوه العُوَّدِ[4]

ومن مشهور الكلام قولُ الآخر :

وكنتُ إذا مازُرْتُ سُعْدَى بأَرْضِها أرى الأرضَ تُطْوَى لى ويَدْنُو بَعيدُها
مِنَ الخَفِرات البِيضِ وَدَّ جَلِيسُها إذا ما انقضتْ أُحدوثةٌ لو تُعيدُها[5]
تَحَلَّلُ أحْقَادِى إذا ما لقِيتُها وتُرْمى بلا جُرْمٍ علَىَّ حُقُودُها[6]

وقال بشار :

وكأنَّ رَجْعَ حديثها قِطَعُ الرِّيَاضِ كُسِينَ زَهْرَا
حَوْراءُ إنْ نظرتْ إليــكَ سَقَتْكَ بالعينين خَمْرَا[7]
تُنسى الغَوِىَّ مَعَادَهُ وتكون للحكماء ذِكْرا
وكأنهــا بَرْدُ الشرا ب صفاً ووافقَ مِنْكَ فطْرَا[8]

---

(١) الأسروع : دود أحمر الرأس تشبه به الأنامل المخضبة (٢) النابغة : شاعر جاهلى صحب النعمان بن المنذر وأجاد القول فى الاعتذار

(٣) الأشمط : من يخالط بياض شعره سواد ، وصرورة ، وصارورة ، وصرور: لم يتزوج ، للواحد والجمع (٤) العود : جمع عائد ، والمراد أنها تنظر بتكسر وفتور كما ينظر السقيم إلى وجوه العواد ــ والمحفوظ «نظر السقيم» وهو نسخة، وكذلك هو فى ديوانه (م) (٥) الخفرات : من الخفر ــ بفتحتين ــ وهو الحياء .

(٦) تحلل : تتحلل وتذوب ، والأحقاد والحقود : جمع حقد ، والجرم : الذنب

(٧) حوراء : من الحور ــ بفتحتين ــ وهو شدة بياض بياض العين مع شدة سواد سوادها (٨) فى الأصل «ووافق فيه قطراً» والذى اثبتناه أوفق

وَكأنَّ تحتَ لِسانها هارُوتُ يَنفُثُ فيه سِحْرَا
وتخال ما جَمَعَتْ عليه ثِيابَهَا ذهباً وعِطْرا(١)

وسمع بشارٌ قولَ كُثيِّر بن عبد الرحمن(٢) :

ألا إنما ليْلَى عصَا خَيْزُرَانَةٍ إذا غَمزُوها بالأكُفِّ تَلِينُ

فقال : قاتل الله أبا صَخْر ! يزعم أنها عصاً و يعتذر بأنها خيزُرَانَةٌ ، ولو قال : عصا مُخّ ، أوعصا زُبْد : لـكان قد هَجَّنَهَا مع ذكر العصا ، هلاّ قال كما قلت :

ودَعْجَاء المَحاجر من مَعَدٍّ كأنَّ حديثها ثَمرُ الجِنانِ(٣)
إذا قامت لحاجتهـا تثنَّتْ كأنَّ عِظَامَها من خَيْزُرَانِ

و بعد قول كُثيِّر : « ألا إنما ليلى عصا خيزرانة » :

تَمَتَّعْ بها ماساعَفَتْكَ ، ولا يَكُنْ عليك شجًى فى الصَّدْرِ حين تَبينُ
و إنْ هى أعطتكَ اللِّيان فإنها لآخرَ من خُلاَّنها سَتَلينُ
و إن حلفَتْ لا يَنْقُضُ النأىُ عهدَها فليس لمخضُوبِ البنانِ يمينُ

وقال البحترى :

ولما التَقَيْنا واللِّوَى مَوْعدٌ لنا تعجَّبَ رَائى الدُّرِّ حُسْناً ولاَقِطُهْ
فمن لؤلؤ تجنيه عنـدَ ابتسامها ومنْ لؤلؤ عند الحديث تُساقطُهْ

وقال المتنبى :

أمُنْعِمَةٌ بالعـودةِ الظبيـةُ التى بغير وَلِيٍّ كان نائلها الوسمِى(٤)
ترَشَّفْتُ فَاهَا سُحْرَةً فـكأنتى ترَشَّفتُ حرَّ الوجد من بارد الظلم(٥)

---

(١) يصف جسمها بأنه قطعة من الذهب والعطر .
(٢) هو كثير عزة المتوفى فى سنة ١٠٥ (٣) دعجاء : حوراء .
(٤) الوسمى : المطر الأول ، والولى : المطر الذى يليه .
(٥) الظلم بفتح الظاء : الثغر ، قال كعب بن زهير :

تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

وفى أساس البلاغة : الظلم كأنه ظلمة تركب متون الأسنان من شدة الصفاء

فتاةٌ تساوَى عِقدُها وكلامها ومَبسِمها الدُّرِّىُّ فى النثر والنظمِ

تفسير حديث وضبط لفظه

عاد الحديثُ الأول ـ قال أبوالقاسم عبدُ الرحمن بنُ إسحاقَ الزجاجى : حدثنا يوسف بن يعقوب قال : أخبرنى جدِّى قراءة عليه ، عن أبى داود ، عن محمد بن عبيد الله ، عن أبى إسحاق ، عن البَرَاء يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن من الشعر لَحِكَماً ، و إن من البيان لسِحْراً» قال أبوالقاسم : هكذارو ينا الخبر ، وراجعت فيه الشيخ ، فقال : نعم، هو : «إن من الشعر لحُكماً» بضم الحاء وتسكين الكاف ، قال : ووجهُه عندى إذا روى هكذا : إن من الشعرمايلزم المقولَ فيه كلزوم الحُكم للمحكوم عليه ؛ إصابةً للمعنى، وقصداً للصواب وفى هذا يقول أبوتمام :

وَلَوْلاسبيلٌ سَنَّها الشعرُ مادرَى بغاةُ العُلَى منْ أينَ تُوْتَى المكارمُ[١]
يُرَى حكمةً ما فيه وهو فُكَاهةٌ ويُرْضَى بما يَقْضِى به وهو ظالمُ

انتهى كلام أبى القاسم .

الحطيئة وبنو أنف الناقة

وقد وجدنا فى الشعر أبياتاً يُجْرَى على رسمها ، ويُمْضَى على حكمها ؛ فقد كان بنو أنف الناقة إذا ذَكَر أحدٌ عندأحد منهم أنف الناقة ـ فضلا عن أن ينسبهم إليه ـ اشتدَّ غضبُهم عليه ؛ فما هو إلا أن قال الحطيئة[٢] يمدحهم :

سِيرِى أُمَامَ فإنَّ الأكثرينَ حَصًى والأطْيبين إذا ما يُنْسَبُون أبا[٣]

---

(١) البغاة : الطلاب . وفى الأصل « بغاة الندى » وما أثبتناه أدق .

(٢) هو جرول بن أوس ، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام . كان سليط اللسان لم يكد يسلم من هجائه أحد ، وقد سجنه عمر بن الخطاب لذلك ، توفى نحو سنة ٣٠ .

(٣) سيرى : أمرمن السير للمفردة المؤنثة ، وأمام ـ بضم الهمزة ـ مرخم أمامة وهو اسم امرأة ، والأكثرين حصى : أى أكثر الناس عديدا ، ومنه قول الأعشى:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر (م)

قومٌ إذا عقَدوا عقْداً لجارِهِمُ   شدّوا العِناجَ وشدّوا فوْقَه الكَرَبا[١]
قوم هُمُ الأنفُ والأذْنابُ غيرهُمُ   ومن يُسوِّى بأنْفِ الناقةِ الذّنبا

فصار أحدُهم إذا سئل عن انتسابه لم يَبْدأ إلا به.

وأنفُ الناقة : هو جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن زيد مناة بن تميم .

بنو العجلان والنجاشي الحارثي

وكان بنو العجْلاَن يَفْخَرون بهذا الاسم ، ويتشرّفُون بهذا الوَسْم ؛ إذ كان عبدُ الله بن كعب جدُّهم إنما سمّى العجلان لتعجيله القِرَى للضِّيفَان ؛ وذلك أن حيًّا من طيء نزلوا به ، فبعث إليهم بقِرَاهم عَبْداً له ، وقال له : اعْجَل عليهم ، ففعل العبدُ ، فأعتقه لعجلته ، فقال القوم : ما ينبغي أن يسمى إلاّ العجلان ؛ فسمى بذلك ؛ فكان شرفاً لهم ، حتى قال النجاشي ، واسمه قيس بن عمرو بن حزن ابن الحارث بن كعب يهجوهم :

أولئكَ أخوالُ اللَّعينِ وأسرةُ الـهَجينِ ورهْطُ الواهِنِ المتذلّل[٢]
وما سُمِّى العجلاَن إلا لقولِهِ   خذِ القَعْبَ واحلب أيها العبدُ واعْجل

فصار الرجل منهم إذا سئل عن نسبه قال : كعبى ، ويكنى عن العجلان

وزعمت الرواة أنّ بنى العجلان استعدَوْا[٣] على النجاشيّ ـ لما قال هذا الشعر ـ عُمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، وقالوا : هَجَانَا ، قال : وماقال فيكم ؟ فأنشدوه قوله :

إذا اللهُ عادَى أهلَ لؤمٍ ورِقَّةٍ   فعادَى بنى العَجْلاَن رهطَ ابن مُقْبِلِ

فقال : إنّ الله لا يُعَادى مسلماً ، قالوا : فقد قال :

قُبَيِّلَة لا يَغْدِرون بذِمَّـةٍ   ولا يَظْلِمُونَ الناسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ[٤]

---

(١) العناج : حبل الدلو وزمام الناقة . والكرب أيضا : من حبال الدلو ، والمراد أنهم إذا عقدوا عقداً ربطوه بحبل بعد حبل ، وهذا كناية عن وثاقة العهد

(٢) الأسرة والرهط بمعنى القوم ، والهجين : غير الشريف ، والواهن : الضعيف

(٣) استعانوا واستنصروا (٤) قبيلة تصغير : قبيلة ، وفى الأصل قبيلته وهو تحريف ؛ والمعنى أنهم لا يقدرون لضعفهم على ظلم أحد .

فقال : وددت أن آل الخطاب كانوا كذلك ! قالوا : فقد قال :

تَعَافُ الكِلَابُ الضارِيَاتُ لحومَهُمْ وتأكلُ من عَوْفِ بن كعب بن نهشلِ

فقال : كفى ضَياعاً مَن تأكل الكلابُ لحمه ! قالوا : فقد قال :

ولا يَرِدُون الماء إلاَّ عشيةً إذا صَدَر الوُرَّادُ عن كلِّ مَنْهَلِ (١)

فقال : ذلك أصفى للماء ، وأقل للزّحام ! قالوا : فقد قال :

وما سُمِّيَ العَجْلانَ إلاَّ لقولهِ خُذِ القَعْبَ واحْلُب أيها العبدُ واعْجَلِ

فقال : سيِّد القوم خَادِمُهم ! .

وكان عمر رضى الله عنه أعلَمَ بما فى هذا الشعر ، ولكنه دَرَأَ الحدودَ بالشبهات (٢)

بنو نمير وجرير

وهؤلاء بنو نمير بن عامر بن صَعْصعة من القوم أحدُ جمرات العرب وأشرف بيوت قيس بن عيلان بن مضر . وجمرات العرب ثلاثة ؛ وإنما سُمُّوا بذلك لأنهم مُتَوافرون فى أنفسهم ، لم يُدْخِلوا معهم غيرهم ؛ والتجمير فى كلام العرب : التجميع ، وهم : بنو نمير بن عامر ، و بنو الحارث بن كعب ، و بنو ضبة بن أد . فطفئت جمرتان ، وهما بنو ضبَّة لأنها حالفت الرباب ، و بنو الحارث لأنها حالفت مَذْحِج ، و بقيت نمير لم تحالف ؛ فهى على كَثْرتها ومَنَعَتِها . وكان الرجل منهم إذا قيل له : ممَّنْ أنتَ ؟ قال : نميرى كما ترى ! إدلالاً بنَسَبِه ، وافتخاراً بمنصبه ، حتى قال جرير ابن [عطية بن] الخَطَفَى لعُبَيْد بن حُصَيْن الراعى أحد بنى نمير بن عامر :

وقف على جمرات العرب

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ فلا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلاباً

كعب وكلاب : ابنا ربيعة بن عامر بن صعصعة ؛ فصار الرجل منهم إذا قيل له : ممن أنت ؟ يقول : عامرى ، و يكنى عن نمير .

ومرَّت امرأة بقوم من بنى نمير ، فأحَدُّوا النظر إليها ، فقال منهم قائل : والله

---

(١) يريد أنهم لا يستطيعون ورود الماء إلا إذا انصرف عنه الناس — وذلك كناية عن ضعفهم وعدم قدرتهم على المزاحمة للوصول إلى الماء (م)

(٢) هذا الحديث رواه ابن رشيق فى العمدة بشىء من التفصيل فليراجع هناك .

إنها لَرَشْحَاء[١]، فقالت : يابنى نمير، والله ما امتثلتم فىّ واحدةً من اثنتين ، لاقول الله عز وجل : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) ولا قول الشاعر :

* فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمير *

شريك بن عبدالله النميرى وابن هبيرة الفزارى

وسايَرَ شريك بن عبدالله النميرى يزيدَ بن عُمر بن هُبَيرة الفزارى ، فَبَرَّزَتْ بغلة شريك[٢] ، فقال له يزيد : غُضَّ من لجامها ، فقال : إنها مكتوبة أصلح الله الأمير ! فضحك ، وقال : ماذهبت حيث أردت

وإنما عرّض بقوله : « غُضَّ من لجامها » بقول جرير :

* فغُضَّ الطَّرْف إنك من نمير *

فعَرَّضَ له شريكٌ بقول ابن دَارَة :

لا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيًّا خَلَوْتَ بهِ   على قَلُوصِكَ واكْتُبْهَا بأَسْيَارِ[٣]

الفرزدق يهجو ابن هبيرة

وبنو فزارة يُرْمَوْنَ بإتْيَانِ الإبل ، ولذلك قال الفرزدق ليزيد بن عبد الملك لمـا ولى عمر بن هبيرة[٤] العراق :

أميرَ المؤمنين لأنْتَ مَرْءٌ   أمينٌ لَسْتَ بالطَّبِعِ الحريصِ

أوَلَّيْتَ العـراقَ ورَافِدَيْهِ   فَزَارِيًّا أحذَّ يَدِ القَمِيصِ[٥]

ولم يكُ قَبْلَهَا رَاعِي مخَاضٍ   ليأمنَهُ على ورِكَيْ قَلُوصِ[٦]

---

(١) رشحاء : كثيرة العرق ، وذلك من عيوب النساء .

(٢) برزت : سبقت (٣) اكتبها : مأخوذ من الـكتبة ـ بضم الكاف وسكون التاء ـ وهوسير يكتب به حياء الناقة لئلا ينزى عليها . وكتب الناقة يكتبها ـ بكسر التاء وضمها فى المضارع ـ ختم حياءها .

(٤) عمر بن هبيرة الفزارى : أمير من الدهاة الشجعان ، ولاه عمر بن عبدالعزيز الجزيرة ، فأقام فيها إلى أن كانت خلافة يزيد بن عبد الملك ، فولاه إمارة العراق وخراسان ، توفى نحو سنة ١٩٠ (٥) أحذ : مقطوع ، ومقطوع يد القميص كناية عن السارق (٦) القلوص : الناقة ، والخوف على وركى الناقة كناية عن الخوف عليها من أن يأتيها الفزارى !

تَفَيْهَقَ بالعراق أبو المثنّى ... وعَلَّمَ قومَهُ أَكْلَ الخبيصِ[1]

الرافدان : دجلة والفرات .

نميرى يجيب جريرا

وقال بعض النميريين يجيبُ جريراً عن شِعْرِه :

نميرٌ جمــرةُ العربِ التى لم ... تزل فى الحرب تلتهب التهابا

وإنى إذ أَسُبُّ بها كُليباً ... فتحت عليهمُ لِلْخَسْفِ بابا

ولولا أن يقالَ هَجَا نمــيراً ... ولم يَسْمَعْ لشاعرهم جَوَابا

رغبنا عن هجــاء بنى كليبٍ ... وكيف يُشَاتِمُ الناسُ الكِلابا

فما نفع نميراً ، ولا ضرَّ جريراً ، بل كان كما قال الفرزدق :

ما ضرَّ تَغلِبَ وائلٍ أَهَجَوْتَهَا ... أم بُلْتَ حيث تَنَاطَحَ البَحْرَانِ

وقال أبو جعفر محمد بن منذر مولى بنى صَبِير بن يربوع فى هجائه لثقيف :

وسوف يزيدكم ضَعَةً هِجَائى ... كما وضع الهجاء بنى نمير

وسمع الراعى[2] منشداً ينشد :

وعَاوٍ عَوَى من غير شىء رَمَيْتُهُ ... بقافيــةٍ أَنفاذُهَا تَقْطُرُ الدَّما[3]

خَــرُوجٍ بأفْوَاهِ الرُّوَاةِ كأنها ... قَرَى هُنْدُوَانِىٍّ إذا هزَّ صَمَّما[4]

له ، وقال: لمن هذا؟ قيل : لجرير، قال : لعن الله من يلومنى أن يغلبنى مثل هذا!

فضل الشعر

قد بنى الشعرُ لقوم بيوتاً شريفة ، وهدم لآخرين أَبْنِية منيفة :

ما هو إلا القول يَسْرِى فتغتدى ... له غُرَرٌ فى أوجــهٍ ومَوَاسِمُ[5]

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمى[6]: سمعت أبا عَمْرو بن العلاء ورجل يقول:

---

(1) تفيهق : عاش عيشة الترف ، والخبيص : طعام يعمل من التمر والسمن .

(2) الراعى : هو عبيد بن حصين النميرى ، شاعر فحل كان يفضل الفرزدق على هجاء جرير ، واستمر بينهما العداء . توفى نحو سنة ٩٠

(3) أنفاذ : جمع نفذ بفتحتين ، وهو الشق تحدثه الطعنة

(4) الهندوانى : السيف، والقرى: الشق والصدع ، وصمم: أصاب المفصل وقطعه

(5) مواسم : جمع ميسم ، وأصله من الوسم ، وأراد به الكى (م)

(6) كان من أبصر الناس بعلوم اللغه العربية توفى سنة ٢٠٩

إنما الشعر كالمِيسَم[1]. فقال: وكيف يكون ذلك كذلك؟ والميسم يذهب بذهاب الجلد ويَدْرُس مع طولِ العهد، والشعر يَبْقَى على الأبناء بعد الآباء ، ما بقيت الأرض والسماء!

وإلى هذا نحا الطائى فى قوله :

وأنى رأيتُ الوَسْمَ فى خُلُق الفتى ... هو الوَسْمُ لا ما كان فى الشَّعْر والجلد

وقال عمر رحمة الله عليه : تعلّموا الشعر ؛ فإن فيه محاسِنَ تُبتغى ، ومساوىء تُتقى.

وقال أبو تمام :

إنّ القوافىَ والمساعىَ لم تَزَلْ ... مثلَ النّظام إذا أصابَ فَرِيدا

هِيَ جوهرٌ نَثْرٌ فإن أَلَّفْتَهُ ... فى الشعر كان قلائداً وعُقُودا

من أجل ذلكَ كانت العربُ الأُلى ... يدعونَ هذا سُؤْدَداً مجْدُودا

وتنِدُّ عندهمُ العُلاَ إلا إذا ... جُعِلَتْ لها مِرَرُ القصيدِ قُيُودا[2]

وقال على بن الرومى :

أرى الشعر يُحيي الناسَ والمجدَ بالذى　　تُبَقِّيــه أرواحٌ له عَطِراتُ
وما المجدُ لولا الشِّعْرُ إلا معاهدٌ　　وما الناسُ إلا أَعْظُمٌ نَخِرَاتُ(٣)

[شذور من كلام الرسول]

رجعت إلى ماقطعت ، مماهو أحق وأولى ، وأجَلُّ وأعْلى ، وهو كلامُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الـكريمُ النَّجْرِ(٤) ، العظيم القَدْر ، الذى هو النهايةُ فى البيان ، والغايةُ فى البرهان ، المشتمل على جَوامع الكلم ، وبدائع الحِكم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَنَا أَفْصَح العرب بَيْدَ أَنّى من قريش ، واستُرْضعت فى سعد ابن بكر! وليس بعضُ كلامه بأَوْلى من بعض بالاختيار ، ولا أَحقَّ بالتقديم والإيثار ؛ ولـكنى أورد ماتيسَّر منه فى أول هذا الـكتاب استفتاحاً ، وتَيَمُّناً بذلك واستنجاحا.

---

(١) الميسم : المكواة . (٢) المرر : جمع مرة - بكسر الميم - وهى إحكام الفتل ، وتند : تنفر وتشرد . (٣) معاهد : أراد الأطلال الدارسة ، والمقصود أن المجد يفنى ويبلى بلاء الأطلال مالم يدعمه الشعر . (م) (٤) النجر : الأصل .

وهذه شذورٌ من قوله صلى الله عليه وسلم الصريح الفصيح ، العزيز الوَجيز ، المتضمّن بقليلٍ من المبانى كثيرَ المعانى :

قوله للأنصار : إنكم لَتقِلُّون عند الطمع ، وتَكْثُرون عند الفزَع .

وقوله عليه الصلاة والسلام : المسلمون تتكافأُ دماؤُهم ، ويَسْعى بذمتهم أَدْناهم، وهم يَدٌ على مَنْ سِوَاهم. الناسُ كإبلٍ مائةٌ لاتجدُ فيها راحلة . إياكم وخَضْرَاء الدِّمَنِ(١) . كلُّ الصَّيْدِ فى جَوْفِ الفرَا(٢) ـ قاله لأبى سُفْيان صخر بن حرب ـ الناسُ معادن ، خيارُهم فى الجاهلية خيارُهم فى الإسلام إذا فَقِهُوا . المؤمن للمؤْمن كالبنيان يَشُدُّ بعضُه بعضا . أصحابى كالنجوم بأيِّهم اقتديتُم اهتديتُم . المتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبَىْ زورٍ. المرأة كالضلع إن رُمتَ قِوامها كسَرْتَها(٣) ، وإن دَاريتَهَا استمتعتَ بهـا . اليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى . مَطْلُ الغنىِّ ظُلم . يدُ الله مع الجماعة . الحياءُ شُعْبةٌ من الإيمان . مثلُ أبى بكر كالقَطْر ، أينما وقعَ نفَع . لا تجعلونى فى أعْجَازِ كتبكم كقَدح الراكب(٤) . أربعةٌ من كنوز الجنة : كتمان الصَّدَقة والمرض والمصيبة والفاقة . جنة الرجل دارُه . الناس نيام فإذا ماتوا انْتَبَهُوا . كفى بالسلامة داء . إنكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالكم ، فَسَعُوهم بأخلاقكم . ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى . كلٌّ مُيَسَّرٌ لمـا خُلِقَ له . اليمين حِنثٌ أو مَنْدَمة(٥). دَعْ ما يَريبك إلى مالا يريبك . اُنصُرْ أخاكَ ظالماً كان

---

(١) الدمن: جمع دمنة ، وهى مربط الإبل والخيل ينبت فيها النبات فيكون رائع الخضرة لكثرة الماء والسماد ، وخضراء الدمن : كناية عن المرأة الوسيمة تدرج من بيت السوء .

(٢) الفرا : حمار الوحش ، (كل الصيد فى جوف الفرا) مثل ، ومعناه أن من نال الأمر العظيم كان خليقا أن ينسى ما سواه مما ينال الناس .

(٣) القوام بالكسر : التقويم (٤) الأعجاز : الأواخر

(٥) الحنث بكسر الحاء : الذنب ، والمعنى أنك حين تقسم تقع بين الذنب والندم

أو مظلوماً . احترسوا من الناس بِسُوء الظّنّ . النَّدَمُ تَوْبة . انْتِظارُ الفرج عبادة . نعم صَوْمَعة الرجل بيتهُ . المستشير مُعان والمستشار مؤتمن . المرء كثيرٌ بأخيه . إنَّ للقلوب صَدَأً كصدإ الحديد وجِلاؤُها الاستغفار . اليوم الرِّهان وغداً السِّباق ، والجَنَّةُ الغايةُ . كلُّ مَنْ فى الدنيا ضيف ، وما فى يديه عاريَّة ، والضيف مُرْتحِل ، والعاريَّة مؤدَّاة .

ومن جوامع كَلِمِهِ عليه الصلاة والسلام ماروا أهلُ الصحيح عن عَلْقمة بن وقّاص الليثى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيّاتِ ، وإنما لكل امرىء ما نَوَى ، فمن كانت هِجْرَتُه إلى اللهِ ورسوله فهِجْرَتُه إلى اللهِ ورسوله ، ومن كانَتْ هِجرتُه إلى دُنْيا يُصيبها ، أو امرأة يتزوّجها ، فهِجْرَتُهُ إلى ما هاجر إليه » .

قال أبو القاسم حمزة بن محمد الكنانى : سمعتُ أهلَ العلم يقولون : هذا الحديث ثُلُثُ الإسلامِ ، والثلث الثانى ما رواه النعمان بن بشير أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الحلالُ بيِّن ، والحرام بَيِّن ، و بينهما أمورٌ مشتبهات ، فمن تركها كان أوْفَى لدينه وعِرْضِه ، ومن واقعها كان كالراتع حول الحِمَى ؛ ألا و إنَّ لكل ملك حِمًى ، ألا و إنّ حمى الله محَارمه »(١) .

قال : و [الثلث] الثالث ما رواه مالك [عن] ابن شهاب عن على ابن حسين أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « مِنْ حُسْنِ إسْلاَمِ المرْء تَرْكُهُ مَالاَ يَعْنِيهِ » .

---

(١) الحمى : الشىء المحمى الممنوع ، والمحارم : جمع محرم بمعنى الحرام ، يعنى أن المحرمات التى نهى الله ورسوله عنها تشبه الحمى ، فكما أنه لا يجرؤ أحد على الاقتراب مما يحميه الملوك ينبغى ألا يقرب أحد شيئا مما حرمه الله ، وفى رواية « فمن تركها فقد استوثق لدينه وعرضه » (م)

وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعرَ وأثابَ عليه ، ونَدَب حسّان بن ثابت إليه[١]، وقال : إن الله ليؤيّده بروح القُدُس ما نافَحَ عن نبيه[٢].

ولما انتهى شعرُ أبي سفيانَ بنِ الحارثِ بن عبد المطلب إلى النبي صلى الله عليه وسلم شَقّ عليه[٣] فدعا عبدَ الله بن رَوَاحة[٤] فاستنشده فأَنْشَدَه فقال : أنتَ شاعرٌ كريم ، ثم دعا كعبَ بن مالك فاستنشده فأنشده ، فقال : أنت تُحْسِنُ صِفَةَ الحرب ، ثم دعا بحسّان بن ثابت فقال : أَجِبْ عنى ، فأَخْرَجَ لسانه فضرب به أرْنَبته[٥] ؛ ثم قال : والذى بعثك بالحق ما أُحِبُّ أن لى به مِقْوَلاً فى معدّ ؛ ولو أن لسانا فَرى الشَّعْر لَفرَاه[٦]. ثم سأل رسول الله صلى الله عَليه وسلم أن يَمَسَّ من أبى سفيان ، فقال : وكيف ، و بينى و بينه الرَّحِم التى قد علمت ؟ فقال: أسُلُّك منه كما تُسَلّ الشَّعْرةُ من العجين ! فقال : اذهب إلى أبى بكر ، وكان أعلمَ الناس بأَنْساب قريش ، وسائر العرب ، وعنه أخذ جُبَير بن مُطْعِم علم النسب ، فمضى حسانُ إليه فذكر له معايبَهُ ، فقال حسّان بن ثابت :

وإنّ سَنَامَ المَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ بنو بنت مخزوم ووَالِدُك العبْـدُ
ومَن ولَدَتْ أبنـاء زُهْرَةَ منهُمُ كرامٌ، ولم يَقربْ عَجَائِزَك المَجْدُ(٧)
ولَسْتَ كَعَبَّاسٍ ولا كابْنِ أُمّهِ ولَـكِن لَئيم لا يقوم له زَنْدُ(٨)
وإنّ امرأً كانت سُمَيَّةُ أمَّهُ وسَمْرَاءُ مغموزٌ إذا بلغَ الجَهْدُ(٩)
وأنت زنيمٌ نِيطَ فى آل هاشم كما نِيطَ خَلْفَ الراكبِ القدَحُ الفَرْدُ(١٠)

---

(١) ندب : دعا (٢) نافح : دافع (٣) شق عليه : عظم عليه (٤) عبد الله بن رواحة : صحابى يعد فى الأمراء والشعراء الراجزين ، كان يكتب فى الجاهلية ، شهد العقبة وبدرا وأحدا . واستخلفه النبى على المدينة فى إحدى غزاوته . توفى سنة ٨ .

(٥) الأرنبة : طرف الأنف (٦) يفرى الشعر : يمحوه ، ومحو الشعر : كناية عن غاية الإيذاء (٧) العجائز : جمع عجوز (٨) الزند : موصل طرف الذراع فى الكف

(٩) الجهد : التعب . وبلوغه : شدته ، وهذا كناية عن السعى للمجد ، والمغموز : الخامل (١٠) زنيم : دعى معلق بمن ليس منه ، ونيط بكسر النون : علق

فلما بلغ هذا الشعر أباسفيان قال : هذا كلامٌ لم يَغِبْ عنه ابنُ أبى قُحافة[١]

يعنى ببنى بنت مخزوم عبدَ الله وأباطالبٍ والزبيرَ بنى عبدالمطلب بن هاشم [بن عبد مناف] ، أُمُّهُمْ فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، وأخواتهم بَرَّة وأميمة والبيضاء ، وهى أم حكيم ، والبيضاء جدَّة عثمان بن عفان أم أمه .

وقوله : « ومن ولدت أبناء زهرة منهم كرام» يعنى أميمة وصفية أم الزبير بن العوام أمُّهَا هَالَةُ بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة

وقوله : «ولستَ كعباس ولا كابْنِ أمه » أمُّ العباس : نتيلة امرأة من النَّمِر ابن قاسط ، وأخوه لأمه ضِرَار بن عبد المطلب

وقوله : «و إن امرأ كانت سمية أمه » سمية أم أبى سفيان ، وسمراء : أم أبيه، وليس هذا موضع إطناب فى رفع الأنساب .

وكان عبدُ الأعلى بن عبد الرحمن الأموى عَتَبَ على بعض ولد الحارث ، فقال له مُعَرِّضاً بما قال حسان :

إخالُ بالعمٍّ و بالجـــــدِّ ... مفتخِراً بالقَدَح الفَرْدِ[٢]

الْهَجْ بحسَّانٍ وأشــعارهِ ... فإنها أَدْعَى إلى المَجْـدِ

لولا سيوفُ الأَزْدِ لم تؤمنوا ... ولم تقيموا سُورَةَ الحمــــدِ

فتوعَّدُوه ، فخافهم ، فقال :

بنى هاشم عَفْواً عفا الله عنكُمُ ... و إن كان ثو بى حَشْوُ ثِنييه مُجْرِمُ[٣]

لـكم حَرَمُ الرحمن والبيتُ والصَّفا ... وَجَمْعٌ وماضمَّ الحَطِيمُ وزمزَمُ

فإن قلـتُمُ بادَهْتنَا بعظيمةٍ ... فأحلامُـكم منها أجلُّ وأعظمُ

---

(١) ابن أبى قحافة : هو أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه (م)

(٢) إخالُ ـ بكسر الهمزة ـ أظن ، والمعنى : أظنك مفتخراً بالقدح الفرد

(٣) حشو ثنييه : أراد لابس ثوبه ، كناية عن نفسه ،وهذا مثل قولهم «المجد بين برديه ، والجود حشو ثوبيه » ونحو ذلك (م)

ترجمة أبي سفيان ابن الحارث

وأسلم أبو سفيان ــ رحمه الله ! ــ وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم يومَ حُنَيْنٍ ، وكان ممسكا بَغْلَته حين فرَّ الناس ، وهو أحد الذين ثبتوا ، وهم ــ على ما ذكره أبو محمدٍ عبدُ الملك بنُ هشام ــ أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، والعباس ، وأبو سفيان ابن الحارث ، وابنه الفضل ، وربيعة بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وأيمنُ ابنُ أم أيمن بن عبيد قتل يومئذ ، وبعضُ الناس يعدُّ فيهم قُثَمَ بن العباس ، ولا يَعُدُّ أبا سفيان ، وكان أبو سفيان من أشعر قريش ، وهو القائل :

لَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ غيرَ فَخْرٍ ... بِأَنَّا نَحْنُ أَجْوَدُهُمْ حصَانَا

وَأَكْثَرُهُمْ دُرُوعاً سَابِغَاتٍ ... وأَمْضاهم إذا طعنوا سِنَانَا[1]

وَأَدفعهم عن الضَّرَّاء عنهم ... وأَبْيَنُهم إذا نطقُوا لسانا

ويروى أنَّ ابن سيرين قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَفَرِهِ قد شنق ناقته بزمامها حتى وضعت رَأسها عند مقدمة الرَّحل إذ قال : يا كعبُ ابنَ مالكٍ : احْدُ بنا ! فقال كعب :

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كلَّ حَقٍّ ... وَخَيْبَرَ ثم أَجْمَمْنا السُّيوفَا[2]

نُخَيِّرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لقالَتْ ... قواطعهُنَّ : دَوْسًا أَوْ ثَقِيفَا

فقال عليه السلام : والذى نفسى بيده لهى أشدُّ عليهم من رَشْق النَّبْل ! ويقال : إنَّ دوْساً أسلمت فرَقاً[3] من كلمة كعب هذه[4] ، وقالوا : اذهبوا فخذوا لأنفسكم الأمان من قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم !

النضر ابن الحارث

وقَتَلَ النبي صلى الله عليه وسلم النضر بن الحارث ، وكان ممن أُسِرَ يوم بدر ،

---

(١) سابغات : طويلة ضافية (٢) أجممنا : أرحنا (٣) فرقا : خوفا (٤) كان كعب بن مالك جيد الشعر ، حتى قال روح بن زنباع : أشجع بيت وصف به رجل قومه قول كعب :

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا ... يوما ، ونلحقها إذا لم تلحق

وكانت وفاته سنة ٥٥

وكان شديد العداوة لله ولرسوله ، وقتله عليٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه صَبْرًا[١] فعرضت النبي صلى الله عليه وسلم أختُه قُتيلة بنت الحارث ــ وفى بعض الروايات أن قُتيلة أتته فأنشدته :

يا راكباً إنَّ الأُثَيْلَ مَظِنَّةٌ ... مِنْ صُبْحِ غادِيَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقُ[٢]

أَبْلِغْ بِهَا مَيْتاً بِأَنَّ تَحِيَّةً ... ما إنْ تَزالُ بها النَّجائبُ تُعْنِقُ[٣]

مِنِّي إليه وعَبْرَةً مسفوحةً ... جادتْ بوا كِفِها وأُخْرَى تَخْنُقُ[٤]

هل يسمعنَّ النَّضْرُ إن ناديتهُ ... إن كان يسمع ميِّتٌ لا يَنْطِقُ

ظلَّتْ سيوفُ بنى أبيه تَنُوشُه ... للهِ أرحامٌ هناك تَشَقَّقُ[٥]

قَسْراً يُقَادُ إلى المنيَّة مُتْعَباً ... رَسْفَ المقيَّدِ وَهْوَ عانٍ موثَقُ[٦]

أمحمدٌ ها أنتَ صِنْوُ كريمةٍ ... فى قومِها والفَحْلُ فحلٌ مُعْرِقُ[٧]

ما كانَ ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ وربَّما ... منَّ الفتى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ[٨]

فالنضرُ أقربُ مَنْ قَتَلْتَ قَرَابَةً ... وأحقُّهم إنْ كان عِتقٌ يُعْتَقُ

أو كنت قابلَ فِدْيةٍ فَلْيُفْدَيَنْ ... بأعزِّ ما يُغلى به مَنْ يُنْفِقُ

فذُكِر أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رَقَّ لها ودمعت عيناه ، وقال لأبى بكر : لو كنتُ سمعتُ شِعْرَها ما قتلته .

والنضر هذا هو النضر بن الحارث بن عَلقمة بن كَلَدَة بن عبد مناف بن عبد الدار[٩]. قال الزبير بن بكار[١٠] : وسمعت بعضَ أهلِ العلم يغمز فى أبيات قتيلة بنت الحارث ويقول : إنَّها مصنوعة .

---

(١) صبراً : حبساً (٢) الأثيل : موضع بعينه قتل فيه النضر(م) (٣) تعنق : من العنق، بفتحتين ، وهوالسير الحثيث (٤) الواكف : الدائم الجريان (٥)تنوشه : تناله بالطعن(٦)قسرا: قهرا ، والرسف: مشى المقيد ، عان : أسير، موثق: مقيد (٧) يروى «ولأنت ضنء» وصنو: ابن، معرق: أصيل (٨) من:صفح، والمحنق: المملوء بالغيظ .

(٩) كان النضر حامل لواء المشركين يبدر فأسره المسلمون وقتلوه بعد انصرافهم من الواقعة (١٠) ولد الزبير بن بكار بالمدينة وولى قضاء مكة فتوفى فيها سنة ٢٥٦

رثاؤه لرسول الله صلى الله عليه وسلم

[من كلام أبى بكر رضى الله تعالى عنه]

ودخل أبو بكر الصديق رضوان الله عليه ، على النبى عليه الصلاة والسلام وهو مُسَجًّى بثَوْبٍ[1] ، فكشف عنه الثوبَ وقال : بأبى أنْتَ وأمى ! طِبْتَ حَيًّا وميّتاً ، وانقطع لموتك مالم ينقطع لموتِ أحدٍ من الأنبياء من النبوّة ، فعظُمْتَ عن الصفة ، وجَلَلْتَ عن البُكاء ، وخَصَصْتَ حتى صرت مَسْلاةً ، وعَممْتَ حتى صِرْنا فيك سَواء . ولولا أنَّ موتك كان اختياراً منك لُجُدْنا لموتك بالنفوس ولولا أنك نهيت عن البُكاء لأنفَدْنا عليك ماءَ الشؤون[2] . فأمّا مالا نستطيع نفيَه عنّا فكمَدٌ و إدْناف[3] يتحالفَانِ ولا يَبْرَحان . اللهم فأبلغه عنا السلام ، اُذكُرْنا يا محمد عند ربّك ، ولنكن من بالك ؛ فلولا ما خلّفْتَ من السكينة لم نَقِمْ لما خلّفْتَ من الوحشة ؛ اللهم أبلغ نبيَّك عنا واحفظه فينا ، ثم خرج .

قوله رضى الله عنه : « لولا أن موتك كان اختياراً منك » إنّما يريد قولَ النبى صلى الله عليه وسلم : لم يُقبَضْ نبىٌّ حتى يَرَى مقعده من الجنة ثم يُخَيَّر . قالت عائشة رضى الله عنها : فسمعتُهُ وقد شخص بصرُه وهو يقول : فى الرفيق الأعلى! فعلمت أنه خُيِّر ، فقلت : لايختارنا إذَن ، وقلت : هوالذى كان يحدثنا . وهوصحيح.

وكان أبو بكر لما تُوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أرضه بالسُّنْح[4] فتواترت إليه الرسلُ ، فأتى وقد ذُهِلَ الناس ، فكانوا كالخرس ، وتفرقت أحوالُهم ، واضطربت أمورُهم ، فكذَّب بعضُهم بموته ، وصَمَت آخرون فما تكلّموا إلا بعد [التغير] . وخلطَ آخرون فلاثُوا[5] الكلامَ بغير بيَان ، وحق لهم ذلك للرزيّة

---

(١) مسجى : مغطى (٢) الشؤون : عروق الدمع (٣) الإدناف : المرض الثقيل

(٤) السنح - بضم السين وسكون النون - موضع قرب المدينة. وكان به منزل أبى بكر رضى الله عنه .

(٥) لاثوا : خلطوا .

العظمى ، والمصيبة الكبرى ، التى هى بيضة العُقْر[1] ، و يتيمةُ الدهر ، ومدى المصائب ، ومنتهى النوائب ، فكل مصيبةٍ بعدها جَلَلٌ عندها[2] ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : لِتَعزّ المسلمين فى مصائبهم المصيبةُ بى .

حال الصحابة عند ما بلغهم موت الرسول

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ممن كذّب بموته ، وقال : ما مات ، وليرجعنّه الله ، فليقطعنّ أيدِىَ المنافقين وأرجلهم ، يتمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموتَ ؛ و إنما واعده ربه كما واعَدَ موسى ، وهو يأتيكم .

وأما عثمان رضى الله عنه فكان ممن أُخْرِس ؛ فجعل لا يكلّم أحداً ، فيؤخذ بيده و يُجاء به فينقاد .

وأما على رضى الله عنه فلُبِطَ بالأرض[3] فقعد ولم يَبْرَح البيت حتى دخل أبو بكر، وهو فى ذلك جَلْد العقل والمقالة[4]، فأكبَّ عليه ، وكشف عن وَجْهه ومسَحَه ، وقبّل جبينه ، و بكى بكاء شديداً ، وقال الكلامَ الذى قدّمته . ولما خرج إلى الناس وهم فى شديد غمَرَاتهم ، وعظيم سَكَراتهم ، قام فخطب خطبة جُلها الصلاةُ على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال فيها : أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله وَحْدَهُ

خطبة أبى بكر يوم موت الرسول

لاشريكَ له ، وأشهدُ أنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدينَ كما شرع ، وأنّ الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو

---

(١) بيضة العقر : مثل للحادث الذى يندر أن يتكرر ، وهى فى الأصل بيضة الدجاجة التى لاتبيض بعدها ، والذى فى الأصل «بيضة العصر» وهو تحريف .

(٢) جلل : من أسماء الأضداد ، ويطلق على الأمر العظيم كما يطلق على الأمر الصغير . ومن أمثلة إطلاقه على الأمر الخطير قول الشاعر :

قومى هم قتلوا أميم أخى ... فإذا رميت يصيبنى سهمى
فلئن عفوت لأعفون جللا ... ولئن ضربت لأوهنن عظمى

والمراد هنا المعنى الثانى ، وهى الحقير من الأمور ؛ لأنه يقصد أن كل مصيبة تهون وتحتقر بعد المصيبة الكبرى بموت الرسول (م) .

(٣) لبط بالأرض ، ولبط به : سقط من قيام كأنما صرع . والعبارة الثانية بصيغة المفعول (٤) جلد : ثابت .

الحقُّ المبين . فى كلام طويل ، ثم قال : أيها الناسُ ؛ مَنْ كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات ، ومن كان يعبدُ الله فإن الله حيٌّ لا يموت ، وإن الله قد تقدَّم إليكم فى أمره ، فلا تدَعُوه جزَعا ، وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم ، وقبضَه إلى ثوابه ، وخلَّف فيكم كتابه ، وسنةَ نبيِّه ، فمن أخذ بهما عَرَفَ ، ومن فرّق بينهما أنكر ؛ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ، ولا يَشْغَلَنَّكُمْ الشيطانُ بموْتِ نبيكُمْ ، ويفتننَّكُمْ عن دينكم ؛ فعاجلوه بالذى تعجزونه ، ولا تستنظروه فيلحق بكم .

فلما فرغ من خطبته قال : ياعمر ! بلغنى أنك تقول ما مات نبيُّ الله ، أما علمت أنه قال فى يوم كذا وكذا ، وفى يوم كذا وكذا : قال الله تبارك وتعالى : (إنَّكَ ميِّتٌ وإنهم ميِّتُون) ؟ فقال عمر : والله لكأنى لم أسمعْ بها فى كتابِ الله قبلُ ؛ لما نزل بنا . أشهد أن الكتابَ كما نزل ، وأن الحديثَ كما حدّث ، وأنّ الله حيٌّ لا يموت ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ! ثم جلس إلى جنب أبى بكر رحمه الله .

قالت عائشة رضوان الله عليها : لما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم نَجَم النفاق[١] ، وارتدَّت العرب ، وكان المسلمون كالغنم الشاردَة ، فى الليلة الماطرة ، فحمل أبى ما لو حملته الجبال لهاضها[٢] فوالله إن اختلفوا فى معظم إلا ذهب بحظّه ورشده وغنائه . وكنتُ إذا نظرتُ إلى عمر علمتُ أنه إنما خلِقَ للاسلام ، فكان والله أحوذيًّا نسيجَ وَحْدِهِ[٣] ، قد أعدَّ للأمور أقرانها .

رثاء فاطمة الزهراء لأبيها رسول الله

وحدث أبو بكر بن دريد عن عبد الأول بن سزيد قال : حدثنى رجل فى مجلس يزيد بن هرون[٤] بالبصرة قال : لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) نجم : نشأ (٢) هاضها : دكها وحطمها (٣) أحوذى : حاذق قاهر للأمور لا يشذ عنه شىء — ونسيج وحده : لا نظير له ، كأنما نسج على نول لم ينسج عليه سواه (م)
(٤) يزيد بن هرون : من حفاظ الحديث الثقات ، كان يهابه المأمون توفى بواسط فى سنة ٢٠٦

دُفِنَ ورجع المهاجرون والأنصار إلى رحالهم ، ورجعت فاطمة إلى بيتها ؛ فاجتمع إليها نساؤها ، فقالت :

أُغبرّ آفاقُ السماء ، وكُوِّرَتْ شمسُ النهار ، وأظْلَمَ العصرانِ(١)

فالأرضُ من بعد النبى كئيبةٌ أسفاً عليــه كثيرةُ الرجَفَانِ(٢)

فليبكِهِ شَرْقُ البلاد وغَرْبُها وليبكه مُضَرٌ وكل يَمـَانِ

وليبكه الطُّور المعظَّم جَـوُّهُ والبيتُ ذو الأستَار والأركانِ

يا خاتم الرسل المبارك ضوءهُ صلَّى عليك منزِّلُ الفُرْقانِ(٣)

عود إلى المختار من كلام أبى بكر

وكان أبو بكر ـ رَضِيَ الله عنه! ـ إذا أُثْنِيَ عليه يقول: اللهم أنت أعلمُ بى من نفسى ، وأنا أعلم بنفسى منهم ، فاجعلنى خيراً مما يَحْسَبُون ، واغفر لى برحمتك مالا يعلمون ، ولا تؤاخِذْنِى بما يقولون .

وقال رحمه الله فى بعض خطبه : إنكم فى مَهَل ، من ورائه أجل . فبادروا فى مَهَل آجالكم ، قبل أن تنقطع آمالكم ، فتردكم إلى سوء أعمالكم .

وذكر أبو بكر الملوكَ فقال : إن الملك إذا مَلَكَ زَهَّدهُ الله فى ماله ، ورغَّبه فى مالِ غيره ، وأشرب قلبه الإشفاق ؛ فهو يسخط على الكثير ، ويَحْسُدُ على القليل ، جَذِلُ الظاهر، حَزِين الباطن ، حتى إذا وَجَبَتْ نفسهُ ، وَنَضَبَ عمره ، وضَحَا ظلُّه(٤) حاسَبَهُ فأشدَّ حسابه وأقل عفوه .

وذكر أنه وصل إلى أبى بكر مالٌ من البحرين ، فساوى فيه بين الناس . فغضبت الأنصار ، وقالوا له : فَضِّلْنَا ! فقال أبو بكر : صدقتم ، إن أردتُمْ أن أفضلكم صار ما عملتُمُوه للدنيا ، وإن صبرتم كان ذلك لله عز وجل ! فقالوا : والله ما عملنا إلا لله تعالى ، وانصرفوا ؛ فَرَقِيَ أبو بكر المنبر . فحمِدَ الله . وأثنى

---

(١) كورت : سقطت (٢) الرجفان: الاضطراب (٣) فى نسخة « المبارك صنوُه» أى الذى بارك الله نسله (م) والظاهر أن هذه الأبيات مصنوعة (٤) وجبت نفسه : فاضت روحه ، ونضب : نفد ـ وضحا ظله : كناية عن أنه مات (م)

عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ثم قال : يا معشر الأنصار ؛ إن شئتم أن تقولوا : إنّا آوَيْنَاكم فى ظِلاَلِنَا ، وشاطرناكم فى أموالنا[١] ، ونصرناكم بأنفسنا لقلتم ، وإنّ لكم من الفضل مالا يُحْصِيه العدد ، وإن طال به الأمد ، فنحن وأنتم كما قال طُفَيل الغَنَوى[٢] :

جزى الله عنا جعفراً حين أَزْلَقَتْ ... بنا نَعْلُنا فى الواطئين فزَلَّت[٣]

أَبَوْا أن يملُّونا ولو أن أمنا ... تُلاَقِى الذى يَلقَوْنَ منَّا لَمَلَّتِ[٤]

هُمْ أسكنونا فى ظلال بيوتهم ... ظلال بيوتٍ أدفأتْ وأظلَّتِ

فِقَرٌ من كلامه رضى الله عنه : صنائعُ المعروف تقى مصارعَ السوء . الموت أهونُ مما بعده ، وأشد مما قبله . ليست مع العزاء مصيبة ، ولا مع الجزع فائدة . ثلاث مَنْ كنَّ فيه كنَّ عليه : البَغْى ، والنكث ، والمكر . إن الله قَرَنَ وَعْده بوعيده ؛ ليكون العبد راغباً وراهباً .

رثاء عائشة أم المؤمنين لأبيها الصديق

ولما توفى رضى الله عنه وقفت عائشة على قبره ؛ فقالت : نَضَّرَ اللهُ وَجْهَكَ يا أَبَت . وشكر لك صالحَ سَعْيك ، فلقد كنت للدنيا مُذِلاً بإدبارك عنها ، وللآخرة مُعِزًّا بإقبالك عليها ، ولئن كان أجَلَّ الحوادث بعد رسول الله صلَّى الله عليه وسلم رزؤك . وأعظمَ المصائب بعده فقدك ، إن كتاب الله لَيَعِدُ بحسن الصبر عنك حسنَ العوض منك ، وأنا أستنجز موعودَ الله تعالى بالصبر فيك ، وأستقضيه بالاستغفار لك ، أما لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا فلقد قمتَ بأمر الدين لما وَهى شَعْبُهُ[٥] وتفاقم صَدْعهُ[٦] ، ورجَفَتْ جوانبه[٧] ؛ فعليك

---

(١) آويناكم فى ظلالنا : جعلناها لكم مأوى ، وشاطرناكم أموالنا : قاسمناكم فيها فأعطيناكم شطرها : أى نصفها (م) (٢) شاعر جاهلى من الشجعان ، كان من أوصف الشعراء للخيل ، عاشر النابغة الجعدى وزهير بن أبى سلمى ، ومات نحو سنة ١٣ ق هـ (٣) زلت : سقطت (٤) هذا البيت غاية الغايات فى وصف المواساة والبر الموصول (٥) وهى شعبه : تفرق شمله ، قال الطرماح * شت شعب الحى بعد التئام *

(٦) تفاقم صدعه : اتسع كسره ، والصدع فى الأصل : كسر الزجاجة

(٧) رجفت : اضطربت

سلام الله توديعَ غيرِ قاليةٍ لحياتك ، ولا زاريةٍ على القضاء فيك[1]

وقال أبو بكر لبلال لما قُتل أمية بن خلف وقد كان يَسُومُه سوء العذاب بمكة فيخرجه إلى الرَّمْضاء[2] ، فيلقى عليه الصخرة العظيمة ليفارقَ دينَ الإسلام فيعصمه الله من ذلك :

هَنيئاً زادك الرحمنُ خيراً ... فقد أدركْتَ ثأرك يابلالُ

فلا نِكْسا وُجِدْتَ ولا جباناً ... غداة تنوشُكَ الأسَل الطوالُ[3]

إذا هاب الرِّجال ثبتَّ حتى ... تخالط أنتَ ما هابَ الرِّجالُ

على مضض الكُلُوم بمشرفيٍّ ... جَلاَ أطرافَ متنيه الصقَّالُ[4]

[من كلام عمر]

من عمر إلى ابنه عبد الله

وكتب عمرُ بن الخطاب — رضي الله عنه ! — إلى ابنه عبدِ الله :

أما بعد ؛ فإنه مَن اتَّقي اللهَ وَقَاهُ ، ومن توكل عليه كَفَاهُ ، ومن شكر له زادهُ ، ومنْ أقرَضهُ جَزَاهُ ؛ فاجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصرك ، فإنه لا عمل لمن لا نيةَ له ، ولاأجرَ لمن لا خشيةَ له ، ولا جديد لمن لا خَلَقَ لهُ .

بين عمر وعدى ابن حاتم الطائى

ودخل عدىّ بن حاتم على عمَر ، فسلّم وعمرُ مشغول ، فقال : يا أميرَ المؤمنين! أنا عدىّ بن حاتم ؛ فقال : ماأعْرَفَني بك ! آمنتَ إذ كفروا ، ووفيتَ إذ غَدَرُوا ، وعرفتَ إذ أنكروا ، وأقبلْتَ إذ أدْبَرُوا !

عمر يصف السيد

وقال رجل لعمر : مَن السيد ؟ قال : الجواد حين يُسْأَل ، الحليم حين يُسْتجْهَل ، الكريم المجالسةِ لمن جالَسه. الحسَن الْخُلقِ لِمَنْ جاوره .

وقال رضي الله عنه : ما كانتِ الدنيا همَّ رجلٍ قطُّ إلا لزم قلبَه أربعُ خِصَالٍ :

---

(١) زارية : عائبة (٢) الرمضاء : هي الحجارة التى اشتد عليها وقع الشمس فحميت ، قال الشاعر :

المستجير بعمرو عند كربته ... كالمستجير من الرمضاء بالنار

(٣) النكس: الرذل ، والأسل: الرماح (٤) الكلوم: الجروح، والمشرفي: السيف

فقرٌ لا يُدْرَكُ غناه ، وهمٌّ لا ينقضى مَدَاه ، وشُغْلٌ لا يَنْفَدُ أولاه ، وأمل لايبلغ مُنْتَهَاهُ .

فصول قصار من كلامه رضى الله عنه

مَنْ كتم سره كان الخِيارُ فى يده . أشقى الوُلاَة من شقيَتْ به رعيَّتُهُ . أعقلُ الناس أعذرُهم للناس . ما الخمرصِرْفاً[1] بأذْهَب لعقولِ الرجالِ من الطمع . لا يكن حُبُّك كَلَفًا ، ولا بُغضُكَ تَلَفًا . مُرْذوى القرابات أن يتزَاوَرُوا ، ولا يتجَاوَرُوا . قلَّما أدْبر شىء فأقبل . أشكو إلى الله ضَعْفَ الأمين ، وخيانةَ القوىّ تكَثَّرُوا من العيال فإنكم لا تدرون بمن تُرْزَقون . لو أن الشكر والصبر بَعِيرَانِ ما باليت أيَّهما أركب . من لايعرفُ الشرّ كان أجدر أن يقع فيه .

وصف صعصعة ابن صوصان لعمر بن الخطاب

وقال معاوية بن أبى سفيان لصعصعة بن صُوحَانَ : صِفْ لى عُمَرَ بن الخطاب ؛ فقال : كان عالمًا برعيَّته ، عادلاً فى قضيَّته ، عارياً من الكِبْر ، قبولاً للعُذر ، سَهْلَ الحِجَاب ، مَصُونَ الباب ، متحرّياً للصواب ، رفيقاً بالضعيف ، غير مُحَابٍ للقريب ، ولا جافٍ للغريب .

عمر يذكر ماضيه وحاضره

وروى أن عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه حجّ فلما كان بضَجْنان[2] قال : لا إله إلا الله العلىّ العظيم ، المعطى مَنْ شاء ما شاء ، كنتُ فى هذا الوادى فى مِدْرَعة صوف أرْعَى إبل الخطّاب ، وكان فظًّا يُتْعِبنى إذا عملت ، ويضربنى إذا قصرت ، وقد أمسيت الليلة ليس بينى و بين الله أحد ، ثم تمثل :

لاشىء مما ترى تَبْقَى بشاشتُهُ ... يبقى الإله و يُودِى المالُ والولدُ[3]
لم تُغن عن هُرْمُز يوما خزائنهُ ... والخُلْدَ قدحاولت عادٌ فما خلَدُوا
ولاسليمان إذْ تجرِى الرياحُ لهُ ... والجنُّ والإنسُ فيما بينها تَرِدُ

---

(١) الخمر الصرف : الخالصة (٢) ضجنان : جبل قرب مكة .
(٣) يودى : يذهب .

أين الملوك التي كانت نوافلها | من كل صَوْبٍ إليها وافِدٌ يَفِدُ[١]
حوضٌ هنالك مورودٌ بلا كدر | لا بدَّ من وِرْدِهِ يوماً كما وَرَدُوا

من شعر عمر يوم فتح مكة

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوم فتح مكة :

ألم تر أن اللهَ أظهــرَ دِينَهُ | على كل دِينٍ قبل ذلك حائدِ[٢]
وأمكنه من أهل مكة بعدما | تداعَوْا إلى أمرٍ من الغيّ فاسدِ
غداةَ أجالَ الخيلَ فى عَرَصَاتِها | مسوَّمةً بين الزبير وخالد[٣]
فأمسى رسولُ اللهِ قد عزَّ نَصْرُهُ | وأمسى عِدَاه مِنْ قتيلٍ وشارِدِ

يريد الزبيرَ بن العوام[٤] حَوَارِيّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وخالدَ ابن الوليد سيفَ الله تعالى فى الأرض[٥] .

زوج عمر ترثيه

ولما قتله أبو لؤلؤة غلامُ المغيرةِ بن شُعْبة ، قالت عاتكة بنت زيد بن عمرو ابن نفيل زوجته ترثيه :

عَيْنُ جُودى بِعَبْرَةٍ ونَحيبِ | لا تَملّى على الأمين النَّجيبِ
فجَعَتْنى المنونُ بالفارسِ الْمُعــلَمِ يوم الهِياج والتثويبِ[٦]
عِصْمَةَ الناسِ والمُعينُ على الدَّهــرِ وغيثُ المحروم والمحروبِ[٧]
قل لأهْلِ الضراءِ والبُؤسِ موتوا | قد سقته المنونُ كأسَ شَعوبِ[٨]

وقالت أيضاً ترثيه :

وفَجَّعَــنى فيْرُوزُ لا درّ درّه | بأبيضَ تالٍ لِلْكِتابِ مُنيبِ

---

(١) النوافل: العطايا . فى نسخة «من كل أوب» والصوب . ومثله الأوب : الجهة
(٢) حائد : مائل (٣) مسومة: وضعت عليها العلامات
(٤) الزبير بن العوام : أحد المبشرين بالجنة ، وأول من سل سيفه فى الإسلام ، كان طويلا جداً إذا ركب تخط رجلاه الأرض . توفى سنة ٣٦ .
(٥) توفى خالد بن الوليد سنة ٢١ .
(٦) الفارس المعلم : هو الذى علق عليه صوف ملون فى الحرب ، والتثويب: الدعاء
(٧) المحروب : المسلوب (٨) شعوب : هى المنية ؛ لأنها تشعب الشمل وتبدده

رءوف على الأدنى غليظ على العدَا　　أخى ثقــــة فى النائبات نجيب
متى ما يَقلْ لا يكذب القولَ فِعلُهُ　　سريع إلى الخيرات غير قَطُوبِ

ترجمة عاتكة بنت زيد بن عمرو زوج عمر

وعاتكة هذه : هى أخت سعيد بن زيد أحدِ العشرة الذين شهد لهم النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وكانت تحت عبد الله بن أبى بكر ، فأصابه سَهْمٌ فى غَزْوَة الطائف فمات منه ، فتزوّجها عمر رضى الله عنه فقُتِلَ عنها ، فتزوجها الزبير ابن العوام فقُتِلَ عنها ؛ فكان علىٌّ رضى الله عنه يقول : من أحبَّ الشهادة الحاضرة فليتزوّج بعاتكة !

ومن كلام عثمان بن عفان رضى الله عنه :

ما يَزَعُ اللهُ بالسُّلْطانِ ، أكثرُ مما يَزَعُ بالقرآن[1] . سيجعلُ الله بعد عُسْرٍ يسراً ، و بعد عِىٍّ بياناً ؛ وأنتم إلى إمام فعَّال ، أحوجُ منكم إلى إمامٍ قوَّال ، قاله فى أول خلافته وقد صعد المنبر وأُرْتِج عليه[2] .

وكتب إلى على رضى الله عنه وهو مَحْصُور : أما بعد ، فقد بَلغ السَّيْلُ الزُّبَى ، وجاوز الحزام الطُّبْيَيْنِ[3] ، وطمع فىَّ مَنْ كان لا يَدْفع عنه نفسه ، ولم يعجزك كلئيم ، ولم يغْلِبْك كمُغَلَّب[4] ؛ فأقبلْ إلىَّ ، معى كنت أو علىَّ ، على أىِّ أمرَيْك أحببت .

فإن كنتُ مأْكُولاً فكُنْ أنت آكِلى　　وإلاَّ فأَدْرِكْــنِى وَلَمَّا أُمزَّقِ

وهذا البيت للممزَّقُ العبدى ، و به سمى الممزَّق ، واسمه شأْس ، و إنما تمثل به عثمان رضى الله عنه ؛ وحُذَّاقُ أهل النظر يدفعون هذا ، و يستشهدون على فساده بأحاديث تَنَاقضُه ليس هذا موضعها .

---

(١) يزع : يزجر ويردع (٢) أرتج عليه باب الكلام : أغلق .
(٣) الزبى : جمع زبية وهى الرابية لا يعلوها ماء ، وبلوغ السيل الزبى كناية عن اشتداد الأمر ، والطبى ــ بالضم والكسر ــ حلمات الضرع ، وبلوغ الحزام الطبيين كناية أيضاً عن الشــدة (٤) مغلب : غلب كثيراً ، ولم يغلبك كمغلب : يستعمل فى المدح والذم .

قالوا : وكان عثمان رضى الله عنه أتقى لله أن يَسْعى فى أمره علىّ ، وعلىّ أتقى لله أن يسعى فى أمرِ عثمان ، وهذا من قوله عليه السلام : أشْقَى الناس مَنْ قتله نبى أو قَتَلَ نبيًّا .

ومن كلام عثمان رضى الله عنه وأكرم نزله ، وقد تنكر له الناس : أمرُ هؤلاء القوم رعاع عير ، تطأطأت لهم تطأطأ الدلاء وتلددْت لهم تلدد المضطر ، رأيتهم ألحفَ إخواناً ، وأوهمنى الباطل لهم شيطاناً . أجررت المرسون رَسَنَه ، وأبلغت الراتع مسعاته ، فتفرقوا علىّ فرقاً ثلاثاً ، فصامتٌ صمته أنفذ من صَوْلِ غيره ، وشاهد أعطانى شاهده ومنعنى غائبه ، ومتهافتٌ فى فتنة زُيِّنَتْ فى قلبه ، فأنا منهم بين ألسُنٍ لِدَاد ، وقلوب شــداد ، عذيرى الله منهم ، ألا ينهى عالم جاهلا ، ولا ينذر حليمٌ سفيهاً ؟ والله حسبى وحسبهم يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

سئل الحكم بن هشام فقال: كان والله خيار الخيرة . أمير البررة، قتيل الفجرة، منصور النصرة ، مخذول الخذلة ، مقتول القتلة .

وخاير البيت الذى أنشده قول صخر الجعد :

فإن كنت مأكولا فكن أنت آكلى ... فإن منايا القوم أكرمُ من بعض

قال المتوكل : أتيت بأسارى ، فسمعت امرأة منهم تقول :

أمير المؤمنين سَمَا إلينــا ... سُموّ الليث أخرجه العريف

فإن نسلم فعونَ الله نرجو ... وإن نقتل فقاتلُنا شريف

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لا يعرف لعثمان شعر ، وأنشد له بعضهم :

غِنَى النفسِ يُغْنى النفسَ حتى يكُفَّها ... وإنْ عضَّهاَ حَتَّى يضرَّ بها الفقْرُ

وما عُسْرَةٌ ـ فاصْبِرْ لها إن تَتَابعَتْ ـ ... بباقيــةٍ إلاَّ سيتبعهــا يُسْرُ

وقولُ عثمان رضى الله عنـه فيما روى : « ولم يغلبك كمغلَّب » من قول امرىء القيس :

فإنكَ لم يَفخَرْ عليك كفاخر ضعيفٍ ولم يغلبك مثل مُغلَّبِ

وقال أبو تمام وذكر الخمر :

وضَعيفةٌ فإذا أصابَتْ فُرْصةً قَتلَتْ ، كَذلكَ قُدْرَةُ الضُّعفاءِ

ومن كلام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

لا تَكُنْ ممن يَرْجُو الآخرةَ بغير عمل ، ويؤخِّرُ التوبةَ لطولِ الأمل . ويقولُ في الدنيا بقولِ الزاهدين ، ويعملُ فيها بعملِ الراغبين ، إنْ أُعطِيَ منها لم يشبع ، وإن مُنِع لم يَقْنَعْ ، يعجز عن شُكرِ ما أُوتي ، ويبتغي الزيادة فيما بَقِيَ ، يَنْهى ولا يَنْتَهي ، ويأمر بما لا يأتي ، يحبُّ الصالحين ولا يعملُ أعمالهم ، ويُبغِضُ المسيئين وهو منهم ؛ يكره الموتَ لكثرة ذنوبهِ ، ويقيمُ على ما يكرهُ الموتَ له ، إن سقم ظلَّ نادما ، وإن صحَّ أمِنَ لاهيا ، يُعجَبُ بنفسه إذا عُوفي ، ويَقْنَطُ إذا ابتلي ، تغلبهُ نفسهُ على ما يظنُّ ، ولا يَغلبُهَا على ما يستيقن ، ولا يَثِقُ من الرزق بما ضُمِنَ له ، ولا يَعمَل من العمل بما فُرِض عليه ، إن استغنى بَطِرَ وفُتِن ، وإن افتقر قَنِطَ وحَزِن ، فهو من الذّنب والنعمة موقَر[1] ، يبتغي الزيادة ولا يَشكر ، ويتكلّف من الناس مالم يُؤمر ، ويُضيع من نفسه ما هو أكثر ، ويُبالغ إذا سأل ، ويقصر إذا عمل ، يخشى الموتَ ، ولا يبادِر الفَوْتَ ، يستكثر من معصية غيره ما يستقلُّ أكثره من نفسه ؛ ويستكثرُ من طاعته ما يستقله من غيره ، فهو على الناس طَاعِن ، ولنفسه مداهن ، اللَّغْوُ مع الأغنياء أحبُّ إليه من الذكر مع الفقراء ، يحكم على غيرِه لنفسه ، ولا يحكمُ عليها لغيره ، وهو يُطَاع ويَعْصِي ، ويستوفِي ولا يُوفي .

وسُئِل رضي الله عنه عن مسألة فدخَلَ مبادراً ، ثم خرج في حذاء ورداء ، وهو يتبسّم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إنك كنت إذا سُئِلْتَ عن مسألة كنت فيها كالسِّكّة المُحْماة[2] ! فقال : إني كنتُ حاقنا ولا رَأْيَ لحاقن[3] ، ثم أنشأ يقول :

---

(١) موقر : مثقل (٢) السكة : الحديدة (٣) الحاقن : هو الذى احتبس بوله

إذا المشكلاتُ تصدَّيْنَ لى　　كشفتُ حقائقَها بالنَّظَرْ
و إن برقَتْ فى مخيل الصوا　　ب عَمْيَاء لا تجتليها الذكر(١)
مقنعةً بأمور الغيوب　　وضعت عليها صحيحَ الفِكَرْ
لسانًا كشقشقة الأرحبىِّ　　أو كالحسام اليمانى الذَّكَرْ(٢)
وقلبًا إذا استنطقته العيون　　أمرَّ عليها بواهى الدرر(٣)
ولستُ بإمّعة فى الرّجال　　أُسائل عن ذَا وذَا ما الخبر(٤)
ولكننى ذَرِبُ الأصغرَيْنِ　　أبيِّن مَعْ ما مضى ما غبر(٥)

وصف ضرار الصدائى لمعاوية عليا

وقال معاوية رضى الله عنه لضِرار الصُّدَائى : يا ضرار ، صِفْ لى عليًا ، فقال: أعْفِنِى يا أمير المؤمنينَ ، قال : لتصفنّهُ ، فقال : أما إذ أذنت فلا بدَّ من صفته : كان والله بعيدَ المدَى ، شديدَ القوَى ، يقولُ فَصْلاً(٦) ، ويحكمُ عَدْلاً ، يتفجّرُ العلمُ من جوانبه ، وتنطقُ الحكمةُ من نواحيه ، يستَوْحِشُ من الدنيا وزهْرَتِها . ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزيرَ الدَّمْعَة ، طويلَ الفكرة ، يقلبُ كفّهُ ، ويخاطب نفسه ، يعجِبُهُ من اللِّباس ما قَصُرَ ، ومن الطعام ما خشُنَ ، وكان فِينا كأحدِنَا ، يُجيبُنَا إذا سألناهُ ، ويُنْبِئُنَا إذا اسْتَنْبَأْنَاهُ ، ونحن ــ مع تقريبِهِ إيَّانا ، وقُرْبِهِ منا ــ لانكادُ نكلمه لهيبتهِ ، ولا نَبْتَدِئُهُ لعظمته ، يعظمُ أهل الدين ، ويحبُّ المساكينَ ، لا يطمعُ القوىُّ فى باطله ، ولا يَيْأَسُ الضعيفُ من عدلِهِ ، وأشهدُ لقد رأيتهُ فى بعض مواقفهِ ، وقد أرْخَى الليلُ سُدُولَه ، وغارت نجومُهُ ، وقد مَثَلَ فى محرابه ، قابضًا على لحيته يَتَمَلْمَلُ تململَ السليم(٧) ، ويبكى بُكاء الحزين ، ويقول : يا دُنيا إليكِ

(١) مخيل : مظنون ، وهو السحاب تخاله ماطراً لرعده وبرقه .
(٢) الأرحبي: الجمل ، وشقشقته : هديره .(٣) نسخة « استنطقته العيوب »(م)
(٤) الإمعة : الرجل الذى لاخطر له ـ فهو يكون تابعاً لغيره ولا يكون مستقلا (م)
(٥) ذرب الأصغرين : حديد القلب واللسان (٦) القول الفصل : هو الحق
(٧) السليم : الملدوغ . سمى بذلك تفاؤلا .

عَنِّى ! غُرِّى غَيْرِى ، أَلِى تعرَّضْت ، أمْ إلَىّ تشوَّفْتِ ؟ هيهات ! قد باينْتُكِ ثلاثًا ، لا رَجْعةَ لى عليك ؛ فَعُمْرُكِ قصيرٌ ، وخَطَرُكِ حَقِير ، وخطبُكِ يسير ؛ آهِ من قلة الزاد ، وبُعْدِ السفرِ ، وَوَحْشةِ الطريق !

فبكى معاوية حتى أخضَلَتْ دُموعُه لحيتَهُ ؛ وقال : رَحِمَ اللهُ أبا الحسن ! فلقد كان كذلك ، فكيفَ حُزْنُكَ عليه يا ضِرَار ؟ قال : حُزْنُ مَنْ ذُبِحَ وَاحِدُهَا فى حِجْرِها !

وقال عنه رضوان الله عليه : رَحِمَ اللهُ عبداً سَمِعَ فوَعَى ، ودُعِيَ إلى الرشاد فَدَنَا ، وأخذ بحُجْزَة هادٍ فنجا[1] . وراقبَ رَبَّه ، وخافَ ذَنْبَهُ ، وقدَّم خالصاً ، وعملَ صالحًا ، واكتسبَ مذْخوراً ، واجتنب محذوراً ، ورمى غرَضاً ، وكابرَ هوَاهُ ، وكذَّبَ مُنَاهُ ، وحذِرَ أجلاً ، ودأب عملا ، وجعلَ الصبرَ رغبةَ حياته ، والتُّقَى عُدَّةَ وفاته ، يُظْهِرُ دون ما يكتُمُ ، ويكتفى بأقلَّ مما يعلم ؛ لزمَ الطريقة الغرَّاء ، والمحجَّة البيضاء ، واغتنمَ المهلَ ، وبادَرَ الأجَلَ ، وتَزَوَّدَ من العَمل .

على يرثى خباب ابن الأرت

ولما رَجع رضى الله عنه من صِفِّين ، فدخلَ أوائلَ الكوفة إذا قَبْرٌ ، فقال : قبْرُ مَنْ هٰذَا ؟ فقيل : خَبَّاب بن الأرتِّ[2] ، فوقفَ عليه ، وقالَ : رحم الله خَبَّاباً ! أسلمَ رَاغِباً ، وهاجرَ طائعاً ، وعاشَ مجاهِداً ، وابْتُلِيَ فى جسمه أحوالاً ، ولن يضيع اللهُ أجرَ مَنْ أحسنَ عملا .

على أمام القبور

ومضى فإذا هو بقبور ، فوقف عليها ، وقال : السلامُ عليكم أهلَ الديار المُوحِشة ، والمحالِ المُقفِرَةِ ، أنتم لنا سَلَف ، ونحنُ لكم تبَع ، وبكم — عما قليل — لاحِقُون ؛ اللهمَّ اغفِرْ لنا ولهم ، وتجاوز عنا وعنهم بعفوِكَ ! طُوبَى

---

(١) الحجزة : الحضن، وأخذ بحجزة فلان : استظهر به واستعانه (٢) خباب بن الأرت : صحابى جليل، استضعفه المشركون فعذبوه ليرجع عن دينه فصبر، إلى أن كانت الهجرة . توفى سنة ٣٧ .

لمن ذكرَ المَعاد ، وعَمِلَ للحساب ، وقَنِعَ بالكَفاف . ثم التفت رضى الله عنه إلى أصحابه ، فقالَ : أما إنهم لو تكلَّموا لقالوا : وَجدْنا خَيرَ الزادِ التقْوَى .

على يصف الدنيا

وذَمَّ رَجُلٌ الدنيا بحَضْرَةِ علىّ رضى الله عنه ، فقال : دارُ صِدْق لمن صدقها ، ودَارُ نجاةٍ لمن فهم عنها ، ودارُ غِنًى لمن تزَوَّدَ منها ، مهْبِطُ وَحْىِ اللهِ ، ومُصَلًّى ملائكته ، ومَسْجِدُ أنبيائه ، ومَتْجَرُ أوليائه ، رَبِحُوا فيها الرحمة ، واكتسبوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمّها ، وقد آذَنتْ ببينِها ، ونادت بفِرَاقها ، وذكَّرَتْ بسرورها السرور ، و ببلائها البلاء ، ترغيباً وترهيباً ، فيأيّهَا الذامّ لها ، المعلّل نفسه بغرورها ، متى خدَعتْكَ الدُّنيا ؟ أم بماذا اسْتَذَمّتْ إليك(١) ، أبِمصْرَع آبائكَ فى البِلى ؟ أم بِمَضْجَعِ أُمهاتك فى الثرَى ، كم مرّضت بكفّيكَ ، وكم عللت بيديك ، تطلبُ له الشفاء ، وتستوصفُ الأطباء ، غَداةَ لا ينفعُه بكاؤك ، ولا يغنى دواؤك .

من قصار كلام على

فقر من كلامه رضى الله عنه : [البشاشة فخ المودة . والصبر قبر المغبون . والغالبُ بالظلم مغلوب . والحجَرالمغصوبُ بالدار رهنٌ بخرابها . وماظفِر مَنْ ظفرت به الأيام . فسالِمْ تَسْلَمَ]. رَأْىُ الشيخ خيرٌ من مَشْهَدِ الغلام(٢) . الناس أعداء ما جهلوا . بقية عُمر المؤمن لا ثمَن لها ، يدرك بها ما أفات [ويحيى ما أمات] .

نقل هذا الكلام بعضُ أهلِ العصر، وهو أبو الفتح علىّ بن محمد البستى(٣) .

---

(١) استذمت إليك : فعلت ماتذمها عليه ـ وفى نسخة « استدنت إليك » (م)

(٢) مشهدالغلام : مايشهده ويراه رأىالعين (٣) على بن محمد، ويقال ابن أحمد كما ذكر ياقوت فى معجم الشعراء ـ شاعر، كاتب مات فى بخارى سنة ٤٠٠ ، وفى أبى الفتح البستى يقول عمران بن موسى :

إذا قيل أىالأرض فى الناس زينة أجبنا وقلنا: أبهج الأرض بستها

فلو أننى أدركت يوما عميدها لزمت يد البستى دهراً وبستها

بقيةُ العمرِ عنـدى مالها ثمن وإن غَدًا وهو محبوبٌ من الثمنِ
يستدركُ المرءُ فيها ماأفات ويُحْـــيِي ماأمات ويَمْحُو السوءَ بالحسَنِ

الدنيا بالأموال ، والآخرةُ بالأعمال . لا تخافَنَّ إلا ذنبك ، ولا ترجُوَنَّ إلا ربك . وجِّهُوا آمالـكم إلى مَنْ تحبه قلوبُكم . الناسُ من خَوْف الذل فى الذل . مَنْ أيْقَنَ بالْخَلَفِ جاد بالعطية . بقيّةُ السيفِ أنْمَى عَدَدًا ، وأنْجَبُ ولداً ــ وقد تبينت صِحَّةَ ما قال فى بنيه و بنى المهلب ــ إنَّ من السكوت ما هو أبْلَغُ من الجواب . الصبرُ مَطِيَّةٌ لا تَـكْبُو ، وسَيْفٌ لا يَنْبُو[1] . خَيْرُ المـالِ ما أغناك ، وخيرٌ منه ما كَفاك ، وخير إخوانك مَنْ واساك ، وخيرٌ منه من كفاك شره .

وقال بعضُ أهل العصر مايشاكل هذا وهو أبو الحسن محمد بن لَنْـكَكٍ البصرىُّ :

عَـــدِّيا فى زماننا عَنْ حَديثِ المكارمِ
مَنْ كَفَى الناسَ شرَّهُ فهو فى جُـــودِ حاتِمِ

أبو الطيب :

إنَّا لَفِى زَمَنٍ تَرْكُ القَبيحِ بهِ منْ أكْثَرِ الناس إحْسَانٌ و إجْمَالُ

إذا قدرت على عدوِّك فاجْعَلِ العفوَ عنه شكراً للقُدْرَة عليه . قيمةُ كلِّ امرىء ما يُحْسِن .

تعقيب للجاحظ على فقرة من كلام على

ذكر أبو عثمانَ عمرُو بن بَحْرٍ الجاحظُ هذه الكلمةَ فى كتاب البيان فقال : فلو لم نَقِفْ من هذا الـكتاب إلاَّ على هذه الكلمة لوجدناها شافية ، كافية ، ومُجْزِيَةً مُغْنِيَةً ؛ بل لوجدناها فاضلة عن الـكِفاية ، غير مقصِّرة عن الغاية ؛ وأفضلُ الكلامِ ما كان قليلُه يُغْنِيك عن كثيره ، ومعناه ظاهراً فى لَفْظِه ، وكأنَّ الله قد ألْبَسه من ثياب الجلالة ، وغشّاه من نُورِ الحكمة ، على حَسَبِ نِيَّة صاحبه . وتَقْوَى قائله . فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظُ بليغاً ، وكان صحيحَ الطبعِ ،

---

(١) الـكبوة : السقطة ، والنبوة : عدم الإصابة . ويقولون : لـكل جواد كبوة ، ولـكل سيف نبوة .

بعيداً من الاستكراه، منزّهاً عن الاختلال، مَصُوناً عن التكلف؛ صَنَع فى القلوب صَنِيعَ الغَيْثِ فى التربةِ الكريمة، ومتى فصّلَت الكلمةُ على هذه الشريطة، ونَفَذَت من قائلها على هذه الصفة، أصحبها الله عز وجل من التوفيق، ومنحَها من التأييد، مالا يمتنعُ من تعظيمها به صدورُ الجبابرة، ولا يذهل عن فَهْمِها معه عقولُ الجهلة[١].

دعاء لعلى فى الحروب

ومن دُعَائِه رضى الله عنه فى حروبه: اللهم أَنْتَ أَرْضى للرضا، وأَسْخَط للسُّخْطِ، وأقدر على أن تغيّر ما كرهت، وأعلم بما تقدر، لا تُغْلَب على باطل، ولا تعجز عن حق، وما أنت بغافل عما يعمل الظالمون.

من شعر على رضى الله عنه

وقال على رضى الله عنه:

لِمَنْ رايةٌ سَوْداء يَخْفق ظِلُّها إذا قيل قَدِّمْها حُضَيْنُ تقدَّما
فيوردها فى الصَّف حتى تردها حياضُ المنايا تقطُر الموتَ والدَّما
جزى الله قوما قاتلوا فى لقائهم لدى الروعِ قوماً ما أعز وأكْرَما
وأطيب أخباراً وأفضَلَ شِيمةً إذا كان أصواتُ الرجال تَغَمْغُما[٢]

حضين الذى ذكره هو: أبو ساسَان الحضينُ بنُ المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشى وكان صاحبَ رايَتِه يوم صِفّين.

ويروى عنه أنه قال بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها:

أرى عِلَلَ الدنيا علىَّ كثيرةً وصاحِبُها حتى المماتِ عليلُ
لكلِّ اجتماع من خليلين فُرْقةٌ وإنّ الذى دُون المماتِ قليل
وإنّ افتقادى فاطماً بعد أحمدٍ دليلٌ على ألا يدومَ خَليلُ

---

(١) انتهى المؤلف من الاستطراد الذى مضى فيه بمناسبة «قيمة كل امرىء ما يحسن» ثم عاد إلى الكلام عن على بن أبى طالب.

(٢) التغمغم: الصوت عند القتال.

ولما قَتَلَ عمرو بن عبد ودّ سقط فانكشفَتْ عَوْرَته[١] ، فتنحَّى عنه وقال :

آلى ابنُ عبد ـ حين شدّ ـ أليّةً   وحلفتُ فاستمعوا من الكذَّاب[٢]

ألاَّ بفِــرّ ولا يملل فالتقى   أسَدَان يضْطَرِبان كلَّ ضِرَابِ[٣]

اليوم يمنعنى الفــرارَ حفيظتى   ومُصَمِّمٌ فى الرَّأسِ ليس بنَابِ[٤]

أعرضْتُ حين رأيته متقطِّراً   كالجِذْع بين دَكَادكٍ ورَوَابى[٥]

وعففتُ عن أثوابه ولَوَ اُنّنى   كنت المقطّر بزَّنِى أثوابى[٦]

نَصر الحجَارة من سفاهــة رَأْيه   ونَصَرْتُ دينَ محمّــد بصواب[٧]

لا تحسَبُنَّ اللهَ خاذلَ دينــهِ   ونبيــه يا مَعْشَرَ الأحــزاب

فى أبيات غير هذه ، و بعضُ الرواة يَنْفيها عن على رضى الله عنه .

عمر بن ود

وعمرو هذا هو : ابن عبدوُدٍّ بن نضر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى ، وكان قد جَزَع المذاد ، وهو موضع حُفِر فيه الخندقُ يومَ الأحزابِ ، وفى ذلك يقول الشاعر :

عمرو بن ودّ كان أولَ فارس   جَزَع المذاد وكان فارسَ يَلْيَل[٨]

ولمـا صار مع المسلمين فى الخَنْدَق دعا [إلى] البراز ، وقال :

ولقد بَحِحْت من النــدا   ء بجمعهم هَلْ مِنْ مُبـارِز[٩]

ووقفتُ إذ نَــكَلَ الشــجا   ع بموْقفِ البطَلِ المُنَاجِز[١٠]

---

(١) عمرو بن عبدود : فارس قريش وشجاعها ، قتله على سنة ٥ للهجرة

(٢) آلى : أقسم ، والألية : اليمين (٣) يملل : يتقلب ، والضراب : المطاردة

(٤) الحفيظة : الحمية والغضب عند حفظ الحرمة ، والمصمم : السيف لاينبو

(٥) متقطر : صريع ، والدكادك : جمع دكدك وهو الرمل المتلبد بالأرض

(٦) بز: سلب . (٧) نصر الحجارة : كناية عن عبادة الأوثان . (٨) جزع المذاد : اجتازه ، والمذاد : الموضع الذى يذاد فيه عن النفس ، أى موضع الحرب ، ويليل : اسم واد فى بدر (م) (٩) بح صوته : ضعف من كثرة النداء (١٠) نكل : نكص ، والناجز : المبادر إلى القتال

إني كذلك لم أزلْ متسرِّعاً نحو الهـــزاهز[١]
إنَّ السماحةَ والشـــجا عةَ في الفتى خــيرُ الغرائزْ[٢]

فبرز علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال : يا عمرو ! إنك عاهدت الله لقريش ألاَّ يدعوك أحدٌ إلى خلّتين إلا أخذت إحداهما ، فقال : أجل ! قال : فإني أدعوك إلى الله و إلى رسوله و إلى الإسلام . قال : لاحاجةَ لي بذلك ، قال : فإني أدعوك إلى المبارزة ، فقال : يا ابن أخي ما أُحِبُّ أن أقْتُلَك ! قال علي : لكني واللهِ أُحِبُّ أن أقتلك ، فحِمِيَ عمرو ، فاقتحم عن فرسه وعَرْقَبه[٣] ثم أقبل إلى علي :

فتجَاوَلاَ كغمامتين تكنّفت مَتْنَيهما ريحا صَباً وشَمَالِ[٤]
في موقف كادت نفوسُ كُماتِه تُبتَز قَبْـلَ تَوَرُّدِ الآجالِ[٥]

وعلت بينهما غبرة سترتْهُما فلم يرع المسلمين إلا التكبير ؛ فعلموا أن عليًّا قتله .
ولما قُتِلَ عمرو جاءت أخته فقالت : مَنْ قتَله ؟ فقيل : علي بن أبي طالب ، فقالت : كفء كريم ! ثم انصرفت وهي تقول :

لو كان قاتلُ عمرو غــيرَ قاتلِهِ لـكنت أبكي عليـه آخرَ الأبد
لـكنَّ قاتلَه من لايُعــابُ بهِ وكان يُدْعَى قديماً بَيْضَةَ البَلَدِ
من هاشمٍ في ذُراها وَهْيَ صَاعِدَةٌ إلى السماء تُميتُ الناسَ بالحسَدِ
قومٌ أَبَى الله إلا أن يكونَ لهم مكارمُ الدِّينِ والدُّنيا بلا أَمَدِ
يا أم كلثوم ابْكِيهِ ولا تَدَعِي بكاءَ مُعْوِلَةٍ حَرَّى على وَلَدِ

أم كلثوم : بنت عمرو بن عبــد وُدّ . و « بيضة البلد » تَمَدَّحُ به العربُ

---

(١) الهزاهز : الشدائد والحروب لأنها تهزهز الرجال (٢) الغرائز : الطباع ، واحدها غريزة . (٣) عرقبه : قطع عرقوبه (٤) تجاولا : تصاولا (٥) الـكماة : الشجعان ، واحدهم كمي ، وتبتز : تسلب ، وتورد الآجال : ورودحياض الموت ، يريد أن الـكماة يموتون من الهيبة (م)

وتَذُمّ ؛ فمن مَدَح به جعله أصلا ، كما أن البيضة أصلُ الطائرِ . ومن ذم به أراد أنْ لا أصل له . قال الراعى يهجو عدىّ بن الرقاع العاملى[1] :

يامن تَوَعَّــدنى جَهْلاً بكثرتهِ ... متى تهــددنى بالعزِّ والعدَدِ
أنت امرؤٌ نال من عِرْضِى وعزته ... كعزة العَيْرِ تَرْعَى تَلْعَةَ الأسَدِ[2]
لوكنتَ من أحدٍ يُهْجَى هجوتكمُ ... يابنَ الرِّقاع ولـكن لَسْتَ من أحدِ
تأبَى قُضَاعة أن تَرْضَى لـكم نسباً ... وابنا نزارٍ ؛ فأنتم بَيْضَةُ البـلدِ

عاملة قوم عدى بن الرقاع

وقال أبو عبيدة : عاملة بن عدى بن الحارث بن مرة بن أد [بن زياد] ابن يشجب ، يُطْعَنُ فى نسبه من قحطان ، ويقال : هو عاملة بن معاوية بن قاسط ابن أهيب ؛ فلذلك قال الراعى هذا . ويقال : إن جندل بن الراعى قالها وقد قال يحيى بن أبى حفصة الأموى فى عاملة :

ولسنا نبالى نَأْىَ عامـــلة التى ... أجَدَّ بها من نحو بُصْرَى انحدارُها
تدافَعها الأحياء حتى كأنها ... ثيابٌ بَدَا للمشترين عَوَارُها
قذفنا بها لَمَّا دنت قَذْفَ حاذف ... بسودِ حصًى خفَّتْ عليه صِغَارُهَا

ويشبه قولُ على رضى الله عنه « وعففت عن أثوابه » قولَ عنترة بن شداد العبسى :

هلاَّ سألت الخيــلَ يابْنَةَ مالكٍ ... إن كنتِ جاهلةً بمــا لم تَعْلَمِى
يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِد الوقيعةَ أننى ... أغْشَى الوغَى وأعِفّ عند المغنم

وقال حبيب بن أوس الطائى :

إنّ الأسودَ أسودَ الغابِ هِمَّتُها ... يومَ الكريهة فى المَسْلُوبِ لا السلَبِ[3]

---

(١) عدى بن الرقاع : شاعر كبير ، كان مقدما عند بنى أمية ، توفى سنة ٩٥ .
(٢) العير : الحمار ، وتلعة الأسد : الرابية التى يحميها ، وليس للحمار عزة فى تلعة الأسد ، وإنما هو مثال الهوان (٣) السلب : الغنيمة ، ويجمع على أسلاب

عزم المؤلف على ضروب من الاختيار

قد علقت بذيل ما أوْردته ، وألحقت بطرف ماجردته ، من كلام سيد الأولين والآخرين ، ورسول رب العالمين ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأخيار الطيبين الطاهرين ، قطعةً من كلام الخلفاء الراشدين ، قدمتها أمام كلّ كلام ، لتقدمهم على الخَلْق ، وأخـذهم بقصَبِ السَّبْق[١] ، وهم كما قال بعضُ المتكلِّمين يصف قوما من الزهاد الواعظين . جَلَوْا بكلامهم الأبصارَ العليلة ، وشحذوا بمواعظهم الأذهانَ الكليلة ، ونبَّهوا القلوبَ من رَقْدَتِها ، ونَقَلوها عن سوء عادَتِها ، فشَفَوْا من داء القسوة ، وغَبَاوة الغَفْلَةِ ، وداوَوْا من العيِّ الفاضح ، ونهجُوا لنا الطريقَ الواضح . وآثَرْت أن ألحق بعد ذلك جملةً من سليم كلام سائر الصحابة والتابعين ، رضى الله عنهم أجمعين ، وأدرج فى دَرج كلامهم وأثناء نَثرِهم ونظمهم ، ما التفَّ عليـه والتفت إليه ، وتعلَّق بأغصانه ، وتشبَّثَ بأفنَانِهِ ، كما تقدّم ، وأخرج إلى صفات البلاغات ، وآخُذ بعد ذلك فى نظم عقود الآداب ، ورَقْم برود الألباب .

من كل معنًى يكاد المَيْتُ يَفْهَمُهُ ... حُسناً ويَعْبُدُهُ القِرْطَاسُ والقلمُ

[من كلام الصحابة والتابعين] .

من كلام معاوية

قال معاوية بن أبى سفيان رحمه الله : أَفْضَلُ ماأُعْطِىَ الرجلُ العَقْلُ والحلمُ ؛ فإذا ذُكّرَ ذكَر ، وإذا أساء استغفر ، وإذا وَعَد أنجز .

وصف معاويةُ الوليدَ بن عتبة فقال : إنه لبعيد الغَوْر ، ساكن الفور[٢] ، وإن العُودَ من لِحائه[٣] ، والولد من آبائه ، والله إنه لنبات أصل لايخلف ، ونجل

(١) السبق : هو السباق ، وأخذ قصب السبق : كناية عن الفوز

(٢) الغور : القعر من كل شىء ، وبعد الغور : كناية عن أصالة الرأى وعمق التفكير ، والفور : الغضب ، ويقال : فلان ثار ثائرة ، وفار فائره ، إذا اشتد غضبه . وبنو فلان تفور علينا قدرهم . قال الشاعر :

تفور علينا قدرهم فنديمها ... ونفثؤها عنا إذا حميها غلا

وسكون الفور : كناية عن الحلم (٣) اللحاء : القشر ، ومنه قولهم (لحاه الله) أى قشره ، وإذا قشر الإنسان هلك !

فَخْلٍ لايقرف[١] .

بين معاوية ومصقلة بن هبيرة

ومرض معاويةُ مرضاً شديداً فأرْجَفَ[٢] به مَصقلة بن هُبيرةَ وساعَده قَوْمٌ على ذلك ، ثم تماثل وهم فى إرجافهم[٢] ، فحمل زياد مَصقلة إلى معاوية وكتب إليه : « إنه يجْمَعُ مُرَّاقاً من مُرَّاق العِراق[٣] فيُرْجِفُون بأمير المؤمنين ، وقد حملته إليه ليَرَى رأيه فيه » .

فقدم مَصْقَلة وجلس معاويةُ للناس ؛ فلما دخل عليه قال : ادْنُن منى ! فدنا منه ، فأخذَهُ بيده فجذَبه فسقط مَصْقَلة ؛ فقال معاوية :

أبقى الحوادثُ من خليـــلك مِثْلَ جَنْدَلةِ المَراجِمْ[٤]
صُلباً إذا خَار الرجا لُ أَبَلَّ ممتنِعَ الشكائم[٥]
قد رامنى الأعـــداء قَبْـــلك فامتَنَعْتُ عن المظالم

قال مصقلة : يا أمـير المؤمنين ؛ قد أبقى الله منكَ ماهو أعْظَمُ من ذلك [بطشاً] وحِلماً [راجحاً] وكلأً ومرعًى لأوليائك ، وسَمّا ناقعاً لأعدائك ، كانت الجاهلية فكان أبوك سيدَ المشركين ، وأصبح الناس مسلمين ؛ وأنت أميرُ المؤمنين ، وقام .

فوصله معاويةُ ، وأذن له فى الانصراف إلى الكوفة . فقيل له : كيف تَرَكْتَ معاوية ؟ فقال : زعمتم أنه لما به[٦] ، والله لقد غمزنى غمزة كاد يَحْطِمُنى ، وجَذَبَنِى جَذْبَة كاد يكسر عُضْواً منى !

---

(١) لا يقرف : من القراف بالكسر وهو داء يقتل البعير ، يريد أنه قوى متين لا تقربه الأدواء

(٢) الإرجاف : الخوض فى أخبار الفتن ، ومنه (والمرجفون فى المدينة)

(٣) مراق : جمع مارق ، وهو الخارج على الجماعة

(٤) الجندلة : الصخرة (٥) الشكائم : جمع شكيمة ، وهى الحديدة المعترضة فى فم الفرس ، وفلان شديد الشكيمة : أنف أبى لاينقاد

(٦) زعمتم أنه لما به : يريد زعمتم أنه ضعف لما به من السقم

بين معاوية والأحنف بن قيس

ودخل الأحنفُ بنُ قيسٍ على معاوية وافداً لأهلِ البصرة ، ودخل معه النَّمر بن قُطْبة ، وعلى النمر عباءة قَطَوَانِيَّة [١] ، وعلى الأحنف مِدْرَعَةُ صوف وشَملة ، فلما مثلا بين يدى معاوية اقتحمتهما عينه [٢] ؛ فقال النمر : يا أميرَ المؤمنين! إنَّ العباءة لا تكلِّمك ، و إنما يكلمك مَنْ فيها ! فأومأ إليه فجلس ، ثم أقبل على الأحنف فقال : ثم مَه ؟ فقال : يا أميرالمؤمنين ؛ أهلُ البصرة عدد يسير ، وعَظْمٌ كسير ، مع تتابع من المُحُول [٣] ، واتصالٍ من الذُّحول [٤] فالمُكْثِرُ فيها قد أطرق، والمُقِلُّ قدأمْلق [٥] ، و بلغ منه المُخَنَّق ؛ فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن ينعشَ الفقيرَ، و يَجْبُرَ الكسير، و يسهّل العسير، و يَصْفَح عن الذُّحول، و يُدَاوِى المُحُول، و يأمر بالعَطَاء ؛ ليكشف البَلاَء ، و يُزِيل اللَّأْواء [٦] . و إنَّ السيدَ من يعمّ ولا يَخُصُّ ومَنْ يدعو الجَفَلَى، ولا يَدْعُو النَّقَرَى [٧] إنْ أُحْسِنَ إليه شكر ، و إنْ أُسِيء إليه غَفَرَ ، ثم يكون وراء ذلك لرعيته عِمَاداً يَدْفعُ عنها المُلمَّات ، ويكشفُ عنهم المعضلات .

فقال له معاوية : هاهنا يا أبا بحر ! ثم تلا : (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) .

محاورة بين معاوية وأهل العراق

ومن جميل المحاورات مارواه المدائنى ، قال : وَفَدَ أهل العِراق على معاوية رحمه الله ، ومعهم زيادٌ ، وفيهم الأحنف ، فقال زياد : ياأميرَ المؤمنين ؛ أشْخَصَتْ إليك أقْوَاماً الرغبةُ ، وأقعدَ عنكَ آخرين العذْرُ ، فقد جعلَ الله تعالى فى سَعَة فضلك ما يُجْبَرُ به المتخلف ، ويكافأُ به الشاخص . فقال معاوية:

---

(١) نسبة إلى قطوان وهو موضع بالكوفة

(٢) اقتحم : احتقر (٣) المحول : جمع محل ، وهو الضيق (٤) الذحول : جمع ذحل ، وهو الثأر (٥) أملق : من الإملاق ، وهو الفقر (٦) اللأواء : الشدة

(٧) يدعو الجفلى : يدعو الجماعة ، والنقرى: دعوة الفرد . قال طرفة :

نحن فى اللأواء ندعو الجفلى ... لا ترى الآدب منا ينتقر

مرحباً بكم يا معشر العرب ، أما والله لئن فرَّقَتْ بينكم الدعوة ، لقد جمعتكم الرَّحِم ؛ إن الله اختاركم من الناس ليختارنا منكم ، ثم حفظ عليكم نَسَبَكُمْ بأن تخير لكم بلاداً تجتاز عليها المنازل ، حتى صفاًّكم من الأمم كما تصفَّى الفضةُ البيضاء من خَبَثِهَا ؛ فصونوا أخلاقكم ، ولا تُدَنِّسُوا أنسابكم وأعراضكم ، فإن الحسَنَ منكم أحسَنُ لِقُرْبكم منه ، والقبيح منكم أقبح لبعدكم عنه .

فقال الأحنف : والله يا أمير المؤمنين ، ما نَعْدَم منكم قائلا جزيلا(١) ورأياً أصيلا ، ووعداً جميلا ؛ وإن أخاكَ زياداً لمتَّبِعٌ آثارَكَ فينا ، فنستمتع الله بالأمير والمأمور ، فإنكم كما قال زُهَيْر ، فإنه ألقى على المدَّاحين فصول القول :

وماَ يكُ مِنْ خيْرٍ أَتَوْهُ فإنَّمَا ... توَارَثَهُ آباءُ آبائِهِمْ قَبْلُ

وهَلْ يُنْبِتُ الخطِّيَّ إلاَّ وَشِيجُهُ ... وتُغْرَسُ إلاَّ فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ(٢)

وهذان البيتان لزهير بن أبى سلمى المزنى فى قصيدة يقول فيها :

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهَا ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ ... وعندَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ ... فلم يفعلوا ولم يُلِيمُوا ولم يَأْلُوا(٣)

قال بعضُ أهل العلم بالمعانى : أعْجِبْ بقوله : « ولم يألوا » ؛ لأنه لما ذكر السعى بعدهم ، والتخلف عن بلوغ مساعيهم ، جاز أن يتوهم السامع أن ذلك لتقصير الطالبين فى طلبهم ؛ فأخبر أنهم لم يألوا ، وأنهم كانوا غيرَ مقصرين وأنهم — مع الاجتهاد — فى المتأخرين ؛ ثم لم يَرْضَ بأن يجعل مجدَهُم طارفا

---

(١) القائل الجزيل : الذى يقول جزل الكلام ، وهو العاقل الأصيل الرأى ، وفى نسخة « نائلا جزيلا » (م)

(٢) الخطى : نسبة إلى الخط وهو مرفأ السفن بالبحرين وتنسب إليه الرماح ، لأنها تباع به لا لأنه منبتها — والوشيج : عروق القصب (٣) لم يألوا : لم يقصروا .

فيهم ، ولا جديداً لديهم ، حتى جعله إرثاً عن الآباء ، يتوارثه سائرُ الأبناء ، ثم لم يَرْضَ أن يكونَ فى الآباء حتى جعله موروثاً عن آبائهم ، وهذا لو تكلفه متكلف فى المنثور دون الموزون لما كان له هذا الاقتدار مع هذا الاختصار .

منزلة شعر زهير ابن أبى سلمى

وكانت قريشٌ معجبةً بشعر زُهَير ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنَّا قد سمعنا كلامَ الخطباء والبلغاء ، وكلامَ ابن أبى سلمى ، فما سمعنا مثلَ كلامه من أحد ؛ فجعلوا ابنَ أبى سُلْمى نهايةً فى التجويد ، كما ترى .

وذُكِرَ أن عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه قال : إن من أشعر شعرائكم زُهَيراً ، كان لا يُعَاظِل بين الكلام[1] ، ولا يتبع حُوشيَّهُ ، ولا يمدح الرجلَ إلا بما يكون فى الرجال .

وأخذ معنى قولِ زُهَير : * سعى بعدهم قوم لكى يدركوهم *
طُرَيْحُ بن إسماعيل الثقفىّ[2] ، فقال لأبى العباس عبد الله بن محمد بن على السفاح :

قَدْ طَلَبَ الناسُ ما بلغْتَ ولَمْ ... يَدْنُوا فما قَارَبوا وقَدْ جَهَدُوا[3]
فهم مُونَ ما لم يَرَوْنَ ، فإنْ ... لاحَ لهم مِنْكَ بارقٌ خَمَدُوا
تعروهُمُ رِعْدَةٌ لديْكَ كما ... قُرْقِفَ تحت الدجُنَّة الصَّرِدُ[4]
لا خوفَ ظُلْمٍ ولا قِلَى خُلُقٍ ... لكن جلالاً كساكَهُ الصَّمَدُ[5]
ما يُبقك اللهُ للأنام فما ... يُفْقدْ من العالمين مفتقد[6]

معاوية يبين النبل والمروءة

وقال معاوية رحمه الله : المروءةُ : احتمال الجريرة[7] ، وإصلاحُ أمر العشيرة ؛ والنبلُ : الحلم عند الغضب ، والعفوُ عند المقدرة .

---

(١) يعاظل : يكرر ويردد . وفى الأصل «يفاصل» وهو تحريف
(٢) شاعر مجيد توفى نحو سنة ١٧٠ (٣) جهدوا : تعبوا
(٤) قرقف على صيغة المفعول : أرعد ، والدجنة : الظلمة ، والصرد : الذى يشكو قسوة البرد (٥) القلى : البغض (٦) ما فى هذا البيت شرطية (٧) الجريرة : الجناية ، واحتمال الجريرة : كناية عن دفع الدية لئلا يؤخذ الجانى بجنايته

فِقَر من كلامه رضى الله عنه : ما رأيتُ تبذيراً قطُّ إلاَّ وإلى جَنْبه حقٌّ مُضَيَّع . أنقَصُ الناسِ عقلاً مَنْ ظَلَمَ مَنْ هُو دُونَهُ . أولى الناس بالعفوِ أقدرُهم على العقوبة . التسلُّط على المماليك مِنْ لُؤْمِ المقدرة وسوء الملكة .

وقال يحيى بن خالد : ما حَسُنَ أدَبُ رجلٍ إلاّ ساء أدبُ غِلْمَانه[1] .

وقال معاوية : إصلاحُ ما فى يدك أسْلَمَ من طلب ما فى أيدى الناس . غَضَبِى على مَنْ أمْلِكُ ، وماغضبى على مَنْ لاَ أمْلِكُ ؟ .

* * *

عبدالله بن همام السلولى عنـد يزيد بن معاوية يهنئه ويعزيه

ولما تُوُفِّى معاويةُ رحمه الله واستُخْلف يزيدُ ابنه اجتمع الناسُ على بابه ، ولم يقدروا على الجمع بين تهنئة وتعزية، حتى أتى عبدُ الله بن همّام السَّلُولى ، فدخل عليه فقال : يا أميرَ المؤمنين ، آجَرَكَ الله على الرَّزِيَّة ، وبارك لك فى العطيّة ، وأعانك على الرعيّة ، فقد رُزِئْتَ عظيما ، وأُعْطِيتَ جسيما ، فاشكُر الله على ما أُعطيت ، واصبر له على ما رُزِيت ؛ فقد فقدتَ خليفة الله ، ومُنِحْتَ خلافة الله ؛ ففارقتَ جليلا ، وَوُهِبْتَ جزيلا ؛ إذْ قضى مُعاويةُ نَحْبَه ، فغفر الله ذنبه ؛ ووُلِّيتَ الرياسة ، فأُعطيت السياسة ؛ فأوردك الله مواردَ السرور ، ووفَّقك لصالح الأمور ، وأنشده :

اصبِرْ يَزِيدُ فقد فارقْت ذا ثقةٍ ... واشكر حِبَاءَ الذِى بالمُلْكِ أصفاكا[2]

لارُزْءَ أصْبَح فى الأقوام نَعْلَمُه ... كما رُزِئْتَ ولا عُقْبَى كَعُقْبَاكا

أَصْبحْتَ والِىَ أمرِ الناسِ كلِّهم ... فأنْتَ تَرْعَاهُمُ واللهُ يَرْعَاكا

وفى معاويةَ الباقى لنا خَلَفٌ ... إذا نُعِيتَ ولا نسمعْ بمَنْعَاكا[3]

يريد أبا ليلى معاوية بن يزيد ، ووُلِّىَ بعد أبيه شهوراً ، ثم انخلع عن الأمر ، فقال القائل :

---

(١) يظهر أن هذه الكلمة وقعت استطرادا من المؤلف ، وإذ كان الغرض ذكر فقر من كلام معاوية

(٢) الحباء : العطاء (٣)«لا» حرف دعاء، ولذلك جزم بها الفعل إلحاقا بلا الناهية

* والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا *

الجمع بين التهنئة والتعزية

وأول مَنْ فتح البـــاب فى الجمع بين تهنئة وتعزية عبدُالله بن همام ، فوَلجه الناس ، ومن جيِّد ما قيل فى ذلك قصيدة أبى تمام الطائى يمدح الواثقَ ويرثى المعتصم يقول فيها :

إن أصْبَحَتْ هضباتُ قدس أزالها ... قدَرٌ فما زالت هِضابُ شمـــامِ[1]

أو يَفتقد ذو النون فى الهَيْجا فقد ... دَفعَ الإلهُ لنــا عن الصمصام

أو كنت منا غاربا غدوا فقد ... رُحْنا بأسْمى غاربٍ وســـنام[2]

تلك الرزيّةُ لا رزيّة مثلها ... والقَسْمُ ليس كسائرِ الأقسام[3]

وهذا المعنى كثير .

وكان معاوية رحمه الله قد تركَ قولَ الشعرِ فى آخر عمره ، فنظر يوماً إلى جاريةٍ فى داره ذات خَلْق رائع ، فدعاها فوجدها بِكراً فافترعها ، وأنشأ يقول :

سئمت غوايتى فأرَحْتُ حِلمى ... وفىَّ عَلَى تحملىَ اعتراضُ

على أنى أُجيب إذا دعتنى ... ذواتُ الدَّل والحَدَق المِراضُ

فِقر لجماعة الصحابة والتابعين رضى الله عنهم

ابن عباس : الرخصة من الله صدقة ، فلا تردُّوا صدقته[4] . لـكل داخلٍ هيبة فابدءوه بالتحية ، ولكل طاعم حشمة فابدءوه باليمين .

ابن مسعود رحمه الله : الدنيا كلها همومٌ ، فما كان منها فى سرور فهو ربح .

عمرو بن العاص : مَنْ كثر إخوانه كَثُرَ غُرَماؤه . وقال: أكرِمُوا سفهاءكم ، فإنهم يكفونكم العارَ والنار .

المغيرة بن شعبة : العيشُ فى بقاء الحِشْمَة . فى كل شىء سَرَف إلا فى المعروف.

---

(١) شمام : اسم جبل لباهلة (٢) الغارب : الـكاهل (٣) القسم : النصيب

(٤) الرخصة : تسهيل الله للعبد فيما يخففه عليه كقصر الصلاة، وإباحة الفطر للمسافر

هذا كقول الحسن بن سهل[١] — وقد أنفقَ في دخول ابنته بُورَانَ على المأمون أموالا عظيمة — فقيل له : لا خيرَ في السَّرف . قال : لا سَرَفَ في الخير . فرد اللَّفظَ واستوفى المعنى :

معاذ بن جبل : الدَّين هَدْمُ الدِّينِ .

زياد : ارْضَ من أخيك إذا وُلِّيَ ولايةً بعُشْر وُدِّه قبلها .

مصعب بن الزبير[٢] : التَّوَاضع من مصايد الشرف .

الأحنف بن قيس : من لم يَصْبِرْ على كلمة سَمِعَ كلماتٍ ! وقيل له : مَن السيد ؟ قال: الذي إذا أقْبَلَ هابوه، و إذا أدْبَرَ عَابُوه . وله : سِرُّكَ مِنْ دَمِكَ[٣] . وله : مَنْ تَسَرَّعَ إلى الناس بما يَكْرَهون قالوا فيه ما لا يَعْلَمون . وله: الكامل مَنْ عُدَّت هفواته .

وقال يزيد بن محمد المهلبي[٤] :

ومن ذا الذي تُرضَى سَجَاياه كلُّها   كَفَى المرء نُبلاً أن تُعَدَّ مَعَايبُهْ

الحسن البصري : ألا تَسْتَحْيُونَ من طول ما لا تستحيون ! ابنُ آدمَ راحِلٌ إلى الآخرة كل يومٍ مرحلة . ما أنصَفَكَ مَنْ كلَّفك إجلاله ، ومنعك ماله . بدن لا يشتكي مثل مَالٍ لا يزكى . إن امرءاً ليس بينه و بين آدمَ أبٌ حي لمُعْرِقٌ في الموتى .

قال الطائي :

تأمَّل رويداً هل تَعُدَّنَّ سالماً   إلى آدمٍ أو هل تُعَدُّ ابنَ سالمِ

وقال أبو نواس :

وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ   وذو نسبٍ في الهالكين عريقِ

---

(١) كان وزير المأمون، ومن أعلام زمانه، توفى سنه ٢٣٦ بعد أن تغير عقله بمرض السوداء (٢) أحد الأبطال المشاهير ، وله مواقف معروفة في التاريخ ، توفى سنة ٧١

(٣) تصحفت هذه العبارة على كل من نشر هذا الكتاب من أدباء هذا العصر فقرأوها « سرك من ذمك » وضبطوها على أن أولها فعل ماض من السرور وآخرها فعل ماض من الذم ، وأى سرور يدخل على من يسمع ذمه ؟ وإنما هى كما ضبطناها والمراد الوصية بكتمان السر (م)

(٤) كان يزيد بن محمد شاعر المتوكل وقد رثاه بعد وفاته أبلغ رثاء . توفى ببغداد سنة ٢٥٩

إذا اُمْتَحَنَ الدنيا لبيبٌ تَكشفتْ ... له عن عدوٍّ فى ثيـاب صديقِ

وكان المأمون يقول : لو قيل للدنيـا : صِفِى نفسك ما عَدَت هذا البيت ؛ وهومأخوذ من قول مُزَاحم العُقَيلى :

قضين الهوى ثم ارتمَيْنَ قلوبَنَا ... بأَسْهُمِ أعداء وهُنَّ صديقُ

عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ما الجزَعُ ممالا بدَّ منه؟ وما الطمعُ فيما لا يُرْجَى؟ لا تَكُنْ ممَّنْ يلعن إبليس فى العلانية ويُوَاليه فى السرّ .

الشعبى : إنى لأَسْتَحْيى من الحقّ إذا عرفتُهُ ألاَّ أرجعَ إليه .

وصف أهل البيت

قطعة من كلامٍ لبنى على بن أبى طالب أَهْلِ البيتِ رضى الله عنهم : [أهلِ الفضل والإحسان ، وتلاوة القرآن ، ونبعة الإيمان ، وصُوَّامِ شهر رمضانٍ] ولهم كلامٌ يعرض فى حَلْى البيَانِ ، ويُنْقَش فى فصّ الزمان ، ويُحْفَظُ على وَجْهِ الدهر ، ويَفْضَحُ قلائدَ الدُّر ، ويُخْجِلُ نورَ الشمس والبـدر ، ولِمَ لا يطئون ذُيولَ البلاغة ، ويَجرُّون فضولَ البراعة ، وأبوهم الرسولُ ، وأُمُّهم البتول[1] ، وكلهم قد غُذِى بدَرّ الحكم[2] ، ورُبِّىَ فى حِجْر العلم :

ما منهُمُ إلاَّ مُرَبًّى بالحِجَى ... أو مُبْشَرٌ بِالأَحْوَذِيَّة مُؤْدَمُ[3]

آخر :

نَمتْهُ العرَانين مِنْ هَاشِمٍ ... إلى النسب الأصْرَح الأوْضَحِ[4]

---

(١) البتول : لقب مريم عليها السلام لأنها انقطعت عن الزواج وظلت عذراء، ثم قيل لفاطمة البتول تشبيها بها فى المنزلة عند الله

(٢) الحكم : بضم الحاء هو الحكمة ، ومنه (وآتيناه الحكم صبيا)

(٣) الأحوذية : الحذق والخفة ، وهو مبشر بالأحوذية ومؤدم : يعنى أن بشرته وأدمه أى جلده حشى بالمهارة والنشاط (٤) العرانين : الأوائل

إلى نَبْعَةٍ فرْعُها في السماء ومَغْرِسُها في ذُرَى الأَبْطَحِ (١)

وهم كما قال مسلم بن بلال العبدى — وقد قيل له : خطب جعفرُ بن سليمان خطبةً لم يُرَ أحسن منها ، فلا يُدرى أوَجْهه أحسن أم خطبته ؛ فقال : أولئك قوم بنور الخلافة يُشْرِقون ، و بلسان النبوّة ينطقون ، وفيهم يقول القائل :

لو كانَ يُوجَدُ عَرْفُ مَجْدٍ قَبْلَهُمْ لوجدتــه منهم على أميالِ (٢)
إن جئتَهم أبصَرْتَ بينَ بيوتهم كَرَماً يَقيكَ مواقفَ التَّسْآلِ
نورُ النبــوَّة والمكارم فيهمُ متوقِّد في الشِّيبِ والأطــفالِ (٣)

وسُئِلَ سعيد بن المسيب : مَنْ أَبلغُ الناس ؟ فقال : رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . فقال السائل : إنما أعنى مَنْ دونه . فقال : معاوية وابنه ، وسعيد وابنه ، وإنَّ ابنَ الزبير لحسَنُ الكلام ، ولكن ليس على كلامه ملح . فقال له رجل : فأين أنتَ من عليّ وابنه ، وعباس وابنه ؟ فقال : إنما عَنَيت من تقارَبَتْ أشكالُهم ، وتدانَتْ أحوالُهم ، وكانوا كسِهَامِ الجُعْبَةِ (٤) ، وبنو هاشم أعلامُ الأنامِ ، وحُكاَّمُ الإسلامِ (٥) .

فصل لأبى عثمان عمرو بن بَحْرٍ الجاحِظِ
في ذكر قريش ، وبنى هاشم

قد علم الناسُ كيفَ كَرَمُ قريش وسخاؤها ، وكيف عقولُها ودهاؤها ، وكيف رَأْيُهَا وذكاؤها ، وكيفَ سياستها وتدبيرُها ، وكيف إيجازُها وتحبيرها (٦)

(١) الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى (٢) العرف بالفتح : الريح (٣) الشيب جمع أشيب (٤) الجعبة : الكنانة توضع فيها السهام والنشاب (٥) يلاحظ القارىء أن المؤلف لم يذكر ماسماه «قطعة من كلام لبنى على بن أبى طالب» وإنما تكلم عن أهل البيت وما قيل فيهم، ثم انتقل إلى الكلام عن قريش . ولكن سنرى كيف يعود إلى أبناء على بعد قليل (٦) فى نسخة «وتحسيرها» والمراد مايقابل الإيجاز ، وهو الإطناب والغرض وصف قريش بأنها تجيد إطالة القول حين تشاء

وكيف رجاحةُ أحلامها إذا خفّ الحليم ، وحدّةُ أذهانها إذا كلَّ الحديد[١] وكيفَ صَبْرُهَا عند اللقاء ، وثباتُها فى اللّأْواء[٢] ، وكيف وفاؤُها إذا استُحْسِنَ الغَدْرُ ، وكيفَ جُودُها إذا حُبَّ المـال ، وكيفَ ذِكرُها لأحاديثِ غدِ وقلةُ صدودِها عن جهـة القَصْدِ[٣] ، وكيف إقرارُها بالحق ، وصـبْرُها عليه ، وكيف وصفُها له ، ودعاؤها إليه ، وكيف سماحة أخلاقها ، وصونُهَا لأعراقها ، وكيف وصلوا قديمَهم بحديثهم ، وطريفَهم بتليدِهم ، وكيف أشبه علانيتَهم سرُّهم وقولَهم فِعْلُهم . وهل سلامةُ صدرِ أحدهم إلا على قدر بُعْدِ غَوْرِه[٤] ؟ وهل غفلته إلا فى وزن صدق ظنه ، وهل ظنه إلا كيقين غيره ؟

وقال عمر : إنك لا تنتفع بعـقله حتى تنتفع بظنه .

قال أوس بن حَجَر[٥]

الألْمَعِيّ الذى يَظُنُّ لك الـــظَّنَّ كأنْ قَدْ رَأى وقد سَمِعَا

وقال آخر :

مليحٌ نجيحٌ أخُو مَازنٍ فصيحٌ يُحدِّثُ بالغائب

وقال بلعاء بن قيس :

وَأبْغِى صَوَابَ الرَّأْيِ أعْـــلَمُ أنَّهُ إذا طاشَ ظَنُّ المَرْء طاشَتْ مَقادِرُه

بل قد علم الناس كيف جمالُها وقوامُها ، وكيف نماؤُها و بهاؤها ، وكيف سَرْوُها ونَجابتُها[٦] ، وكيف بيانُها وجَهارتها ، وكيف تفـكيرُها و بَدَاهتُها ،

---

(١) الحديد : القوى الذهن (٢) اللأْواء : الشدة

(٣) القصد : الغرض (٤) الغور : القعر من كل شيء . وفلان بعيد الغور : متعمق النظر ، وهو بحر لا يدرك غوره ، وفى الأصل «بعد غدره» بالدال ، وأحسب أنه تحريف (٥) أوس بن حجر : هو شاعر تميم فى الجاهلية ، مات قبيل الإسلام ، وهو صاحب العينية التى قيل فى مطلعها إنه أشجى بيت ، وهو قوله :

أيتها النفس أجملى جزعا إن الذى تحذرين قد وقعا

(٦) السرو : الشرف . والنجابة : كرم الحسب

فالعرب كالبدن وقريش روحها ، وقريش روح وبنو هاشم سرها ولُبُّها ، وموضع غاية الدين والدنيا منها ، وبنو هاشم ملح الأرض ، وزينة الدنيا ، وحلى العالم ، والسنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق[١] ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم ، وثهلان ذو الهضاب في الحلم[٢] ، والسيف الحسام في العزم[٣] مع الأناة والحزم ، والصفح عن الجرم ، والقصد عند المعرفة ، والعفو بعد المقدرة ، وهم الأنف المقدم ، والسنام الأكرم ، وكالماء الذى لا ينجسه شيء ، وكالشمس التى لا تخفى بكل مكان ، وكالذهب لا يُعْرَفُ بالنقصان ، وكالنجم للحيران ، والبارد للظمآن ، ومنهم الثقلان ، والشهيدان ، والأطيبان ، والسبطان ، وأسد الله ، وذو الجناحين ، وذو قرنيها ، وسيد الوادى ، وساقى الحجيج ، وحليم البطحاء ، والبحر ، والحبر[٤] ، والأنصار أنصارهم ، والمهاجرون من هاجر إليهم أو معهم ، والصديق من صدقهم ، والفاروق من فرق بين الحق والباطل فيهم ، والحوارىُّ حواريهم ، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم ، ولا خيرَ إلا لهم أو فيهم أو معهم ، أو يُضاف إليهم ، وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسولُ رب العالمين ، وإمامُ الأولين والآخرين ، ونجيبُ المرسلين ، وخاتمُ النبيين ، الذى لم يتم لنبى نبوة إلا بعد التصديق به ، والبشارة بمجيئه ، الذى عمَّ برسالته ما بين الخافقين ، وأظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون ؟.

بين الحسن بن على السبط وحبيب بن مسلمة الفهرى

قال الحسن بن على عليهما السلام لحبيب بن مسلمة الفهرى : رُبَّ مَسِيرٍ لك

---

(١) النصاب : الأصل (٢) ثهلان : اسم جبل (٣) الحسام : القاطع

(٤) تلك ألقاب اختص بها فريق من أشراف قريش ، يرجع إليها من شاء فى كتب السير والغزوات

فى غيرِ طاعة الله ! قال : أمَّا مَسِيرى إلى أبيك فليس من ذلك ! قال : بلى ! أطعت فلانا على دنيا يسيرة ، ولعمرى لئن كان قام بك فى دنياك لقد قعد بك فى دينك ، فلو أنك إذْ فعلتَ شراً قلتَ خيراً كنت كمن قال الله عزَّ وجل : (خَلَطُوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) ولكنك كما قال : (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ما كانوا يَكْسِبُون).

صفة الحسن بن على السبط

وكان الحسن عليه السلام جواداً ، كريماً ، لا يردُّ سائلا ، ولا يَقْطَع نائلا ، وأعطى شاعراً مالا كثيراً فقيل له : أتُعطِى شاعراً يَعْصِى الرَّحْمٰن ، ا و يطيع الشيطان ا ، ويقول البُهْتَانَ ؟ فقال : إنَّ خَيْرَ ما بذلْتَ من مالك ما وَقَيْتَ به عِرْضَك ، و إنَّ من ابتغاء الخير اتقاء الشر .

وقد روى مثلُ ذلك عن الحسين رضى الله عنه ، وقيل : إنَّ شاعرا مدحه فأجزلَ ثوابَه ، فليمَ على ذلك ، فقال : أترانى خِفْتُ أن يقولَ : لستُ ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ابن على بن أبى طالب ! ولكنى خِفْتُ أن يقول : لست كرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كعلىّ رضى الله عنه ؛ فيُصَدَّقَ ، ويُحْمَلَ عنه ، ويبقى مُخَلداً فى الكتب ، محفوظاً على ألسنة الرُّواة . فقال الشاعر : أنت والله يابْنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرفُ بالمدح والذمِّ منى .

محمد بن الحنفية يرثى أخاه الحسن بن على

ولما تُوفِّى الحسن أدخله قبرَه الحسينُ ومحمدُ بن الحنفيَّة وعبدُ الله بن عباس رضى الله عنهم ، ثم وقف محمدٌ على قبره وقد اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاه بالدموع ، وقال : رَحِمَكَ اللهُ أبا محمد ! فلئن عَزَّتْ حياتك ، لقد هَدَّتْ وفاتُكَ ، ولَنِعْمَ الرُّوحُ رُوحٌ تضمَّنَه بَدَنُكَ ؛ ولنعم الجسدُ جسدٌ تضمَّنَه كَفَنُك ، ولنِعْمَ الكفَنُ كَفَنٌ تضمَّنَه لَحْدُكَ ، وكيف لا تكونُ كذلك وأنت سليلُ الهدى ، وخامسُ أصحابِ الكِسَاء ، وخَلَفُ أهْلِ التقى ؟ جدُّكَ النبىُّ المُصْطَفى ، وأبوك علىٌّ المرتضَى ، وأمُّك فاطمةُ الزَّهراء ، وعمّكَ جعفر الطَّيار فى جنَّة المأْوَى ، وغَذَتْكَ أكُفُّ الحقِّ ، وَرُبِّيتَ فِي حِجْرِ الإسلام، ورضعت ثَدْىَ الإيمان ، فطِبْتَ حيًّا وميتاً ؛

فلئن كانت الأنفُس غيرَ طَيبةٍ لفراقك ؛ إنها غيرُ شاكَّةٍ أنْ قد خِيرَ لَك ، و إنك وأخاك لسيدَا شبَابِ أهل الجنة ، فعليكَ يا أبا محمد منا السلام .

رجل من ولد أبى سفيان بن الحارث يرثى الحسن بن على

وقام رجلٌ من ولد أبى سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب على قَبْره ، فقال : إنَّ أقدامَكم قد نقَلَتْ ، وإنَّ أعناقَكم قد حَمَلَتْ إلى هذا القبر وَليا من أولياء الله يُبَشَّرَ نبيَّ الله بمقدمه ، وتُفَتَّحُ أبوابُ السماء لروحه ، وتبتهجُ الحورُ العِينُ بلقائه(١) ، ويَأنَسُ به سادةُ أهل الجنة من أمَّته ، ويوحِش أهلَ الحِجَا والدين فَقْدُه ، رحمة الله عليه ، وعنده تحْتَسَبُ المصيبةُ به .

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر المصيبة بأبناء النبوة

قد نُعِيَ سليلٌ من سُلالَة النبوة ، وفَرْعٌ من شجرة الرسالة ، وعُضْوٌ من أعضاء الرسول ، وجزءٌ من أجزاء الوصِيِّ والبَتُول(٢) . كتبت وليتنى ما كتبت وأنا ناعِي الفضل من أقطاره ، وداعى المجدِ إلى شَقِّ ثوبِهِ وصِدَاره ، ومخبر أنَّ شمس الكرم وَاجِبة(٣) والمآثر مودَّعة ، و بقايا النبوَّة مرتفعة ، وآمالَ الإمامة منقطعة ، والدينَ منخذِلٌ واجم(٤) ، وللتقوى دَمْعَان هامٍ وساجم . كتابى وقد شلَّتْ يمينُ الدَّهْر ، وفُقِئت عينُ المجد ، وقَصُرَ بَاعُ الفضل ، وكُسِفَتْ شمسُ المساعى ، وخُسِفَ قمر المعالى ، وتجدَّدَ فى بيت الرسالة رُزْءٌ جدّد المصائب ، واستعاد النَّوائب ؛ كل هذا لفقدِ من حَطَّ الكرمُ برَبْعِهِ ، ثم أدرج فى بُرْدِه ، وامتزج المجدُ به ، فدفِنَ بدَفْنه ، إنها لمصيبةٌ عمّتْ بَيْتَ الرسالة ، وغضّت طَرْفَ الإمامة ، وتحيَّفَتْ جانبَ(٥) الوَحْىِ المنزَّل ، وذكَّرت بموت النبى المرسل. كتبت والدهرُ ينعى مُهْجَتَه

---

(١) الحور العين : لقب نساء أهل الجنة ، والحور : جمع حوراء ، من الحور بالتحريك وهو أن يشتد بياض بياض العين وسواد سوادها ، أو هو اسوداد العين كلها مثل عيون الظباء ، والعين : جمع عيناء وهى الحلوة العينين

(٢) الوصى : هو على بن أبى طالب ، والبتول : لقب فاطمة الزهراء (م)

(٣) وجبت الشمس: غابت (٤) واجم : مطرق عبوس (٥) تحيفت: انتقصت(م)

والمجدُ يَنْدُب بَهْجَتَه ، ومهابط الوَحْيِ والرسالة تحنى ظهورَها أسفا ، ومآقى الإمامة والوصية والرسالة تُذْرِى دموعَها لهفاً ؛ وذلك أن حادثَ قضاء الله استأثر بفَرْع النبوة ، وعنصر الدين والمروءة .

[رجع إلى كلام أهل البيت]

بين الحسن بن على وأخيه محمد ابن الحنفية

ووقع بينَ الحسنِ ومحمد بن الحنفيَّة[1] لِحاء ، ومَشَى الناسُ بينَهما بالنَّمَائِم ، فكتب إليه محمدُ بنُ الحنفية : أمَّا بعد فإن أبى وأباك علىُّ بنُ أبى طالب ؛ لاتفضُلنى فيه ولا أفضُلك ، وأُمى امرأةٌ من بنى حَنيفة ، وأُمُّك فاطمةُ الزَّهراء بنتُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فلو مُلِئَتْ الأرضُ بمثل أُمى لكانت أمُّك خيراً منهـا ؛ فإذا قرأتَ كتابى هذا فأَقْدَمْ حتى تترضَّانى ، فإنك أحقُّ بالفضل منى .

خطبة للحسين بن على

وخطب الحسينُ بنُ علىٍّ رضوان الله عليهما غداةَ اليوم الذى استُشهِدَ فيه ، فحمدَ الله تعالى وأثنى عليه ؛ ثم قال : يا عبادَ اللهِ ، اتَّقُوا اللهَ ، وكونوا من الدنيا على حَذَر ؛ فإنَّ الدنيا لو بَقِيَتْ على أحـــد [أو بقى عليها أحد] لـكانت الأنبياء أحقَّ بالبقاء ، وأَوْلى بالرِّضاء ، [وأرْضَى] بالقضاء ؛ غيرَ أنَّ الله تعالى خَلَقَ الدنيا للفناء ، فجديدُهَا بالٍ ، ونعيمُها مُضْمَحِلٌّ ، وسرورُها مُكْفَهِرٌّ[2] ، مَنْزِلُ تَلْعة ، ودارُ قُلْعة[3] ؛ فتزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزادِ التقوى ، واتَّقُوا اللهَ لعلكم تُفْلِحُون .

---

(١) محمد بن الحنفية : هو محمد بن على ، أخو الحسن والحسين ، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية ينسب إليها تميزا له عن أخويه . ولد فى المدينة سنة ٢١ وتوفى بها سنة ٨٠

(٢) مكفهر مغبر (٣) التلعة : ماارتفع من الأرض ، وما انهبط منها ، فهى من الأضداد ، وهى كذلك مسيل الماء وما اتسع من فوهة الوادى ، ومنازل التلاع لاثبات لها لأنها عرضة لهجمات السيل ، ودار قلعة : أى انقلاع وذهاب . وفى الأصل «والمنزل تلعة والدار قلعة » وما أثبتناه أنسب .

بين معاوية والحسين بن على

وكان لمعاوية بنِ أبى سفيان عَيْنٌ بالمدينة يكتبُ إليه بما يكونُ من أمور الناس وقريش ، فكتب إليه : إنَّ الحسين بنَ علىٍّ أعتَقَ جاريةً له وتزوَّجها ؛ فكتبَ معاويةُ إلى الحسين : مِنْ أميرِ المؤمنين معاوية إلى الحسين بن علىّ . أمَّا بعد ، فإنه بلغنى أنك تزوَّجْتَ جاريتَكَ ، وتركْتَ أكْفاءك من قريش ، ممَّنْ تستنجبُه للولد ، وتمجد به فى الصِّهْر ، فلا لنفْسِكَ نظَرْتَ ، ولا لِوَلَدِكَ انتقَيْتَ .

فكتب إليه الحُسَيْن بن على : أمَّا بعد ، فقد بلغنى كتابُك ، وتعْييرُك إيَّىَ بأنى تزوَّجْتُ مولاتى ، وتركتُ أكْفائى مِنْ قُرَيش ، فليسَ فَوْقَ رسولِ الله مُنتَهًى فى شرَف ، ولا غايةٌ فى نسب ؛ وإنما كانت مِلْكَ يمينى ، خرجَتْ عن يدى بأمرٍ التمستُ فيه ثوابَ اللهِ تعالى ؛ ثم ارتجعتُها على سنّةِ نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد رفع اللهُ بالإسلامِ الخسيسة ، ووضع عنَّا به النقيصةَ ؛ فلا لَوْمَ على امرىء مسلم إلاَّ فى أمْرِ مأثم ، وإنما اللومُ لَوْمُ الجاهلية .

فلما قرأ معاويةُ كتابَهُ نَبَذَهُ إلى يزيد فقرأه ، وقال : لَشَدَّ ما فَخَرَ عليك الحسين ! قال : لا ، ولكنها ألسنةُ بنى هاشم الحِداد التى تَفْلِقُ الصَّخْرَ ، وتَغْرِفُ من البحر !

من شعر الحسين بن على

والحسين ـ رضى الله عنه ـ هو القائل :

لَعَمْرُكَ إنَّنى لأُحِبُّ دَاراً تَحُلُّ بِها سُكَيْنَةُ وَالرَّبابُ
أُحِبُّهُـما وَأَبْذُل كلَّ مَالِى وليس لِلائمٍ عِنْدِى عِتَابُ

سُكينة: ابنته، والرباب: أمُّها، وهى بنت امرىء القيس [بن الجرول] الكلبية.
وفى سُكينة يقول عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى كذباً عليها[1] :

---

(١) تقرأ الطبعة الثالثة من كتاب « حب ابن أبى ربيعة وشعره » ففيه فصل مطول عن السيدة سكينة بنت الحسين وحياتها الأدبية والوجدانية وعلاقتها بعمر بن أبى ربيعة لترى أكان يكذب عليها كما يحدثنا صاحب زهر الآداب ؟

لابن أبي ربيعة في سكينة بنت الحسين

قالت سُكَينةُ والدموعُ ذَوَارِفٌ   تجرى على الخدَّيْنِ وَالجِلْبَابِ
ليتَ المُغيرىَّ الذى لَمْ أجْزِهِ   فيما أطال تَصَيُّدِى وطِلابِى
كانت تردُّ لنا المُنَى أيَّامنا   إذ لا نُلامُ عَلَى هوًى وتصابِ
خُبِّرْتُ ما قالتْ فَبِتُّ كأنما   يُرْمَى الحشى بنوافذِ النُّشَّابِ
أَسُكَينَ ما ماءُ الفُراتِ وَطِيبُهُ   مِنِّى عَلَى ظَمَأٍ وَفَقْدِ شَرَابِ
بألذَّ منكِ، وإن نأيتِ، وقلَّما   ترعى النساءُ أمانةَ الغُيَّابِ
إنْ تبذُلِى لى نائلاً أشفى بهِ   داءَ الفؤادِ فقد أطلتِ عَذَابِى
وعَصَيْتُ فيكِ أقاربى وتقطعتْ   بينى وبينهمُ عُرَى الأسبابِ
فتركتنى لا بالوِصالِ مُمَتَّعاً   منهم، ولا أسْعَفْتِنِى بثوابِ
فقعدت كالمُهْرِيقِ فَضْلَةَ مائهِ   فى حرِّ هاجِرَةٍ لِلَمْعِ سَرَابِ

سكينة ترثى مصعب بن الزبير

وكانت سكينة من أجمل نساء زمانها وأعقلهنَّ، وكان مصعب بن الزبير قد جَمَعَ بينها وبينَ عائشةَ بنت طلحة بن عبيد الله؛ فلما قُتِلَ مصعب قالت سكينة:

فإنْ تَقْتُلُوهُ تَقْتُلوا الماجِد الذى   يَرَى الموتَ إلا بالسيوفِ حَرَامَا
وَقَبْلَكَ ما خَاضَ الحسينُ مَنِيَّةً   إلى القومِ حتى أوْرَدُوهُ حِمَامَا

لعلى بن الحسين

وقال على بن الحسين(١) رحمه الله: لو كانَ الناسُ يعرفونَ جُملةَ الحال فى فضل الاستبانة، وجملة الحال فى فضل التبيين: لأعربوا عن كل ما تتخلجُ فى صدورهم، ولَوَجَدُوا من بَرْدِ اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى

---

(١) كان على بن الحسين مضرب المثل فى الحلم والتقوى والسخاء. أحصى بعد موته عدد من كان يقوتهم سرا فإذاهم نحو مائة بيت. قال محمد بن إسحاق: كان ناس من أهل المدينة يعيشون لايدرون من أين معايشهم ومآكلهم، فلما مات على بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به ليلا إلى منازلهم. ولد أثابه الله بالمدينة سنة ٣٨ وتوفى سنة ٩٤.

حالهم ، على أنّ إدراكَ ذلك كان لا يعدمهم فى الأيام القليلةِ العدَّةِ ، والفكرةِ القصيرةِ المدَّةِ ، ولكنهم من بين مغمورٍ بالجهلِ ، ومفتونٍ بالعُجْبِ ، ومعدُولٍ بالهوَى عن بابِ التثبُّتِ ، ومصروفٍ بسوء العادَةِ عن فَضْلِ التعلم .

وقالَ رضى الله عنه : المِرَاء يُفسِدُ الصداقةَ القديمة ، ويَحُلّ العقدةَ الوثيقة ، وأقلّ مافيه أن تكونَ به المغالبة ، والمغالبةُ من أمْتَن أسباب القطيعة .

ومن دعائه : اللهم ارْزُقْنى خوفَ الوعيد، وسرورَ رجاء الموعود، حتى لا أرْجُو إلا ما رَجَّيت ، ولا أخاف [إلا] ماخَوَّفت .

الفرزدق يمدح عليا زين العابدين ابن الحسين

وحجَّ هشام بن عبد الملك ، أو الوليد أخوه ، فطافَ بالبيتِ وأرادَ استلامَ الحَجَر فلم يقدر ، فنُصِب له مِنْبَرٌ فجلس عليه ؛ فبينا هو كذلك إذْ أَقْبَلَ علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى إزار ورداء ، وكان أحسنَ الناس وَجْهاً ، وأعطرهم رائحة ، وأكثرهم خشوعاً ، و بين عينيه سَجَّادة[1] ، كأنها رُكبة عنز ، وطاف بالبيت ، وأتى ليَسْتَلِم الحجرَ ، فتنحّى له الناسُ هيبةً و إجلالا ، فغاظ ذلك هشاما ؛ فقال رجلٌ من أهل الشام : مَن الَّذى أكرمه الناسُ هذا الإكرام ، وأعظموه هذا الإعظامَ ؟ فقال هشام : لا أعْرفه ، لئلا يَعْظُمَ فى صدور أهل الشام ؛ فقال الفرزدق وكان حاضراً :

هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهم ... هذا النقيُّ التقيُّ الطاهرُ العَلَمُ
هذا الذى تَعرِفُ البَطْحَاء وطأتَهُ ... والبيتُ يعرفُه والحِلُّ والحَرَمُ
إذا رأتْه قريشٌ قال قائلُها ... إلى مكارمِ هذا ينتهى الكرَمُ
يكادُ يُمسِكُهُ عِرفانَ راحتهِ ... رُكنُ الحطيم إذا ما جاء يستلمُ[2]

---

(١) المراد بالسجادة أثر السجود .

(٢) يريد أن ركن الحطيم يكاد يمسكه لعرفان راحته ويقينه بأنها من سلالة الرسول

فى كفه خيزران ريحهُ عَبِقٌ ... فى كفِّ أروعَ فى عِرْنينه شَمَمُ (١)

يُغضِي حَياءً ويُغضَى من مَهَابَتِه ... فما يُكلَّمُ إلا حين يَبْتَسِم

مُشتقَّةٌ من رسول الله نَبعَتُهُ ... طابت عناصِرُه والخِيمُ والشِّيَمُ (٢)

يُنمَى إلى ذِرْوة العزِّ التى قصُرت ... عن نَيلها عَرَبُ الإسلام والعجَمُ (٣)

يَنْجَابُ نورُ الهدى عن نُورِ غُرَّتِه ... كالشمس يَنْجَاب عن إشراقها القَتَمُ (٤)

حمَّالُ أثقال أقوام إذا افترحوا ... حُلْو الشمائل تَحْلُو عنده نَعَمُ

هذا ابنُ فاطمة إن كنتَ جاهِلَهُ ... بجدِّه أنبياء الله قد خُتِموا

اللهُ فضَّلهُ قِدْماً وشرَّفَهُ ... جرى بذاك له فى لَوْحِهِ القَلَمُ

مَنْ جدُّهُ دانَ فَضْلُ الأنبياء لهُ ... وفَضْلُ أمته دانَتْ له الأُمَمُ

عمَّ البريةَ بالإحسان فانقشعتْ ... عنها الغيابةُ والإملاقُ والظُّلَمُ (٥)

كِلتا يديه غِياثٌ عَمَّ نفعُهُمَا ... تَسْتَوكِفان ولا يَعرُوهما العُدُمُ (٦)

سَهْلُ الخليقة لا تُخْشَى بوادِرُهُ ... تزينه الِاثنتان الحِلْمُ والكَرَمُ

لا يُخْلِفُ الوَعْدَ ميمونٌ بغُرَّتِهِ ... رَحْبُ الفناء أريبٌ حين يعتزم (٧)

ماقال «لا» قطُّ إلا فى تَشَهُّدُه ... لولا التشهُّد كانت لاءَهُ نَعَمُ

مِنْ مَعْشَرٍ حبُّهم دِينٌ، و بغضُهم ... كُفرٌ، وقُرْبُهُم مَنْجًى ومُعْتَصَمُ

يُسْتَدْفَعُ السوء والبَلْوَى بحبهمُ ... و يسترَبُّ به الإحسانُ والنِّعَمُ (٨)

مقدَّمٌ بعد ذِكْرِ الله ذِكرُهُمُ ... فى كل بَدْءٍ ومختومٌ به الكَلِمُ

إن عُدَّ أهل التُّقَي كانوا أئِمَّتَهُمْ ... أوقيل مَنْ خيرُ أَهْلِ الأرض قيل هُمُ

لا يستطيعُ جَوَادٌ بُعْدَ غايتهم ... ولا يُدانيهمُ قومٌ و إنْ كرُموا

---

(١) أروع: ذكى الروع، بضم الراء، وهو الفؤاد. والعرنين: الأنف، والشمم: الارتفاع
(٢) الخيم: الأصل (٣) ينمى: ينسب (٤) القتم والقتام: الغبار (٥) الغيابة: غيبة الرشد، والإملاق: الفقر (٦) تستوكفان: تجريان، والعدم بضم العين: الفقر.
(٧) الأريب: وافر العقل (٨) يسترب: يصلح.

هُمُ الغُيوثُ إذاما أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ... الأُسْدُأُسْدُالشَّرَى والبأْس مُحْتَدِمُ (١)

يَأْبَى لهم أنْ يَحُلّ الذَّمُّ ساحَتَهم ... خِيمٌ كَرِيمٌ وأيدٍ بالنَّدَى هُضُمُ (٢)

لاينْقُصُ العسرُ بَسْطًامنأكفِّهِمُ ... سِيّانِ ذلك إنْ أثْرَوْا و إنْ عدموا

أيّ الخلائق لَيْسَتْ فى رِقَابِهِـمُ ... لأولِيَّة هــــذا أوْ لَهُ نِعَـمُ (٣)

مَنْ يعـرف الله يَعْرِف أولِيَّته ... فالدينُ من بيت هذا ناله الأُمَمُ

وليس قولك من هــذا بضائِرِهِ ... العُرْبُ تعرف من أنْـكَرتَ والعَجَمُ

وقد روى أن الحزين الكنانى وَفَدَ على عبد الله بن عبد الملك بن مروان وهو أميرٌ على مصر فأنشده قصيدة منها :

لما وقفتُ عليه فى الجُموع ضُحًى ... وقد تعرَّضتِ الحُجَّابُ والخَدَمُ

حيّيتُهُ بســـلامٍ وهو مُرْتَفِقٌ ... وضَجَّةُ القومِ عندالباب تَزْدَحِمُ (٤)

فى كفه خيزران ... ... ــ والبيت الذى يليه .

ويقال : إنها لداود بن ســــلم فى قُثَم بن العباس بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وهو الذى يقول فيه الأخطل :

للأخطل فى قثم بن العباس

ولقد غدوت على التِّجار بمِسْمَحٍ ... هَرَّتْ عواذله هَرِيرَ الأَكْلُبِ (٥)

لَذٍّ يُقَبِّـــله النعيم ، كأنما ... مُسِحَتْ تَرَائِبُه بمــاء مُذْهَبِ (٦)

لبَّاسِ أرْدِيةِ الملوكِ تَرُوقُهُ ... من كل مرتقَب عيونُ الرَّبْرَبِ (٧)

ينظرن من خلل السُّتُورِ إذا بَدَا ... نظرَ الهجان إلى الفَنِيق المُصْعَبِ (٨)

---

(١) الأزمة : الشدة ، والشرى : جبل بتهامة كثير السباع .

(٢) هضم : جمع هضيم ، وهو كثير الإنفاق (٣) المراد بالأولية الآباء والأجداد

(٤) مرتفق : متكىء على مرفقه (٥) هرت : صاحت .

(٦) الترائب : موضع القلادة من الصدر ، والمذهب : المزوج بالذهب .

(٧) الربرب : الظباء . والمراد بها النساء (٨) المصعب : الجمل الذى لم يركب . والفنيق : المكرم . والهجان : الإبل البيض .

ويقال : بل قالها فى على بن الحسين اللَّعِينُ المنقرى ، وسمى اللعين لأن عمر سمعه يُنشد شعراً والناس يُصَلُّونَ ، فقال : مَنْ هذا اللعين ؟ فعلق به هذا الاسم[١] ولْيَقُلْه مَنْ شاء ، فقد أحسن منشاد وأجاد وزاد[٢] .

لذى الرمة يمدح بلال ابن أبى بردة

وقال ذو الرمة فى بلال بن أبى بُرْدة بن أبى موسى الأشْعَرى :

مِنَ آلِ أبى موسى تَرَى الناسَ حَوْلَهُ ... كأنهم الكِرْوَانُ عَايَنَّ بازِيا[٣]

فما يعرفون الضِّحْكَ إلاَّ تَبَسُّماً ... ولا ينبسون القَوْلَ إلا تَنَاجِياً[٤]

وما الفُحْشَ منه يرهبون ، ولا الخَنا ... عليه ، ولكِنْ هَيْبَةٌ هِيَ ماهِيَا

فتى السِّنِّ ، كَهْلُ الحِلْمِ ، يُسْمَعْ قولُهُ ... يُوَازِنُ أدناهُ الجبالَ الرَّوَاسيا

للبحترى يمدح الفتح ابن خاقان

ومن أجود ما للمحدَثين فى ذلك قول أبى عبادة البحترى فى الفتح ابن خاقان :

ولما حضرنا سُدَّة الإذْنِ أُخِّرَتْ ... رجالٌ عن الباب الذى أنا داخِلُهْ

فأفضيتُ من قُرْبٍ إلى ذى مهابةٍ ... أقابِلُ بَدْرَ التِّمِّ حين أقابِلُهْ

بَدَا لِىَ محمودَ السجيَّةِ شُمِّرَتْ ... سَرَابيلُه عنهُ وطالت حمائلُهْ[٥]

كما انتصب الرُّمْحُ الرُّدَيْنِيُّ ثُقِّفَتْ ... أنابيبُهُ واهتزَّ للطعن عامِلُهْ[٦]

وكالبدر وافَتْهُ لِتِمٍّ سُعُودُه ... وتمَّ سناه واستهلت منازِلُهْ

فسلَّمْتُ فاعتاقَتْ جَنَانِىَ هَيْبَةٌ ... تنازِعُنِى القولَ الذى أنا قائلُهْ[٧]

---

(١) اللعين المنقرى : هو أبو الأكيدر منازل بن زمعة . وفى الأصل « اللعين المنقرى » وهو تحريف (٢) يريد أن الشعر جيد بغض النظر عمن ينسب إليه من الشعراء (٣) الكروان بكسر الكاف جمع الكروان بفتحها مع سكون الراء . وهو طائر مغرد . والبازى : الصقر (٤) ينبسون : ينطقون .

(٥) السرابيل : الثياب . والحمائل : جمع حمالة ــ بالكسر ــ وهى علاقة السيف

(٦) عامل الرمح : صدره

(٧) اعتاق وعاق : منع ، والجنان : القلب .

إلى مُشرِفٍ فى الجود لوأنَّ حاتماً   لَدَيْهِ لأضحى حاتمٌ وهو عاذِلُهْ
فلما تأمَّلتُ الطَّلاقَةَ وانْثَنى   إلىَّ بِبِشْرٍ آنَسَتْنِي مَخايلُهْ[١]
دَنَوْتُ فقبَّلتُ النَّدى من يَدِ امرىءٍ   جميلٍ مُحيَّاهُ سِبَاطٍ أنامِلُهْ[٢]
صَفَتْ مِثْلَ ماتصفوالمدامُ خِلالُهُ   ورقَّتْ كما رقَّ النَّسيمُ شمائِلُهْ

ووقعت حرب بالجزيرة بين بنى تَغْلِب ، فتولى الإصلاح بينهم الفتح بن خاقان فقال البحترى فيما تعلَّق بعضه بذكر الهيبة :

بنى تَغْلِبٍ أعْزِزْ علىَّ بأنْ أرى   ديارَكمُ أمْسَتْ وليس لها أهْلُ[٣]
خَلَتْ دِمْنة من ساكِنيها وأوْحَشَتْ   مرابعُ من سنجارَ يَهْمِي بها الوَبْلُ[٤]
إذا ما الْتَقَوْا يومَ الهِيَاجِ تحاجَزُوا   والموتِ فيما بينهم قِسْمَةٌ عَدْلُ
كَفِيٌّ من الأحياء لاقَى كَفِيَّهُ   ومِثْلٌ من الأقوام زَاحفهُ مِثْلُ[٥]
إذا ما أخٌ جَرَّ الرماحَ انتهى لهُ   أخٌ لا بليدٌ فى الطِّعان ولا وَغْلُ[٦]
تحوطُهمُ البيضُ الرِّقَاقُ ، وضُمَّرٌ   عِتاقٌ ، وأنسابٌ بها يدرك التَّبْلُ[٧]
بطَعْنٍ يكبُّ الدَّارعين دِرَاكُهُ   وضَرْبٍ كما تَرْغُو المخزَّمةُ البُزْلُ[٨]
تجافَى أميرُ المؤمنين عَنِ التى   علمتم ، وللجانِينَ فى مِثْلِها الثُّكل[٩]

---

(١) المخايل : جمع مخيلة ، وهى الدلالة (٢) سباط : طوال ، كناية عن الكرم
(٣) هذه القطعة من قصيدة جيدة طويلة مطلعها :

ضمان على عينيك أنى لا أسلو   وأن فؤادى من جوى بك لا يخلو

(٤) سنجار : مدينة فى نواحى الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، والوبل : المطر الشديد ، ويهمى : ينسكب (٥) كفى : نظير ، زاحفه : نازله ، من الزحف . وفى الأصل « راجعه » وهو تحريف (٦) الوغل : الضعيف النذل (٧) البيض الرقاق : السيوف المرهفة ، والضمر العتاق : الخيول الضامرة الكريمة ، والتبل : الثأر
(٨) الدارعون : لابسو الدروع ، ودراكه : تتابعه ، وترغو : تصيح ، والمخزمة : التى وضع فى شدقها الخزام ، والبزل : جمع بازل . وهو البعير يبلغ تسع سنين
(٩) الثكل : الفقد

وكانت يدُ الفتح بن خاقان عندكم ... يَدَ الغيثِ عند الأرضِ أجدبها المحْلُ(١)

ولولاهُ طُلَّتْ بالعُقوق دِماؤكم ... فلا قَوَدٌ يُعطَى الأذلُّ ولا عَقْلُ(٢)

تلافيْتَ يا فتحُ الأراقِمَ بعد ما ... سقاهم بأوحَى سُمِّه الأرقمُ الصِّلُّ(٣)

وهبْتَ لهم بالسِّلْمِ باقِي نفوسِهم ... وقد أشرفوا أن يستتمَّهمُ القتلُ(٤)

أتاكَ وفودُ الشكرِ يُثْنُون بالَّذي ... تقدَّمَ مِنْ نُعماكَ عندهم قبلُ

فلم أرَ يوماً كان أكثر سُودداً ... من اليومِ ضَمَّتْهم إلى بابك السُّبْلُ(٥)

تراءوْكَ مِنْ أقصى السِّماط فقصَّروا ... خطاهم، وقد جازوا السُّتُورَ وهم عُجْلُ(٦)

ولمّا قضَوْا صدْرَ السلام تهافتوا ... على يدِ بسَّامٍ سجيَّتُه البَذْلُ

إذا شرَعوا في خُطْبَةٍ قطعتهمُ ... جلالةُ طَلْقِ الوَجْهِ جانبُه سَهلُ(٧)

إذا نكسوا أبصارَهُمْ من مَهَابةٍ ... ومالوا بلَحْظٍ خِلْتَ أنهمُ قُبْلُ(٨)

نصبْتَ لهم طَرْفاً حديداً، ومَنْطقاً ... سديداً، ورأياً مثل ما انتُضِيَ النَّصْلُ(٩)

وسَلَّتْ سخيماتِ الصدور فعالُك الــكريم، وأبرا غِلَّها قولُك الفصْلُ(١٠)

بك الْتأم الشَّعْبُ الذي كان بينهم ... على حين بُعْدٍ منه، واجتمع الشَّمْلُ(١١)

فما برِحوا حتى تعاطتْ أكفُّهم ... قِرَاكَ، فلا ضِغْنٌ لديهم ولا ذَحْلُ(١٢)

وجرُّوا ذيولَ العصب تضْفُو ذيولُها ... عطاءُ كريمٍ ما تكاءده بُخْلُ(١٣)

(١) المحل: الجدب (٢) طلت: هدرت، والقود: القصاص، والعقل: الدية

(٣) أوحى: أسرع، والسم الوحى: السريع، والأرقم الصل: الحية التي لا تنفع فيها الرقى (٤) شارفوا: قاربوا. وفي الأصل (اسرفوا) وهو تحريف (٥) السبل: جمع سبيل، وهو الطريق، والمراد به الحاجة (٦) عجل: جمع أعجل وهو المسرع

(٧) طلق الوجه: وافر البشر (٨) قبل: جمع أقبل، وهو الذي ينظر بانحراف كأنما ينظر إلى أنفه (٩) النصل: السيف (١٠) السخيمات: جمع سخيمة، وهي الحقد

(١١) التأم الشعب: اجتمع (١٢) القرى بكسر القاف: ما يتناوله الضيفان، والذحل: الغل (١٣) تكاءده: منعه وشق عليه (م)

وما عمَّهم عمرو بن غــنم بنِسْبَةٍ كما عمَّهم بالأمْسِ نائِلُكَ الجزل
فهما رَأَوْا من غبطةٍ فى اصطلاحهم فمنك بها النُّعمى جَرَتْ ولكَ الْفضلُ

عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل بن قاسط .

وللطائيين [أبى تمام والبحترى] فى ذلك أشعار كثيرة مختارة ، منها قول البحترى يحذّر عاقبة الحرب[1] :

أمَا لربيعةِ الفَرَسِ انتهاء عن الزلزالِ فيهـا والخُروب[2]
وكانوا رقّعُوا أيامَ سِلْمٍ على تلك الضغائن والندوب[3]
إذَا ما الجرْحُ رَمَّ على فسادٍ تبيَّنَ فيــه تفْرِيطُ الطبيبِ
رَزِيَّةُ هــالكٍ جلبَتْ رَزَايَا وخَطْبٌ باتَ يكشفُ عن خطوبِ
يُشَــقُّ الجيْبُ ثمَّ يجىء أمْرٌ يُصَغِّرُ فيــهِ تشقيقُ الجيوبِ
وقبرٍ عن أيَامِنِ برقعيــــد إذا هى ناحَرَتْ أفقَ الجنوب[4]
يســـحُّ تُرَابَهُ أبداً عليها عِهَاداً من مُرَاقِ دَمٍ صبيبِ[5]
فهل لابْنَىْ عَـدِىّ منْ رَشِيدٍ يَرُدُّ شريدَ حلمهما العـزيبِ[6]
أخافُ عليهـما إمرارَ مَرْعى من الكلإ الذى عُـقباهُ تُوبى[7]
وأعــلمُ أنَّ حَرْبَهُمَا خَبَالٌ على الدَّاعى إليهــا والمُجيبِ
لعـــلّ أبا المعمّر يَتَلِيهَا ببُعْدِ الهمّ والصَّدْرِ الرَّحِيبِ[8]

---

(١) اختار المؤلف هذه القطعة من بائية البحترى التى مطلعها :

أمنك تأوب الطيف الطروب حبيب جاء يهدى من حبيب

(٢) ربيعة الفرس : أبو قبيلة . وهو ابن نزار بن معد بن عدنان

(٣) فى الأصل (وتعوا) والتصحيح عن الديوان والندوب: جمع ندب.. وهو الجرح

(٤) برقعيد : بلدة الموصل، وناحرت: قابلت، وفى الأصل «ناخرت» وهو تحريف .

(٥) العهاد : أمطار الربيع، واحدتها عهدة .تقول: حديقة معهودة وبستان معهود

(٦) العزيب : من العزوب وهو الغيبة والذهاب . وفى الأصل (الغريب) وهو تحريف

(٧) توبى : تهلك . (٨) يتليها : يتبعها . والهم هنا : بمعنى الهمة

فكم من سُؤْدُدٍ قد بات يُعطى ... عطيةَ مُكثرٍ فيها مُطيبِ
أهَنْتُم يابنَ عبدِ الله ، دعوى ... مشيرٍ بالنصيحةِ أو مُهيبِ[1]
تناسَ ذنوبَ قومكَ إنّ حفظ الـذنوبِ إذا قَدُمْنَ من الذنوبِ[2]
فَلَلسَّهمُ السديدُ أحبُّ غِبًّا ... إلى الرامى من السهم المصيبِ[3]
متى أحرَزْتَ نصرَ بنى عبيدٍ ... إلى إخلاص وُدٍّ بنى حبيب
فقد أصبحتَ أغلَبَ تغلبيّ ... على أيدى العشيرةِ والقلوبِ

يناسب قولَهُ :

* إذا ما الجرحُ رَمَّ على فَسَادِ *

قولُ أبى الطيب المتنبى لعليّ بن إبراهيم التنوخى أحد بنى القصيص :

فلا تغرُرْكَ أَلْسنةُ مَوالٍ ... تقلّبهن أفئدةُ أعادِى[4]
وكُنْ كالموْت لا يَرْثى لِباكٍ ... بكى منه ، وَيَرْوَى وهو صادِ
فإنَّ الجُرْحَ ينغرُ بعد حِينٍ ... إذا كانَ البناء عَلَى فَسَادِ[5]

وفى هذه القصيدة :

كأنَّ الهامَ فى الهَيْجَا عُيونٌ ... وَقَدْ طُبِعَتْ سُيُوفُكَ مِنْ رُقَادِ
وَقَدْ صُغْتَ الأسِنَّةَ مِنْ هُمُومٍ ... فَمَا يَخْطُرْنَ إلاَّ فى فُؤَادِ

كأنَّ البيتَ الأوّلَ مِنْ هذين ينظرُ إلى قولِ مسلمِ بنِ الوَليدِ من طَرْفٍ خفِيّ

وَلَوْ أنَّ قَوْمًا يَخْلُقُونَ مَنيّةً ... مِنْ بَأسِهِمْ كانُوا بَنِى جِبْرِيلاَ
قوْمٌ إذَا احمرَّ الهجيرُ من الوَغَى ... جَعَلُوا الجماجِمَ للسيوفِ مَقِيلاَ[6]

---

(١) مهيب: داعى (٢) فى هذا البيت حكمة بالغة (٣) غبا : عاقبة
(٤) الموالى : جمع مولى وهو الصديق (٥) ينغر : يجيش بالدم
(٦) احمرار الهجير ـ وهو وقت الظهر ـ كناية عن سيل الدماء فيه

وإنمـا أخذه [أبو الطيب] من قول منصور النميرى ، وذكر سيفاً :

ذَكَرٌ، برَوْنَقِهِ الدِّمَاء ، كأنما   يَعْلُو الرجَالَ بأرْجُوَانٍ نَاقِعِ (١)

وترَى مَسَاقِطَ شَفْرَتَيْهِ كأنها   مِلْحٌ تَبدَّدَ منْ وَرَاءِ الدَّارِعِ

وتراهُ مُغْتَمًّا إذَا جرَّدْتَهُ   بدَمِ الرِّجالِ عَلَى الأديمِ النَاقِعِ (٢)

وكأنَّ وقعتَهُ بِجُمْجُمَةِ الفتَى   خَدَرُ المُدَامَةِ أو نُعَاسُ الهاجعِ (٣)

أردت هذا البيت ، وقول النميرى :

* وَتَرَاهُ مُغْتَمًّا إذَا جَرَّدْتَهُ *

يشير إليه قولُ أبى الطيبِ ، وذكر سيفاً :

يَبِسَ النَّجِيعُ عَلَيْهِ فَهْوَ مُجَرَّدٌ   مِنْ غِمْدِهِ وكأنمـا هُوَ مُغْمَدُ (٤)

رَيَّانَ لو قَذَفَ الذِى أسْقَيْتَهُ   لجَرَى من المُهجَاتِ بَحْرٌ مُزْبِدُ (٥)

وبنو عبيد ، وبنو حبيب ـ اللذان ذكرهما البـحترى ـ هم : بنو عبيد ابن الحارث بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، وحبيب بن المجرس ابن تيم بن سعد بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، وفيهم حبيب بن حرقة بن تغلب بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، فلا أدرى أيهما أراد !

---

(١) سيف ذكر : من الذكرة بضم الذال وهى الحدة . والأرجوان : صبغ أحمر ، وفاقع : صفة ترادبها مبالغة . وكل ناصع اللون فاقع ، وأكثرما يوصف به الأحمر والأصفر

(٢) معتم : جمد الدم عليه حتى صار له كالعمامة ، والناقع : الذى تروى بالدم . وفى الأصل (الفاقع) وهو تحريف (٣) يصف إمالة السيف للرؤوس ويشبه فعله بفعل المدام والنعاس (٤) النجيع : الدم يتجمد

(٥) ريان : ممتلىء بالرى ، وقذف : ألقى وطرح ورمى ، وبحر مزبد : يرمى بالزبد ، وذلك كناية عن كثرة ما يجرى فيه وعن شدة موجه (م)

للبحترى أيضا

وقال البحترى :

أسيتُ لأخوالى ربيعةَ أنْ عفتْ مَصايفُها منها ، وأقوتْ ربُوعها[١]

بكُرهِىَ أنْ بانتْ خلاءً ديارُها ووحْشاً مَغانيها ، وَشتّى جميعُها[٢]

إذا افترقوا من وَقعةٍ جمعتهمُ دماءٌ لأخرَى ما يُطَلُّ نجيعُها[٣]

تذمُّ الفتاةُ الرُّودُ شيمةَ بعلِها إذا باتَ دونَ الثأرِ وَهوَ ضجيعُها[٤]

حميَّــــةُ شَغْبٍ جاهلىٍّ وعزَّةٌ كُلَيبيَّةٌ أعيَا الرجالَ خضوعُها

وفرسانُ هيجاءٍ تجيشُ صدورُهم بأحقادِها حتى تضيقَ دُروعُها

تُقتِّلُ من وِترٍ أعزَّ نفوسِها عليها بأيدٍ ما تكادُ تُطيعُها[٥]

إذا احتربتْ يوماً ففاضتْ دماؤُها تذكَّرتِ القُربَى ففاضتْ دموعُها

شواجِــــرُ أرماحٍ تقطِّعُ بينها شواجرُ أرحامٍ مَلومٌ قطوعُها[٦]

فكنتَ أمينَ اللهِ مَولَى حياتِها ومولاكَ فتحٌ يومَ ذاكَ شفيعُها

لأبى تمام

وقال أبو تمام الطائى :

مَهلاً بَنِى مالكٍ لا تجلِبُنَّ إلى حىِّ الأراقمِ دُؤلولَ ابنةِ الرقَمِ[٧]

لم يألُكُمْ مالكٌ صفحاً ومغفرةً لو كان ينفخُ قَينُ الحيِّ فى فحَمِ[٨]

أخرجتموه بكُرهٍ من سجيّتِه والنارُ قد تُنتضَى من ناضرِ السلمِ[٩]

أوطأتموهُ على جمرِ العقوقِ ، ولو لم يُحرَجِ الليثُ لم يخرج من الأجَمِ[١٠]

---

(١) أسيت : حزنت ، والمصايف : جمع مصيف ، وفى الأصل «مصانعها» وهو تحريف ، والتصحيح عن الديوان ، وأقوت : خلت .

(٢) المغانى : جمع مغنى ، وهو المنزل الذى غنى به أهله : أى أقاموا .

(٣) يطل : يهدر (٤) الرود : الجميلة الوافرة الحياء (٥) الوتر : الثأر .

(٦) الشواجر : القواطع ، أو الروابط ، فهى من أسماء الأضداد .

(٧) الأراقم : حى من تغلب ، وابنــة الرقم : الحية ، والدؤلول : السم ، يريد لاتقدموا السم بأنفسكم إلى حى الأراقم ليقتلوكم به (٨) القين : الحداد .

(٩) تنتضى : تستخرج ، والسلم : اسم شجر (١٠) الأجم : مأوى الأسد

لولا مناشدةُ القُرْبَى لغادرَكم حَصَائِدَ المرهَفَيْنِ السيفِ والقلمِ
لا تجعلوا البَغْيَ ظَهْراً إنهُ جَمَلٌ مِنَ القطيعة يَرْعَى وادىَ النِّقمِ

وقال أيضاً :

مهلاً بنى عمرو بن غُنْمٍ ؛ إنكم هَدَفُ الأسِنَّةِ والقَنَا تتحَطَّمُ (١)
ما منكم إلا مُرَدًّى بالحِجَى أو مُنْبَشِرٌ بالأحوذيَّةِ مُؤْدَمُ (٢)
عمروُ بنُ كلثوم بن مالكٍ بن عتَّاب بنِ سعد سهمكم لا يُسْهَمُ (٣)
خلقت ربيعةُ من لَدُنْ خُلقتْ يدًا جُشَمُ بنُ بكرٍ كفُّهَا والمِعصمُ (٤)
تغزو فتغلب تغلبٌ مثلَ اسمها وتسيح غنمٌ فى البلاد فتغنمُ
وستذكرون غداً صنائعَ مالكٍ إنْ جلَّ خَطْبٌ أوتُدُوفِعَ مَغْرَمُ (٥)
مالى رأيتُ ثَرَا كُمُ بِيَسَالَةٍ مَالِى أرَى أطْوَادَكُمْ تتهدَّمُ ؟ (٦)
ما هذهِ القُرْبى التى لا تُصطفى ما هذه الرحِمُ التى لا تُرْحَمُ ؟
حَسَدُ القرابة للقرابة قرحةٌ أعْيَتْ عَوائدُهَا وجرح أقدمُ (٧)
تلكم قريشٌ لم تكنْ آباؤها تَهْفُو ولا أحْلامُهَا تتقسَّمُ (٨)
حتى إذَا بُعِثَ النَّبِيُّ محمدٌ فيهم غَدَتْ شَحْنَاؤهم تتضرَّمُ (٩)
عَزَبتْ عقولُهُمُ ، وما مِنْ مَعْشَرٍ إلاَّ وهُم منه ألبُّ وأحْزَمُ (١٠)
لما أقام الوَحْى بين ظهورهم ورأوا رسولَ اللهِ أحْمَدَ منهُمُ

---

(١) الهدف : الغرض (٢) مردى بالحجا : يتخذه رداء ، والأحوذية : الخفة والنشاط ، ومبشر بها ومؤدم : اتخذ منها بشرته وأدمه ، و لأدم : الجلد

(٣) لايسهم : لايغلب (٤) من لدن : من منذ (٥) الصنائع : جمع صنيع وهو المعروف (٦) من معانى البسالة لهلاك ، ورأيت ثراكم ببسالة : أى فى بسالة — كذا ، والذى فى الديوان « مالى رأيت ثراكم بيسا له » يريد جافاً لا يبله ندى ؛ فليس ينبت شيئا ، وهذا معنى جيد (م) .

(٧) يريد من العوائد النكسات التى تعود بها القروح (٨) لاتتقسم أحلامها : لاتتفرق آراؤها (٩) الشحناء : البغضاء (١٠) عزبت : غابت ، ألب : أعقل

ومن الحزامةِ لو تكونُ حزامةٌ ألاَّ تؤخِّرَ مَنْ بِهِ تتقدَّمُ[١]

ومالك هو : ابن طَوْقٍ[٢] بن مالك بن عتاب بن زُفَرَ بن مرَّة بن شريح ابن عبد الله بن عمرو بن كلثوم بن مالك [بن عتاب] بن سعد بن [زهير ابن] جُشَمَ بن بكر [بن وائل] بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، وفيه يقول دِعْبِل[٣] يهجوهُ :

الناسُ كلُّهُمُ يَغدُو لحاجتهِ من بين ذى فَرَحٍ منها ومهمومِ
ومالكٌ ظَلَّ مشغولا بنسبتهِ يَرُمُّ منها بناءً غيرَ مرْمُومِ[٤]
يبنى بيوتاً خراباً لا أنيس بها مابين طوق إلى عمرو ابن كلثوم

والتكثير من المعنى المُعتَرِض ، يزيح عن ثغرة الغَرَض[٥] ، لكنى أجرى منه إلى حلبة الإجادة ، وأقصدُ قصدَ الإفادة ، ثم أعود حيثُ أُريد :

لابن الخياط يمدح الإمام مالك بن أنس

وقال ابن الخياط المكى — واسمه عبد الله بن سالم — فى باب الهيبة ، فى مالك ابن أنس[٦] الفقيه ، رحمة الله عليه ؛ وقيل : إن هذا من قول ابن المبارك :

---

(١) الحزامة : الحزم

(٢) كان مالك بن طوق من الفرسان ، وهو الذى بنى « رحبة مالك » على شاطىء الفرات ، وله مع هرون الرشيد موقف مشهور ، وهو صاحب التائية لتى يقول فيها :

ومابى خوف أن أموت ، وإننى لأعلم أن الموت شىء مؤقت
ولكن خلفى صبية قد تركتهم وأكبادهم من خشية تتفتت

وتوفى سنة ٢٥٩

(٣) هو دعبل بن على ، الخزاعى ، المتوفى سنة ٢٤٦ ، كان دعبل بذىء اللسان مولعا بالهجو والحط من أقدار الناس ، وكان يتعرض للشر والموت، ولكنه عمر طويلا مع تعرضه للخلفاء .

(٤) يرم : يصلح (٥) الثغرة : الطريق

(٦) هو الإمام مالك ، أحد الأئمة الأربعة ، المتوفى سنة ١٧٩

يَأبَى الجوَابَ فما يُرَاجَعُ هَيْبَةً   والسائلون نَوَاكِسُ الأذْقَانِ[1]
أدَبُ الوقار، وعِزُّ سلطانِ التقى،   فهو المَهِيبُ وليس ذَا سُلْطَانِ

***

وقول الفرزدق :

* يكادُ يمسكه عرفان راحته *

قد تجاذَبه جماعةٌ من الشعراء ؛ قال أشجع بن عمرو السلمى[2] لجعفر البرمكى : لأشجع السلمى

حَبَّذَا أنتَ قادماً تردُ الشا   مَ فتختالُ بين أرحُلِ عيرِكْ
إنَّ أرضاً تسرى إليها لو اسْطا   عت لسارت إليك من قبل سَيْرِكْ

وإليه أشار أبو تمام الطائى فى قوله :

ديمَةٌ سَمْحَةُ القِيَادِ سكوبُ   مُسْتَغيثٌ بها الثَّرَى المكروبُ   لأبى تمام
لو سَعَتْ بقعةٌ لإعظامِ نُعمَى   لَسَعى نحوها المكانُ الجديبُ

وفى هذه القصيدة فى وصف الديمة ، ومدح محمد بن عبد الملك الزيات[3] :

---

(١) نواكس الأذقان : مطرقون إلى الأرض خشوعا

(٢) كان أشجع السلمى شاعراً فحلا يجيد المديح ، ولد فى اليمامة ، ونشأ فى البصرة ، ومدح البرامكة، وانقطع إلى جعفر بن يحيى، فقربه من الرشيد.

ومن أبياته السائرة قوله :

وعلى عدوك يا ابن عم محمد   رصدان ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رعته ، وإذا غفا   سلت عليه سيوفك الأحلام

وكانت وفاة أشجع نحو سنة ١٩٥

(٣) هو وزير المعتصم والواثق ، وأحد مشاهير الكتاب والشعراء ، عرف حلو الحياة ومرها ، وهو القائل فى سجنه :

من له عهد بنوم   يرشد الصب إليه
رحم الله رحيما   دل عينى عليه
سهرت عينى ونامت   عين من هنت لديه

وكانت وفاته سنة ٢٣٣

لذَّ شُؤْبوبُها وطابَ فلو تسـ ... ـطيعُ قامت فعانقتْها القلوبُ[(١)]

فهْوَ ماءٌ يجـرى وماءٌ يليهِ ... وعَزَالٍ تنشا وأخرى تَصُوبُ[(٢)]

أيُّها الغيثُ حيَّ أهـلا بمغدا ... ك وعندَ السُّرَى وحين تؤوب[(٣)]

لأبي جَعْـفَرٍ خـلائق تحـكيهن ... قد يشبه النجيبَ النجيب

بين أبي تمام وابن الزيات

وأنشدها أبا جعـفر بن الزيات ، فقال : يا أبا تمـام ؛ والله إنك لتحلِّى شعرك من جواهر لفظك وبدائع معانيك ، ما يزيد حُسْناً على بهىّ الجواهر فى أجياد الكواعب ؛ وما يُدَّخَرُ لكَ شىءٌ من جزيل المكافأة إلاّ يَقصُرُ عن شِعركَ فى الموازنة . وكان بحضرته رجلٌ من الفلاسفة ، فقال : هذا الفتى يموتُ شاباً ! فقيل له : مِنْ أينَ حَكَمتَ عليه بهذا ؟ فقال : رأيتُ فيه من الحدَّة والذكاء والفطنـة مع لطافة الحس ما علمتُ به أن النفسَ الروحانيـة تأكل عمره كما يأكلُ السيفُ المهنـدُ غمدَه ! قال الصولى : مات وقد نيَّفَ على الثلاثين .

لأبي تمام فى أبي دلف

وقال فى أبي دُلف العجلى القاسم بن محمد بن عيسى[(٤)] :

تـكادُ عطاياهُ يُجَنُّ جنونُها ... إذا لمْ يعوِّذْها بنغمةِ طالبِ

تـكادُ مَغانيـهِ تَهَشُّ عِراصُها ... فتركب من شوقٍ إلى كل راكبِ[(٥)]

---

(١) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

(٢) عزال: جمع عزلاء، وهى مصب الماء ، والمراد بها السحابة، وتصوب: تنسكب

(٣) تؤوب : ترجع (٤) أبودلف : كان أمير الـكرخ ، وسيد قومه، وأحد قواد المأمون الشجعان ، وللشعراء فيه مدائح كثيرة ، من أروعها هذا البيتان :

إنما الدنيا أبو دلف ... بين باديه ومحتضره

فإذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

وكانت وفاته سنة ٢٢٦ (٥) العراص : جمع عرصة ، وهى : ساحة الدار

وقال البُحْترى :

لو أنَّ مُشتاقاً تكلف فوقَ ما　　فى وُسْعِهِ لمشى إليكَ المِنبرُ

وقال أبو الطيب المتنبى لبدر بن عمار :

طَرِبَتْ مَرَاكِبُنا فَخِلْنا أنها　　لولا حَيَاءٌ عاقَها رَقَصَتْ بنَا

لو تعقِلُ الشَجرُ التى قابلتَها　　مَدَّتْ مُحَيِّيةً إليكَ الأغْصُنَا

رجع ما انقطع

لمحمد بن على ابن الحسين (أبى جعفر الباقر)

قال أعرابى لأبى جعفر محمد بن على بن الحسين[1] رضى الله عنه : هل رأيت الله حين عَبَدْتَهُ ؟ فقال: لمْ أكُنْ لأعْبد مَنْ لم أره ، قال : فكيف رأيتَهُ ؟ قال : لم تره الأبصارُ بمشاهدة العِيان ، ورَأَتْهُ القلوبُ بحقائق الإيمان ، لا يُدرَكُ بالحواسِّ ، ولا يُشَبَّه بالناس ، معروفٌ بالآيات ، منعوتٌ بالعلاماتِ ، لا يجورُ فى القضيّات ، ذلك اللهُ الذى لا إلهَ إلا هو . فقال الأعرابى : الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته .

قال الجاحظ : قال محمد بن على : صلاحُ شأنِ الدنيا بحذافيرها فى كلمتين ؛ لأنَّ صلاحَ شأن جميع الناس [فى التعايش و] التعاشر وهو مِلء مِكْيال : ثلثاه فطنة ، وثلثه تَغَافل .

قال الجاحظ : لم يجعل لغير الفِطْنَةِ نصيباً من الخير ، ولا حظًّا من الصلاح ؛ لأن الإنسان لا يتغافلُ عن شىء إلا وقد عرفه وفطن له ، قال الطائى :

ليس الغبىُّ بسيدٍ فى قَوْمِهِ　　لكنَّ سيدَ قَوْمِهِ المُتَغَابِى

وقال ابن الرومى لأبى محمد بن وهب بن عبيد الله بن سليمان :

تظلّ إذا نامت عيونُ ذوى العمى　　وإن حدّدوا زُرقاً إليك جَوَاحِظَا[2]

---

(١) ولد محمد بن على بالمدينة سنة ٥٧ ودفن بها سنة ١١٤ ، وكان مشهورا بالعلم والتقى ، وله آراء فى تفسير القرآن

(٢) جواخظ : جمع جاحظة ، وهى : الناتئة الحدقة

تغاضى لهم وَسْنَانَ ، بل متواسِنا ، وتوقظهُمْ يقظان بل متياقظا[1]

[وأبو جعفر هذا هو الباقر] ، وكان أخوه زيد بن على رضى الله عنه دَيِّناً ، شجاعا ، ناسكا ، من أحْسَنِ بنى هاشم عبارةً ، وأجملهم شَارَةً .

زيد بن على ابن الحسين

وكانت ملوك بنى أمية تكتُب إلى صاحب العراق أنِ امنَعْ أهلَ الكوفة من حضور زيد بن على ؛ فإنَّ له لسانا أقْطع من ظُبَةِ السيف وأحَدَّ من شَبَا الأسِنة[2] ، وأبلغ من السحر والكهانة[3] ، ومن كل نَفْثٍ فى عُقْدَة .

وقيل لزيد بن على : الصمتُ خيرٌ أم الكلام ؟ فقال : قبّح الله المساكتة ، ما أفسدها للبيان، وأجلبها للعِىِّ والحَصَر[4]! والله لَلْمماراة أسرعُ فى هَدْمِ العِىِّ[5] من النار فى يَبَس العَرْفج ، ومن السيل إلى الحَدور[6] .

وقال له هشام بن عبد الملك : بلغنى أنّك ترومُ الخلافة وأنت لا تصلُحُ لها لأنك ابنُ أمَة ؟ قال زيد : فقد كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ابنَ أمة ، وإسحاق ابن حُرّة ؛ فأخرج الله من صُلب إسماعيل خيرَ ولد آدم ! فقال له : قم ! فقال : إذاً والله لا ترانى إلاّ حيثُ تكره ! فلما خرج من الدار قال : ما أحبَّ أحَدٌ الحياةَ قط إلاّ ذلّ ، فقال له سالم مولى هشام : لا يسمعنّ هذا الكلام منك أحَدٌ ، وكان زيد كثيراً ما ينشد :

شرّده الخوفُ وأزْرَى بهِ كذاك من يَكْرَهُ حرَّ الجِلاَدْ[7]
منخرق الخفّين يشكو الوجَى تنكُبُه أطرافُ مَرْوٍ حِدَادْ[8]

---

(١) متواسن : متناوم وليس بنائم، ومتياقظ : متظاهر باليقظة (٢) ظبة السيف : طرفه ، وكذلك شبا السنان (٣) الكهانة : نوع من فتنة الناس باسم البحث عن الغيب (٤) الحصر: عسر الكلام (٥) فى الأصل «هدم الندى» وهو تحريف (٦) الحدور: المنحدرات يجرى إليها الماء (٧) الجلاد : الحرب .

(٨) المرو : الحجارة البيض الرقاق ، والحداد : جمع حديد .

قد كان فى الموت له رَاحَة والموتُ حَتْمٌ فى رقاب العبــاد

وقد رُوِيت هذه الأبيات لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ، وقد رُوِيت لأخيه موسى .

محمد بن على يصف أخاه زيد بن على

قال عبد الرحمن بن يحيى بن سعيد : حدثنى رجل من بنى هاشم قال : كنا عند محمد بن على بن الحسين ، وأخوه زيد جالس ، فدخل رجلٌ من أهل الكوفة فقال له محمد بن علىّ : إنك لتَرْوِى طرائفَ من نوادر الشعر ، فكيف قال الأنصارى لأخيه ؟ فأنشده :

لَعمْرُك ما إنْ أبو مالكٍ بِوانٍ ولا بِضَعيفٍ قُوَاهُ
ولا بألدَّ لَهُ نَازِعٌ يُعَادِى أخَاه إذا ما نَهَاهُ
ولكنَّه غــيرُ مِخلافةٍ كريم الطبائع حلو نثَاهُ[1]
وإن سُدْتَهُ سُدْتَ مِطْوَاعةً ومهما وكَلْتَ إليه كفاه

فوضع محمد يده على كَتِفَ زيد ، فقال : هذه صِفَتُك يا أخى ؛ وأُعِيذُك بالله أنْ تكون قتيل أهل العراق !

بلاغة جعفر ابن الحسن بن الحسين وزيد ابن على بن الحسين

وكانت بين جعفر بن الحسن بن الحسين بن على و بين زيد رضوان الله عليهم منازعةٌ فى وصيَّة ، فكانا إذَا تَنَازعا انْثَالَ الناسُ عليهما ليسمعُوا محاوَرَتَهما ؛ فكان الرجلُ يحفظ على صاحبه اللّفظة من كلام جعفر ، ويَحفظُ الآخرُ اللفظةَ من كلام زيد . فإذا انفصلا وتفرّق الناس عنهما قال هــذا لصاحبه : قال فى موضع كذا وكذا ، وقال الآخر : قال فى موضع كذا وكذا ؛ فيكتبون ما قالا ، ثم يتعلَّمُونه كما يتعلّم الواجب من الفَرْض ، والنادرُ من الشعر ، والسائرُ من المثل ! وكانا أعجوبةَ دَهْرِهما وأُحْدُوثَةَ عصرهما .

ولما قتل زيداً يوسفُ بنُ عُمر[2] وصلب جُثَّته بالكُنَاسة[3] و بعثَ برأسه

(١) النثا : الحديث عنه . يريد أنه لايقال عنه غير الخير (م)
(٢) أحد الولاة فى العصر الأموى ، كانت وفاته سنة ١٢٧ (٣) الكناسة : محلة بالكوفة يقول فيها الشاعر :

مع شَبَّة بن عقال ، وكَلَّف آل أبي طالب البراءة من زيد . وقام خطباؤهم بذلك : فكان أولَ مَنْ قام عبدُ الله بن الحسن بن الحسين بن على رحمة الله عليه فأوْجز فى كلامه ثم جَلَس ، وقام عبدُالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب فأطْنب ـ وكان شاعراً خطيباً لسِنا ناسباً ـ فانصرف الناسُ وهم يقولون : ابن الطيار مِنْ أخْطَبِ الناس . فقيل لعبدالله بن الحسن فى ذلك : فقال : لو شئت أن أقولَ لقلت ، ولكن لم يكن مقامَ سرور ، وإنما كان مقامَ مُصيبة !

من كلام عبدالله ابن الحسن بن الحسين

وعبدُ الله هذا هو : أبو محمد وإبراهيم الخارجَيْن على أبي جعفر المنصور . وهو القائلُ لابنهِ محمد أو إبراهيم : أىْ بُنَىَّ ! إنى مُؤَدٍّ حقَّ اللهِ فى تأديبك ، فأدِّ إلىَّ حقَّ الله فى الاستماع منى : أى بُنىَّ ! كُفَّ الأذى ، وارفض البَذَى[1] واسْتعِنْ على الكلام بطول الفِكْر فى المواطن التى تدْعُوكَ فيها نفسُك إلى الكلام ، فإنَّ للقول ساعات يَضُرُّ فيها الخَطأ ، ولا يَنْفعُ فيها الصَّوابُ . واحذَرْ مشورةَ الجاهلِ وإنْ كان نَاصِحاً ، كما تَحْذَر مشورة العاقِل إذا كان غاشًّا : لأنه يُرْدِيكَ بمَشُورَته : واعلم يابنىَّ أن رأْيك إذا احتجتَ إليه وجدتَه نائمًا ، ووجدتَ هواكَ يَقْظَان ، فإياكَ أن تستبدَّ برَأْيك ؛ فإنه حينئذ هَواكَ : ولا تفعَلْ فِعْلا إلا وأَنْتَ على يقين أنَّ عاقبتَه لا تُرْدِيك ، وأن نتيجتَه لا تَجْنى عليك .

وهو القائل: إياكَ ومُعاداةَ الرجال فإنك لن تعدَم مكرَ حليم ، أو مُعاداة لئيم .

وكتب إلى صديق له : أُوصيك بتقوى الله تعالى، فإنَّ الله تعالى جعل لمن اتَّقاه المخرج من حيث يَكْرَه . والرزق من حيث لا يحتسب .

وعبدُ الله هو القائل :

ت. يا أيها الراكب الغادى لطيته يؤم بالقوم أهل البلدة الحرم
أبلغ قبائل عمرو إن أتيتهم أو كنت من دارهم يوما على أمم
إنا وجدنا فقروا فى دياركم أهل الكناسة أهل اللؤم والعدم

(١) البذى : مقصور البذاء وهو فحش القول ـ ومن حقه أن يكتب بالألف (م)

أُنسٌ حرائرُ ما هَمَمْن بريبةٍ　　كظباء مكةَ صيدُهنَّ حرام (١)

يُحْسَبْنَ من لينِ الحديث دوانيا　　ويصدّهنَّ عن الخَنا الإسلامُ (٢)

قال : وهذا كما روى أنَّ عبد الملك بن مروان استقبل عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى، فقال له : قد علِمَتْ قريشٌ أنّكَ أطولُها صَبْوَة ، وأبعَدُها تَوْبة ، وَيحَك ! أمَالكَ فى نساء قريش ما يَكْفيك من نساء بنى عبد مناف (٣) ؟ ألست القائل :

بين عبد الملك ابن مروان وعمر بن أبى ربيعة

نظرتُ إليها بالمحصَّب من مِنًى　　ولى نظرٌ لولا التحرُّجُ عارمُ (٤)

فقلت : أصُبْحٌ أم مصابيح راهبٍ　　بدت لك خلف السَّجف أم أنْتَ حالم (٥)

بعيدةُ مَهْوَى القُرْطِ إمَّا لنوفلٍ　　أبوها وإمَّا عبدُ شمس وهاشم (٦)

فقال : يا أمير المؤمنين ، فإنَّ بَعْدَ هذا :

طلبن الهوى حتى إذا ما وجدنَهُ　　صَدَرْنَ وهُنَّ المسلماتُ الكرائمُ (٧)

فاستحيا منه عبدُ الملك، وقضى حوائجه ووصله .

وقال آخر فى هذا المعنى :

تَعَطَّلْنَ إلا مِنْ محاسنِ أوْجُهٍ　　فهنّ حَوالٍ فى الصفات عَوَاطِلُ (٨)

كَوَاسٍ عَوَارٍ صامتات نواطقٌ　　بعفّ الكلام باخِلاتٌ بَوَاذل (٩)

بَرَزْنَ عفافاً واحتجَبْنَ تستُّراً　　وشِيبَ بحقّ القولِ منهنّ بَاطِلُ (١٠)

---

(١) أنس : آنسات (٢) الخنا : الفحش ، وفى نسخة « زوانيا »

(٣) كذا ، وأعتقد أن صوابه « ما يكفك عن نساء بنى عبد مناف » (م)

(٤) عارم بالراء المهملة : طامع شرس وفى الأصل « عازم » بالزاى المعجمة ، وأرجح أنه تحريف (٥) السحف بفتح السين أو كسرها : الستر (٦) القرط : حلى يعلق فى الأذن . وبعد مهوى القرط : كناية عن طول العنق (٧) صدرن : رجعن

(٨) حوال : جمع حالية ، والعواطل: جمع عاطل ،وهى التى تعطلت من الحلى .

(٩) كواس : جمع كاسية ، والعف: العفيف (١٠) شيب : مزج

فذو الحلم مرتادٌ وذوالجهل طامعٌ   وهنّ عن الفحشاء حِيدٌ نواكل[١]

للعديل ابن الفرخ

وقال العُدَيل بن الفَرْخ فيما يتطرف طرفا من هذا المعنى :

لعبَ النعـيمُ بهنّ فى أطلاله   حتى لبسن زمانَ عَيْشٍ غافلِ[٢]

يأخذن زينتهن أحسَنَ ماترى   فإذا عطِلْنَ فهُنَّ غيرُ عواطلِ

وإذا خبأن خدودهن أريْنَنى   حدَق المَها وأخذن نَبْل القاتل[٣]

يرميننا لا يستترن بجُنَّةٍ   إلا الصِّبا وعلمن أينَ مقاتلى[٤]

يلبسن أرْدِيَة الشباب لأهلها   ويجرّ باطِلُهُنَّ ذيلَ الباطلِ

بين عبدالله بن الحسن ورجل تعرض له بما يكره

وتعرَّضَ لعبد الله بن الحسن رَجُلٌ بما يَكْرَهُ، فقال فيما أنشده ثعلب :

أظَنَّت سَفاها من سَفَاهَة رأيها   أن اَهْجُوَها لما هَجَتْنى مُحَارِبُ[٥]

فلا وأبيهـا إننى بعشـيرتى   ونفسىَ عن ذاك المقام لَرَاغِبُ[٦]

وأنشد هذين البيتين أبو العباس المبرّد لرجل لم يسمّه فى رجلٍ يُعْرَفُ بابن البعير ، وقبلهما :

يقولون أبناء البَعير وما لَهُمْ   سَنَامٌ ولا فى ذِرْوَة المجد غارِبُ[٧]

بين السفاح وعبد الله بن الحسن

وسايَرَ عبدُ الله بن الحسن أبا العباس السفاح بظَهْر مدينةِ الأنبار وهو يَنْظُرُ إلى بناء قد بناه أبو العباس ويدور به ، فأنشد عبدُ الله :

ألم تَرَ جوشنا لمـا تبنّى   بناءً نَفْعُه لبنى بُقَيْله

يؤمِّلُ أنْ يُعَمّرَ عُمْرَ نُوحٍ   وأمْرُ الله يَحْدُثُ كلَّ لَيْله

وكان أبو العباس له مُكْرِماً ، ولحقّه معظِّماً ؛ فتبسّم مغضَباً، وقال : لو عَلِمْنَا

---

(١) حيد : جمع حيداء ، وهى التى تحيد عن مواطن التهم ، والنواكل : جمع ناكلة ، وهى النافرة من الفحش .

(٢) الأطلال : جمع طلل ، وهو الدار : والمراد أنهن نشأن فى مدارج النعيم : وفى نسخة « فى أظلاله » (م)   (٣) المها : واحدها مهاة ، وهى الظبية

(٤) الجنة : ما يتقى به المرء السهام (٥) محارب : اسم قبيلة (٦) رغبت عن الشىء : زهدت فيه (٧) الغارب : الكاهل ، وذروة الشىء : أعلاه .

لا شترطنا حقَّ المُسَايرة ! فقال عبدُ الله : بوادِرُ الخواطر ، وأغفال المسانح ؛ والله ماقلتُها عن رَوِيَّة ، ولا عارَضَني فيها فكر ؛ وأنتَ أجلُّ مَنْ أقال ، وأولَى مَنْ صَفَح ، قال : صدقت ؛ خُذْ فى غيرهذا .

المنصور وعبد الله ابن الحسن

ولما قتل المنصورُ ابنَه محمدا ــ وكان عبدُ الله فى السجن ــ بعث برأسه إليه مع الربيع حاجبِه ؛ فوُضع بين يديه ، فقال : رحمك الله أبا القاسم فقد كنتَ من « الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَل ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » ! ثم تمثل :

فَتًى كان يَحْميه من الذلِّ سَيْفُه ... ويكفيه سوءاتِ الأمورِ اجتنابها

ثم التفتَ إلى الربيع فقال له : قل لصاحبكِ قد مضَى من بؤسنا مدة ، ومن نعيمك مثلُها ؛ والموعدُ الله تعالى ! قال الربيع : فما رأيت المنصور قطّ أكثر انكساراً منه حين أبلغتُه الرسالة[١] .

أخذ العباس بن الأحنف[٢] هذا المعنى ، وقيل : عمارة بن عقيل بن بلال ابن جرير[٣] فقال :

فإن تَلْحَظِي حالى وحالك مرةً ... بنظرة عين عن هوى النفس تُحْجَبُ

تَجِدْ كلَّ يوم مرّ من بؤسِ عيشتى ... يمرّ بيوم من نعيمكِ يُحْسَبُ

بين المنصور وامرأة محمد ابن عبدالله ابن الحسن

ولما قتل المنصورُ محمدَ بن عبد الله اعترضته امرأةٌ معها صبيان ، فقالت : يا أميرَ المؤمنين ، أنا امرأةُ محمد بن عبد الله ، وهذان ابناه ، أيتَمَهُما سيفُك ، وأَضْرَعَهُمَا خوفُك[٤] . فناشدتُك اللهَ يا أمير المؤمنين أن تُصَعِّرَ لهما خدَّك ،

(١) كانت وفاة عبد الله بن الحسن فى سجن المنصور سنة ١٤٥ .

(٢) العباس بن الأحنف : شاعر غزل رقيق الإحساس ، توفى سنة ١٩٢ .

(٣) عمارة بن عقيل: شاعر فصيح ، كان النحويون فى البصرة يأخذون عنه اللغة ، توفى سنة ٢٣٩ . (٤) أضرعه : أذله

أوْ ينأى عنهما رِفْدُك[١]؛ ولتَعطِفْكَ عليهما شَوَابِكُ النسب، وأَوَاصِرُ الرَّحِم[٢]

فالتفَتَ إلى الربيع ، فقال : اردُدْ عليهما ضياع أبيهما ، ثم قال : كذا واللهِ أُحبُّ أن تكونَ نساء بنى هاشم .

بين المنصور وجعفر الصادق

وكان أهلُ المدينة لما ظهر محمد أَجمَعُوا على حربِ المنصور ، ونصر محمد ؛ فلما ظفِر المنصور أحضر جعفر بن محمد بن على بن الحسين الصادق ، فقال له : قد رأيتَ إطباقَ أهلِ المدينة على حَرْبى ، وقد رأيتُ أن أبعثَ إليهم من يُغَوِّر عيونهم[٣] ، ويجمِّرَ نخلَهم[٤] . فقال له جعفر : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنَّ سليمانَ أُعطِىَ فشكر ، وإنّ أيوبَ ابْتُلِىَ فصبرَ ، وإنّ يوسف قدرَ فغفرَ ؛ فاقْتَدِ بأيِّهم شئت ، وقد جعلك الله من نَسْلِ الذين يَعفُونَ ويَصْفَحُونَ ، فقال أبو جعفر : إنَّ أحداً لا يُعَلِّمُنا الحِلْمَ ، ولا يعرِّفُنَا العلم. وإنما قلتُ هَمَمْت ، ولم ترنى فعلت ؛ وإنك لتعلمُ أن قدرتى عليهم تمنَعُنِى من الإساءةِ إليهمْ .

تعزية لجعفر الصادق

وعزَّى جعفرُ بن محمد رجلاً ، فقال : أَعْظِمْ بنعمةٍ فى مصيبة جَلَبَتْ أجراً وأَفْظِعْ بمصيبةٍ فى نعمةٍ أكسبت كُفراً

هذا كقول الطائى :

قد يُنْعِمُ اللهُ بالبَلْوَى وإن عظمت   ويَبْتَلِى اللهُ بَعْضَ القَوْمِ بالنِّعَم

وكان جعفرُ بنُ محمد يقولُ : إنّى لأُمْلِقُ أحياناً فأُتاجر الله بالصدقة فيُرْبحنى.

من كلام جعفر الصادق

وقال جعفر رضى الله عنه : من تخلَّق بالخلق الجميل وله خُلقُ سوء أَصيل فتخلُّقُه لا محالَة زائل ، وهو إلى خُلُقه الأوَّل آيل ، كطَلْى الذهب على النحاس ينْسَحِق وتظهر صفرَته للناس .

وهذا كقول العرجى :

يأيها المتحلِّى غيرَ شيمتِهِ   ومن خلائقه الإقصارُ والمَلَق[٥]

(١) الرفد : العطاء (٢) الشوابك والأواصر : هى الروابط

(٣) يغور عيونهم : يطمسها ويذهب ماءهابالعين المهملة أو بالغين المعجمة (م) ، وفى الأصل «ينور» وهو تحريف . (٤) جمر النخلة تجميرا قطع جمارها .

(٥) المراد من الإقصار القصور والضعف ، والملق : إظهار الود ذلة وخضوعا .

ارجع إلى خلقك المعروف وارْضَ بهِ　　إنّ التخلقَ يأتِي دُونه الْخُلُقُ[١]

وكان يقول : ما توسّلَ إلىّ أحدٌ بوسيلة هى أقرب إلىّ من يدٍ سبقَتْ منى إليه أتبعها أختَهَا لتحسن رَبَّهَا وحِفْظَها[٢]؛ لأن مَنْعَ الأواخر يقطعُ لسانَ الأوائل.

وقيل لجعفر رحمه الله : إنّ أبا جعفر المنصور لا يلبسُ مذ صارت إليه الخلافةُ إلاّ الخشن ، ولا يأكلُ إلا الجَشِب[٣]. فقال : يا وَيْحَه ! مع ما مُكّن له من السلطان ، وجُبِي إليه من الخَرَاج ! قالوا : إنما يَفْعل ذلك بُخْلاً وجمعاً للمال. فقال : الحمد لله الذى حَرَمه من دُنْياهُ ما ترك له من دينه . انتهى .

قال : ومن دعاء جعفر رضى الله عنه : اللهم إنك بما أنت أهلٌ له من العفو أوْلى بما أنا أهلٌ له من العقوبة .

من عبد الله ابن معاوية ابن عبد الله ابن جعفر إلى بعض إخوانه

وكان عبدُ الله [بن معاوية بن عبد الله] بن جعفر عالماً ، ناسباً ، وكان خطيباً مُفَوّهاً ، وشاعراً مُجيداً ، وكتب إلى بعض إخوانه :

أما بعدُ ، فقد عاقَنِي الشكُّ فى أمْرِك عن عزيمة الرّأْيِ فيك ، وذلك أنك ابتدأْتَنِي بِلُطْف عن غير خِبْرَة ؛ ثم أعقَبْتَنى جفاء عن غير جَرِيرة؛ فأَطْمَعَنِي أوّلُك فى إخائك ، وأيأَسَنِي آخِرُك عن وفَائِكَ ؛ فلا أنا فى غير الرجاء مجمعٌ لك اطِّراحاً ، ولا أنا فى غَد وانتظاره منك على ثقة ؛ فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الشكِّ فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك ؛ فاجتَمَعْنَا على ائتلاف ، أوافترقنا على اختلاف ، والسلام .

وهو القائل :

رأيت فُضَيلاً كان شيئاً مُلَفَّعاً　　فكشَّفه التمحيصُ حتى بَدَا ليا[٤]

(١) التخلق : تكلف المرء ماليس فيه من حسن الخلق . (٢) رب الشيء : أصلحه
(٣) الجشب : هو الطعام القفار الذى لا إدام فيه (٤) ملفع : مغطى ، وتقول : تلفع الشجر بالخضرة ــ ولعل الأصل « ملففا » بفاءين (م) .

فأنت أخى ما لم تكن لىَ حاجةٌ فإن عرَضَت أيقنتُ أنْ لا أخاليا

كلانا غنىٌّ عن أخيـــه حياتَه ونحن إذا مُتْنَا أشدُّ تغانيَا

فلا زادَ ما بينى و بينَكَ بعـد ما بلوتُكَ فى الحاجاتِ إلاَّ تمـــاديا

فعين الرضا عن كل عَيْبٍ كليلةٌ كما أنّ عين السخط تُبدى المساوِيا

والقائل أيضاً :

لسنَا وإنْ أحسَابنَا كَرُمَتْ يوماً على الأَحْسَابِ نَتَّـكِلُ

نَبْنِي كما كانَتْ أوائلُنا تَبْنِي ونَفعَلُ مِثْلَ مَا فَعَـلوا

وهذا كقول عامر بن الطفيل ، قال أبو الحسن على بن سليمان الأخفش : أنشدنى محمد الحسن بن الحرون لعامر بن الطفيل[١] :

لعامر ابن الطفيل

تقول ابنةُ العَمْرِىِّ : مالَكَ بَعْدَ ما أراكَ صَحِيحاً كالسليم المعذَّبِ[٢]

فقلتُ لها : همِّى الذى تعرفينهُ من الثَّأرِ فى حَيَّىْ زُبَيد وأرْحَبِ

إنَ أغزُ زُبيداً أغزُ قوماً أعِزَّةً مركَّبُهُمْ فى الحىّ خير مركب

وإنْ أغزُ حَيَّىْ خَثْعم فدماؤهم شِفاءٌ وخـــيرُ الثَّأر للمتأوّبِ[٣]

فما أدْرَكَ الأَوْتَارَ مِثْـلُ محقّقٍ بأَجْرَدَ طاوٍ كالعَسِيب المُشَذَّبِ[٤]

(١) عامر بن الطفيل: أحدفتاك العرب وشعرائهم فى الجاهلية ، ولد ونشأ بنجد وكان يامر مناديا ينادى فى عكاظ : هل من راجل فنحمله ، أو جائع فنطعمه ، أو خائف فنؤمنه ؟ أدرك الإسلام وهو شيخ ، فوفد على الرسول وهو فى المدينة بعد فتح مكه يريد الغدر به، ولكنه لم يجرؤ عليه، ودعاه الرسول إلى الإسلام ، فاشترط أن يجعل له نصف ثمار المدينة ، وأن يجعله ولى الأمر من بعده، فرده النبى ، فرجع مغيظا محنقاً ، وسمعه أحدهم يقول : لأملأنها خيلا جردا ، ورجالا مردا ، ولأربطن بكل نخلة فرساً ! فمات فى طريقه قبل أن يبلغ قومه سنة ١١ (٢) السليم : الملدوغ .

(٣) أصل المتأوب : الذى يطرق ليلا ، وأراد الثأر (م)

(٤) الطاوى: الضامر، والأجرد : الحصان سقط شعره من الضمور، والعسيب : جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها ، والمشذب : المقلم . .

وأسْمَـــرَ خَطِّىٍّ وأبيض بَاتِرٍ   وزَغْفٍ دِلَاصٍ كالغدير المُثَوَّبِ[1]
وإنى وإن كنت ابنَ سيدِ عامرٍ   وفى السرِّ منها والصَّرِيح المهذَّب
فما سـودتنى عامر عن وراثةٍ   أَبَى الله أن أسمو بأمٍّ ولا أب
ولـكننى أحمى حمـــاها ، وأتقى   أذَاها ، وأرمى مَنْ رماها بمنكب

عبد الله بن معاوية يهنىء بإملاك

وقال أيضاً يهنىء بعضَ الهاشميين بإملاك[2] : زاد الله فى نعمته ، وبارك فى فوَاضِلِه ، وجميل نوافِـلِه ؛ ونسألُ الله ـ الذى قسم لكم ماتحبُّون من السرور ـ أن يجنّبكم ما تكرهون من المحذور ، ويجعل ما أحدثه لكم زينا ، ومتاعاً حسنا ، ورشداً ثابتا ، ويجعل سبيلَ ما أصبحت عليه، تماما لصالح ما سَمَوْت إليه ؛ من اجتماع الشَّمْل ، وحُسْن موافقةِ الأهْلِ ؛ ألّفَ اللهُ ذلك بالصلاح ، وتممه بالنجاح ، ومَدَّ لك فى ثروة العدد ، وطِيب الولد ، مع الزيادة فى المال ، وحُسْنِ السلامةِ فى الحال ، وقُرّة العين ، وصلاح ذات البَيْن .

بين أبى عاصم الأسلمى الشاعر والحسن بن زيد

وهجا أبوعاصم محمد بن حمزة الأسلمى المدنى الحسن بن زيد بن الحسين[3] بن على ابن أبى طالب رحمة الله عليه ، فقال :

له حقٌّ وليس عليـــه حَقٌّ   ومهما قال فالحسن الجميـلُ
وقد كان الرسولُ يَرَى حقوقاً   عليه لغـــيره وهو الرسولُ

فلما ولى الحسن المدينة أتاه متنكراً فى زى الأعراب ، فقال :

ستأتى مِدحتى الحسنَ بن زيْدٍ   وتشهد لى بصِفِّينَ القبورُ[4]
قبورٌ لم تزل مُذْ غاب عنها   أبو حَسَنٍ تُعَادِيها الدهور
قبورٌ لو بأحمـــد أو علىٍّ   يلوذُ مُجيرُها حُمِىَ المُجِـــير
هما أبوَاكَ مَنْ وضَعَا فَضَعْهُ   وأنت برفع مَنْ رَفَعا جَـدِيرُ

---

(١) الأسمر الخطى : هو الرمح ، والأبيض الباتر : السيف القاطع ، والزغف ، الدروع ،والدلاص: اللينة الملساء،والغدير للثوب: النهر الممتلىء (٢) الإملاك: الزواج (٣) فى نسخة «الحسن بن زيد بن الحسن» والذى تولى المدينة هو الحسن بن زيد ابن على بن أبى طالب ؛ فكلمة« بن الحسن» زائدة (م) (٤) صفين: موضع واقعة مشهورة

فقال : من أنت ؟ قال : أنا الأسلمى . قال : ادْنُ حيَّاكَ الله ! و بسط له رداءه ، وأجلسه عليه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

بين الحسن ابن زيد وداود ابن سلم التيمى

وكان الحسن بن زيد قد عوَّد داود بن سَلْم مولى بنى تَيْم أن يصله ، فلما مدح داودُ جعفرَ بن سليمان بن على ــ وكان بينه و بين الحسن بن زيد تباعدٌ ــ أغضبه ذلك[١] ، وقدم الحسن من حجٍ أو عمرة ، فدخل عليه داود بن سلم مهنئاً ، فقال : أنتَ القائل فى جعفر بن سليمان بن على :

وكنا حديثاً قبل تأمير جعفرٍ وكان المنى فى جعفر أن يؤمَّرا[٢]
حوى المنبرين الطاهرين كليهما إذا ما خطا عن منبر أمَّ منبرا[٣]
كأن بنى حوَّاء صفُّوا أمامهُ فَخُيِّرَ فى أنسابهم فتخيَّرا

فقال داود : نعم ، جعلنى الله فداك ، فكنتم خيرة اختياره ! وأنا القائل :

لعمرى لئن عاقبتَ أو جُدتَ مُنْعِماً بعفوٍ عن الجانى وإن كان مُعْذِرا[٤]
لأنتَ بما قدمت أولى بمدحةٍ وأكرم فخراً إن فخرت وعُنصرا
هو الغرة الزهراء من فرع هاشم ويدعو عليا ذا المعالى وجعفرا[٥]
وزيد الندى والسبط سبط محمدٍ وعَمَّكَ بالطَّفِّ الزكىَّ المُطَهَّرا
وما نال منها جعفر غير مجلس إذا ما نفاه العزل عنه تأخرا[٦]
بحقكمُ نالوا ذُراها وأصبحوا يرون به عزًّا عليكم ومظهرا

فعادله الحسنُ بنُ زيد إلى ما كان عليه ، ولم يزل يصله و يحسنُ إليه إلى أن مات .

---

(١) فى الأصل «غصه ذلك» وهى عبارة جيدة (٢) يؤمر : يولى الإمارة
(٣) أم : قصد (٤) المعذر : ذو العذر (٥) الغرة : فى الجبين ، ولها جمال خاص
(٦) العزل : الضعف ــ وما أراه أراد غير العزل عن الولاية (م)

وقوله : «وإن كان مُنْذِراً» ، لأن جعفراً أعطاه على أبياته الثلاثة ألفَ دينار .

بين الحسن بن زيد وابن هرمة

ولما ولى الحسن بن زيد المدينة دخل عليه إبراهيمُ بن على بن هَرْمَةَ ، فقال له الحسن : يا إبراهيم ؛ لستُ كمن باع لك دينه رجاء مدحك ، أو خوف ذمك ، فقد رزقنى الله تعالى بولادة نبيه صلى الله عليه وسلم المادح ، وجَنَّبنى المقابح ، وإنَّ من حقه علىَّ ألا أُغْضِىَ على تقصير فى حقٍّ وجب ؛ وأنا أقسم لئن أتيتُ بكَ سَكرانَ لأضربنك حدًّا للخمر ، وحدًّا للسكر ؛ ولأزيدنَّ لموضع حُرمتكَ بى ، فليكن تركك لها لله عز وجل تُعَنْ عليه ، ولا تدَعْهَا للناس فتوكل إليهم .
فنهض ابن هرمة ، وهو يقول :

نهانى ابنُ الرسولِ عن المُدامِ ... وأدَّبنى بآداب الكرامِ
وقال لىَ اصطبر عنها ودَعْها ... لخوفِ الله لا لخوفِ الأنامِ
وكيف تصبُّرى عنها وحبى ... لها حُبٌّ تمكَّنَ فى عظامى
أرى طيفَ الخيال علىَّ خُبْثاً ... وطيب العيش فى خبث الحرامِ

وكان إبراهيم منهوماً فى الخمر ، وجلده خَيْثَم بن عِراك[1] صاحبُ شُرْطة المدينة لرباح بن عبد الله الحارثى فى ولاية أبى العباس .

بين أبى جعفر المنصور وابن هرمة

ولما وفد على أبى جعفر المنصور ومدحه استحسن شعره ووصله ، وقال له : سَلْ حاجتك ، قال : تكتب لى إلى عامل المدينة ألاَّ يَحُدَّنى إذا أُتِىَ بى سكران فقال أبو جعفر : هذا حدٌّ من حدود الله تعالى لا يجوز أن أعطله ، قال : فاحتل لى يا أمير المؤمنين ! فكتب إلى عامل المدينة : « مَنْ أتاك بابن هرمة سكران فاجلده مائة ، واجلد ابن هرمة ثمانين » .

فكان الشُّرَط يمرُّون به مطروحاً فى سِكَكِ المدينة ، فيقولون : مَنْ يشترى مائة بثمانين ؟!

وقال موسى بن عبد الله[2] بن على بن أبى طالب :

(١) فى نسخة « عثيم بن عراك » (م)
(٢) فى نسخة « بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على » (م)

من شعر موسى ابن عبد الله الطالبي

إذا أنا لم أقبلْ من الدهر كلَّ ما ... تكرَّهتُ منه طال عَتْبي على الدَّهرِ
إلى اللهِ كلُّ الأمر في الخلق كلهم ... وليس إلى المخلوق شيءٌ من الأمر
تعـوَّدتُ مَسَّ الضر حتى ألِفْتُهُ ... وأسلمني طولُ البـلاء إلى الصبرِ
ووسَّع صدري للأذى الأنسُ بالأذى ... وإن كنت أحياناً يضيقُ به صدري
وصيَّرني يَأْسِي من النـاس راجياً ... لسُرْعَةِ لطف الله من حيثُ لا أدري

وموسى بن عبد الله هو القائل :

تولّت بهجة الدنيـا ... فكل جديدها خَلَقُ[1]
وخان النـاسُ كلُّهمُ ... فمـا أدري بمَنْ أثقُ
رأيت معالمَ الخـيرا ... تِ سُدَّتْ دونها الطرُق
فلا حسَبٌ ولا نسَبٌ ... ولا دِينٌ ولا خُلُق
فلست مُصَدِّقَ الأقـوا ... م في شيء وإن صدقوا

بعض أخبار موسى

وكان المنصورُ حبسَهُ لخروجِهِ عليه مع أخوَيْهِ ، ثم ضربه ألفَ سَوْطٍ ، فما نطقَ بحرْفٍ واحد ؛ فقال الربيع : عَذَرْتُ هؤلاء الفساقَ في صَبْرِهم ؛ فما بَالُ هذا الفتى الذي نشأ في النعمة والدَّعة ؟ فقال :

إنِّي من القومِ الذين يَزِيدُهم ... جَلَداً وصَبْراً قسوةُ السلطانِ

وولدت هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زَمعة موسى ، ولها ستُّونَ سنة ، ولا يعلم امرأةٌ ولدت بنتَ ستين سنة إلا قرشيَّة .

بين علي بن محمد العلوي والحسين بن إسماعيل

اجتاز علي بن محمد العَلَوي بالجسر بحِدْثان[2] قَتْلِ عمر بن يحيى بن عبد الله ابن الحسين ، وقاتلهُ الحسينُ بن إسماعيل هناك قد جرَّد رجلا للقتل ، فلما رأت أمُّ الرجل عليا سألته أنْ يشفَع فيه ، فقال عليٌّ إلى الحسين فأنشده :

---

(١) الخلق ـ بفتحتين ـ البالي .

(٢) حدثان الأمر : أوله ، وهو بكسر الحاء وسكون الدال ـ والباء بمعنى في (م)

قتلتَ أبرَّ مَنْ رَكِبَ المطايا   وجئتُك أستَلِينُك بالكلامِ
وعزٌّ عليّ أن ألقاكَ إلاَّ   وفيما بيننا حَدُّ الحُسَامِ
ولكنَّ الجناحَ إذا أُصِيبت   قَوَادِمُهُ يرف على الإِكَامِ[١]

فقال له : وما حاجَتُكَ ؟ قال : العفوُ عن ابنِ هذه المرأة ! فتركه .

العباس بن الحسين الهاشمى

وسُئِل العباسُ بن الحسين عن رجلٍ ، فقال لجليسه : أطرب من الإبل على الحُدَاء ، ومن النمل على الغِنَاء .

وذكر العباس رجلا فقال : ما الحِمامِ على الأحْرَار ، وطول السَّقَم فى الأسْفَار ، وعِظَم الدَّيْنِ على الإقتار ، بأشدَّ من لقائه .

وقال العباسُ بن الحسين للمأمون : يا أمير المؤمنين ؛ إن لسانى يَنْطَلِق بمدْحِكَ غائباً ، وقد أحببتُ أن يَتَزَيَّدَ عندك حاضرا ، أفتأذنُ لى يا أمير المؤمنين فى الكلام ؟ فقال له : قل ؛ فوالله إنك لتقولُ فتُحْسِن ، وتَحْضُر فتزين ، وتغيب فتؤتَمَن ، فقال : ما بعدَ هذا كلامٌ يا أميرَ المؤمنين ! أفتأذن بالسكوت ؟ قال : إذا شئت .

وذكر رجلا بليغاً فقال : ما شَبَّهْتُ كلامَه إلا بثعبان ينهالُ بين رِمَال ، وماء يتغلغل بين جِبَال .

وسمعَ المنتجع بن نبهان كلامَ العباس بن الحسين ، فقال : هذا كلامٌ يدلّ سائِره على غابِرِه[٢] وأوله على آخره .

وسأل المأمونُ العباسَ بن الحسين عن رجل ؟ فقال : رَأيتُ له حِلْماً وأناة ، ولم أسمع لَحْناً وَلا إحالة[٣] ؛ يحدِّثُكَ الحديثَ على مَطَاوِيه[٤] ، ويُنشِدُكَ الشعرَ على مَدارجه .

---

(١) القوادم : مقدم الريش ، ولا كذلك الخوافى ، والإكام : جمع أكمة .
(٢) سائره : باقيه ، وغابره : ماضيه (٣) الإحالة : التكلم بالمحال
(٤) على مطاويه : على خفاياه

وكان المأمون يقولُ : مَنْ أراد أن يسمعَ لَهْوًا بلا حَرج فليسمعْ كلاَمَ العباسِ

والعباسُ بنُ الحسينِ من أشْعَرِ الهاشميين ؛ وهو يُعَدّ فى طبقة إبراهيم ابن المهدى ، وهو القائل :

أتَاحَ لكَ الهوى بِيضٌ حِسَانٌ   سَبَيْنَكَ بالعيــــون و بالشعورِ (١)

نظرت إلى النحورفكدت تَقْضِى   وأوْلى لو نظرت إلى الخصورِ (٢)

وهو القائل أيضاً :

صادَتْـكَ من بعض القصور   بِيضٌ نواعمُ فى الخـــدورِ

حُورٌ تحــــور إلى صِباَ   كَ بأعْيُنٍ منهنَّ حُـــورِ (٣)

وكـأنمـا بثغــــورهنّ   جَنَى الرُّضاب من الخمور (٤)

يَصْبُغْنَ تُفّـاح الخـــدو   دِ بمــاء رُمّان الصُّدور

وهو : العباسُ بن الحسين بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأم عبيد الله جدَّةُ بنتُ عبيدِ الله بن العباس بن عبد المطلب عم محمد بن على أبى الخلفاء .

وكان الرشيدُ والمأمونُ يقرِّبانِ العباسَ غايةَ التقريب ؛ لِنَسَبِهِ وأدبه ؛ قال أبو دلف : دخلتُ على الرشيد وهو فى طارمة على طنفسة (٥) ومعه عليها شيخٌ جميلُ المنظر ؛ فقال لى الرشيد : يا قاسم ؛ ماخَبَرُ أرْضك ؟ فقلت : يا أميرالمؤمنين، خَرَابٌ يَبَاب ، أخْرَبَهَا الأكراد والأعراب . فقال قائل : هذا آفةُ الجبل ، وهو أفسده ، فقلت : أنا أُصْلحه ، قال الرشيْد : وكيف ذلك ؟ قلت : أفْسَدتُهُ وأنت علىّ وأُصْلِحُه وأنتَ معى ! قال الشيخُ : إن همته لترمى به من وراء سنِّهِ

---

(١) أتاح : هيأ ، وسبينك : أسرنك (م)   (٢) تقضى : تهلك .

(٣) تحور : تميل   (٤) الرضاب : الريق

(٥) الطارمة : بيت من خشب كالقبة

مَرْمًى بعيداً ؛ فسألت عن الشيخ فقيل : العباس بن الحسين ، وكان أبو دُلَفَ ذلك الوقت صغيرَ السنِّ .

بين موسى بن جعفر والفضل بن الربيع

ولقى موسى بنُ جعفرٍ [١] رضى الله عنه محمدَ بنَ الرشيدِ الأمينَ بالمدينة وموسى على بَغْـلة ، فقال للفضل بن الربيع : عَاتِبْ هذا ، فقال له الفضلُ : كيف لقيتَ أمير المؤمنين على هذه الدابة التى إن طَلَبْتَ عليها لم تَسْبِق ، و إن طُلبت عليها تلحق ، فقال : لستُ أحتاجُ أن أطْلُبَ ، ولا إلى أن أُطلب ؛ ولـكنها دابَّةٌ تنحط عن خُيَلاَء الخيلِ ، وترتفع عن ذِلة العَيْر [٢] ، وخيرُ الأمورِ أوسطُها .

على بن موسى الرضا

أُصِيب على بن موسى بمصيبة ، فصار إليه الحسنُ بن سهل ، فقال : إنا لم نأتِكَ مُعزِّين ؛ بل جئناك مُقْتَدِين ؛ فالحمدُ لله الذى جعل حياتكم للنـاس رَحْمَةً ، ومصائبَكم لهم قدوة .

وكان علىّ بن موسى الرضا رحمه الله قد ولاّه المأمون عَهْدَه ، وعقد له الخلافة بعده ، ونزع السّواد عن بنى العباس ، وأمرهم بلباس الخضرة [٣] ، ومات على بن موسى فى حياةِ المأمون بطُوس ، فشقّ [المـأمونُ] قبر الرشيد ودُفِنَ فيه تبرّكا به ، وكان الرشيد قد مات بطوس فدفن هنالك [٤] ؛ ولذلك قال دعبل بن على الخزاعى :

ارْبَعْ بطوس على قـبْرِ الزكىِّ بها ... إن كنت تربع من دِين على وَطرِ [٥]
ماينفعُ الرِّجس من قُرْبِ الزكى ، ولا ... على الزكىِّ بقرب الرجسِ من ضَرَرِ
هيهات كلّ امرىء رَهْنٌ بما كسبت ... له يداه فخُذْ من ذاك أو فذَرِ

---

(١) كان موسى بن جعفر سيدا من سادات بنى هاشم ، وإماما مقدما فى العلم والدين ولد فى الأبواء ــ قرب المدينة ــ سنة ١٢٨ وتوفى فى بغداد سنة ١٨٣ (٢) العير : الحمار

(٣) وكان لباس الخضرة شعار أهل البيت ، وكان من أثر نزع السواد عن بنى العباس أن اضطرب العراق ، وثار أهل بغداد ، فخلعوا المأمون وهو بطوس وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدى ، فقصدهم المأمون بجيشه ، فاختبأ إبراهيم ثم استسلم وعفا عنه المأمون.

(٤) كانت وفاة على بن موسى سنة ٢٠٣ (٥) ربع : أقام ، والوطر : الحاجة

قبران فى طُوس: خَيْرُ الناس كلهم وقبر شرّهم ، هــــذا من العِبَرِ

وكان دعبل مداحاً لأهلِ البيت ، كثير التعصُّب لهم ، والغلوّ فيهم . وله المرثية المشهورة ، وهى من جيد شعره ، وأولها :

رثاء دعبل لآل البيت

مَدَارس آياتٍ عَفَتْ من تِلَاوَةٍ وَمَنزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ[١]

لآلِ رسولِ الله بالخَيْفِ من مِنًى وبالبيت والتَّعريفِ والجَمَرَاتِ

دِيَارُ عليٍّ والحسينِ وجَعْــفَرٍ وحمزة والسَّجَّاد ذِى الثَّفِنَاتِ

قِفَا نَسْأَلِ الدَّارَ التى خفَّ أهلُها متى عَهْدُها بالصَّوْمِ والصلَوَاتِ

وأينَ الأُولى شَطَّتْ بهم غُرْبَةُ النَّوى أفانينَ فى الآفاقِ مُــفْتَرِقاتِ[٢]

أُحِبُّ قَصِيَّ الدارِ من أجلِ حُبِّهم وأهْجُـرُ فيهم أُسْرَتِى وثِقَاتِى

وهى طويلة .

بين دعبل والمأمون

ولمـا دخل المأمونُ بغداد أحْضَرَ دِعبلا بعد أن أعْطَاه الأمان ، وكان قد هجاه وهجَا أباه ، فقال : يادعبل ، من الحضيض الأوهد ! فقال : ياأميرَ المؤمنين ، قد عفوت عمن هو أشدُّ جُرْماً منى ! أراد المأمون قول دعبل يهجوه :

إنِّى من القوم الذين سيوفُهم قتلَتْ أخَاكَ وشرفَتْكَ بمقعَدِ

شادُوا بذكرك بعد طولِ خُموله . واستنقذوك من الحَضِيضِ الأوْهَدِ

يفتخِرُ عليه بقَتْلِ طاهر بن الحسين بن مصعب ذى اليمينين أخاه محمداً ، وطاهر مولًى لخُزَاعة ،فاستنشده هذه القصيدة التائيَّة[٣] ، فاستعفاه ، فقال: لا بأسَ عليك ، وقد رويتُها ، وإنما أحببت أن أسمعَها منك ، فأنشدها دعبل ؛ فلما انتهى إلى قوله :

ألَمْ ترَ أنى مذ ثلاثين حِجَّــةً أروح وأغْدُو دائمَ الحسَرَاتِ

---

(١) العرصات : الساحات (٢) غربة النوى : بعده

(٣) فى المطبوعات كلها « الثانية » وهو تحريف ما أثبتناه (م) .

أرى فَيْئهم فى غيرهم مُتَقَسَّماً ... وأيديَهُمُ من فيئهم صفِرات[1]

إذا وُتِروا مدّوا إلى أهل وِتْرِهم ... أكُفًّا عن الأوتار مُنْقَبِضاتِ

وآلُ رسول الله نُحُفٌ جسومهم ... وآل زياد غُلَّظُ القَصَرَاتِ[2]

بناتُ زيادٍ فى القصورِ مَصُونةٌ ... وبنت رسول الله فى الفَلَوَاتِ

بكى المأمون ، وجدَّد له الأمان ، وأحْسَن له الصِّلة .

لسليمان بن قتيبة يرثى آل البيت

والشيء يستدعى ما قرَع بابه ، وجذبَ أهْدَابَه[3] ، قال سليمان بن قتيبة :

مررت على أبيات آل محمّدٍ ... فلم أرَها عَهْدِى بها يوم حُلَّتِ[4]

فلا يبعد الله الديارَ وأهلَها ... وإن أصبحَتْ من أهلها قد تخلّتِ[5]

وكانوا رجاء ثم عادوا رَزِيةً ... ألا عظُمَت تلك الرزايا وجلّتِ[6]

وإن قتيل الطَّفِّ من آلِ هاشم ... أذلَّ رقابَ المسلمين فَذَلّتِ[7]

ويشبه قوله : « وكانوا رجاء ثم عادوا رزية » قولَ امرأةٍ من العرب مرَّت بالجسر بجثَّة جعفر بن يحيى البرمكى مَصْلوبا[8] ؛ فقالت : لئن أصبحت نهايةً فى البلاء ، لقد كنت غايةً فى الرجاء .

ألفاظ لأهل العصر فى أوصاف الأشراف

لها فى هذا الموضع موقع

فلان من شرَفِ العنصر الكريم ، ومعدن الشرف الصميم . أصلٌ راسخ ،

---

(١) صفرات : خاليات (٢) القصرات : أصول العنق ، جمع قصرة بفتحتين

(٣) هكذا وقع هذا الكلام فى النسخ التى بأيدينا والظاهر أنه سقطت بعض عبارات يراد بها التمهيد للمضى فى ذكر بعض الشواهد التى تتحدث عن بكاء أهل البيت .

(٤) رواية الحماسة «فلم أرها أمثالها» (٥) رواية الحماسة «وإن أصبحت منهم برغمى تخلت» (٦) رواية الحماسة «وكانوا غياثا» (٧) الطف : موضع قرب الكوفة ، ورواية الحماسة : « ألا إنّ قتلى الطف من آل هاشم أذلت » (٨) جعفر بن يحي : كان وزير الرشيد ، يبرم وينقض فى الدولة ماشاء ، إلى أن ثار الرشيد بالبرامكة فقتله فيمن قتل منهم ، وكان جعفر فصيح المنطق بليغ القول ، ولد فى بغداد سنة ١٥٠ ؛ وتوفى سنة ١٨٧

وفرع شامخ ، ومجدٌ باذخ[١] ، وحَسَبٌ شادخ .

فلان كريمُ الطرَفين ، شريف الجانبين ، قد ركّبَ الله دَوْحَته فى قرارةِ المَجْدِ ، وغَرَسَ نَبْعَتَهُ فى محلّ الفضل . أصلٌ شريف ، وعِرْق كريم ، ومَغْرِس عظيم ، ومَغرز صميم . المجد لسانُ أوصافه ، والشرفُ نَسَبُ أسلافه . نسبٌ فَخم ، وشرفٌ ضخم . يستوفى شرفَ الأرومة[٢] بكرم الأُبوّة والأُمومة ، وشرف الخؤولة والعمومة . ما أتَتْه المحاسنُ عن كَلالة[٣] ، ولا ظَفِر بالهدى عن ضلالة ، بل تناول المجدَ كابراً عن كابر ، وأخذ الفخرَ عن أسِرّةٍ ومنابر :

شرفٌ تَنقّل كابراً عن كابر كالرمح أنبو با على أُنوبِ[٤]

استقى عِرْقَه من مَنْبع النبوة ، ورضعت شجَرَتُه من ثَدْيِ الرسالة ، وتهدلت أغصانُه عن نَبْعَه الإمامة ، وتبحبَحَتْ أطْرافُه فى عَرْصَةِ الشَرَفِ والسيادة[٥] ، وتفقّأت بيضته عن سُلالةِ الطهارة[٦] ،قد جذَبَ القرآنُ بضَبْعِه[٧] وشقَّ الوَحْيُ عن بصره وسَمْعِه ، مختار من أكْرَمِ المناسب ، منتَخَب من أشْرَفِ العناصر ، مُرْتَضَى من أعلى المحاتد[٨] ، مُؤْثَر من أعظم العشائر ، قد وَرِثَ الشرفَ جامعاً عن جَامعٍ ، وشهد له نداء الصوامع ، هو من مُضَر فى سُوَيداء قَلْبها ، ومن هاشم فى سَوَاد طَرْفها ، ومن الرسالة فى مَهْبِطِ وَحْيهَا ، ومن الإمامةِ فى موقف عزّها ، ينزع إلى المحامِدِ بنفس وعِرْق ، ويَحِنُّ إلى المكارم بوراثة وخلق ؛ يتناسب أصلُه وفَرْعُه ، ويتناصف نَجْرُه وطَبْعُه ، وهو الطيِّب أصلُه وفَرْعُه ، الزَّاكى بذره وزَرْعُه ، يجمع

---

(١) شامخ وباذخ وشاذخ : مترادفات بمعنى عال (٢) الأرومة : الأصل .
(٣) الكلالة : ماعدا الولد والوالد من الأقرباء (٤) الأنبوب : القصبة
(٥) تبحبحت : تمكنت ، والعرصة : الساحة (٦) تفقأت : تفتحت
(٧) جذب بضبعه : نوه به
(٨) المناسب : جمع منسب ، والعناصر : جمع عنصر ، والمحاتد : جمع محتد ، وكلها بمعنى الأصل (م)

إلى عزّ النّصاب، مَزِيَّةَ الآداب ، لا غَرْو أن يجرىَ الجوادُ على عِرْقِه ، وتلوح مخايلُ الليثِ فى شِبْله ، ويكون النجيبُ فَرْعاً مشيداً لأصله . له مع نباهة شَرَفِه ، نَزاهة سَلَفِه ، ومع كرم أرومته وحَزْمه ، مزيةُ أدبه وعلمه ، لن تخلف ثمرة غَرْس ارْتيدَ لها من المنابت أزْكاها ، ومن المغارس أطْيبها وأغذاها وأنماها ؛ قد جمع شرفَ الأخلاق ، إلى [شرفِ الأعراق ، وكرمَ الآداب ، إلى] كرم الأنساب ؛ له فى المجد أولٌ وآخِر ، وفى الكرم تليدٌ وطَارِف ، وفى الفضل حديثٌ وقديمٌ ؛ لا غَرْوَ أنْ يغمر فضلُه ، وهو نجلُ الصِّيد الأكارم ، أو يغزر علمه وهو فَيْضُ البحور الخضارم(١) دَوْحَةٌ رسب عِرْقُها ، وسَمَق فَرْعها(٢) ، وطاب عُودُها ، واعتدل عمودُها ، وتفيَّأَتْ ظِلالُها ، وتهدَّلَتْ ثمارُها ، وتفرّعَتْ أغصانُها ، وبرد مَقيلُها . مجْدٌ يلحظ الجوْزَاء من عَال ، ويطولُ النجمَ كلَّ مَطَال . شَرَفٌ تضع له الأفلاكُ خدودَها وجِباهَها ، وتَلْثِمُ النجومُ أرضَه بأفواهِها وشِفاهِها . نسبُ المجدِ به عَرِيق ، وَرَوْضُ الشرفِ به أنيق . ولسانُ الثناء بفَضْله نَطوق . فَلَكُ المجدِ عليه يَدُور ، ويدُ العُلاَ إليه تُشِير . محلّه شاهق ، وَمجْدُه بَاسِق .

---

(١) الخضارم : جمع خضرم بكسر الخاء والراء ، وهو الواسع (٢) سمق : ارتفع

بدء الكتاب

الكلام في حمد الله

قد تمَّ ما استفتحت به التأليف ، وجعلته مقدمة التصنيف ، مع ما اقترن به ، وانضافَ إليه ، والتفَّ به ، وانعَطَفَ عليه ، ورأيتُ أن أبتدىء مقدّمات البلاغات بغُرَر التحاميد وأوْصافها[1] ، ومايتعلَّق بأثنائها وأطرافها .

وقد قال سهل بن هارون فى أول كتابٍ عمله : يجب على كلّ مبتدىء مقالةً أن يبتدىء بحَمدِ الله قبل استفتاحها ، كما بُدِىء بالنعمة قبل استحقاقها .

ولأهل العصر : أولَى ما فَغر به الناطقُ فمه[2] وافتتح به كَلِمه ، حمدُ اللهِ جلَّ ثناؤُه ، وتقدَّست أسماؤُه . حَمْدُ الله خيرُ ما ابتُدِىء به القول وخُتِم ، وافتُتِحَ به الخطابُ وتُمِّمَ .

وقال أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله : إنَّ الله جلَّ ثناؤه لا يُمثَّلَ بنظير ، ولا يُغلَبُ بظهير[3] ، جلَّ عن موقع تحصيل أدوات البشر ، ولَطُفَ عن ألحاظ خطرات الفِكَر ، لايُحْمَدُ إلا بتوفيقٍ منه يَقتَضِى حمداً ، فمتى تُحْصَى نعماؤه ، وتُكافأ آلاؤه ؟ عجزَ أقصَى الشكرِ عن أداء نعمته ، وتضاءل ما خلق فى سعَةِ قدْرَته ؛ قَدَر فقدَّر ، وحكَم فأحكم ؛ وجعل الدِّين جامعاً لشملِ عباده ، والشرائع مَناراً على سبيل طاعته ؛ يَتْبَعُها أهل اليقين به ، ويَحِيدُ عنها أهلُ الشك فيه .

أخذ أبو العباس قولَه : « ولا يحمد إلا بتوفيق منه يقتضى حمداً » من قول محمود بن الحسن الوراق :

إذا كان شُكْرِى نعمةَ اللهِ نِعْمَةً ... علىَّ له فى مِثْلها يَجبُ الشُّكْرُ
فكيف بلوغُ الشُّكرِ إلاّ بفضلهِ ... وإن طالت الأيام واتَّصَلَ العمرُ

---

(١) كذا فى المطبوعات كلها ، ولو كان « وأوضاحها » لكان أطرف ، وإن لم يتم به التسجيع على الشائع من طريقة المؤلف (م) (٢) فغر : فتح (٣) الظهير : المعين

إذا عمّ بالسَّرّاء عَم سرورُها ... وإن مَسّ بالضراء أعقبَها الأجْرُ

فما منهما إلا له فيه نِعْمَةٌ ... تَضيقُ بها الأوهامُ والبَرُّ والبَحْرُ

وإنما أخذه محمود من قول أبي العتاهية :

أحمد الله فَهْوَ ألهمنى الحمـدَ ... على الحمد والمزيدُ لَدَيْهِ

كم زمانٍ بكيتُ فيه فلمّا ... صِرْتُ فى غيره بكيتُ عليهِ

وقد اضطربت الروايةُ فى هذين البيتين وقائلهما، وهذا البيت الثانى كثير[١]، قال إبراهيم بن العباس :

كذاك أيّامُنا لاشكَّ نَنْدُبها ... إذا تقضّت ونحنُ اليومَ نَشْكوها

آخر :

وما مرَّ يوم أرتجى فيه راحةً ... فأفقِدُهُ إلاّ بكيتُ على أمسِ

ومحمود هو القائل أيضاً :

من شعر محمود الوراق

تَعصِى الإلٰهَ وأنتَ تُظهرُ حبَّهُ ... هـذا محالٌ فى القياسِ بديعُ

لو كان حبُّك صادقا لأطَعْتَهُ ... إنّ المحب لمن أحبَّ مُطيعُ

وكان كثيراً ما ينقلُ أخبارَ الماضين ، وحِكَم المتقدِّمين ، فيحلّى بها نظامَه ، ويُزَيِّنُ بها كلامَه ، وهو القائل :

إنى وَهَبْتُ لظالمى ظُلْمِى ... وشكرتُ ذاكَ له على عِلْمِى

ورأيته أسْدَى إلىَّ يداً ... لَمّا أبان بجَهْلِهِ حِلْمِى

رَجَعَتْ إساءتُهُ عليه ، وَلِى ... فَضْلٌ فعادَ مُضاعَفَ الجُرْم

فكأنما الإحْسانُ كان لهُ ... وأنا المسىء إليه فى الزَّعم

ما زال يَظْلِمُنِى وأرحمُهُ ... حتى رَثَيْتُ له من الظلم

---

(١) يريد أن الشعراء رددوا هذا المعنى كثيراً . ومن جيد ماصور به هذا المعنى قول سعيد بن حميد :

لم أبك من زمن ذممت صروفه ... إلا بكيت عليه حين يزول

وهو القائل :

أرانى إذا ما ازددتُ مالاً وثَرْوَةً ... وخَيْراً إلى خَيْرٍ تزيّدْتُ فى الشرّ
فكيف بشُكْرِ الله إنْ كنت إنما ... أقومُ مقامَ الشُّكْرِ لله بالكُفْرِ
بأىِّ اعْتِذارٍ أوْ بأيَّةِ حُجَّةٍ ... يقولُ الذى يدرى من الأمر مَا أدْرى
إذا كان وجهُ العُذْرِ ليس بِبَيّنٍ ... فإنّ اطِّراحَ العُذْرِ خيرٌ من العُذْرِ

[البيان والبلاغة]

لابن المعتز فى فضل البيان

ولابن المعتز : البيان ترجمانُ القلوب ، وَصَيْقَل العقول ، وَمُجَلِّى الشبهة ، وموجب الحجة ، والحاكم عند اختصام الظنون ، والمفرِّقُ بين الشَّكِّ واليقين ، وهو من سلطان الرُّسُل الذى انْقَاد به المصعَب[١] ، واستقام الأصْيَد[٢] ، وبُهت الكافر ، وسَلَّم الممتنع ، حتى أَشِبَ الحقُّ بأنصاره[٣] ، وخَلاَ رَبْعُ الباطلِ من عُمَّارِه ؛ وخيرُ البيان ما كان مصرِّحاً عن المعنى ؛ ليُسْرِعَ إلى الفهم تلقّيه ، وموجَزاً ليخفّ على اللفظ تعاطيه .

فضل القرآن على سائر الكلام

وفَضْل القرآن على سائر الكلام معروفٌ غيرُ مجهول ، وظاهرٌ غيرُ خفىّ ؛ يشهدُ بذلك عَجْزُ المتعاطين ، وَوَهن المتكلّفين[٤] ، وتحيُّرُ الكذابين ، وهو المبلِّغ الذى لا يُمل ، والجديد الذى لا يَخْلُق[٥] ، والحق الصادع ، والنورُ الساطع ، والماحِى لظُلَمِ الضلال ، ولسانُ الصِّدق النافى للكذب ، ونذيرٌ قدَّمَتْه الرحمةُ قبل الهلاك ، ونَاعِى الدنيا المنقولة ، وبَشِيرُ الآخرةِ المخلَّدَة ، ومِفْتاح الخير ، ودليل الجنة . إنْ أَوْجز كان كافياً ، وإنْ أكثر كان مُذَكِّراً ، وإن أَوْمَأَ[٦] كان مُقْنِعاً ، وإن أطال كان مُفْهِماً ، وإن أمر فناصِحاً ، وإن حكم فعادِلا ، وإن أخبر فصادقا ، وإنْ بيَّن فشافيا ، سَهْلٌ على الفهم ، صَعْبٌ على المتعاطى[٧] ، قريبُ المَأْخَذ ،

(١) المصعب : الفحل الصعب القياد . وفى الأصل «المستصعب» وأرجح أنه تحريف
(٢) الأصيد : المائل العنق كبرا (٣) أشب : تجمع وقوى (٤) الوهن : الضعف (م)
(٥) لا يخلق : لا يبلى (٦) أومأ : أشار (٧) يريد بالمتعاطى المتكلف مجاراته (م)

بعيدُ المرام ، سِرَاجٌ تستضيء به القلوب ، حُلوٌ إذا تذوّقته العقول ، بَحرُ العلوم ، وديوانُ الحِكَم ، وجَوْهَرُ الكلم ، ونُزْهَة المتوسّمين ، ورَوْح قلوب المؤمنين ، نزل به الرُّوحُ الأمينُ على محمد خاتم النبيين : صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ، فخضَ الباطل ، وصَدَع بالحق ، وتألف من النُّفرة ، وأنقذ من الهلكة . فوصل الله له النصر، وأضرع به خدَّ الكفر[١] .

تفسير الرمانى للبلاغة

قال على بن عيسى الرمانى[٢] : البلاغة ما حُطَّ التكلف عنه[٣] ، وبنى على التبيين ، وكانت الفائدة أغلب عليه من القافية ، بأن جَمَعَ مع ذلك سهولةَ المخرج ، مع قرب المتناوَل ؛ وعذوبةَ اللفظ ، مع رشاقةِ المعنى ؛ وأن يكون حُسْنُ الابتداء كحُسْنِ الانتهاء ، وحُسن الوَصْل ، كحُسْنِ القطع ، فى المعنى والسمع ، وكانت كلُّ كلمة قد وقعت فى حقها ، وإلى جُنب أختها ، حتى لا يقالَ : لو كان كذا فى موضع كذا لكان أولى ! وحتى لا يكونَ فيه لفظٌ مختلف ، ولا معنى مُستَكرَه ؛ ثم أُلبسَ بَهَاءَ الحكمة ، ونورَ المعرفة ، وشرفَ المعنى ، وجزالةَ اللفظ ، وكانت حلاوتُه فى الصدر وجلالتُه فى النفس تفتِّقُ الفهم ، وتنثر دقائقَ الحكم ، وكان ظاهرَ النفع ، شريفَ القصْد ، معتدلَ الوَزْنِ ، جميلَ المذهبِ ، كريمَ المطلب ، فصيحاً فى معناه ، بَيِّناً فى فَحْوَاه ؛ وكلُّ هذه الشروط قد حواها القرآن ، ولذلك عَجَزَ عن مُعَارَضَتِهِ جميعُ الأنام .

---

(١) أضرع : أذل

(٢) وكان يعرف أيضا بالإخشيدى ، وبالوراق ، وهو بالرمانى أشهر ــ كما ذكر السيوطى فى بغية الوعاة ــ كان إماما فى العربية علامة فى الأدب فى طبقة الفارسى والسيرافى وكان يمزج النحو بالمنطق حتى قال الفارسى : إن كان النحو ما يقوله الرمانى فليس معنا منه شىء ، وإن كان النحو مانقوله نحن فليس معه منه شىء . وكان معتزليا بصيرا بعلم الكلام . ولد سنة ٢٧٦ وتوفى فى ١١ جمادى الأولى سنة ٣٨٤

(٣) الضمير عائد على الكلام البليغ المفهوم من البيان

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر القرآن

القرآن حَبْلُ اللهِ الممدود ، وعَهْدُه المعهود ، وظلُّه العميم ، وصِرَاطه المستقيم ، وحُجَّتُه الكبرى ، ومحجته الوُسْطَى ، وهو الواضح سبيلُه ، الراشدُ دليلُه ، الذى مَنِ استضاء بمصابيحه أبْصَر ونَجَا ، ومَنْ أعرض عنه ضَلَّ وهَوَى ؛ فضائل القرآن لاتُسْتقْصَى فى ألفِ قَرْن ، حجة الله وعَهْدُه ، ووعيدُهُ ووعده ، به يعلمُ الجاهلُ ، ويعملُ العامِلُ ، ويتنبَّه الساهى ، ويتذكَّر اللاهى ، بَشِيرُ الثواب ، ونَذِيرُ العقابِ ، وشفاء الصدور ، وجَلاَء الأمورِ ؛ من فضائله أنه يُقْرَأُ دائماً ، ويُكْتَبُ ، ويُمْلَى ، ولاَيمل . ما أهْون الدنيا على مَنْ جعل القرآن [إمامه ، وتصوَّر الموتَ أمامه ، طوبى لمن جعل القرآن] مصباحَ قَلْبِه ، ومفتاح لُبِّه . من حق القرآن حِفْظُ ترتيبه ، وحسْنُ ترتيله .

قال بعض الحكماء : الحكمة مُوقِظَةٌ للقلوب من سِنَة[١] الغفلة ، ومُنْقِذَةٌ للبصائر من سَكْرَةِ الحَيْرَة ، ومُحْيِيَةٌ لها من مَوْتِ الجهالة ، ومُسْتَخْرِجة لها من ضيقِ الضَّلاَلَة ؛ والعلمُ دواءٌ للقلوب العليلة ، ومِشْحَذٌ للأذهان الكليلة[٢] ، ونورٌ فى الظلمة ، وأُنْسٌ فى الوَحْشَةِ ، وصاحبٌ فى الوَحْدَه ، وسَمِيرٌ فى الخَلْوَةِ ، ووصْلَةٌ فى المجلس ، ومادَّةٌ للعقل ، وتَلْقِيحٌ للفهم ، ونَافٍ لِلعِيِّ المُزْرِى بأهْلِ الأحْسَابِ ، المقصِّرِ بذوى الألباب ؛ أنطق الله سبحانه أهلَه بالبيان الذى جعله صفةً لكلامه فى تنزيله ، وأيَّدَ به رُسُلهُ إيضاحاً للمشكلات ، وفصْلاً بين الشبهات ؛ شَرَّفَ به الوضيعَ ، وأعزَّ به الذليلَ ، وسوَّد بهِ المَسُود ، من تحلَّى بغيره فهومعطَّلُ ، ومن تَعَطَّل منه فهومغفَّل ، لاتُبْلِيه الأيام ، ولاتَخْتَرِمُه الدهور ، يتجدَّدُ على الابتذال ، ويَزْكُو على الإنفاق ؛ للهِ على مامنَّ به على عبادِه الحمدُ والشُّكرُ .

(١) السنة ــ بكسر السين ــ أول النوم ، ومثله الوسن ــ بالتحريك (م)

(٢) الكليلة : وصف من الكلال ، وهو الإعياء ، وأراد غير الماضية فيما تبحث ، شبهها بالسكين التى لا تنفذ فى ضريبتها (م)

[أقوال فى البلاغة]

رأى عمرو بن عبيد فى البلاغة

قيل لعمرو بن عبيد : ما البلاغة ؟ قال : ما بلَّغك الجنّة ، وَعَدَلَ بكَ عنِ النار ، و بصَّرَكَ مَوَاقع رُشْدِك ، وعواقبَ غيِّك . قال السائل: ليس هذا أُريد ، قال : من لم يُحْسِنْ أن يسكُتَ لم يُحْسِنْ أن يَسْتَمِع ، ومن لم يُحْسِنْ الاستماعَ لم يُحْسِن القولَ ، قال : ليس هذا أُريد ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إنَّا معشرَ الأنبياء فينا بَكْءٌ» أى قِلَّةُ كلام[١] ؛ وكانوا يكرهون أنْ يزيد منطقُ الرجل على عَقْله ، قال السائل : ليس هذا أريد ، قال : كانوا يخافون من فِتْنَةِ القولِ ومن سَقَطَاتِ الكلام ما لا يخافون من فِتْنَةِ السكوت ، وسَقَطَاتِ الصَّمْتِ ، قال : ليس هذا أُريد ، قال عمرو : يا هذا ؛ فكأنك تريدُ تَحْبِير اللفظ[٢] فى حسن الإفهام ، قال : نعم ، قال : إنَّك إن أردتَ تقريرَ حُجَّةِ اللهِ عزَّ وجل فى عقول المكلَّفين ، وتخفيف المؤونة عن المستمعين ، وتَزْيين تلك المعانى فى قلوب المُريدين ، بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة فى الأذهان ، رغبةً فى سُرْعَةِ إجابتهم ، ونَفْىِ الشواغلِ عن قلوبهم ، بالموعِظَة الحسنة على الكتاب والسنة ـ كنت قد أُوتيت الحكمةَ وفَصْلَ الخطابِ ، واستوجَبْت من الله جزيلَ الثواب ، فقيل لعبد الكريم بن روح الغِفارى : مَنْ هذا الَّذِى صَبَرَ له عَمْرٌو هـذا الصبر ؟ قال : سألتُ عن ذلك أبا حفص الشمرى ، فقال : ومن يَجْتَرِىء عليه هذه الجرأةَ إلاَّ حفص بن سالم ؟

من أخبار عمرو بن عبيد

وعمرو بن عبيد بن باب هو رئيسُ المعتزلة فى وَقْته ، وهو أَوَّلُ من تكلّم على المخلوق ، واعتزلَ مجلسَ الحسن البصرى ، وهو أول المعتزلة .

---

(١) وفى الأصل «فيناتلكأ» وهو تحريف

(٢) تحبير اللفظ : تحسينه ، قالوا : «وكان مهلهل يحبر شعره» ـ وفى نسخة «تخير» بمعنى الاختيار (م)

ودخل عمرو بن عبيد على أبي جعفر المنصور ، فقال : عِظْني ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنَّ اللهَ أعطاكَ الدنيا بأسْرِها ، فاشْتَرِ نفسَك منه ببعضها ؛ يا أميرَ المؤمنين ؛ إن هذا الأمرَ لو كان باقياً لأحَدٍ قبلَك ما وصل إليك ، ألَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ ! قال : فبكى المنصور حتى بَلَّ ثوبه . ثم قال : حاجتَك يا أبا عثمان ! وكان المنصور لَمَّا دخل عليه طَرح عليه طَيْلَساناً ، فقال: يُرْفَعُ هذا الطيلسان عنى! فرُفع، فقال أبوجعفر : لاتَدَعْ إتياننا ! قال : نعم ، لايضمُّنى وإياك بلدٌ إلاّ دخلتُ إليك ، ولا بَدَتْ لى حاجة إلاَّ سألتُك ، ولكن لاتُعطِنى حتى أسألك ، ولاتَدْعُنى حتى آتيك ، قال : إذاً لاتأتينا أبداً !

وقد رُوى مثل هذا لابن السماك مع الرشيد

وقوله «لوكان هذا الأمر باقياً لأحدٍ قبلَك ما وصل إليك» كقول ابن الرومى :

لعمرُكَ ما الدُّنيــا بدارِ إقامةٍ إذا زال عن عَيْنِ البصيرِ غِطاؤها
وكيف بقاء الناسِ فيها وإنما يُنال بأسْبَاب الفَنَاء بقاؤها ؟

ووعظ شبيب بن شبة المنصور ، فقال : يا أمــير المؤمنين ؛ إن الله لم يجعل فوقك أحداً ، فلا تَجْعَلْ فوق شكره شكراً .

ودخل عمرو بن عبيد على المنصور وعنده المهدى فقال له : هــذا ابنُ أخيك المهدى ، ولىُّ عهد المسلمين ، فقال : سمَّيْتَه اسماً لم يستحقَّ حمله ، ويفضى إليكَ الأمر وأنت عنه مشغول[1] .

وكان عمرو بن عبيـــد يقول : اللهم أغْنِنِى بالافتقارِ إليك ، ولا تُفْقِرْنى بالاستغناء عنك .

وقال له المنصور : يا أبا عثمان ؛ أَعِنِّى بأصْحَابك : قال : يا أميرَ المؤمنين ؛ أظْهِرِ الحقَّ يَتْبَعْكَ أهلُه .

وقال عمر الشمرى : كان عمرو بن عبيد لايكادُ يتكلَّم ، وإنْ تكلَّم لم يَكَدْ

(١) كذا فى المطبوعات كلها ، ولعل أصل العبارة «ويفضى إليه الأمر وأنت عنه مشغول» يريد بالأمر الذى يصل إليه الخلافة، ولن تصل إليه إلا وقد مات أبوه (م)

يُطيل ؛ وكان يقول : لا خيرَ فى المتكلِّم إذا كان كلامُه لمن يَشْهَدهُ دونَ قائله ، وإذا طال الكلامُ عرضَتْ للمتكلم أسبابُ التكلف ، ولا خيرَ فى شىء يأْتيك به التكلف[1] .

البلاغة عند أهل الهند

قال معمر بن الأشعث : قلت لبَهْلَةَ الهندىِّ أيام اجتلَبَ يحيى بنُ خالدٍ أطباء الهند : ما البلاغةُ عند أهلِ الهند ؟ قال بهلة : عندنا فى ذلك صحيفةٌ مكتوبة ، ولكننى لا أُحسِن ترجمتَها ، ولم أُعالِجْ هذه الصناعَةَ ، فأثِقَ من نفسى بالقيام بخصائصها ، ولطيفِ معانيها . قال ابنُ الأشعث : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها : أولُ البلاغة اجتماعُ آلة البلاغة ، وذلك أن يكونَ الخطيب رابطَ الجأش[2] ، ساكنَ الجوارح ، قليل اللَّحْظِ ، متخيِّر اللفظ ، لا يكلّم سيدَ الأمّة بكلام الأمة ، ولا الملوكَ بكلام السُّوقة ، ويكون فى قُوَاهُ فَضْلُ التصرف فى كل طبقة ، ولا يدقّق المعانى كلَّ التدقيق ، ولا يُنقِّحُ الألفاظ كلَّ التنقيح ، ولا يصفِّيها كل التصفية ، ولا يهذّبها غايةَ التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادفَ حكيما ، أو فيلسوفا عليما ، ومن قد تعوّد حَذْفَ فُضُول الكلام ، وإسقاطَ مشتركات الألفاظ ؛ وقد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة التصفح والاعتراض[3] ، ووجه التظرّف والاستظراف .

البلاغة عند ابن المقفع

قال إسحاق بن حسان بن قوهى : لم يفسر أحد البلاغة تفسيرَ عبد الله ابن المقفع إذ قال : البلاغةُ اسمٌ لمعانٍ تَجْرِى فى وجوهٍ كثيرة ، فمنها ما يكونُ فى الاستماع ، ومنها ما يكونُ فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما يكونُ فى الحديث ، ومنها ما يكونُ فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون شعراً ،

---

(١) وكانت وفاة عمرو بن عبيد سنة ١٤٤

(٢) الجأش : الصدر ، ومثله الجؤشوش بضم الجيم

(٣) التصفح : تقليب الصفحات .

ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكونُ جواباً ، ومنها ما يكون سَجْعاً ، ومنها ما يكون خُطَباً ، ومنها ما يكون رسائلَ ؛ فغايةُ هذه الأبواب الوَحْيُ فيها والإشارةُ إلى المعنى ؛ والإيجازُ هو البلاغة ، فأما الخطب فيما بين السِّماطين[١] وفى إصلاح ذات البين ، فالإكثارُ فى غير خَطَل[٢] ، والإطالةُ فى غير إملال ، ولكن لِيكن فى صَدْرِ كلامِك دليلٌ على حاجتك ، كما أنَّ خيرَ أبياتِ الشعر البيتُ الذى إذا سمعتَ صَدْرَه عرفتَ قافيته (كأنه يقول فرِّق بين صدر خطبة النكاح وخطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة التَّوَاهُبِ ، حتى يكونَ لكل فَنٍّ من ذلك صَدْرٌ يدل على عَجُزِهِ[٣]) فإنه لاخيرَ فى كلامٍ لايدلُّ على معناك ، ولا يشيرُ إلى مَغْزَاكَ ، وإلى العمود الذى إليه قَصَدْتَ ، والغرض الذى إليه نَزَعْتَ .

فقيل له : فإن ملَّ المستمعُ الإطالة التى ذكرت أنها أحقُّ بذلك الموضع ؟ قال : إذا أعطيت كلَّ مقامٍ حقَّه ، وقمتَ بالذى يجب من سياسة الكلام ، وأرضيتَ مَنْ يعرف حقوقَ ذلك ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ؛ فإنهما لا يَرْضَيَان بشىء ؛ فأما الجاهِلُ فلستَ منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شىءٌ لا يُنَال .

[الإطالة والإيجاز]

وقد مدحوا الإطالةَ فى مكانها ، كما مدحوا الإيجازَ فى مكانه . قال أبو داود [ابن جرير] فى خطباء إياد :

يَرْمُونَ بالخطب الطوال ، وتارةً ... وَحْيَ المَلاحظِ خِيفَةَ الرقباء[٤]

قال أبو وَجْزَة السعدى يصف كلام رجل :

---

(١) بين السماطين : الصفين . (٢) الخطل: السخف

(٣) ما وضعناه بين قوس أثبته المؤلف توضيحا لكلام ابن المقفع

(٤) المراد من وحى الملاحظ إشارة العيون .

يَكْفِي قليلُ كلامِه ، وكثيرُهُ ثَبتٌ ، إذا طَالَ النِّضَالُ ، مُصِيبُ[١]

وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرِّد[٢] ولم يسمِّ قائله ، وهو مولَّد ولم ينقصه توليدُه من حظِّ القديم شيئاً :

طَبِيبٌ بداء فُنُونِ الكلا مِ لَمْ يَعْيَ يوماً ولم يَهْذِرِ

فإنْ هو أطْنَبَ فى خُطْبَةٍ قَضَى للمُطِيل على المُنْزِرِ[٣]

وإن هو أوْجَزَ فى خُطْبَةٍ قَضَى للمُقِلِّ على المُكْثِرِ

وقال آخر يصف خطيباً :

فإذا تكلَّم خِلْتَهُ متكلِّماً بجميع عِدَّةِ أَلْسُنِ الخطباء

فكأن آدم كان علَّمه الَّذى قد كان عَلَّمَهُ مِنَ الأسماء

وكان أبو داود يقول : تلخيص المعانى رِفق ، والاستعانة بالغريب عَجْزٌ ، والتشدق فى الإعراب نقصٌ ، والنظرُ فى عيون الناس عِيٌّ ، ومسُّ اللحية هُلك ، والخروجُ عما بُنِي عليه الكلام إسهاب .

وقال بعضهم يهجو رجلا بالعى :

مَلِيءٌ بِبُهْرٍ والتفاتٍ وسعلةٍ ومَسْحَةِ عُثْنُونٍ وفَتْلِ الأصابعِ[٤]

العتابى يصف الرجل البليغ

ووصف العتابى[٥] رجلا بليغاً فقال : كان يُظْهِرِ ما غَمض من الحجَّة ،

---

(١) ثبت : متثبت (٢) كان المبرد إمام العربية ببغداد فى زمانه ، وكان فصيحاً بليغاً مفوها صاحب نوادر وظرف ، وكان جميلا ، لاسيما فى صباه ، ولما صنف المازنى كتاب الألف واللام سأل المبرد عن دقيقه وعويصه ، فأجابه بأحسن جواب ، فقال له : قم فأنت المبرد، بكسر الراء ، أى المثبت للحق ، فغيره الكوفيون وفتحوا الراء . ولد فى سنة ٢١٠ وتوفى سنة ٢٨٥ (٣) المنزر : المقل .

(٤) البهر : تتابع النفس وانقطاعه من الإعياء . والعثنون : اللحية .

(٥) العتابى : هو كلثوم بن عمرو . أصله من الشام من أرض قنسرين ، صحب البرامكة ، ثم صحب طاهر بن الحسين وعلى بن هشام القائدين، وكان حسن الاعتذار=

ويصوِّر الباطلَ فى صورةِ الحق ، ويُفهِمك الحاجةَ من غيرِ إعادة ولا استعانة .
قيل له : وما الاستِعانة ؟ قال : يقول عند مقاطع كلامه ياهناة ، واسمع ، وفهِمت!
وما أشبهَ ذلك . وهذا من أَمارَاتِ العَجْزِ ، ودلائل الحصَرِ ! وإنما ينقطعُ عليه
كلامه فيحاولُ وصْلَه بهذا ، فيكون أشدَّ لانقطَاعِه .

عدة الخطابة عند أبى داود

وكان أبوداود يقول : رَأسُ الخطَابة الطَّبْع ، وعمودُها الدُّربة ، وجَناحَاهَا
رِوَاية الكلام ، وحَلْيُها الإعراب ، وبهاؤُهَا تخيُّرُ اللفظ ؛ والمحبةُ مقرونةٌ
بقلة الاستِكْرَاه .

منزلة اللفظ من المعنى عند الجاحظ

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : قال بعض جهابذَةِ الألفاظ ، ونقّاد
المعانى : المعانى القائمةُ فى صدور الناس ، المختلجة فى نفوسهم ، والمتصوَّرة فى أذهانهم
المتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورةٌ خفيَّة ، وبعيدة وحشية ،
ومحجوبة مكنونة ، وموجودة فى معنى معدومة ، لايعرفُ الإنسانُ ضميرَ صاحبه ،
ولا حاجَةَ أخيه وخليطِهِ ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أمره ، وعلى
مالايبلغه من حاجات نفسه إلاّ بغيره ، وإنمايحيي تلك المعانى ذِكْرهم لها ، وإخبارهم
عنها ، واستعمالهم إياها .

وهذه الخصالُ هى التى تقرّبها من الفهم ، وتجلّيها للعقل ، وتجعل الخفىَّ منها
ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيدَ قريباً . وهى التى تلخِّص الملتبس ، وتحل المنعقد ،
وتجعل المهمل مقَيَّداً ، والمقيد مطلقاً ، والمجهول معروفا ، والوَحْشِىَّ مألوفا ،
[والغفل موسوما[1] ، والموسوم معلوما] ؛ وعلى قَدْرِ وضوحِ الدلالة ، وصواب

=فى رسائله وشعره، يشبه فى المحدثين بالنابغة فى الجاهلية . ومن جيد شعره قوله فى
جعفر بن يحيى وقد كان بلغ الرشيد عنه ما أهدر به دمه فخلصه جعفر :

ما زلت فى غمرات الموت مطرحا يضيق عنى فسيح الرأى من حيلى
فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لى حتى اختلست حياتى من يدى أجلى

وكانت وفاة العتابى سنة ٢٢٠

(١) الغفل : الذى لاعلامة له ، والموسوم : ذو العلامة ، من الوسم (م)

الإشارة ، وحُسْنِ الاختصار ، ودقة المدْخَلِ ، يكون ظهورُ المعنى . وكلما كانت الدلاَلة أوضَحَ وأفصَحَ ، وكانت الإشارة أبْيَنَ وأنور ، كانت أنفع وأنجع فى البيان . والدلالةُ الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله يَمْدَحه ، ويَدْعُو إليه ، ويحثُّ عليه ؛ بذلك نطق القرآن ، و بذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف العجم .

البيان عند الجاحظ

والبيان : اسمٌ لكل شىء كَشَفَ لك عن قناع المعنى ، وهَتَكَ لك الحُجُبَ دون الضمير ، حتى يُفْضِىَ السامعُ إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله ، كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أى جنس كان ذلك الدليل ؛ لأنَّ مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائلُ والسامعُ إنما هو الفهم والإفهام ؛ فبأىِّ شىء بلَغْتَ الإفهامَ وأوضحتَ عن المعنى فذلك هو البيان فى ذلك الموضع .

الدلالات على المعانى

ثم اعْلَمْ ـ حَفِظَكَ اللهُ ! ـ أنَّ حُكْمَ المعانى خلافُ حكم الألفاظ ؛ لأنَّ المعانى مبسوطة إلى غير غاية ، وأسماء المعانى محصورة معدودة ، ومحصَّلة محدودَة .

وجميعُ أصْنَافِ الدلالات على المعانى من لفظٍ أو غيره خمسةُ أشياء لا تنقص ولا تزيد : أولها اللَّفظ ، ثم الإشارة ، ثم العَقد ، ثم الخطّ ، ثم الحال التى تسمى نُصبة . والنُّصْبَة هى الحالُ الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تَقْصُرُ عن تلك الدلالات .

ولكل واحدةٍ من هذه الدلائل الخمسة صورةٌ بائنةٌ[١] من صورةِ صاحبتها ، وحِلْيَةٌ مخالفةٌ لِحِلْيَةِ أختها ؛ وهى التى تكشف لك عن أعْيَان المعانى فى الجملة ، وعن حقائقها فى التفسير ، وعن أجناسها وأقْدَارِها ، وعن خاصها وعامِّها ، وعن طبقاتها فى السارِّ والضار ، وعما يكون منها لَغْواً بَهْرَجًا[٢] ، وساقطا مُطَّرَحًا .

---

(١) صورة بائنة : متميزة يظهر فرق مابينها وبين صاحبتها (م)

(٢) بهرج : ردىء .

وفى نحو قول أبى عثمان « إنَّ المعانى غير مقصورةٍ ولا محصورة » يقول أبو تمام الطائى لأبى دُلَفَ القاسِمِ بن عيسى العِجْلِيِّ :

ولو كان يَفْنَى الشعرُ أفْنَتْه ما قَرَتْ حِيَاضُكَ منه فى العصورِ الذَّوَاهِبِ[1]
ولكنه فَيْضُ العقولِ إذا انجلَتْ سحائبُ منه أُعْقِبَتْ بسَحَائبِ

كما أشار إلى قول أوْس بن حَجر الاسدى :

أقول بما صَبَّت على غمامتى وجهدىَ فى حبل العشيرة أحطِبُ[2]

* * *

فضل اللسان

وقال بعضُ البلغاء : فى اللسان عشرُ خصالٍ[3] محمودة ، أداةٌ يظهر بها البيان ، وشاهدٌ يخبر عن الضمير ، وحاكمٌ يفصل الخطاب ، وواعظ يَنْهَى عن القبيح ، وناطق يردُّ الجواب ، وشافع تُدْرَك به الحاجة ، وواصفٌ تعرف به الأشياء ، ومُعْرِب يُشْكَر به الإحسان ، ومُعَزٍّ تذهب به الأحزان ، وحامدٌ يُذْهِبُ الضغينة ومونق يلهى الأسماع .

صلة اللفظ بالمعنى عند ابن المعتز

وقال أبو العباس بن المعتز : لحظةُ القلب أسرعُ خطرةً من لحظة العين ، وأبعدُ مَجَالا ، وهى الغائصة فى أعماق أوْدِيَةِ الفكر ، والمتأمّلة لوجوه العواقب ، والجامعة بين ما غاب وحَضَر ، والميزانُ الشاهدُ على ما نَفَع وضَرَّ ، والقلبُ كالمُمْلِى للكلام على اللسان إذا نطق ، واليد إذا كتبت ، والعاقل يكسو المعانى وَشْيَ الكلام فى قلبه ، ثم يُبْديها بألفاظ كَوَاسٍ فى أحسن زينة ، والجاهلُ يستعجلُ بإظهار المعانى قبل العناية بتزيين مَعَارِضها ، واستكمال محاسنها .

البيان عند جعفر بن يحيى البرمكى

وقيل لجعفر بن يحيى البرمكى : ما البيان ؟ قال : أن يكونَ الاسمُ يحيط بمعناك ، ويَكْشِف عن مَغْزَاكَ ، ويخرجه من الشركة ، ولا يُسْتَعان عليه

---

(١) قرت : أخذت (٢) يحطب فى حبل العشيرة : أى يستعين بها كما يستعين الحاطب بالحبل . (٣) إذا عددت ما ذكره وجدته إحدى عشرة خصلة (م)

بالفكر ، ويكون سليما من التكلُّفِ ، بعيداً من الصَّنعة ، بَرِيئاً من التعقيد ، غَنِيًّا عن التأويل.

سهل بن هارون يصف بلاغة جعفر بن يحيي البرمكي

وذكر سهل بن هارون[(١)] - وقيل ثُمَامة بن أشرس - جعفرَ بن يحيي فقال : قد جَمَع فى كلامه و بلاغته الهَذَّ والتمهل[(٢)] والجزالة والحلاوةَ ، وكان يُفهم إفهاما يُغْنيه عن الإعادة للكلام . ولو كان يَسْتغنى مستغنٍ عن الإشارة بمنطقه لاستغنى عنها جعفر . كما استغنى عن الإعادة فإنه لايتحبَّس[(٣)] ولا يتوقَّفُ فى منطِقِه ولا يتلَجْلَجُ ، ولا يتسَّعل ، ولا يترقّب لفظاً قد استدعاه من بُعْد . ولا يتلمس معنًى قد عصاه بعد طلبه له .

* * *

بشار بن برد يذكر أسباب تفوقه على أهل عصره

وقيل لبشَّار بن بُرْد : بِمَ فُقْتَ أهل عمرك ، وسبقتَ أهْلَ عصرك ، فى حسن معانى الشعر ، وتهذيب ألفاظه ؟ فقال : لأنى لم أقبل كلَّ ما تُورِدُهُ علىَّ قريحتى ، ويُنَاجينى به طَبْعِى ، و يبعثه فكرى ، ونظرت إلى مغارس الفطن ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيهات، فسِرْتُ إليها بفهمٍ جيد ، وغريزة قوية ، فأحكمت سَبْرَهاَ ، وانتقيت حُرها ، وكشفتُ عن حقائقها ، واحترزتُ من متكلَّفها ولا والله ما ملك قِيادى قَطُّ الإعجابُ بشىء مما آتِى به .

وكان بشارُ بن برد خطيباً ، شاعراً ، راجزاً، سجَّاعاً ، صاحب منثور ومزدوج ، و يلقب بالمرعَّث لقوله :

---

(١) كان سهل بن هرون من الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار . وقعت آراؤه فى الأدب وتدبير الملك مفرقة فى الكتب ،ولم يصل إلينا من مؤلفاته الكثيرة شيء يستحق الذكر . وقد أطلعنى المسيو مارسيه فى باريس على مذكرات مهمة قيد فيها ما عثر عليه من آثار ذلك الكاتب البليغ .وكانت وفاة سهل ابن هرون فى سنة ١٧٣ (٢) الهذ: السرعة (٣) فى الأصل (يتحسن) وهو تحريف

مَنْ لِلَفْتي مُرْعَثٍ ساحر الطرف والنظرْ[1]
قال لى لن تنالنى قلت أو يغلب القَدَرْ

وليس هـذا موضع استقصاء ذكره ، واختيار شعره ، وسأستقبل ذلك إن شاء الله .

[وصية أبى تمام للبحترى]

وقال الوليد بن عبيد البحترى : كُنْتُ فى حَدَاثتى أرُوم الشِّعْرَ ، وكنتُ أرْجِعُ فيه إلى طبْعٍ ، ولم أكُنْ أقِف على تَسْهِيل مَأْخَذِه ، ووجوه اقتضابه ، حتى قصدتُ أباتمام ، وانقطعت فيه إليه ، واتَّـكَلْتُ فى تعريفه عليه ؛ فـكان أول ما قال لى : يا أبا عُبَادة ؛ تخيَّر الأوقاتَ وأنت قليـلُ الهموم ، صِفْرٌ من الغموم ، واعلم أن العادةَ جرت فى الأوقات أن يقصد الإنسانُ لتأليفِ شىء أو حِفْظِه فى وَقْتِ السَّحَر ؛ وذلك أن النَّفْسَ قد أخذَتْ حظَّها من الراحة ، وقِسْطَهَا من النوم ، وإن أردتَ التشبيب فاجعل اللفظ رشيقاً ، والمعنى رقيقاً ، وأكْثِر فيه من بيان الصَّبَابة ، وتوجُّع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولَوْعَة الفراق ، فإذا أخذتَ فى مديح سيِّد ذى أيادٍ فأشْهِر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبِنْ معالمه ، وشرف مقامه ، ونضِّد المعانى[2] ، واحذر المجهولَ منها ، وإيَّاك أن تَشين شِعْرَكَ بالألفاظ الرديئة ، ولتـكن كأنك خيَّاط يقطع الثيابَ على مقادير الأجساد . وإذا عارضك الضجَرُ فأرِحْ نفسَك ، ولا تعمل شعرك إلا وأنتَ فارغُ القلبِ ، واجعل شهوتَكَ لقولِ الشعر الذَّريعةَ[3] إلى حسن نظمه ؛ فإن الشهوة

---

(١) مرعث : يلبس الرعثة ــ بالضم ــ وهى القرط .
(٢) نضد : من التنضيد ، وهو ضم بعض الشىء إلى بعض .
(٣) الذريعة : الوسيلة .

زعم المعين . وجملةُ الحال أنْ تعتبر شعرَكَ بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله .

قال : فأعملت نفسى فيما قال فوقفت على السياسة[١] .

* * *

وصف البليغ

وقالوا : البليغ مَنْ يَحُوك الكلام على حسب الأمانى ، و يخيط الألفاظ على قدُودِ المعانِى .

بعض مزايا الليل للحاتمى

ولذكر الطائى الليل ذكر بعض أهل العصر ــ وهو أبو على محمد بن الحسن ابن المظفَّر الحاتمى[٢] ــ الليل فقال: فيه تَجِمّ الأذهان[٣]، وتنقطع الأشغال، و يصح النظر ، وتؤلَّف الحكمة ، وتدرّ الخواطر ، ويتّسع مَجَالُ القلب ، والليل أضْوَأ فى مذاهب الفكر ، وأخْفى لعمل البر ، وأعون على صَدَقة السر ، وأصح لتلاوة الذكر ، ومُدَبِّرُو الأمور يختارون الليلَ على النهار ، فيما لم تصف فيه الأناة لرياضة التدبيرِ وسياسة التقدير ، فى دَفْع الملمّ ، وإمضاء المهمّ ، وإنشاء الكتب ، وتصحيح المعانى ، وتقويم المبانى ، وإظهار الحُجَج ، و إيضاح المَنْهَج ، و إصابة نَظْمِ الكلام ، وتقريبه من الأفهام .

وقال بعض رؤساء الكتّاب : ليس الكِتَابُ فى كل وقتٍ على غير

---

(١) ارجع إلى نقد هذه الوصية فى كتاب (الموازنة بين الشعراء) .

(٢) كان الحاتمى حسن التصرف فى الشعر ، يجمع بين البلاغة فى النثر والبراعة فى النظم ، وكان من خصوم المتنبى ، وله فى شعره عدة أبحاث . ومن جيد شعره قوله فى وصف الثريا :

وليل أقمنا فيه نعمل كأسنا ... إلى أن بدا للصبح فى الليل عسكر
ونجم الثريا فى السماء كأنه ... على حلة زرقاء جيب مدنر

مات فى شهر ربيع الآخر سنه ٣٨٨ (٣) تجم : تستريح .

نسخة لم تُحَرَّر بصواب ؛ لأنه ليس أحدٌ أولى بالأناة وبالروية من كاتب يَعْرِض عقله ، وينشرُ بلاغته ؛ فينبغي له أن يعمل النسخ و يرويها ، و يقبل عَفْوَ القريحة ولايستكرهها ، و يعمل على أن جميعَ الناس أعداء له ، عارفون بكتابه ، منتقدون عليه ، متفرغون إليه .

فضل الروية والأناة

وقال آخر : إنّ لابتداء الكلام فتنةً تروق ، وجِدةً تعجب ، فإذا سكنت القريحة ، وعدل التأمُّل ، وصَفَت النَّفس ، فليعد النظر ، وليكن فَرَحُه بإحسانه، مساوياً لغمِّه بإساءته ؛ فقد قالت الخوارج لعبد الله بن وهب الراسبي : نبايعك الساعة فقد رأينا ذلك ، فقال : دَعُوا الرأى حتى يبلغ أناته ، فإنه لا خيرَ فى الرأْى الفَطير ، والكلام القضيب[1] .

وقال معاوية بن أبى سفيان رحمه الله لعبد الله بن جعفر : ما عندك فى كذا وكذا ؟ فقال : أريد أن أصْقُلَ عقلى بنَوْمَة القائلة[2] ، ثم أروح فأقول بعدُما عندى

قال الشاعر :

إن الحديث تَغُرُّ القومَ جَلْوَتُهُ ... حتى يغيّرَه بالوَزْنِ مضمارُ[3]

فعند ذلك تستكفى بلاغتهُ ... أو يستمرُّ به عِيٌّ و إكثارُ

وقالوا : كل مُجْرٍ بالخَلاء يُسَرُّ[4] ، وقال أبو الطيب المتنبى :

و إذا ما خَلاَ الجَبَانُ بأَرْضٍ ... طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَه والنِّزالاَ

* * *

تخير ابن المقفع ما يرد عليه من الكلام

وكان قلم ابن المقفع يَقِفُ كثيراً ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الكلام يَزْدَحِمُ فى صدرى ، فيقف قلمى ليتخيّر .

---

(١) الرأى الفطير : الذى لم ينضج، والكلام القضيب: المرتجل (٢) نومة القائلة: نومة الظهيرة (٣) الجلوة : الزينة (٤) يريد أن الذى يجرى فرسه بالخلاء يسر بظفره حيث لا مناضل ، وهو مثل فى التهكم .

يغتفر في المخاطبة مالا يغتفر في المكاتبة

وقالوا : الكِتابُ يُتصفَّح أكثر مما يتصفَّح الخطاب ؛ لأنّ الكاتب متخيّر، والمخاطِبَ مضطرّ ، ومن يَرِدُ عليه كتابك فليس يعلم أأسْرَعْتَ فيه أم أبطأت ؛ وإنما ينظر أأخطأتَ أم أصبتَ ؛ فإبطاؤك غيرُ قادح في إصابتك ، كما إن إسراعَك غير مُغطٍّ على غَلَطِك .

ما يجب في النسخ

ووصف بعضُ الكتّاب النسخ فقال : ينبغي أن يصحَبها الفكر إلى استقرارها، ثم تُستبرأ بإعادة النظر فيها بعد اختيارها[١] ، ويوسَّع بين سُطُورِها ، ثم تحرر على ثِقةٍ بصحتها ، وتُتأمل بعد التحرير حَرْفاً حرفاً إلى آخرها .

فقد كتب المأمون مُصْحفاً اجتمع عليه ؛ فكان أوله : بسم الله الرحيم ، فأغفلوا الرحمن ؛ لأنَّ العينَ لا تَعتبرُ ذلك ؛ ثقة أنه لا يُغلَط فيه ، حتى فَطِنَ المأمون له .

وقال محمد بن عبد الملك الزيات للحسن بنِ وهب : حرِّر هذه النسخة وبكِّر بها ، فتصبَّح الحسن[٢] فقال له : لِمَ تصبَّحت ؟ قال : حتى تصفحت !

وقال أحمد بن إسماعيل بَطاحَة : كان بعض العلماء الأغبياء ينظر في نسخِه بعد نفوذ كُتُبه ، فقال بعض الكتاب :

مُستَلَبُ اللُّب غَوِيُّ الشبابْ   عذَّبه الهَجْر أشد العذاب
يؤمل الصبر وأنَّى لَهُ   به وقد مُكِّن منه التَّصَابْ
كناظرٍ في نسخةٍ يبتغي   إصلاحَها بعد نفوذِ الكتاب

أوصاف بليغة في البلاغات

على ألسنة أقوام من أهل الصناعات

قال بعضُ من ولَّد عقائل هذا المنثور ، وألَّف فواصل هذه الشذور : تجمَّع

---

(١) تستبرأ : تجفف ـ كذا وليس بمقصود ، ولكن المراد معاودة النظر فيها ليتعرف كاتبها مافرط منه إن كان فيتداركه (م) (٢) تصبح : تأخر عن الحضور صباحاً .

قوم من أهل الصناعات ، فوصفوا بلاغاتِهم ، من طريق صناعاتهم[١] :

فقال الجوهرى : أحسنُ الكلام نِظاماً ماثقبته يدُ الفكرة ، ونظمته الفِطْنة ، ووُصِل جَوْهَرُ معانيه فى سُموط[٢] ألفاظه ، فاحتملته نحورُ الرواة .

وقال العطار : أطيبُ الكلامِ ما عُجِنَ عَنْبَر ألفاظه بمسْك مَعانيه ، ففاح نسيمُ نَشَقِه ، وسطعت رائحة عَبَقِه ، فتعلقت به الرُّوَاة ، وتعطَّرت به السَّراة .

وقال الصائغ : خيرُ الكلام ما أَحْمَيْتَه بكِير الفِكر[٣] ، وسبَكْتَه بمشَاعِل النّظر ، وخلَّصته من خَبَث الإطناب ، فبرز بروزَ الإبريز[٤] ، فى معنى وَجيز .

وقال الصيرفى[٥] : خيرُ الكلام مانَقَدَتْهُ يدُ البصيرة ، وجَلَته عين الروِيَّة ، ووزنَتْه بمِعْيَار الفصاحة ، فلا نظر يُزَيّفه[٦] ، ولا سماعَ يُبَهْرِجُه[٧] .

وقال الحداد : أحسن الكلام ما نصبت عليه مِنْفَخة القريحة ، وأشعلْتَ عليه نارَ البصيرة ، ثم أخرجتَه من فحم[٨] الإفحام ، ورقَّقته بفطِّيس الإفهام[٩] .

وقال النجار : خيرُ الكلام ما أحكمتَ نَجْرَ معناه بقدُوم التقدير ، ونَشَرْتَه بمنشار التدبير ، فصار باباً لبيت البيان ، وعارضة لسَقْفِ اللسان .

وقال النجاد: أحسنُ الكلام ما لطُفت رَفَارِف ألفاظه[١٠] ، وحسُنت مَطَارِح

---

(١) هذا نوع من فن المقامات الذى ذاع فى القرن الرابع بفضل أبى بكر بن دريد وبديع الزمان ، وقد ترجمت هذا الحديث إلى اللغة الفرنسية فى كتابى .
La prose arabe au IVᵉ siècle de l'hegire

(٢) السموط : جمع سمط ـ بالكسر ـ وهو خيط النظم

(٣) الكير بالكسر : هو منفخة الحداد (٤) الإبريز : هو الذهب الخالص

(٥) الصيرفى : صراف الدراهم ، والجمع صيارفة ، وجاء فى الشعر صياريف

(٦) زاف الدراهم وزيفها : حكم برداءتها (٧) يبهرجه : يحكم بأنه بهرج ، والبهرج : الباطل والردىء (٨) الإفحام : العجز عن البيان ، ومنه : شاعر مفحم ، على صيغة المفعول (٩) الفطيس : المطرقة

(١٠) الرفارف : الأطراف ، مفردها رفرف ـ وهى ثياب خضر تبسط (م)

معانيه، فتنزهت فى زَرَابىِّ محاسنه عيونُ الناظرين[١]. وأصاخت لنمارق[٢] بهجته آذان السامعين .

وقال الماتح : أبيَن الكلام ما علقت وَذَمُ ألفاظه ببكرة معانيه[٣] ، ثم أرسلته فى قَليب الفِطَن[٤] فمتحت به سقاء يكشِفُ الشبهات ، واستنبطت به معنى يروى من ظمأ المشكلات .

وقال الخياط : البلاغة قميص ؛ فجرُبَّانه البيان[٥] ، وجَيْبُه المعرفة ، وكُمَّاه الوجازة ، ودَخَارِيصه الإفهام[٦] ، ودُرُوزُه الحلاوة[٧] ، ولابسُ جَسَدُه اللفظ ، وروحُه المعنى .

وقال الصَّباغ : أحسن الكلام ما لم تنضَ بهجة إيجازه[٨] ، ولم تكشف صبغة إعجازه ، قد صقَلَتْه يَدُ الروِيَّةِ من كُمُود الإشكال . فَرَاعَ كَواعِبَ الآداب ، وألَّف عَذَارَى الألبَاب .

وقال الحائك : أحسنُ الكلام ما اتَّصَلت لُحمة ألفاظه بسَدَى معانيه[٩] فخرج مُفوَّفاً مُنيَّراً ، وموشًى محبَّراً .

وقال البزاز[١٠] : أحسن الكلام ماصدقَ رقم ألفاظه ، وحسن نَشْرُ معانيه فلم يستَعْجِمْ عنك نَشر ، ولم يستبهم عليك طَيّ .

وقال الرائض : خيرُ الكلام ما لم يخرج عن حَدِّ التَّخْليع[١١] ، إلى منزلة

---

(١) الزرابى : واحدها زربى ـ بالكسر ويضم ـ وهو كل ما بسط واتكىء عليه

(٢) النمارق : واحدها النمرقة ـ بالتثليث ـ وهى الوسادة الصغيرة

(٣) الوذم : الدلو (٤) القليب : البئر

(٥) الجربان : الطوق (٦) الدخاريص : فتحات الأزرار

(٧) الدروز : الأطراف الرقاق (٨) لم تنض : لم تمح

(٩) اللحمة والسدى: ما يسدى ويلحم به الثوب (١٠) البزاز : بائع البز . بالفتح ، وهو الثياب أو متاع البيت من الثياب (١١) التخليع : هز المنكبين فى المشى (م)

التَّقْرِيب(١) إلا بعد الرياضة ، وكان كالمُهْرِ الذى أطمع أوَّلُ رياضته فى تمام ثقافته.

وقال الجمَّال : البليغُ من أخذ بخِطام كلامه ، فأناخه فى مَبْرك المعنى ، ثم جعل الاختصار له عِقَالا ، والإيجاز له مَجَالا ، فلم يَنِدّ عن الآذان ، ولم يشذ عن الأذهان .

وقال المخنَّث : خيرُ الكلام ما تكسَّرت أطرافُه ، وتثنَّت أعطافه ، وكان لفظه حُلَّة ، ومعناه حِلْيَة .

وقال الحمار : أبلغُ الكلام ماطبَخَتْه مَرَاجِلُ العلم ، وصفَّاه رَاوُوق الفَهْم ، وضمَّته دِنَان الحكمة ، فتمشَّت فى المفاصل عُذُوبَتُه ، وفى الأفكار رِقَّته ، وفى العيون حِدّته .

وقال الفقاعى : خيرُ الكلام ما رَوَّحَتْ ألفاظُه غَبَاوَةَ الشكّ ، ورفعت رِقَّته فظاظَةَ الجهل ، فطاب حِسَاءُ فطنته ، وعذُب مَصّ جُرَعِه .

وقال الطبيب : خيرُ الكلام ما إذا باشر [دواء] بيانه سَقَمَ الشُّبهة استطلقت طبيعةُ الغباوة ؛ فشُفِى من سوء التفهم ، وأورث صحة التوهّم .

وقال الكحَّال : كما أن الرَّمَدَ قَذَى الأبصار ، فكذا الشبهة قَذَى البصائر ، فاكْحَلْ عَيْنَ اللكنة بِميلِ البلاغة ، واجْلُ رَمَصَ الغَفْلة(٢) بمِرْوَدِ اليقظة .

ثم قال : أجمعوا كلهم على أن أبلغ الكلام ما إذا أشرقت شمْسُه ، انكشف لَبْسه ، وإذا صدقت أنواؤه(٣) اخضرت أحماؤه(٤) .

فِقرٌ فى وصف البلاغة لغير واحد

قال أعرابى : البلاغةُ التقرب من البعيد ، والتباعد من الكُلْفَة ، والدلالة بقليل على كثير .

---

(١) التقريب : ضرب من العدو . أو هو أن يرفع الجواد يديه معا ويضعهما معا

(٢) الرمص : وسخ أبيض يجتمع فى موق العين

(٣) الأنواء : جمع نوء ، وهو النجم مال للغروب ، والمراد به هنا المطر

(٤) الأحماء : جمع حمى ، وهو المكان يحميه الرجل ويمنعه

قال عبد الحميد بن يحيى : البـلاغةُ تقريرُ المعنى فى الأفهام ، من أقْرَب وجوه الكلام .

ابن المعتز : البلاغةُ البلوغ إلى المعنى ولم يطل سَفَر الكلام .

سهل بن هارون : البيان ترجمان العقول ، ورَوْض القلوب ، وقال : العقل رائدُ الروح ، والعلم رائدُ العقل ، والبيان تَرجمان العلم .

إبراهيم بن الإمام : يكفى من البلاغة ألا يُؤْتَى السامع من ســوء إفهام الناطق ، ولا يؤتَى الناطقُ من سوء فهم السامع .

العتَّابى : البلاغة مدُّ الكلام بمعانيه إذا قَصر ، وحُسن التأليف إذا طال .

أعرابى : البلاغة إيجاز فى غير عَجْز ، و إطناب فى غير خَطَل .

[وكتب إبراهيم بن المهدى إلى كاتب له ورآه يتبع وَحْشِىَّ الكلام : إياك وتتبع الوحشى طمعاً فى نَيْلِ البلاغة ؛ فإن ذلك العِىُّ الأكبر ، وعليك بما سهل مع تجنبك ألفاظ السفل .

وقال الصولى : وصف يحيى بن خالد رَجُلاً فقال : أخذ بزمام الكلام ، فقاده أسهل مَقَاد ، وساقه أجمل مَسَاق ؛ فاسترجع به القلوبَ النافرة ،واستصرف به الأبصار الطامحة .

وسمع أعرابى كلامَ الحسن البصرى رحمه الله ، فقال : والله إنه لفصيح إذا نطق ، نصيح إذا وَعَظَ .

قال الجاحظ : ينبغى للكاتب أن يكون رقيقَ حَوَاشى الكلام ، عَذْبَ ينابيع اللسان ؛ إذا حاور سدَّد سهمَ الصواب إلى غرض المعنى ، لا يكلم الخاصة بكلام العامة ، ولا العامة بكلام الخاصة .

وقال أبو العباس المبرد : قال الحسن بن سهل لسالم الحرارى : ما المنزلة التى إذا نزل بها الكاتب كان كاتباً فى قوله وفعله واستحقاقه ؟ قال : أن يكون مطبوعاً على المعرفة ، مُحْتَنكا بالتجربة ، عارفاً بحلال الكتاب وحرامه ، و بالدهور فى تصرفها

وأحكامها ، وبالملوك فى سِيَرِها وأيامها ، وأجناس الخط ، وبادية الأقلام ، مع تشاكل اللفظ وقرب المأخذ . قال الحسن : فليس فى الدنيا إذاً كاتب] .

وقيل لليونانى : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام .

وقيل للرومى : ما البلاغة ؟ قال : حسنُ الاقتضاب عند البَدَاهة ، والغزارة يومَ الإطالة .

وقيل للهندى : ما البلاغة ؟ قال : وضـوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحُسْن الإشارة .

وقيل للفارسى : ما البَلاَغَة ؟ قال : مَعْرِفَة الفَصْل من الوصل .

وقال على بن عيسى الرُّمَّانى : البلاغةُ إيصال المعنى إلى القَلْبِ فى أحسن صورةٍ من اللفظ .

ومن كلام أهل العصر ، في صفة البلاغة والبلغاء

[قال على بن عيسى الرمانى] : أبلغ الكلام ما حَسُنَ إيجازه ، وقل مَجَازه ، وكثر إعجازه ، وتناسبَتْ صدورُه وأعجازه .

أبلغُ الكلام ما يؤْنِس مُسْمِعَه ، ويُونُس مضيّعه .

البليغ من يجتنى من الألفاظ أنوارَها [١] ، ومن المعانى ثمارها .

ليست البلاغةُ أن يُطال عِنَانُ القلم أو سِنَانه ، أو يُبْسَط رِهان القول ومَيْدَانه ، بل هى أنْ يبلغ أمد المراد بألفاظ أعْيان ، ومعان أفْراد ، من حيث لا تَزَيُّدٌ على الحاجة ، ولا إخْلاَلٌ يُفْضِى إلى الفاقة .

البلاغة ميدانٌ لا يُقْطَع إلا بسوابق الأذهان ، ولا يُسْلَكُ إلا ببصائر البيان.

فلان يعبث بالكلام ، ويقوده بألين زمام ، حتى كأنَّ الألفاظَ تتحَاسدُ فى التسابق إلىَ خواطره ، والمعانى تتغايَرُ فى الانْثِيَال على أنامله .

هذا كقول أبى تمام الطائى :

تَغَايَرَ الشعرُ فيه إذ سهِرتُ لَهُ ... حتى ظننتُ قوافيهِ سـتَقْتَتِلُ

(١) الأنوار: جمع نور ـ بفتح النون وسكون الواو ـ وهو الزهر، أو الأبيض منه (م)

فلان مشرفى المشرق ، وصَيْرَفىّ المنطق . البيانُ أصغر صفاته ، والبلاغةُ عفوُ خطراته . كأنما أوحى بالتوفيق إلى صَدْره ، وحسن الصواب بين طَبْعه وفكره .

فلان يحزّ مَفَاصِلَ الكلام ، ويسبق فيها إلى دَرْك المرام ، كأنما جمع الكلام حولَه حتى انتقى منه وانتخَب ، وتناول منه ما طَاب ، وترك بعد ذلك أذْناباً لا رءوساً ، وأجْساداً لا نفوساً .

فلان يَرْضَى بعفْو الطَّبْع ، ويقنع بما خفَّ على السمع ، ويُوجِز فلا يُخِلُّ ، ويُطْنِب فلا يُمِلّ ، لله فلان أخذ بزِمَّة القول يقودُها كيف أراد ، ويَجْذِبُها أنّى شاء ، فلا تعصيه بين الصَّعب والذّلول ، ولا تسلمه عند الْحُزونة والسّهول ، كلامُه يشتدّ مرّة حتى تقول الصَّخْر الأملس ، ويَلين تارةً حتى تقولَ الماء أو أسْلَس ، يقول فيَصُول ، ويُجيب فيُصِيب ، ويَكْتُبُ فيطبِّقُ المَفصِل ، أو يُنَسِّق الدرَّ المفصَّلَ ، ويَرِدُ مشارِعَ الكلامِ وهى صَافيةٌ لم تُطْرَق ، وجَامَّة لم تُرَنَّق[١] ، خاطِرُهُ البَرْقُ أو أسْرَع لمعا ، والسَّيْفُ أو أحَدُّ قطْعا ، والماء أو أسْلَس جَرْيا ، والفلك أو أقْوَم هَدْيا ؛ هو ممن يسهلُ الكلام على لفظه ، وتتزاحَمُ المعانى على طَبْعِه ، فيتناول المَرْمَى البعيدَ بقريب سَعْيِه ، ويستَنْبِطُ المَشْرَعَ العميق بيسيرِ جَرْيِه ، لسانُه يَفلِقُ الصُّخُور ، ويغيض البحور ، ويُسْمِع الصُّم ، ويستنزل العُصْمَ[٢] ، خطيبٌ لا تنالُه حُبْسة ، ولا ترتهنه لُكْنَة ، ولا تتمشّى فى خطابه رنة ، ولا تتحيَّف بيانه عُجْمَة ، ولا تعترض لسانه عُقْدَة .

فلان رقيق الأسَلَة ، عذب العذَبَة[٣] لو وُضِع لسانُه على الشعر حَلَقه ، أوْ

---

(١) جامة لم ترنق : ساكنة لم تعكر (٢) العصم : جمع أعصم ، وهو الوعل يعتصم بالجبال (٣) المراد من الأسلة والعذبة طرف اللسان.

على الصَّخْر فَلَقه ، أو على [الجمر أحرقه ، أو على] الصَّفَا خرقه[١] ؛ قد أحسن السّفارة ، واستوفى العبـارة ، وأدَّى الألفاظ ، واستغرق الأغراض ، وأصاب شواكِلَ المراد[٢] ، وطبَّق مَفَاصِلَ السَّداد ، و بسط لسانَ الخطاب ، ومدَّ أُطناب الإطناب[٣] ، وطلب الأَمَدَ فى الإسهاب ، قالَ حتى قال الكلامُ : لو أعفيت ! وكتَب حتى قالت الأقلامُ : قد أحفيت ، قد اتَّسعله مَشْرَعُ الإطناب ، وانفرجَ له مَسْلَكُ الإسهاب ، أرسل لسانَه فى مَيْدَانِهِ ، وأرخى له من عنانه ، قالَ وأطالَ ، وجَالَ فى بَسْطِ الكلام كلَّ مَجال ، إذا اسْحَنْفَر فى الكلام طَفَح آذِيّه ، وسَال أتِيُّه[٤] ، وانثال عليه الـكلام كانثيَال الغمام ، واستجاب له الخِطاب كصَوْب الرَّباب[٥] . ألفـاظٌ كغمزات الألحَاظ ، ومَعَانٍ كأنها فكُّ عَانٍ[٦] ! ألفـاظ كما نوَّرت الأشجار ، ومَعَانٍ كما تنفَّست الأَسْحَار . ألفاظ قد استعارت حلاوةَ العِتَاب بين الاحباب ، واستلانَتْ كتشكّى مشّاق يوم الفراق . كلامٌ قريب شَاسِعٍ[٧] ومُطمِع مانِع ، كالشمس تَقْرب ضياء ، وتبعد علاء ؛ أو كالماء يَرْخص موجوداً ، ويغلو مفقوداً . كلامٌ لا تمجُّه الآذان ، ولا تُبليه الأزمان ، كالبُشْرَى مسموعة ، أو أزاهير الرياض مجموعة ، ومعـان كأَنفَاس الرياح ، تَعْبَقُ بالرَّيْحَان والراح .

كلامٌ سَهْلٌ متسلسل ، كالمدام بماء الغمام ، يقرب إذنه على الأفهام .

كلام كبَرْد الشَّراب على الأكباد الحِرَار ، وبُرْد الشباب فى خلع العِذار .

كلام كثيرُ العيُونِ ، سَلِسُ المتون ، رقيقُ الحواشى ، سَهْل النواحى .

---

(١) الصفا : الصخر (٢) الشواكل : جمع شاكلة ، وهى مابين الأذن والصدغ
(٣) الأطناب : الحبال ، واحدها طنب بضمتين ، نظير عنق وأعناق (م)
(٤) الآذى : الموج ، والأتى : السيل ، واسحنفر : اتسع — وأصل معناه مضى مسرعا (م) (٥) الرباب : السحاب . (٦) عان : أسير . (٧) شاسع : بعيد

كلامٌ هو السِّحْرُ الحلالُ ، والماء الزُّلال ، والبُرُود والحِبَر ، والأمثال والعِبَر ، والنعيم الحاضر ، والشباب النَّاضِر .

نظرت منه إلى صورةِ الظَّرف بَحْتاً ، وصورة للبلاغة سَبْكا ونحتاً ، ألفاظ هي خُدَع الدهر ، وعُقَد السحر .

كلامٌ يسرّ المحزون ، و يُسَهِّل الْحُزون[(١)] ، و يعطل الدرّ المخزون . كلامٌ بعيد من الكُلَف ، نقِيٌّ من الكَلَف[(٢)]

كلام كما تنفس السَّحَر عن نسيمه ، وتبسم الدرُّ عن نظيمه . ألفاظ تأنَّقَ الخاطر فى تَذْهِيبها ، ومعانٍ عُنِي الفهمُ بتهذيبها . ألفاظ حسبتها من رِقَّتها منسوخة فى صحيفة الصَّبَا ، وظننتها من سلاستها مكتو بةً فى نَحْر الهوى .

كلامٌ كالبُشْرى بالولد الكريم ، قُرِعَ به سَمْعُ الشيخ العقيم .

كلام قرُب حتى أطْمع ، و بَعُد حتى امتنعَ ، وقرُب حتى صار قابَ قَوْسَيْن أو أدنى ، ثم [سما و] علا حتى صار بالمنزل الأعْلى . رقيق المزاج ، حُلْو السماع ، نقيُّ السَّبْك ، مقبول اللَّفظ . قرأت لفظاً جليًّا ، حَوى معنًى خفيًا ، وكلاماً قريباً ، رَمَى غرضاً بعيداً . لو أنَّ كلاماً أُذِيبَ به صَخْر ، أو أُطْفِىء به جَمْر ، أو عُوفى به مريض ، أو جُبِر به مَهِيض[(٣)] لكان كلامَه الذى يقودُ سامعيه إلى السجود ، ويجرى فى القلوب كجَرْيِ الماء فى العُود . ألفاظُه أنوار ، ومعانيه ثمار . كلامُه أنسُ المقيم الحاضر ، وزادُ الراحل المسافر . كلامُه يُصْغِى إليه المقبور ، وينتفِضُ له العُصفور . كلامٌ يقضى حقَّ البيان ، و يملك رِقَّ الْحُسْنِ والإحسان ، كلامٌ منه يجتنى الدُّر ، و به يُعقَدُ السِّحْر ، وعنده يُعْتِب الدهر[(٤)] ، وله يَنْشرِحُ الصدر .

---

(١) الحزون : جمع حزن — بفتح الحاء — وهو ماغلظ من الأرض .

(٢) الكلف : نمش فى الوجه ، لم تسلم منه صفحة القمر !(٣) مهيض : مكسور

(٤) يعتب : يصفو ، من أعتب إذا رضى وأزال أسباب العتب

ومن ألفاظهم فى وصف النظم والنثر والشعر والشعراء

نَـثْرٌ كنثر الورد ، نَظْمٌ كنظم العِقد . نثر كالسِّحر أو أدَقُّ ، ونظمٌ كالماء أو أرقُّ . رسالة كالرَّوْضة الأنيقة ، وقصيدة كالمخدَّرة الرشيقة . رسالة تقْطُرُ ظَرْفا ، وقصيدة تمزجُ بماء الرَّاح لطفاً . نثره سِحْرُ البيان ، ونَظْمه قِطَعُ الجُمان . نَـثْرٌ كما تفتَّح الزهَر ، ونظم كما تنفَّس السَّحَر . نَـثْرٌ تَرِقُّ نواحيه وحَوَاشِيه ، ونَظْمٌ تروقُ ألفاظه ومعانيه . نَـثْرٌ كالحديقة تفتَّحت أحْدَاق وَرْدِها ، ونظم كالخَرِيدة تورَّدَتْ أسرارُ خَدِّها[1] . رسالة تَضْحَك عن غُرَر وزَهَر ، وقصيدة تنطوى على حِبَر ودُرَر . لم تَرْضَ فى بِرِّك ، بأخوات النَّـثْرَة من نَـثْرك ، حتى وصلتها ببنات الشِّعرى من شِعْرك[2] . كلام كما هبَّ نَسيمُ السحر ، على صفحات الزَّهر ، ولذَّ طعمُ الـكَرَى بعد بَرْح السَّهر[3] . وشِعْرٌ فى نفسه شاعر ، تُوسم به المواسم والمشاعر . كلام أنسَى حلاوة الأولاد بحلاوته ، وطُلاوَةَ الربيع بطلاوته ، وشِعْرٌ من حلَّةِ الشباب مسروق ، ومن طِينَة الوِصال مَخْلُوق . قصيدة ، فى فنِّها فريدة ، هى عروسٌ كُسْوَتُها القوافى ، وحِلْيَتُها المعانى . شِعْرٌ يترقْرَقُ فيه ماء الطبع ، ويرتفع له حجابُ القَلْب والسمع . شعر لا مزية الإعجاز أخْطأته ، ولا فضيلة الإيجاز تخطَّته . شعرٌ رَوَيْتُه لما رأيته ، وحفِظْتُه لما لحظته . أبياتٌ لو جُعلت خلعاً على الزمان لتحلَّى بها مُكاثراً ، وتجلَّى فيها مُفاخِراً . شِعْرٌ رَاقَنِى ، حتى شاقنى ، فإنه مع قُرْبِ لفظه بعيدُ المرام ، مُمَرُّ النظام[4] ، قوى الأَسْر[5] ، صافى البَحْر . نظمٌ قد أُلبِس من البداوة فَصَاحتها ، وغُشِّىَ من الحضارة سَجَاحتها[6] ؛ فإن

---

(١) الخريدة : الفتاة المخدرة (٢) النثرة : اسم كوكب ؛ وكذلك الشعرى

(٣) برح السهر : شدته (٤) ممر النظام : قويه محكمه (م)

(٥) الأسر ، إحكام الخلقة (٦) السجاحة : استواء الصورة

شئت قلت عَبيد ولَبيد، وإن شئتَ حَبيب والوليد[١]. قصيدته رَوْضَة تجتنى بالأفكار، ونَقْلٌ يتناوَلُ بالأسماع والأبصار[٢]، ونَقْلُ العلم والأدب، ألذُّ من نَقْل الأكل والمشرب، وفاكهةُ الكلام، أطيبُ من فاكهة الطعام. نظمٌ كنظم الجُمَان، ورَوْضٌ كالجِنَان، وأمنِ الفؤاد، وطيبِ الرُّقاد. قصيدةٌ لم أرَ غيرها بكراً، استوفتْ أقسامَ الحُنكة، واستكملتْ أحكامَ الدُّرْبة[٣]؛ فعليها رونق الشباب، ولها قوّةُ المُذْكيات الصِّلاب[٤]، روحُ الشعر، وتاجُ الدهر، ومقدمة عسكر السحر. كل بيت شعر خيرٌ من بيت تِبْر. شعر يُحكم له بالإعجاز والتّبريز، ويشبه في صفاء سَبْكه بالذّهب الإبريز. شعرٌ تأتلِف القلوب على دُرَرِه ائتلافا، وتصير الآذان له أصدافا. لله دَرُّه ما أحلى شعره! وأزكى دُرّه، وأعلى قدره، وأعجب أمْره! قد أخذ برقاب القوافي، ومَلَك رِقّ المعاني، فَضْله بُرْهَان حق، وشعره لسان صدق. فلان يُغرب بما يَجْلِب، ويُبْدِعُ فيما يصنع، حَسَنُ السبك، مُحْكِمُ الرَّصْف، بديع الوَصْفِ، مرغوب في شِعْرِه، مُتنَافس في سحره. هو ضارب في قِدَاح الشعر بأعلى السهام، آخِذٌ في عيون الفضل بأوْفَى الأقسام، شِعاره أشعاره، ودابه آدابه، هو ممن يَبْتَدِهُ فيبتدع، طبعه يُملي عليه، مالا يُمَاءُ الاستماع إليه. قريحة غير قَرِيحة، وطَبْعٌ غير طَبِع[٥]، وخِيم غير وَخِيم، لبيد عنده بَليد، وعَبيد لديه من العَبيد، والفرزدقُ عنده أقل من فرزدقة خمير[٦]، وجرير يُقاد إليه بجَرير[٧] قد نسجَ حُللاً لا يُبْلِي جِدَّتَها الجديدان، ولا تزداد إلا حُسْناً على

---

(١) عبيد بن الأبرص: شاعر جاهلي ولبيد بن ربيعة العامري: شاعر مخضرم؛ وحبيب هو أبو تمام بن أوس الطائي. والوليد هو أبو عبادة الوليد البحتري: شاعران من شعراء العصر العباسي (م). (٢) النقل: مايتنقل به من أنواع الفواكه على الشراب

(٣) الحنكة: التجربة، والدربة: التمرين

(٤) المذكيات والمذاكي: الخيول بلغت سن القوة

(٥) غير طبع: غير لئيم، وهي من طبع السيف، على وزن علم، إذا ركبه الصدأ الكثير (٦) الفرزدقة: القطعة من العجين (٧) الجرير: الحبل.

تردُّدِ الأزمان. نَظْمُه قد نظم حاشيتى البرِّ والبَحْر ، وأدركَ ناحيتى الشرْقِ والغرب . أشعارٌ قد وردَتِ المياه ، وركِبَت الأفواه ، وسارت فى البلاد ، ولم تَسِرْ بزَاد ، وطارَتْ فى الآفاقِ ، ولم تَمْشِ على ساق . شعرُه أشيَرُ من الأمثال ، وأسْرَى من الخيال ، سار مسيرَ الرياح ، وطار بغير جَناح . أشعارُه سارت مَسيرَ الشمس ، وهبَّتْ هبوبَ الريح ، وطبَقت تُخُومَ الأرض ، وانتظمت الشرق إلى الغرب . قد كادت الأيامُ تنشدها ، والليالى تحفَظُها ، والجنّ تدرسها ، والطير تتغنَّى بها . أبياتٌ أسْفَر عنها طَبع المَجْدِ ، فعلمت كيف يتكسّر الزَّهر على صفحات الحدائق ، وكيف يغرس الدرّ فى رياض المَهارق[1] . شِعرٌ قد أحْسَن خِدْمَته بكمال فِكْره ، ووقف كيف شاء عند عَالِى أمْره . شعرٌ يُعَلَّق فى كَعْبَةِ المجد ، و يتوّج به مَفْرِقُ الدهر . جاءت القصيدة ومعها عِزَّة المُلك ، وعليها رُواء الصدق ، وفيها سيماء العلم ، وعندها لِسَانُ المجد ، ولها صِيَال الحقِّ ، لا غروَ إذا فاضَ بَحْرُ العلم على لسانِ الشِّعْرِ أن ينتج مالا عين وقعَتْ على مثله ولا أذن سمِعَتْ بشبهه . شعر يكتب فى غُرّة الدهر ، و يشرح فى جَبْهَة الشمس [والبدر] .

وهذه جملة من فصول أهل العصر تليق بهذا الموضع

كتب أبو الفضل بن العميد إلى أبى محمد خلاد الرامهرمزى القاضى

من ابن العميد إلى خلاد الرامهرمزى

«وصل كتابُكَ الذى وصلت جَناحَه بفنون صِلاتك وتفقُّدك ، وضروب برِّك وتعهُّدك ؛ فارتَحْتُ لـكلِّ ما أوْليت ، وابتهَجْتُ بجميع ما أهْدَيت ، وأضَفْت إحسانَك فى كلِّ فصل إلى نظائره التى وكلت بها ذِكرى ، ووقفت عليها شُكرى ، وتأمَّلْتُ النظم فملكنى العَجَبُ به ، و بَهَرَنِى التعجُّب منه ، وقد رُمْتُ أن أجْرى على العادة فى تشبيهه بمستَحْسنٍ من زهر جَنِيّ ، وحُلَلٍ وحُلِيّ ، وشذور الفرائد ، فى نحُور الخرائد .

(١) المهارق: جمع مهرق ــ على صفة المفعول ــ وهو الصحيفة البيضاء يكتب فيها .

والعذارى غَدَوْنَ فى الحلل البيـ   ـض وقد رُحْنَ فى الخطوط السُّودِ

فلم أرد لشىء عَدْلا ، ولا أرضى ما عددتهُ له مثلا ؛ والله يزيدك من فضله ولا يُخْليكَ من إحسانه ، ويلهمك مِنْ برِّ إخوانِك ما تتمّم به صنيعَك لديهم ، ويُرَبِّ معه إحسانَك إليهم .

وكتب أبو القاسم إسماعيل بن عباد الصاحب إلى أبى سعيد الشبيبى :

من الصاحب ابن عباد إلى الشبيبى

« قد رأى شيخُ الدولتين كيف الـكَلَفُ بسادَتِى من أهل ميكال ـ أيدهم الله ! ـ بين ودٍّ أُضْمِره على البُعْد ، وإيثارٍ أُظهِره على تراخى المزار ، وتقريظٍ يمليه علىَّ المَلَوان[(١)]، ومَدْحٍ أُنطِقُ فيه بلسان الزَّمَان ، حتى إن ذِكْرَهم إذا جرَى على لسانى اهتزَّتْ له نَفْسِى ، وفَضْلَهم إذا جرى على سَمْعِى انفرج له صَدْرِى ، فتلك عصبةُ خيرٍ فَضْلُهَا باهِر ، وشرفها على شرف النماء زاهِر ، وشجرةٌ طيبة أصلُها ثابت وفَرْعُها فى السماء [ناظر] ، والله يتمِّمُ أعدادها ، ولا يعدمنى وِدَادها . وإذا كان إكبارى لهم هذا الإكبار فكلّ منتسب إلى جنبهم أثيرٌ لدىَّ[(٢)]، كثير فى يدىَّ . وطرأ علىَّ فلان منتسباً إلى جملتهم ، وحبـذا الجملة ، ومُعتزِياً إلى خدمتهم ، ونِعْمَت الخدمة ، ففررناه عن طَبْعٍ سَمْح[(٣)]، ولَفْظٍ عَذْب ، وصلةِ نثرٍ بنظم ؛ فإن شاء قال : أنا الوليد ، وإن شاء قال : أنا عبد الحميد ؛ ولم أعظم ممن خرَّجته تلك النعمة ونتجته تلك السُّدَّة أن يأخذ من كلِّ حسنة بعُرْوة ، ويقدح فى كل نارٍ بجَذْوَة ؛ وآنَسْنا بالمقام مُدة ، أ كّدتها شوافِع عِدَّة ، إلى أن تذكَّر مَعاهدَ رَأى فيها الدَّهرَ طَلْقًا ، والزمان غُلاما ، والفضلَ رهنا ، والإفضال لِزاماً ؛ فحنَّ حنينَ الرِّكاب ، ورَكِبَ عَزِيم الإياب[(٤)].

فصل [من كتاب] كتبه الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى إلى

---

(١) الملوان : الليل والنهار (٢) أثير : عزيز (٣) فررناه : اختبرناه ، والفر فى الأصل : اختبارأسنان الدابة ليعرف مبلغها من القوة (٤) العزيم : الجرى الشديد

أبى القاسم الداوودى جوابا عن كتاب له ورد عليه . وأبو الفضل رئيس نيسابور وأعمالها فى وقتنا هذا[1] ، وسيمرُّ من كلامه ونثره ونظامه ما يغنى عن التنويه ، ويَكْفِى عن التنبيه ، ويجلُّ عن التشبيه ، ويكون كما قال أبو الحسن الأخفش على بن سليمان : [استهدى إبراهيم بن المدبَّر] أبا العباس محمد بن يزيد جليساً يَجْمَعُ إلى تأديب ولده الإمتاعَ بإيناسه ؛ فندَبنى لذلك ، وكتب إليه معى : قد أنفذت إليك ـ أعزّك الله ـ فلانا ، وجملة أمره أنه كما قال الشاعر :

إذا زُرت الملوك فإن حسبى شفيعاً عنـــدهم أن يَخْبُرُونى

من أبى الفضل الميكالى إلى أبى القاسم الداوودى

وفصل أبى الفضل : وقفتُ على ما أتحفنى به الشيخ : من نَظْمِه الرائق البديع ، وخَطِّه المُزْرِى بزهر الربيع ، مُوشَّحاً بغُرَرِ ألفاظه ، التى لو أُعِيرت حِبَيَتُها لعطَّلَت قلائد النحور ، وأبكارِ معانيه التى لو قُسِّمت حَلاَوتها لأعْذَبَتْ مَوَارِدَ البحور ، فسرَّحْتُ طَرْفى منها فى رياضٍ جادتْها سحائبُ العلوم والحِكَم ، وهبَّ عليها نسيمُ الفضل والكرَم ، وابتسمَتْ عنها ثغورُ المعالى والهِمَم ، ولم أدرِ ـ وقد حيَّرتنى أصنافُها ، وبهرتنى ثغورُهـــا وأوصافها ، حتى كسَتْنى اهتزازاً وإعجاباً ، وأنشأت بينى و بين التماسك سِتْراً وحجاباً ، ولم أدرِ[2] أدهَتْنى لها نَشْوَةُ راحٍ ، أم ازْدَهَتْنى نغمة ارتياح ، وانتظم عندى منها عقد ثناء وقَرِيض[3] ، أم قَرَعَ سَمْعِى منه غناء مَعْبَدٍ وغَرِيض ، وكيفما كان فقد حوَى رتبة الإعجاز والإبداع ، وأصبح نُزْهَةَ القلوب والأسماع ، فما من جارِحةٍ إلا وهى تودُّ لو كانت أذنا فتلتقط دُرَرَه وجواهره . أوعينا تجتَلى مطالعَه ومناظرَه ، أولسانا يَدْرُس محاسنَه ومفاخره .

ومنه إلى الثعالبى

ومنه فصل من كتاب إلى أبى منصور عبدالملك بن إسماعيل الثعالبى : «وصل كتابُ مولاى وسيدى . أبْدَعِ الكتب هَوَادىَ وأعجازا[4] ، وأبرعها بلاغةً

---

(١) توفى أبو الفضل الميكالى سنة ٤٣٦ ، وقد توفى مؤلف هذا الكتاب فى سنة ٤٥٣ (م)

(٢) هكذا . وكلمة « ولم أدر » تكرار هنا للتى سبقت (م) (٣) كذا ، ولعل الأصل « عقد نثر وقريض » (م) (٤) الهوادى والأعجاز : البدايات والنهايات

وإعجازاً ، فحسِبْت ألفاظَه دَرَّ السحاب ، أو أصفى قطراً ودِيَمة ، ومعانيه دُرّ السِّخاب[1] ، بل أوفى قَدْرًا وقيمة . وتأملت الأبياتَ فوجدتها فائقةً النَّظْمِ والرَّصْفِ ، عَبِقَة النسيم والعَرْف ، فائزة بِقِدَاح الحُسْن والظَّرْف ، مالكة لِزِمام القَلْبِ والطَّرْف ؛ ولا غَرْوَ أن يصدر مثلها عن ذلك الخاطر ، وهو هَدَف الفِقَر والنوادر ، وصَدَف الدرر والجواهر ، والله يُمتِّعه بما منحه من هذه الغُرَر والأوضاح ، كما أطلق فيه ألسنة الثناء والامتداح .

* * *

أبو منصور الثعالبي

وأبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا [على طريق التخمين لا على حقيقة اليقين] وهو فريدُ دهره ، وقريع عصره ، ونسيجُ وَحْدِه ، وله مصنفات فى العلم والأدب ، تشهدُ له بأعلى الرتب ، وقد فرّقْت مااخترته منها فى هذا الكتاب ، مع ما تعلّق بشاكلته من الخطاب[2] ؛ منها كتاب سماه « سحر البلاغة » قال فى صدر هذا الكتاب : « أخرجتُ بعضه من غُرَر نجوم الأرض ، ونُكَت أعيان الفضل ، من بُلَغاء العصر ، فى النثر ، وحلّيت بعضه من نظم أمراء الشعر ، الذين أوردت مُلَح أشعارهم فى كتابى المترجم بيتيمة الدهر ، فلفقْت جميع ذلك وحرّرته ، وسقته ونسّقته ، وأنفقت عليه مارُزِقته ، وعملته بكدّ الناظر ، وجهد الخاطر ، وتَعَبِ اليمين ، وعرق الجبين ، وتعمَّدْتُ فيه لَذَّةَ الجِدة ، ورَوْنق الحداثة ، وحلاوة الطَّراوة ، ولم أشُبْهُ بشىء من كلام غير أهل العصر ، إلا فى قلائل وقلائد من ألفاظِ الجاحظ وابن المعتز ، تخلّلَت أثناءه ، وتوشّحت تضاعيفه ، ولم أُخْل كلماتِه ــ التى هى وسائط الآداب ، وصياقل الألباب ، وما تستَمْتِعُه أنْفُسُ

---

(١) السخاب : قلادة من القرنفل

(٢) كان الثعالبى فراء يخيط جلود الثعالب ، فنسب إلى صناعته ، ثم أقبل على الأدب والتاريخ فنبغ ، وترك طائفة من المؤلفات القيمة أشهرها يتيمة الدهر ، وكانت وفاته سنة ٤٢٩

الأدباء ، وتلذ أعين الكتاب ـ من لفظ صحيح ، أو معنًى صريح ، أو تجنيس أنيس ، أو تشبيهٍ بلاشبيه ، أو تمثيل بلا مَثِيل ولا عَديل ، أو استعارةٍ مُختَارة ، أو طِباق ، ذى رَوْنق باق ؛ فمن رَافَقَ هذا الكتاب قَرُبَ تناوُله من الكُتّاب ، إذا وشَّوا ديباجةَ كلامهم بمـا يقتبسونه من نُوره ، وسماحة قيادِه لأفراد الشعراء إذا رصَّعوا عقودَ نظامِهم بما يلتقطونه من شذُوره ، فأمَّا المخاطبات والمحاورات ، فإنها تتبرَّج بغرَّة من غُرره ، وتتَتوَّج بدرة من دُرَرِه .

وقد ذكر جملة مَنْ أخرج معظم كتابه من نثرهم ونظمهم ، وهم : الصابيان[1] ، والخالديَّان[2] ، و بديع الزمان ، وأبو نصر بن المَرْزُبَان [وعلى بن عبد العزيز القاضى ، وأبو محمد القاضى ، وأبو القاسم الزعفرانى ، وأبو فراس الحمدانى] ، وابن أبى العلاء الأصبهـانى ، وأبو الطيب المتنبى ، وأبو الفتح البُستى ، وأبو الفضل الميكالى ، وشمس المعالى ، والصاحب بن عباد ، وجماعة يكثر بهم التعداد ، قد ذكرهم فى كتابه ، فكل ما مرَّ أو يمر من ذكر ألفاظ أهل العصر فمن كتابه نَقَلْتُ ، وعليه عوَّلت .

وفى أبى منصور يقول أبو الفتح على بن محمد البُستِى :

قلبى رهينٌ بنيسابورَ عنـد أخ ‏ ‏ ما مثلهُ حين تُستقرَى البلادُ أخُ

له صحائف أخلاق مهذبةٍ ‏ ‏ من الحِجَا والعُلا والظَّرْفِ تُنْتَسَخُ

وأما الذين ذكر أسماءهم فى كتابه فسأُظهر من سرائر شعرهم الرصين ، وأجتنى من جواهر نثرهم الثمين ، ما أخذ من البلاغة باليمين .

---

(١) هما إبراهيم بن هلال المتوفى سنة ٣٨٤ ، وهلال بن المحسن المتوفى سنة ٤٤٨

(٢) هما سعيد بن هاشم المتوفى سنة ٤٠٠ ومحمد بن هاشم المتوفى سنة ٣٨٠ وكان هذان الأخوان يعرفان بالخالديين ، وكانا يشتركان فى نظم الأبيات أو القصيدة وتنسب إليهما معا ، أصلهما من الخالدية — من قرى الموصل — وكانا من خواص سيف الدولة بن حمدان ، ولهما مع أهل عصرهما أخبار كثيرة

من كتب لأبى الفضل الميكالى

فصل لأبى الفضل : وصل كتابُ الشيخ المبشر من خبر سلامته التى هى غُرَّة الزمان البهيم (١) ، وعذر الدهر المليم (٢) ، بما أشرقت له آفاقُ الفَضْلِ والكرم ، وتمّت به نفائسُ الآلاء والنعم ، فسرَّحْتُ طَرْفى من محاسن ألفاظه ، فى أنْوار تَرُوق أزَاهِرُها ، وقلائِدَ تروعُ دُرَرُها وجواهرها، ومَبَارّ يسترقُّ الرِّقابَ باطنُها وظاهرها (٣)

وله إلى أبى سعيد بن خلف الهمدانى :

وصل كتابُكَ متحملا من أخبار سلامتك، وآثارِ نعمِ اللهِ بساحتك ، ما أدَّى روحَ البِرِّ ونسيمه ، وجمع فنونَ الفضل وتقاسيمه ، ومجدِّداً عندى من عمرِ مواصلته، ومعسول كلامه ومحاوَرته ، ماترك غُصن المِقَة غضًّا تروق أوْراقه (٤) ، ووَجْهَ الثِّقة طَلْقاً يتهلّلُ إشراقه ، فكم جنيت عنه من ثمرِ مَسَرة كانت عوائقُ الأيام تحاذِ بنيه ، وحويت به من عِلْق مَضِنَّة قلما يجود الدهر بمثاله لبنيه (٥) .

وله فصل إلى بعض الحكام بجوين (٦) :

وصل كتابُ الحاكم وقد وشَّحه بمحاسن فِقَره ، ونتائجِ فِكَره ، من لفظ شهىٍّ أعطته القلوبُ فَضْلَ المقادَة ، ومعنى سنىٍّ جاده صَوْبُ الإصابة والإجادة ، وبِرٍّ هنىٍّ اتَّفقَتْ على الاعترافِ بفضله ألسنةُ الثناء والشهادة ، فسرَّحْتُ طَرْفى فيما حــواه من بدائع وطُرَف ، قد جمعت فى الحسن والإحسان بين واسطة وطَرَف ، حتى لم تبقَ فى البلاغة يتيمة إلا جبرتها وتممتها .

وله إلى الأمير السيد أبيه يهنئه بالقدوم .

كتبت وأنا بمنزلة من ارتدَّ إليه شبابُه بعد المشيب ، وارتدى برداء مِنَ العمر

---

(١) البهيم : المظلم (٢) المليم : المذنب
(٣) مبار : جمع مبرة (٤) المقة : الحب (٥) العلق : الشىء النفيس
(٦) جوين : كورة كبيرة فى خراسان

قَشِيب[1] ، والحمد لله رب العالمين ، وصل كتابُ مولاى مبشِّرًا من خبر عَوْدِه إلى مقرِّ عزِّه وشَرَفه ، محروسًا فى حفظ اللهِ وكَنَفه ، بما لم تزل الآمال تتنسَّم روائحه ، وتترقَّب غادىَ صُنْع الله فيه ورائحَه ، واثقةً بأنّ عادةَ الله الكريمة عنده تُسايره وتُرافقه ، وتلزم جنابه فلا تُفارِقه ، حتى تخرجَه من غَمْرة الغَماء خروجَ السيف من الغِمْدِ، والبدر بعد السِّرَار[2] إلى الانجلاء ، فعددْتُ يوم وُرودِه عيداً ، أعاد عهد السُّرور جَدِيداً ، وردَّ طَرْفَ الحسود كليلا وقد كان حَدِيدا ، ولم أُشَبِّهْهُ فى إهداء الرَّوح والشفاء ، وتلافى الرُّوح بعد أَنْ أشْفَى على المكروه كل الإشفاء[3] إلاّ بقميص يوسف حين تلقّاه يعقوبُ عليه السلام من البشير ، وألقاه على وجهه فنظر بعَيْنِ البصير ، فكم أوسعتُه لَثْماً واستلاما ، والتقطت منه بَرْداً وسلاما ، حتى لم تبق غُلَّة فى الصدر إلا بَرَّدْتها ، ولا غمّة فى النفس إلا طَرَدْتها ، ولا شريعة من الأنس إلا ورَدْتها .

وله فصل من رسالة :

وكان فرطُ التعجب مَرَّة وعِظَمُ الإعجاب تارة يقفُ بى عند أول فصل من فصوله ، ويثبطنى عن استيفاء غُرَره وحُجُوله ، ويُوهمنى أنّ المحاسنَ ماحَوتْهُ قلائده ، و نَظَمته فرائدُه ؛ فليس فى قوس إحسان وراءها مِنْزَع[4] ، ولا لاقتراح جَنَان فوقها مُتَطَلَّع ، حتى إذا جاوزته إلى نفقه وتَزْيِينه ، وأجَلْتُ فكرى فى نُكته وعُيونه ، رأيتُ ما يُحَيِّر الطَّرْف ، ويُعْجِز الوَصْفَ ، ويَعْلو على الأول مَحَلاًّ ومكاناً ، ويفوقه حسناً وإحساناً ، فرتَعْتُ كيف شئتُ فى رِياضه وحدائقه ، واقتبست نُورَ الحِكَم من مطالعه ومَشارقه ، وسلّمت لمعانيه وألفاظه فضيلةَ السَّبق

---

(١) قشيب: جديد (٢) السرار ـ بكسر السين ـ آخر ليلة من الشهر ، ولا يظهر فيها القمر (م) (٣) أشفى على المكروه : أشرف عليه (٤) منزع ـ على وزن منبر ـ السير الذى ينتزع به ، ويقولون : لم يبق فى قوس الصبر منزع ، يريدون أن الصبر نفدت أسبابه .

والبَرَاعَةِ ، وتلقَّيتها بواجبها من النَّشْرِ والإذاعة ؛ فإنها جمعت إلى حُسْنِ الإيجاز درجةَ الإعجاز ، وإلى فضيلة الإبداع جلالةَ الموقع فى القلوب والأسماع .

وله من فصل :

وصل كتابُ الشيخ فَنَشَر عندى من حُلل إفضاله وإكرامه ، ومحاسن خطابه وكلامه ، مالم أشبِّهه إلا بأنْوَار النُّجُود[١] ، وحِبَرِ البرود ، وقلائد العُقود .

أبو منصور الثعالبي يصف أبا الفضل الميكالى

وذكر أبو منصور الثعالبي الأمير أبا الفضل فى كتاب أَلَّفَهُ ، فقال فى بعض فصوله : مَنْ أراد أن يسمعَ سِرَّ النظم ، وسِحْرَ الشعر ، ورُقْيَةَ الدهر ، ويرى صَوْبَ العَقْل ، وذَوْبَ الظَّرْف ، ونتيجة الفَضْل ؛ فليستنشد ما أسْفر عنه طبعُ مَجْدِهِ ، وأثْمَرَه عالى فكره : من مُلَحٍ تمتزجُ بالنفوس لنفاستها ، وتشْرَب بالقلوب لسلاستها :

قوافٍ إذا ما رَوَاها المشو ... ق هزَّت لها الغانياتُ القُدُودا

كسَوْنَ عَبيداً ثيابَ العَبِيد ... وأضحى لَبيد لديها بَليدا

وايمُ الله ما مرَّ يومٌ أسعفنى فيه الزمانُ بمواجهة وَجْهه ، وأسْعَدَنى بالاقتباس من نُوره والاغتراف من بَحْرِه ، فشاهدت ثِمَارَ المجدِ والسؤدد تَنْتَثِرُ من شمائله ، ورأيت فضائلَ الدَّهرِ عيالاً على فضائله ، وقرأتُ نسخة الفَضْلِ والكرم من ألحَاظِه ، وانتَهَبْتُ فضائل الفوائد من ألفاظه ، إلاَّ تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرُّومى :

لولا عجائبُ صُنْعِ اللهِ ما ثبتت ... تلك الفضائلُ فى لَحْمٍ ولا عَصَبِ

وقول الطائى :

فلو صوَّرْتَ نفسَك لم تَزِدْهَا ... على ما فيك من كَرَمِ الطِّبَاعِ

---

(١) النجود : جمع نجد ، وهو ما ارتفع من الأرض ، وفيه ينبع الزهر .

وقول كُشاجم :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى   عَيْبٍ يُوَقِّيه من العَيْنِ

وربّمت بقول أبي الطيب :

فإنْ تفُقِ الأنَامَ وأَنْتَ مِنْهُمْ   فإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

ثم استعرت فيه بيانَ أبي إسحاق الصابي حيث يقول للصاحب « وَرَّثَهُ الله أعمارها ، كما بلّغه فى البلاغة أنوارها »

اللهُ حسبي فيك من كل ما   تعوَّد العبـــد على المولى

فلا تزل تَرْفُل فى نعمةٍ   أَنْتَ بها من غَيْرِكَ الأَوْلَى

عود إلى ذكر فصول من كلام الميكالى

وقال فى فصل منه : وما أنسَ لا أنسَ أيامى عنده بفيروزاباد إحدى قُرَاه برستاق جُوين ، سقاها الله ما يحكى أخلاقَ صاحبها من سَيْل القَطْر ، فإنها كانت ـ بطلْعَتِه البَدْرية ، وعِشْرَته العِطْرِيّة ، وآدابه العلوية ، وألفاظه اللؤلؤية مع جلائل نعَمِه المذكورة ، ودقائق كرمه المشكورة ، وفوائد مجالسه المعمورة ، ومحاسنِ أقواله وأفعاله التى يعْيا بها الواصفون ـ أنموذجات من الجنة ، التى وُعِد المتقون ، وإذا تذكرتها فى المَرابع التى هى مرَاتِع النواظر ، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر ، والبساتين التى إذا أخذَتْ بدائعَ زخارفها ، ونشرت طرائفَ مطارفها ، طوِى لها الديباج الخُسْرَوَانى ، وبَقِى معها الوَشْى الصنعانى ، فلم تُشَبّه إلا بشِيَمِهِ ، وآثار قدمه ، وأزهار كلمه ، تذكرت سِحرا وسِيما ، وخيراً عميما ، وارتياحاً مُقيما ، وروحا وريحانا ونعيما

وكثيراً ما أحْكِى للاخوان أنى استغرقتُ أربعة أشهر بحضرته ، وتوفَّرت على خِدْمته ، ولازَمْتُ فى أكثر أوقاتى عَالِي مَجْلسه ، وتعطَّرت [عند ركوبه] بغبار مَوْكِبه ؛ فبالله يميناً كنتُ غنيّا عنها لو خفت حِنْثاً فيها إنى ما أنكرت طَرَفا من أخلاقه ؛ ولم أشاهد إلا مَجْدًا وشرفاً منْ أحواله . وما رأيته اغتابَ

غائباً ، أو سبّ حاضِرًا ، أو حَرَم سائلا ، أو خَيَّب آملا ، أو أطاع سلطانَ الغَضَبِ فى الحضَر ، أو تَسَلَّى بنار الضَّجَر فى السَّفر ، أو بطش بَطْشَ المتجبِّر؛ ولا وجدت المآثرَ إلا ما يتعاطاه ، والمآثمَ إلا ما يتخطّاه .

وقال فى فصل منه يصفه : وأما فنونُ الأدب فهو ابن بَجْدتها(١) ، وأخو جملتها ، وأبو عُذْرتها(٢) ، ومالِك أزِمَّتها،وكأنما يُوحَى إليه فى الاستئثار بمحاسنها ، والتفرُّد ببدائعها ، ولله هو إذا غرس الدُّرَّ فى [أرض] القراطيس ، وطَرَّزَ بالظلام رِدَاء النهار ، وألقت بِحَارُ خواطره جواهِرَ البلاغة على أنامله ، فهنالك الحُسْنُ برُمَّته ، والحُسْن بكلِّيته .

المطوعى يذكر أنواع الشعراء ثم يذكر الميكالى

وذكر عمر بن على المطوعى فى كتابٍ ألّفه فى(٣) شعر أبى الفضل ومنثوره والشعراء ، فقال : رأيتُ أهل هذه الصناعة قد تشعبوا على طُرُق ، وانقسموا على ثلاث فرق، فمنهم من اكتسى كلامه شرف الاكتساب دون شرف الانتساب كالمكتسبين من الشعراء بالمدائح ، المترشحين بها لأَخْذِ الجوائز والمنائح ، وهم الأكثرون من أهل هذه الصناعة ؛ ومنهم من شَرُفَت بناتُ فكره عند أهل العقول ، وجلبت لديهم فضائل القَبُول ، لِشَرَف قائلها ، لا لِكَثْرَة عقائلها ، وكرم واشيها ، لا لرِقَّة حواشيها ، كالعدد الكثير ، والجم الغفير ، من الخلفاء والأمراء والجِلّة والوزراء ؛ ومنهم من أخذ بحبل الجَوْدَة من طَرَفَيْه ، وجمع رداء الحُسْن من حاشِيَتَيْهِ ، كامرىء القيس ابن حُجْر الكندى فى المتقدمين ، وهو أميرُ الشعراء غير مُنازِع ، وسيدهم غير مجاذَب ولا مدافع ، وعبد الله بن المعتز بالله أمير المؤمنين فى المولدين ، وهو أشعر أبناء الخلافة الهاشمية، وأبرعُ أنشاء الدولة العباسية ، ومَنْ

---

(١) ابن بجدتها : هو الخبير بها ، وتقول : فلان عالم ببجدة أمرك ، أى بحقيقته

(٢) أبوعذرتها . العذرة : البكارة ، وأبوعذرها : أول من افتضها ، كناية عن التفوق فى أمر من الأمور

(٣) لعل كلة « فى » هذه مقحمة (م)

جلَّ كلامه فى التشبيه ، عن أن يُمثَّل بنظير أوشبيه، وعلَت أشعاره فى الأوصاف. عن أن تتعاطاها ألسنةُ الوُصَّاف ؛ والأمير أبى فراس بن حَمْدان فارس البلاغة . ورجل الفصاحة ، ومن حكمت له شعراء العصر قاطبةً بالسيادة ، واعترفت لكلامه بالإحسان والإجادة ، حتى قال أبو القاسم إسماعيل بن عباد الصاحب : بُدِىء الشعرُ بملك وخُتِم بملك ، يعنى امرأ القيس وأبا فراس ؛ وهذه الطائفة أشهر الثلاثة تقدّماً ، وأثبتها فى مواطن الفَخْر ومواطىء الشرف قدَما ، وأسبق الشعراء فى مَيْدَان البلاغة ، وأرجَحهُم فى ميدان البَرَاعة ؛ فإنَّ الكلامَ الصادرَ عن الأعيان والصدور ، أقرُّ للعيون وأشفى للصدور ، فشرف القلائد بمن قلّدها ، كما أن شرف العقائل بمن وَلَّدَها :

وخَيْرُ الشِّعْرِ أكْرَمُه رِجَالاً وشَرُّ الشِّعْرِ ما قَالَ العَبِيدُ

وإذا اتفق مَنِ اجتمعت فيه هذه الشرائط، وانتظمت عنده هاتيك المحاسن. كان خليقاً بأن تُخلّد فى صحائف القلوبِ أشعارُه ، وتُدوَّن فى ضمائر النفوس آثارُه ، وتكتَب على الأحداق والعيون أخبارُه ، وجديراً بأن يختصَّ بسرعة المجال فى المجالس ، وخِفّة المدار فى المدارس ، كالأمير الجليل السيد مولانا :

أبى الفضل مَنْ نالَ السماءَ بفضلهِ ومن وعدَتْهُ نفسُهُ بمزيدِ

تودُّ عقودُ الدرّ لو كنَّ لفظَهُ فينظمها من تَوْأَمٍ وفريدِ

وهذه مقطعات لأهل العصر فى وصف البلاغة

لأبى الفتح البستى

قال أبو الفتح البُسْتى :

مدحْتُك فالتامت قَلائدُ لم يَفزْ بأمثالها الصِّيدُ الكِرَامُ الأعاظمُ

لأنك بحــرٌ والمعانِى لآلِئٌ وفكرِىَ غوّاصٌ وشعرِىَ ناظمُ

وقال أيضاً :

ما إن سمعت بنوّارٍ له ثمــرٌ فى الوقت يُمتع سَمْعَ المرء والبَصَرا

حتى أتانى كتابٌ منك مبتسمٌ　　عن كل لفظٍ ومعنًى يشبه الدُّرَرَا
فكان لفظك فى لألائه زهراً　　وكان معناه فى أثنائه ثمــــرا
تسابقا فأصابا القَصْدَ فى طَلَقٍ　　للهِ من ثمرٍ قد سابقَ الزَّهَرَا

وقال أيضاً :

لمَّا أتانى كتاب منك مبتسمٌ　　عن كلِّ برٍّ ولفظ غيرِ محدودِ (١)
حكَتْ معانيــه فى أثناء أسْطُرِهِ　　آثارَكَ البيضَ فى أحوالىَ السُّود

كأنه ألمَّ بقول الطائى :

يرى أقبحَ الأشياء أوْبَةَ آملٍ　　كَسَتْها يدُ المأمولِ حُلَّةَ خائبِ
وأحسن من نَوْرٍ تُفتِّحهُ الصَّبا　　بياضُ العَطايا فى سَوادِ المَطالبِ

وقال أبو الفتح البستى فى أبى نصر أحمد بن على الميكالى :

جمع الله فى الأمــــير أبى نصـــــرٍ خصالاً تعلو بها الأقـــدارُ
راحةً برَّةً وصـــــدراً فضاءً　　وذكاءً تبــــدو له الأسرار (٢)
خطُّهُ روضـــةٌ ، وألفاظُه الأز　　هارُ يَضْحكن ، والمعانى ثمارُ

للمطوعى
يمدح الميكالى

وقال عمر بن على المطوعى يَمْدَحُ أبا الفضل الميكالى من قصيدة :

وإلى الأمير ابن الأمــير المعتلى　　بكمال سُـــؤدده على الأمراء
وطئت بىَ الوَجْناءُ وَجْنَةَ مَهْمَهٍ　　متقاذفِ الأكنافِ والأرجاء (٣)
كيما ألاحظَ منه فى أفق العُلاَ　　فلَكاً يُدير كواكبَ العَلْياء
كالبَدْرِ غير دَوَامه مُتَكَامِلاً　　كالبَحْر غــير عذوبةٍ وصفاء
بالفضلِ يُكنَى وهو فيــه كامنٌ　　كالرِّى يَكْمن فى زُلال الماء
يا من إذا خَطَّ الكتابَ يمينهُ　　أهْدَى إلينا الوشْىَ من صَنْعاء

---

(١) فى نسخة «عن كل برو فضل» (م) (٢) فى نسخة «راحة ثرة» والراحة : اليد ، والثرة : التى تفيض بالعطاء (م) (٣) الوجناء : الناقة الصلبة ، من الوجين ، وهى الأرض الغليظة ، والمهمه : الوادى المقفر ، ومتقاذف الأكناف : متباعد الأطراف

لم تجر كفك فى البياض موقعا ... إلا تحلت عن يد بيضاء
قرم بداه وقلبه ما منهما ... فى النظم والإعطاء إلا الطائى (١)

وقال فيه أيضا :

كلام الأمير الندب فى ثنى نظمه ... يجوب عن الماء الزلال لمن تظما (٢)
ويروى متى نروى بدائع نظمه ... ونظما إذا لم نرو يوما له نظما

وكتب إليه أيضا :

أقول وقد جادت جفونى بأدمع ... كأنى قد استمليتهن من السحب
وقد علقت بى للنزاع نوازع ... كتبن معاناة العناء على قلبى
إلى سيد أوفى على الشمس قدره ... وزادت معاليه سناء على الشهب
أبى الفضل من راحت فواضل كفه ... وراحته تربى على عدد الترب (٣)
سقى الله أرضا حل فيها سحائب ... كنائله الفياض أو لفظه العذب
سحائب يحدوها نسيم كخلقه ... ويقدمها برق كصارمه العضب (٤)
ولا زال أفلاك السعود مطيفة ... بحضرته تنتابها وهو كالقطب

وقال أبو منصور الثعالبى للأمير أبى الفضل :

الثعالبى يمدح الميكالى

لك فى الفضائل معجزات جمة ... أبدا لغيرك فى الورى لم تجمع
بحران بحر فى البلاغة شابه ... شعر الوليد وحسن لفظ الأصمعى (٥)
كالنور أو كالسحر أو كالدر أو ... كالوشى فى برد عليه موشع (٦)
شكرا فكم من فقرة لك كالغنى ... وافى الكريم بعيد فقر مدقع (٧)

(١) القرم : السيد . والطائى فى الكرم هو حاتم الطائى . وفى النظم أبو تمام
(٢) الندب : الشهم ـ وهو أيضا الخفيف فى الحاجة . والنجيب (م)
(٣) تربى : تزيد (٤) الصارم العضب : السيف القاطع (٥) الوليد: هو البحترى
(٦) موشع : ذى رقوم وطرائق (٧) فقر مدقع : شديد . لصق صاحبه بالدقعاء وهى التراب .

وإذا تفتّق نَوْرُ شعرِك ناضراً   فالحسنُ بين مُرَصَّعٍ ومُصَرَّعِ
أرْجلتَ فرسانَ الكلامِ ورُضْتَ أفـراسَ البديع وأنت أمْجَد مُبدِع
ونقشت فى فصّ الزمان بدائعاً   تُزْرِى بآثارِ الربيع المُمْرِعِ(١)

وللثعالبى فى وصف فرس

وقال فى وصف فرس أهداه إليه ممدوحه :

يامُهْدِىَ الطِّرْف الجوادِ كأنَّما   قد أنعلوه بالرياح الأربع(٢)
لاشىء أسرعُ منه إلاّ خاطرى   فى شكرِ نائلك اللطيفِ المَوْقعِ
ولوَ اَنَّنى أنصفتُ فى إكرامهِ   لجلالِ مُهْدِيه الكريمِ الأرْوَعِ(٣)
أنظمته حَبَّ القلوب لِحُبِّـهِ   وجعلت مربطه سَوادَ المَدْمَعِ
وخلعت ثم قطعت غير مضيّقٍ   بُرْدَ الشبابِ لجُلِّه والبُرْقُعِ

للثعالبى جوابا على الميكالى

وكتب إليه فى جواب كتاب ورد عليه :

أنسيمُ الرياض حَوْلَ الغدير   مازَجَتْه رَيّا الحبيب الأثيرِ(٤)
أم وُرُود البشير بالنَّجح من فـكّ أسيرٍ أو يُسْر أمرٍ عسيرِ
فى مُلاء من الشباب جديدٍ   تحت أيكٍ من التَّصابى نضيرِ(٥)
أم كتاب الأمير سيدنا الفرْ   دِ : فياحبذا كتابُ الأميرِ
وثمار الصـدور ما أجتنيه   من سطورٍ فيها شفاء الصدورِ
نمقتْهُ أناملٌ تفتقُ الأنـوارَ والزهرَ فى رياض السطورِ
كلما قد جُمِعنَ فى النعم الغـرّ مع الأمن من صروفِ الدهورِ
يا أبا الفضـل وابنَه وأخاهُ   جئنَ بَدرِيك من لطيف خبيرِ
شِيَمٌ يرتضعنَ دَرَّ المعالى   ويعتزْنَ عن نسيمِ العبيرِ

---

(١) الممرع : المملوء بالكلأ والعشب (٢) الطرف : الحصان
(٣) الأروع : الذكى أروع . بضم الراء . وهو الفؤاد
(٤) الأثير : العزيز (٥) الأيك : الشجر الملتف

وسَجَايَا كأنهنّ لدى النشـــرِ رُضابُ الحَيا بأرْيٍ مَشُورِ [1]
ومُحيا لدى المـلوك محيّا صادق البشر مُخْجِلٍ للبدورِ

جواب الميكالى على أبيات الثعالبى

فأجابه أبو الفضل بأبياتٍ يقول فيها فى صفة أبياته :

وهَدِيٍّ زُفّتْ إلى السَّمْع بِكْرٍ تتهادى فى حِلْيَةٍ وشـذورِ [2]
عجب الناس أنْ بدتْ مِنْ سَوادٍ فى بياضٍ كالمِسْكِ فى الكافورِ
نُظِمت فى بلاغةٍ ومعانٍ مثـل نظم العقود فوقَ النحورِ
كم تذكّرت عندها من عُهُودٍ للتلاقى فى ظـلِّ عَيْشٍ نضيرِ
فذممْتُ الزمانَ إذْ ضنَّ عنا باجتماعٍ يَضُمّ شملَ السرورِ
ولئن راعنَا الزمانُ ببَيْنٍ ألْبَس الأُنْس ذِلّة المهجورِ
فعسى اللهُ أنْ يُعيــدَ اجتماعاً فى أمانٍ من حادثاتِ الدهورِ
إنه قادرٌ على ردِّ ما فا تَ وتَيْسير كلِّ أمرٍ عَسِـيرِ

للصابى يمدح الوزير المهلبى

وقال أبو إسحاقَ إبراهيمُ بن هلالٍ الصابى فى الوزير المهلّبى :

قل للوزير أبى محمــدٍ الّذى قد أعجزت كلَّ الورَى أوصافهُ
لك فى المجالس مَنْطِقٌ يَشْفِى الجَوَى ويَسُوغ فى أُذُنِ الأديب سُلافهُ [3]
وكأنَّ لفظَك جَوْهرٌ متنخَّلٌ وكأنّمـا آذاننا أصـدافهُ [4]

* * *

ترجمة الوزير المهلبى

والمهلبى هذا هو أبو محمد الحسن بن هارون بن إبراهيم بن عبد الله بن يزيد ابن حاتم بن قَبيصة بن المهلَّب ، وَزَرَ لأحمد بن بُوَيْه الدَّيلمى، وكانت وزارته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة، وكان أبو محمد من سَرَوات الناس وأدبائهم وأجوادهم وأعِفّائهم: وفيه يقول أبو إسحاق الصابى :

(١) الأرى : العسل ، والمشور : المصفى، تقول : شار العسل واشتاره ، إذا صفاه من الأقراص (٢) الهدى — على وزن غنى — هى العروس ، والشذور: قطع الذهب — واحدها شذرة (م) (٣) السلاف — بضم السين — فى الأصل : الخمر (م)
(٤) متنخل — بالخاء المعجمة — مختار

نِعَم اللهِ كالوحوش فما تأ … لَفُ إلا الأخايرَ النُّسَّاكا
نفرتْها آثامُ قوم وصيّر … ن لها البرّ والتُّقَى أشراكا

وكان قبلَ اتِّصاله بالسلطان سائحاً فى البلادِ ، على طريق الفقرِ والتصوّف، قال أبو على الصوفى : كنت معه فى بعض أوقاته ، أُماشِيه فى إحدى طرقاته . فضجِر لضيقِ الحال، فقال :

ألا موتٌ يُبَاعُ فأشتريهِ … فهذا العيشُ مالا خيْرَ فيهِ
ألا رَحِمَ المهيمن نفس حرٍّ … تصدّقَ بالوفاةِ على أخيهِ

ثم تصرّف بما يُرْضِيه الدهر ، و بلغ المهلبى مَبْلغه . قال أبوعلى : دخلت البصرة فاجتزت بسُرَّ مَنْ رأى ، و إذا أنا بناشطيات وحراقات وَزَيارب وطَيّارات فى عُدّةٍ وعُدَد ، فسألتُ : لِمَنْ هذا ؟ فقيل : للوزير المهلبى ، ونعتوا لِى صاحبى ؛ فوصلتُ إليه حتى رأيته ، فكتبتُ إليه رقعة ، وتوصّلت حتى دخلتُ فسلّمت ، وجلستُ حتى خلا مجلسه ، فدفعتُ إليه الرقعةَ وفيها :

ألَا قُلْ للوزير بلا احْتِشام … مقال مُذَكِّرٍ ما قد نَسيهِ
أتذكر إذ تقولُ لضيقِ عيشٍ … « ألا مَوْتٌ يُبَاعُ فأشْتَرِيهِ »

فنظر إلىَّ وقال : نعم ، ثم نهض وأَنْهضنى معه إلى مجلس الأُنس ، وجعل يذَاكِرنى ما مَضَى ، ويَذْكُرُ لى كيف ترقّت حاله ، وقدّم الطعام فطَعِمْنا ، وأقبل ثلاثةٌ من الغلمان على رأسِ أحدِهم ثَلَاثُ بِدَر[1] ، ومع الآخر تخوتٌ وثياب ، ومع الآخر طِيبٌ وبخور ، وأقبلَتْ بَغْلَة رائعة بسَرْج ثقيل ؛ فقال : يا أبا على ؛ تفضّلْ بقبول هذا ، ولا تتخلّف عن حاجة تَعْرِضُ لك ، فشكرته وانصرفت ، فلما همتُ بالخروج من الباب استردّنى وأنشدنى بديها :

رَقَّ الزمانُ لفاقتى … ورَثَى لطول تحرّقى

---

(١) البدر : جمع بدرة . وهى كيس الدنانير

وأنالنى ما أرتجى وأجارَ ممَّا أتَّقى
فلأغفرنَّ له الكثيرَ من الذنوب الشُّبَّق
إلاَّ جنايتَه التى فعلَ المشيب بمَفرِقِ[1]

***

منزلة العقل وطريق رياضته

قال بعضُ العلماء : العقول لها صُوَرٌ مثلُ صورِ الأجسام ، فإذا أنتَ لم تسلكْ بها سبيلَ الأدب حارَتْ وضلَّت ، وإن بعثتَها فى أوْدِيتها كلّت وملّت ، فاسْلُكْ بعقلك شِعَاب المعانى[2] والفهم ، واسْتَبْقِهِ بالجِمَام للعلم[3] ، وارْتَدْ لعقلك أفضلَ طبقاتِ الأدب ، وتَوَقَّ عليه آفةَ العَطَب ؛ فإنَّ العقــلَ شاهدُك على الفَضْل ، وحارسُك من الجهل .

واعــلَمْ أنَّ مغارِسَ العقول كمغارس الأشجار ؛ فإذا طابت بِقَاعُ الأرض للشجر زكا ثمرُها ، وإذا كَرُمَت النفوسُ للعقول طاب خَيْرُها ، فاغْمُرْ نفسَك بالكرم، تَسْلَمْ من الآفةِ والسَّقَم .

واعلَمْ أنَّ العقلَ [الحسن] فى النفسِ اللئيمة ، بمنزلة الشجرة الكريمة فى الأرض الذميمة ، ينتفع بثمرها عَلَى خُبْثِ المَغْرِس ؛ فاجْتَنِ ثمرَ العقول وإن أتاك من لِئَامِ الأنفس . [وقال النبى عليه السلام : « ربَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أوعى له » . وقيل : رب حامل فقه غير فقيه ، ورب رمية من غير رام] .

الحكمة وواجب العاقل إزاءها

وقيل : الحِكْمَةُ ضالَّةُ المؤمن ، أينما وجدها أخذها . وسمع الشَّعبىُّ الحجاج ابن يوسف وهو على المنبر يقول : أمّابعد ، فإنّ الله كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناءَ لما كُتِب عليه البقاء ، ولا بَقاء لما كُتِبَ عليه الفناء ، فلايغرّنكم شاهد الدنيا عن غائبِ الآخرة ، وأقصِرُوا من الأمل ، لقِصَرِ الأجل .

---

(١) وكانت وفاة الوزير المهلبى سنة ٣٥٢ (٢) الشعاب: جمع شعب ـ بكسر الشين ـ وهو الطريق فى الجبل (٣) الجمام ـ بكسر الجيم ـ الراحة .

فقال : كلامُ حكمةٍ خَرَجَ من قلبٍ خَرابٍ ! وأخرج ألواحَه فكتب وقد روى ذلك عن سفيان الثورى .

وقد سُمع إبراهيم بن هشام وهو يخْطُب على المنبر و يقول : إن يوماً أشاب الصغير ، وأسْكَر الكبير ، ليومٌ شَرُّه مُسْتَطِير !

وصف الكتب

وصف الكتاب للجاحظ

قال الجاحظ : الكتاب وعاءٌ مُلِئَ عِلْمًا ، وظرْفٌ حُشِي ظَرْفا ، و بُسْتَان يُحْمَلُ فى رُدْن[1] ، وروْضة تقلَّب فى حِجر ، ينطق عن الموتى ، ويُترْجِمُ كلامَ الأحياء .

وقال : من صنَّف كتابًا فقد استهدف[2] ؛ فإن أحسن فقد استعطف ، و إن أساء فقد استقذف[3] .

وقال : لا أعلم جاراً أبرّ ، ولا خليطًا أنْصَف ، ولا رفيقًا أطوع ، ولا مُعَلِّما أخضع ، ولا صاحبا أظهر كفاية ، وأقلّ جناية ، ولا أقلّ إملالا و إبراما ، ولا أقلّ خلافًا و إجراما ، ولا أقلّ غِيبة ، ولا أبعد من عضيهة[4] ولا أ كثر أعجوبة وتصرّفًا ، ولا أقل صَلَفًا وتكلُّفًا ، ولا أبعد من مِرَاء ، ولا أترك لِشغب ، ولا أزهد فى جِدال ، ولا أ كفّ عن قتال ، مِنْ كتاب . ولا أعلم قريناً أحْسَن مُواتاة ، ولا أعجل مكافأة ، ولا أحضر معُونة ، ولا أقلّ مَئُونة ، ولا شجرة أطولَ عمراً ، ولا أجمع أمرا ، ولا أطيب ثمرة ، ولا أقْرب مُجْتَنّى ، ولا أسرع إدرا كافى كل أوانٍ ، ولا أوجد فى غير إبّان ، مِنْ كتاب . ولا أعلم نتاجًا فى حداثة سنّه ، وقربِ ميلاده ، ورخَصِ ثمنه ، و إمكان وجوده ، يجمع من التدابير الحسنة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمودِ الأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المُتَراخِية ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ما يَجْمع الكتاب .

---

(١) الردن : الكم (٢) استهدف : صير نفسه هدفا لسهام النقد

(٣) استقذف : عرض نفسه للقذف (٤) العضيهة : الإفك و عمد الكذب

المأمون يصف كتاب لأبيه الرشيد

ودخل الرشيد على المأمون وهو يَنْظر فى كتاب ، فقال : ما هذا ؟ فقال : كتاب يَشْحَذ الفِكْرَة ، ويحسن العِشرة . فقال : الحمدُ لله الذى رزقنى مَنْ يرى بعَيْن قلبه أكثرَ مما يرى بعين جسمه .

بعض العلماء فى سروره بالكتب

وقيل لبعض العلماء : ما بَلغَ من سرورك بأدبك وكُتُبك ؟ فقال : هى إن خَلَوْت لذّتى ، وإن اهتممتُ سَلْوَتى ، وإن قلتَ : إنّ زَهْرَ البستان ، ونَوْر الجِنان ، يَجْلُوان الأبصار ، ويُمْتِعَان بحسنهما الألحاظ ؛ فإن بستانَ الكتب يَجْلُو العقل ، ويَشْحَذُ الذِّهْن ، ويُحْيِي القلب ، ويقوِّى القريحة ، ويُعِين الطبيعة . ويَبْعَثُ نتائجَ العقول ، ويستثير دفائنَ القلوب ، ويُمتِعُ فى الخَلْوَةِ ، ويُؤْنِسُ فى الوَحْشَة ، ويُضْحِكُ بنوادره ، ويَسُرُّ بغرائبه ، ويفيد ولا يَستفيد ، ويُعطى ولا يأخذ ، وتَصِلُ لذّته إلى القلب ، من غير سآمة تَدْرِكُك ، ولا مشقةٍ تَعرِض لك .

لأبى الطيب المتنبى

وقال أبو الطيب المتنبى :

وللسِّرِّ منّى مَوْضِعٌ لا يَنالُهُ	نديمٌ، ولا يُفْضِى إليه شَرابُ
ولِلْخَوْدِ منى ساعةٌ ، ثم بَيْنَنَا	فَلاةٌ إلى غَيْرِ اللقاء تُجَابُ[(١)]
وما العِشْقُ إلاّ غِرّةٌ وطَماعةٌ	يُعرِّضُ قَلْبٌ نفسَه فيُصَابُ
وغَيْرُ فؤادِى لِلْغَوانِى رَمِيَّةٌ	وغَيْرُ بَنانِى للرِّخَاخِ رِكَابُ[(٢)]
تَرَكْنَا لِأطرافِ القَنَا كلَّ لَذَّةٍ	فليس لنا إلاّ بهنّ لِعابُ[(٣)]
نصرِّفُه للطَّعْنِ فَوْقَ سَوَابحٍ	قد انقَصَفَتْ فيهنّ مِنْهُ كِعَابُ[(٤)]
أعزُّ مكانٍ فى الدُّنَا سَرْجُ سابحٍ	وخَيْرُ جَليسٍ فى الزّمانِ كِتَابُ

---

(١) الخود : الفتاة الجميلة . وتجاب: تقطع (٢) رمية : فريسة ، والرخاخ : جمع رخ . وهو من أدوات الشطرنج (٣) اللعاب : هو الملاعبة (٤) السوابح . الخيول . والكعب : أطراف القنا

فِقَر في الكتب

إنفاق الفضة على كُتب الآداب ، يُخلفك عليه ذَهَبَ الألباب . إنّ هذه الآداب شَوَارد ، فاجعلوا الكتبَ لها أزِمّة . كتاب الرجل عُنوان عقله ، ولسانُ فضله .

ابن المعتز : مَن قرأ سَطْراً من كتاب قد خطّ عليه فقد خان كاتبَه ؛ لأن الخط يُحْرِز ما تحته .

بزرجمهر : الكتبُ أصْدَاف الحِكم ، تنشقّ عن جواهر الكلم

بعض الكتاب : إعجام الخطّ يمنع من استعجامه ، وشكله يؤمن من إشكاله .

كأن هذا الكاتب نَحَا إلى قول أبي تمام :

ترى الحادثَ المستعجم الخطب معجَماً لديهِ ، ومشكولاً إذا كان مُشكِلا

ما كُتب قرّ ، وما حُفِظ فرّ . الخطوط المعجَمة ، كالبرود المعلَمة .

وقال ابن المعتز يصف كتاباً :

وذى نكَت موشّى نمّقتْـهُ وحاكتْه الأناملُ أىّ حَوْكِ

بشكل يَرْفع الإشكالَ عنهُ كأنّ سطورَه أغصانُ شَوْكِ

جملة من ألفاظ أهل العصر

في صفةِ الكتب وتهاديها ، وما يتعلق بأسمائها ومعانيها

حضرة مولاى تَجلُّ عن أنْ يُهْدَى إليها غيرُ الكتب ، التى لا يترفّع عنها كبير ، ولا يَمْتنعُ منها خطير ، وقد فكّرت فيما أنفذت به مقيما للرّسْم في جملة الخدَم ، وحافظاً للاسم في غمار الحَشم ، فلم أجِدْ إلا الرّقّ الذى سبق ملْكه له ، والمال الذى مَنَحه وخوّله ، فعدَلْتُ إلى الأدَبِ الذى تَنْفُقُ سوقُه بباب سيدنا ولا تكْسد . وتهبّ ريحُه بجانبه ولا تَرْكُد . وأنفذت كتابي هذا راجياً أن أُشرّفَ بقبوله ، ويوقّع إلىّ بحصوله ؛ ولَمَّا وجب على ذوى الاختصاص لسيدنا إهداء ما جرت العادةُ بتسابق الأولياء إلى الاجتهاد في إهدائه[1] ، وجب العدولُ في إقامة رسم الخدمة إلى اتباع

---

(١) في نسخة «بتسابق الأولياء إلى الاحتشاد في إهدائه» (م)

ما صدر عنه من الرخصة فيما تسهل كلفته، وتجل عند ذوى الألباب قيمته، وتحلو ثمرته: وهو علم يقتنى، وأدب يجتنى.

لابن طباطبا

قال أبو الحسن بن طباطبا العلوى:

لا تنكرن إهداءنا لك منطقا ... منك استفدنا حسنه ونظامه

فالله عز وجل يشكر فعل من ... يتلو عليه وحيه وكلامه

لأحمد بن يوسف

وأهدى أحمد بن يوسف[1] إلى المأمون فى يوم مهرجان هدية قيمتها ألف ألف درهم، وكتب:

على العبد حق فهو لا بد فاعله ... وإن عظم المولى وجلت فضائله

ألم ترنا نهدى إلى الله ماله ... وإن كان عنه ذا غنى وهو قابله

لأبى الفتح البستى

وقال أبو الفتح البستى:

لا تنكرن إذا أهديت نحوك من ... علومك الغر أو آدابك النتفا

فقيم الباغ قد يهدى لمالكه ... برسم خدمته من باغه التحفا[2]

لأبى إسحاق الصابى

وكتب أبو إسحاق الصابى إلى عضد الدولة فى هذا المعنى: العبيد تلاطف ولا تكاثر الموالى فى هداياها، والموالى تتقبل الميسور منها قبولا هو محسوب فى عطاياها. ولما كان — أدام الله تعالى عزه — مبرزا على ملوك الأرض فى الخطر الذى قصروا عنه شديدا، والسعى الذى وقفوا منه بعيدا، والآداب التى عجزوا عن استعلامها فضلا عن علمها، والأدوات التى نكلوا[3] عن استقصائها فضلا عن فهمها، وجب أن يعدل عن اختياراتهم فى تخطى به الجسوم البهيمية، إلى اختياره

(١) أحمد بن يوسف: كاتب بليغ كان يتولى ديوان الرسائل للمأمون. وله أخبار كثيرة تدل على [illegible] مع مركزه فى [illegible] العبث والمجون. شتمه رجل بين يدى المأمون فقال مخاطبا المأمون: فدوالله [illegible] به. وسيعود صاحب زهر الآداب فى الكلام عنه فى [illegible] توفى سنة ٢١٣

(٢) الباغ: الطيب (٣) نكل عن شىء [illegible]

فيما تحظَى به النفوسُ العليّة ، وعما يَنفق فى سوقهم العامية ، إلى ما تَنْفَق فى سوقه الخاصية ، إفراداً لِرُتْبَتِه العُلْيا ، وغايته القصوى ، وتمييزاً له عمن لا يجرى معه فى هذا المضمار ، ولا يتعلقُ منه بالغُبَار : وقد حملت إلى الخزانة ـ عمرها الله ! ـ شيئاً من الدفاتر وآلة النجوم ، فإنْ رأى مولانا أن يتطوَّل[1] على عبْده بالإذن فى عَرْضِ ذلك عليه مُشَرَّفا له وزائدا فى إحسانه إليه فَعَلَ إنْ شاء الله تعالى .

وأَهْدى أبو الطيب المتنبى إلى أبى الفضل بن العميد فى يوم نوروز قصيدة من أبى الطيب مدحه فيها[2] يقول فى آخرها :

كَثُرَ الفِكْرُ كيف نُهْدِى كما تهـــدى إلى ربِّها الرئيسِ عِبادُهْ
والّذى عندَنا من المالِ والخَيْـــلِ فَمِنْهُ هِبَـاتُهُ وقِيادُهْ
فبعثنـــا بأَرْبَعين مِهَارٍ كلُّ مُهْرٍ مَيْدانُه إنْشادُهْ
فارْتَبِطْها فإنّ قَلْباً نَماها مَرْبِطٌ تَسْبِقُ الجِيادَ جِيادُهْ

وفى هذه الكلمة يقول وقد احتفل فيها ، واجتهد فى تجويد ألفاظها ومعانيها . فعقّب عليه أبو الفضل فى مواضع وقف عليها فقال[3] :

هل لِعُذْرِى إلى الهمام أبى الفضـــلِ قبولٌ سوادُ عينى [illegible]
أنَا من شدّة الحيـــاء عليلٌ مكْرُماتُ المعـــلّه [illegible]
ما كَفَانى تقصيرُ ما قلتُ فيه عنْ علاهُ حتى [illegible]

---

(١) يتطول : يتفضل (م) (٢) مطلع هذه القصيدة :

جاء نيروزنا وأنت مراده وورت بالذى أراد زناده

(٣) ليس الأمر كما ذكر المؤلف ، وربما لاحظ ابن العميد ملاحظة [illegible] فى القصيدة الرائية التى سيذكرها المؤلف بعد ذلك . وكذلك [illegible] فى تضاعيف الدالية التى قصد بها تهنئة ابن العميد بعيد النوروز

(٤) انتقاده : من إضافة [illegible]

ما تَعَوَّدْتُ أن أرى كأبى الفضـــل ، وهذا الّذى أتاهُ اعتيادُهْ
غمَرَتْنِى فوائدٌ شاء منهـــا أن يكونَ الكلامُ مِمَّا أفادَهْ
ما سَمِعْنا بمن أحَبَّ العطـــايا فاشتهى أن يكونَ مِنْها فؤادَهْ

وقد كان مدحه بقصيدته التى أولها :

بادٍ هَواكَ صبَرْتَ أم لم تَصْبِرَا وبُكاكَ إن لم يَجرِ دمعُكَ أوْ جرَى

وفيها معانٍ مخترعة ، وأبيات مبتدعة ، يقول فيها :

من مُبلغُ الأعراب أنّى بَعْــدها جالَسْتُ رَسْطاليس والإسْكَنْدرا
وملِلْتُ نحرعشـــارها فأضافنى منْ يَنْحَرُ البِدَرَ النُّضارَ لمنْ قَرَى [(١)]
وسمعْتُ بَطْلَيْمُوس دارسَ كُتْبهِ متملِّكاً متبـــدياً متحضراً [(٢)]
ورأيت كلَّ الفاضلين كأنما ردَّ الإلهُ نفوسَهم والأعصُرَا
نُسِقوا لنــا نسق الحساب مقدَّماً وأتى فذلك إذْ أتيت مُؤَخَّرَا

وفيها يقول :

فدعاكَ حُسَّدُكَ الرئيسَ وأمسكُوا ودعاكَ خالقكَ الرئيس الأ كْبَرَا
خلفتْ صِفاتُكَ فى العيون كلامهُ كالخطِّ يملأُ مِسْمعَىْ مَنْ أبصرا

أخذه من قول الطائى يصف قصائده :

بِغُرب يَرَاهاَ منْ يراها بسمعهِ ويَدْنُو إليها ذوالحجا وهو شاسعُ [(٣)]

[فقر فى وصف الكتب]

كتاب كَتبَ لى أماناً من الدّهر ، وهنَّأنى فى أيام العمر . كتاب أوجب من الاعتداد فوق الأعداد ، وأودع بياض الوداد سواد الفؤاد . كتابُ النظرُ فيه

---

(١) البدر : جمع بدرة ، وهى الكيس فيه عشرة آلاف دينار ، والنضار ــ بالضم ــ الذهب ، وقرى : أضاف (٢) متبديا : فى أخلاق أهل البداوة (٣) شاسع : بعيد

نعيم مقيم ، والظفرُ به فتح عظيم . كتاب ارتحت لعيانه ، واهتززت لعُنْوَانه . كتاب هو من الكتب المَيَامين(١) ، التى تأتى من قبل اليمين . كتاب عددته من حُجول العُمرِ وغرره(٢) ، واعتَدَدْته من فُرَص العيش وغُـرَره(٣) . كتابٌ هو أنفس طالع ، وأكرم متطلّع ، وأحسن واقع ، وأجـلُّ متوقع . كتابٌ لوْ قُرِىء على الحجارةِ لانفجرَت ، أو على الكواكب لانتَثرت . كتابٌ كِدتُ أُبليه طيًّا ونشراً ، وقبلتهُ ألفا ، ويَدَ حامله عشراً . كتابٌ نسيتُ لحسنه الرَّوْضَ والزّهر ، وغفرتُ للزمان ما تقدّم من ذنبه وما تأخَّر . كتابٌ أَمْلَيْتهُ هِزّة المجدِ على بنانكَ ، ونطَقَ به لسانُ الفضْل عن لسانك . أنا ألتقطُ من كلِّ حَرْفٍ تُدِيرُهُ أناملك تُحفـة ، وآخُذُ من كل سطرٍ تتجشَّمُ تخطيطَه نُزْهة . إذا قرأت من خطك حَرْفاً ، وجدتُ على قلبي خِفًّا(٤) ، وإذا تأمّلت من كلامك لفظا ، ازددتُ من أُنسي حَظًّا . كتاب كتبَ لى أماناً من الزمان ، وتوقيعٌ وقعَ مِنّى مَوْقِعَ الماء من العطشان . كتاب هو تَعِلَّةُ المسافر(٥) ، وأُنسَةُ المستوحش ، وزبدة الوصال ، وعُقْلة المُسْتوفز(٦) . كتاب هو رُقية القلب السليم(٧) ، وغرّة العيش البهيم(٨) . كتابٌ هو سَمَرٌ بلا سهَر ، وصفْوٌ بلا كدَر . كتابٌ تمتَّعت منه بالنعيم الأبيض ، والعيش الأخضر ، واستلمته استلام الحجر الأسود(٩) ، ووكلتُ طرفى من سُطُورِه بوشْيٍ مُهلَّل ، وتاج مُكَلَّل ، وأوْدَعْتُ سمعى من محاسنه

---

(١) الميامين: جمع ميمون (٢) الحجول: جمع حجل، وهو بياض فى القوائم يحمل به الخيول ، والغرر: جمع غرة، وهى بياض فى الجبهة (٣) غرر: جمع غرة بكسر الغين وهى النزق ، وقد يحلو فى الشباب (٤) الخف والخفة : الارتياح (٥) تعلة المسافر : مايتلهى به لقطع الوقت (٦) المستوفز: المتهيىء للوثوب (٧) السليم : الملدوغ (٨) البهيم : المظلم (٩) يريد أنه استلمه متيمنا باستلامه كما يتقرب الحاج إلى الله باستلام الحجر الاسود

م أنسانى سماعَ الأغانى من مطربات الغوانى[1] . نشأت سَحَابة من لفظك ، غَيْمُها نِعمةٌ سابغَــة ، وغَيْثُها حِكْمةٌ بالغــةٌ ، سقَتْ رَوْضةَ القلب ، وقد جهدتها يَدُ الجَدْبِ[2] ؛ فاهــتزَّتْ وَرَبَتْ ، واكتست ما اكتسَبَتْ .
كتابٌ حسبته ساقطاً إلىّ من السماء ، اهــتزازاً لمطلعه ، وابتهاجاً بحسْنِ موقعه ، تناولْته كما يُتناول الــكتابُ المرقومُ ، وفضضتُه كما يُفضُّ الرَّحيقُ المختوم[3] . كتابٌ كالمشــترى شَرُفَ به المسير ، وقميص يوسفَ جاء به البشير . كتاب هو من الحسن ، رَوْضةُ حَزْن ، بل جَنَّةُ عَدْنٍ ، وفى شرح النفس وبَسْطِ الأنس بَرْدُ الأكباد والقلوب ، وقميص يوسف فى أجفان يعقوب . قد أهديت إلىّ محاسنَ الدنيا مجموعةً فى ورقه ، ومباهج الحلى والحُلَل محصورة فى طبقه . كتابٌ ألصقته بالقَلْبِ والــكبد ، وشممته شمَّ الولد .
ورَدَ منكَ المِسْكُ ذكيا ، والزهرُ جَنِيًّا ، والماء مريًّا[4] ، والعيش هنيًّا ، والسحر بابليًّ[5] كتاب مَطالعهُ أهِلّة الأعياد ، وموقعه موقع نَيْل المراد .
كتاب وجــدته قصيرَ العمر ، كليالى الوِصال بعــد الهجْر ، لم أبدأ به حتى استكمل . وقارَبَ الآخِر منــه الأوّل . كتاب منتقض الأطراف ، منقطع الأكتاف ، أبترُ الجوارح ، مضطرب الجــوانح ، كتاب كأنه توقيع متحرِّز ، أو تعريض متبرز[6] . كاد يلتقى طَرَفاهُ ، ويتقارب مُفْتتحه ومُنْتهَاهُ . كتاب التقتْ طرفاه صِغَرا ، واجتمعت حاشيتاه قِصرا . ما أظننى

---

(١) الغوانى : جمع غانية ، وأصلها المرأة التى استغنت بجمالها عن الزينه ، أو التى استغنت ببيت أبيها عن الأزواج ، وأراد هنا القيان (م)

(٢) أجهدتها: أشقتها، والجدب: القحط (٣) الرحيق المختوم : الخمر المعتقة التى لم تفض عن دنانها الأختام (٤) مرىء : هنيء . (٥) بابل : مدينه ينسب إليها السحر ، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم (م) (٦) متبرز : متعفف : ورجل برز ، وامرأة برزة : عفيف وعفيفة ؛ وكلاهما بسكون الراء .

ابتدأتُهُ حتى ختمته ، ولا استفتحته حتى أتممته ، ولا لحته حتى استوفيته ، ولا نشرته حتى طويته ، وأحسبنى لو لم أجوّد ضبطه ، ولم أُلزم يَدىَّ حفظَهُ ، لطار حتى يختلط بالجو ، فلا أرَى منه إلا هباء منثوراً ، وهواء منشوراً .

كتاب حسبته يطيرُ من يدى لخفته ، ويلطف عن حِسّى لقلته ، وعجبتُ كيف لم تحمله الرياحُ قبل وصوله إلىّ ، وكيف لم يختلط بالهواء عندوصوله لدىّ .

كتاب قصَّ الاقتصارُ أجنحته ، فلم يَدَع له قوادم وَلا خَوَافِى ، وأخذ الاختصار جثته ، فلم يبق ألفاظاً ولا معانى . طلعَ كتابُك كإيماء بطَرْفٍ ، أو وَحْىٍ بكَفّ .

وقال أبو العباس عبد الله بن المعتز : استعرت من على بن يحيى المنجم جزءًا فيه أخبار معْبد بخط حماد بن إسحاق الموصلى ، وكان وعدنى به ، فبعث إلى بستّ ورقات لِطاف ، فرددتها وكتبت إليه : « إن كنتَ أردتَ بقولك جُزْءًا الجزء الذى لا يتجزّأ فقد أصبت ، وإن كنت أردتَ جُزْءًا فيه فائدةٌ للقارىء ، ومُتْعَةٌ للسامع ، فقد أحلْتَ[1] ؛ وقد رددْتُه عليك بعد أن طار اللّحْظ عَلَيْهِ طيرة » .

فأجابنى : إذا كان السِّفر عِنْدَكَ منجدةً فما أصنع[2] ؟

[المحادثة والمجالسة]

وقال أبو العباس : دخل رجلٌ على الحسن بن سَهْلٍ بعد أن تأخر عنه أياما . فقال : ما يَنْقَضِى يومٌ من عمْرِى لا أراك فيه إلاعلمت أنه مبنوسُ القدرِ ، منحوس الحظّ ، مَغْبون الأيام .

فقال الحسن : هذا لأنك توصل إلى بخصوصك سُرور لا تجده عند غيرك ،

---

(١) أحلت : تكلم بالمحال (٢) المنجدة : ما يحفظ به من ورق ونحوه .

وأتنَسَّم من أرواح عِشرَتك ما تجدُ الحواسُّ به يُغْيَتَها ، وتستوفى منه لذَّتها ، فنفسُك تألف منى مثل ما آلَفُهُ منك.

وكان يقال : محادثة الرِّجال تَلقيح الألباب[١] .

وقال ابن الرومى :

ولقد سَئِمْتُ مَآربى   فكأنَّ أطيبَهَا خَبيثُ
إلاَّ الحديثَ ؛ فإنَّهُ   مِثْلُ اسْمِهِ أبداً حَديثُ

قال مخارق : لقينى أبُو إسحاق إسماعيلُ بنُ القاسم قبل نسكه ، فقال : أنَا والله صَبٌّ بك، ولُوعٌ إليك ، مغمورُ القلب[٢] بشكركَ ، واللسانِ بذِكْرِك ، متشوِّف إلى رُؤْيتك ومفاوضتك ، وقد طالتِ الأيامُ على ما أعِدُ به نَفْسِى من الاجتماع معك ، ومن قضاء الوَطَرِ منك ؛ فما عندك ؟ أنا الفِدَاء لك ! وتزورنى أم أزورك ؟

قلت : جعلنى الله فِدَاك ! ما يكونُ عند مَنْ هو منك بهذا الموضع وفى هذا المحلِّ إلا الانقياد إلى أمرك ، والسمعُ والطاعةُ لك ، ولولا أن أسىء الأدبَ فى أمرٍ بدَأْتَ فيه بالفضل لقلت : إن كثيرَ ما ابتدأتَ به من القول يقلُّ فيما عندى من الشوقِ إليك ، والشَّغَف بك ، دون ماحرَّكَ هذا القولُ منى ، فوجَبتْ لك به المنَّة علىَّ ، وأنا بين يديك ، فَاثْنِ عِنَانى إلى ما أرَدْت ، وقدْنِى كيف شئت ، تجدنى كما قال القائل :

ما تَشْتَهِيهِ فإنى اليوم فاعلُهُ   والقلبُ صَبٌّ فما جَشَّمته جشما

وذكر سهل بن هارون رجلا، فقال: لم أر أحسن منه فَهماً لجليل ، ولا تفهماً لدقيق أشار إليه أبو تمام فقال :

وكنت أعزَّ عِزًّا من قنوع   تعوَّضَه صَفوح من مَلول
فصرت أذلَّ من معنًى دقيقٍ   به فقْرٌ إلى ذِهنٍ جليلِ[٣]

---

(١) التلقيح : ماتلقح به النخلة لتثمر (٢) كذا . وأحسبه «معمور القلب» بعين مهملة (م)   (٣) فى ديوان أبى تمام (ص ٥٠٣) «به فقر إلى فهم جليل» (م)

بين المأمون وسعيد بن مسلم

وقال سعيد بن مسلم للمأمون : لو لم أشكر الله تعالى إلاّ على حسنِ ما أبلانى من أمير المؤمنين من قَصْدِه إلىَّ بحديثه ، و إشارته إلىَّ بِطَرْفه ؛ لقد كان فى ذلك أعظمُ الرِّفعة ، وأرفعُ ما تُوجِبه الحرمة . فقال : يفعل أميرُ المؤمنين ذلك ؛ لأن أمير المؤمنين يَجِدُ عندك من حُسْن الإفهام إذا حدّثت وحسن الفهم إذا حُدّثت مالا يجدُه عند أحدٍ ممن مضى ، ولا يظنُّ أنه يجده عند أحدٍ ممن بَقِى ، فإنك لتَستَقْصِى حديثى ، وتَقِفُ عند مقاطع كلامى ، وتُخْبِرُ بما كنتُ أغفلته منه .

المتوكل وأبو العيناء

وقال المتوكل لأبى العيناء : ما تحسنُ ؟ قال : أفْهَمُ وأُفهِمُ .

بين حكيم وتلميذه

وقال بعض الحكماء لتلميذه ، وقد ضَرَب الموسيقِى : أفهمت ؟ قال : نعم ، قال : بل لم تفهم ؛ لأنى لا أرى عليك سرورَ الفهم ! وقد قيل : منْ نظر إلى الربيع وأنواره ، والروض وأصباغه ، ولم يبتهج كان عديمَ حِسٍّ ، أو سقيمَ نفس .

أبو تمام يصف جارية تغنى بالفارسية

ومر أبو تمام بأبرشهر من أرض فارس ، فسمع جارية تغنّى بالفارسية ، فَشَاقَه شجىُ الصوت ، فقال :

ومُسْمِعَةٍ تروقُ السمعَ حسناً ... ولم تصممهُ ، لا يصمم صداها !
لوت أوتارها فشجتْ وشاقت ... فلوْ يسطيعُ حاسدُها فَدَاهَا
ولم أفْهم معانيها ، ولكن ... وَرت كبدى فلم أجْهل شداها
فكنت كأننى أعمى مُعَنًّى ... يُحبُّ الغانياتِ ولا يراها

أبو تمام يذكر أنه أخذ المعنى من بشار

قال أبو الفضل أحمدُ بن أبى طاهر : قلت لأبى تمام : أخذت هذا المعنى من أحد ؟ قال : نعم ، أخذتُه من قول بشار بن برد :

ياقومِ أذْنى لبعض الحىِّ عاشقةٌ ... والأذن تعْشَقُ قبلَ العينِ أحيانا
قالوا : بمَنْ لا ترَى تهْذِى ؟ فقلت لهم : ... الأذن كالعَيْن تُوفِى القلبَ ما كانَا

وقال بشار أيضاً فى هذا المعنى :

قالت عَقِيل بن كعب إذ تعلّقَها ... قلبى فأضْحَى به من حُبّها أثرُ :

أنَّى ولم ترها تَهذى ! فقلت لهم : إنّ الفؤادَ يرى مالاَ يَرَى البَصَرُ

وقال :

يُزَهّدنى فى حُبِّ عَبْدَةَ معشرٌ قلوبُهُمُ فيها مخالِفَةُ قلبى

فقلت: دَعُوا قلبى وما اختارَ وارْتَضَى فبالقَلْبِ لا بالعين يُبْصِرُ ذو اللُّبِّ

وما تبْصِرُ العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنانِ إلا من القلب

أشباه لمعنى بشار — وقد قال أبو يعقوب الخريمى فى هذا المعنى ، وكان قد أعورَ ثم عمى ، وقيل : إنها للخليل بن أحمد :

قالت أتهزأ بى غَداةَ لقيتها يا للرجَالِ لصبْوة العميانِ

فأجبتها : نفسى فداؤك إنما أُذنى وعينى فى الهوى سِيَّانِ

وقريب من هذا قول الحكم بن قنبر إن لم يكن منه :

إن كُنْتَ لَستَ معى فالذكرُ منك معى يَرْعاك قلبى وإن غُيِّبْتَ عن بَصَرِى

العينُ تُبصِرُ مَنْ تَهْوَى وتفقدهُ وناظِرُ القلب لا يَخْلو من النظر

وقال آخر :

أمَا والذى لو شاءَ لم يَخْلُقِ الهوَى لئن غِبْتَ عن عينى فما غِبْتَ عن قلبى

تُرِينيكَ عَيْنُ الوَهْمِ حتى كأننى أُناجيك من قربٍ وإن لم تكن قُربى[1]

وقال أبو عثمان سعيد بن الحسن الناجم :

لئن كانَ عن عينىَّ أحمدُ غائباً فما هو عن عين الضمير بغائبِ

له صورةٌ فى القلب لم يُقْصِها النوى ولم تتخطّفها أكفُّ النوائب

---

(١) ومن هذا الباب قول أحمد بن يوسف :

تطاول باللقاء العهد منا وطول العهد يقدح فى القلوب

أراك وإن نأيت بعين قلبى كأنك نصب عينى من قريب

فهل لى فى الرواح إلى حبيب يقر بعينه قرب الحبيب

إذا ساءنى منه شُحُوطُ مزاره وضاقت بقلبى فى نَوَاهُ مَذَاهبى[١]
عطفتُ على شَخْصٍ له غير نازح مَحَلَّتُهُ بين الحَشَا والتَّرَائب[٢]

كيسان مستملى أبى عبيدة

وذكر أبو عبيدة كيسان مُستمليه فى بعض الأمر ، فقال : ما فَهِمَ ، ولو فهم لوَهِمَ[٣] . وكان كيسانُ يوصف بالبَلادة والغفلة .

قال الجاحظ : كان يكتبُ غيرَ ما يسمع ، ويستقى غير ما يكتب ، ويقرأ غيرَ ما يستقى[٤] ، ويُملى غير ما يقرأ ، أمليت عليه يوماً :

عجبتُ لمعشرٍ عدلوا بمعتمر أبا عمـــر

فكتب أبا بشر ، وقرأ أبا حفص ، واستقى أبا زيد .

ما يجب للمحدث على جليسه

قال أبو عباد : للمحدث على جليسه ، السامع لحديثه ، أن يَجْمَعَ له بالَه ، ويُصْغِى إلى حديثه ، ويكتم عليه سِرَّهُ ، ويبسط له عذره .

وقال : ينبغى للمحدث إذا أنكر عينَ السامعِ أنْ يستفهمه عن مَعْنى حديثه ، فإن وجده قد أَخْلَص له الاستماع أتم له الحديث ، وإن كان لاهياً عنه حرمهُ حُسْنَ الإقبال عليه ، ونَفْعَ المؤانسة له ، وعرفه بسوء الاستماع والتقصير فى حق المحدث .

وقال : نَشَاطُ المحدِّث على قَدْر فهم المستمع .

وكان عبدالله بن مسعود[٥] - رضى الله عنه ! - يقول : حدِّثِ الناسَ ما حَدَجُوكَ بأسماعهم[٦] ، ولحظوك بأبصارهم ، فإذا رأيت منهم فُتُوراً فأمسك .

وقال أبو الفتح البستى :

إذا أحسَسْت فى لَفْظى فُتُوراً وحفظى والبـــلاغة والبيانِ

(١) الشحوط : البعد (٢) النازح : البعيد (٣) وهم : غلط (٤) استقى: سود

(٥) صحابى جليل ، كان من السابقين إلى الاسلام ، وكان أول من جهر بقراءة القرآن فى مكة . وتولى بعد وفاة الرسول بيت مال الكوفة ، كان رضى الله عنه يكثر من التطيب . وكان من المتفوقين فى رواية الحديث ، توفى سنة ٣٢

(٦) حدجوك بأسماعهم : وجهوها نحوك

فلا تَرْتَبْ بفَهْمِى إنَّ رَقْصِى على مقـــــدار إيقاعِ الزَّمَان

وقال عامر بن عبد قيس : الكلمةُ إذا خرجتْ من القلب وقعت فى القلب. و إذا خرجت من اللسان لم تُجاوِز الآذان .

وقال الحسن — وقد سمع متكلّما يَعِظُ فلم تقَعْ مَوْعِظَته من قلبِه ولم يرقَّ لها — :يا هذا ؛ إن بقلبك لشرًّا ، أو بقلبى!

تكرار الحديث

وقال محمد بن صبيح المعروف بابن السماك لجاريته : كيف ترين ما أَعِظْ الناس به ؟ قالت : هو حَسَن ، إلا أنك تكروه ، قال : إنما أُكرِّره ليفهمه مَنْ لم يكن فَهِمه ، قالت : إلى أن يفهمه البطىء يَثْقُل على سَمْع الذكى .

واسْتُعِيد ابنُ عباس حديثاً فقال : لولا أنى أخافُ أن أَغُضَّ من بهائه ، وأُرِيق من مائه ، وأُخْلِق من جِدَّة ، لأعدته .

وقال أبو تمام الطائى يصف قصائده :

مُنزَّهة عن السَّرق المؤدّى مكرَّمة عَنِ المعـــنَى المُعَادِ

أخذه البحترى فقال :

لا يعمل اللّفظ المكـــرَّر فيـــه واللفظُ المرِدَّدْ

والإطالة مَمْلولة كما يُمَلُّ التكرير .

الآداب

وقد قال الحسن بن سهل : الآدابُ عشرة ؛ فثلاثةٌ شهرجانية ، وثلاثة أَنُوشروانية ، وثلاثة عَربيَّه، وواحدةأَرْبتْ عليهن ؛ فأما الشهرجانيةفضربُ العُود. ولعب الشطْرَنج ، ولعب الصَّوَالج . وأما الأنوشروانيـــة فالطّب ، والهندسة . والفروسية . وأما العربية فالشِّعْر ، والنَّسب ، وأيام الناس . وأما الواحدة التى أَرْبَتْ عليهنّ : فمقطعات الحديث ، والسمر ، وما يتلقّاه الناسُ بينهم فى المجالس.

لسمر ونتف الأحاديث

وكان يُقال : خُذ من العلوم نتفها ، ومن الآداب طُرَفها .

وكان يقال : مقطَّعَات الأدب ، قُرَاضَاتُ الذهب .

وحضَر بشارُ بن بُرْدٍ مجلساً فقال : لا تجعلوا مَجْلِسَنا غِناء كلَّه ، ولا شعراً كله ، ولا سَمَراً كله ، ولكن انتهبوه انْتِهابا .

وقال الحسن رحمه الله: حادثُوا هذه القلوبَ فإنها سريعةُ الدُّثور، واقْدَعُوا[1] هذه الأنفس فإنها طُلَعة[2] ؛ و إنكم إلاّ تزَعُوها[3] تنزعْ بكم إلى شَرِّ غاية .

وقال أزدشير بن بابك : إن للأذهان كلالا ، وللقلوب مَلالا ، ففرّقوا بين الحكمتين يكن ذلك استجماما .

ويروى فى حكمة آل داود : لا ينبغى للعاقل أنْ يُخْلِيَ نفسهُ من أربع : عُدّة لِمعَاده ، وصلاحٌ لِمعَاشه ، وفِكْرٌ يقفُ به على ما يُصْلِحُه من فساده ، ولذة فى غير مُحَرّم يستعينُ بها على الحالات الثلاث .

وما أحسن ما قال أبو الفتح بن كشاجم[4] :

عَجَبِي ممَّن تناهَتْ حالُهُ ... وكفاه اللهُ ذِلاَّتِ الطلَبْ
كيف لا يَقْسِم شَطْرَيْ عمرِهِ ... بين حالَيْن نَعيمٍ وأدَبْ؟
ساعة يُمتِــع فيها نَفْسَهُ ... من غذاء وشرابٍ منتخَب
ودُنوٍّ من دُمًى هُنَّ لَهُ ... حين يشتاقُ إلى اللعب لُعَبْ[5]
فإذا ما نَالَ مِنْ ذَا حَظَّه ... فحديثٌ ونشيدٌ وكُتُبْ
مرة جِــدٌّ ، وأخرى راحة ... فإذا ما غسَقَ الليل انْتَصَبْ
فقضى الدنيا نَهاراً حقَّها ... وقضى لله ليــلاً ما وَجَبْ

---

(١) من القدع . بالقاف ، وهو الزجر . وفى الأصل (افدعوا) بالفاء وهو تحريف

(٢) طلعة : كثير التطلع (٣) يزع - بالزاى المعجمة - يزجر . وفى الأصل (ترعوها) بالراء المهملة وهو تحريف — وفى نسخة «تقدعوها» وفى أخرى «تنزعوها» بزيادة نون بين حرف المضارعة والزاى ، وفى أخرى «إلا تطيعوها» وهذه لا يصح المعنى عليها (م)

(٤) هو محمود بن محمد ، الشاعر الكاتب ، المتوفى سنة ٣٥٠ .

(٥) الدمى : جمع دمية . وهى الصورة توضع فى المحراب لتمثل الحور العين

تلك أقسامٌ متى يَعْمَلْ بها دَهْرَهُ يَسْعَدْ و يَرشُدْ و يُصِبْ

نظام كسرى في حياته

وقال أبو العباس محمد بن يزيد : قسَّم كسرى أيامه فقال : يَصْلُح يَوْمُ الريح للنوم ، ويوم الغَيْم للصيد ، ويومُ المَطَر للشرب واللَّهو ، ويوم الشمس لقضاء الحوائج .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يجزىء نهاره على المصالح

قال الحسن بن خَالَوَيْه(١) : ما كان أَعْرَفهم بسياسة دُنْياهم ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهُمْ عن الآخرة هم غافلون ، ولكن نبيَّنا صلى الله عليه وسلم قَدْ جَزَّأ نهاره ثلاثة أجزاء : جُزْءٌ لله ، وجزءٌ لأهله ، وجزءٌ لنفسه ، ثم جُزْءٌ جزاءه بينه وبَينَ الناس ؛ فكان يستعين بالخاصَّة على العامة ، وكان يقول : أَبْلِغُونى حاجةَ من لا يستطيعُ إبلاغى ؛ فإنه من أَبلغَ | ذا سلطان | حاجةَ مَنْ لا يستطيع إبلاغَها آمنهُ اللهُ تعالى يَوْمَ الفزَع الأكبر .

| عَوْدٌ إلى الإطالة والإيجاز |

وقال شبيب بن شيبة(٢) : إن ابتُلِيت بمقام لابد لك فيه من الإطالة فقدِّم إحكام البلوغ فى طلب السلامة من الخَطَلِ ، قبل التقدّم من إحكام البلوغ فى

---

(١) هو الحسين «لا الحسن كما ورد فى الأصل» ابن أحمد ، إمام اللغة والعربية فى عصره ، طلب العلم فى بغداد ، ثم سكن حلب واختص بسيف الدولة بن حمدان وأولاده ، وهناك انتشر علمه وروايته . وكانت وفاته سنة ٣٧٠ . قال السيوطى فى بغية الوعاة : سأل سيف الدولة جماعة من العلماء بحضرته ذات ليلة : هل تعرفون اسما ممدودا وجمعه مقصورا؟ فقالوا : لا ، فقال لابن خالويه : ماتقول أنت؟ فقال : أنا أعرف اسمين قال : فما هما ؟ قال صحراء وصحارى ، وعذراء وعذارى . فلما كان بعد شهر أصاب حرفين آخرين هما صلفاء وصلافى وهى الأرض المليظة ، وخبراء وخبارى وهى أرض فيها ندوة ، ثم بعد عشرين سنة وجد حرفا خامسا . وهو سبتاء وسباتى وهى الأرض الخشنة

(٢) كان شبيب بن شيبة مشهورا بالفصاحة والدهاء ، وكان ينادم خلفاء بنى أمية ويفزع إليه أهل بلده فى حوائجهم . توفى سنة ١٧٠

شَرَفِ التَّجْوِيد ؛ ثم إياك أنْ تَعْدِلَ بالسلامة شَيئاً ، فقليلٌ كافٍ خَيْرٌ لك من كثير غير شاف .

وكان جعفر بن يحيى يقول لـكُتّابه : إن استطعتم أن يكون كلامُكم كلُّه مثل التوقيع فافعلوا .

وقال ثمامة بن أشرس : لم أرَ قط أنطَق من جعفر بن يحيى بن خالد ، وكان صاحبَ إيجازٍ .

إياس بن معاوية يحتج للاطناب

وكان أبو واثلة إياسُ بن معاوية ـ على تقدُّمه فى البلاغة ، وفضْلِ عقله وعلمه ـ بالإكثار مَعِيباً ، وإلى التطويل مَنسوبا ، وقال له عبد الله بن شبرمة : أنَا وأنْتَ لا نتفق ، أنْتَ لا تشتهى أن تسكت ، وأنا لا أشتهى أن أسْمع . وقيل له : ما فيك عيبٌ إلا كَثْرة كلامك . قال : أفتسمعون صواباً أم خطأ ؟ قالوا : بل صواباً ، قال : فالزيادةُ فى الخير خيرٌ .

الجاحظ يرد عليه

قال الجاحظ : وليس كما قال ، بل للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، وما فَضَل عن مقدار الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والـكَلاَل ؛ فذلك هو الفِضَالُ[1] والهَذَر والخَطل والإسْهاب الذى سمِعْتُ الخطبَاء يَعيبونه .

ابن هبيرة يريد إياسا على القضاء

وذكر الأصمعى أن ابن هُبيرة لما أراد إياساً على القضاء قال : إنى والله لا أصْلح له ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنِّى دميمٌ حَدِيد ، ولأنى عَيِيٌّ ، قال ابنُ هبيرة : أما الحِدّة فإن السَّوْط يُقوِّمك ؛ وأما العِيُّ فقد عبَّرْتَ عما تريد ؛ وأما الدَّمامة فإنى لا أريد أن أحَاسِن بك .

ولم يصفه أحدٌ بالعيِّ ، وإنما كان يُعَابُ بالإكثار ، ولـكنه أراد المدافعة عن نَفْسه والحديث ذو شجون[2] .

---

(١) الفضال ، على وزن كتاب ، المبتذل من قول أو غيره

(٢) شجون : ضروب

أبو العيناء وبعض القيان

قال أبو العيناء ، ذُكِرْتُ لبعض القِيَان فعشقتني على السماع ، فلما رأتني استقبحتني ، فقلت :

وشاطرةٍ لما رأتني تنكّرتْ وقالت : قبيحٌ أحْوَلٌ ماله جسمُ
فإن تُنكرى منى أحْوَلاً فإننى أديب أريب لا عيٌّ ولا فَدْمُ[1]

[فاتصل بها الشعر ،] فكتبتْ إلى : إنَّا لم نرد أن نُوَلِّيك ديوانَ الزمام !

فطنة إياس

وكان عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله تعالى كتب إلى عدى بن أرطاة[2] : إن قِبَلك رَجُلَيْن من مُزينة — يعنى بكر بن عبد الله ، و إياس بن معاوية — فوَلِّ أَحَدَهما قضاء البَصْرَة ؛ فأحضرهما ، فقال بكر : والله ما أحْسِنُ القضاء ؛ فإن كنتُ صادقاً فما تَحِلُّ تَوْلِيَتِى ، وإن كنتُ كاذباً فذلكَ أوْجبُ لِتركِى ، فقال إياس : نكم وَقَفْتُمُوه على شَفِيرِ جهنَّم ، فافتَدَى منها بيَمين يكفرها ، و يستَغفِرُ الله تعالى إمنها ، فقال له عدىّ : أما إذ اهتديت لها فأنْتَ أحقُّ بها ، فولاه .

وة لسن إياس

ودخل إيَاس الشام وهو غلامٌ صغير ، فقدّم خَصْماً له إلى بعض القضاة ، وكان الخَصْمُ شَيْخاً ، فصالَ عليه إياسٌ بالكلام ، فقال له القاضى : خَفِّض عليك فإنه شَيْخٌ كبير ، قال: الحقُّ أكْبَر منه ، قال : اسكت! قال : فَمَنْ يَنْطِقُ بحُجّتى؟ قال : ما أراكَ تقولُ حقًا ، قال : لا إلهَ إلا الله ! فدخل القاضى على عبد الملك فأخبره ؛ فقال : اقْضِ حاجتَه الساعَةَ وأخرِجه من الشام لا يُفْسِد أهْلَها[3] !

* * *

الحديث المملول

وقال أحمد بن الطيب السَّرْخَسِى تلميذ يعقوب بن إسحاق الكندى[4] :

---

(١) الفدم : العي عن الكلام (٢) عدى بن أرطاة : أمير من أهل دمشق ، ولاه عمر بن عبد العزيز على البصرة سنة ٩٩ فاستمر إلى أن قتله معاوية ابن يزيد سنة ١٠٢ .
(٣) وكانت وفاة إياس سنة ١٢٢ (٤) كان الكندى فيلسوف العرب فى عصره ، وأحد أبناء الملوك من كندة ، نشأ فى البصرة ، وانتقل إلى بغداد ، وكان من أعرف الناس بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك . وقد ترجم عدد من كتبه إلى اللاتينية ، وكانت وفاته نحو سنة ٢٦٠

كنتُ يوماً عند العباس بن خالد ، وكان ممن حبَّب الله إليه أن يتحدَّث ، فأخذ يحدّثنى ، وينتقلُ من حديث إلى حديث ، وكنا فى صَحْنٍ له ، فلما بلغتنا الشمس انتقلنا إلى موضع آخر ، حتى صار الظلُّ فَيْئاً ؛ فلما أكْثَر وأضْجَر ، وملت حُسْنَ الأدبِ فى حُسْنِ الاستماع ، وذكرت قول الأوزاعى : إن حسنَ الاستماع قوةٌ للمحدث ، قلت له : إذا كنتُ وأنا أسمعُ قد عَيِيتُ مما لا كُلْفَةَ علىَّ فيه ، فكيف أراكَ وأنتَ المتكلم ؟ فقال : إنَّ الكلام يحلِّلُ الفضولَ اللَّزجة الغليظة التى تعرض فى اللَّهَوَاتِ وأصْلِ اللسان ومنابتِ الأسنان ، فوثَبْتُ وقلت : لا أرانِى معك اليوم إلا « إيَارج الفيْقرا » ؛ فأنت تتغَرْغَرُ بى ! فاجتَهد فى أنْ أجْلِسَ فلم أفعَل .

قال أحمد بن الطيب : كنا مرَّةً عند بعض إخواننا ، فتكلَّم وأعجَبه من نفسه البيان ، ومِنَّا حسنُ الاستماع ، حتى أفْرَطَ ، فعرض لبعض مَنْ حضَر مَللٌ ، فقال : إذا باركَ الله فى الشىء لم يَفْنَ ، وقد جعل الله تعالى فى حديث أخينا البركة ! .

ولعبد الله بن سالم الخياط فى رجل كثيرِ الكلام :

لى صاحبٌ فى حديثه البركه　　يزيدُ عند السكونِ والحَرَكَهْ
لو قال لاَ فى قليلِ أحْرُفِها　　لردَّها بالحروفِ مُشْتَبِكه

ومن طرائف التطويل ما أنشأه البديع ، وسيمرّ من كلامه ما هو آنَقُ من زَهْر الربيع .

[الملح]

منزلة الملح

قال الأصمعى : بالعلم وصَلْنَا . وبالمُلَح نِلْنَا ، وقال الأصمعى أيضاً : أنشدت محمد بن عمران قاضى المدينة ، وكان أعْقَلَ مَنْ رَأيْتُه :

يأيها السائلُ عن مَنْزِلى　　نزلْتُ فى الخانِ على نَفْسِى

يغدو عليَّ الْخُبْزُ من خابزٍ لا يقبل الرَّهن ولا يُنْسِى[1]
آكُلُ مِن كِيْسِى ومن كِسْرتى حتى لقد أوجعنى ضِرْسى

قال : اكتب لى هذه الأبيات ، فقلت : أصلحك الله ! هذا لا يُشْبهُ مثلكَ ، وإنما يَرْوِى مثل هذا الأحداثُ ، فقال : اكْتُبْها فالأشرافُ تُعْجِبُهم المُلَح .

وقد قال أبو الدَّرداء رحمه الله تعالى : إنى لأَستَجِمُّ نفْسى ببعض الباطل ، ليكونَ أقْوَى لها على الحقِّ .

[وقال ابن مسعود رحمه الله : القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فاطلبوا لها طَرَائفَ الحكمة] .

وقال ابن الماجِشُون : لقد كنَّا بالمدينة وإن الرجلَ ليحدِّثنى بالحديث من الفقه فيُمليهِ علىَّ ، ويذكر الخبَرَ من المُلَح فأَستعيدُه فلا يفعل ، ويقول: لا أُعطيك مُلَحِى ، وأَهَبُكَ ظَرْفى وأدبى .

وقال ابن الماجِشُون : إنى لأَسْمَع بالكلمة المَليحة ومالى إلا قميصٌ واحد ؛ فأدْفَعه إلى صاحبها ، وأستَكْسِى اللهَ عزَّ وجلَّ .

بعض ملح الغاضرى

وقال الزبير بن بكار[2] : رؤى الغاضرىّ يُنَازِعُ أشعَبَ الطمعَ عند بعض الوُلاَة ، ويقول : أَصْلَح اللهُ الأميرَ! إنّ هذا يَدْخلُ علىّ فى صناعتى ، ويطلبُ مشاركتى فى بِضاعتى ، وهيْأَتُه هيأةُ قاضٍ ، والأمير يضحك ، وكانا جميعاً فرسَىْ رِهان ورضيعَىْ لِبان فى بيَانِهما ؛ إلا أنّ الغاضرى [كان] لا يتخلّق بالطَّمع تخلُّقَ أشعَب .

وأتى الغاضرىّ يوماً الحسنَ بن زيد فقال : جُعلتُ فِدَاكَ ! إنى عصيت اللهَ ورسوله ، قال : بئس ما صنَعْتَ ! وكيف ذاك ؟ قال : لأن رسولَ الله صلى الله

---

(١) ينسى : ينسىء ، من النسيئة وهى التأخير .

(٢) كان الزبير بن بكار عالما بالأنساب وأخبار العرب ، وهو من أحفاد الزبير ابن العوام ، ولد فى المدينة ، وتولى قضاء مكة فتوفى فيها سنة ٢٥٦

عليه وسلم قال : لا يُفلِحُ قومٌ ولَّوْا أمرَهم امرأة ، وأنا أطعتُ امرأتى ، فاشتريتُ غلاماً فهرب.

قال الحسن : فاختر واحدةً من ثلاث : إن شئتَ فثمنُ الغلام ، قال : بأبى أنتَ ! قِفْ عند هـذه ولا تتجاوزْهَا ! قال : أعرِضُ عليك الخصلتين ، قال : لا، حَسْبى هذه .

وقد رُوِى نحوُ هذا عن أشعب ، أنه قال له بعضُ إخوانه : لو صرتَ إلىّ العشيَّة نتفرج ؟ قال : أخاف أن يجىء ثقيل ، قلت : ليس معنا ثالث ، فمضى معى ، فمّا صلينا الظهر ودعوتُ بالطعام ، فإذا بدَاقٍّ يدقُّ البابَ ، قال : ترى أنْ قد صِرْنا إلى ما نكره ، قلت له : إنه صديق ، وفيه عشرُ خصال إن كرِهْتَ واحدةً منهن لم آذَنْ له ، قال : هَاتِ ، قلت : أولها أنه لا يأكل ولا يَشرب ، فقال : التسعُ لك ! قل له يدخل !

ورأى سفيان الثَّوْرى[١] الغاضرىَّ وهو يُضْحِكُ الناس ؛ فقال : يا شيخُ أوَ ماعلمتَ أن لله يوماً يَخْسَرُ فيه المُبْطِلون ؟ فوجَمَ الغاضرى ، وما زَال ذاك يُعْرَفُ فيه حتى لَقِىَ الله عزّ وجلّ .

أشعب المشهور بالطمع

وأشعب الطَّمِع هو أشعب بن جُبَير ، مولى عبد الله بن الزبير ، وكان أحْلَى الناسِ . قال الزبير بن أبى بكر : كان أهــلُ المدينة يقولون : تغيَّرَ كلُّ شىء إلا مُلَح أشعب ، وخُبْز أبى الغيث ، ومِشية برّة[٢] ؛ وكان أبو الغيث يعالج الخُبْز بالمدينة . وبرّة بنت سعيد بن الأسود كانت مِنْ أجْمَلِ النساء وأحسنهنّ مِشْيَة ، وأشعب يضربُ به المثلُ فى الطَّمع ، وكان أشْعَبُ قد نشأ فى حِجْر عائشة

---

(١) ولد سفيان الثورى فى الكوفة سنة ٩٧، ونشأ نشأة أهل التقى والدين المولعين برواية الحديث . وكانت وفاته بالبصرة سنة ١٦١ .

(٢) انظر جمال المشية وماقيل فى ذلك من الشعر الجميل فى كتاب (أفنان الجمال)

بنت عثمان ـ رحمها الله ! ـ مع أبي الزناد[١] ، قال أشعب : فلم يزَلْ يعلو وأنحطّ حتى بلغْنَا الغايةَ .

وقال أشعب : أسلمتني أمي إلى بَزّاز ، فسألتني بعد سنة ، أين بلَغْت ؟ فقلت : في نصف العمل ، قالت : وكيف ؟ قلت : تعلمت النَّشْر و بقي الطَّيّ ، قالت : أنتَ لا تفلح .

وسألته صديقةٌ له خاتماً ، فقالت : أذْكُرُكَ به ، قال : اذْكُرِي أنك سألتِني ومنَعْتُك !

وقيل له : كم كان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر؟ قال : ثلثمائة عشر درهما ! ثم تنسَّك في آخر عمره ، وغَزَا ومات على خَيْرٍ ، رحمه الله تعالى ! .

وقيل لأشعب : أرأيتَ أطمع منك ؟ قال : نعم ، كلبة آل فلان ، رأتْ رجلين يَمْضُغَان عِلْكا[٢] ، فتبعَتْهُمَا فَرْسخين تظنُّ أنهما يأكلان شيئاً .

وأهدى رجلٌ من ولد عامر بن لؤي إلى إسماعيل الأعرج فالوذجة وأشعبُ حاضر ، فقال : كُلْ يا أشعب ، فأكل منها ؛ فقال : كيف ترَاها ؟ فقال : عليه الطلاق إن لم تكن عُمِلَت قبل أنْ يُوحِيَ ربُّك إلى النَّحْل ! أي : ليس فيها حَلاَوة[٣] .

ظرف أبي نواس وسرعة بديهته

وروى أبو هفان قال : دخل أبو نُوَاسٍ الحسنُ بن هانىء على يحيى بن خالد فقال له : أنشدني بعض ما قُلْتَ ، فأنشده :

إني أنا الرجـلُ الحـكيمُ بطَبعِه ... ويَزِيد في علمي حِكَايَةُ مَنْ حَكَى
أتتبَّعُ الظّرفاء أكتبُ عنهـمُ ... كيما أحدِّث مَنْ أُحِبُّ فيَضْحَـكَ

---

(١) أبو الزناد هو : عبد الله بن ذكوان القرشي المدني ، كان من كبار المحدثين . وكان كثير الأتباع من طلاب الفقه والشعر والعربية ، توفي فجأة بالمدينة سنة ١٣١

(٢) العلك : اللبان (٣) وكانت وفاة أشعب بالمدينة سنة ١٥٤

فقال له يحيى [بن خالد] : إن [أول] زَندك ليُورِى بأوّلِ قَدْحةٍ ، فقال ارتجالا فى معنى قول يحيى :

أما وزَندُ أبى علىّ إنه زَندٌ إذا استَوْرَيتَ سهل قَدْحَكا
إنّ الإلهَ لِعلْمِهِ بعباده قد صَاغَ جَدَّكَ للسماح ومَنْحَكا
تأبَى الصنائعَ هِمَّتى وقَرِيحتى من أهْلها وتَعَافُ إلاَّ مَدْحَكا

صفة أبى نواس

ووصف أبو عبد الله الجماز أبا نواس فقال : كان أظْرفَ النَّاسِ منطقاً ، وأغزَرهم أدبا ، وأقْدَرهم على الكلام ، وأسْرَعَهم جواباً ، وأكثرهم حياء ، وكان أبيضَ اللَّوْنِ ، جميل الوَجْهِ ، مليح النغمة والإشارة ، ملتفَّ الأعْضاء ، بين الطويلِ والقصير ، مَسْنُونَ الوَجْهِ[1] ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضْحَك[2] ، حُلوَ الصُّورَة ، لَطيفَ الكَفّ والأطراف ؛ وكان فصيحَ اللسان ، جَيِّدَ البيان ، عَذْبَ الألفاظ ، حُلوَ الشمائل ، كثيرَ النوادر ، وأعْلمَ الناس كيف تكلمت العربُ . رَاوِيةً للأشعار ، علاَّمة بالأخبار ، كأن كلاَمه شعرٌ موزون .

وأقبل أبو شراعة العبسى ، والجَمَّازُ فى حديثه ، وكان أقبح الناسِ وجهاً ، وكانت يدُ أبى شَراعة كأنها كَرَبة نَخْلٍ[3] ؛ فقال الجماز : فلوكانت أطرافه على أبى شراعة لزَادَ حُسْنه ؛ فغَضِب أبو شراعه وانصرفَ يَشْتُمه .

ترجمة الجماز

والجماز هو : أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر وكانوا يَزْعمون أنهم من حِمْيَر ، نالَهُمْ سِباء فى خِلافَةِ أبى بكر ، رضى الله عنه ، وهم مَوَالِيه . وسَلْم الخاسر عمه[4] ، وكان الجماز من أحْلَى الناسِ حكاية ، وأكثرهم نادرة .

قال بعضُ جلساء المتوكل : كنا نكْثِر عند المتوكل ذِكْرَ الجماز حتى

(١) مسنون : مخروط (٢) المضحك : الفم (م) (٣) الكربة — بلله ، كان ... الصفحة (م) (٤) سلم الخاسر هو : سلم بن عمرو بن حماد ... شاعرا مجيدا خليعا . وسمى الخاسر لأنه باع مصحفا واشترى ...

اشتاقه ، فكتبَ فى حَمْله إليه ، فلما دخل أُفْحِم ، فقال له المتوكل : تكلّمْ فإنى أُريدُ أن أستَبْرِئكَ ، فقال : بحَيْضَةٍ أو بحَيْضَتَين يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال له الفتح (١) : قد كلّمتُ أميرَ المؤمنين يُوَلِّيكَ على القرود والكلاب ! قال : أفلستَ سامِعاً مطيعاً ؟ فضحك المتوكل وأمر له بعَشْرَةِ آلاف درهم

وكان لا يُدْخِلُ بيته أكثر من ثلاثةٍ لضيقه ؛ فدعا ثلاثةً ، فجاءه ستة ، وقرَعَوا الباب ، ووقفوا على رِجل رِجل فَعدّ أرجُلَهم من خَلْفِ الباب ؛ فلما حصلوا عنده ، قال : اخرجُوا عنى ، فإنما دعوتُ ناساً ولم أدعُ كَرَاكِيّ .

لأبى تمام يمدح عمرو بن طوق

وقال الطائى فى عمرو بن طوق التغلبى :

الجِدُّ شيمَتُه ، وفيه فكَاهةٌ سجحٌ ولا جِدّ لمن لم يَلْعَبِ (٢)

شرسٌ ، ويتبع ذاك لينُ خَليقةٍ لا خيرَ فى الصَّهباء مالم تقطَبِ (٣)

وله يمدح الحسن بن وهب

وقال فى الحسن بن وَهْبٍ :

لِلّهِ أيامٌ خَطَبْنا لِينَهَا فى ظلّه بالخندريس السَّلْسَلِ (٤)

بمدامة نَغَمُ السماع خفيرُها لا خيرَ فى المعلولِ غيرَ معلَّلِ (٥)

يغشى عليها وهو يَجْلُو مُقلتَيْ بازٍ ، ويغفلُ وهو غيرُ مُغفَّلِ

لا طائشٌ تهفُو خلائقُه ، ولا خَشِنُ الوَقَارِ كأنّه فى محفلِ

فكِهٌ يجمُّ الجدّ أحياناً ، وقد يُنْضَى ويُهْزَلُ عَيْشُ مَنْ لم يَهْزِلِ

وقال فيه :

ولقد رأيتك والكلامُ لآلئٌ تُومٌ فبِكْرٌ فى النِّظَامِ وثَيِّبُ (٦)

وكأنّ قُسًّا فى عُكاظٍ يَخْطُبُ وابن المقفعِ فى اليتيمةِ يُسْهِبُ (٧)

---

(١) الفتح : هو الفتح بن خاقان ، وزير المتوكل ونديمه ، وقتل معه فى ليلة واحدة (م) (٢) سجح : سهل ، وفى الديوان (ص١٣) « سمح » بالميم (م)

(٣) تقطب : تمزج (٤) الخندريس : الخمر (٥) المعلول : الذى يشرب العلل بفتحتين ، وهو الشرب الثانى ، بخلاف النهل فهو الشرب الأول

(٦) تؤم : أشباه الدر (٧) اليتيمة : اسم كتاب لابن المقفع

وكأنَّ لَيـلَى الأخيلية تَندُبُ — وكُثيِّرَ عزةَ يَوْمَ بَيْنٍ يَنْسِبُ
يَكْسُو الوقار ويستخفُّ موقراً — طَوْراً فيُبْكِى سَامِعِيهِ ويُطْرِبُ

لأبى الفتح البستى

وقال أبو الفتح البستى :

أفِدْ طَبْعَكَ الْمَكْدُودَ بالهمِّ رَاحةً — برَاحٍ ، وعلِّلْهُ بشىء مِنَ الْمَزْحِ
ولـكِنْ إذا أعطَيْتَه الْمَزْحَ فَلْيَكُنْ — بمقدارِ مَا نُعْطِى الطعامَ من المِلْحِ

الكلام فى المزاح

[المزاح]

وما زال الأشراف يَمْزَحُون ، ويسمحون بمـا لاَ يَقْدَحُ فى أديانهم ، ولا يغضُّ من مُرُوءاتِهم .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : بعثت بالحنيفية السَّمْحَة .

وقال : إنى لأمزَحُ ولا أقُول إلا حقًّا .

إنشاد الشعر

وقيل لسعيد بن المسيِّب [1] : إنَّ قوماً من أهل العراق لا يَرَوْن إنشادَ الشعر فقال : لقد نَسَكُوا نُسْكاً أعْجَمِيًّا .

وقيل لابن سيرين : إنَّ قوماً يزعمون أن إنشادَ الشعر ينقض الوضوء ، فأنشد :

لقد أصبحَتْ عِرْسُ الفرزدق نَاشِزاً — ولو رَضِيَتْ رَشح اُسْتِه لاستقرَّتِ [2]

وقام يُصَلِّى ! وقيل : بل أنشد :

أُنبِئْتُ أنَّ عَجُوزاً جِئْتُ أَخْطبها — عُرقوبُها مِثْلُ شَهْرِ الصَّوم فى الطُّولِ

[النسيب]

وقيل لأبى السائب المخزومى : أترى أحداً لا يَشْتَهى النسيب ؟ قال : أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا .

---

(١) أحد الفقهاء السبعة بالمدينة : جمع بين الحديث والفقه والزهد ، وكان يعيش من التجارة بالزيت ، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته حتى سمى راوية عمر ، وكانت وفاته سنة ٩٤

(٢) عرس الرجل — بكسر العين وسكون الراء —

لعروة بن أذينة

وروى مصعب بن عبد الله الزبيرى[١] عن عروة بن عبيد الله بن عروة الزبيرى قال: كان عُرْوَة بن أُذَينة[٢] نازلاً فى دار أبى بالعقيق، فسمعته يُنشِدُ لنفسه:

إنَّ التى زَعَمَتْ فؤادك مَلَّها … خُلِقَتْ هواكَ كما خُلِقْتَ هوًى لها

فيكَ الذى زَعمتْ بها، وكِلاَ كُمَا … أبْدَى لِصاحِبه الصَّبَابَة كُلَّها

ولَعَمْرُها لو كان حبُّك فَوْقَهَا … يوماً وقد ضَحِيَتْ إذَنْ لأظلَّهَا[٣]

فإذا وجَدْت لها وَسَاوِس سَلْوَةٍ … شفع الضميرُ إلى الفؤاد فَسَلَّها

بيضاء بَاكَرَها النَّعيمُ فصَاغَها … بِلَبَاقَــةٍ فَأَدَقَّهَا وَأجلَّها[٤]

لمَّا عرَضْتُ مُسَلِّما، لِىَ حاجةٌ … أخْشَى صُعُوبتها، وأرجُو ذُلَّها[٥]

منعَتْ تحيّتها فقُلْتُ لصاحبي: … ما كانَ أكْثَرها لنَا وأقلَّها

فدَنا وقال: لعلَّها مَعْــذورةٌ … فى بعْض رِقْبتِها، فقلت: لعلَّها[٦]

قال: فأتانى أبو السائب المخزومى فقلتُ له بعدَ التَّرحيب به: ألكَ حاجة.

---

(١) راوية أديب محدث، وهو عم الزبير بن أبى بكر، وكان شاعرا، وكان أبوه عبد الله بن مصعب من أشرار الناس، وكانت وفاة مصعب بن عبد الله فى ٢ شوال سنة ٢٣٣، وفى الطبعة الثالثة من كتاب «حب ابن أبى ربيعة وشعره» بحث مفصل عن طريقة مصعب بن عبد الله فى النقد، ورأى الدكتور طه حسين فيه، فليرجع إليه القارىء إن شاء (٢) هو عروة بن يحيى المتوفى سنة ١٣٠، كان شاعرا غزلا، فضلا عن تقدمه فى الفقه والحديث، وهو القائل:

لا أركب الأمر تزرى بى عواقبه … ولا يعاب به عرضى ولا دينى

كم من فقير غنى النفس تعرفه … ومن غنى فقير النفس مسكين

(٣) ضحيت: تأذت من الشمس، وفى الأغانى قبل هذا البيت:

ويبيت بين جوانحى حب لها … لو كان تحت فراشها لأقلها

(٤) أدقها وأجلها: أدق المواضع التى يجب أن تكون دقيقة، وأجل المواطن التى أن تكون جليلة، فهى مثلا دقيقة الخصر، وثيرة الردف.

(٥) ذلها: أراد سهولة مقابلتها وتذليلها (م)

(٦) رقبتها — بكسر الراء وسكون القاف — هنا الحذر والخوف (م)

فقال :نعم أبياتٌ لعُروة بلغنى أنك سمعتَه يُنْشِدُها ، فأنشدته الأبيات ، فلما بلغت قوله :

* فدنَا وقالَ لعلَّها معذورَةٌ ... البيتَ *

طرب ، وقال: هـذا والله الدائمُ الصَّبابة ، الصادق العَهْد ، لاالذى يقول:

إن كان أهلُك يمنعونَكِ رَغْبَـةً   عَنِّى فأَهْـلى بى أَضَنُّ وأَرْغَبُ

لقد عَدا هذا الأعرابى طَوْرَه ، وانى لأرجو أن يغفر [الله] لصاحب هذه الأبيات لِحُسْنِ الظنِّ بها ، وطَلب العُذْر لهَا : قال: فعرضت عليه الطعام فقال: لاوالله ما كنتُ لأخْلط بهذه الأبيات طعاماً حتى الليل ، وانصرف .

ترجمة أبى السائب المخزومى

وكان أبو السائب غَزِيرَ الأدب ، كثير الطَّرَب ، وله فُكاهاتٌ مذكورة ، وأخبارٌ مشهورة ، وكان جَدُّه يكنى أبا السائب أيضاً ، وكان خليطا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا ذكره قال : نِعْمَ الخليط كان أبو السائب ! لا يُشَارِى ولا يمارى(١)

واسمُ أبى السائب عبدُ الله ، وكان أشرافُ أهلِ المدينة يستظرفونه و يقدمونه لشَرَفِ منصبه ، وحلاوة ظَرْفِه .

وكان عروة بن أذينة ــ على زُهْدِه ، ووَرَعه ، وكَثْرةِ علمه وفَهْمِه ــ رقيقَ الغزَل كثيره ، وهو القائل :

إذا وجَدْتُ أُوارَ الحب فى كَبِدى   أَقْبَلْتُ نحوَ سِقاء القــوم أَبْتَرِدُ

هَبْنى بَرَدْتُ ببرد المـاء ظَاهِرَهُ   فَمَنْ لِنـــارٍ على الأحْشاء تَتَّقِدُ ؟

وقد رُوِى هذانِ البيتان لغيره

---

(١) المشاراة والمماراة : العنف فى المجادلة

ومرّت به سكينةُ بنتُ الحسين بن عليّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنهم! ـ فقالت له : أنْتَ الذى تزعم أنَّك غيرُ عاشق ، وأنت تقول[1] :

قالتْ وأبثَثْتُهَا سِرِّى فَبُحْتُ به قد كنتَ عندى تحبُّ السَّتْرَ فاسْتَتِرِ
ألسْتَ تُبْصِر مَنْ حَوْلى؟ فقلتُ لها: غَطَّى هواكِ وما ألْقَى على بَصَرى

والله ما خرج هذا من قَلْبٍ سليم !!.

وروى الزّبير عن رجل لم يسمّه ، قال : قال لى أبو السائب : أنشدنى لِلأَحْوَص[2] فأنشَدْتُهُ :

للأحوص فى الغزل

قالت ـ وقلت : تحرَّجِى وَصِلى حَبْلَ امرىء بوصالِكم صَبٍّ ـ :
صَاحِبْ إذَنْ بَعلى ؟ فقلت لها : الغدرُ شىءٌ ليس من ضَرْبى[3]
شيئان لا أدْنُو لِوَصْلِهِما عِرْسُ الخليل وجَارَةُ الجُنْبِ
أمّا الخليلُ فلستُ فاجِعَهُ والجارُ أوصانى به رَبِّى
عُوجا كذا نَذْكُرْ لغانيةٍ بعضَ الحديثِ مَطِيَّكم صَحْبى[4]
ونَقُلْ لها : فيمَ الصُّدُودُ ولم نُذْنِبْ، بَلَ انْتِ بدأْتِ بالذَّنْبِ؟
إن تُقْبِلِى نقبل ونُنْزِلكم مِنَّا بِدارِ السَّهْل والرُّحْبِ
أو تَهْجُرِى تَكْدُرْ معيشَتُنَا وتُصَدِّعى مُتَلائِمَ الشَّعْبِ

فقال : هذا والله المحبُّ حقاً ، لا الذى يَقُول :

وكنت إذا حبيبٌ رَامَ هَجْرِى وجدت وَرَاىَ مُنفَسحاً عريضاً

---

(١) عبارة الأغانى «أنت الذى تزعم أن لك مروءة وأن غزلك من وراء عفة وأنك تقى ؟ قال : نعم، قالت : أفأنت الذى تقول ، إلخ» (٢) الأحوص هو : عبدالله بن محمد الأنصارى ، شاعر هجاء رقيق النسيب، كان معاصرا لجرير والفرزدق ، وهو من سكان المدينة ، ونفاه الوليد بن عبدالملك إلى اليمن ، ولقب بالأحوص لضيق فى مؤخر عينيه، وله أخبار كثيرة بين الجد والمجون ، وكانت وفاته سنة ١٠٥ . (٣) ليس من ضربى : ليس من طبعى وخلق (٤) عوجا معطيكم : قفا مطيكم أوميلوا بها

ثم قال : اذهَب ، فلا صَحِبك الله ، ولا وسَّع عليك[١] !

ظرف أهل الحجاز ورقتهم

وخرج أبو حازم يوماً يَرْمِى الجمار ، فإذا هو بامرأة حَاسِر[٢] قد فَتَنَتِ الناسَ بحُسْنِ وجهها ، وألهتْهُمْ بجمالها ، فقال لها : ياهذه ، إنكِ بمَشْعَرٍ حرامٍ ، وقد فتنتِ الناسَ وشَغَلتِهم عن مَناسكهم، فاتقى الله واستَترى ؛ فإنَّ الله عز وجل يقول فى كتابه العزيز : (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) ؛ فقالت : إنى من اللاتى قيل فيهن :

أماطَتْ كِساءَ الخزِّ عن حُرِّ وَجْهِها ... وأرْخَتْ على المتنين بُرْدًا مهلهلا

من اللّاءِ لم يَحجُجْن يَبْغِين حِسبةً ... ولكن ليَقْتلنَ البرىءَ المُغَفّلا[٣]

الشعر للحارث بن خالد المخزومى . فقال أبو حازم لأصحابه : تعالوا نَدْعُ الله لهذه الصورة الحسنة ألاَّ يعذبها الله تعالى بالنار ! فجعل أبو حازم يَدْعُو وأصحابه يُؤَمِّنُونَ ، فبلغ ذلك الشعبى ، فقال : ما أرَقَّكم يأهلَ الحجاز وأظرفكم! أما والله لو كان من قُرَى العراق لقال اعزبى عليك لَعْنَةَ الله !

بعض أخبار أبى حازم

وكان أبو حازم من فضلاء التابعين ، وله مقامات جميله من الملوك ، وكلامٌ محفوظ يدلُّ على فضله وعقله ، وهو القائل : كل عملٍ تَكْرَهُ من أجله الموتَ فاتركه ، ولا يضرك متى متَّ. وكان يقول : ماأحببتَ أن يكون معك غدا فقدّمه اليوم . وكان يقول : إنما بينى و بين الملوك يومٍ واحد ، أما أمس فلا يجدون لذته، وأنا و إياهم من غَدٍ على وَجَلٍ ؛ و إنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون اليوم ؟

لأبى العتاهية

وقال أبو العتاهية :

حتى متى نحنُ فى الأيام نحسبُها ... وإنما نحنُ فيها بين يومَيْنِ

يومٌ تولَّى ، ويومٌ نحن نأمُلُه ... لعلّه أجْلَبُ اليومين للحَيْنِ[٤]

---

(١) الخطاب لقائل البيت الأخير(٢) امرأة حاسر وسافر : ليس على وجهها قناع
(٣) المغفل : الطيب القلب (٤) الحين — بفتح الحاء وسكون الياء — الهلاك

وروى الزبير بن أبى بكر قال : قدمت امرأة من هُذَيل المدينةَ ، وكانت جميلةً ، ومعها ابن لها صغير ، وهى أَيِّم[1] ، فخطبها الناسُ وأكثروا ، فقال فيها عبيدالله بن عبد الله بن عُتْبَةَ بن مسعود :

لعبيد الله ابن عبد الله ابن عتبة

أحِبُّكِ حبًّا لايحبُّكِ مثلَهُ قَريبٌ ولا فى العاشِقينَ بعيدُ
أحبُّكِ حبًّا لو علمتِ بِبَعضهِ لَجُدْتِ ولم يصعُبْ عليكِ شديد
وحبك يا أم العلاء مُتَيِّمى شهيدى أبو بكر فَذَاكَ شهيدُ
ويعلم وَجْدى القاسمُ بن محمدٍ وعُرْوَةُ ما أَلْقى بكم وسعيدُ
ويعلم ما أُخْفِى سليمانُ كلَّه وخارجةٌ يبدى لنا ويعيدُ
متى تسألى عما أقول فتخبَرى فَلَلْحُبُّ عندى طارفٌ وتليدُ

فقال له سعيد بن المسيِّب: قد أمِنْتَ أن تسألنا، ولو سألتْنا ماشهدنالك بزور .

فقهاء المدينة السبعة

وكان عبيد الله أحَدَ الفقهاء السبعة الذين انتهى إليهم علمُ المدينة ، وقد ذكرهم عبيدالله فى هذه الأبيات؛ وهم : أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام ابن المغيرة المخزومى . والقاسم بن [محمد بن] أبى بكر الصديق ، وعروة بن الزبير ابن العوام ، وسعيد بن المسيب بن حزن ، وسليمان بن يسار ، وخارجة بن زيد ابن ثابت الأنصارى .

وقيل لعبيد الله : أتقول الشعر على شَرَفِكَ ؟ فقال : لابد للمصدور أن يَنْفُث[2] ؛ وعبيد الله هو القائل :

لعبيد الله المسعودى أيضاً

شَقَقْتِ القلب ثم ذَرَرْت فيه هَوَاكِ فَلِيم والتأم الفُطُورُ[3]
تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ فى فؤادِى فَبَادِيهِ مع الخَافى يَسِيرُ
تَغَلْغَلَ حيث لم يبلُغ شرابٌ ولا حُزْنٌ ولم يبلغ سرور

(١) أيم : لازوج لها (٢) هذا مثل، والمصدور : المريض صدره ، وأصل النفث. تفل الريق ، ويقال « هذه نفثة مصدور » أيضاً (م) .
(٣) ليم والتأم معناهما واحد ، والفطور : جمع فطر ـ بالفتح ـ وهو الصدع .

أخذه سَلْم بن عمرو الخاسر فقال :

أشباه لقول السعودى

سقتنى بعينيْها الهوى وسقيْتُها فدبَّ دَبيبَ الخمرِ فى كل مَفْصِلِ

وقال أبو نُوَاسٍ :

أُحِبُّ اللومَ فيها ليس إلاَّ لترداد اسمها فيها ألاَمُ
ويَدْخُل حبُّها فى كل قَلبٍ مَداخِلَ لا تَغَلْغَلُهَا المُدامُ[1]

ومنه قول المتنبى :

وللسرِّ منّى مَوْضِعٌ لا ينَالُهُ نَديمٌ، ولا يُفضِى إليه شَرَابُ

وقال بعض المحدثين :

ما زلت تغوينى وتطلب خُلّتى حتى حللت بحيثُ حَلّ شرابى[2]
ثم انصرفت بغير جُرْمٍ كان لى ما هكذا الأحبَابُ للأحْبَابِ

أخذ أبو نواس قوله : « أحب اللوم فيها » . . . البيتَ من قول [أبى محمد] ابن أبى أمية :

لأبى محمد ابن أبى أمية

وحدَّثنى عن مَجْلسٍ كُنتَ زينَهُ رسولٌ أمينٌ، والنساء شهودُ
فقلت له رُدَّ الحديث الذى مضى وَذِكْرُكَ من بيْنِ الحديث أُريدُ
أناشدُهُ بالله إلاَّ أعَــــدْتَهُ كأنى بطىء الفهم عنه بَعِيدُ

وقول أبى نواس فى البيت الأول كقوله :

لأبى نواس

إذا غاديتَــنى بصَبُوحِ لَوْمٍ فمزوجاً بتَسْمِيَــةِ الحبيبِ
فإنى لا أعــــدّ اللَّوْمَ فيها عليك، إذا فعلت، من الذنوب
ولا أَنَا إن عمدت أرى جَنَانا وإن ضنت بمبخوس النصيب
مقنــعة بثَوْبِ الحسن تَرْعَى بغــير تكلُّف ثمَرَ القلوبِ

وفى جنان هذه يقول أبو نواس :

---

(١) لا تغلغلها المدام : لا تتغلغل فيها . (٢) الخلة ـ بالضم ـ الصداقة والمحبة (م) .

يا ذا الذى عن جَنان ظَلَّ يُخْبِرُنا بالله قُلْ وأعِدْ يا طيِّبَ الخبرِ
قالوا اشتكَتْكَ وقالت ما ابتليتُ به أراه من حيثما أقبلتُ فى أثَرِى
و يرفع الطَّرْفَ نحوى إن مررت به حتى ليخجلنى من شِدةِ النظرِ
و إن وقفت له كيما يُكلِّمنى فى الموضع الخِلو لم ينطق من الحصَرِ [1]
ما زال يفعل بى هذا و يُدْمِنُهُ حتى لقد صار من همِّى ومن وَطَرِى [2]

وفى جنان أيضاً يقول أبو نواس، وكان بها صبًّا ، ولها محبًّا :

جنان تسبّنى ذُكِرَتْ بخير وتزعم أننى رجلٌ خبيث
وأن مودَّتى كذبٌ ومَيْنٌ وأنى للذى تطوى بَثُوث [3]
وليس كذا ، ولا ردٌّ عليها ، ولكنَّ الملول هو النَّكوثُ
ولى قلبٌ يُنَازِعنى إليها وشوقٌ بين أضلاعى حَثيث
رَأَتْ كَلَفى بها وقديمَ وَجْدِى فملّتنى ، كذا كان الحديث

[وكانت جنان مولاة لبعض الثقفيين] .

وفى معنى قول ابن أبى أمية يقولُ العباسُ بن الأحنف :

وحدثتنى يا سعد عنها فزدتنى جنوناً فزِدْنِى من حديثك يا سَعْدُ

شيم أهل المدينة

وأهل المدينة أكثر الناس ظَرْفاً ، وأكثرهم طِيباً ، وأحلاهم مزاجا ، وأشَدُّهم اهتزازاً للسماع ، وحسنَ أدبٍ عند الاستماع . وقال عبد الله بن جعفر : إن لى عند السماع هِزّة لو سُئلت عندها لأعْطَيْتُ ، ولو قاتلت لأبْلَيت .

طرب أبى ريحانة

وروى أبو العيناء قال : قال الأصمعى : مررت بدار الزبير بالبَصْرَة، فإذا شيخٌ قديم من أهل المدينة من ولد الزبير يكنى أبَا ريحانة جالس بالباب عليه شَمْلة تَسْتُرُهُ ، فسلّمتُ عليه ، وجلستُ إليه ؛ فبينما أنا كذلك إذ طلعَتْ علينا سويداء

---

(١) الحصر : العى (٢) الوطر : الحاجة
(٣) بثوث : كثير البث لسره والتحدث عنه .

تحمل قِرْبة ، فلما نظر إليها لم يتمالكْ أن قام إليها ، فقال لها : بالله غَنِّى صوتاً . فقالت : إن موالىَّ أعجلونى ، فقال : لا بدَّ من ذلك ، قالت : أما والقِرْبة على كتفى فلا ، قال: فأنا أحملها ، فأخذ القربة منها ، فاندفعت تغنّى :

فؤادِى أسِير لا يُفَكُّ ، ومُهْجَتى تفيضُ ، وأحزَانِى عليك تَطُولُ

ولى مُقْلَةٌ قَرْحَى لطول اشتياقها إليك ، وأجفَـانى عليك همُولُ

فدينك ، أعدَائى كثيرٌ ، وشُقّتى بعيدٌ ، وأشيَاعى لدَيك قليل[1]

فطَرِب وصرخ صَرْخَةً ، وضرب بالقِرْبة إلى الأرض فشقّها ؛ فقامت الجارية تبكى ، وقالت : ما هذا بجَزَائى منك ؛ أسْعَفْتُكَ بحاجتك فعرّضْتَنى لما أكره من موالىّ . قال : لا تغتمى فإنّ المصيبة عَلَىّ حصلت ، ونزع الشَّملة ووضع يداً من خلف ويداً من قُدّام ، وباع الشَّملة وابتاع لها قِرْبَةً جديدة ، وقعد بتلك الحال ؛ فاجتاز به رجلٌ من ولد علىّ بن أبى طالب — رضى الله تعالى عنه ! — فعرف حاله ، فقال : يا أبا ريحانة ! أحسبك من الذين قال الله تعالى فيهم : (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) . قال : لا يا بْنَ رسُولِ الله ، ولـكنى من الذين قال الله تعالى فيهم : (فَبَشِّرْ عِبَادِى الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنه) فضحك ، وأمر له بألفِ درهم .

بين الأوقص المخزومى وسكران

ومرَّ بالأوقص المخزومى ، وهو قاضى المدينة ، سكرانُ [وهو] يتغنَّى بليل ، فأشرف عليه ، وقال : يا هذا، شَرِبت حرَاما ، وأيقَظْتَ نياما ، وغنّيت خطأ ؛ خُذْهُ عنى ، وأصلَح له الغناء .

ابن المسيب يستمع إلى منشد شعر

وسمع سعيد بن المسيب منشداً ينشد :

فلم ترَ عينى مثلَ سِرْبٍ رأيتهُ خرجن من التنعيم مُعْتَمِرَاتِ[2]

---

(١) فديتك : كنت فداء لك ، وشقق بعيد : أى أن ما بينى وبين أهلى بعيد ، والأشياع : الأنصار (م) .

(٢) السرب : القطيع من البقر والظباء ، والمرادبه هنا جماعةمن حسان النساء

مَرَرْنَ بِفَخ، ثم رُحْنَ عَشِيَّةً ... يُلَبِّينَ للرَّحمن مؤتجراتِ[١]
ولما رأتْ رَكْبَ النميرى أعرضَتْ ... وكنَّ مِنَ أنْ يلقَيْنَهُ حَذِرات
دعت نسوة شُمَّ العرانين بُزَّلاً ... نواعم ، لا شعثًا ولا غبرَاتِ[٢]
فأبرزن لما قمن يحجبنَ دونها ... حِجَابًا من القَسِّيِّ والحبرات[٣]
تَضوَّع طيبًا بطْنُ نعمان إذ مشَتْ ... بهِ زينبُ فى نسوةٍ عَطِرَاتِ
يُخَبِّئن أطرافَ البنَان من التُّقَى ... ويَخرُجْنَ شطر الليل مُعْتَجِرات[٤]

فقال سعيد : هذا والله مما يلذّ استماعه ، ثم قال :

وليست كأُخْرى وسَّعَتْ جَيْبَ دِرعها ... وأبدت بَنَانَ الكَفِّ للجَمَرَاتِ
وغالَتْ بيَان المسك وَحْفا مرَجّلا ... على مِثْل بَدْرٍ لاحَ فى الظُّلُمَاتِ[٥]
وقامت تَرَاءى بين جَمْع فأفْتَنَتْ ... برؤيتها مَنْ راحَ مِن عَرَفاتِ

قال : فكانوا يرون أنّ الشعرَ الثانى له ، والأول لمحمد بن عبد الله بن نمير الثقفى يقوله فى زينب بنت يوسف أخت الحجاج ؛ [وطلبه الحجاج] حتى ظَفِرَ به فقال : أنت القائل ما قلت ؟ قال : وهل قلت أصلح الله الأمير إلاّ :

بين الحجاج والنميرى

يخبّئن أطرافَ البَنان من التقى ... ويخرجن شطْرَ الليل مُعْتَجِراتِ

قال له : كم كُنْتُم إذ تقول :

* ولما رأت رَكْبَ النميرى أعرَضت *

---

(١) فخ : موضع بمكة (٢) العرانين : جمع عرنين وهو الأنف، وبزل : جمع بازل وهو البعير يبلغ تسع سنين فتكتمل قوته ، والمراد وصف هؤلاء النسوة بأنهن بلغن السن التى ينقلن فيها القلب من مكان إلى مكان .

(٣) القسى : نوع من اللباس ينسب إلى قرية مصرية بقرب العريش ، أو هو القزى فأبدلت الزاى .

(٤) الاعتجار : لبسة خاصة لمرأة (٥) وحف : أسود . وهو صفة الشعر ، والمرجل : المسرح .

قال : والله ما كنت إلا أنا وصاحب لى عَلَى حمارٍ هَزِيلٍ ! فضحك وعفا عنه ، وهو القائل :

لمحمد بن عبد الله ابن عمير الثقفي

أَهَاجَتْكَ الظَّعَائِنُ يوم بَانُوا ... بذِى الزِّىِّ الجميل من الأثاثِ[1]
ظَعَائن أسْلَكَتْ فى بَطْن قوٍّ ... تَحُثّ إذا رَنَتْ أى احْتِثَاث
كأنّ على الهــوادج يَوْمَ بانوا ... نِمَاجاً تَرْتعى بَقْلَ البِراث[2]
يهيِّجك الحَمَــامُ إذا تغنّى ... كما ســجع النّوَادِب بالمَرَاثِى

[من أدب ابن المعتز]

وقال ابن المعتز : وَعْدُ الدنيا إلى خَلَفٍ ، و بقاؤها إلى تَلَفٍ ، و بَعْدَ عطائها المنع ، و بعد أمانها الفَجْع ، طَوّاحة طرّاحة ، آسِيَة جَرّاحة ، كم راقد فى ظلّها قد أيقظته ، وواثق بها قد خَانَته ، حتى يلفظَ نفسَه ، و يودّع دُنياه ، و يسكُن رَمْسَه، و ينقطع عن أمله ، و يُشْرِف على عمله ، وقد رَجَح الموتُ بحياته[3] ، ونقضَ قُوَى حَرَكاته ، وطَمَس البِلَى جمالَ بَهْجَته ، وقطع نظامَ صُورته ، وصار كخَطٍّ من رَماد تحت صفائح أنْضَاد[4] ؛ وقد أسلمه الأحباب ، وافترش التّراب . فى بيت نَجَرَتْه المَعَاوِلُ[5] ، وفُرِشَتْ فيه الجَنادل ، ما زال مضطرباً فى أمَلِه ، حتى استقرّ فى أجَله ، ومحت الأيامُ ذِكْرَه ، واعتادتِ الألحاظُ فَقْدَه .

بين ابن المعتز وأستاذه ثعلب

وكتب وهو معتقل إلى أستاذه أبى العباس أحمــد بن يحيى ثعلب[6] يتشوّقه :

ما وَجْدُ صَادٍ بالحبــال مُوثَقٍ ... بمـــاء مُزْنٍ باردٍ مُصَفَّقِ[7]

---

(١) الطعائن : جمع ظعينة ، وهى المرأة فى الهودج ، والأثاث : متاع البيت .
(٢) البراث : الأرض السهلة . (٣) رحج : مال كما ترجح كفة الميزان (م) .
(٤) صفائح أنضاد: الصفائح الحجارة العريضة، وأنضاد: جمع نضد ، وهو المنحوت باستواء (٥) العاول : جمع معول، وهو آلة كالقدوم (٦) كان ثعلب من أصدق أهل العربية لسانا، وأبعدهم ذكراً، وأثبتهم حفظا ، وكان فى رأى المبرد أعلم الكوفيين. توفى فى جمادى الآخرة سنة ٢٩١ (٧) مصفق : صفقته الريح: أى لعبت به حتى لكأنه يصفق

بالرِّيح لم يَكْدُرْ ولم يُرَنَّقِ جادت به أخلافُ دَجْنٍ مُطبِقِ[١]

بصخرةٍ إن تَرَ شمسًا تَبْرُقِ مَادَ عليها كالزُّجاج الأزرقِ[٢]

صَرِيحُ غَيْثٍ خالصٍ لم يُمْذَق إلاّ كوَجْدِي بك ، لكنْ أتقى[٣]

يا فاتحاً لكل بابٍ مُغْلَقِ وصَيْرَفِيًّا ناقداً للمنطِقِ[٤]

إنْ قالَ هذا بَهْرَجٌ لم ينفُقِ إنَّا على البعاد والتفرُّقِ

لنلتقي بالذكر إنْ لم نَلْتَقِ

فأجابه : أخذتَ أطال الله بقاءك أولَ هذه الأبيات مما أمليتهُ عليك من قول جميل[٥] :

وما صَادِيَاتٌ حُمْنَ يوماً وليلةً على الماء يخشين العصيَّ حَوَانِي

كواعبُ لم يصدُرْن عنه لوِجْهَةٍ ولا هنَّ من بَرْدِ الحياض دَوَانِي

يَرَيْنَ حَبابَ الماء والموتُ دونهُ فهنَّ لأصواتِ السُّقاةِ رَوَانِي

بأكثرَ منى غُلَّةً وَصَبابةً إليكِ ، ولكنَّ العدوَّ عراني

وأخذتَ آخرَها من قول رُؤْبَة بن العجاج[٦] :

---

(١) الأخلاف : الأثداء يفيض منها اللبن ، والدجن المطبق: هو السحاب المتراكم

(٢) ماد: مال (٣) لم يمذق: لم يمزج، يشبه الغيث القوى بالخمر الصرفة تصرع الشاربين

(٤) الصيرفى : الرجل الحاذق فى تمييز النقود ، ويريد به هنا البصير بنقد القول

(٥) هو جميل بن عبد الله بن معمر العذرى ، وهو شاعر أذاب قلبه بالحنين إلى معشوقته بثينة ، وكانت سكينة بنت الحسين تقدمه على الشعراء الغزلين ، لقوله :

يقولون: جاهد يا جميل بغزوة، وأى جهاد غيرهن أريد ؟

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

وكانت وفاته سنة ٨٢

(٦) راجز فصيح من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية، كان أكثر مقامه بالبصرة ، ومات فى البادية سنة ١٤٥ فقال الخليل : دفنا الشعر واللغة والفصاحة .

إنى وإنْ لَمْ تَرَنى فإننى أخوكَ والرّاعِى إذا اسْتَرْعَيْتَنى
أراكَ بالوُدّ وإنْ لَمْ تَرَنى

قال : فاستخفَّنى فى ذلك ونسب إلىّ سوء الأدب .

بعض أخبار ابن المعتز والمختار من قوله

وكان أبو العباس عبدُ الله بنُ المعتز فى المنصب العالى من الشعر والنثر ، وفى النهاية فى إشراق ديباجَةِ البيان ، والغاية من رقّةِ حاشية اللسان . وكان كما قال ابن المرزبان : إذا انصرف من بديع الشعر إلى رقيقِ النَّـثر أتى بحلال السحر ، وليس بعد ذى الرُّمة[1] أكثرُ افتنانا وأكبرُ تصرّفا وإحسانا فى التشبيه منه . وإنما فرقتُ جُمْلة ما اخترتُ من شعره ونثره فى جملة هذا الـكتاب ؛ لئلاّ أخرج عما تقدّم به الشرط فى البسط ، وآتى ههنا ببعض ما أختاره له ، قال :

وفِتْيانٍ سَرَوْا والليلُ داجٍ وضوء الصبح متَّهَمُ الطّلوعِ
كأنّ بُزاتَهُمْ أمراءُ جيشٍ على أكتافهم صدأُ الدُّروعِ

وقال أيضاً :

فى ليلةٍ أَكَلَ المحاقُ هِلالَهـا حتى تبدَّى مِثْلَ وَقْفِ العاجِ[2]
والصبحُ يَتْلُو المشترى فـكأنّهُ عُرْيان يَمْشِى فى الدُّجا بِسِراجِ[3]

وقال أيضاً يصف فرساً :

ولقد غَـدَوْتُ على طِمِرٍّ سابحٍ عقدتْ سنابِكُه عَجاجَةَ قَسْطَلِ[4]

---

(١) ذو الرمة هو: غيلان بن عقبة، أحد فحول الشعر فى عصره ، قال فيه أبو عمرو ابن العلاء : «فتح الشعر بامرىء القيس وختم بذى الرمة» ولعل ذلك لأنه كان يكثر من التشبيب وبكاء الأطلال، أولأن ديباجته كانت بدوية خالصة ،توفى بأصبهان سنة ١١٧

(٢) وقف العاج : هو القطعة من العاج يمسك بها الثوب كالدبوس ونحوه

(٣) الدجى: جمع دجية ، وهى الظلمة (٤) طمر: حصان سريع الجرى كأنما يهوى من طمار : أى من مكان مرتفع ، وسنابك الجواد: حوافره ، والعجاجة : السحابة ، والقسطل الغبار .

متلثمٍ لُجُمَ الحـــديد يَلُوكُها . لوكَ الفتاة مساوِكاً من إسْحِلِ[١]
ومُحجَّل غــير اليمين كأنّه متبخـــتر يَمْشِى بكمٍّ مُسْبَلِ

وقال :

قد أغتَدِى بقَارِحٍ مُسَــوَّمٍ يَعْبُوبِ[٢]
ينفى الحَصَى بحافرٍ كالقَدَحِ المكبوب
قد ضحكت غُــرَّتُهُ فى موضع التَّقطيبِ[٣]

وقال أيضاً :

ولقـد وطئتُ الغيثَ يحملنى طِرْفٌ كلَوْنِ الصبح حين وَفَدْ
همّاع أطْــرَاف الصُّوار فما الــأُخرى عليه إذا جَرى بأشدْ[٤]
يمشى فيعرض فى العنـــان كما صدف المعشَّق ذو الدَّلال وصدْ
فكأنه مَـــوْج يذوبُ إذا أطلقتهُ فإذا حبست جمـــدْ

وقال أيضاً يصف سيفاً :

ولى صارمٌ فيـــه المنايا كَوامِن فما يَنتَضَى إلاّ لسفك دِماء
ترى فَوْقَ مَتنَيْه الفِرِنْدَ كأنهُ بقية غَـــيْمٍ رَقّ دُونَ سَمَاء

وقال يَصِفُ ناراً :

مُشَهَّرةٌ لا يحجب النخلُ ضوءها كأنّ سيوفاً بين عيدانها تُجْلَى
يفَرّج أغصان الوقود اضطرامُها كما شقّت الشقراء عن متنها جُلّاً[٥]

---

(١) اللجم : جمع لجام ، والإسحل بالكسر : شجر يستاك به

(٢) القارح من ذى الحافر : ما طلع نابه ، وذلك فى السنة الخامسة . والمسوم المعلم ، واليعبوب : السهل الجرى فى عدوه

(٣) التقطيب . العبوس (٤) الصوار : القطيع

(٥) الشقراء: فرس زهير بن جذيمة ـ ومتنها: ظهرها . والجل ـ بالضم ـ السرج (م)

للسرى الرفاء

وقال بعض أهل العصر ، وهو السَّرى الموصلىّ[١] :

يوم رذاذ مُمَسَّـــك الحجُبِ · يَضحَكُ فيه السرورُ من كثَبِ[٢]
ومجلسٍ أُسبِلت ستـــائرُهُ · على شموسِ البهـــاء والحسبِ
وقد جرت خيـــلُ راحنا خَبَبًا · فى حلْبِها أو همن بالخبَبِ[٣]
والتهبت نارُنا فمنظرُهـــا · يُغنيك عن كل منظرٍ عجَبِ
إذ ارتمت بالشرار فاطَّردت · على ذُرَاها مَطَـــارِدُ اللَّهَب
رأيتَ ياقـــوتةً مشبكةً · تطيرُ عنها قُرَاضَـــةُ الذهب
فانهض إلى المجلس الذى ابتسمت · فيـه رياضُ الجمالِ والأدبِ

وقال بعض أهل العصر ، وهو أبو الفرج الببغا[٤] :

لأبى الفرج الببغاء

فَحمًا قدّم الغـــلامُ فأهْدَى · فى كوانينـــه حياةَ النُّفُوسِ
كانَ كالآبَنُوسِ غَيْرَ محلًّى · فغـدا وهو مُذْهَبُ الآبنوسِ
لقى النارَ فى ثيابِ حِـــدَادٍ · فـكسته مُصَبَّغَاتِ عرُوسِ

وقال أبو الفضل الميكالى :

لأبى الفضل الميكالى

كأن الشَّرارَ على نارنا · وقد راقَ مَنْظَرُها كلَّ عَـيْنِ
سُحَالةُ تِبرٍ إذا ما عـــلا · فإمَّا هَوَى ففُتَات اللُّجَيْنِ[٥]

* * *

لابن المعتز

وقال ابن المعتز يصف سحابة :

---

(١) هو السرى الرفاء، المتوفى ببغداد سنة ٣٦٦ . وسمى الرفاء لأنه كان فى صباه يرفو الثياب ، وهو جيد الشعر، كثير الولع بالأوصاف والتشبيهات (٢) الرذ ذ : مطر الضعيف . والكثب بالتحريك : القرب (٣) الخبب: ضرب من العدو ، وهو أن ينقل الفرس أيامنه جميعا وأياسره جميعا ، أو أن يراوح بين يديه (٤) هو عبد الواحد بن نصر ، المتوفى سنة ٣٩٨ . كان من أهل نصيبين ، واتصل بسيف الدولة ، ودخل الموصل وبغداد ونادم الملوك والرؤساء . (٥) السحالة : النخالة

وَمُوقَرَةٍ بِثِقَلِ المـــاء جاءَتْ تَهَادَى فوق أعنـــاقِ الرِّياحِ(١)

فباتَتْ ليلَهـــا سَحًّا ووَبْلاً وهَطلاً مثل أفـــواه الجِرَاحِ

كأن سماءَها لمـــا تجلَّتْ خِلالَ نجومها عنـد الصباحِ

رياضُ بَنَفْسَجٍ خَضِلٍ ثَراهُ تفتَّح بينـــه نَوْرُ الأقاحِ(٢)

وقال :

ولُجَّةٍ للمنـــايا خُضْتُ غَمْرَتَها بصارم ذكرٍ صَمْصَامَةٍ خَـذِمِ(٣)

وقارحٍ صَبَغَ الخِيلانُ دُهْمَتَهُ بشُهْبَةٍ كاختلاط الصُّبْحِ بالظُّلَمِ(٤)

وقال :

وليلٍ ككُحْلِ العَيْنِ خُضْتُ ظَلامَه بأزرقَ لمَّاعٍ وأبيضَ صـــارم

ومَضْبورةِ الأعضاد حَرْفٍ كأنها تصافح رضراض الحصى بمنَاسِم(٥)

وقال يصف حيَّة :

نَعَتُّ رقطاء لا تَحْيا لَديغَتُهَا لو قدَّها السَّيف لم يعلق به بلَلُ(٦)

تلقى إذا انسلخت فى الأرض جلدتها كأنها كُمُّ دِرْعٍ قدَّهُ بَطَلُ

وقال أيضاً :

وأسأر منى الدَّهرُ عَضْباً مُهَنَّداً يفلُّ شَبَا حظِّى ، وقلباً مشيَّعا(٧)

ورأياً كمرآة الصَّنَاع أرى بِهِ سرائرَ غَيْبِ الدهر من حيث ماسَعَى

---

(١) موقرة : مثقلة (٢) خضل : ندى (٣) خذم : قاطع (٤) قارح : الفارح من ذى الحافر بمنزلة البازل من الإبل ، وهو الذى قوى يبلوغه تسع سنين ، والخيلان : جمع خال وهو شامة فى البدن. والدهمة: السواد، والشهبة: لون بين السوادوالبياض

(٥) الأعضاد : جمع عضد ، ومضبورة : محكمة الخلق مكتنزة اللحم . وحرف : ضامرة . ورضراض الحصى : صغارها ، والمناسم : جمع منسم وهو خف البعير

(٦) رقطاء : منقطة ــ وانظر ديوانه (١١٣/٤) (م)

(٧) أسأر : أبقى ، والمشيع : الشجاع

أخذه من قول المنصور لابنه المهدى : لا تُبْرِمَنَّ أمراً حتى تفكّر فيه ؛ فإن فِكْرة العاقل مرآته ، تريه قبحه وحسنه .

ولما دُفِنَ المنصور وقف الربيعُ على قبره فقال : رَحِمَكَ اللهُ يا أمير المؤمنين ، وغفر لكَ ! فقد كان لك حِمًى من العقل لا يطيرُ به الجهل ، وكنت ترى باطنَ الأمر بمرآةٍ من الرأى ، كما ترى ظاهره . ثم التفت إلى يحيى بن محمد أخى المنصور فقال : هذا كما قال أبو دَهْبَل الجمحى[١] :

عُقِمَ النساء فما يَلِدْن شَبيهه ... إنَّ النساء بمثله عُقْمُ[٢]

وبعده[٣] :

متهلِّلٌ بنَعَمْ ، بلا مُتباعدٌ ... سِيَّانِ منه الوَفْرُ والعدمُ[٤]

نزْرُ الكلام من الحياء تخاله ... ضَمِناً ، وليس بجسمه سقمُ[٥]

أخذ البيت الأخير من قول ليلى الأخيلية[٦] :

لا تَقْرَبَنَّ الدَّهرَ آل مُطَرِّفٍ ... إنْ ظالماً يوماً وإنْ مظلوما

---

(١) فى الأصل «أبو دعبل» وهو تحريف (٢) عقم: جمع عقيم، وهى المرأة العاقر وقبل هذا البيت كما فى الحماسة :

إن البيوت معادن فنجاره ... ذهب وكل بيوته ضخم

والنجار : الأصل (٣) هذا استطراد من المؤلف (٤) الوفر والعدم : الغنى والفقر (٥) ضمن : مريض (٦) هى ليلى بنت عبدالله، اشتهرت بأخبارها مع توبة، ولها فيه شعر جميل ، وهى أشهر النساء الشواعر بعد الخنساء ، توفيت نحو سنة ٧٥ وأول هذه المقطوعة كما فى ديوان الحماسة :

يا أيها السدم الملوى رأسه ... ليقود من أهل الحجاز بريما

أتريد عمرو بن الخليع ودونه ... كعب ؟ إذن لوجدته مرءوما

إن الخليع ورهطه فى عامر ... كالقلب ألبس جؤجؤا وحزيما

السدم : الفحل الهائج . والبريم : الجيش المؤلف من أخلاط الناس. والمرءوم: المحوط بالعطف ، والجؤجؤ: الصدر

قوم رِباطُ الخيل حَوْلَ بُيُوتهم وأسـنةٌ زرقٌ يُخَلْنَ نُجُوما

ومُمزَّق عنـهُ القميص تَخَالُهُ وسطَ البيوت من الحياء سقيما

حتى إذا رُفِع اللواء رأيتـهُ يوم الهيـاج على الخميس زعيما[1]

وقال :

يُشَبَّهون ملوكا فى تجلتهمْ وطول أنصِبَة الأعْناق واللِّمَمْ[2]

إذا بَدَا المسكُ يَجرِى فى مَفَارِقهم راحُوا كأنهمُ مَرْضى من الكرم

وقال أبو على الحاتمى : وما أحسن أبياتا أنشدها أبو عمر المطرز غلام ثعلب يعترض فى أثنائها هذا المعنى :

تخالُهُم للحلم صُمًّا عن الخنا وخُرْساً عن الفَحْشَاء عند التَّهاتُرِ[3]

ومَرْضَى إذا لاقَوْا حياءً وعِفَّةً وعند الحروب كالليوث الخَوَادِرِ[4]

لهم عزُّ إنصافٍ وذلُّ تواضع بهم وَلَهُمْ ذَلّتْ رِقابُ العشائرِ

كأنَّ بهم وَصْماً يخافون عارهُ وليس بهم إلاّ اتقاء المَعايِرِ[5]

وأنشد :

أحلام عادٍ لا يَخافُ جَليسهُمْ وإن نطَقَ العوْراءَ عَيْبَ لسانِ

إذا حُدِّثوا لم يَخْشَ سوء استماعهم وإن حدَّثوا أدَّوْا بحُسْن بيان

* * *

---

(١) اللواء: الراية، والخميس: الجيش؛ لأنه خمس فرق: المقدمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساقة . والزعيم : الرئيس

(٢) الأنصبة : جمع نصاب ، وهو الأصل الذى ركب فيه العنق

(٣) التهاتر : تبادل السبابُ الباطل (٤) الخوادر: جمع خادر، وهو الليث يلزم أجمته (٥) المعاير : المعايب

وقال ابن المعتز :

وعاقِدِ زُنَّارٍ على غُصُنِ الآسِ دقيقِ المَعَانِى مُخْطَفِ الخصرِ مَيَّاسِ[1] لابن المعتز

سقانى عُقاراً صَبَّ فيها مِزَاجها فأضحكَ عن ثغرِ الحَبَابِ فَمَ الكاسِ

وقال :

ياليلةً نَسِىَ الزمانُ بها أحداثه ، كُونِى بلا فَجْرِ

فاح المساء ببدرها ، وَوَشَتْ فيها الصَّبا بمواقع القَطْرِ

ثم انقضت والقَلْبُ يَتْبَعُها فى حيث ماسقطتْ مِنَ الدَّهْرِ[2]

وقال :

يا رُبَّ إخوانٍ صحبتهمُ لا يملكون لِسلْوَةٍ قَلْبَا

لو تستطيع قلوبُهم نَفَرَتْ أجسامهم فتعانقت حُبّاً[3]

هذا كقول ابن الرومى :

أعانقه والنفسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إليه ، وهل بَعْدَ العِنَاقِ تَدَانِى ؟ لابن الرومى

وألثم فاه كى تَزُولَ حَرَارَتِى فيشتدَّ ما ألقى من الهَيَمَانِ

ولم يكُ مِقْدَارُ الذى بى مِنَ الهَوَى ليروِيَهُ ما ترشُفُ الشَّفَتان

كأنَّ فؤادى ليس يشفى غليلَهُ سوى أن يُرَى الروحانِ يَمْتزِجَانِ

ومن منثوره : لايزالُ الإخْوَانُ يُسافرون فى المودَّة ، حتى يبلغوا الشُّقة ، فإذا بلغوها أَلْقَوْا عَصاَ التَّسيار ، واطمأنَّتْ بهم الدار ، وأقبلت وفودُ النصائح ، وأمنت خَبايَا الضمائر ، فحلُّوا عُقَد التحفظ ، ونزعوا ملابس التَّخَلُّق . من نثر ابن المعتز

وله : سار فلان فى جيوش عليهم أَرْدِيَة السيوف ، وأَقْمِصَة الحديد ،

---

(١) الزنار : رباط يشد به الخصر ـ ومخطف الخصر : ضامره ، ومثله أخطف ومخطوف (٢) هذا البيت غاية فى روعة الخيال (٣) نفرت : سعت — والذى فى الديوان (١٢٦) فقدت * أجسادها وتعانقت حبا (م)

وكأنّ رِمَاحَهم قرونُ الوُعُولِ(١) ، وكأنّ دُروعَهم زَبَدُ السيولِ ، على خيـل تأكل الأرضَ بحوافرها ، وتمدّ بالنَّقْعِ سُرَادقَهَا(٢) ، قد نُشرت فى وجوهها غُرَر كأنها صحائف الرَّق(٣) ، وأمسكها تحجيلٌ كأنه أسورة اللُّجين(٤) ، وقُرِّطت عُذُراً كأنها الشُّنف(٥) ، تتلقف الأعداءِ أوائلُهُ ولم تَنهَضْ أواخره ، قد صُبَّ عليهم وقارُ الصبر ، وهبّت معهم ريح النَّصرْ .

وله فى عليل : آذنَ اللهُ فى شفائك ، وتَلَقَّى داءك بدوائك ، ومسحَ بيدِ العافيةِ عليك ، ووجَّه وَفْدَ السلامة إليك ، وجعـل عِلَّتك ماحيةً لذنوبك ، مضاعفةً لثوابك .

وكتب إلى عبيد الله بن سليمان بن وَهب(٦) فى يوم عيد : أخَّرَتني العِلَّةُ عن الوزير أعزَّهُ الله ، فحضرت بالدعاء فى كـ ـوبَ عنى ، ويَمُّر ما أخْلَتْه العوائِقُ منى ، وأنا أسألُ الله تعالى أن يجعلَ هذا العيدَ أعظَمَ الأعياد السالفة بركةً على الوزير ، ودون الأعياد المستَقْبَلَة فيما يُحِبُّ ويُحَبُّ له ، ويَقْبل ماتوسل به إلى مَرْضَاته ، ويضاعفَ الإحسان إليه ، على الإحسان منه ، ويمتّعه بصحبة النعمة ولباسِ العافية ، ولا يُرِيَهُ فى مسرَّةٍ نقصاً ، ولايقطع عنه مَزِيداً ، ويجعلنى من كل سوءٍ فِدَاءه ، ويصرف عيون الغِيَرِ عنه ، وعن حظّي منه .

---

(١) الوعول : جمع وعل ، وهو التيس الجبلى . (٢) النقع : غبار الحرب
(٣) الرق ، بالفتح ويكسر : جلد رقيق يكتب فيه (٤) اللجين : الفضة
(٥) الشنف ، بالفتح : القرط ، والعذر بضمتين: جمع عذار
(٦) وزير من أكابر الكتاب ، استوزره المعتمد على الله وأقره بعده المعتضد ، واستمرت وزارته عشر سنين وخمسين يوما ، وكانت وفاته سنة ٢٨٨ . وهو الذى قال فيه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حين وزر للمعتضد :

أبى دهرنا إسعافنا فى نفوسنا وأسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقلت له : نعماك فيهم أتمها ودع أمرنا ؛ إن الأهم مقدم

وله إلى بعض الرؤساء : لاتَشِنْ حُسْنَ الظَّفَر بقُبحِ الانتقام، وتجاوز عن كل مُذْنِب لم يَسْلُكْ من الإعذار طريقاً[١] حتى اتخذ من رجاء عَفْوِكَ رفيقاً .

وله اعتذار إلى القاسم بن عُبَيْدِ الله : ترفّع عن ظُلْمِي إن كنتُ بَرِيئاً ، وتفضَّل بالعفو إن كنتُ مسيئاً ، فوالله إنى لأطْلُبُ عَفوَ ذَنْبٍ لم أجْنِه ، وألتمس الإقالةَ مما لاأعرفه ؛ لتزدادَ تطوُّلا ، وأزداد تَذَلُّلاً ؛ وأنا أُعِيذُ حالى عندك بكرمك من واشٍ يَكِيدُهَا ، وأحْرُسها بوفائك من باغٍ يحاولُ إفسادها ، وأسأل الله تعالى أنْ يجعلَ حظّى منك ، بقدر وُدِّى لك ؛ ومحلّى من رجائك ، بحيث أستحقُّ منك .

وله إليه : لوكان فى الصَّمْتِ مَوضعٌ يَسَعُ حالى لخففْت عن سَمْعِ الوزير ونَظَره ، ولم أشغل وَجْهاً من فِكْره ، وما زالت الشكوى، تُعْرِبُ عن لسانِ البَلْوَى، ومن اختلّت حالته ، كان فى الصَّمْتِ هَتَكَتُه ، وقد كان الصبرُ ينصرُنِى على سَتْرِ أمْرِى حتى خذلنى .

وهذا كقول أحمد بن إسماعيل : فصاحةُ الشكوى ، على قَدْرِ البلوى ، إلا أن يكونَ بالشاكى انقباض ، وبالمشكُوِّ إليه إعْرَاض .

[وصف الماء وما يتصل به]

لابن المعتز يصف ماء

وقد أحسن أبو العباس بن المعتز فى صفة الماءفى أرجوزته التى أنشدتها آنفاً ، وقد قال فى قصيدة له وذكر إبلاً :

فتبدَّى لهنَّ بالنَّجَفِ المُذْ ... بِرِ ماء صافى الجمام عَرِىُّ[٢]

---

(١) الإعذار : ابداء العذر ، وفى الأصل «الأقدار» وهو تحريف

(٢) النجف، محركةوبهاء، مكان لايعلوه الماء مستطيل منقاد ويكون فى بطن الوادى وقد يكون ببطن من الأرض . والجمام : جمع جم. وهو الماء الكثير ، والمرى : المنيء

يتمشى على حصًى يَسْلُبُ الما • فَذَاه فمتْنُه مَجْلِيُّ(١)
وإذا داخلته دُرّةُ شمسٍ خلته كُسّرت عليه الحُلِيُّ

وقال(٢) :

وله أيضاً يحن للدويرة ويصف ماء

لا مثـــل منزلة الدُّوَيرة منزلٌ يادارُ جادكِ وَابِلٌ وسَقَاكِ(٣)
بُؤساً لدهرٍ غيّرتكِ صروفهُ لم يَمْحُ من قلبي الهوى ومحاكِ
لم يَحْلُ للعينين بعدك منظرٌ ذُمّ المنازل كلّهن سِوَاكِ
أيّ المعاهد منكِ أندُبُ طيبَهُ مُمْساكِ بالآصال أم مَغْـــدَاكِ
أم بَرْدُ ظلّك ذي الغصون وذي الجنى أم أرضكِ الميثـــاء أم رَيّاكِ(٤)
وكأنما سطعت مجامرُ عنـــبرٍ أو فُتّ فأرُ المسكِ فوق ثَراكِ(٥)
وكأنمـا حَصْبَاءُ أرضكِ جَوْهَرٌ وكأنّ ماء الوردِ دَمْعُ نَداكِ
[وكأنما أيدي الربيع ضُحَيّه نشرَتْ ثيابَ الوَشْيِ فوق رُباكِ](٦)
وكأن دِرْعاً مُفرغا من فِضّةٍ ماءُ الغدير جرَتْ عليه صَبَاكِ(٧)

لعاتكة المرية في وصف ماء

وعشقت عاتكةَ المرية ابنَ عمّ لها فراودها عن نفسها فقالت :

فمـــا طَعْمَ ماءٍ أيّ ماءٍ تقولهُ تحدّر عن غُرّ طوالِ الذوائبِ
بمنعرَجٍ من بطنِ وادٍ تقابلتْ عليه رياحُ الصيفِ من كل جانبِ
نَفَتْ جَرْيَةُ الماء القَذَى عن متونه فما إن به عَيْبٌ تَرَاهُ لِشَاربِ
بأطيبَ ممن يقصِر الطّرْفَ دونَهُ تُقَى اللهِ واستحياءُ بَعْضِ العواقبِ

وأنشد الأصمعي قال : أنشدني أبو عمرو بن العلاء لجابر بن الأرق ، وقال :
هو أحْسَنُ ما قِيلَ في معناه :

---

(١) من حق العربية عليه أن يقول « فمتنه مجلو » فإن فعله جلاه يجلوه (م) .
(٢) هذه الكافية من أروع ما قال ابن المعتز ، وقد ترجمتها إلى الفرنسية في كتابي
La prose arabe au ive siécle de l'hegire
(٣) الدويرة : محلة ببغداد (٤) رواية الديوان (أم برد ظلك ذي العيون وذي الحيا) والميثاء : اللينة (٥) فأر المسك : ما تجمد من دم الغزال (٦) ضحية : تصغير ضحوة ، وانتصابه على الظرفية الزمانية (م) (٧) مفرغ : مصبوب

لجابر بن الأرق يصف الماء

أيا وَيْحَ نفسي كلما التحتْ لوحةً[1] على شَرْبَةٍ من ماء أخْوَاضِ مَأْرِبِ[2]

بقايا نِطَافٍ أوْدَعَ الغيم صَفْوها مصقَّلة الأرجاء زُرْق المشارِبِ[3]

تَرَقْرَقَ دَمْعُ المُزْنِ فيهن والتوَتْ عليهن أنفاسُ الرياح الغرائب

وللأبيرد اليربوعى

وأنشد إسحاق بن إبراهيم للأُبَيْرِد اليربوعى، ورويت لمضرِّس بن ربعى الأسدي:

فألقتْ عصا التَّسْيَارِ عنها، وخَيَّمت بأرجاء عَذْبِ الماء زُرْقٍ محافِرُهْ

أزال القَذَى عن مائه وَافِدُ الصَّبا يروحُ عليــــه ناسماً ويُبَاكِره

ولزهير

وأول من أتى بهذا زهير بن أبى سُلْمَى فى قوله:

فلما وردْن الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ وضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المتخيِّمِ[4]

ولابن الرومى

وقال ابن الرومى:

وماء جَلَتْ عن حُرِّ صفحته القَذَى من الريح مِعْطارُ الأصائل والبُكَرْ

به عَبَقٌ مِمَّا تسَحَّبَ فوقَهُ نسيمُ الصبا يجْرى على النَّوْرِ والزَّهَرْ

[وصف الدور والقصور]

البحترى يصف بركة الجعفرى

ويتعلق بهذا الباب قولُ البحترى يصف بِركة الجعفرى[5] وهو قصر ابتناه المتوكل فى سُرَّ مَنْ رأى:

---

(١) التحت: عطشت، من قولهم لاحه العطش ولوحه إذا غيره، وهو ملتاح، وبه لوح شديد، وبعير ملواح وإبل ملاويح: سريعة العطش

(٢) مأرب: هى بلاد الأزد باليمن، وهى غير مهموزة لأنها وردت كذلك فى الخطوط الحميرية كما أخبرنا السنيور نللينو. وهذا لاينافى أنها همزت فى بعض الأشعار، ولسد مارب وسيل العرم قصص طويلة ذكر بعضها فى معجم البلدان.

(٣) النطاف والنطف: جمع نطفة، وهى الماء الصافى قل أو كثر (٤) المتخيم: المقيم

(٥) الجعفرى: اسم قصر بناه المتوكل قرب سامراء، فلما انتقل إليه انتقل معه أهل سامراء حتى كادت تخلو، وفى هذا القصر قتل المتوكل فى شوال سنة ٢٤٧، وسميت البركة بركة لإقامة الماء فيها، من بروك البعير

يامَنْ رَأى البِركَةَ الحسناورونقها   والآنسات إذا لاحَتْ مَغانيها[١]
ما بالُ دجلة كالغَيْرَى تُنافسها   فى الحُسْنِ طوْرا وأطْوَارا تُباهيها !
إذا عَلَتْها الصَّبا أبْدَت لهـا حُبُكا   مثل الجواشِن مَصْقولاً حَوَاشيها[٢]
فحاجبُ الشمسِ أحيانا يُغازلها   وريّقُ الغيث أحيانًا يُباكيها[٣]
إذا النجومُ تراءتْ فى جوانبها   ليــلا حسِبْت سماء رُكّبتْ فيها
كأنما الفِضّـةُ البيضاء ســـائلة   من السّبائك تجْرى فى مَجَاريها
تنصبّ فيها وفودُ الماء مُعْجَلةً   كالخيلِ خارجةً من حَبْل مُجريها[٤]
كأنّ جنّ سليمانَ الذين وَلُوا   إبدَاعَها فأدقُّوا فى مَعَانيهـا
فلو تمرُّ بهـا بِلقيسُ عن عُرُضٍ   قالت : هى الصَّرْحُ تمثيلاً وتشبيها[٥]
[لا يبلغ السمكُ المقصور غايتها   لبُعْدِ ما بين قاصيها ودانيها]
يَعُمْنَ فيها بأوْسَاطٍ مُجنّحةٍ   كالطّير تنشر فى جوّ خَوَافِيها

ولم يُنْفِقْ أحدٌ من خلفاء بنى العبّاس فى البناء ما أنْفَقَه المتوكل ؛ وذلك أنه أنفق فى أبنيته ثلثمائة ألف ألف ، وفى أبنيته يقول على بن الجهم[٦] :

---

(١) رواية الديوان « الحسناء رؤيتها »
(٢) الجواشن: جمع جوشن، وهو الدرع ، وفى الأصل «من الجواشن » وهو تحريف (٣) رواية الديوان «يضاحكها» وهى أنسب
(٤) الوفود : جمع وفد ، وهو هنا تيارالماء (٥) عن عرض : من جانب ، وفى الأصل «معرضة » وقد آثرنا رواية الديوان .
(٦) شاعر فحل من معاصرى أبى تمام والبحترى، وهو صاحب الرائية المشهورة التى يقول فى أولها :

عيون المهـا بين الرصافة فالجسر   جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
أعدن لى الشوق القديم ، ولم أكن   سلوت، ولكن زدن جمراً إلى جمر

اختص بالمتوكل ، ثم غضب عليه فنفاه إلى خراسان ، فأقام بهامدة ، ورحل إلى حلب ، فقتله بقربها بعض بنى كلب سنة ٢٤٩ .

لعلى بن الجهم يصف قصور المتوكل

وما زِلتُ أَسْمَع أنَّ الملو ... كَ تبني على قَدْرِ أَخْطَارِها
وأعـــلمُ أنَّ عقولَ الرجا ... ل يُقضَى عليها بآثارِها
صُحونٌ تسافر فيها العُيون ... فتَحْسِر من بُعْد أقطَارِها[1]
وقبَّـة مُلكٍ كأنَّ النجو ... م تُفضي إليها بأسْرَارِها
إذا أُوقِدَت نَارُها بالعراق ... أضاء الحِجازَ سَنَا نَارِها
لهـا شُرُفات كأنَّ الربيع ... كساها الرِّياضَ بأنوَارِها
فهنَّ كمصطحباتٍ خَرَجْنَ ... لِفصح النَّصارى وإفطارِها[2]
نظمن القِسِيَّ كنظم الحلى ... بعُونِ النســاء وأبْكارِها[3]
فمن بين عاقصةٍ شَعْرَها ... ومُصلحة عَقْـد زُنَّارِها[4]

وللبحترى فيها شعرٌ كثير منه :

وللبحترى

أرى المتوكلِيّة قد تعالَتْ ... مصانعها وأكملت التماما[5]
قصور كالكواكب لامِعَاتٌ ... يَكَدْنَ يُضِئْن للسارى الظلاما
وروض مثل بُرْدِ الوَشْى فيه ... جنى الحَوْذان ينشر والخُزَامى[6]
غرائب من فنون النَّور فيها ... جنَى الزهر الفُرادى والتؤاما
تُضَاحِكُهَا الضحى طوراً وطوراً ... عليه الغيم ينسجمُ انسجاما[7]
ولو لم يستهلّ لهـا غمامٌ ... بِرَيِّقه لكنت لهـا غماما[8]

وقال أيضاً :

قد تمَّ حُسْنُ الجعفرىّ ولم يكن ... ليَتِمَّ إلاّ للخليفة جعـفرِ

---

(١) تحسر : تكل، والأقطار: النواحي والأرجاء (٢) الفصح: من أعياد النصارى
(٣) عون : جمع عوان ، على وزن سحاب ، وهى التى كان لها زوج .
(٤) الزنار : رباط يشد به الخصر (٥) مصانعها: مبانيها ، وفى الديوان «محاسنها»
(٦) الحوذان والخزامى: من النباتات المزهرة (٧) فى الأصل « يضاحك نورها »
وقد آثرنا رواية الديوان (٨) ريق القطر : الغزير منه .

ملكٌ تبوَّأ خيرَ دارٍ أُنشئت [في خير مَبْدًى للأنَامِ ومَحْضَرِ]
[في رأس مشرفة حَصاها لُؤْلؤٌ] وترابُها مِسْكٌ يُشَابُ بعَنْبرِ [1]
مُخْضَرَّة والغيثُ ليس بسَاكبٍ ومضيئة والليلُ ليس بمقْمِرِ
رفعت بمُنْخَرقِ الرياح،وجاورت ظِلَّ الغمامِ الصيِّبِ المستعبرِ [2]

و بعده :

ورفعت بُنْيانا كأن زُهاءَهُ أعلامُ رَضْوَى أو شواهق ضَيْبرِ [3]
عالٍ على لَحْظِ العيـوننِ كأنما ينظرنَ منه إلى بياضِ المشـترى [4]
ملأَت جوانبُه الفضاء ، وعانقَتْ شُرفاته قِطَعَ السحابِ الممطِرِ
وتسيل دجـلة تَحْتَه ففناؤهُ من لُجَّـة فُرِشت ورَوْض أَخْضرِ
شجر تُـلاَعِبه الرياحُ فتنثنى أعطافُه في سَائحٍ متفجِّرِ

للصنوبري يصف موضعا في حلب

أخذ أبو بكر الصنبوري [5] قولَ البحترى فى صفة البركة فقال يصف موضعا :

سقى حلبًا سافِكٌ دَمعهُ بَطِيءُ الرَّقوء إذا ماسَفَكْ [6]
مَيادينُه بُسْطُهُنَّ الرياض وساحاتُهُ بينهـــن البِرَكْ
ترى الريح تَنْسِج من مائهِ دُرُوعًا مُضَاعَفةً أو شَبَكْ
كأن الزجاجَ عليهـا أذيبَ وماء اللُّجَيْنِ بهـا قد سُبِكْ
هى الجوُّ من رِقَّةٍ غـير أنَّ مكانَ الطيورِ يَطِيرُ السَّمَكْ
وقد نُظِمَ الزهر نظم النجوم فمفترق النَّظْم أو مشتبِكْ

---

(١) يشاب : يمزج (٢) الصيب : الـكثير الانهمال ، ورواية الديوان :
ظهرت لمخترق الشمال وجاورت ظلل الغمام الصائب المستغزر
(٣) رضوى وضير : جبلان ، وفى الأصل « شواهق منبر» وهو تحريف
(٤) المشترى: اسم نجم . (٥) هو أحمد بن محمد الحلبى المتوفى سنة ٣٣٤
(٦) الرقوء : السكون ، يقال : رقأ دمعه ودمه ، ولا رقأت دمعة فلان ، ولا أرقأ الله عينه . ومن كلامهم : اليأس رقوء الدمع ، وقال ذو الرمة :
لئن قطع اليأس الحنين فإنه رقوء لتذراف الدموع السوافك

كما درَّج الماء مَرُّ الصَّبا ودبَّجَ وجــهَ السماء الحُبُكْ
يُبَاهِين أعلامَ قُمصِ القِيان ونَقْشَ عَصَائبها والتِّــكَكْ

وأخذ قوله :

* إذا النُّجُوم تراءتْ فى جوَانبها *

فقال :

ولما تعــالى البدرُ وامتدَّ ضوءهُ بدجلة فى تشرين فى الطّولِ والعرْض
وقد قابل المـــاء المفضض نورهُ و بعضُ نجوم الليل يَقْفُو سَنَا بَعْضِ[1]
توهَّم ذو العـــين البصيرة أنهُ يرى باطن الأفلاكِ مِنْ ظَاهِرِ الأرض

ولأهلِ العصر فى هذا النَّحْوِ كلامُ كثير :

للميكالى يصف بركه

قال الأمير أبو الفضل الميكالى ، يصف بركة وقع عليها شعاع الشمس فألقته على مَهْو مطل[2] عليها يقول :

أما ترى البركة الغراء قــد لَبِسَتْ نوراً من الشمس فى حافاتها سطعَا
والَمهْو من فوقهــا يُلهِيك منظَرُهُ كأنهُ ملكٌ فى دَسْـــتِه ارتفعَا
والمـــاء من تحته ألقى الشعاع على أعلى سمـــاواته فارتجَّ مُلتَمِعا
كأنه السيفُ مصقولاً تُقلِّبُه كفُّ الكميِّ إلى ضَرْبِ الكميِّ سَعَى[3]

لعلى بن محمد الإيادى يصف دارالبالمنصورية

وقال على بن محمد الإيادى يمدح المعزَّ و يصف دار البحر بالمنصورية[4] :

ولما استطال المَجْدُ واستولت البُنى[5] على النَّجْم واشتدَّ الرواق المروَّقُ
بنى قبةً للملك فى وَسْطِ جَنَّةٍ لها منظرٌ يَزْهى به الطَّرْفُ مُونقُ
بمعشوقة الساحات ، أمَّا عِراصُها[6] فَخُضْرٌ ، وأمَّاطيرها فَهْىَ نُطَّقُ

---

(١) يقفو : يتبع ، والسنا : الضوء . (٢) المهو : الحصى الأبيض (م)
(٢) الكمى : الشجاع (٣) المنصورية : مدينة بقرب القيروان (٤) البنى : جمع بنية ، بالضم والكسر (٥) العراص : هى الباحات

تحفّ بقصرٍ ذى قصورٍ كأنما ... ترى البحر فى أرجائه وهو مُتأق(١)
له بركةٌ للماء مِلْء فضائه ... تَخُبُّ بقصريها العيون وتعنق(٢)
لها جدولٌ ينصبُّ فيها كأنه ... حُسام جلاه القَين بالأرض مُلصق(٣)
لها مجلس قد قام فى وسْط مائها ... كما قام فى فيض الفرات الخورنق(٤)
كأنّ صفاء الماء فيها وحسنه ... زجاج صفت أرجاؤه فهو أزرق
إذا بثّ فيها الليل أشخاص نجمه ... رأيت وجوه الزنج بالنار تُحرق
وإن صافحتها الشمس لاحتْ كأنها ... فرندٌ على تاج المعزّ ورونق
كأن شُرافات المقاصر حولها ... عذارى عليهن الملاء المنطّق
يذوب الجفاء الجعدُ عن وجه مائها ... كما ذاب آلُ الصحصحان المرقرق(٥)

لعبد الكريم ابن إبراهيم يصف موضعا

وقال عبد الكريم بن إبراهيم :

يا ربّ فتيانِ صِدْقٍ رُحتُ بينهمُ ... والشمس كالدّنف المعشوق فى الأفق
مَرْضَى أصائلها حسرى شمائلها ... تروّح الغصن الممطور فى الورق
معاطيا شمسَ إبريق إذا مُزجتْ ... تقلدتْ عقدَ مرجان من النزق
عن ماحلٍ طافحٍ بالمـــاء مُعتلج ... كأنما نفسه صيغتْ من الحدق
تضمّهُ الرّيحُ أحيانا، وتفرّقهُ ... فالمـاء ما بين محبوس ومنطلق
من أخضر ناضر والطَّلُّ يلحقهُ ... وأبيض تحت قيظىّ الضحى يقق(٦)
تهزّهُ الريح أحيـــانًا فيمنحُها ... للزّجر خفقَ فؤادِ العاشق القلق
كأنّ خافاته نُطقن من زبدٍ ... مناطقـاً رُصّعتْ من لؤلؤ نسق

---

(١) متأق : ملآن (٢) تخب وتعنق : من الخبب والعنق بفتحتين وهما من أنواع السير (٣) القين : الحداد (٤) الخورنق: اسم قصر (٥) الصحصحان : موضع بين حلب وتدمر ، والآل : السراب .(٦) قيظى : منسوب إلى القيظ وهو الحر الشديد. وفى الأصل « قبطى » وهو تحريف ، واليقق : الناصع البياض .

كأن قُبتَّه من سُنْدُس نمطٍ حسناء مَجْلُوَّةُ اللبَّات والعُنُقِ
إذا تبلّج فَجْــرٌ فوق زُرْقَتِهِ حسبته فرســاً دهماء فى بَلَق (١)
أو لازوَرْداً جرَى فى مَتْنِهِ ذَهَب فلاح فى شارقٍ من مائه شرق
عشية كملت حُسناً وساعدَها ليلٌ يُمَدِّدُ أطنــاباً على الأُفُقِ
تجلى بغُرَّةِ وَضّاح الجبــين له ما شئتَ من كَرمٍ وافٍ ومن خُلُقِ

ألفاظ لأهل العصر فى وصف الماء وما يتصل به

ماء كالزُّجَاج الأزرق ، غدير كعين الشمس ، مَوَارِد كالمَبَارِد ، وماء كلسان الشمعة ، فى صفاء الدَّمْعَة ، يسبح فى الرَّضْرَاض، سَبْحَ النَّضْنَاض، ماء أزرق كعين السِّنَّور (٢)، صاف كقضيب البلّور ، ماء إذا مسَّته يَدُ النسيم حكى سلاسِلَ الفضة ، ماء إذا صافحته راحة الريح ، لبسَ الدِّرْع كالمسيح ، كأنَّ الغديرَ بتراب الماء رداءٌ مُصندَل ، بركة كأنها مرآة السماء ، بركة مفروزة بالخضرة ، كأنها مرآة مجلوّة ، على ديباجة خضراء ، بركة ماء كأنها مرآة الصَّناع (٣)، غدير ترقرقت فيه دموعُ السحائب، وتواترَتْ عليه أنفاسُ الرياح الغرائب ، ماء زُرق جمامه ، طامية أرجاؤه ، يَبُوحُ بأسْرَاره صفاؤه ، وتلوحُ فى قراره حَصْبَاؤه ، ماء كأنما يفقده مَنْ يَشْهَدُه ، يتسلْسَل كالزرافين (٤) ، ويرضع أولاد الرَّيَاحين ، انحلَّ عقدُ السماء ، ووَهَى عقدالأنْوَاء ، انحلَّ سلكُ القطر عن دُرِّ البَحْر ، أسْعَد السحابُ جفونَ العُشَّاق (٥) ، وأكفَّ الأجـواد ، وانحلَّ خَيْطُ السماء ، وانقطع

(١) البلق : ارتفاع التحجيل إلى الفخذين (٢) السنور : القط .
(٣) الصناع : المرأة الماهرة فيما تصنع وكأنما يرادبهاهنا المرأة التى تهتم بزينة النساء
(٤) الزرافين : الآلات يرفع بها الماء ، فترى له عليها بريقاً ولمعاناً
(٥) أسعد : من الإسعاد، وهو المشاركة فى البكاء

شِرْيَانُ الغَمامِ ، سحابة يتجلّى عليها ماء البحر ، وتفضُّ علينا عقودَ الدّر ، سحابٌ حكى المحبَّ فى انسكاب دموعِه ، والتهاب النارِ بين ضُلُوعه ، سحابة تحدو من الغيوم جمالاً ، وتمدُّ من الأمطار حِبالا ، سحابة ترسلُ الأمطارَ أمواجاً ، والأمواجَ أفواجاً ، تحللت عقد السماء بالدِّيمة الهَطْلاء ، غيثٌ أجشُّ[1] يروى الهِضَابَ والآكام[2] ، ويُحيي النبات والسَّوام[3] ، غيثٌ كغزارة فضلِكَ ، وسلاسة طبعك ، وسلامة عقدك ، وصفاء وُدِّك ، وَبْلٌ كالنبل ، سحابة يَضْحَكُ من بكائها الرَّوض ، وتخضرّ من سَوَادها الأرض ، سحابة لا تجفُّ جفونُها ولا يَخف أنينهـا ، ديمة رَوَّتْ أديمَ الثرى ، ونبهت عيونَ النَّوْرِ من الكَرى ، سحابةٌ ركبت أعْناق الرياح ، وسَحَّتْ كأفْوَاه الجراح ، مطر كأفواه القِرَب ، ووَحل إلى الركب ، أنْدِية مَنَّ الله معها على البيوت بالثُّبُوت ، وعلى السقوف بالوُقُوف ، أقْبل السَّيْلُ يَنْحَدِرُ انحدارا ، ويحمل أحجاراً وأشجارا ، كأن به جِنة ، أو فى أحشائه أجِنَّة .

و بعض ما مر من هذه الألفاظ محلول نظام ما تقدم إنشاده .

ولهم فى مقدمات المطر

لبست السماء جِلبَابها ، وسحبت السحائبُ أذيالها ، قد احتجبت الشمسُ فى سُرَادق الغَيْم ، ولبس الجوُّ مُطْرَفَهُ الأدكَنَ ، باحت الريحُ بأسْرَارِ النَّـدَى ، وضربت خَيْمَةَ الغمام ، ورش جيش النسيم ، وابتل جناحُ الهواء ، واغرورقت مُقْلة السماء ، و بَشَّرَ النسيم بالندى ، واستعدت الأرضُ للقطر ، هبتْ شمائلُ الجَنائبُ ، لتأليف شمل السحائب . تألفت أشتاتُ الغيوم ، وأسبلت الستور على النجوم .

---

(١) أجش : ذو صوت (م) (٢) الآكام : جمع أكمة وهى التل .
(٣) السوام : جمع سائمة ، وهى الماشية (م)

وفي الرعد والبرق

قام خطيبُ الرَّعْدِ ، ونبض عِرْقُ البَرْقِ ، سحابة ارتجزت[1] رَوَاعدها ، وأذهبت بروقها مطاردها ، نطقَ لسانُ الرعد ، وخفق قَلْبُ البرق ، فالرعْدُ ذو صَخَبٍ ، والبَرْقُ ذو لَهَبٍ ، ابتسم البَرْقُ عن قهقهة الرعد ، زأرت أُسْدُ الرعد ، ولمعت سيوف البَرْقِ ، رعــدت [سيوفُ] الغمائم ، وبَرَقَتْ ، وانحلت عَزَالِيُّ السماء فطبقت ، هَدَرت رَوَاعدها ، وقربت أَبَاعدها ، وصدقت مَوَاعدها . كأن البرق قلب مَشُوق ، بين التهاب وخُفُوق .

ويتصل بهذه الأنحاء

ما حكاه عمر بن على المطوعى قال : رأى الأمير السيد أبو الفضل عبيد الله ابن أحمد ـ أدام الله عزه ! ـ أيام مُقَامِهِ بجُوَيْن أن يطالع قريةً من قرى ضِيَاعه تدعى نجاب على سبيل التنزّه والتفرُّج ، فكنت فى جملة مَن استصحبه إليهــــا من أصحابه ، واتّفق أنا وصلنا والسماء مُصْحِية ، والجوُّ صاف لم يطرز ثوبه بعلم الغمام ، والأفق فَيْرُوزَج لم يعبق به كافور السحاب ؛ فوقع الاختيار على ظلِّ شجرةٍ باسقة الفروع[2] ، متّسِقَةَ الأوراق والغصون ، قد سترت ما حواليْهَا من الأرض طولا وعرضاً ، فنزلنا تحتها مستظلّينَ بسَمَاوَةِ أفنَانِها[3] ، مستترينَ من وَهَج الشمس بستارة أغصانها ، وأخذنا نتجاذبُ أذيال المذاكرة ، ونتسالب أهْدَاب المُنَاشَدَة والمحاورة ؛ فما شعرنا بالسّماء إلا وقد أرْعَدَتْ وأبرقت ، وأظلَمَتْ بعد ما أشرقت ، ثم جادت بمَطَرٍ كأفْوَاه القِرَب فأجَادت ، وحكت أنامل الأجْوَاد ومدامع العشاق[4] ، بل

(١) ارتجزت : أراد صوتت (م) (٢) باسقه : عالية مرتفعة (م) .

(٣) السماوة : السماء وهو السقف ـ والأفنان : جمع فنن ، بالتحريك ، وهو الغصن (م) (٤) المدامع : جمع مدمع ، وهو هنا مكان الدمع .

أوْفَتْ عليها وزادت، حتى كاد غيثها يعود عَيْثا[١] ، وَهَمَّ وَبْلها أن يستحيل وَيْلاً فصبرنا على أذاها ، وقلنا : سَحَابة صيفٍ عما قليلٍ تَقَشَّع ، فإذا نحن بها قد أمطرتنا بَرَداً كالثُّغُورِ ، لـكنها من ثغور العَذَاب ، لا من الثغور العِذَاب ، فأيقنا بالبَلاَء ، وسلَّمنا لأسباب القضاء ؛ فما مرت إلا ساعةٌ من النهار ، حتى سمعنا خَرِيرَ الأنهار ، ورأينا السَّيْلَ قد بلغ الزُّبَى [٢] ، والماء قد غَمَرَ القِيعان والرُّبى [٣] ؛ فبادرنا إلى حِصْن القرية لائذين من السَّيْلِ بأفنيتها ، وعائذين من القطر بأبنيتها ، وأثوابنا قد صَنْدَل كافوريَّها ماء الوَبْل ، وغلَّف طِرازيَّها طينُ الوَحْل ، ونحن نحمدُ اللهَ تعالى على سلامة الأبدان ، وإن فقدنا بَيَاضَ الأكمام والأردان ، ونشكره على سلامةِ الأنفس والأرواح ، شُكْرَ التاجر على بقاء رأسِ المال إذا فُجِــع بالأرباح ؛ فبتنا تلك الليلة فى سماء تَسْكِفُ ولا تَسْكُفُ [٤] ، وتبكى علينا إلى الصباح بأَدْمُعٍ هَوَامٍ [٥] ، وأربعة سِجَام ؛ فلما سُلَّ سيفُ الصبح من غِمد الظلام ، وصُرِفَ بِوَالى الصحو عَامِلُ الغمام ، رأينا صوابَ الرأى أن نُوسِع الإقامة بها رَفْضاً ، ونتخذ الارتحالَ عنها فَرْضاً ؛ فما زِلْنا نطوى الصحارى أرضاً فأرضاً ، إلى أن وافينا المستقر ركضاً ؛ فلما نَفَضْنا غُبَارَ ذلك المسير ، الذى جمعنا فى رِبْقَةِ الأسير ، وأفضينا إلى ساحةِ التيسير ، بعد ما أُصِبْنا بالأمرِ العسير ، وتذاكَرْنا ما لقينا من التعب والمشقة ، فى قطع ذلك الطريق وَطَىِّ تلك الشُّقة ، أخذ الأمير السيد ـ أطال الله بقاءه ! ـ القلم فعلق هذه الأبيات ارتجالاً :

دَهَتْنا السماء غَدَاةَ السَّحَاب ... بغيثٍ على أفقه مُسْبِلِ

فَجَاء بِرَعْــــدٍ له رَنَّةٌ ... كرنَّةِ ثَكْلَى ولم تثكلِ

---

(١) العيث : الفساد (٢) الزبى جمع زبية، وهى الرابية لا يعلوها ماء

(٣) القيعان : جمع قاع، والربى: جمع ربوة (٤) تسكف: تسيل، وتسكف: تمتنع

(٥) هوام : جمع هامية ، وسجام : جمع ساجمة ، أى ممطرة

وثَنّى بوَبْلٍ عَدَا طَوْرَهُ ... فعاد وَبالاً على المُمْحِلِ[1]
وأشرف أصحابُنا من أذاهُ ... على خطرٍ هائلٍ مُعضِلِ
فمِنْ لائذٍ بفناء الجدار ... وآوٍ إلى نَفَقٍ مُهْمَلِ[2]
ومن مستجيرٍ يُنادى :الغريقَ ... هناك ، ومن صارخٍ مُعْوِلِ
وجادَتْ علينا سَماءُ السقوف ... بِدَمْعٍ من الوَجْدِ لم يهمل
كأنّ حَراماً لها أن تَرَى ... يَبِيساً من الأرض لم يُبْلَلِ
وأقبلَ سَيْلٌ له رَوْعةٌ ... فأدْبرَ كُلٌّ عن المُقْبِلِ
يُقلِّعُ ما شاء من دَوْحَةٍ ... وما يَلْقَ من صخرةٍ يَحْمِلِ
كأنَّ بأحْشائه إذ بَدَا ... أجِنَّةَ حُبْلَى ولم تحبل
فمِنْ عامرٍ رَدَّهُ غامِراً ... ومن مُعْلَم عادَ كالمَجْهَلِ[3]
كَفانا بليَّته ربُّنا ... فقد وجب الشكرُ للمُفْضِلِ
فَقُلْ للسماء ارعُدى وابْرُقى ... فإنّا رجعنا إلى المنزلِ[4]

أخذ المطوعى قوله : « فلما سُلَّ سيفُ الصبحِ من غِمْدِ الظلام » من قول أبى الفتح البستى :

لأبى الفتح البستى

رُبَّ ليلٍ أغمَدَ الأنوارَ إلاّ ... نُورَ ثَغْرٍ أو مدام أو نَدام
قد نعمنا بدَيَاجيه إلى أن ... سُلَّ سيفُ الصبحِ من غِمْدِ الظلام

[وقال بعض أهلِ العصر ، وهو أبو العباس الناشىء] :

لأبى العباس الناشىء

خليلى هل للمُزْنِ مُقْلةُ عاشقٍ ... أم النار فى أحشائها وهى لا تدْرى
أشارت إلى أرض العراق فأصبحتْ ... وكاللؤلؤ المنثورِ أدْمعها تجْرِى

---

(١) الممحل : المجدب (٢) النفق : السرداب
(٣) غامر : خراب ، ومعلم ومجهل : معلوم ومجهول
(٤) هذا البيت غاية فى خفة الروح

سحاب حكت ثكلى أصيبت بواحد فعاجت له نحو الرياض على قبر
تسربل وشياً من حزون تطرزت مطارفها طرزاً من البرق كالتبر
فوشي بلا رقم، ورقم بلا يد، ودمع بلا عين، وضحك بلا ثغر

وقال آخر :

أرقت لبرق شديد الوميض ترامى غواربه بالشهب
كأن تألقه في السماء سطور كتبن بماء الذهب

لابن المعتز

وقال ابن المعتز :

كأن الرباب الجون دون سحابه خليع من الفتيان يسحب مئزرا[1]
إذا لحقته خيفة من رعوده تلفت واستل الحسام المذكرا

لحسان بن ثابت

وقد قال حسان بن ثابت :

كأن الرباب دوين السحاب نعام تعلق بالأرجل[2]

لابن المعتز أيضا

وقال ابن المعتز :

باكية يضحك فيها برقها موصلة بالأرض مرخاة الطنب
رأيت فيها برقها منذ بدا كمثل طرف العين أو قلب يجب[3]
جرت بها ريح الصبا حتى بدا منها لي البرق كأمثال الشهب[4]
تحسبه طوراً إذا ما انصدعت أحشاؤها عنه شجاعاً يضطرب[5]
وتارة تحسبه كأنه أبلق مال جله حين وثب[6]

---

(١) الرباب : السحاب ، والجون : الأسود

(٢) دوين : تصغير دون (٣) يجب : يضطرب (٤) رواية الديوان :

ثم حدت بها الصبا كأنها فيها من البرق كأمثال الشهب

(٥) الشجاع : الثعبان . ورواية الديوان :

إذا تعرى البرق فيها خلته بطن شجاع في كثيب يضطرب

(٦) الأبلق : الجواد يرتفع تحجيله إلى الفخذين ، والتحجيل : بياض في القوائم ، والجل : مايوضع على ظهر البعير والجواد

وتارةً تحسبه كأنه سلاسل مفصولة من الذهب

وقال الطائى :

يا سهمُ للبَرْقِ الذى استطارا صار على رغم الدُّجى نهَارا
آض لنا ماء وكان نارا(١)

وينشد أصحاب المعانى :

نارٌ تجدد للعينين نضرتها والنار تلفح عيدانا فتحترق

وقال ابنُ المعتز يَمدح الشُّرْب فى الصَّحْوِ ، ويذمّه فى المطر :

لابن المعتز يمدح الشراب فى الصحو

أنا لا أشتهى سماء كبطن الـ ـعَيْر والشَّرْبُ تحتها فى خراب(٢)
بين سَقْفٍ قد صار مُنخلَ ماء وجدارٍ ملقًى وتَلٍّ تُراب
وبيوت يوقِّع الوَكْف فيهـ ـنَّ وإيقَاعُهُ بغَيْرِ صواب(٣)
إنما أشتهى الصَّبوحَ على وَجْـ ـهِ سماء مَصقولة الجِلْبَاب
ونَسيم منَ الصَّبا يتمشّى فوق رَوْضٍ نَدٍ جديدِ الشَّباب
وكأنّ الشمس المضيئة دِينا رٌ جَلَتْه حدائدُ الضرَّاب
فى غدَاة وكأسها مثلُ شمسٍ طَلَعتْ فى مُلاءة من شَرَاب(٤)
أو عروس قد ضُمِّخت بخَلُوقٍ فهْىَ صَفرَاء فى قميصِ حَبَاب
وغناء لا عُذْر للعودِ فيــهِ بتَنَدِّى الأوْتَارِ والمضراب
ونقَاء البساط من وَضَرِ الطِّيـ ـن ومَسْحِ الأقدام فى كلِّ بَاب
ونشاط الغلمان إن عرضَتْ حا جاتنا فى مجيئهم والذّهَاب
وجفاف الريحان والنرَّجس الغضّ بأيدى الخلان والأصحَاب
لا تندَّى أنوفُهم كلما حُيُّـ ـوا بضغث ندى أنوف الكلاب

(١) آض : رجع وصار (٢) الشرب ـ بالفتح ـ جماعة الشاربين (م) .
(٣) فى الديوان (٤/٥٣) «وإيقاع الوكف غير صواب» . التوقيع : الضرب على آله الغناء ، والوكف : انهمال المطر (م) (٤) هذا البيت ملفق من بيتين وهما كما فى الديوان .
فى غداه قــد متعتك بيرد الـ ـسماء فى يومها وصفو الشراب
من عقار فى الكأس تشبه شمساً طلعت فى غلالة من سراب (م)

ذاكَ يومٌ أراه غنما وحظًّا   من عَطاء المُهَيْمنِ الوَهَّابِ

وقال الصَّنَوْبَرى :

أنيس ظباء بوحش الظبا   وصبغ حَيًّا مثل صبغ الحيَا
ويوم تـكـلّله الشمس من   صَفاء الهوَى وصفاء الهوا
بشَمْسِ الدِّنان وشمسِ القِيانِ   وشمسِ الجِنَانِ وشمسِ السَّما

وصف شدة الشوق

وشَبِيهٌ بالأبيات التى كتبها ثَعْلب إلى أبى العباس بن المعتز لجميل[1] قولُ الآخَر :

وما وَجْد مِلْواح من الهيم خُلِّيت   عن الوِرد حتى جَوْفُهَا يتصَلْصَلُ[2]
تحُوم وتَغْشاها العِصِيُّ وحَوْلها   أقاطيعُ أنْعامٍ تُعَلُّ وتَنْهَلُ
بأكثر مِنِّى لوعةً وصبابةً   إلى الوِرْدِ إلاّ أنَّنى أتجمَّلُ[3]

لأبى حية فى هذا المعنى

وقال أبو حيّة النميرى :

كفى حَزَنًا أنِّى أرَى الماء مُعْرضا   لعينى ولَـكِنْ لا سبيلَ إلى الوِرْدِ[4]
وما كنت أخْشَى أن تكون منيتى   بكفِّ أعزّ الناسِ كلهم عِنْدى

[وصف رجل حازم لابن المقفع]

قال ابنُ المقفَّع : كان لى أخٌ أعظم الناس فى عينى[5]، وكان رَأْس ما عظَّمه فى عينى صِغر الدنيا فى عينه . وكان خارجاً من سلطان بَطْنه ، فلا يشتهى مالا

(١) قد مرت هذه الأبيات فى ص ١٨٦ (٢) الملواح : الناقة أصابها اللوح وهو الظمأ الشديد ، والهيم : جمع هيماء . وهى التى أصيبت بداء الهيام، وهو شدة الظمأ . ويتصلصل : يصوت (٣) ومثل هذا أيضا قول الشريف الرضى :

وما حائمات يلتمتن من الصدى   إلى الماء قد موطلن بالرشفان
إذا قيل هذا الماء لم يملكوا لها   مصاحا بأقران ولا بعثان
بأظما إلى الأحباب منى وبينهم   عريم إذا رمت الديون لوانى

(٤) ومن هذا الباب قول الآخر :

إنى وإياك كالصادى رأى نهلا   ودونه هوة يخشى بها التلفا
يرى بعينيه ماء عز مورده   وليس يملك دون الماء منصرفا

(٥) عبارة اليتيمة : « إنى محدثك عن رجل كان أعظم الناس فى عينى »

يجد ، ولا يُكثِر إذا وجد ، وكان خارجاً من سُلْطانِ فَرْجه ، فلاتدعوه إليه مؤنة ، ولا يستخف له رأيا ولا بدنا . وكان لا يتأثر عند نِعْمَةٍ ، ولا يستكينُ عند مصيبة . وكان خارجاً من سُلْطانِ لسانه ، فلا يتكلَّمُ بمالا يعلم ، ولا يُمارِى فيما علم ، وكان خارجاً من سُلْطانِ الجهالة ، فلا يتقدّم[1] أبدا إلا على ثقة بمنفعة، وكان أكثرَ دَهره صامتا ، فإذا قالَ بَزَّ القائلين[2] ، وكان ضعيفا مستَضْعَفا ، فإذا جدَّ الجدُّ[3] فهو اللَّيْثُ عاديا[4] . وكان لا يدخل فى دَعْوَى ، ولا يُشارِكُ فى مِرَاء[5] ، ولا يُدْلى بحُجَّةٍ حتى يَرَى قاضيا فَهِما[6] وشهودا عُدُولا . وكان لا يلومُ أحداً فيما يكونُ العُذْرُ فى مثله حتى يعلمَ ماعُذْرُه .

وكان لا يَشْكو وجعه إلاّ عند مَنْ يرجو عنده البُرْء ، ولا يستشيرُ صاحبا إلا أنْ يرجوَ منه النصيحة . وكان لا يتبرّم[7] ولا يتسخَّط ، ولا يتشكّى ولا يتشهّى ، ولا ينتقم من العدوّ ، ولا يَغفُل عن الولىّ ، ولا يَخُصُّ نفسه بشىء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوّته . فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ، ولَنْ تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

وعلى ذكر قوله : « وإن قال بَزَّ القائلين » قال ابن كناسة — واسمه محمد بن عبد الله ، ويكنى أبا يحيى — فى إبراهيم بن أدهم[8] الزاهد :

لابن كناسة يصف ابن أدهم

رأَيْتُكَ لا تَرْضَى بما دونه الرضا ... وقد كان يَرْضَى دون ذاك ابنُ أدْهَما

(١) عبارة اليتيمة « فلا يقدم إلا على ثقة أو منفعة »

(٢) بز: غلب ، بالدال والزاى ، ومنه : من عز بز (٣) فى الأصل « فإذا وجدا الجد » وهو تحريف . وعبارة اليتيمة « فإذا جاء الجد » (٤) عاديا : منصوب على الحال

(٥) المراء : الجدال (٦) رواية اليتيمة « قاضيا عدلا » (٧) يتبرم : يتضجر

(٨) إبراهيم بن أدهم : شخصية قوية ترى أثرها فى كتب الدين والأخلاق . كان يعيش من عرق جبينه ، ويشترك مع الغزاة فى قتال الروم ، تعفف عن ميراث أبيه واكتفى بحياة التقشف والخشونة ، وكان معروفا بالفصاحة والحرص على صواب القول ؛ فكان إذا حضر مجلس سفيان الثورى وهو يعظ أوجز سفيان فى كلامه مخافة أن يزل . وكانت وفاته نحو سنة ١٦١ .

وكان يَرى الدُّنيا صغيراً عظيمُها ... وكان لأمرِ اللهِ فيها مُعَظِّماَ
وأكثرُ ما تلقاهُ فى الناس صامتا ... وإنْ قال بَزَّ القائلين فأفحَمَا
يُشيعُ الغِنَى فى الناسِ إن مَسَّهُ الغِنى ... وتلقى به البأساءُ عيسى بن مريما
أهَانَ الهوى حتى تجنَّبه الهوى ... كما اجتنب الجانى الدم الطالبَ الدَّما

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر التقى والزهد

فلان عَذْب المَشْرب ، عَفّ المَطْلَب ، نَقِىّ الساحة من المآثم ، بَرِىء الذمة من الجرائم ، إذا رضى لم يَقُلْ غيرَ الصدق ، و إذا سخِط لم يتجاوَزْ جانبَ الحق ، يرجعُ إلى نفسٍ أمَّارة بالخير ، بعيدةٍ من الشر ، مدلولةٍ على سبيل البرّ : أعْرَض عن زِبْرِجِ الدنيا وخُدَعها ، وأقبل على اكتساب نِعَم الآخرة ومُتَعها .. كَفّ كَفَّه عن زُخْرف الدنيا ونَضْرَتها ، وغَضّ طَرْفه عن متاعها وزَهْرتها : وأعرض عنها وقد تعرَّضَتْ له بزينتها ، وصدَّ عنها وقد تصدَّت له فى حِلْيتها .

فلانٌ ليس ممن يَقِف فى ظِلّ الطمع ، فيُسِفُّ إلى حَضيض الطَبَع (١) ، نَقِىّ الصحيفة ، عَلِىٌّ عن الفضيحة ، عَفّ الإزار ، طاهرٌ من الأوْزَار ، قد عاد لإصلاح المعاد ، و إعداد الزاد .

* * *

من أخبار ابن المقفع

وكان ابنُ المقفع من أشراف فارس ، وهو من حكماء زمانه ، وله مصنّفات كثيرة ، ورسائلُ مختارة ؛ وكان مُحْجِماً عن قول الشعر ، وقيل له : لِمَ لا تقولُ الشعر ؟ فقال : الذى أرضاه لا يَجيئنى ، والذى يجىء لا أرْضاه (٢) .

---

(١) الطبع ــ بفتح الباء ــ الخسة . وفى الأصل (التصنع) وهو تحريف..

(٢) ومع هذا فقد تيسرت له الإجادة ، حتى اختار له مؤلف الحماسة الأبيات الآتية

رزئنا أبا عمرو ، ولا حى مثله ... فلله ريب الحادثات بمن وقع
فإن تك قد فارقتنا وتركتنا ... ذوى خلة ما فى انسداد لها طمع
فقد جر نفعا فقدنا لك أننا ... أمنا على كل الرزايا من الجزع

أخذ هذا بعضهم فقال :

أَبَى الشعرُ إلاّ أنْ يَفِيءَ رَدِيُّهُ إليَّ ، ويَأْبَى منه ما كانَ مُحكَمَا
فياليتنى إذْ لم أُجِدْ حَوْكَ وَشْيِهِ ولم أكُ من فُرْسانه كنت مُفْحَمَا[(١)]

وكان ظريفا فى دينه [(٢)] ، وذكر أنه مرّ ببيت النار فقال :

يا بيتَ عاتكةَ الّذى أتعزَّلُ حَذَرَ العِدا وَ به الفؤادُ مُوَكَّلُ[(٣)]
أصبحتُ أمنحكَ الصدودَ، وإننى قَسَماً إليكَ مع الصدود لأَمْيَلُ[(٤)]

ترجمة للأحوص

البيتان للأحوص بن محمد بن عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح الأنصارى أخى بنى عمرو بن عوف . وعاصم بن ثابت حَمِيَ الدَّبْرُ [(٥)] قتله بنولحيان من هُذَيل يوم الرَّجيع ، فأرادوا أن يَبْعَثوا برأسه إلى مكة ، وكانت سلافة بنتُ سعد نذرت لَتَشْرَبَنَّ فى رأسه الخمر . وكان قتلَ بعضَ ولدها من طلحة بن أبى طلحة أحد بنى عبد الدار يوم أحد . فلما أرادوا أَخْذَ رأسه حمته الدَّبْرُ — وهى النحل — فلم يجدوا إليه سبيلا ، وجعلوا يقولون : إنّ الدَّبر لو قد أمسى صِرْنا إلىحَشْوِ استه ، فلما أمسوا بعثَ الله أَتِيًّا فوارَاه منهم [(٦)] . وعاتكة التى ذكر هى عاتكة بنت يزيد بن معاوية .

[ألطف تعريض ، وأدق فهم]

ولما دخلَ أبو جعفر المنصورُ المدينة قال للربيع : ابْغِنى رجلا عاقلا عالما بالمدينة ليَقِفَنِي على دُورِها : فقد بَعُد عَهْدِى بديار قومى ؛ فالْتَمسَ له الربيع فتًى

(١) مفحم : مغلوب (٢) يريد أنه كان متهما ؛ لأنه كان قبل إسلامه مجوسياً يعبد النار . توفى سنة ١٤٢ (٣) أعزل : أتجنب . وفى الأصل (أتغزل) وهو تحريف
(٤) انظر ما كتب عن هذا الشعر فى كتاب البدائع تحت عنوان (الأدب الجديد)
(٥) الدبر — بالفتح — جماعة النحل والزنابير (٦) الأتى — على وزن غنى — هو السيل

من أعقل الناس وأعلمهم ، فكان لا يبتديه بإخبار حتى يسأله المنصور فيجيبه بأحسن عبارة ، وأجود بيان ، وأوفى معنى ، فأعجب المنصور به ، وأمر له بمال ، فتأخر عنه ، ودعته الضرورة إلى استنجازه ، فاجتاز ببيت عاتكة ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هذا بيت عاتكة الذى يقول فيه الأحوص : « يا بيت عاتكة الذى أتعزّل » . . . البيتَ ، ففكر المنصور فى قوله ، وقال : لم يخالف عادته بابتداء الإخبار دون الاستخبار إلا لأمر ، وأقبل يردّد القصيدة ويتصفحها بيتا بيتا حتى انتهى إلى قوله فيها :

وأراكَ تفعَلُ ماتقولُ وبعضُهم ... مَذِقُ اللسان يقولُ مالاَ يفعلُ (١)

فقال : ياربيع ، هل أوصلْتَ إلى الرجلِ ما أمرْنا له به ؟ فقال : أخرْته عنه ـ لعلّةٍ ذكرها الربيع ـ فقال : عَجِّلْه له مُضَاعَفاً ، وهذا ألطف تعريض من الرجل ، وحُسْنُ فهم من المنصور .

[الحسد والحساد]

لابن المقفع فى صفة الحاسد

ومن كلام ابن المقفع : الحاسدُ لا يزالُ زارياً على نعمة الله ولا يجدُ لها مَزَالاً ، ومكدِّرا على نفسه ما به من النعمة فلا يجدُ لها طَعْما ، ولا يزالُ ساخطا على مَنْ لا يترضَّاه ، ومتسخِّطا لما [لا] ينال ، فهو كظُوم هَلُوع جَزُوع ، ظالم أشبه شىء بمظلوم ، محروم الطِّلبَة ، منغَّص العيشة ، دائم التسخّط ، لا بما قُسِمَ له يَقْنَع ، ولا على مالم يُقْسَم له يغلب ، والمحسودُ يتقلَّب فى فَضْلِ نعم الله مباشرا للسرور . ممهَلاً فيه إلى مُدَّةٍ لا يقدر الناسُ لها على قطعٍ ولا انتقاص ، ولو صبر الحاسدُ على مابه لكان خيراً له ؛ لأنه كلما أراد أن يُطفِئ نورَ الله أعلاه « وَيَأْبَى اللهُ إلا أن يُتِمّ نورَه ولو كَرِهَ الكافرون » .

---

(١) مذق اللسان : يمزج الجد بالهزل

قال الطائى :

لأبى تمام فى فضل الحاسد على المحسود

لولا التخوُّفُ للعواقبِ لم تزلْ   للحاسدِ النُّعمى علَى المحسودِ

وإذا أراد الله نشرَ فضيلةٍ   طويتْ أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ

لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ   ما كانَ يعرفُ طيبُ عرْفِ العُودِ

أخذه البحترى فقال :

للبحترى فى هذا المعنى

ولنْ تستبينَ الدَّهرَ موضعَ نعمةٍ   إذا أنتَ لم تُدْلَلْ عليها بحاسدِ

ولقد أحسنَ القائل :

إن يحسدونى فإنى غيرُ لائمِهِمْ   قَبلى من الناس أهلِ الفضلِ قد حُسِدُوا

فدام لى ولهُمْ ما بى وما بهمُ   ومات أكثرُنا غيظاً بما يجدُ

أنا الذى يجدُونى فى صدورِهمُ   لا أرتقى صَدَراً عنها ولا أرِدُ(١)

لابن الرومى

وقال ابن الرومى لصاعد بن مخلد :

وضدٌّ لكم لا زال يسفُل جدُّهُ   ولا برحتْ أنفاسُه تتصعَّدُ(٢)

يرى زبرجَ الدنيا يُزفُّ إليكم   ويُغضِى عن استحقاقكم فهو يُفأدُ(٣)

ولو قاس باستحقاقكم ما مُنِحتُمُ   لأطفأ ناراً فى الحشا تتوقَّدُ

وآنقُ من عِقد العقيلةِ جِيدُها   وأحسن من سِربالها المتجرِّدُ(٤)

لمعن بن زائدة

وقال معن بن زائدة :

إنى حُسِدت فزادَ الله فى حَسَدِى   لا عاش مَنْ عاش يوماً غيرَ محسودِ

ما يُحْسَدُ المرء إلاَّ مِنْ فضائلهِ   بالعلمِ والظَّرْفِ، أو بالبأسِ والجُودِ

---

(١) لا أرتقى صدراً ولا أرد : لا أصعد ولا أهبط ؛ فأنا كالشجى الدائم الذى لا سلامة لأعدائى منه وهذه الأبيات غاية فى جمال البيان (٢) الجد ـ بالفتح ـ الحظ

(٣) يفأد : يحرق فؤاده .

(٤) يقول : إن جيد العقيلة أجمل من العقد الذى يظن أنه يزينه ، والمتجرد ـ أى الجسم العريان ـ أجمل من السربال وهو القميص .

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر الحسد

دَبَّتْ عقاربُ الحسَدَة ، وكمنت أفاعِيهم بكلِّ مَرْصَدٍ . فلان مَعْجُون من طِينةِ الحسد والمُنَافَسَة ، مضروبٌ فى قالب الضِّيق والمناقشة . قد وكلَ بى لَحْظاً ينْتَضِلُ بأسهُمِ الحسد . فلان جَسدٌ كلُّه حسد ، وعقدٌ كلُّه حِقْد . الحاسدُ يَعْمَى عن محاسنِ الصُّبح ، بعين تُدْرِكُ حقائقَ القُبْحِ .

[التلطف فى الطلب]

بين الواثق ومحمد بن حماد

كتب محمد بن حماد يُعَرِّض فى حاجةٍ له ببيتى شعر إلى الواثق يقول :

جذبت دَواعى النفسِ عن طلبِ المُنَى ... وقلت لهـا كُفّى عن الطَّلَبِ المُزْرِى

فإنَّ أمـــــيرَ المؤمنين بكفِّهِ ... مَدارُ رحًى بالرزق دائبـــــة تَجْرِى

فوقَّع تحتها : جَذْبك نفسَك عن امتهانها بالمسألةِ دعانى إلى صَوْنِك بِسَعَةِ فَضْلِى عليك ، فخُذْ ما طلبْتَ هنيئاً .

بين الحسن بن سهل وعلى ابن عبيدة

قال على بن عبيدة : أتيت الحسن بن سَهْل بفم الصلح ؛ فأقَمْتُ ببابه ثلاثة أشهر لا أحْظَى منه بطائل ، فكتبت إليه :

مَدَحْتُ ابنَ سهلٍ ذا الأيادى وماله ... بذاك يدٌ عندى ولا قَدَم بَعْدُ

وما ذَنْبُه ، والناس ــ إلا أقلَّهم ــ ... عيالٌ له ، إن كان لم يَكُ لى جَدُّ

سأحمده للنـــــاس حتى إذا بَدَا ... له فىَّ رَأْىٌ عادَ لى ذلك الحمد

فكتب إلىَّ : باب السلطان يَحْتَاجُ إلى ثلاث خِلال : عقل وصَبْرٌ ومال ، فقلت للواسطة : تؤدّى عنى ؟ قال : نعم . قلت : تقول له : لو كان لى مال لأغنانى عن الطلب إليك ، أو صبْرٌ لصبرت عن الذّلّ ببابك ، أو عَقْل لاستدللت به على النزاهة عن رِفْدك ! فأمر لى بثلاثين ألف درهم .

* * *

بعض كلام على بن عبيدة الريحانى

وقال على بن عبيدة الريحانى يوما ، وقد رأى جارية يَهْوَاها : لولا البُقيا على الضمائر لَبُحْنا بما تُجِنّه السرائر ، لـكن نِيرَان الحُبّ تُتَدَارك بالإخفاء ، ولا تُعاجَل بالإبداء ؛ فإن دوامَها مع إغلاق أبواب الـكِتْمان ، وزوالَها فى فَتْح مَصارِع الإعلان.

وقد قال محمد بن يزيد الأموى :

لا وحُبِّيك لا أُصا ... فِح بالدَّمع مدمعا
من بكى حبَّه استرا ... ح وإن كان مُوجَعا

ومن كلام علىّ بن عبيدة : اجعَل أُنْسَك آخرَ ما تَبْذُل من وُدِّك ، وصُن الاسترسال منك ، حتى تجدَ له مستحقاً ؛ فإن الأُنْس لِباسُ العِرض ، وتُحْفة الثقة ، وحِباء الأكفاء ، وشِعار الخاصَّة ، فلا تُخلِق جِدَّته إلا لمن يعرف قَدْرَ ما بذلتَ له منك .

وقال : لولا حركاتٌ من الابتهاج أجِد حِسّها عند رؤيتك فى نفسى لا أعرف لها مُثيراً من مظانّها إلاّ مُؤانَستك لى ، لأبقَيْت عليك من العناء ، وخفَّفت عنك مؤونة اللقاء ؛ لـكنى أجد من الزيادة بك عندى أكثر من قَدْرِ راحتك فى تأخُّرك عنى ، فأضيق عن احتمال الخسران بالوَحدة منك .

وقال : لِوجلى من طُلُوعِ الملالة بكَرّ اللِّقاء أستَخِفُّ التَّجافى مع شدَّةِ الشوقِ ، لتبقى جدَّة الحالِ عند من أُحِبُّ دوامه لى ؛ ورَدُّ طَرْفِ الشوق باطنا أيْسَر من مُعاناةِ الجفاء مع الودّ ظاهراً .

لبعض المحدثين من الشعراء فى الشوق

وقال بعض المحدثين :

كم استَرَاحَ إلى صبر فلم يُرَحِ ... صَبٌّ إليكم من الأشواق فى تَرَحِ
تركتم قَلْبَه من حُزْنِ فُرْقَتكم ... لو يُرزَق الوصل لم يَقْدر على الفَرَحِ

وقال أعرابى :

ألاَ قُلْ لدارٍ بَيْنَ أكْثِبَةِ الحِمَى ... وذاتِ الغَضَى: جادَتْ عليكِ الهَواضِبُ[1]

(١) الهواضب : السحب المواطر

أجِـــدّك لا آتيك إلاّ تتابَعَتْ | دموعٌ ، أضاعت ما حفظتُ ، سَواكِبُ
دِيارٌ تسَمَّتْ المُنى نَحْوَ أرْضِهـــا | وطاوَعَنى فيهـا الهَوَى والحَبائبُ
ليـــالىَ لا الهجرانُ مُحْتَكِمٌ بها | عَلى وَصْلِ مَنْ أهْوَى ولا الظنّ كاذِبُ

[الأدب فى مجلس الحكم]

بين إبراهيم بن أدهم والطبيب ابن بختيشوع عند ابن أبي دواد

تنازع إبراهيمُ بن المهدى وابن بختيشوع الطبيبُ بين يدى أحمد بن أبى دُواد فى مجلس الحكم فى عقار بناحية السَّواد ، فَرْبَى عليه إبراهيمُ وأغلظ له . فأحفظ ذلك ابنَ أبى دُوَاد ، فقال : يا إبراهيم ، إذا نازعْتَ فى مجلس الحكم بحضرتنا امرءاً فلا أعلمنَّ أنك رفعْتَ عليه صَوْتاً ، ولا أشرْتَ بيد ، وليكن قَصْدُك أَمَمًا[1] . وريحُك ساكنة ، وكلامُك معتدِلا ، مع وفاء مجالس الخليفة حقوقَها من التَّعظيم ، والتوقير ، والاستكانة ، والتوجّه إلى الواجب : فإن ذلك أشكلُ بك . وأشملُ لمذهبك فى مَحْتِدِك ، وعظم خَطرك . ولا تعجلَنَّ . فرُبَّ عَجلة تَهَبُ رَيْثاً ، والله يعصمك من خَطَل القول والعمل . ويتم نعمتَه عليك كما أتمَّها على أبويك من قبل . إن ربك حكيم عليم .

فقال إبراهيم : أصلحك الله تعالى : أمَرْتَ بسَدَاد ، وحضضْتَ على رشاد : ولستُ عائداً لما يَثْلِمُ مُرُوءتى عندك ، ويُسْقطنى من عينك ، ويخرجنى من مقدار الواجب إلى الاعتذار ، فهأنا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذارَ مُقِرّ بذنبه ، مُعْتَرِف بجُرْمِه ، ولا يزال الغضبُ يستفزنى بمواده ، فيردنى مثلُكَ بحلمه . وتلك عادةُ الله عندك وعندنا منك ؛ وقد جعلتُ حقّى من هذا العقار لابن بختيشوع ، فليتَ ذلك يكون وافيا بأرْش الجناية عليه[2] : ولم يتلَفْ مالٌ أفادَ موعظةً : وحَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوكيل[3] .

---

(١) أمم : قريب

(١) الأرش : الدية (٢) هذا الحديث يمثل جانباً من الحظ الذى ظفر به أحمد ابن أبى دواد فى عصره . وقد صحب هذا الرجل المأمون والمعتصم والواثق وعمل معهم جميعاً . توفى سنة ٢٤٠

[حكمة أردشير وحضه على العلم]

لما استوثق أمرُ أردشير بن بابك وجَمعَ ملوكَ الطوائف . وتمَّ له مُلْكه ، جمع الناسَ فخطبهم خطبة حضَّ فيها على الألفة والطاعة ، وحذّرهم المعصية ومفارقة الجماعة، وصفَّ الناسَ أربعة صفوف ؛ فخرّوا له سُجَّدا ، وتكلّم متكلّمهم فقال :

لازلت أيها الملك محبوًّا من الله تعالى بعزّ النصر ، ودَرْك الأمل، ودوام العافية ، وتمام النّعمة ، وحُسْن المزيد . ولازلت تتَابَعُ لديك المكرمات ، وتَشْفع إليك الذمامات[1] حتى تبلغَ الغايةَ التي يؤمنُ زوالها ، وتصل إلى دار القرار التي أعدَّها الله تعالى لنظرائك من أهْل الزُّلْفَى عنده والمكانة منه ،ولازال ملكك وسلطانك باقيين بقاء الشمس والقمر ، زائدَيْن زيادة النجوم والأنْهار ، حتى تستويَ أقطارُ الأرض كلها في علوِّ قَدْرِك عليها ، ونفاذِ أمْرِك فيها ، فقد أشْرَقَ علينا من ضياء نورك ما عمّنا عمومَ ضياء الصبح ، ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما اتّصل بأنْفُسِنا اتصال النسيم ؛ فأصبحت قد جمع اللهُ بك الأيدى بعد افتراقها ، وألَّفَ القلوبَ بعد توقد نيرانها ، ففضلكَ الذى لا يُدْركُ بوصف ، ولا يُحدُّ بنَعت .

فقال أردشير : طوبَى للممدوح إذا كان للمدح مستَحِقًّا ، وللداعى إذا كان للاجابة أهلا .

وقيل لأردشير : أيُّها الملك الرفيع الذي حَلَب العصور ، وجرّب الدُّهور ، أى الكنوزِ أعْظَمُ قدراً ؟ قال : العلم الذى خفَّ محمـله ، فَثَقُلَتْ مفارقته ، وكَثُرَتْ مرافقته ، وخَفِيَ مكانه ، فأمنَ من السَّرَقِ عليه ؛ فهو فى الملأ جَمَال ، وفى الوَحْدَة أنيس ، يُرَأَّسُ به الخسيس، ولا يمكن حاسدك عليه انتقاله عنك . قيل له : فالمال ؟ قال : ليس كذلك . مَحْمَلُهُ ثقيل ، والهمُّ به طويل ؛ إن كنت فى مَلأ شغلك الفِكْرُ فيه ، وإن كنت فى خَلْوَة أتعبتك حراسته .

---

(١) الذمامات : جمع ذمام — بكسر الذال ، بزنة كتاب — وهو العهد ونحوه

[أخلاق الملوك]

وصف ملك الروم

قال الجاحظ : حدثنى الفضل بن سهل قال : كانت رسُلُ الملوك إذا جاءت بالهدايا يُجْعَلُ اختلافُهم إلىّ ، فتكون المؤامراتُ فيما معهم من ديوانى ، فكنت أسألُ رَجُلاً رجلا منهم عن سِيَر ملوكهم ، وأخبار عظمائهم ، فسألتُ رسولَ ملك الروم عن سيرة ملكهم ، فقال : بَذَل عُرْفَه ، وجرَّد سَيْفَه ، فاجتمعت عليه القلوبُ رغبةً ورهبة . لا يَنْظِر جُنْده ، ولا يُحْرِج رعيَّته : سَهْلُ النَّوال، حَزْن النكال، الرجاء والخوفُ معقودان فى يده .

قلت : فكيف حُكْمُه ؟ قال : يردّ الظّلم ، ويَرْدعُ الظالم ، ويُعْطِى كلَّ ذى حق حقه ؛ فالرعية اثنان : راضٍ ، ومغتبط .

قلت : فكيف هيبتهم له ؟ قال : يتصوّر فى القلوب ، فتُغْضِى له العيون .

وصف ملك الحبشة

قال : فنظر رسولُ ملك الحبشة إلى إصغائى إليه ، وإقبالى عليه ، فسأل الترجمان : ما الذى يقوله الرومىّ ؟ قال : يَذْكُرُ ملكَهم ، ويصِفُ سيرته ؛ فكلّم مع الترجمان بشىء ، فقال لى الترجمان : إنه يقول : إنّ ملكهم ذو أناة عند القدرة ، وذو حلم عند الغضب ، وذو سطوة عند المغالبة ، وذو عقوبة عند الاجْتِرام ، قد كسا رعيّته جميلَ نعمته ، وخوّفهم عسف نِقْمَته ؛ فهم يتراءونه رَأْىَ الهلال خيالا ، ويخافونه مخافة الموتِ نكالا ، وَسِعَهم عَدْلُه ، ورَدَعَتْهم سَطْوَته ، فلا تمتهِنُهُ مَزْحَة ، ولا تؤمّنه غفلة ؛ إذا أعطى أوسع ، وإذا عاقب أوجع ؛ فالناس اثنان : راجٍ وخائف ، فلا الراجى خائبُ الأمل ، ولا الخائف بعيد الأجل . قلت : فكيف هيبتهم له ؟ قال : لا ترفعُ إليه العيون أجفانَها ، ولا تتبعُهُ الأبصارُ إنسانَها ، كأنَّ رعيته قطًا رفرفت عليها صقورٌ صوائد .

فحدثتُ المأمون بهذين الحديثين فقال : كم قيمتُهما عندك ؟ قلت : ألفا درهم. قال : يافضل ؛ إن قيمتهما عندى أكثرُ من الخلافة ، أما عرفت قول علىّ بن

أبي طالب كرّم الله وجهه : قيمةُ كلِّ امرئ مايحسن . أفتعرفُ أحـــداً من الخطباء البُلغاء يُحْسِنُ أن يصف أحداً من خلفاء الله الراشدين المهديين بهذه الصِّفة ؟ قلت : لا . قال : فقد أمَرْتُ لهما بعشرين ألف دينار ، واجعل العُذْر مادة بيني و بينهما فى الجائزة [على المعوز] ؛ فلولا حقوقُ الإسلام وأهله لرأيْتُ إعطاءهما مافى بيتِ مال الخاصة والعامة دون مايستحقّانه .

فضل أخت ملك الخزر

وقال الجاحظ : حدّثنى حميد بن عطاء قال : كنتُ عند الفضْلِ بن سهل ، وعنده رســولُ ملك الخزَرِ ، وهو يحدّثنا عن أُخْتٍ للملكهم ، قال : أصابنا سَنَةٌ احتدم شوَاظُها علينا بحرّ المصائب ، وصنوفِ الآفات ؛ ففزِع الناسُ إلى الملك ، فلم يدْرِ ما يُجيبُهم به ، فقالت أخته : أيهــا الملك ؛ إن الخوفَ لله خَلْق لايَخْلَقُ جديدهُ ، وسببٌ لايمتهن عزيزه ، وهودالُّ المَلِكِ على استِصْلاحِ رعيّته . وزاجِرُهُ عن استفسادها ، وقد فَزِعَتْ إليك رعيَّتك بفضلِ العَجْزِ عن الالتجاء إلى مَنْ لاتزيدُه الإساءة إلى خلقه عِزّا ، ولا ينقصه العَوْدُ بالإحسان إليهم مُلْكا . وما أحدٌ أَوْلىٰ بحفظ الوصية من الموصَّى ، ولا بركوب الدلالة من الدّال ، ولا بحُسْنِ الرعاية من الرّاعى . ولم تزل فى نعمة لم تغيرها نِقْمَة ، وفى رِضاً لم يكدّره سُخْط ، إلى أن جَرَى القَدَرُ بماعَمِى عنه البصر ، وذُهِل عنه الحَذَر ، فسلب الموهوب ، والواهب هو السالب ؛ فعُدْ إليه بشُــكْرِ النعم ، وعُذْ به من فظيع النِّقم ، فمتى تَنْسَه يَنْسَك ، ولاتجعلنَّ الحياء من التذلل المعزّ المذِل سترا بينك و بين رعيتك ، فتستحق مذمومَ العاقبــة ؛ ولــكن مُرْهُم ونفسك بصرف القلوب إلى الإقرار له بكُنْهِ القدرة ، و بتذلل الألسُن فى الدعاء بمَحْضِ الشُّـكْرِ له : فإن الملك ربّـما عاقب عَبْدَه ليرجعه عن سَيِّئ فِعلٍ إلى صالح عمل ، أو ليَبْعثه على دائب شُــكْرٍ ليُحرِز به فَضْلَ أجْر .

فأمرها الملك أن تقومَ فيهم فتنذرهم بهذا الـكلام ، ففعلت ، فرجع القومُ وقد

علم الله منهم قبولَ الوَعْظِ في الأمر والنهى ؛ فحال عليهم الحَوْل وما منهم مفتقد نعمةٍ كان سليبَهَا ، وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصّنع ؛ فاعترف لها الملك بالفضل ، فقلدها المُلْك ؛ فاجتمعت الرعيةُ لها على الطاعة فى المكروه والمحبوب

قال : وهذاوهم أعداء الله تعالى ، وضرائر نِعمته ، ومستوجبو نِقْمتِه ، أعادَ لهم بالشكر ما أرادوا ، وأعطاهم بالإقرار له بكُنْه قدرته ماتمنَّوا ، فكيف بمن يجمَعُه على الشكرِ نوران اثنان : قرآن منزل ، ونبيّ مرسل ، لو صدقت النيَّاتُ ، واجتمعت على الافتقار إليه الطلبات ؛ لكنهم أنكروا ماعرفوا ، وجهلوا ماعلموا ، فانقلبَ جدهم هَزْلا ، وسكوتهم خَبْلا .

قطعة صادرة من أقوال الملوك دالة على فضل كرمهم و بعد هممهم

غضِب كسرى أنو شروان على بعض مَرَازبته ، فقال : يُحَطُّ عن مرتبته ، ولا ينقص من صِلَته ؛ فإن الملوك تؤدِّب بالهجران ، ولا تعاقِب بالحِرْمَانِ .

واصطنع أنو شروان رجلا فقيل له : إنه لا قديمَ له . قال : اصطناعُنا إياه شرّفه .

قال معاوية رضى الله عنه : نحن الزمان ، من رَفَعْنَاهُ ارتفع ، ومن وضعناه اتّضع . وكان يقول: إنى لآنفُ من أن يكون فى الأرض جَهْلٌ لايسَعُهُ حِلمِي، وذَنْبٌ لا يسَعُهُ عفوِى ، وحاجة لا يَسَعُها جُودِى .

عبدالملك بن مروان ــ أفضَلُ الناس مَنْ تَوَاضَعَ عن رِفْعَة ، وعَفَا عن قُدْرَة؛ وأنصَف عن قُوَّة .

زياد ــ استشفعوا لِمَنْ وراءَكم ؛ فليس كلُّ أحدٍ يصلُ إلى السلطان، ولا كلُّ من وصل إليه يَقْدِرُ على كلامه .

المهلب ــ عَجِبتُ لمن يشترى المماليك بماله ، كيف لايشترى الأحرار

بمعروفه ! وقد روى هذا لابن المبارك . وقال لبنيه : يابنى ؛ أحسن ثيابكم ما كان على غيركم .

قال أبو تمام الطائى يَسْتهْدِى فَرْواً ، وعرَّض بقول المهلب :

فهل أنتَ مُهْدِيهِ بمثل شكيرةٍ من الشُّكْر يعلو مُصْعِداً و يصوِّبُ[1]

فأنتَ العليمُ الطِّب أىُّ وصيةٍ بها كان أوْصَى فى الثياب المهلَّبُ[2]

يزيد بن المهلب — استكْثِرُوا من الحمد ؛ فإنَّ الذمَّ قلَّ من ينجو منه .

السفاح ـ ما أقْبَح بنا أن تكون الدنيا لنا وأولياؤُنا خالُون من أثرها .

المأمون ـ إنما تُطْلَبُ الدنيا لتُملك ، فإذا مُلكت فلتوهب . وقال : إنما يتكثَّر بالذهب والفضة من يَقِلاَّن عنده .

الحسن بن سهل ـ الأطراف مَنَازِل الأشراف؛ يتناولون مايريدون بالقُدْرَة ، و يتناهم مَنْ يريدهم بالحاجة . وتعرض له رجل فقال له : من أنت ؟ قال : أنا الذى أحسنتَ إلىَّ يوم كذا وكذا . فقال : مرحباً بمن توسَّل إلينا بنا .

ولما أراد المعتصم أنْ يشرِّف أشناس التركى بعقب فَتْح الخرمية أمر أصحابَ المراتب بالترجُّل إليه ، فترجَّل إليه الحسنُ بن سهل، فنظر إليه حاجبُه يمشى ويتعثر فى مَشْيه ، فبكى ، فقال : مايبكيك ؟ إن الملوك شرَّفتنا وشرفت بنا .

ومن كلام أهل العصر

للأمير شمس المعالى قابوس بن وَشْمَكير[3] ـ مَنْ أقْعَدَتْهُ نكاية الأيام أقامته إغاثة الكرام ؛ ومن ألبسه الليلُ ثوب ظلماته نزَعَه النهار عنه بضيائه .

---

(١) شكيرة : شعرة ، يريد أن هديتك لاتساوى شعرة من شكره ، ويعلو ويصوب : يرتفع وينخفض :

(٢) الطب ـ بالفتح ـ الماهر الحاذق بعمله ، وهو أيضا الفحل الحاذق بالضراب

(٣) له ترجمة فى ابن خلكان (رقم ٥١٢ بتحقيقنا) ويتيمة الدهر للثعالبى (م)

وله : ابتناه المناقب باحتمال المتاعب ، وإحرازُ الذِّكر الجميل بالسَّعْى فى الخطب الجليل .

الصاحب بن عباد :

وقائلةٍ : لِمْ عَرَتْكَ الهمومُ   وأمْرُكَ مُمْتَثَلٌ فى الأُمَم ؟
فقلت : ذَرِينى لما أشتكى   فإنَّ الهمومَ بِقَدْرِ الهِمَمْ

أبو الطيب المتنبى :

أفاضِلُ الناسِ أغْرَاضٌ لِذَا الزمَن   يَخْلُو من الهَمِّ أخْلاهُمْ منَ الفِطَنِ

أبو الفتح البستى :

صاحِبُ السلطانِ لابُدَّ لهُ   من هُمُومٍ تَعْتَرِيهِ وغُمَمْ
والَّذِي يَرْكَبُ بحْراً سَيَرَى   قُحَمَ الأهْوالِ من بَعْدِ قُحَمْ[1]

ومن كلام الملوك الجارى مجرى الأمثال

أردشير ـ إذا رغبت الملوكُ عن العَدْلِ رغبت الرعيَّةُ عن الطاعة .

أفريدون ـ الأيام صحائفُ آجالِكُمْ ، فخلِّدُوها أحْسَنَ أعمالِكم .

وقيلَ للإسكندر : ما بالُ تعظيمك لمؤدِّبك أكثر من تعظيمك لأبيك ؟ قال : لأنَّ أبى سَبَبُ حياتى الفانية ومؤدِّبى سببُ حياتى الباقية .

ودخل محمد بن زياد مؤدِّب الواثق على الواثق ، فأظهر إكرامَه ، وأكثر إعظامَه ، فقيل له : مَنْ هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال هذا أولُ من فَتق لسانى بذِكْرِ اللهِ ، وأدْنانى من رحمة الله .

وأُشِير على الإسكندر بتبييت الفرس[2] ، فقال : لاأجعل غلبتى سَرِقة . وقيل له : لو تزوَّجت بنت دارا ؟ فقال : لا تغلبُنِى امرأةٌ غلبتُ أباها .

---

(١) قحم : جمع قحمة ، وهى الشدة   (٢) التبييت : الهجوم بغتة بالليل

آنوشروان ـ الملك إذا كثر ماله مما يأخذ من رعيّته كان كمن يعمر سَطْحَ بيته بما يَقْتَلِعه من قواعد بُنْيانه .

أبرويز ـ أطِعْ مَنْ [فوقك يطعك مَن] دونك .

السفاح ـ إن من أدْنَى الناس ووضعائهم مَنْ عدَّ البخل حَزْماً ، والعفو ذُلاً .

وكان يقول : إذا كان الحلم مَفْسَدة كان العفوُ مَعْجَزة ، والصبرُ حَسَن إلا على ما أوقع بالدّين ، وأوْهَى السلطان ؛ والأناةُ محمودة إلا عند إمكان الفرصة .

وقد قال ابن المعتز :

كم فرصةٍ ذَهَبَتْ فعادَتْ غُصَّةً ... تُشْجِي بطُول تَلَهُّفٍ وتَنَدُّمِ[1]

ولما عزم المنصور على الفَتْك بأبي مسلم فزِع من ذلك عيسى بن موسى ، فكتب إليه :

إذا كنتَ ذَا رَأْيٍ فكن ذا تدَبُّرٍ ... فإن فسادَ الرَّأْي أَنْ تتعجَّلا

فأجابه المنصور :

إذا كنتَ ذَا رأْيٍ فكن ذَا عزيمةٍ ... فإنَّ فسادَ الرأى أن تتردَّدَا

ولا تُمْهِل الأعداء يوما بغُدْوَةٍ ... وبادِرْهُمُ أن يملكوا مِثْلَها غدَا[2]

وهذا فى موضعه كقول الإمام علىّ كرّم الله وجهه : من فكر فى العواقب لم يشجُع

وقال سعد بن ناشب فأفرط[3] .

---

(١) الغصة : ما اعترض فى الحلق ، وتشجى : تحدث الشجا وهو الغصة ، وغصصت ، بالكسر والفتح ، تغص ، بالفتح ، غصصا ، فأنت غاص وغصان .

(٢) فى نسخة « ولا تمهل الأعداء يوما بقدرة » (م) .

(٣) وأول هذه القطعة :

سأغسل عنى العار بالسيف جالبا ... على قضاء الله ما كان جالبا

وأذهل عن دارى وأجعل هدمها ... لعرضى من باقى المذمة حاجبا

لسعد بن ناشب

عليكم بدارى فاهدموها ؛ فإنها[1] تراثُ كريم لا يخافُ العواقب[2]
إذا همَّ ألقى بين عينيه عَزْمَهُ ونكَّبَ عن ذِكْرِ العواقب جانبا
ولم يَسْتَشِرْ فى رأيه غيرَ نفسِهِ ولم يرضَ إلا قائمَ السيف صاحبا
سأغسل عنى العارَ بالسيف جالباً علىَّ قضاءَ الله ما كان جالبا
ويصغر فى عينى تِلادِى إذا انثنت يمينى بإدراكِ الذى كنتُ طالبا

وكان سَعْدٌ من مَرَدَةِ العرب وشياطين الإنس . وفيه يقول الشاعر :

وكيف يُفيق الدهرَ سعدُ بنُ ناشب وشيطانُه عند الأهِلَّةِ يَصْرَعُ

كتب مروانُ بنُ محمدٍ الجَعْدِىُّ إلى عبدالله بن على يسأله حِفْظَ حرمه . فقال له : الحقّ لنا فى دَمِكَ ، وعلينا فى حُرْمِكَ .

وقال الرشيد لإسماعيل بن صبيح : إياكَ والدالّة[3] فإنها تفسد الحرمة ، ومنها أُتِىَ البرامكة .

وقال المأمون : الملوكُ تحتَمِلُ كلَّ شىء إلاّ ثلاثاً : إفْشاءَ السر ، والقدح فى الملك ، والتعرض للحُرَم .

المعتصم إذا نُصِرَ الهوى بطل الرَّأى .

المنتصر ـ لَذَّةُ العَفْوِ أطْيَبُ من لذَّة التَّشَفِّى : وذلك أن لذةَ العفوِ يلحقها حَمْدُ العاقبة ، ولذّةُ التشفى يلحقها ذمُّ الندم .

---

(١) رواية الحماسة : « فإن تهدموا بالغدر دارى »
(٢) وبعد هذا البيت روى صاحب الحماسة :

أخى غمرات لا يريد على الذى يهم به من مقطع الأمر صاحبا
إذا هم لم تردع عزيمة همه ولم يأت ما يأتى من الأمر هائبا
فيا لرزام رشحوا بى مقدما إلى الموت خواضا إليه الكتائبا

(٣) الدالة : ماتدل به على صديقك من خير قدمته . وفى الأصل (المدة) وهو تحريف

والمنتصر يقول عن تجربة ؛ لأنه قتل أباه المتوكل ، والأمرُ فى ذلك أشْهَرُ من أن يُذكَرَ، ولكنى أُلِمعُ منه باليسير :

مقتل المتوكل العباسى

كان المتوكِّلُ قد عَقَدَ لولده المنتصر والمعتزّ والمؤيّد ولايةَ العهد ، ثم تغيّر على المنتصر دون أخَوَيْهِ ، وكان يسمّيه المنتظِر ، ويقول له : أنتَ تتمنّى موتى ، وتنتظر وَقْتِي ! ويأمرُ الندماء أن يعبثوا به ، إلى أن أوْغَر صدْره ، وأقلّ صبره ؛ فلما كانت ليلة الأربعاء لثلاثٍ خلَوْنَ من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين كان المتوكّلُ يَشْرَبُ مع الفَتْحِ فى قصره المعروف بالجعفرى ، ومعه جماعة من الندماء والمغنّين ، وكان المنتصر معهم ، فلما انصرمت ثلاثُ ساعاتٍ من الليل قال لزَرَافة التركى : ألا تَسمُنى ساعةَ حتى أشكو إليك ما يمرّ بى ؟ قال : بلى ، وجعل يماطله و يطاوله ، وغلّقَ بغا الشرابىُّ الأبوابَ كلها إلا باب الماء ، ومنه دخل الذين قتلوه ، فأوّل مَنْ ضربه باغر التركى ضربةً قطع بها حبل عاتقه ، وتلقّاه الفتح بنفسه فأكبّ عليه ، فقتِلا جميعاً . وبويع المنتصر من ساعته ، وكانت مدّة المنتصر فى الخلافة مدة شيرويه ابن كسرى — حين قتل أباه — ستة أشهر .

لإبراهيم بن أحمد الأسدى يرثى المتوكل

وقال إبراهيم بن أحمد الأسدى يرثى المتوكّل :

هكذا فلْتَكُنْ مَنايا الكِرامِ بين ناىٍ ومِزْهَرٍ ومُدَامِ
بين كأسين أرْوَتاه جميعاً كأس لذّاته وكأس الحِمام
يقظ فى السرور حتى أتاهُ ـ قَدَر الله ـ حَتْفُه فى المنامِ
والمنايا مَراتب يتفاضَلْـنَ وبالمُرْهَفَات مَوْتُ الكرام
لم يرز نفسه رسولُ المنايا بصنوفِ الأوْجاع والأسْقَام
هابَه مُعْلِناً فدَبَّ إليهِ فى سُتور الدُّجى بحدِّ الحُسَام

لعبد الكريم التيمى يرثى صاحب خراج المغرب

أخذ هذا المعنى عبد الكريم بن إبراهيم التيمى ، فقال يرثى عيسى بن خلف صاحب خراج المغرب ، وكان قد تناول دواء فمات بسببه :

منايا سدَدْنَ الطُّرْقَ عنبا ولم تَدَع لها من ثَنَايَا شَاهِقٍ مُتطلّعا

فلما رأت سُورَ المهابة دونها ... عليك ولما لم تجِدْ فيك مَطْمَعا
ترقّت بأسبابٍ لِطَافٍ ولم تكد ... تُوَاجه موفور الجَلالَةِ أرْوَعا
فجاءتك فى سِرٍّ الدواء خَفِيَّةً ... على حينَ لم تَحْذَرْ لداء تَوَقُّعا
فلم أر مالاً يُتقى مثل سَهْمِها ... ولا مثلها لم تخشَ كيداً فترجعا

وقد رثاه البحترى و يزيد المهلبى بمرثيتين من أجْودِ ماقيل فى معناهما ، وكانا حاضِرَيْن ليلة قَتْلِه . فاختفى أحدُهما فى طىّ الباب ، والآخر فى قناة الشاذرْوَان ؛ فمن قصيدة البحترى :

البحترى فى رثاء المتوكل

تغــيّر حُسْنُ الجَعْفَرِىّ وأُنْسُهُ ... وقُوِّض بادِى الجعفرىِّ وحاضِرُهْ
تحمّــل عنــه ساكنوه فُجَاءةً ... فَآضت سواءٌ دُورُه ومقابِرُه(١)
ولم أر مثل القصرِ إذ رِيع سِرْبُهُ ... وإذ ذُعِرَتْ أطلاؤه وجآذِرُه(٢)
وإذ صِيحَ فيه بالرّحيل فهتّكت ... على عجَل أستارُهُ وستائِرُهْ
إذا نحن زُرْناه أَجدَّ لنا الأسَى ... وقد كان قبل اليوم يبْهَجُ زائِرُه
فأين عبيدُ الناسِ فى كل نَوْبَةٍ ... تَنُوبُ وناهِى الدهر فيهم وآمِرُه(٣)
تخَفّى لهُ مُغْتالُهُ تحتَ غِرّةٍ ... وأولى لمن يغْتالُه لو يجَاهِرُه
صريعٌ تقاضاه السيوف حُشاشةً ... يجودُ بهـا والموت حُمْرٌ أظافِرُه
حرامٌ علىَّ الراحُ بعدك أو أرى ... دماً بدمٍ يجرى على الأرض مائِرُهْ
وهل يُرتجَى أن يطلب الدمَ طالبٌ ... مَدَى الدهر والموتورُ بالدم وَاتِرُه(٤)
فلا مُلِّىَ الباقى تُرَاثَ الذى مضى ... ولا حَمَلت ذاك الدعاء مَنَابِره

---

(١) آضت : صارت (٢) الأطلاء : جمع طلا ، وهو ولد الظبية ، والجآذر : جمع جؤذر ، وهو ولد البقرة (٣) قبل هذا البيت :

فأين الحجاب الصعب حيث عنعت ... بهيبتها أبوابه ومقاصره

وأين عبيد الناس — إلخ (٤) الموتور هو الواتر ؛ لأن الذى قتل المتوكل هو ابنه

وهى طويلة[١]، وكان أبو العباس ثعلب يقول فيها : ما قيلت هاشمية أحسن منها ، وقد صرّح فيها تصريحَ مَنْ أذهلته المصائبُ عن تخوّف العواقب .

من شعر البحترى

وقد كان البحترى يرتاح فى كثير من شعره إلى ذكره وذكر الفتح بن خاقان ، فمن ذلك قولُه لبعض من يمدحه :

تداركنى الإحسانُ منكَ ، ونالنى ... على فاقةٍ ذاكَ الندى والتطوُّلُ
ودافعتَ عنى حين لا الفتحُ يُرتجَى ... لدفعِ الأذى عنى ولا المتوكلُ

وقال :

مضى جعفرٌ والفتحُ بين مُوَسَّدٍ ... وبين قتيل فى الدماء مضرَّجِ
أأطلبُ أنصاراً على الدهر بعدما ... ثوَى منهما فى الترب أوسِى وخَزْرَجى[٢]

وقال فى غلام له :

عسى آيسٌ من رَجْعَةِ الوصل يوصَلُ ... ودَهرٌ تولَّى بالأحبَّةِ يُقْبِلُ
أيا سكناً فات الفِراقَ بنفسِـــهِ ... وحالَ التّعادى دونه والتَّزَيلُ
أتعجبُ لمّا لم يغُلْ جسمىَ الضّنا ... ولم يخترم نفسى الحِمامُ المعجّـــلُ
فقبلك بانَ الفتحُ منى مودّعاً ... وفارقنى شَفْعاً له المتوكّل
فمـــا بلغ الدّمعُ الذى كنت أرتجى ... ولا فعـل الوجدُ الذى خِلت يفعلُ

ليزيد بن محمد المهلبى يرثى المتوكل

وقال أبو خالد يزيد بن محمد المهلبى فى قصيدة أولها :

لا وَجْدَ إلا أراه دُونَ ما أجدُ ... ولا كَمَنْ فقدَتْ عيناى مفتقَدُ

---

(١) ومن جيدها قوله :

أدافع عنه باليدين ، ولم يكن ... ليثنى الأعادى أعزل الليل حاسره
ولو كان سيفى ساعة الفتك فى يدى ... درى الفاتك العجلان كيف أساوره
أكان ولى العهـد أضمر غدرة ... فمن عجب أن ولى العهد غادره

(٢) مات أوسه وخزرجه : مثل فى فقد النصير لأن الأوس والخزرج يضرب بهما المثل العالى فى النصرة .

يقول فيها :

لا يَبْعَدَنْ هالك كانت مَنِيَّتُهُ كما هَوى من عضاهِ الزُّبيةِ الأَسَدُ[١]

جاءت مَنِيَّتُهُ والعينُ هادِيَةٌ هلاَّ أتته المنايا والقنا قِصَدُ[٢]

فخرَّ فوق سريرِ الملك مُنجَدِلاً لم يحمِه مُلكه لمّا انقضى الأمَدُ

لا يدفع الناسُ ضَيْماً بعد ليلتهم إذ لا يُهزُّ إلى الجانى عليك يَدُ

عَدْنك أسيافُ مَنْ لا دونَه أحدٌ وليس فوقك إلا الواحدُ الصَّمَدُ

إذا بكيتُ فإن الدمعَ مُنْهَمِلٌ وإن رَثَيْتُ فإنَّ الشعرَ مُطَّرِدُ

إنّا فَقَدْناك حتى لا اصطبارَ لنا ومات قَبلك أقوامٌ فما فُقِدُوا

قد كنتُ أُشرِفُ فى مالى فتُخْلِفُهُ فعلَّمتنى الليالى كيف أقتَصِدُ

وقال فيها يذكر الأتراك . ويحضّ على اصطناع العرب :

لما اعتقدتم أُناساً لا حِفاظَ لهم ضِعتم وضيعتمُ مَنْ كان يُعتَقَدُ

ولو جعلتم على الأحرارِ نِعْمَتَكُمْ حمتكم الذَّادة المنسوبة الحُشُدُ[٣]

قومٌ همُ الأصلُ والأسماء تجمعكم والدينُ والمجدُ والأرحامُ والبلدُ

إن العبيدَ إذا أذللتهم صلحُوا على الهوانِ وإن أكرمتهم فَسَدُوا

لأبى حية النميرى

وقال أبو حيَّة النميرى[٤] :

رَمَتْهُ فتاةٌ من ربيعة عامرٍ نَؤُومِ الضُّحَى فى مَأْتَمٍ أىّ مأتمِ[٥]

---

(١) العضاه : جمع عاضهة . وهى الحية تقتل لساعتها ، والزبية : تلعة الاسد

(٢) قصد : جمع قصد ــ على وزن كتف ــ أى متكسر .

(٣) الذادة : جمع ذائد وهو المدافع ، والحشد بضمتين جمع حشد، على وزن كتف، وهو من لا يدع عند نفسه شيئاً من الجهد والنصرة والمال (٤) هو الهيثم بن ربيع المتوفى نحو سنة ١٦٠ (٥) رواية الحماسة «رمته أناة» والأناة: المرأة فيها فتور عند القيام. والمأتم : كل مجتمع فى حزن أو فرح . أو هو خاص بالنساء . أو بالشواب من =

فقلن هنا في السر: نفديك لا يرح ... صحيحاً وإلاّ تقتليه فألمِمِ
فألقت قناعاً دونه الشمسُ واتّقت ... بأحسنِ موصولين كفٍّ ومعصَمِ
وقالت فلما أفرغتْ في فؤاده ... وعينيه منها السحرَ قالت له نَمِ
فأصبح لا يدري أفي طلعة الضحى ... تروَّح أم داجٍ من الليل مُظلمِ (١)

أخذ قوله: «فألقت قناعاً دونه الشمس» من قول النابغة الذبياني:

قامت تَرَاءى بين سَجْفَيْ كِلَّةٍ ... كالشمس يوم طلوعها بالأسعُدِ (٢)
سَقَطَ النَّصِيفُ ولم تُرِد إسقاطَه ... فتناولته واتّقتنا باليـــــدِ

لأبي حية النميري يرثي سلمة بن عياش

وقال أبو حية يرثي سلمة بن عياش:

كأنّ أبا حفصٍ فتى البأس لم يُجِبْ ... به الليل والبيض القِلاصُ النجائبُ
إلى الغاية القصوى، ولم تهد فتيةً ... كراماً وتخطوه الخطوبُ النوائبُ
ويُعمِلْ عتاقَ العيسِ حتى كأنها ... إذا وُضِعتْ عنها العَلايَا المشاجبُ (٣)

= النساء، ونؤوم: كثيرة النوم، ونؤوم الضحى كناية عن المرأة المترفة. وبعد هذا البيت كما في الحماسة:

فجاء كخوط البان لا متتابع ... ولكن بسيما ذي وقار وميسم

والخوط: الغصن الرطيب، والميسم ــ بالكسر ــ أثر الحسن، ومثله الوسامة.

(١) مؤدى البيتين الأخيرين أنه نام في حمى تلك الفتاة، ولكن رواية الحماسة تؤدي معنى يخالف هذا؛ إذ تذكر أنه رحل مزوداً بالحسرة، وذلك قوله:

وقالت فلما أفرغت في فؤاده ... وعينيه منها السحر قلن له قم
فود بجدع الأنف لو أن صحبه ... تنادوا وقالوا في المناخ له نم
فراح وما يدري أفي ساعة الضحى ... تروح أم داج من الليل مظلم

والظاهر أن صاحب زهر الآداب كان يستملي ذاكرته فتخونه في بعض الأحيان.

(٢) الكلة: الناموسية (٣) العيس: الجمال، والعلايا: الأمتعة، مفردها عليان، بالكسر. والمشاجب: أعواد من خشب تعلق عليها الثياب، مفردها مشجب، وفي نسخة «إذا وضعت عنها الولايا» والولايا: جمع ولية ــ بوزن عطية ــ وهي البرذعة.

بعيـــد مثانى الهمّ يُمسِي وماله سوى الله والعضبِ السّريجى صاحبُ(١)
يَرُومُ جسيمات العُـــلا فينالها فَتًى فى جسيمات المكارم راغبُ
فإن يُمسِ وَحْشاً بابهُ فلرُبما تَوَاتَرُ أفواجاً إليـه المواكبُ(٢)
يحيّون بسّاماً كأنّ جبينـــهُ هلالٌ بَدَا وانجاب عنه السحائبُ
وما غائب مَنْ غاب يُرْجَى إيابهُ ولـكنه من ضُمِّنَ اللّحْدَ غائبُ

وزعم الصولى أن أباحيَّة إنما قالها فى محمد بن سليمان بن على بن عبيد الله بن العباس .
وكان أبو حيَّة جيد الطبع ، مألوفَ الكلام ، رقيق حواشى الشعر .

[مجنون بنى عامر]

وسُئِلَ الأصمعى عن قيس بن الملوح المجنون ، فقال : لم يكن مجنوناً ، وإنما كانت به لُوثة كلوثة أبى حَيَّة (٣) ، وهو القائل :

رمتنى وسِــتْرُ الله بينى وبينها عشيةَ أحجارِ الـكِناس رَمِيمُ
رميمُ التى قالت لجارات بيتها : ضَمِنْتُ لـكم ألاّ يَزَالَ يهيمُ
ألا رُبَّ يومٍ لو رمتـــنى رميتها ولـكنّ عهدى بالنضال قديمُ
فيا عجباً من قاتلٍ لى أودهُ أشَاطَ دَمِى شخصٌ علىَّ كريمُ(٤)
يرى الناسُ أنى قد سَلَوْتُ ، وإننى لمدنَفٌ أحْناء الضلوع سَقيمُ(٥)

وأنشدنى إسحاق بن إبراهيم المَوْصِلِى فى مثله ، ولم يسم قائله :

هل الأُدْم كالآرام والزُّهر كالدمَى مُعَاوِدَتِى أيامُهن الصوالحُ(٦)

---

(١) السريجى : نسبة إلى سريج ، وهو قين كان مضرب المثل فى صنع السيوف
(٢) وحش : موحش لا أنيس به (٣) اللوثة — بالضم — مس الجنون
(٤) أشاط : أحرق (٥) المدنف : هو المريض ثقل عليه المرض ، والأحناء : جمع حنو ، بالكسر والفتح ، وهو كل مافيه اعوجاج من عظم البدن (٦) الأدم : جمع أدماء وهى السمراء ، والزهر : جمع زهراء وهى البيضاء . وفى الأصل (الدهر) وهو تحريف . و « كالآرام » متعلق بمحذوف حال من الأدم ، ومثله « كالدمى » وقوله «معاودتى» خبر المبتدأ (م)

زمانٌ بِسلاحى بينهن شبيبتى لها سائف من حسنهن ورامح[1]
فأقسمْنَ لا يسقيننى قَطْرَ مُزْنَةٍ لِشَيْبى ولوسالَتْ بهن الأباطحُ

وقال هارون بن على بن يحيى المنجِّم:[2]

لهارون بن على ابن يحيى المنجم فى الشباب

الغانيــــات عهودُهـــنَّ إلى انصرام وانقِضَاب
مَنْ شابَ شِــبْنَ له المودَّةَ بالخديعة والكِذَابِ[3]
فانعَمْ بهـــنَّ وَزَنْدُ سِنِّـكَ فى الشبيبة غيرُ خابى[4]
ما دُمْتَ فى رَوْقِ الصِّبَا وغصُونه الخضر الرِّطابِ[5]
فافخَرْ بأيام الصـــبا واخلَعْ عِذَارَكَ فى التصابى
وَاعْطِ الشبابَ نصيبـهُ ما دُمتَ تعـذر بالشبـابِ

وقال أشجع بن عمرو السلمى :

لأشجع السلمى فى الشباب

ومالىَ لا أُعطى الشبابَ نصيبهُ وغصناهُ يهتزَّانِ فى عُودهِ الرَّطبِ
رأيتُ الليالى ينتهبن شبيبتى فأسرعتُ باللذات فى ذلك النَّهْبِ
فإنَّ بنات الدَّهر يخلسنَ لذتى فقد جُزْنَ سَلمى وانتهين إلى حَرْبى
وقد حوَّلَتْ حالى الليالى وأسرَجت على الرأس أمثال الفتيل من العطب
ومَوْتُ الفتى خيرٌ له من حياتهِ إذا كان ذا حالين يَصْبُو ولا يُصْبِى

وقال آخر :

ما العَيش إلا أن تُحِـــب وأن يحبك مَنْ تُحبُّهْ

فِقَر تتصل بهذه الأبيات . فى وصف الشباب

أطاعَ الشبابَ وغِرَّتَهُ ، وأجاب الصبا وشِرَّتهُ . جرَّ إزارَ الصبا ، وأَذَالَ

(١) سائف : اسم الفاعل من «ساف يسيف» أى ضرب بالسيف ، ورامح : اسم الفاعل من «رمح يرمح» أى ضرب بالرمح ، والكلام على الاستعارة (م)
(٢) هو منجم اشتهر بعلم الهيئة وعمل آلاتها ، توفى فى بغداد سنة ٣٧٦
(٣) شبن : مزجن (٤) غير خاب : غير منطفىء ، ويقال خبا لهبه إذا سكن فوره غضبه
(٥) روق الصبا : أوله ، وفى الأصول «ورق» تحريف جلبه ذكر الغصون (م) .

ديولَ الهوى(١) ، ورَكَضَ(٢) فى ميدان التصابى ، وجنى ثمرات الملاهى . هو فى اقتبال شبابه ، وحداثة أترابه(٣) ، وريْعان عمره ، وعُنفوان أمره . هو فى إبّان شبابه واعتداله وريعان إقباله واقتباله . بعثه على ذلك أشَرُ الصبا ، ولينُ الغُصْنِ ، وشَرْخُ الشبيبة وسكر الحَدَاثة . فَتِيّ السِّن ، رطيب الغُصْن ، عمره فى إقْباله . ونشاطه فى استقباله ، وشبابُه فى اقتباله ، وماؤه بحاله . فلانٌ فى حكم الأطفال ، الذين لم يَعَضُّوا على نَوَاجِذ الرجال . هو فى عُنْفوان شبيبةٍ تُخاف سقطاتُها وهَفَوَاتُها ، ولا يُؤْمن جَيْحاتُها ونَزَواتُها . هو فى سُكْرَيِ الشباب والشراب . و بين نزوات الشبان . ونَزَغَات الشيطان . شبابُه أعمى عن الرشد ، أصمّ عن العَذْل ، قد لبّى دَاعِيَ هَواه ، وانغمس فى لُجَّةِ صِباه . قد هَجَم بسُكْرِ الحداثةِ على سكرات الحوادث . يَجْرِى إلى الصِّبا جَرْيَ الصَّبَا . فلان غُفْلٌ من سِمَةِ التَّجْربة ، جَامحٌ فى عِذارِ الغَفلة ، صَعْبُ الرأس(٤) على لجام العظَة . هو مِنْ سلطان الصِّبَا فى النَّوْبَة الأولى . قد خلع عِذَاره ومِقْوَده ، وألْقَى إلى البطالة بَاعَه و يَدَه . هو بين خُمَار الغَدَاة وسكرِ العَشِي(٥) لايعرف الصَّحو ، ولايفارق اللهو . فلان لايفيق ، ولا يذكر التوفيق . هو بين غرَرِ الشباب ، وغرَرِ الأحباب .

و يتعلق بهذه الألفاظ ألفاظ لهم فى نجابة الشباب و ترشحهم للمعالى

قد جمع نَضَارةَ الشباب إلى أُبّهة المشيب ، وهو على حدوثِ ميلادِه وقُرْب إسناده شيخ قَدْرٍ وَهَيْبَة ، و إن لم يكن شيخ سِنٍ وشَيْبَة . هو بين شباب مُقْتبل ، وعقل مكْتَمِل . قد لبس بُرْدَ شبابه على عَقْل كهل ، وَرَأْى جزل ، وَمَنْطق فصل . للدهر فيه مقاصد ، وللأيام فيه مَواعد ، أرى له فى فَصل ضمانِ الأيام وودائع الحظوظ

---

(١) أذال : أهان (٢) ركض : جرى

(٣) الأتراب : المتساوون فى السن . (٤) أحسبه « صعب المراس »(م)

(٥) الخمار بالضم ــ ما يعترى ــ الشارب من الألم عند فقد الشرب

والأقسام ، تباشيرَ نجح ، ومخايلَ نصرٍ وفتحٍ . قد استكمل قوّة القضاء ، ولم يتكامل له سِنّ الكهل . مازالت مخايله وليدا وناشئا ، وشمائله صغيراً ويافعا ، نواطقَ بالحسن عنه وضوامنَ النجح فيه ! قد سما إلى مراتب أعيان الرجال ، التى لا تُدرَك إلا مع الكمال والاكتهال . حُمِدَتْ عزائمُه ، قبل أن حُلّت تمائمه ، وشُهِدَتْ مكرماته ، قبل أن تدرج لِداته[1] .

وقال البحترى : — للبحترى

لا تنظرنّ إلى العباس من صغر … فى السّن وانظر إلى المجد الذى شادَا
إنّ النجومَ نجومَ الأفق أصغرها … فى العين أذهبُها فى الجوّ إصعادَا

وقال آخر :

رأيت العقلَ لم يكن انتهاباً … ولم يُقسَم على قدْرِ السنينا
فلو أنّ السنين تقسّمته … حوَى الآباء أنصبةَ البنينا

وقال الفضل بن جعفر الكاتب : — للفضل بن جعفر الكاتب

فإن خلّفته السنُّ فالعقلُ بالغٌ … به رُتبةَ الكهلِ المؤهّل للمَجْدِ
فقد كان يحيى أوتِىَ الحُكمَ قبله … صبيًّا وعيسى كلّمَ الناسَ فى المهْدِ

[مما قيل فى أثر الأيام والليالى

وكان أبو حيّة كثير الرواية عن الفرزدق ، وعُمّر حتى التقى بابن مناذر فاستنشده شعره ، فأنشده أبو حيّة : — بين أبى حية وابن مناذر

ألاَ حَىِّ من أجل الحبيب المغانيا … لبِسْنَ البلى مما لَبِسْنَ اللياليا
إذا ما تقاضَى المرءَ يومٌ وليلةٌ … تقاضاه شىءٌ لا يملّ التقاضيا
حَنتْكَ الليالى بعد ما كنت مرةً … سَوِىَّ العصَا لو كُنّ يُبقِينَ باقيا

---

(١) اللدات : جمع لدة وهو الترب بالكسر ، أى المماثل فى السن وفى الأصل «اللذات» بالذال المعجمة وهو تحريف . وتدرج : تمشى ، وهو خاص بالصبى والشيخ ، وفى نسخة « تدج » ـ بتشديد الجيم ، وبغير راء ـ ومعناه تدب (م)

فقال ابن مناذر : أوَ شعرٌ هذا ؟ فقال أبو حيّة : ما فى شعرى عيب ، غير أنك تسمعه .

وفى هذه القصيدة يقول أبو حية :

ولما أبَتْ إلا التواء بِوُدِّها   وتكديرَها الشُّرْبَ الذى كان صافيا
شربتُ بِرَنْقٍ مِنْ هَوَاها مُكَدَّرٍ   وكيف يعاف الرَّنْقَ من كان صاديا(١)

لعمرو بن قميئة

وقد قال عَمْرُو بن قَميئة(٢) فى معنى قول أبى حية :

كانت قَنَاتِى لا تَلِينُ لغامزٍ   فألانَها الإصباحُ والإمْسَاءُ
ودعوتُ ربى فى السلامة جاهداً   ليُصِحَّنِى فإذا السَّلامَةُ داءُ

النمر بن تولب

وقال النّمر بن تولب(٣) :

يَوَدُّ الفتى طولَ السلامة والبقا   فكيف يرى طولَ السلامة يفْعَلُ
يعودُ الفتى من بَعْدِ حُسنٍ وصحةٍ   ينوءُ إذا رَامَ القيامَ ويُحْمَلُ(٤)

وقد روى فى الحديث الشريف : « كفى بالسلامة داء » .

لحميد بن ثور

وقد أحسن حُمَيد بن ثور فى قوله :

أرَى بَصَرِى قد رَابَنِى بعد صحةٍ   وحَسْبُكَ داءً أن تَصحَّ وتَسْلَمَا

(١) ماء رنق ــ بفتح فسكون، وفيه لغة أخرى بفتح فكسر ــ أى غير صاف، وتقول: رنق الماء ــ بالتضعيف ــ أى كدره، وكأنه ذهب برونقه وحسنه، ويعاف : يكره (م) .

(٢) شاعر جاهلى، نشأ يتيما، وأقام فى الحيرة مدة، وخرج مع امرىء القيس حين توجه إلى قيصر ، فمات فى الطريق . وفيه يقول امرؤ القيس :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه   وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك ؛ إنما   نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقد سمته العرب « عمرا الضائع » لموته فى غربة وفى غير مطلب ولا أرب

(٣) شاعر مخضرم، من شعراء الطبقة الثانية فى الجاهلية ، أدرك الإسلام ، وهو كبير السن، فوفد على الرسول، وكتب عنه كتابا لقومه ، وكان جوادا واسع القرى كثير الأضياف (٤) ينوء : ينهض بتثاقل وإعياء

ولن يَلْبَثَ العصْران يومٌ وليلةٌ إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

وهذان البيتان من قصيدة طويلة ، وهى أجود شعر حُمَيد[١] ، ومن أجوَد ما فيهـا :

وَما هاجَ هذا الشوقَ إلاّ حمامةٌ دَعَتْ ساقَ حر ترحَةً وتَرنُّمَا

تَرُوح عليه وَالهاً ثم تَغْتدِى مولّهةً تَبْغى له الدّهرَ مطْعَمَا

تؤمل منه مُؤْنِساً لانفرَادِها وتَبكِى عليه إنْ زَقَا وترَنّمَا

كأنّ على إشراقه نورَ خمرةٍ إذا هُوَ مَدّ الجيد منهُ لِيطْعَما

فلمّا اكْتسَى الرّيشَ السُّحامَ ولم تجدْ لها معَهُ فى ساحةِ الحىّ مجثَماَ[٢]

تنحّتْ قريباً فوقَ غُصنٍ تَذأّبَتْ به الريح صِرْفاً أىّ وجه تيمّما[٣]

فأهْوَى لها صَقرٌ مُسِفٌ فلم يدَعْ لهـا وَلَدًا إلا رِماماً وأعْظُما

فأوْفَتْ على غُصْنٍ ضُحَيًّا ولم تَدعْ لنائحـةٍ فى نَوْحِها مُتَلوَّما

عَجِبْتُ لها أنّى يكونُ غِناؤها فصيحاً ولم تَفْغرْ بمَنْطِقِها فما[٤]

فلم أرَ مِثْلى شاقه صَوْتُ مثلها ولا عربيًّا شاقَه صَوْتُ أعْجَما

ومن حيث الهجاء قوله فى هذه القصيدة يخاطب رجلين بعثهما :

وقولا إذا جاوزْتُما أرْضَ عَامرٍ وجاوزتمـا الحيّين نَهْدًا وخَثْعَما

تريعان مِنْ جَرْم بن زبّان أنهم أبَوْا أنْ يريقوا فى المَزَاهِزِ مِحْجَمَا[٥]

وما هُجِيت جَرْم بأشدّ من هـذا ، يريد أنهم لذلّتهم لم يَتِروا أحـداً فيطالبهم بِذَحْل .

---

(١) من شعراء الإسلام ، أدرك عمر بن الخطاب ، وقال الشعر فى أيامه ، وقد أدرك الجاهلية أيضا

(٢) السحام : الأسود ، والمجثم : مكان الرقاد (٣) تذأبت : أتت من كل جانب كما فعل الذئب (٤) تفغر : تفتح (٥) المزاهز : الحروب ، والمحجم : وعاء الحجامة والفصد

وقال الأصمعي : قيل لبعض الصالحين : كيف حالك ؟ قال : كيف حالُ من يَفنَى ببقائه ، ويَسْقَم بسلامته ، ويؤتَى من مَأمنه

لمحمود الوراق

وقال محمود الوراق :

يُحِبُّ الفتى طولَ البقاءِ كأنّهُ على ثقةٍ أن البقاءَ بقاءُ

إذا ما طوى يوماً طوى اليومُ بعضَه ويَطويه إن جنَّ المساءُ مساءُ

زيادته في الجسم نقصُ حياتِه وأنى على نقصِ الحياةِ نماءُ[1]

جديدان لا يَبقى الجميعُ عليهما ولا لهما بعدَ الجميعِ بقاءُ

للمتنبي

وقال المتنبي :

زيادةُ شَيْبٍ وَهْيَ نقصُ زيادتي وقوّةُ عِشقٍ وَهْيَ مِن قوّتي ضَعفُ

وبيت محمود الأخير كقول البحتري :

للبحتري

أناةً أيّها الفَلَكُ المُدارُ أنَهْبٌ ما تُصَرِّفُ أم جُبارُ[2]

ستَفنى مِثلَ ما تُفْنِي وتَبلَى كما تُبلِي فيُدرَكُ مِنكَ ثارُ

تُنابُ النائباتُ إذا تَناهَتْ ويَدْمُرُ في تَصرُّفِهِ الدَّمارُ

وما أهلُ المنازلِ غيرَ رَكْبٍ مطاياهم رَواحٌ وابتِكارُ

ويقول فيها :

لنا في الدَّهر آمالٌ طِوالٌ نُرَجِّيها وأعمارٌ قِصارُ

أما وأبي بني حارِ بنِ كعبٍ لقد طَرَدَ الزمانُ بهم فساروا

أصابَ الدَّهرُ دولةَ آلِ وَهْبٍ ونالَ الليلُ مِنهم والنهارُ

أعارهُمُ رداءَ العِزِّ حتى تقاضاهم فردّوا ما استعاروا

وقد كانوا وأوْجُهُهم بُدورٌ لمبصرها وأيديهم بِحارُ[3]

لابن هانئ

أخذ قوله : « ستَفنى مثل ما تُفنِي » أبو القاسم بن هانئ فقال :

تَفنَى النجومُ الزُّهرُ طالعةً والنَّيِّرانِ الشمسُ والقمرُ

---

(١) النماء : الزيادة (٢) جبار : مهدر لا قود فيه

(٣) في ديوان البحتري «وأيديهم بحور تختبط» والمختبط . هنا : السائر ليلا (م)

ولئن تبــدّتْ فى مَطالِعِها منظومةً فَسَوْف تَنتَثِرْ
ولئن سعى الفلكُ المُدارُ بهــ فسوف يُسْلِمُها ويَنْفَطِرْ

وقد استقصى على بن العباس الرومى المعنى الأول فقال :

لابن الرومى

والدَّهرُ يُبْلِي الفتى من حيثُ يُنْشِئُهُ حتى تَكُرَّ عليه لَيلةُ القَرَب[1]
يَغْذُوهُ فى كلِّ آنٍ وَهْوَ يأكُلُه ويَحْتسِي نغباً مِنــهُ على نُغَب[2]
يُودى بحالٍ فَحالٍ من شبيبتهِ تسرّب الماء فى مُسْتانَفِ الكُتَبِ[3]
حَسْبُ امرىءٍ مِنْ خَنَى دهرٍ تطاوُلُهُ وإنْ أجمَّ فلم يَنْكُبْ ولم يَنَبِ
فى هُدْنَةِ الدَّهرِ كافٍ من وَقائعهِ والعمرُ أقدحُ مبراةٍ من الوَصَبِ

وقال أيضاً :

يا بَاقِيَ ~~الجسمِ لم يسلم وشيدَهُ~~ حزناً أشلو من الأعداء مشجونِ[4]
انظر إلى الدهرِ هل فاتته بغيتهُ فى مطمع النسرِ أو فى مَسْبَح النونِ[5]
ومن تحصَّن مَنْخوباً على وَجَلٍ فإنمــا حصنه سجنٌ لمسجونِ
أشكو إلى الله جَهْلاً قد أضرَّ بنا بل ليس جهلاً ولكن عِلْم معبونِ

لأبى تمام

وقال الطائى :

وإن تُبْنَ حيطان عليه فإنمــا أولئك عُقَّالاتُهُ لا مَعاقِلُهْ

ودخل يحيى بن خالد على الرشيد وقد ابتدأت حاله فى التغير ، فأُخبر أنه مشغول، فرجع، فبعث إليه الرشيد : خُنْتنى فاتّهمتنى، فقال: إذا انقضت المدّة كان الحتفُ فى الحيلة ، والله ما انصرفتُ إلا تخفيفاً .

أخذ ابن الرومى فقال وقد فصده بعضُ الأطباء ، فزعم أن الفصدَ زاد فى علته :

غلط الطبيبُ علىَّ غَلْطَةَ موردٍ عجزت محالَتُه عن الإصدار[6]

---

(١) ليلة القرب ــ بفتح القاف والراء جميعاً ــ أن تسير الليل كله لترد الماء غدك (م) .
(٢) نغب ــ بضم ففتح ــ جمع نغبة . وهى الجرعة (م) . (٣) الكتب : جمع كتبة ، وهو السير الذى تخرز به قربة الماء (م) .
(٤) شلو: جزء، ومشجون: مشعوب ومكسور (٥) النون : الحوت (٦) المحالة : الحيلة . ومنه « المرء يعجز لا المحالة » ويخطىء من يقول : المرء يعجز لا محالة

والناسُ يَلْحَوْنَ الطبيب ، وإنما غَلَطُ الطبيب إصابةُ المقدارِ

[وصف الثغور]

لأبي حية النميري

وقال أبوحَيَّةَ النميرى :

سَقَتْنِي بكأسِ الحب صِرْفاً مروَّقاً رِقاق الثنايا عذْبَة المترَنَّقِ[1]

وخُمصانةٍ تَفْتَرُّ عن متنشقٍ كنوْرِ الأقاحى طيب المتذوَّقِ[2]

إذا امتضغت بعدامتاع من الضحى أنابيبَ من عُودِ الأراكِ المخلَّقِ[3]

سَقَتْ شُعَبَ المسواك ماء غمامةٍ فضيضاً بخرْطُوم الرَّحيقِ المرَوَّقِ[4]

وأنشد الثورى :

ترى الدّر منثوراً إذا ماتكلّمت وكالدّرِ منظوماً إذا لم تَكلَّمِ

تُعبِّد أحرارَ القلوبِ بِدلّها وتملأُ عَيْنَ الناظر المتوسِّمِ

والبيت الأول من هذين كقول البحترى :

فمن لؤلؤ تَجلُوه عنـد ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تُساقطُه[5]

وقد تقدّم .

لذى الرمة

قال أبو الفرج الرياشي: سمعت الأصمعي يقول: أحسن ماقيل في وصف الثغر قول ذى الرمة:

وَتَجْلُو بِفَرْعٍ من أراكٍ كأنّه من العَنْبَرِ الهِنْدِيِّ والمِسكُ يُصبَحُ[6]

---

(١) المترنق : العين ، وتقول : رنق النوم في عينيه خالطهما (٢) خمصانة: ضامرة البطن ، والمتنشق : الثغر ؛ لأنك تتنشق منه نكهته العطرة ، والمتذوق: هو الريق لأنك لذ تذوقه (٣) المخلق : المدهون بالخلوق ، وهو ضرب من الطيب

(٤) الفضيض : ماتناثر من الماء (٥) قبل هذا :

ولما التقينا واللوى موعـد لنا تعجب رائى الدر حسنا ولاقطه

(٦) أراد بفرع من أراك السواك تجلو به أسنانها ، وكنى بما وصف به السواك عن طيب رائحة فمها (م) .

ذُرَى أُقْحُوَان وَاجَه الليل وارْتَقَى إليهِ النَّدَى من رامــةَ المتروِّحُ
هِجان الثَّنَايا مُغْرِبٌ لو تَبَسَّمَتْ لِأَخْرَسَ عنه كاد بالقولِ يُفْصِحُ(١)

ومن قديم هذا المعنى وجيّده قولُ النابغة الذبيانى فى صفة المتجرِّدَةِ امرأةِ النعمان بن المنذر :

للنابغة الذبيانى

تَجْلُو بقادِمَتَىْ حمامــةِ أيكةٍ بَرَدًا أُسِفَّ لِثاتُه بالإثمــدِ(٢)
كالأُقْحُوَان غَـدَاةَ غِبِّ سمائِه جَفَّتْ أعاليه وأَسْفَلُه نَدِى
زَعَم الهُمَامُ بأنَّ فَاهَا بَارِدٌ عَذْبٌ مُقَبَّــلُهُ شَهِىُّ المَوْرِدِ
زَعم الهمــامُ ولم أذُقْهُ أنه يشفى بِرَيَّا رِيقِها العَطِشَ الصَّدِى

ومن قوله : « ولم أذقه » أخذ كلّ من أتى بهذا المعنى ، فتقه الناس بَعْدَهُ ،

للمتوكل الليثى

قال المتوكل الليثى :

كأنَّ مُدامــةً صهباء صِرْفًا تَرَقْرَقُ بَيْنَ راوُوقٍ ودَنِّ
تُمَزُّ بها الثَّــنَايَا من سليمى فِراسةُ مُقْلَتِى وصَحِيحُ ظَنِّى

لبشار بن برد

وقال بشّار :

يا أطيَبَ الناس رِيقًا غير مُختَبرٍ إلاّ شهادة أطرافِ المساويكِ
قد زُرْتِنا مرةً فى الدهر واحدةً ثَنِّى ولا تجعليها بيضَةَ الدِّيكِ
يا رَحمةَ الله حُــلِّى فى منازلنا حَسبى برائحة الفردوس من فِيكِ

وقيل لبشار: يا أبا معاذ ، كم بين قولك ، وأنشد هذه الأبيات. و بين أن تقول:

إنماعظمُ سُلَيْمَى خُلَّــتِى قَصَبُ السكر لا عَظْمُ الجَمَلْ
وإذا قُرِّب منها بَصَــلٌ غلب المِسكُ على ريح البصلْ

---

(١) هجان الثنايا : يريد أن ثناياها ناصعة البياض . من قولهم : إبل هجان ، أى بيض كرام

(٢) الإثمد . الكحل

فقال : إنما الشاعر المطبوع كالبحر : مرةً يقذِف صَدَفه ، ومرةً يقذف جِيَفَه(١) .

[تفضيل السواد]

وقد تناول هذا المعنى أبو الحسن علىّ بن العباس الرومى من أقرَب متناول

فقال وكشفه بأوْضح عبارة ـ فى صفته لجارية أبى الفضل عبد الملك بن صالح السوداء بعد أن استوفى جميعَ صفاتها وكان قد اقتُرِح عليه وصْفُها :

لابن الرومى فى وصف جارية

وصَفْت فيها الّذِى هَوِيت على الـــوهم ولم تَخْتَبِرْ ولم تَذُقِ
إلاّ بأخبـارك التى رُفِعَتْ منك إلينا عن ظبيـة البُرَقِ(٢)
حاشا لسَوْداء منظرٍ سكَنَتْ ذراك إلاّ عَنْ مَخْبَرٍ يَقِقِ(٣)

وهذه الأبيات من قصيدةٍ له وصف فيها السواد ، واحتجّ بتفضيله على البياض ، حتى أغلق فيه الباب بعده ، ومنع أن يَقْصد فيه أحدٌ قصده ، إلاّ كان مقصّر السهم عن غرض الإحسان . وقد نبه على بن عبدالله بن العباس [المسيب على] فضائلها ، وأجاد التشبيه ، وكشف عن وجوه الإبداع ، وضروب الاختراع

لأبى حفص الشطرنجى

وقد مدح الناسُ السوادَ والسّود فأكثروا ؛ فمن جيد ما قالوا فيه قول أبى حفص الشطرنجى :

أشبَهكِ المِســكُ وأشبهتِهِ قائمةً فى لَوْنه قاعِــدَهْ
لا شكّ إذ لَوْنكما واحــدٌ أنكما من طِينةٍ واحـــدَهْ

لابن الرومى

فأخذ ابنُ الرومى هذا المعنى ، وأضاف إليه أشياء أخر توسعاً واقتداراً ، فقال :

يذكرك المسك والغَوالى والسّكّ ذوات النســيم والعَبَق(٤)

(١) يريد أن الشاعر المطبوع له سقطات ، ومن هنا كانت سقطات المتنبى مثلا فاضحة ؛ لأن الإجادة المطلقة فوق طاقة الإنسان ، وقد يطرد هذا الحكم فى كثير من نواحى الحياة الإنسانية . (٢) البرق : جمع برقة ـ بالضم ـ وهى مكان تكثر فيه الظباء (٣) يقق : ناصع البياض (٤) السك : نوع من الطيب ـ والعبق ، بفتح العين والباء جميعا ، طيب الرائحة (م) .

وهذه الأشياء وإن كانت ناقصةً عن المسك، فهي ممدوحةٌ بالطيب، غير مستغنى عن ذكرها في التشبيه؛ فأماز يادته على جميع مَن تعاطى لمدح السواد فقوله:

سوداء لم تنتسب إلى بَرَص الـــشقْر ولا كُلْفَةٍ ولا بَهَقِ[1]

والأبيض الشديد البياض مَعيبٌ، وقد دلّ عليه قوله:

وبعضُ ما فُضّـلَ السوادُ بهِ والحقّ ذو سُــلّمٍ وذو نَفَقِ
ألاّ يعيبَ السَّوادَ حُلْكَتُهُ وقد يُعابُ البياضُ بالبَهَقِ[2]

قوله: « الحق ذو سُلّم وذو نَفَق » أراد أنّ الحقّ يتصرّفُ في جهات، وضَربَ الصعودَ والنزولَ لذلك مثلا؛ ثم قصد لوَصْفِ هذه السوداء بالكمال في الصفة؛ ومن عيب السُّودان أن أكفّهم عابسة[3] متشقّقة، وأطرافهم ليست بناعمة لينة، وكذلك لا يزال القَلَحُ في شفاههم، وهي الشقوق المذمومة الموجودة في أكثر السودان في أوساط الشفاه، وأيضاً فإن الأسود مهجو بخبث العَرَق، فنفى هذه الصفات المذمومة الموجودة في أكثر السودان عنها، فقال:

لَيسَتْ من القَبَسِ الأكُفّ ولا الـــقُلح الشِّفاهِ الخبائثِ العَرَقِ

ثم عاج بخاطره على وصف هذه السوداء بأضداد تلك الصفات المذمومة، فقال:

في لِينِ سَمُّورَةٍ تخـــيّرها الأ فرّاءُ أو لِينِ جيِّـــد الدَّلَقِ[4]

ومن بديع مدح السوداء قوله:

أكسبها الحبّ أنها صُبِغتْ صبغةَ حَبّ القلوب والحَـــدَقِ
فانصرفت نحـوها الضمائرُ والأ بصار يَعْشَقْنَ أيما عَشَقِ

فأخـبر أنّ القلوب إنما أحبتها بالمجانسة التي بينها وبين حَبّ القلوب من السواد، وكذلك الحَدَق.

---

(١) الكلفة: النمش يوجد في الوجه، والبرص والبهق معروفان

(٢) الحلكة: شدة السواد، ومنه قولهم: ظلام حالك (٣) عابسة: يابسة، وفعله عبس — من باب فرح — أي يبس (م). (٤) الدلق: دوبية كالسمورة

لأبى نواس

ومن جيِّد تشبيهات أبى نواس وقد نبَّه نديما لصبوح فأخبر عن حاله وقال :

فقام والليلُ يجلوهُ الصباحُ كما جَـلاَ التبسم عن غُرِّ الثَّنِيَّاتِ

لابن الرومى أيضا

ولعلى بن العباس عليه التقدم بقوله :

يفتَرُّ ذاك السوادُ عن يَقَقٍ من ثغرها كاللآلىء النَّسقِ[١]

كأنها والمــــزاحُ يُضحِكُها ليلٌ تعَرَّى دُجاه عنْ فَلَقِ[٢]

وفضلُ هذا الكلام على ذاك أن هذا قدَّمَ لمعناه فى التشبيه مقدمة أيَّدَته ، ووطَّأَتْ له الآذان[٣] ، وأصغت الأفهام إلى الاستحسان ، وهى قوله :

* يَفتَرُّ ذاك السوادُ عن يقق *

وفى هذه السوداء يقول ، وقد سأله أبو الفضل الهاشمى أن يستغرقَ صفات محاسنها الظاهرة والباطنة ، فقال :

لها حِـــرٌ يستعير وَقْدَته من قلب صبٍّ وصدر ذى حَنَقِ[٤]

كأنما حـــــرُّه لِخَابِرِهِ ما ألهبتْ فى حشاه من حُرَقِ

يَزْدَاد ضيقاً على المِراس كمَا تزْدَاد ضيقاً أنْشُوطَةُ الوَهَقِ[٥]

ثم فكَّرَ فيما فكَّرَ فيه النابغة ، وقد أمره النعمانُ بوصف المتجرِّدة ، فوصف ما يجوز ذكره من ظاهر محاسنها ، ثم كره أن يذكر من فضائلها مالا يسوغ بمثله أن يذكر منها ، فردَّ الإخبار عن تلك الفضائل إلى صاحبها ، وهو الملك ، فقال :

زعمَ الُهمام بأن فاها باردٌ عذبٌ إذاقبَّلتهقلتَ ازْدَدِ

فاحتذى علىّ بن العباس هذا ، فقال بعد ما سأله أن يستغرقَ فى وصف فضائلها الظاهرة والباطنة :

خُذْهَا أباالفضل كسوةً لك مِنْ خَزِّ الأماديح لا مِنَ الخِرَقِ

---

(١) نسق : متسق (٢) تعرى : تكشف (٣) وطأت: مهدت (٤)الحر ـ بكسر الحاء ـ هوالفرج (٥) الوهق : الحبل يرمى فى أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان

وصفت فيها التى هَوِيتَ على الـــوَهْمِ ولم تختبِرْ ولم تَذُقِ
إلاَّ بأخبـــارك التى وَقَعَتْ منكَ إلينا عن طَبْيَةِ البَرَقِ
حاشا لسوداء مَنْظَرٍ سكَنَتْ ذُرَاكَ إلاَّ عنْ مخـــبرٍ يقَقِ

وهذا المعنى أومأ إليه النابغة إيماء خفيًا تذهبُ معرفتُه عن أكثرِ الناس، ولو آثَرَ النابغةُ تَرْكَ الاختصار، وهمَّ بكَشْفِ المعنى وإيضاحِه، ما زادَ على هذا الكشف الذى كشفه ابن الرومى:

وأصحاب المعانى ينشدون للفرزدق:

للفرزدق

وجفنِ سِلاَحٍ قد رُزِئْت فلم أَنُحْ عليه ولم أبعَثْ عليـه البَوَاكِيَا
وفى بَطْنِه مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ لَوَ أن المنَايا أنسَأَتْه لَيَالِيـا[1]

ومعناه عندهم أنه رثى امرأة توفيت حاملا، فقال على بن العباس وقد وصف هذه المرأة السوداء:

لابن الرومى

أخلِقْ بها أن تقومَ عن ذَكَرٍ كالسيف يَفْرِى مُضَاعَفَ الحِلَقِ
إنَّ جفونَ السيوفِ أكثرُها أسْوَدُ والحقُّ غـــيرُ مُخْتَلَقِ

فهذه زيادةٌ بينة، وعبارة واضحة، لم تحتج إلى تفاسير أصحاب المعانى، وقال مما لم ينشده المتنبى:

غُصْنٌ من الآبنوس رُكِّبَ فى مؤتزرٍ مُعجب ومنتطق
يهتزّ من ناهـــديه فى ثمرٍ ومن دواجى ذُرَاه فى ورَقِ

وهذا معنى قد بلغ قائِلُه من الإجادة، فوق الإرادة، وامتثل أبو الفضل الهاشمى ماأشار به ابن الرومى، فأولدها، فأنجبتْ.

وفى معنى معنى قول الفرزدق قال الطائى وأحسن وذكر وَلَدَيْنِ تَوْأَمَيْنِ ماتا لعبدالله ابن طاهر:

---

(١) الحفيظة: قوة الإباء ــ والمنايا: جمع منية، وهى الموت. وأنسأته: أخرته (م)

إن تُرْزَ في طَرَفَىْ نهارٍ واحدٍ رُزْأيْن هاجَا لَوْعةً وبَلاَبِلا
فالثقلُ ليس مضاعفاً لمطيَّةٍ إلا إذا ما كان وَهْماً بازِلا[1]
لهفى على تلك المشاهد منهما لو أُمهلتْ حتى تكون شمائلا
لَغَدَا سكونهما حِجًى ، وصباهما حُكماً، وتلك الأريحيَّةُ نائلا
إن الهلالَ إذا رأيت نماءهُ أيقنتَ أن سيكون بدراً كاملا

وعلى ذكر التوأمين ألفاظ لأهل العصر فى التهنئة بتوأمين

تيسّرت مِنْحَتَانِ فى وطن ، وانتظمت مَوْهِبتان فى قَرَن[2]، طلع فى أفُق الكمال نجمَا سَعْد ، وشِهابَا عِزّ ، وكَوْكَبَا مَجْد ، فتأهّلت بهما رُبوعُ المحاسن ، ووُطِّئت لهما أكْنَافُ المكارم، واستشرفَتْ إليهما صدورُ الأسرَّةِ والمَنابر . بلغنى خَبَرُ الموهبة المشفوعة بمِثْلِها ، والنِّعْمَة المقرونة بِعِدْلها[3] فى الفارسين المقبلين ، رضيعى العزّ والرفعة ، وقَرِينِي الجدِ والمنعة ، فشملنى من الاغتباط مايُوجِبُه ازْدِوَاجُ البُشْرَى ، واقترانُ غَادِيةٍ[4] بأُخْرَى.

والشىء يُذْكَر بمـا قارب ناحيةً من أنحائه ، وجاذبَ حاشيةً من رِدَائه[5].

[شىء من الهجاء يشتمل على تضمين]

وقال بعض أهل العصر يهجو رجلا وضمّن قول النابغة :

* كالأقحوان غَدَاةَ غِبِّ سَمَائِه *

---

(١) الوهم : الجمل الضخم القوى ، والبازل : المكتمل السن

(٢) القرن : الحبل المفتول من لحاء الشجر أو من الصوف

(٣) العدل ــ بالكسر ــ النظير .

(٤) الغادية : السحابة تمطر غدوة ، وفى نسخة «عارفة» (م) .

(٥) هذه العبارة من كلام المؤلف، لبيان موجب الاستطراد فى الكلام عن التوأمين

وأزاحه عن بابه ؛ فجاء مليحاً فى الطبع ، مقبولا فى السمع :

يا سائلى عن جعفر ، عَهْدِى بهِ   رَطْبَ العِجَان وكفُّه كالجَلْمَدِ (١)
كالأقْحُوَانِ غَداةَ غِبِّ سمائِه   جفّت أعاليه وأسْفَله نَدِى (٢)

ومن مستحسن ما روى فى هذا التضمين قول الآخر وضمن بيتاً لمهلهل ابن ربيعة :

وسائلةٍ عن الحسَن بن وهبٍ   وَعَمَّا فيه من كَرَمٍ وخِيرِ
فقلت هو المهذب ، غيرَ أنى   أراه كثيرَ إرخاء الستورِ
وأكثر مايغنّيه فتـــاهُ   حُسَيْنٌ حين يخلو بالسُّرور
فلولا الريح أُسْمِعَ من بِحُجْرٍ   صَليلَ البيض تُقرَع بالذُّكورِ

وهذا البيت لمهلهل مما يعدُّونه من أول كذب العرب ، وكانت قبل ذلك لاتكذب فى أشعارها (٣) ، وكان بين الموضع الذى كانت فيه هذه الواقعة وهى بالجزيرة و بين حُجْر وهى قَصَبَةٌ باليمامة مسافةٌ بعيدة ، فأخرجه هذا الشاعر بقوة مُنّته ، ونفاذِ فِطْنَته، إلى معنًى آخر مستظرف فى بابه. وهذا المذهبُ أحسنُ مذاهب

---

(١) العجان : الاست . والجلمد : الصخر   (٢) هذا التضمين يذكر بقول بعض المولدين :

تصدى إلى ابرى فقلت له اتئد   وعيشك لو أبصرته وهو ثائر
رأيت الذى لا كله أنت قادر   عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

والأصل :

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا   لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر   عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

(٣) هذا ترديد للفكرة المشهورة من أن العرب فى جاهليتهم كانوا لايتجاوزون الواقع حين يصفون ، وهذا فيما أرى غلو فى تقدير أهل البادية ، والمعقول أن طبيعة الناس تبيح المغالاة ، بلا تفريق بين الطبقات الاجتماعية

التضمين . ومن مليح مافى هذا الباب تضمينات الحدونى فى طيلسان أحمد بن حرب المهلبى ، وسيأتى ما أختارُه من ذلك فى غيرِ هذا الموضع .

[عَوْد إلى وصف الثغور ونقائها]

وقد جاء فى صفةِ الثغور والأفواه والرِّيق شعرٌ كثير . قال جميل :

لجميل بن معمر العذرى

تمنيتُ منها نظرةً وهى وَاقِفٌ ... تُرِيك نَقِيًّا واضِحَ الثغر أشْنَبَا[1]

كأنَّ عَرِيضًا من فَضِيض غمامةٍ ... هزيمُ الذُّرى تَمْرِى له الريحُ هَيْدَبا[2]

يُصَفِّقُ بالمسك الذكىِّ رُضابهُ ... إذا النَّجْمُ من بعد الهدو تَصَوَّبا[3]

وقال :

وكأن طارِقَها على عَلَلِ الكرى ... والنجمُ وَهْنًا قد بَدَا لِتَغَوُّرِ

يَسْتَافُ ريحَ مُدامةٍ معلولةٍ ... برُضابِ مسكٍ فى ذكىِّ العنبرِ

وقال عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى :

لعمر ابن أبى ربيعة

يَمُجُّ ذَكِىَّ المِسْكِ منها مُفَلَّجٌ ... نَقِىّ الثنايا ذو غُرُوب مُؤَشَّرُ[4]

يَرِفّ إذا تَفْتَرّ عنه كأنهُ ... حَصَى بَرَدٍ أو أُقحوان مُنَوّرُ .

وقال الهذلى :

للهذلى

وما صَهْبَاء صافيةٌ لضبٍ ... كلون الصِّرف مُنجابٌ قَذاها

تُشَجُّ بنُطْفَةٍ مِن ماء مُزْنٍ ... أحلّته برَضراضٍ عُراهـا

بأطْيَبَ مَشْرَعًا من طَعْمِ فيها ... إذا ما طار عن سِنَةٍ كَراها

---

(١) أشنب : من الشنب ــ بالتحريك ــ وهو رقة وبرد وعذوبة فى الأسنان

(٢) العريض: القطعة من السحاب ، والفضيض: ماتناثر من المطر والماء، والهزيم: الصوت، والذرى: الأعالى، والهيدب: ذيل السحاب (٣) تصوب: انحدر (٤) مؤشر: من الأشر ــ بالتحريك ــ وهو تحزز أطراف الثنايا، والغروب: جمع غرب ــ بالفتح ــ وهو الريق

وقال آخر :

وشقّ عنها قِناع الخزّ عن بَرَد ... كالدُّرّ لا كَسَسٌ فيه ولا ثَعَلُ[(١)]

كأنه أقحوانٌ باتَ يَضربُهُ ... طَلٌّ من الدَّجْنِ سقّاط النّدى هَطِلُ

كأنّ صِرفًا كُميتَ اللّونِ صافيةً ... شُجَّت بماء سماء شَنّه جَبَلُ[(٢)]

فُوها إذا ما قضتْ من نومها سِنَةً ... أو اعتراها سُباتُ النّوم والكسلُ

وقال الآخر :

هِجانُ اللّوْنِ وَاضِحَةُ المحيّا ... قطيع الصّوتِ آنِسَةٌ كسولُ[(٣)]

تَبسّمُ عن أغرّ له غُرُوبٌ ... فُرات الرِّيقِ ليس به فلولُ[(٤)]

كأنّ صَبِيبَ غادية لصبّ ... تُشَجّ به شآميةٌ شمولُ

على فيهـا إذا الجَوْزاء عالتْ ... مُحَلِّقَةً وأرْدَفَها رَعِيلُ[(٥)]

وقال ابن المعتز :

لابن المعتز

يا نديمىَّ اشربا .واسقِيانا ... قد بَدا الصبحُ لنا واستبانا[(٦)]

واقتلا همى بصِرْفٍ عُقارٍ ... واتركا الدّهْرَ فما شاء كانا

إن للمكروه لَذْعَةَ شرّ ... فإذا دامَ على المرْء هانا

وامزجا كأسى بريقةِ ألْمَى ... طاب للعطشان ورداً وحانَا

من فمٍ قد غُرِس الدرّ فيه ... ناصح الريق إذا الرّيق خانَا[(٧)]

وقال ابن الرومى :

يارُبَّ ريقٍ بات بَدْرُ الدُّجى ... يمجّه بين ثناياكا

لابن الرومى

(١) الكسس : قصر الأسنان . والثعل : زيادة سن أو دخول سن تحت سن .
(٢) كميت اللون: فيها سواد وحمرة، وشجت: مزجت، وشنه : صبه متفرقا وبرده
(٣) هجان اللون : بيضاء ، وقطيع الصوت : هى التى يتكسر كلامها لرقته .
(٤) فرات : عذب (٥) الرعيل : جماعة النجوم (٦) رواية الديوان « لاتعلا حثا واسقيانا » (٧) ناصح الريق : لم تتغير نكهته

يُرْوِى ولا ينهاكَ عن شربِهِ ... والماء يُرْوِيك ويَنْهاكا

لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

وإذا سألتُكِ رَشْفَ ريقِكِ قُلْتِ لى: ... أَخْشَى عُقُوبةَ مالِكِ الأملاكِ

ماذا عليك؟ جُعلت قبلك فى الثَّرى! ... من أنْ أكونَ خَليفةَ المِسْوَاكِ

أيجوزُ عندك أن يكون مُتيَّمٌ ... صبٌّ بحبِّك دون عودِ أراكِ

وهذا المعنى يجاوزُ الإحصاء، ويفوتُ الاستقصاء؛ وكلّه مأخوذ من قول امرئ القيس:

لامرىء القيس

كأنّ المُدَامَ وصَوْبَ الغمام ... وريحَ الخُزَامَى ونَشْر القُطُرْ[1]

يُعَلُّ به بَرْدُ أنيابها ... إذا طرَّبَ الطائرُ المُسْتَحِرْ[2]

فجمع ما فرّقوه، وأخذه الجعفرى فقصَّر عنه:

الجعفرى

كأن المُدامَ وصَوْبَ الغمَام ... وريحَ الخُزامى وذَوْبَ العَسَلْ

يُعَلُّ به بَرْدُ أنيابها ... إذا النَّجْمُ وَسْطَ السماء اعْتَدَلْ

الحاتمى

ويلحق بهذه المعانى من شعرِ أهل العصر قولُ أبى على محمد بن الحسين بن المظفر الحاتمى ـ وذكر خمراً:

مِنْ كفِّ ساقٍ أهْيَفٍ حرَكاتُهُ ... فِتَنٌ تقنّعَ بالملاحةِ واعتجَرْ[3]

ناولته كأسِى وكَسْرُ جُفونِه ... يُوحِى إلىَّ أن ارتقبهم واصْطَبِرْ

فثنى لها أقلامَ دُرٍّ رَخْصَةٍ ... تَهْوِى إلى أفراد دُرٍّ ذِى أشَرْ[4]

فتحدَّرَتْ من كأسِهِ فى ثَغْرِهِ ... كالشمس تغرُبُ فى هِلالٍ من قمر

لأبى الفتح كشاجم

وأهدى أبو الفتح كشاجم لبعض القيان مِسْواكا وكتب إليها:

قد بعثناهُ لكى تَجْلُو بِهِ ... واضحاً كاللؤلؤ الرَّطْبِ أغَرّ

---

(١) القطر ــ بالضم ــ العود الذى يتبخر به (٢) المستحر: الحران

(٣) اعتجر: من الاعتجار، وهو لبسة خاصة بالنساء والغلمان (٤) رخصة: لينة

طابَ منه العَرْفُ حتّى خِلتهُ ... كان من ريقك يُسْقَى في الشَّجَرْ(١)

وَأَمَا وَاللهِ لو يَعْلمُ مَا ... حَظهُ منكِ لأثنى وشكَرْ

ليتني المهدَى فيَروِي عَطَشِي ... بَرْدُ أنيابكِ في كلِّ سَحَرْ(٢)

[شعر عمر بن أبي ربيعة ، وشعر الحارث بن خالد]

وكان ذُكِرَ بحضرة ابن أبي عتيق شعرُ عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد المخزوميين ، فقال رجلٌ من وُلد خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة : صاحِبُنا الحارث أشعر ، فقال ابنُ أبي عتيق : دَعْ قولَك يا بْنَ أخي ، فلِشِعْرِ ابنِ أبي ربيعة لَوْطةٌ بالقلب(٣) ، وعَلَقٌ بالنفسِ ، ودَرْكٌ للحاجة ليس لشِعْرِ الحارث ؛ وما عُصِي اللهُ بشعرٍ قطّ أكثر مما عُصِيَ بشعر ابن أبي ربيعة ، فخُذْ عني ما أصِفُ لك : أَشعَرُ قريش مَنْ رَقّ معناه ، ولَطُف مَدْخَله ، وسَهُل مَخْرجه ، وتعطَّفَتْ حواشيه ، وأنارت معانيه ، وأعْرَب عن صاحبه ، فقال الذي من ولد خالد بن العاص : صاحبُنا الذي يقول :

إني وما نَحرُوا غداةَ مِنًى ... عند الجمار تَئودها العُقُلُ(٤)

لو بُدِّلَتْ أعْلى منـــازلها ... سُفْلاً وأصبح سُفلها يَعْلو

فيكادُ يَعرِفُها الخبيرُ بها ... فيردُّه الإقواءُ والمَحْلُ(٥)

لعرفت مغناها بما احتَمَلَتْ ... منى الضلوعُ لأهلها قَبْلُ

فقال ابنُ أبي عتيق : يابنَ أخي ، استُرْ على صاحبك ، ولا تشاهد المحاضر بمثل هذا ، أما تطَيَّر الحارثُ عليها حين قَلَبَ رَبْعَها فجعل عاليه سافلَه ، ما بقي إلا أن يسألَ اللهَ حجارةً من سِجِّيلٍ وعذاباً أليماً . ابنُ أبي ربيعة كان أحسَنَ الناسِ للرَّبع مخاطبةً وأجملَ مصاحبةً إذ يقول :

---

(١) لايطيب الريق في السحر إلا عند اكتمال القوة (٢) يتمنى لو أنه كان المسواك

(٣) لوطة بالقلب : علوق به (٤) العقل: جمع عقال (٥) الإقواء : خلاء للديار ، والمحل : الجدب

سائِلاَ الرَّبْعَ بالبُلَيِّ وقولا هِجْتَ شوقًا لِىَ الغَدَاةَ طويلا
أين أهلٌ حلُّوكَ إذ أنتَ مَسرو رٌ بهم آهِلٌ أراكَ جميـــلا
قال: سارُوا، وأمْعَنُوا، واستقلُّوا وبِكُرْهِي لو استطعتُ سَبيلا
سَئمُونَا وما سَــئمْنَا مُقَامًا واستحبُّوا دَمَاثَةً وسهولا[1]

وههنا حكاية تأْخُذُ بطَرَفِ الحديث، دخل مزيد المدنى على مَوْلًى لبعض أهل المدينة، وهو جالسٌ على سرير ممهّد، ورجلٌ من ولد أبى بكر الصديق وآخرُ من ولد عمر — رضى الله عنهما! — جالسان بين يَدَيه على الأرض؛ فلما رأى المولى مَزْيداً تجهّمه، وقال: يا مَزْيد ما أكْثَرَ سؤالك! وأشدّ إلحافك! جئتَ تسألنى شيئاً؟ قال: لا والله، ولكنى أردتُ أن أسألك عن معنى قول الحارث بن خالد:

إنِّى وما نَحرُوا غَداة مِنًى عند الجِمار تَئودها العُقُلُ
لو بُدِّلَتْ أعْلَى منازلها سُفْلاً وَأصْبحَ سُفلُهَا يَعْلُو

فلما رأيتك ورأيتُ هذين بين يديك عرفتُ معنى الذى قال. فقال: اعزُب فى غير حِفْظِ الله! وضَحِكَ أهلُ المجلس.

وأخذ الحارث قوله:

لعرفت مَغْنَاها بما احتَمَلَتْ منى الضلوعُ لأهْلِها قَبْلُ

من قول امرىء القيس؛ قال على بن الصباح وَرّاقُ بن أبى مُحَلِّم قال لى أبو محلم: أتعرفُ لامرىء القيس أبياتاً سينية قالها عند موته فى قُرُوحه والحلة المسمومة، غير قصيدته التى أولها:

---

(١) فى الطبعة الثالثة من كتاب «حب ابن أبى ربيعة وشعره» شذرات مهمة عن الحارث بن خالد المخزومى، الذى وقف شطرا من حياته وجاهه فى مغازلة لحسان، وأخباره مع عائشة بنت طلحة تعين مذاهبه فى الحياة الوجدانية

* أَلِمَّا عَلَى الرَّبعِ القديمِ بِعَسْعَسَا *

فقلت : لا أعرف غيرها ، فقال : أنشدَنِي جماعةٌ من الرُّواة :

لِمَنْ طَلَلٌ دَرَسَتْ آيُهُ وغيَّرَه سالفُ الأخرُسِ[1]
تنـكَّرُهُ العَيْنُ من حادِثٍ ويعرفه شَغَفُ الأنفُسِ

لطريح الثقفى

وقد أخذه طريح بن إسماعيل الثقفى ، فقال :

تَستخبِرُ الدِّمَنَ القِفار ولمْ تكنْ لتردّ أخباراً على مُستَخْبِرِ
فَظَلِلْتَ تحكم بين قَلْبٍ عارفٍ مَغْنى أحِبَّتِه وطرْفٍ مُنْكِرِ

وقال الحسن بن وهبٍ ، إشارة إلى هذا المعنى :

للحسن بن وهب

أَبْلَيْتَ جسمى من بعدِ جِدَّتِه فما تكادُ العيونُ تُبصِرُهُ
كأنّه رَسمُ مـــــنزلٍ خَلَقٍ تَعْرِفُهُ العـــينُ ثم تنكِرُهُ

ليحيى بن منصور الذهلى

وقال يحيى بن منصور الذهلى :

أما يستفيقُ القلب إلا انبَرَى لهُ تذكُّرُ طيفٍ من سُعاد ومَرْبعِ
أُخادِع مِنْ عِرْفَانِهِ العينَ ؛ إنهُ متى تعرف الأطلالَ عينيَ تَدْمَعِ

وقال آخر :

هى الدارُ التى تَعرِ فُ لِمْ لا تعرف الدَّارَا
ترى منهــا لأحبَــابِـــكَ أعــلاماً وآثارَا
فيبــدى القلبُ عِرْفاناً وتبدى العــينُ إنكارَا

لأبى نواس

وقال أبو نوَاس ، وتعلق أولُ قوله بهذا المعنى ، وأنا أنشد الأبيات كلها لِمَلاَحَتِها ؛ إذ كان الغرض فى هذا التصرف هو إرادة الإفادة :

أَلاَ لاَ أَرَى مثلى امتَرَى اليوم فى رَسْمِ تغصّ به عينى ويلفِظُه وَهْمى[2]
أتَتْ صُوَرُ الأشـياء بينى و بينه فظنّى كَلا ظنّ وعِـلمى كَلاَ عِلْمِ

---

(١) الأخرس : الدهر (٢) رواية الديوان « مثل امترائى فى رسم »

فطِبْ بحديثٍ من حبيبٍ مساعدٍ[1] وســاقية بين المراهق والحُلْمِ[2]
ضعيفة كَرِّ الطَّرْفِ تحسب أنَّها قريبةُ عهدٍ بالإفاقة مِنْ سُـقْمِ
يفوّق مالى من طريفٍ وتالدٍ تفوّقَ الصهباءمن حلَبِ الكَرْمِ[3]
وإنى لآتى الوَصْلَ من حيثُ يُبْتغى وتَعلمُ قوسى حِينَ أنزعُ مَنْ أرْمِى[4]

[شعر أبى نواس]

ورَوَى أبو هفان قال : كان أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابى[5] يطعن على أبى نواس ، ويَعِيبُ شعْرَه ، ويضعّفه ، ويستلينه ؛ فجمعه مع بَعْضِ رُوَاةِ شعر أبى نواس مجلسٌ والشيخُ لا يَعْرِفه ، فقال له صاحبُ أبى نواس : أتعرفُ — أعزَّكَ اللهُ! — أحْسَنَ من هذا؟ وأنشده : «ضعيفة كَرّ الطَّرْفِ...» الأبيات فقال : لا والله ، فلِمَنْ هو ؟ قال : للذى يقول :

رَسْمُ الكَرَى بين الجفون مُحِيلُ عَفَّى عليه بكاً عليك طَوِيلُ
يا ناظراً ما أقلَعَتْ لحظاتُهُ حتى تشحَّطَ بينهنَّ قَتِيلُ

فطربَ الشيخُ ، وقال : وَيْحك ! لمنْ هذا ؟ فو الله ما سَمِعْتُ أجْوَد منه لقديم

---

(١) رواية الديوان « من نديم موافق » (٢) بين المراهق والحلم: يريد أن سنها قاربت سن الاحتلام، وليست مع ذلك طفلة ، فهى كما قال صاحب البدائع : « طفلة فى المنظر ، وغادة فى المخبر » (٣) تفوق مالى : تأكله ، من قولهم «تفوق ناقته» حلبها ، و «تفوق الفصيل اللبن» شرِبه (٤) رواية الديوان « وإنى لآتى الأمر » وهى أدق

(٥) هو ابن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ . وكان نحويا عالما باللغة والشعر ، ولم يكن أحد من الكوفيين أشبه رواية برواية البصريين منه ، وكان يزعم أن الأصمعى وأبا عبيدة لا يحسنان قليلا ولا كثيرا . قال ثعلب : شاهدت ابن الأعرابى وكان يحضر مجلسه زهاء مئة إنسان كل يسأله أو يقرأ عليه ويجيب من غير كتاب ، قال : ولزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتابا قط، وما أشك فى أنه أملى على الناس ما يحمل على أجمال

ولا لِحدَث ! فقال : لا أُخبرك أو تكتبه ؛ فكتبه ، وكتب الأول ، فقال : للذى يقول :

رَكْبٌ تَساقَوْا على الأكوار بينهمُ كأسَ الكَرَى فانتشى المَسْقِىُّ والساقى
كأنَّ أرؤُسهم والنَّوْمُ وَاضِعُها على المناكب لم تُخْلَقْ بأعناق
ساروا فلم يقطعوا عَقْداً لرَاحِلةٍ حتى أناخُوا إليكم قَبْلَ إشراقِ
من كل جائلةِ الطَّرْفين نَاجيةٍ مشتاقةٍ حَمَلَتْ أوصالَ مُشْتَاقِ

فقال : لِمَن هذا ؟ وكتبه . فقال : للذى تَذُمُّه ، وتَعِيب شعره ، أبى على الحكمى ! قال : اكْتُمْ علىَّ ، فوالله لا أعود لذلك أبداً .

* * *

لابن المعتز

أخذ قولَه : « كَأَنَّ أَرْؤُسهم والنوم واضعها » أبو العباس بن المعتز ، فقال يصف شَرْباً :

كأنَّ أباريقَ اللُّجَيْن لديهمُ ظِباءٌ بأعلى الرَّقمَتَيْنِ قيامُ
وقد شربوا حتى كأن رُءوسهم من اللِّين لم يُخْلَقْ لهُنَّ عِظَامُ

البيت الأول من هذين من قول علقمة بن عبدة[1] :

كأنَّ إبريقَهم ظَبْىٌ على شَرفٍ مُفَدَّمٌ بسبَا الكَتَّان مَلْثُوم[2]

أراد بسبائب[3] ، فحذف . وقد أحسن مسلم بن الوليد فى قوله :

لمسلم بن الوليد

إبْرِيقُنَا سَلَبَ الغزالةَ جِيدَها وحكى للديرُ بمُقلتَيْهِ غَزَالا
يَسْقيك بالألحاظ كأسَ صَبابةٍ ويُديرها من كَفِّه جِرْيَالا[4]

---

(١) هو علقمة الفحل ، أحد معاصرى امرىء القيس

(٢) مفدم : مسدود ، والفدام هو : السدادة ، والملثوم : الذى وضع عليه اللثام وهو كالفدام (٣) السبائب : جمع سبيبة ، وهى الحبل (٤) الجريال : الخمر

وأنشد الحارث بن خالد أبياته :

إنى وما نَحَرُوا غَدَاةَ مِنًى . . . .

لعبد الله بن عمر ، فلما بلغ إلى قوله :

لعرَفْتُ مَغناها بمَا احتملتْ مِنّى الضلوعُ لأَهْلِهـا قَبْـلُ

قال له ابن عمر : قل إنْ شاء الله ، قال : إذاً نفسد الشعر يا أبا عبد الرحمن ، فقال : لا خَيْرَ فى شىء يُفْسده إن شاء الله .

[تشبيب الحارث بن خالد]

وكان الحارث بن خالد أحدَ المجيدين فى التشبيب ، ولم يكن يعتقد شيئاً من ذلك ، وإنما يقولُه تظرّفاً وتحلّماً ؛ وكان أكثر شعره فى عائشة بنت طَلْحَةَ ، فلما قُتِلَ عنها مُصْعَبُ بن الزبير قيل له : لوخطبتَها ! قال : إنى لأكْرَه أنْ يتوهَّم الناسُ علىَّ أنى كنت معتقداً لِمَا أقول فيها ، وهو القائل :

يا أمّ عِمرانَ مازالَتْ وما بَرِحَتْ بنا الصَّبَابَةُ حتى مسَّنَا الشَّفَقُ[1]

القلبُ تاقَ إليكم كىْ يلاقيكم كما يتوقُ إلى مَنْجَاتِهِ الفَرِقُ[2]

تُوفيك شيئاً قليلا وهى خائفةٌ كما يَمَسُّ بظَهْرِ الحيَّة الفَرِقُ[3]

أخذ هذا الطائى فحسَّنه فقال :

تَأْبَى على التَّصْرِيدِ إلاّ نَائِلاً إلاَّ يكنْ ماء قَرَاحاً يُمْذَقِ[4]

نَزْراً كما استكرهت عابر نفحةٍ من فَأْرَةِ المِسْكِ التى لم تُفْتَقِ

وحَجَّت عائشةُ بنْتُ طلحة ، فوجَّه إليها يستأذنها فى الزيارة ، فقالت : نحن حَرام ، فأخِّر ذلك حتى نحلّ ، فلما أحلتْ أَدْلَجَتْ ولم يعلم ، فكتب إليها :

ما ضرّكم لو قلتمُ سَــــدَداً إنّ المنيَّـةَ عاجِــلٌ غَدُها[5]

ولها علينـــــا نعمةٌ سلَفَتْ لسـنا على الأيام نَجْحَدُها

---

(١) الشفق : الخوف (٢) تاق: اشتاق (م) (٣) الفرق: الخائف (٤) التصريد . التقليل ، وإسقاء مالا يروى (م) . (٥) سددا : يريد كلاما مستقيما لا تغيره (م) .

لو تَمّمَتْ أسبابَ نِعمتها ... تمّتْ بذلك عندنا يَدُها
إني وإياها كمُفتَتِنٍ ... بالنار تحرِقهُ ويَعْبُدُها

[من أخبار ابن أبي عتيق وعائشة بنت طلحة]

وابنُ أبي عتيق هذا هو عبد الله بن محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه ! وكان من أفاضل زَمانِه عِلْماً وعَفافاً، وكان أخْلَى الناس فُكَاهةً، وأظرفهم مِزاحا، وله أخبارٌ مستظرفة سيمرُّ منها ما يُستحسن إن شاء الله .

روى الزبير بن أبي بكر أنه دخل على عائشة — يعني بنت طلحة، رضي الله عنهما ! — وهي لمابها ؛ فقال : كيف أنت جُعِلْتُ فداكِ ؟ قالت : في الموت، قال : فلا إذاً، إنما ظننت في الأمر فُسْحَة، فضحكت، وقالت : ماتَدَعُ مَزْحك بحالٍ .

وفيه يقول عمر بن أبي ربيعة القرشي :

ليت شعري هل أقولنْ لركب ... بفلاةٍ هُمْ لديها خُشُوعُ
طَالَمَا عرَّستمْ فاسْتَقِلُّوا ... حان من نَجْمِ الثريَّ طُلُوعُ
إنَّ همِّي قد نَفَى النومَ عنِّي ... وحديثُ النفس مِنِّي يَرُوعُ
قال لي فيها عَتيقٌ مقالاً ... فجرَتْ مما يقولُ الدموعُ
قال لي : وَدِّعْ سليمى ودَعْها ... فأجاب القلبُ : لا أستطيعُ
لا تَلُمْني في اشتياق إليها ... وابْكِ لي مما تجنُّ الضلوعُ

[مُثُلٌ من التعريض]

قال أبو العباس محمدُ بن يزيد[1] قوله : «حان من نجم الثريا طلوع» كناية، وإنما

---

(١) أبو العباس محمد بن يزيد، هو المعروف بالمبرد، كان شيخ أهل النحو والعربية، وإليه انتهى علمها بعد طبقة أبي عمر الجرمي وأبي عثمان المازني، وقد أخذ عنهما وعن أبي حاتم السجستاني وغيرهم، ومات في شوال من سنة ٢٨٥ للهجرة (م)

يريد الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أميَّة الأصغر؛ وكانت موصوفة بالجمال ، وتزوّجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، فنقلها إلى مصر ، وفى ذلك يقول عمر ، وضرب لهما المثل بالنجمين :

أيها المنكح الثريا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللهَ كيفَ يَلْتقِيانِ
هى شاميَّةٌ إذا ما استقلّتْ وسهيلٌ إذا استقلَّ يمانِى

بين الثريا بنت على والوليد بن عبد الملك

فمات سُهيل عنها ، أو طلّقها ، فخرجت إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة دمشق تَطْلب فى دَين عليها ، فبينا هى عنـد أمِّ البنين ابنة عبد العزيز إذ دخل الوليدُ فقال : مَنْ هَذِه عندكِ ؟ قالت : الثريا، جاءتك تطلُبُ فى دَيْنٍ ارتكبها ، فأقبل الوليد عليها ، فقال : أترويِن من شعرِ عُمَرَ بن أبى ربيعة شيئاً ؟ قالت : نعم، أما إنه رحمه الله كان عفيفاً ، عفيف الشعر ، أروى له قوله :

ما عَلَى الرَّسْمِ بالبُلَيينِ لو بـــيَّن رَجْعَ السلامِ أوْلَوْ أجَابَا
فإلى قَصْرِ ذِى العُشَيْرة بالصا ئف أمْسى من الأنِيسِ يبَابَا
وبِمـا قد أرَى به حَيَّ صِدْقٍ ظاهرِى العيش نعمةً وشبَابا
وحِسَانًا جَوَارِيا خفِرَاتٍ حافظاتٍ عنـد الهوى الأحْسَابَا
لا يُكَثِّرْنَ بالحديث ولا يتـ ـبَعْن يَنْعقْنَ بالبِهَامِ الظِّرَابَا[١]

فلما خلا الوليد بام البنين قال : لله دَرُّ الثريا ؛ أتدرِين ما أرادَتْ بإنشادها ما أنشدَتْ من شعر عمر ؟ قالت : لا ، قال : فإنِّى لما عرَّضْت لها بعمر عرَّضت بأن أمى أعرابية ؛ وأم الوليد وَلّادة ابنةُ العباس بن جزء بن الحارث بن زُهير العبسى، وهى أمُّ سليمان ، ولا تُعلم امرأة ولدت خليفتين فى الإسلام غيرها ، وغير الخيزُرَان، وهى سَبِيَّة من خَرَشَنَة ، ولدت موسى الهادى وهارون الرشيد ابنى محمد المهدى ، وشاهسفرم بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كِسْرى أبرويز ؛ فإنها

---

(١) الظراب : جمع ظرب ـ بزنة كتف ـ وهو الجبل المنبسط ، أو الرابيـة الصغيرة (م)

ولدت للوليد بن عبد الملك يزيدَ بن الوليدِ الناقصَ و إبراهيمَ بن الوليد المخلوع ؛ جلس فى الخلافة بَعْد أخيه يزيد مدةً يسيرة ، ثم جاء مروان بن محمد بن مروان آخر ملوك بنى أمية فخلعه ووُلّى بعده .

بين عزة كثير وعبد الملك ابن مروان

وشَبِيهٌ بقول الثريا فى باب التعريض أنه دخلَتْ عَزّةُ على عبد الملك بن مروان ، فقال لها : أنتِ عزّةُ كثير ؟ قالت : أنا أم بكر الضَّمْرِية ، قال لها : يا عزَّةْ ؟ هل تروين من شعر كثيِّر شيئاً ؟ قالت : ما أعرفه ، ولكن سمعت الرواة ينشدون له :

قضَى كلُّ ذى دَيْنٍ فوفَّى غريمَهُ وعَزّةُ ممطولٌ مُعَنًّى غَرِيمُها

قال : فتروين قوله :

وقد زعمت أنى تغيرت بَعْدَهاَ ومَنْ ذا الذى ياعزّ لا يَتغيرُ
تغير حالى والخليقة كالذى عَهِدْتِ ولم يُخْبَرْ بسرك مُخْبَرُ

قالت : ما سمعت هذا ، ولكن سمعتُهم ينشدون :

كأنى أُنادِى صَخْرةً حينَ أعرضَتْ من الصمّ لو تَمْشِى بها العُصْمُ زَلَّتِ[1]
غَضُوباً فما تَلْقاكَ إلا بَخِيلةً فمَنْ مَلَّ منها ذلك الوصلَ مَلّتِ[2].

[بعض أخبار عمر بن أبى ربيعة وغزله]

قال : وكُلُّ ماذَكَرَ ابنُ أبى ربيعة فى شعره من عتيق ، أو أبى عتيق ، فإنما هو ابن أبى عتيق ، وكان عمرُ بن عبدالله بن أبى ربيعة ، واسمُ أبى ربيعة حذيفةُ ، ابن المغيرة بن عبد الله [بن عمر] بن مخزوم ، ويكنى أبا الخطاب ، أمه أم ولد سبيّة من حضرموت ، ويقال من حمير ، ومن ثم أتاه الغزَل ؛ لأنه يقال : « عِشْقٌ يمانى ، ودَلٌّ حجازى » . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى :

---

(١) كأنى أنادى صخرة : يريد أنها لاتجيب النداء ، والصم : جمع أصم أو صماء ، والعصم : جمع أعصم ، وهو من الوعول والظباء ما فى ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أسود (م) (٢) فى الأغانى وغيره « صفوحا فما تلقاك إلا بخيلة » (م) .

إن قلبي بالتلِّ تلِّ عزازٍ مع ظَبْيٍ من الظِّباء الجوازي[١]
شادنٍ لم يَرَ العِراقَ وفيـهِ مَعَ ظَرْفِ العراق دَلُّ الحِجازِ

وقال الطائى وذكر نفسه :

قد ثقَّفتْ منه الحجازُ ، وسهَّلتْ منه العراق ، ورقَّقته المشرقُ[٢]

وهجرت الثريا عُمَرَ ، فقال :

قال لى صاحبى ليَعْلَمَ ما بى : أتُحبُّ القَتُولَ أخْتَ الرَّبَابِ؟
قلتُ : وَجْدِى بها كوَجْدِكَ بالما ءِ إذا ما فقدتَ بَرْدَ الشَّرابِ
أزهقَتْ أمُّ نَوْفَلٍ إذ دعَتْها مُهْجَتى ، ما لقاتلى من مَتَابِ
أبرزوها مثـلَ المهاةِ تَهَادَى بينَ خمسٍ كواعبٍ أتراب
وهى مكنونةٌ تحـدَّر منها فى أديم الخدَّيْن ماءُ الشباب
ثم قالوا : تحبُّها ؟ قلتُ : بَهْراً عَدَدَ الرَّمْلِ والحَصَى والتُّرابِ

ولمـا بلغ ابنَ أبى عتيق قولُه :

مَنْ رسولى إلى الثريّا ؟ فإنى ضِقْتُ ذرعاً بهجرها والـكِتابِ

قال : إياى أراد ، وبى هَتَفَ ونوَّه ، لا جَرَمَ لا ذُقْتُ طعاما أو أشخص إليها ، وأصلح بينهما ؛ قال مولى لبنى تميم : فنهض ونهضتُ معه ، ثم خرج إلى السوق إلى الضمرتين ، فأتى قوماً من بنى الديل بن بَكْرٍ يَكْرونَ النجائب ، فقال : بكم تكْرُونَنى راحلتين إلى مكة ؟ قالوا : بكذا وكذا درهما ، فقلت لبعض التجار : استَوْضِعوا شيئاً ، فقال ابن أبى عتيق : ويحك ! إنَّ المِكَاسَ ليس من أخلاق الناس[٣]. ثم ركب واحدةً وركبتُ أُخْرَى ، وأجدَّ السير ، فقلت : ارفق بنفسك ،

---

(١) الجوازى : هى الظباء التى تجتزىء بالعشب عن الماء

(٢) المشرق : خلاف باليمن (٣) المكاس : الشدة فى الأخذ والعطاء

فقال : ويحك ! أبادر حَبْلَ الوصل أن يتقضّبا . وما أملح الدنيا إذا تمّ الوصلُ بين عمر والثريا ! فقدمنا مكة وأتى بابَ الثريا ، فقالت : والله ما كنتَ لنا زوّارا ، فقال : أجل ، ولكن جئتُ برسالة ، يقول لك ابن عمك عمر : ضِقتُ ذرْعاً بهجرها والكتابِ . فلامَه عمر ، فقال ابن أبى عتيق : إنما رأيتك مبادراً تلتمسُ رسولا ، فخففت فى حاجتك ، فإنما كان ثوابى أن أشكر .

ووصف ابن أبى عتيق لعمر امرأةً من قومه ، وذكر جمالاً رائعا ، وعقلا فائقا ، فرآها عمر ، فشبّب بها ؛ فغضِب ابنُ أبى عتيق وقال : تشبّبُ بامرأة من قومى ؟ فقال عمر :

لا تَلُمْنى عتيقُ حَسْبى الّذى بى إنّ بى يا عتيقُ ما قد كفانى
إن بى مُضْمَراً من الحب قد أبْلَى عِظامى مكنونُهُ وبرانى
لا تَلُمْنى فأنتَ زيّنْتَهَا لِى

فقال ان أبى عتيق :

أنتَ مِثلُ الشيطانِ للإنسان

فقال عمر : هكذا وربّ الكعبة قلت .

فقال ابن أبى عتيق : إن شيْطَانك وربّ القبْر ربما ألم بى !

وحَجّت رملة بنت عبد الله بن خلف أخت طلحة الطلحات ، فقال عمر فيها :

أصبح القلبُ فى الحبال رَهيناَ مُقْصَداً يوم فارَقَ الظاعينا
ولقد قلت يوم مكة سِرًّا قبل وَشْكٍ من بينكم نَولينا
أنت أهوى العباد قرباً وبعداً لو تُوَاتِينَ عاشقاً محزونا
قاده الحَيْنُ يوم سرنا إلى الحجّ جهاراً ولم يَخَفْ أنْ يحينا
فإذا نعجةٌ تراعى نِعاجا ومَهاً نُجّلَ النواظر عِينَا
فَسَبَتْنِى بمقلةٍ وبجيدٍ وبوجهٍ يضىء للناظرينا

قلتُ من أنتمُ فصدَّتْ وقالت أمُبِدٌّ سؤالكَ العالَمينا[1]
قلت بالله ذِى الجلالة لما أن تَبلّتِ الفؤادَ أن تصدقينا
أىّ من تجمع المواسِمُ أنتمْ فأبينى لنا ولا تكذبينا
فرأت حِرْصِىَ الفتاةُ ، فقالت أخبريه بعلم ما تكتمينا
نحن من ساكنى العراق ، وكنّا قبلها قاطنين مكةَ حينا
قد صدقناك إذ سألت فمن أنت عسى يجرّ شأنٌ شؤونا
ونرى أننا عرَفناك بالنعت ظنوناً وما قتَلنا يقينا
بسوادِ الثَّنِيَّتينِ ونعتٍ قد نراه لناظرٍ مستبينا

قولها : « وكنا قبلها قاطنين مكّة حيناً » أرادت إذ كانت مكةُ لخزاعة .

صفقة أبى غبشان الذى باع مفتاح الكعبة

وكان آخرَ من نَبَذَ مفتاح الكعبة من خُزَاعة أبوغُبْشان، فباعه من قُصَىّ بزِقٍّ خمر ؛ فقيل فى المثل : « أخسر صفقةً من أبى غُبْشان » . وكان أبو غُبْشان إذ باعَ المفتاحَ قُصَيًّا مريضاً قد يئس من نفسه ، فلما أبلّ من مرضه لامَه قومه ، وسألوه استرْجاعه ، وذلك الذى هاج الحربَ بين خُزَاعة وقريش ، فظفر قُصَىّ واستولى على مكة ، وجمع قريشاً بها ؛ ولذلك سمى مجمعاً ، قال مطرف الخزاعى :

أبوكم قصىٌّ كان يُدْعَى مُجمِّعاً به جَمّع الله القبائلَ من فِهرِ

وقال الطائى :

ولما نَضا ثوبَ الحياةِ وأوْقَعتْ به نائباتُ الدهرِ ما يتوقّع
غدا ليس يَدْرى كيف يصنع مُعْدِمٌ ذرى دَمْعه فى خدِّه كيف يصنعُ
ولم أنس سَعْىَ الجودِ خلفَ سريرِهِ بأكسفِ بالٍ يستقلّ ويظْلَع[2]
وتكبيرهُ خَمْساً عليه مَعاً لنَا وإن كان تكبيرَ المصلين أربَعُ
وما كنتُ أدرى يَعلمُ اللهُ قبلَها بأنّ النَّدَى فى أهلِه يتشيّعُ

---

(١) أمبد سؤالك العالمين : أى هل أنت مقسمه بددا وتفاريق على الناس بحيث يعمهم جميعاً (٢) يستقل ويظلع : ينهض ويسقط

غَدَوْا فى زَوايا نعشه وكأنّمَا   قريشٌ قريشٌ يوم ماتَ مُجَمَّعُ

وقال الشاعر فى أمر قصىّ وأبى غُبشان :

أبو غُبْشَانَ أظلَمُ من قصىٍّ   وأظلم من بنى فهرٍ خزاعه

فلا تَلْحَوْا قُصَيًّا فى شِرَاهُ   ولوموا شَيْخَكم إذْ كانَ باعَه

وكان عمر أسود الثنيتين .

قال مولى ابن أبى عتيق بلال : أتيتُ الثريّا مسلماً عليها ، فقالت : أنشدنى لعمر ، فأنشدتها :

* أصْبَح القلبُ فى الحِبَال رَهِيناً *

فقالت الثريا : إى والله ، لئن سلمت له لأردَّنَّ من شأوه ، ولأثنينَّ من عنانه ، ولأعرفنَّه نفسه ! فمررت فيها حتى انتهيت إلى قوله :

قُلْتُ مَنْ أنتمُ فَصَدَّتْ وقالت   أمبدٌ سؤالك العالمينا

فقالت : أو قد أجابته بهذا ؟ أى وقت ؟ فلما انتهيت إلى قوله :

* وترى أننا عرفناك بالنَّعت *

قالت : جاءت النَّوْكاءُ بآخرِ ماعندها فى مَوْقِفٍ واحد[1] .

وسأله أخوه الحارث ــ وهو المعروف بالقُبَاع، وكان من أفاضل أهل دهره ــ أن يترك الشعر ، ورغب إليه فى ذلك ، ووعظه ، فقال : أمَا ما دمتُ بمكة فلا أقدرُ ، ولكنى أخرج إلى اليمن، فخرج ؛ فلما سار إلى هناك لم تدَعْهُ نفسُه وترْكَ الشعر ، فقال :

هيهات من أمة الوَهَّابِ منزلنا   إذا نزلنا بسِيفِ البحر من عَدَنِ[2]

واحتلَّ أهلك أجياداً ، وليس لنا   إلا التذكّرِ أو حظٌّ من الحَزَنِ

بل مانسيت غداة الخَيْف موقفَهَا   وموقفى ، وكلانا ثَمَّ ذُو شجَنِ

---

(١) النوكاء : الحمقاء (٢) سيف البحر ــ بكسر السين ــ ساحله

وقولهـــا للثريا وهى مطرقةٌ	والدمعُ منها على الخدّين ذُوسَنَنِ[1]
بالله قولى له فى غـــير مَعْتَبَةٍ	ماذا أردتَ بطُولِ المُكْثِ فى اليمن
إن كنت حاولت دُنْيا أو ظفِرْتَ بها	فما أخذتَ بترك الحجِّ من ثَمنِ

فلما بلغ الشعرُ الحارثَ قال : قد علمنا أنه لا يَفِى[2].

بين ابن جريج ومعن بن أوس

وروى سفيانُ بن عيينة عن ابن جريج قال : لزمَنى دَين مرَّةً فضاقَتْ ساحتى و بلادى بى ، فتوجَّهت إلى مَعْن بن زائدة باليمن ، فقال : ما أقْدَمك هذه البلدة ؟ قلت : دينٌ طردنى عن وطنى . قال : يُقْضَى دَيْنُكَ ، وتُرد إلى وطنك محبوًّا مَحْبُوراً ، قال : فأقمت عنده ، ثم رأيتُ الناس يرحَلُون إلى الحج ، فحننت إلى مكةَ ، وذكرت قول ابن أبى ربيعة ، وذكر الأبيات ... فأتيتُ باب مَعْن ، فقلت للحاجب : استأذِنْ لى على الأمير ، فلمـــا دخلت عليه قال : إنَّ لك لحادثَ خَبر ! قلت : أسْتَوْدِعُ الله الأمير وأستحفظه عليه . قال : وما هاج هذا مِنْكَ ؟ فقلت : رأيت خروجَ الناس إلى الحج ، وذكرت قولَ عمر ؛ فحننت إلى مكّة ، فقال : أَنتَ وحنينك ؛ وإن كنتُ بفراقك ضَنينا ، وسيتْبَعُك ما تحتاجَ إليه ؛ فسِرْ مُصَاحَبا ، قال : فسرْتُ إلى رَحْلِى ، فأتبعنى بمالٍ وثياب ومَطَايا ودوابّ ، وسرت إلى مكّةَ من فَوْرى .

عفة عمر

وكان عمر ـ على غزَله ، وما يذكر فى شعره ـ عفيفاً . حدّث المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه قال : دخلت مع أبى مكةَ ، فجاءه عمر ، فسلّم عليه ، وأنا غلامٌ شابٌّ وعلىّ جبَّة ، فجعل يَأْخُذُ بخصلة من شَعْرى فتمتدّ فى يده ، ثم يُرْسِلها فترجع ، فيقول : واشباباه ! فقال لى : يابن أخى ، قد سمعتَ قولى : « قُلت لها وقالت لى » ؛ وكلّ مملوك لى حرّ إن كنت قطُّ كشفت عن فرج حرَام ! قال : فقمت وفى

---

(١) السنن : الطرائق (٢) ارجع إلى نقض هذا الرأى فى كتاب « حب ابن أبى ربيعة وشعره » فى الفصل الذى عنوانه « الجوانب الجدية فى حياة ابن أبى ربيعة »

نفسي من يمينه شيء؛ فسألتُ عن رَقيقه، فقيل لى : أما فى هذا الحول فسبعون .

ويستحسن قول عمر فى المساعدة :

وخِلٍّ كنتُ عَيْنَ النصح منهُ إذا نظرَتْ ومستمِعاً مُطيعا
أطاف بِغَيَّةٍ فنَهَيتُ عَنْهــا وقلت له : أرى أمراً شنيعا
أرَدْتُ رشَادَه جهدى ، فلمّا أبى وعَصَى أتَيْنَاها جميعاً

وهذا مأخوذ من قول دريد بن الصِّمة الجُشَمى(١) :

أمرتُهُمُ أمْرِى بمُنْعَرَج اللوى فلم يستبينوا الرُّشْدَ إلاّ ضُحَا الغَدِ
فقلت لهم : ظنّوا بألفىْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمُ فى الفارسىِّ المسرَّدِ(٢)
فلما عصونى كنتُ منهم وقد أرى غوايتهم وأننى غيْرُ مُهْتَدى
وما أنا إلاّ من غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ، وإن تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أرْشُدِ

ومن جيد شعره :

يقولون إنى لستُ أصْدُق فى الهَوَى وإنىَ لا أرعاكِ حين أغِيبُ
فما بال طرْفِى عفَّ عما تَساقطَتْ له أنفُسٌ من مَعْشَرٍ وقُلُوبُ
عشيةَ لا يستنــكر القومُ أن يَرَوْا سَفَاهَ حِجًى ممن يُقال لبيب
ولا فتنةً من ناسكٍ أوْمَضتْ لهُ بعَيْنِ الصبا كَسْلَى القيام لَعُوبُ(٣)
تروَّحَ يَرْجُو أن تُحَطَّ ذُنُوبه فآبَ وقد زيدَت عليه ذُنُوبُ
وماالنُّسْكُ أسْلاَنى، ولـكِنَّ لِلْهَوى على العين منّى والفؤادِ رَقِيبُ

ونظر عمرُ بن أبى ربيعة إلى فَتًى من قريش يكلّم امرأة فى الطواف ، فعاب ذلك عليه ، فذكر أنها ابنةُ عمه ، فقال : ذلك أشنَع لأمرك ، قال : إنى خطبتها

(١) أحد الشعراء الأبطال . غزا نحو مئة غزوة ، ولم يخب فى واحدة منها ، عمر طويلا حتى سقط حاجباه على عينيه ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، فقتل على دين الجاهلية يوم حنين (٢) ظنوا ، هنا معناها تيقنوا . والمدجج : التام السلاح . والمسرد : المحكم النسج . وهو صفة للدرع (٣) أومضت له : سارقته النظر

إلى عمى ، وإنه زعم أنه لايزوّجنى حتى أصدقَهَا أربعمائة دينار، وأنا غيرُ قادر على ذلك، وذكر مِنْ حالهِ وحبّه لها ؛ فأتى عُمَرُ عمّه ، فكلّمه فى أمرها، فقال : إنه مُملق ، فزوِّجه ، وساق عُمَرُ عنه المَهر .

وكان عمر حين أسنّ حَلَف ألاَّ يقول بيتا إلا أعتق رقبة ، فانصرف إلى منزله يحدّث نفسه ، فجعلت جاريته تكلّمه ولا يجيبُها ؛ فقالت : إن لك لشأنا ، وأراك تريدُ أن تقولَ شعرا ، فقال :

تقول وليدتِى لمـا رأتنِى ... طَرِبتُ:وكُنتُ قدأقصرتُ حِينا
أراكَ اليوم قد أحْدَثْتَ أمْراً ... وهاجَ لكَ الهوى داء دَفِينا
وكنتَ زعمتَ أنك ذُو عَزاء ... إذا ماشئتَ فارقتَ القَرِينا
لعمرك هل رأيتَ لهـا سمِيًّا ... فشاقَك أمْ لقيتَ لهـا خَدِينا
فقلتُ : شكا إلىَّ أخٌ مُحبٌّ ... كبعْضِ زَمانِنا إذْ تعْلَمِينا
فقصّ علىَّ ما يَلْقَى بهندٍ ... فذكَّر بَعْضَ ماكنا نَسِينا
وذُو الشوقِ القديمِ وإن تعزَّى ... مَشُوق حين يَلْقَى العاشقينا
فكم من خُلَّةٍ أعرضتُ عنها ... لغير قِلىً ، وكنتُ بهـا ضَنيناَ
أردت بِعادَها فصَدَدْتُ عَنْهَا ... وإن جُنَّ الفؤادُ بهـا جُنُونا

ثم دعا تسعة من رقيقهِ فأعتقهم .

قال عثمان بن إبراهيم : حججتُ أنا وأصحابٌ لنا ، فلما رجعنا من مكّة مررنا بالمدينة ، فرأينا عمر بن أبى ربيعة ، وقد نَسَك وتَرَكَ قول الشعر . فقال بعضنا لبعض : هل لكم فيه ؟ فمِلْنَا إليه ، وسلّمنا عليه ، وجلَسْنَا وهو ساكتٌ لا يكلمنا . فقال له بعضنا : أيعجبك قول الفرزدق :

سَرَتْ لعينِك سَلْمَى بعد مَغْفَاها ... فبِتّ مُسْتَلهِيًا من بعد مَسْرَاهَا
فقلتُ: أهْلاً وسَهْلاً! مَنْ هَدَاكِ لنَا ؟ ... إن كنتِ تِمْثالَهَا أوكُنْتِ إيَّاهَا
تأتى الرياح التى من نحو بَلدتكم ... حتى نقول : دَنَتْ منا بَريَّاها

وقد تراخت بهم عنّا نوى قذف ... هيهات مُصبحها مِنْ بعدِ مُمساها[1]
من أجلها أتمنى أن يُلاقيني ... من نحو بلدتها ناعٍ فينعاها
كيما أقول: افتراق لا اجتماع له، ... وتُضمِرُ النفسُ يأساً ثم تسلاها
ولو تموتُ لراعتني وقلتُ لها: ... يابُؤس للدهر ليتَ الدهرَ أبقاها

فلم يهش لذلك! فقال الآخر: أيعجبك قول العُذرى:

لو حزّ بالسيف رأسي في مودّتها ... لمرّ يهوي سريعاً نحوَها رَاسِي
ولو بَلِي تحتَ أطباق الثرى جسدي ... لكنت أبلَى وما قلبي لكم ناسي
أو يَقبضِ الله رُوحي صارَ ذِكرُكُمُ ... رُوحا أعيشُ به ما عشتُ في الناس
لولا نسيمٌ لذكراكم يُروِّحني ... لكنتُ محترقا من حَرِّ أنفاسي

فتحرك ثم قال: يا وَيحَه! أبعد ما يحز رأسه يميل إليه؟

ثم أنشأ يحدثنا، فقال: أتاني خالد الدليل، فقال: إن هندا وأترابها بموضع كذا وكذا من الصحراء أيام الربيع، فقلت: كيف الحيلة؟ فقال: تتلثم وتكتفل[2] كأنك طالب ضَالة، ففعلت، فدفعت إليهن، فقلن: ياأعرابي، ماتطلب؟ قلت: ضالة لي، فقلن: قد كلِلت يا أعرابي، فلو جلست فأصبت من حديثنا وأصبنا من حديثك، ولعلك تروح إلى وجود ضالتك، فنزلت؛ فلما امتد الحديثُ بنا حسرت هندٌ لثامي، وقالت: أُتُراك خدعتنا؟ نحن والله خدعناك، وبعثنا إليك خالدا، رأينا خلاء ومنظراً فأردناك، ونظرت في دِرْعِي فأعجبني ما رأيت، فقلت: يا أبا الخطاب! قال عمر: فقلت: لبّيك، وفي ذلك أقول:

ألمْ تسأل الأطلالَ والمُتربّعا ... ببطنِ حُليّات دوارسَ بلقعا[3]

---

(١) نوى قذف: بعيدة

(٢) اكتفل: ركب فوق الكفل. بالكسر، وهو شيء مستدير يتخذ من خرق أو غيرها ويوضع على سنام البعير (٣) حليات: اسم موضع

إلى السَّرْح من وادى المغمَّس بُدِّلت — معـالمُهُ وَبْلاً وَنَكْباء زَعْزَعَا[1]
فيبخَلْنَ أو يخبرن بالعِلْم بَعْدَما — نَكَأْنَ فؤاداً كان قِدْماً مُوَجَّعاً[2]
لهندٍ وأتراب لهنـدٍ إذِ الهوى — جميعٌ وإذ لم نَخْشَ أن يتَصَدَّعا
وإذ لا نطيعُ العاذلين ولا نَرَى — لواشٍ لدينا يَطْلُبُ الهَجْرَ مطمعا
وإذ نحنُ مثل المـاء كان مِزَاجه — كما صفَّق الساقى الرحيقَ المُشَعْشَعَا
تُنُوعِتن حتى عاودَ القلبَ خَبْلُه — وحتى تذكَّرت الحبيبَ المودَّعا
فقلت لمطريهن بالْحُسْنِ : إنمـا — ضَرَرْتَ، فهل تَسْطِيعُ نَفعا فتنفعا؟
وأشريت فاستشرى وقد كان قد صحا — فؤاد بأمثَال المَهَا كان مُولَعـا[3]
لئن كان ما حُدِّثتُ حقّا فمـا أرى — كمثل الألى أطْرَيت فى الناس أربعا[4]
فقال : قم فانظر، فقلت : وكيف لى — أخافُ حديثا أن يشاع فيَشْنُعا
فقال : اكتفل ثم التثم فأْتِ باغيا — فسلِّم ولا تُكْثِرْ بأَنْ تتورَّعا
فأقبَلْتُ أهْوِى مثل ماقال صاحبى — لموعدِهِ أُبغى قَلُوصاً موقَّعا[5]
فلمـا تواقفنـا وسلَّمتُ أقبلت — وجُوهٌ زَهَاهَا الحسن أن تتقَنَّعَا
تبالَهْنَ بالعِرْفَان لَمَّا رأيننى — وقلنَ : امرُؤٌ باغ أكلَّ وأوضعا[6]
وقرَّبْنَ أسـباب الهوى لمتيَّمٍ — يَقِيس ذِراعا كلما قِسْنَ إصْبَعا
فلما تنازعن الأحاديثَ قلْن لى — أخِفْتَ علينـا أن نُغَرَّ ونخدَعا

---

(١) المغمس : موضع قرب مكة فى طريق الطائف، والنكباء : الريح التى تتنكب عن مهاب الرياح، وريح زعزع : شديدة

(٢) نكأ الجرح: أصابه من جديد (٣) أشربته فاستشرى : هجته فهاج، وشرى الشر ، على وزن رضى ، استطار . وشرى زيد : غضب ولج ، ومثله استشرى، ومنه الشراة للخوارج ، سموا بذلك للجاجتهم وإمعانهم فى الخروج ، لا لأنهم شروا أنفسهم وباعوها فى الطاعة كما وهم بعض الناس (٤) الإطراء : المبالغة فى الثناء

(٥) الموقع : البعير تكثر عليه آثار الدبر (٦) أكل راحلتـه وأوضعها : أتعبها

فبالأمس أرْسَلْنَا بذلك خالداً　　إليك ، وَبيَنَّا له الأمرَ أجمعا
فما جئتنا إلاّ على وَفْقِ مَوْعدٍ　　على ملأٍ منّا خَرَجْنا له مَعا
رأينا خلاء من عُيُونٍ ومنظراً　　دَميث الربى سَهْل المحلة مُمْرِعا[1]
وقلن : كريمٌ نال وَصْلَ كرائم　　فحقّ له فى اليوم أن يتمتّعا

وقوله : « وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا » يقول : هذه الوجوهُ مُدِلّة بجمالها فلا تختمر ، فتستر شيئاً عن الناظرين إليها . وقد أشار إلى هذا المعنى الشماخ بن ضِرَار[2] يصف ناقته :

كأنّ ذِرَاعَيْها ذراع مُدِلّةٍ　　بُعَيْد الشباب حاولت أن تُعَذّرَا[3]
من البيض أعطافها إذا اتّصلت دعَتْ　　فِراسَ بن غَنْمٍ أو لَقيط بن يَعْمُرا
بها شَرَقٌ من زعفران وَعنبرٍ　　أطارت من الحسن الرِّدَاء المحبَّرا

[مَنْ لاترى ستر الوجه من النساء ، واحتجاجها لذلك]

قال : وكانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله لا تستر وجهها ، فلما دخلت على مُصْعب بن الزبير قال لها فى ذلك، فقالت : إن الله تعالى وَسَمنى بميسَم جمال، فأحببتُ أن يراه الناس ، والله مابى وَصْمة أستتر لها .

وقال على بن العباس الرومى يصف قينة :

لم يَعْتَصِمْ عودُها بزامرةٍ　　ولا انضوَى وَجْهُها إلى السترِ

وقد ردد معنى قوله : « لم يعتصم عودها بزامرة » فقال : يصف بِرعة الكبيرة :

غنت فلم تحوج إلى زامِرٍ　　هل تحوج الشمس إلى شَمْعه

---

(١) دميث : سهل . والممرع : المخصب
(٢) هو معقل بن ضرار ، المتوفى سنة ٢٢ ، كان أرجز الناس على البديهة ، شهد القادسية ، وتوفى فى غزوة موقان　(٣) فى نسخة « ذراعا مدلة » (م)

كأنما غنّت لشَمْسِ الضحى فألبستها حُسنها خِلعه
كأنما رَنّةُ مسموعها رقة شَكْوَى سبقتْ دَمْعه
تُهْدِى إلى قلبك ما يشتهى كأنها قد أطلعت طلعه
يجتمع الظرفُ لجلاّسِها والحسنُ والإحسانُ فى بُقعه
طَفِّلْ على من حصلت عندَهُ فبعض تطفيل الفَتى رِفْعَه[1]
ربيع غيثٍ فانتَجِعْ رَوْضَهُ فلن يُعابَ الحرّ بالنجعه[2]

[سَتْر الرأس لإخفاء الصلع]

وكان ابن الرومى لا يزال معتمًّا ، وكان يغضب إذا سُئل عن ذلك ، وسأله بعضُ الرؤساء: لِمَ تعتّم ؟ فقال بديها :

يأيهـا السائلى لِأُخـبرَهُ عَنّىَ لِمْ لا أرَاكَ مُعْتَجِرا
أستر شيئاً لو كان يمكننى تعريفَهُ السائلينَ مَا سُـتِرَا

وقد بين العلة التى أوجبت اهتمامه فى قوله :

تعممت إحصاناً لِرأسىَ بُرْهةً من القَرّ يوما والحَرُورِ إذَا سَفَعْ
فلما دَهَى طولُ التَّعمم لِمّتِي وأودى بها بعد الإطالة والفرَع
عزمت على لُبْسِ العمامة حيلةً لتستر ما جَرّتْ علىّ من الصَّلع
فيالك من جانٍ علىّ جِنايةً جعلت إليه من جنايته الفزَع
وأعجب شىء كان دائى جعلتهُ دَوَائى على عَمْد وأعجِبْ بأنْ نفعْ

وهذا كقوله ، وإن لم يكن فى معناه ، وقد رأيت من ينسبه إلى كشاجم :

طرِبْتُ إلى المِرَاةِ فرَوَّعَتْنِي طوالِـع شيبتين ألمّتَا بى
فأما شَيْبةٌ ففَزِعتُ منهـا إلى المِقْرَاضِ حُبًّا للتّصَابِى

(١) التطفيل: غشيان الوليمة من غير دعوة
(٢) النجعة : الارتحال فى سبيل الكلأ

وأما شَيْبَةٌ فصفَحْتُ عنهـا ... لتَشْهَد بالبرَاءةِ من خِضَابي
فأُعْجِبْ بالدَّليلِ على مَشيبي ... أقمْتُ بهِ الدَّليل على شَبَابِي

وهو القائل فى صفة رجل أصلع :

يجذب من نقرته طُرَّةً ... إلى مَدًى يقصرُ عن ميلهِ
فوجْهه يَأْخذ من رأسِهِ ... أخْذَ نهار الصَّيْفِ من لَيْلهِ

وقال أعرابى :

قد ترك الدَّهْرُ صَفَاتِى صَفْصَفَا ... فصار رَأْسِى جَبْهةً إلى القَفَا[1]

* كأنه قدكان رَبْعاً فعفَا *

[من كلام الأعراب]

بين سليمان بن عبد الملك وأعرابى

قال أعرابىٌّ لسليمان بن عبد الملك : إنى أُكلمك يا أميرَ المؤمنين بكلام فاحتمله ، فإنَّ وراءه إن قبلتَه ماتحبه ، قال : ها تِهِ ياأعرابى؛ فنحن نَجُودُ بسعةِ الاحتمال على مَنْ لا نَأْمن غَيْبته، ولا نَرجُو نصيحته ، وأنت المأمون غيبا ، الناصح جَيْبا[2] . قال : فإنى سأُطْلِقُ لسانى بما خَرِست عنه الالسُن ، تأديةً لحق الله تعالى ؛ إنه قد اكتنفك رِجَالٌ أساءوا الاختيارَ لأنفسهم، وابتاعوا دُنْيَاك بدينهم ، ورضاكَ بسَخَطِ ربهم، وخافوك فى اللهِ ولم يخافوا اللهُ فيك ، فهم حربٌ للآخرة ، وَسَلْمٌ للدنيا ، فلا تأْمَنْهم علىماائتمنك اللهُ عليه ؛ فإنهم لم يَأْلُوا الأمانةَ تضييعا ، والأمة كسفا وخَسْفا ، وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمْت ؛ فلا تُصْلِحْ دنياهم بفساد آخرتك ؛ فإن أعظَم الناسِ عندالله غَبَناً مَنْ باع آخِرَته بدُنْياَ غيره .

فقال سليمان : أما أنت يا أعرابى فقد سللت لسانك وهو سَيْفُكَ ، قال : أجل يا أمير المؤمنين ، لك لاعليك .

---

(١) الصفاة : الصخرة ، والمراد بها حال المرء (٢) نصح الجيب : كناية عن سلامة الطوية

وصف المطر لاعرابى

وروى العتبى عن أبيه عن مولى لعمرو بن حريث قال : شخصت إلى سليمان ابن عبد الملك، فقيل لى: إنك تَردُ على أفصح العرب، وسيسألك عن المطر ، فانْظرْ ما تجيبه ، فقلت : ما عندى من الجواب إلا ما عند العامة ، فقيل لى : ما ذلك بمُقْنِع عنده ، فلقينى أعرابى فقلت : هل لك فى درْهمين ؟ فقال : إنّى والله محتاج إليهما ، حريصٌ عليهما ، فما شأْنُك ؟ فقلت : لو سألك سائل عَنْ هذا المطرِ بمَ كنت تجيبه ؟ قال . أو يَعْيَا بهذا أحد ؟ قلت : نعم ، سَائِلُكَ ! قال : أتعْيَا أن تقول : أصابتنا سماء ، عَمّد لها الثّرى ، واتَّصَل بها العُرَى ، وقَامَتْ منها الغُدُر ، وأتتك فى مثل وِجَار الضَّبُعِ ، فكتبتُ الكلامَ ، وأعطيتُه درهمين : فكان هِجِّيرَاىَ على الرَّاحِلة[1] ؛ فإذا نزلت أقبلت عليه وأمثل نفسى كأنى واقفٌ بين يديه ، وقد سلّمت عليه بالخلافة وهو يَسْألنى عن المطر !

فلما انتهيتُ إليه سألنى فاقتصصْت الكلامَ ، فكَسَر إحْدَى عينيه ، وقال : إنى لأَسْمع كلاما ما أنت بأبِى عُذْرته[2] . قلت : صدقت ! وحياتك يا أميرالمؤمنين اشتريتُه بدرهمين ! فاستغرب ضَحِكا ، ثم أحْسَنَ صِلَتى .

أعرابى تمدح رجلا

وقال أعرابى يمدح رجلا :

حَليمٌ مع التَّقْوَى ، شُجَاعٌ مع الجَدَا ... نَدٍ حِينَ لا يَنْدَى السّحابُ سَكُوبُ

ويَحْملُ أموراً لو تَضَيَّفْنَ غيرهُ ... لمات خُفاتاً أو لَكادَ يذوبُ

شديد مَنَاطِ القَلْبِ فى الموقف الذى ... به لقلوبِ العالَمينَ وَجيبُ

فتًى هو مِنْ غَيْرِ التخلّق مَاجِد ... ومن غَيْرِ تأديبِ الرِّجَالِ أدِيبُ

وقال بعض المحدَثين يَمْدح :

---

(١) كان هجيراه على الراحلة : أى لم يزل يكرره وهو سائر

(٢) ليس بأبى عذرته : ليس صاحبه . والعذرة: البكارة ، وهو أبوعذرة هذا الكلام : أى أول من افتض بكارته . يعنى أنه مبدعه

فتى يَجْعَلُ المعروفَ قبل سُؤَالهِ ... ويَجْعل دون العُذْر فضل التَّكرُّمِ
أغرُّ متى تَقْصِدْ به فضل حظهِ ... تُصِبْ ومتى تطلب به الغُنْم تَغْنَمِ
على رأيه ينضمّ مُنْصَدِعُ الصَّفا ... وينحلُّ من عَقْدِ العُرى كل مُبْرَمِ
له عَزْمة أغنى من الجيش فى الوَغَى ... وخَطْرَةُ رايٍ كالْحُسام المصمَّمِ

جملة من كلام أبى الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى[1] بديع الزمان

وهـذا اسمٌ وافق مُسَمَّاه ، ولفظٌ طابقَ مَعْناه ، وكلام غَضُّ المكاسر ، أنِيق الجواهر ، يكادُ الهواء يسرقه لُطْفاً ، والهوى يعشقه ظَرْفاً

كيف استوحى صنع المقامات

ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدى[2] أغرب بأربعين حديثاً ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنخبها من معادِن فِكْرِه ، وأبداها للأبصار والبَصائر ، وأهداها للأفكارِ والضمائر ، فى معارض أعجمية ، وألفاظ حُوشِية ، فجاء أكثرُ ما أظهر تَنْبُو عن قبوله الطباع ، ولا ترفعُ له حُجُبَهَا الأسماعُ ، وتوسَّع فيها ؛ إذ صرَّف ألفاظَها ومعانيها ، فى وجوه مختلفة ، وضروب متصرِّفة ، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكُدْيَة ، تذوب ظَرْفاً ، وتقطر حُسْناً ، لامناسبةَ بين المقامتين لفظاً ولا معنى ، وعطف مُسَاجلتها ، ووقَّفَ مناقلتها ، بين رجلين سَمَّى أحدهما عيسى بن هشام والآخَرَ أبا الفتح الإسكندرى ، وجعلهما يتهاديان الدُّر ، ويتنافثان السِّحر ، فى معانٍ تُضْحِكُ الحزين ، وتحرِّكُ الرَّصِينَ ، يتطلَّع منها كلّ طريفة ، ويُوقِفُ منها على كلِّ لطيفة ، وربما أفرد أَحَدهما بالحكاية ،

---

(١) هو أشهر كتاب القرن الرابع ، وأبقاهم أثرا . كانت وفاته سنة ٣٩٨ وسيتحدث عنه صاحب زهر الآداب فى مواطن متفرقة (٢) ابن دريد هو محمد بن الحسن «لا الحسين كما ورد فى الأصل» المتوفى سنة ٣٢١ ، كان فيما وصفوه أعلم الشعراء وأشعر العلماء

وخصّ أحدهما بالرواية ؛ وسأذكر منها ما لا يُخِلُّ طولُه بالشرط المعقود ، ولا ينافى حصولُه الغرضَ المقصود(١) .

كتاب من البديع لأبى نصر الميكالى

كتب إلى أبى نصر أحمد بن على الميكالى :

كتابى ـ أعزّ الله الأمير ! ـ و بودّى أن أكُونَه ، فأسعد به دُونَه ، ولكنّ الحريصَ محروم ، لو بلغ الرزق فاه ، لولاّه قفاه . فرّق الله بين الأيام ، تفريقَها بين الكرام ، وألهمها أن تورد بعقل ، وَتُصدر بتمييز ، وما ذلك على الله بعزيز ، وأنا فى مفاتحة الأمير ، بين ثقة تَعِد ، وَيَدٍ تَرْتَعِد ، ولم لا يكونُ ذلك ؟ والبحرُ و إن لم أره ، فقد سمعتُ خبرَه ، ومن رأى مِنَ السيف أثره ، فقد عاين أكثرَه ؛ والليث و إن لم ألقَه ، فلم أجهل خلقه ، وماوراء ذلك من تالِد أصْلٍ وحَسَب ، وطارفِ فَضْلٍ وأدب ، و بُعْد همة وصِيت ، فمعلوم تَشْهَد به الدفاتر ، والخبرُ المتواتر ، وتنطق به الأشعارُ ، كما تصدق به الآثارُ ، والعين أقلُّ الحواس إدراكا ، والأذن أكثرها استمساكا ، و إن بعدت الدار فلا ضَير ؛ إنّ أيْسَر البعدين بُعْدُ الدارين ، وخيرَ القرب بين قُرْبُ القلبين .

ومن البديع إلى الميكالى أيضا

وكتب إليه فى سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة :

الأمير الفاضل ، والشيخ الرئيس ، رفيعُ مَنَاطِ الهمة ، بعيد منال الحرمة ، وفسيح مجال الفضل ، رَحِيبُ مُنْخَرَقِ الجود ، رطيب مكْسِرِ العود

---

(١) مؤدى هذا الكلام أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وأنه حاكى ابن دريد فى أحاديثه ؛ وقد استغللت هذا النص فى كتابى الذى وضعته بالفرنسية عن النثر فى القرن الرابع . وقد دهش المسيو مارسيه لهذه الفكرة ، وعجب كيف اتفق الناس إلى اليوم على أن البديع هو منشىء فن المقامات ، ولكنى من جانب آخر أذكر أنى لم أر مثل هذا الكلام فى غير زهر الآداب ، ولا أزال ألتمس له مصدراً آخر ، ولم أعثر على شىء إلى اليوم ، ويزيد فى الدهشة أن صاحب زهر الآداب يروى المسألة على أنها مقبولة معروفة لم تمس بنقض ولا تكذيب ، وقد نقلها عنه ياقوت فى معجم الأدباء

فلو نظمت الثريا والشِّعْرَيَيْن قريضا
وكاهل الأرض ضربا وشعب رضوى عروضا
وصُغْتُ للدر ضدًّا وللهـــواء نقيضا
بل لو جَلَوْتُ عليــه سُودَ النوائب بيضاً
أو ادَّعيت الثريَّا لأخمصيه حضيضا
والبحر عنــــد لُهَاهُ يوم العطاء مَغِيضاً

لما كنت إلاَّ فى ذمة القُصُور ، وجانب التقصير ، فكيف وأنا قاعدُ الحالة فى المدح ، قاصرُ الآلة عن الشَّرْح؟ولكنى أقول : الثناء مُنْجحٌ أنَّى سلك ، والسخى جوده بما ملك ، وإن لم تكن غُرَّةٌ لائحة فَلَمْحَةٌ دالة ، وإن لم يكن صَدَّاء فماء[1] ، وإن لم يكن خمر فَخَلّ ، وإن لم يُصِبْها وابل فَطَلّ ، وبَذْلُ الموجود غاية الجود ، وبعض الجهد آخر المجهود ، وماش خير من لاش[2] ، ووجود بما قلَّ خيرٌ من عدم ما جَلَّ . وقليل فى الجيب خير من كثير فى الغَيْب ، وجهد المقل خيرٌ من عذر المخل ، وحمار أَيْس خيرٌ من فرسٍ لَيْس[3] ، وكوخ فى العِيان خيرٌ من قصر فى الوهم . وزيت[4] خيرٌ من ليت ، وما كان أجود من لوْ كان ، وقد قيل : عصفور فى الـكف أجودُ من كركى فى الجو ، ولأن[5] تقطف خَيْرٌ من أن تقف ، ومن لم يجد الجميم رعى الهشيم[6] ، ومن لم يحسن صهيلا نَهَق ، ومن لم يجد ماء تيمَّمَ ؛ والأمير الرئيس ـ أدام الله نعماه ! ـ لا ينظر فى قوافى صنيعته إلى رَكَاكة ألفاظها ، وبُعْدِ أغراضها ، ولـكن إلى كثرة جذرها[7] ، وثقل مهرها ، وقِلَّة

---

(١) صداء : ماء يضرب به المثل فى الحلاوة ، ويقال : ماء ولا كصداء
(٢) لاش : لاشىء ، ويقابله ماش ، وهى عبارة مولدة
(٣) الأيس : القهر ، يريد أن حمار الضرورة خير من الفرس المعدوم
(٤) زيت : هى هكذا بالزاى فى الأصول عامة ، وأنا أحسبه «ذيت» بالذال ، وهى من الألفاظ التى يكنى بها فيقال «كيت وذيت» (م) . (٥) تقطف : تسير بيطء (م) .
(٦) الجميم : النبت الغزير ، والهشيم : اليابس (٧) الجذر : ماتكافأ به المغنية

كفئها ، و إننى منذ فارقت قَصَبَة جرجان ، ووطئت عَتَبَة خراسان ، ما زففتها إلا إليه ، ولا وَقَفْتُها إلا عليه ، هذا على تمرغى فى أعطاف المحن ، وضرورتى إلى أبناء الزمن ، و إن كان الأمير الرئيس يرفعُ لكل لفظٍ حجابَ سمعه ، و يُفسِحُ لكل شعرٍ فِناء طبعه ، فهاك من النثر ما ترى ، ومن النظم ما يترى :

أدْهِقِ الكاس فعَرْفُ الْـــفَجْرِ قد كادَ يبوحُ
فهو للناس صباحٌ ولذى الرأى صَبُوحُ
والذى يمرح بى فى حَلْبَة اللَّهو جَمُوحُ
فاسقنيها والأمانِىُّ لها عَرْفٌ يفوحُ
إنّ للأيام أسرا رأَ بِها سوف تبُوحُ
لا يغرَنّكَ جسمٌ صادقُ الحِس وروح
إنما نحن إلى الآ جال نَغْدُو ونروح
وَيْك هذا العمر تبريــحٌ وهذا الروح ريحُ
بينما أنْتَ صحيح الْــجسم إذ أنْتَ طَرِيح
فاسقنيها مثل ما يلــفظه الدّيك الذّبيح
قبل أن يضرب فى الدّهْـــرِ بِىَ القِدْحُ السَّنِيح[1]
إنما الدّهرُ غَرُورٌ ولمنْ أصْغَى نصيحُ
ولسان الدّهرِ بالْوَعْـــظِ لوَاعيهِ فَصِيحُ
نستبيح الدّهرَ والأ يّا م منــا تَستبيحُ
نحن لاهون وآجا لُ المنايا لا تريح
يا غلامُ الكأسَ فاليأ سُ من الناس مُرِيحُ
ضاع ما نحميه من أنــفسنا وَهْـوَ مبيح

---

(١) هكذا ، وهو فى الرسائل « السفيح » بالفاء ، وهو صواب ملائم المعنى المراد ، والسفيح : أحد ثلاثة أقداح من أقداح الميسر ليست تربح شيئاً ، وثانيها يسمى الوغد ، وثالثها يسمى المنيح (م) .

وقنوعا فمقام الذ ل بالمرء قبيح
أنا يا دهر بأبنا ئك شِقٌّ وسَطيحٌ[1]
وبأبكار القوافى على كُفْءٍ شَحيحُ
يا بنى ميكال والجو دُ لعلاّتى نُزَيح
شرفاً إن مجال الـــفضل فيكمْ نفسيحُ
وعلى قدر سَنا الممـــدوح يَأتيكَ المديح
فهناك الشرف الأر فع والطَّرْف الطَّمُوح
والنَّدى والخُلْقُ الطا هر والخَلْق[1] الصَّبيحُ
مرتَقَى مجدٍ يحـار الـ طّا رف فيـه ويطيح
أيُّهذا الكرم المـا ثل والخُلْقُ السَّجِيح[2]
كان هـــذا الجود ميتاً عادَه منك المسيح

هذه ـ أطال الله بقاء الأمير! ـ هدية الوقت، وعَفْوُ الساعة، وفَيْضُ البديهة، ومسارقة القلم، ومسابقة اليَدِ للفم، وجمرات الحدَّة، وثمرات المدَّة، ومجاراة الخاطر للناظر، ومباراة الطَّبع للسَّمع، ومجاذبة الجنان للبيان، والشعر إذا لم تقدمه روِّية، ولم تنضجه نيّة، لم يفتح له السمع بابه، ولم يرفع له القلب حجابه، وإذا لبس الأمير هذه على علاتها رجوت أن يكون بعدها ماهو أفتن وأحسن وأرصن، فرأيه أيده الله فى الوقوف عليها موفقا إن شاء الله.

كتاب عتب من البديع إلى الميكالى

وله إليه معاتبة:

لَئِنْ ساءَنى أنْ نِلتَنى بمَساءةٍ لقد سرّنى أنّى خَطَرْتُ ببالك

الأمير الفاضل الشيخ الرئيس، أطال اللهُ بقاءهُ إلى آخر الدعاء، فى حال برِّه وجفائه مُتَفضِّل، وفى يومَىْ إ اده وإدْنائه مُتطَوِّل. وهنيئاله من حِمَانا مايُحِلُّه،

---

(١) شق وسطيح : كاهنان من كهان الجاهلية كانوا يضربون بهما المثل فى معرفة الغيب (٢) الخلق السجيح : السهل .

ومن عُرَانا مايَحُله ، ومن أعرَاضِنا مايستحلُّه ؛ بلغنى أنه — أدام اللهُ عِزّه! — استزاد صنيعته ، وكنت أظننى مجنياً عليه ، مُسَاءً إليه ، فإذا أتانى قرارة الذّنبِ ، و بمثابة العتْب ، وليت شعرى أىّ محظور فى العشرة حَضَرْته ، أو مفروض من الخِدْمة رَفضْتُه ، أو واجبٍ فى الزيارة أهْمَلتُه ؟ وهـل كنتُ إلا ضيفاً أهداه بَلدٌ شاسع ، وأدّاه أملٌ واسع ، وحَداه فَضْلٌ وإن قلّ ، وهداه رأىٌ و إنْ ضَلّ ، ثم لم يُلقِ إلاّ فى آلِ مِيكَالَ رَحْلَه ، ولم يَصِلْ إلاّ بهم حَبْلَه ، ولم يَنْظِم إلا فيهم شِعْرَه ، ولم يَقِفْ إلا عليهم شُكْرَه ؛ ثم ما بَعُدَتْ صحبةٌ إلا دَنَتْ مَهَانةَ ، ولا زادت حُرْمة إلا نقصت صيانة ، ولا تضاعَفَتْ مِنة إلا تراجعت مَنْزِلة ، ولم تزل الضَعَة بنا حتى صار وابلُ الإعظام قَطْرَة ، وعاد قميصُ القيام صُدْرَة ، وذلك التقربُ أزْوِرَارا ، وطويل السلام اختصارا ، والاهتزازُ إيمـاء ، والعبارة إشارة ؛ وحين عاتبته آمل إعتابه ، وكاتبته أنتَظِر جوابه ، وسألته أرجو إيجابه ، أجاب بالسكوت ، وأعْتَب بالقُنُوت ، فما ازددت إلاّ له ولاء ، وعليه ثناء ؛ لا جرَم إنى اليوم أبيضُ وَجْهِ العهد ، وأضح محجّةِ الوُدّ ، طويلُ عِنَانِ القول ، رفيع حِكْمَةِ العُذْر ؛ وقد حمّلت فلاناً من الرسالة ما تجافَى عنه القلم ؛ والأمير الرئيس أطال الله بقاءه يُنْعِمُ بالإصغاء لما يورده موفقاً إنْ شاء الله .

وله إليه فى هذا الباب :

كتاب عتاب من البديع إلى الميكالى أيضا

أنانى خدمة الأمير الرئيس ـ أطال الله بقاءه !ـ مترجِّحٌ بين أنْ أشرَبها رنقة ولا أسِيغَها ، وألجلج منها مُضْغة ولا أجيزها ، و بين أنْ أطْوِيَهَا على عَرِّها ، ولا أرتضع أخلاف دَرِّها .

فلاَ نَفْسِى تُطاوعنى لرَفْضٍ ولا هِمى تُوَطِّنُنِى لخفضِ

و بقى أن أقْرُصَه بأنامل العَتْبِ ، وأخْشِمَه بألحاظ العَذْل ، وأعرفه أنى ما أطوى مسافةَ مزار إلاّ متجشّما ، ولا أطأ عَتَبة دار إلا متبرّما ؛ ولستُ كمن يَبْسُط يدَهُ مُسْتَجْدِيا ، أو ينقل قدمَه مستَعْدِيا ؛ فإن كان الأميرُ الرئيس ـ أيّده اللهُ! ـ يسرح طَرْفه منّى فى طامح أو طامِـع ، فليُعِد للفِراسةِ نَظَرا .

فما الفقرُ من أرض العشيرة ساقني إليك ، ولكنّا بقُرْباكَ ننجحُ

وأجِدُنى كلما استفزنى الشوقُ إلى تلك المحاسن ، أطير إليها بجناحين عَجِلا ، وأرجع بعَرْجاوَيْن خَجِلا ، ولولا أنّ الرضا بذلك ضربٌ من سقوط الهمّة ، وأن العتابَ نوعٌ من أنواع الخدمة ، لصُنْتُ مجلسه عن قلمى ، كما أصُونه عن قَدَمِى ، ولمِلْتُ إلى أرْض الدعاء فهو أنجع ، وإلى جانبِ الثناء فهو أوْسَع ، وسأفعل لتخفَ مؤْنتى ، ولا تثقل وَطْأَتِى

إذا ما عَتَبْتُ فلم تُعْتِبِ وهُنْتُ عليك فلم تعنَ بى (١)

سلَوْت ، ولو كان ماء الحياة لعِفْتُ الورُودَ ولم أشْرَبِ

قطعة من مفردات الأبيات لأهل العصر فى معان شتى

تجرى مجرى الأمثال

لأبى فراس

أبو فراس الحمدانى :

إذا كان غيرُ اللهِ للمرْء عُدَّةً أتتْهُ الرَّزايا من وُجوهِ المكَاسِبِ

وله :

عَفَافُك عِىٌّ ، إنما عِفَّةُ الفَتَى إذا عَفَّ عن لَذّاتِه وَهْوَ قادِرُ (٢)

للمتنبى

وقال المتنبى :

كلُّ حِلْمٍ أتَى بغَيْرِ اقْتِدارٍ حُجَّةٌ لاجِئٌ إليها اللِّئامُ

وله :

وإذا كانتِ النفُوسُ كِباراً تَعِبَتْ فى مُرادِها الأجْسامُ

---

(١) أعتبه : أزال عتبه (٢) كذا ، وأحسبه « عفافك عجز » (م)

وله :

و إذا أتتكَ مَذَمّتِى من ناقصٍ فهى الشَّهادَةُ لى بأنى كامِلُ

وله :

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّتِهِ وهل تَرُوقُ دَفيناً جَوْدَةُ الكَفَنِ ؟

وله :

من أطاقَ الْتِماسَ شَىءٍ غِلاباً واغْتِصاباً لم يَلْتَمِسْهُ سُؤالا

وله :

والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النفوسِ ، فإنْ تَجِدْ ذا عِفَّةٍ فلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

وله :

ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجبُه أنى بما أنا باكٍ مِنه مَحْسُودُ

وله :

ذِكْرُ الفتى عُمْره الثانى ، وحاجَتُه ما قاتَه ، و فُضُول العَيْشِ أشغالُ

والمتنبى أكثَرُ المحدَثين افتِناناً و إحساناً فى الإغراب بهذا البابِ ؛ والاستقصاء يخرج عن شرط الكتاب .

لاسرى الرفاء

وقال السرى الموصلى :

خُذوا من العيشِ فالأعمار فَانِيَةٌ والدهرُ مُنْصَرِمٌ والعيشُ مُنقَرِض

وله :

فإنك كلّما استُودِعْتَ سِرًّا أنمُّ مِنَ النَّسيمِ على الرِّياض

للصابى

وقال أبو إسحاق الصابى :

الضبُّ والنّون قد يُرْجَى التقاؤهما وليس يُرْجَى التقاءُ اللبِّ والذَّهبِ (١)

لابن نباتة

وقال ابن نباتة :

مثَلٌ خَلَقْتُ على الزمان رِداءَهُ عَوَزُ الدَّرَاهِمِ آفةُ الأجْوَادِ

---

(١) الضب : من حيوان الصحراء ، والنون : الحوت ، من حيوان الماء . واللب : العقل (م) .

وله :

يهـــوى الثناء مبرز ومقصر حب الثناء طبيعـــة الإنسان

وقال أبو الحسن السَّلامى : للسلامى

تبسَّطـــنا على اللَّذَّات لمَّا رأينا العفوَ من ثمر الذَّنوبِ

وقال ابن لنكك البصرى : لابن لنكك

وماذا أُرجِّى من حياةٍ تكدَّرَتْ ولوقدصَفَتْ كانَتْ كأحلامِ نائمِ

وقال أبو طالب المأمونى : للمأمونى

لى فى ضَمير الدهرِ سرٌّ كامِنٌ لابدَّ أن يستلّه الأقــــدار

وقال أبو الفضل بن العميد : لابن العميد

الرأى يَصْدَأُ كالحُسام لعارضٍ يَطْرا عليه وصَقْـــله التذكير

وقال أبو الفتح : لأبى الفتح

بطرتم فطرتم والعصا زَجْرُ مَنْ عَصَى وتقويم عَبْد الهُون بالهُون رادع

وله :

إذا بلغ المـــرء آماله فليس له بعدها مُقْتَرَحْ

وقال الصاحب إسماعيل بن عباد : لابن عباد

إن أمَّ الصـــقر فى الودْ دِ لمِقْلاَةٌ نَزُورْ

وله :

من لم يَعُدْنَا إذا مَرِضْنَا إنْ مات لم نَشْهَد الجنازه

وله :

حِفْظُ اللسانِ راحــةُ الإنسانِ فاحْفَظْهُ حفظ الشكر للاحسانِ

وقال إسماعيل الناشى : للناشى

وكنتُ أرَى أنَّ التجاربَ عُدَّةٌ فخانتْ ثِقَاتُ الناسِ حتى التجارب

وقال أبو الفتح البستى :

لا تَرْجُ شيئاً خالصاً نَفْعُهُ فالغيثُ لا يَخْلُو من الْعَيْث[1]

وله :

ولم أر مثل الشكر جَنَّة غارسٍ ولا مثل حُسْنِ الصبر جُبّة لابِس

وله :

وطول مُقامْ الماء فى مستقرِّه يُغَيِّره ريحاً ولوناً ومَطْعما

وله :

ما استقامت قَنَاةُ رأيِىَ إلاَّ بعد ما عَوَّجَ المَشِيبُ قَنَاتِى

للميكالى

وقال أبو الفضل الميكالى :

هو الشوكُ لا يُعطيك وافرَ منّةٍ يدَ الدهر إلاَّ حين تَضرِبه جَلْدَا

وله :

ذو الفضـــل لا يسلَم من قَدْحٍ وإنْ غَـــدَا أقوَم من قِدْحِ

الشمس المعالى

وقال شمس المعالى :

وفى السماء نجومٌ مالها عَدَدٌ وليس يُكْسَفُ إلا الشمسُ والقمرُ

هذا مأخوذ من قول الطائى :

إن الرياحَ إذا ما استعصفت قَصَفَتْ عيدانَ نَجْدٍ فلم يعبأْنَ بالرتَمِ[2]

بناتُ نعشٍ ونَعْشٌ لا كُسوفَ لها والشمسُ والبَدْرُ منها الدهرَ فى الرَّقَمِ

للجرجانى

وقال أبو الحسن على بن عبد العزيز القاضى :

الهجر أرْوَحُ من وَصْلٍ على حَذَرٍ والموتُ أطْيَب من عَيْشٍ على غَرَرِ

للخوارزمى

وقال أبو بكر الخوارزمى :

لا تغرَّنْكَ هذه الأوجه الغُـــرُّ فيَارُبَّ حَيَّةٍ فى رِياضِ

---

(١) العيث — بالعين المهملة — الإفساد (م) (٢) الرتم : نبت ضعيف

[من تُبْطره النعمة لم يؤسف على زوالها عنه]

بين أبي العيناء وابن فرخان شاه

قال أبو العيناء : كان عيسى بن فَرْخان شاه يَتيهُ علىَّ فى ولايته الوِزَارَة ، فلما صُرِف رَهِبَنى ، فلقينى فسلَّم علىَّ فأحْفَى . فقلت لغلامى : مَنْ هذا ؟ قال : أبو موسى ؛ فدنوتُ منه وقلت : أعزَّكَ الله ، والله لقد كنْتُ أقْنَع بإيمائك دون بَيانِكَ ، و بلَحْظِكَ دُونَ لَفْظك ، فالحمدُ لله على ما آلَتْ إليه حالك ، فلئن كانت أخْطأَتْ فيك النِّعمةُ ، فلقد أصابت فيك النِّقْمَةُ ، ولئن كانت الدنيا أبْدَتْ مقابحَهَا بالإقبال عليك ، لقد أظهرَتْ محاسنها بالانصرافِ عنك ، ولله المِنّة إذ أغْنانا عن الكَذِبِ عليك ، ونزَّهَنا عن قول الزُّورِ فيك ، فقد والله أسأْتَ حَمْلَ النِّعم ، وما شَكَرْتَ حق المُنْعِم ، فقيل له : يا أبا عبد الله ؛ لقد بالغت فى السبِّ ، فما كان الذنب ؟ قال : سألته حاجةً أقل من قيمتِه ، فردَّ عنها بأقْبَحَ من خِلْقَتِه .

بين ابن الرومى وأبى الصقر

وقال علىّ بنُ العباس الرومى لأبى الصقر إسماعيل بن بلبل لما نكبه الموفق ابن أحمد وألمَّ فى بعض قوله بقول أبى العيناء :

لا زالَ يومُك عِبرةً لغدِكْ	وبَكَت بشجْوٍ عين ذى حَسَدِكْ
فلئن نُكِبْتَ لطالما نُكِبَتْ	بك هِمةٌ لجأَتْ إلى سَنَدِك
لو تسجد الأيام ما سجدتْ	إلاّ لِيَوْمٍ فتَّ فى عَضُدك
يا نِعْمَةً ولَّتْ غضَارَتُهَا	ما كان أقْبَحَ حسنهَا بيَدِك
فلقد غدَتْ بَرْداً على كَبدِى	لَمَّا غدَتْ حَرًّا على كبدِك
ورأَيْتُ نُعمَى اللهِ زائدةً	لما استبَانَ النَقص فى عَددِك
ولقد تمنَّتْ كلُّ صاعقةٍ	لو أنها صُبَّتْ على كتَدِك[1]
لمْ يَبْقَ لى مما بَرَى جسدى	إلاّ بقاء الرُّوح فى جَسَدِكْ

---

(١) الكتد : مجتمع الكتفين

وله فيه أهاجٍ كثيرة لما نكب ، منها قوله :

خَفض أبا الصَّقر فكمْ طائرٍ   خرَّ صَرِيعاً بَعْدَ تحليق
زُوِّجْتَ نعمى لم تكن كُفْأها   فَصَانهــا الله بتطليق
لا قُدسَت نُعمَى تَسَرْبَلْتَهَا   كم حجةٍ فيهــا لِزِنْدِيق(١)

مدحة لابن الرومى فى أبى الصقر

وكان أبو الصقر لما ولى الوزارة مَدَحَه ابن الرومى بقصيدته النونية التى أولها :

أجْنَيْنَكَ الورد أغصان وكُثبانٌ   فيهن نوعان تُفَّاحٌ ورمان
وفوق ذَيْنِكَ أعنابٌ مُهَدَّلةٌ   سودٌ لهنَّ من الظَّلْماء ألوان
وتحت هاتيك عُنَّاب تَلُوح بهِ   أطرافهن قلوب القوم قِنْوَان
غصونُ بَانٍ عليها الزهر فَاكِهة   وما الفواكهُ مما يَحْمِلُ البانُ
ونرجس بات سَارِى الطَّل يَضْرِبُهُ   وأقحوان مُنير اللَّون رَيَّان
ألفن من كل شىء طيِّبٍ حسنٍ   فهنَّ فاكِهةٌ شتَّى وريْحانُ
ثمار صِدْقٍ إذا عاينت ظاهِرَها   لكنها حين تَبْلُو الطَّعْمَ خُطْبَان(٢)
ولا يَدُمْنَ على عَهْدٍ لمعتقدٍ   والغانيات كما شُبِّهن بستَان
يَميلُ طوراً بحمل ثم يعدمُهُ   وَيَكْتَسِى ثم يُلْفَى وهو عُرْيَان

وهى أكثر من مائتى بيتٍ ، مرَّ له فيها إحسانٌ كثير ، فأنشدها أبا الصقر ، فلما سمع قوله :

قالوا أبو الصقر من شَيْبَان قلت لهم   كلاَّ لعمرى ولكِنْ منه شَيْبان

قال : هجانى ، قيل له : إنَّ هذا من أحسن المدح ؛ ألاَ تسمع ما بعده :

وكم أبٍ قد عَلاَ بابْنٍ ذُرَى شَرَفٍ   كما عَلَتْ برسول الله عدْنانُ

---

(١) يريد أن النعم التى تسربلها هذا الرجل وليس لها بأهل ، مما تقوى به حجة الزنادقة فى جحود الإله ؛ لأنه لو كان هناك عدالة إلهية لحيل بين اللئام وجميع الطيبات (٢) الخطبان : نبات مر ، يضرب به المثل ، فيقال : أمر من نقيع الخطبان ، وهو بضم الخاء المعجمة

قال : أنا بشيبان لا شيبان بى . فقيل له فقد قال :

وَلِمْ أقصِّر بشَيْبَان التى بلغتْ ... بها المبالغ أعراقٌ وأغْصان

لله شيبان قوم لا يشوبُهُم ... رَوْعٌ إذا الروع شابَتْ منه ولْدَانُ

فقال : لا والله لا أُثيبه على هذا الشعر ، وقد هجانى .

قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولى : كنتُ يوما عند عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر ، وقد ذكروا قصيدةَ ابن الرومى هذه النونية ، فقال : هذه دارُ البطيخ ، فاقرءوا تشبيهاتها تعلموا ذلك ! فضحك جميع من حضر .

وفى هذه القصيدة يقول من المختار فى النسيب :

يارُبَّ حُسَّانةٍ منهن قد فعلت ... سُوءا ، وقد يفعل الأسْوَاء إحسانُ

تشكى المحبَّ وتُلفِى الدَّهْرَ شاكِيةً ... كالقَوْس تُصْمِى الرَّمايا وهى مِرْنان[1]

وهذا كقوله فى قصيدة يَصِفُ فيها قوس البندق :

لها رَنَّة أَوْلَى بها من تصيبهُ ... وأَجْدَر بالإعوال مَنْ كان مُوجَعَا

يقول فيها :

لاتَلْحَيانى وإيّاها على ضَرَعى ... وزَهْوها ، لجَّ مَفْتُون وفَتَّانُ

إنى مَلَكت فَبِى للرِّقِّ مَسْكَنةٌ ... ومُلِّكت فلها بالمُلْك طُغْيَان

لى مُذْ نَأَتْ وجنةٌ رَيّا بعَبْرتها ... من عَبْرتى وفمٌ ماعِشتُ ظمآنُ

وفيها فى مدح بنى شيبان :

قومٌ سَماحتهم غيثٌ ، ونَجْدَتُهُمْ ... غَوْثٌ ، وآراؤُهم فى الخَطْب شُهْبَانُ

تَلقاهُمُ ورِماحُ الخطّ حولهم ... كالأُسد ألبسها الآجامَ خَفّانُ[2]

صانوا النفوس عن الفَحْشاء وابتذلوا ... مِنهنّ فى سُبُل العلياء ما صانوا

---

(١) تشكى المحب : تحمله بظلمها على الشكاية ، والرمايا : جمع رمية بمعنى مرمية ، وتصمى : تقتل وتبيد (٢) خفان ـ بفتح الخاء المعجمة ـ أجمة فى سواد الكوفة

المنعمون وما منُّوا على أحدٍ   يَوْماً بنُعمى ، ولو منُّوا لما مَانَوا[1]

يقول فيها فى أبى الصقر :

يَفْدِيه مَنْ فيه عن مِقْدار فِدْيَتِه   عن المفاداة . تَقْصِيرٌ ونُقْصَانُ

قومٌ كأنهُمُ مَوْتى إذا مُدِحُوا   وما لهم من حَبِيرِ الشعر أكفان

صاحى الطباع إذا سالتْ هَوَاجِسُه   ولِإن سألت يَدَيْه فهْوَ نَشْوانُ

يُصْحِيه ذِهنٌ وَيَأْبَى صَحْوَهُ كرمٌ   مُسْتَحْكِمٌ فَهْو صاحٍ وَهْوَ سكرانُ

فردٌ جميعٌ يَرَاهُ كلُّ ذى بَصَرٍ   كأنه النـاس طُرًّا وهو إنسانُ

وهذا كقول أبى الطيب :

ولَقيتُ كلَّ الفاضِلِينَ كأنَّما   رَدَّ الإلَهُ نفوسَهُمْ والأعْصُرَا

نُسِقوا لنا نَسَقَ الحساب مُقدَّما   وأتى فَذَلِكَ إذْ أتيتَ مُؤخَّرَا

وقد تقدم .

وقال :

فإنْ يكُ سَيَّارُ بْنُ مكْرمٍ انْقَضَى   فإنَّكَ ماء الوَرْدِ إن ذهب الوردُ

مَضَى وبَنوهُ وانفَرَدْتَ بفَضْلِهِمْ   وألفٌ إذا ما جُمِّعَتْ واحِـدٌ فَرْدُ

وقال البحترى :

ولم أرَ أمثَال الرجالِ تفاوتاً   لدى المجد،حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

ومدحه وعاتبه بقصائد كثيرة فما أنجحت ، فمن ذلك قوله فى قصيدة طويلة يمدحه:

لابن الرومى فى أبى الصقر أيضاً

فى وَجْهِه رَوْضَةٌ للحسنِ مو نِقَةٌ   ماراد فى مثلها طَرْفٌ ولاسَرَحا[2]

طَلُّ الحيـــاء عليها ساقطٌ أبداً   كاللؤلؤ الرَّطْبِ لو رَقْرَقْته سَفَحا

(١) مان : كذب ، والاسم المين ، بالفتح (٢) راد وارتاد معناهما واحد

أنا الزعيم لمكحولٍ بغرّته ... ألاّ يرى بعدها بُؤساً ولا تَرَحا

مهما أتى الناس من طَوْلٍ ومن كَرَم ... فإنما دخلوا البابَ الذى فتحا

يُعطِى المزاحَ ويعطى الجِدّ حقّهما ... فالموت إن جد، والمعروف إن مزَحا

وافى عُطَارِدَ والمرِّيخ مَوْلده ... فأعْطَياه من الحظّيْن ما اقْتَرَحا

إن قال : لا ، قالها للآمريه بها ... ولم يقُلْها لمن يستَمْنِحُ المِنَحَا

فى كَفّهِ قلمٌ ناهيك من قلمٍ ... نُبلاً ، وناهيك من كفٍّ بها اتّشحا

يَمْحُو ويُثْبتُ أرْزاقَ العبادِ بهِ ... فما المقاديرُ إلا ما محا ووَحَى[1]

كأنما القلمُ المُلوى فى يَدِهِ ... يُجْرِيه فى أى أنحاء البلادِ نَحا

لما تبَسَّمَ عنك المَجْدُ قلتَ لهُ ... قُهْقِه فلا نَغلاً تُبْدِى ولا قَلَحا[2]

أُثنى عليك بنعماك التى عَظُمَتْ ... وقد وجدت بها فى القوْلِ مُنْفَسحا

أمطِرْ بذاكَ جَنانى تَكْسُهُ زَهَراً ... أنتَ المحيّا بريّاه إذا نَفَحا

أنشدتها على متوالى الاختيار ، وكذلك أجرى فى كثير من الأشعار .

وله إليه أيضاً

وقال يعاتبه ويستبطئه :

عَقيدَ النَّدَى ، أطلِقْ مَدائحَ جَمّةً ... حَبائسَ حَسْرَى قد أبَتْ أن تُسَرَّحا

وكُنت متى تنشد مديحا ظَلمْتَهُ ... يُرى لكَ أهجى ما يُرى لك أمدحا

عَذَرْتُك لو كانت سماءٌ تَقَشَّعَتْ ... سَحائبُها أو كان رَوْضٌ تصَوّحا

ولكنها سُقْيا حُرِمتَ رَوِيّهَا ... وعَارِضُها ملْقٍ كلاكِلَ جُنَّحا[3]

وأكْلاءُ مَعْروفٍ حرمت مَرِيعَهَا ... وقد عادمنها السَّهْلُ والحزْنُ مَسْرَحَا

عَرَضْت لأورادى وبَحْرُكَ زاخِرٌ ... فلمّا أردْنَ الورْدَ ألْفَيْنَ ضحْضَحَا

فلو لم تَرِدْ أذْواد غَيْرِى غِمَارَه ... لقُلتُ : سَرابٌ بالمِتَانِ تَوَضّحا[4]

---

(١) وحى : كتب ، قال رؤبة « لقدر كان وحاه الواحى » (٢) النغل والقلح : فساد الأسنان (٣) الكلاكل : الصدور، وجنح : جمع جانح، وهو المائل (٤) الأذواد . جمع ذود ، وهو من الإبل من الثلاثة إلى العشرة ، وفى المثل « الذود إلى الذود إبل » ووقع فى نسخة «أوراد» وفى أخرى «أزواد» وكلاهما تحريف (م)

مبالك بي أحد فيه مُشْرَناً ... وإن كان غيرى واجداً فيه مَسْبَحا
مديحى عصا موسى . وذلك أننى ... ضَرَبْتُ به بَحْرَ النَّدَى فتضَحْضَحا
سأمدح بعض الباخلين لعله ... إذا اطَّرَدَ الْمِقْياسُ أنْ يَتَسمَّحا
فيا لَيْتَ شِعْرِى إن ضَرَبْتُ به الصفَا ... أَيَبْعَثُ لى منه جداولَ سُيَّحا
كتلكَ التى أبْدَتْ ثَرَى الأرض يابساً ... وشَقَّتْ عيوناً فى الحِجارة سُفَّحا
مَلَـكْتَ فأَسْجِحْ يَا أبَا الصقْرِ إنهُ ... إذا مَلَكَ الأحرارَ مِثْلُكَ أسْجحا

وماضرع إلى أحد هذه الضَّراعة ، ولافى طوقه هذا الاحتمال ؛ وهذه الأبيات الأخيرة إنما ولّد أكثرها من قول أبى تمام الطائى لمحمد بن عبد الملك الزيات :

فلو حارَدَتْ شَوْلٌ عَذَرْتَ لِقَاحها ... ولكن حُرِمْتُ الدَّرَّ والضَّرْعُ حافلُ
أكابرَنا عطفاً علينـــا ؛ فإننا ... بنا ظَمَأٌ بَرْحٌ وأنتم مناهل

وفيه يقول :

هذا مقامى يا بنى وائلٍ ... من مستجيرٍ بكمُ عائذِ
أَنْشَبَ فيه الدهر أظفارَه ... وعضّه بالنابِ والناجذِ
فأنصفوا منه أخا حُرْمَةٍ ... لاذَ بكمْ منه مع اللائذِ
فما أرى الدهر على جَوْرِهِ ... يَخْرج مِنْ حكمكم النافذِ

وقال أيضاً

يأيها السيد الذى هَدَمَتْ ... أنصارُ أمواله ولَمْ يَهِنِ
فأصْبَحَتْ فى يَدِ الضعيف وذى الــقـوّه والبَاقِلىِّ واللَّسِنِ[1]
غيرى — على أننى مؤملك الــأقدم — سائِلْ بذاك وامتحنِ
مادح عشرين حجة كَمَلاً ... محرومها عنك غير مضطغنِ
فضلك أو عدلك الذى ائتمن الـــله عليه أجَلّ مؤتمنِ
إن كُنت فى الشعر ناقداً فطنا ... فلتعطنى حق حصه الفِطَنِ
وإن أكُن فيه ساقطاً زمناً ... فلتعطنى حق حصه الزَّمِنِ

(١) الباقلى : المنسوب إلى باقل ، وهو مضرب المثل فى العى (م)

سم بِىَ ديوانك الذى عدلت جَدْوَاهُ بين الصحيح والضَّمِنِ(١)
كثر بشخصى مَنِ استطعت من الـــناس فإن لم أَزِنْكَ لم أَشِنِ
ما حَقُّ من لانَ صدره لكَ بالْـــود لقاه بجانبٍ خَشِنِ

وقال أبو العباس الرومى لرجل مدحه فى كلمة :

لابن الرومى

أَبعْدَ لِقاىَ دونك كلَّ قَفرٍ يَدِق الشخصُ فيه أن يُلاقى
وإعمالى إليك به المطايا وقد ضَرَبَ الظلامُ له رِواقا
ورَفْضِى النومَ إلا أن ترانى أعانق واسط الكُور اعتناقا
تسوق بنا الحُداةُ فليس تَدْرِى أشوقًا كان ذلك أَمْ سياقا
أصادف دِرَّةَ المعروف شَكْرَى لَدَيك ولا أذوق لها ذواقا(٢)

يقول فيها :

غَدا يَغْلُو الجيـــاد وكانَ يَغْلُو ـ إذاما استَفْرَه ـ السِّبْتَ الرِّقَاقَا(٣)
أَعنَّتُها الشُّسُوعُ فإنْ عَراها حَفاء السَّكَدِّ أَنعَلها طِراقا(٤)
فزُوِّج بَعْدَ قَفْرٍ منـــه نُعْمَى أرانى اللهُ مُبْحَـــتَهَا الطَّلاقَا

[ترجمة أبى العيناء وطرف من أخباره]

نسب أبى العيناء

قال أبو القاسم علىّ بن حمزة بن شمردل : حدثنى أبى قال : سألتُ أبا العَيْنَاء عن نسبه ، فقال : أنا محمدُ بنُ القاسم بن خلّاد بن ياسر بن سليمان ، وأصْلُ قومى من بنى حنيفة من أهْلِ اليمامة ، ولَحِقَهم سِباء فى أيام المنصور ؛ فلمّا صار ياسر فى قَيْدِهِ أعْتقَه ، فولاؤنا لبنى هَاشم ؛ وكان أبو العيناء ضَرِيرَ البَصَر ؛ ويقال : إنّ جده الأكبر لقِىَ على بنَ أبى طالب ـ رضى الله عنه ! ـ فأساء مُخَاطَبتَه ؛ فدعا عليه وعلى ولده بالعَمَى ، فكلُّ من عمى منهم صحيحُ النسب !

---

(١) الضمن ـ على وزن كتف ـ المريض (٢) شكرى ـ على وزن سكرى ـ ملآنة
(٣) استفره : طلب الفاره القوى من الخيل ، والسبت ـ بكسر السين المهملة ـ جلود البقر ، يريد أنه كان يركب الخيل من الدواب .
(٤) الطراق : جمع طرق ، وهو كل ما يخصف به النعل (م)

بين المتوكل وأبى العيناء

قال الصولى : حدثنى أبو العيناء ، قال : لما أُدْخِلْتُ على المتوكلِ فدعوتُ له وكلمتُه استحسنَ كلامى ، وقال لى : بلغنى أن فيكَ شرًّا ! فقلتُ : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن يكن الشرُّ ذِكْرَ المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته فقد زَكّى الله تعالى وذمّ ، فقال فى التزكية : (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) ، وقال فى الذم : (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) . وقال الشاعر :

إذا أنا لم أمْدَحْ على الخير أهْلَهُ ... ولم أذمُمِ الجِبْسَ اللئيمَ المذمّما[1]

ففيمَ عَرَفْتُ الخيرَ والشرَّ باسْمِهِ ... وشقَّ لىَ اللهُ المسامعَ والفَما ؟

وإن كان الشر كفعل العقْرَب التى تَلْسَعُ السَّنِيَّ والدنِيَّ بطَبْعٍ لا بتمييز فقد صَانَ اللهُ عبدكَ عن ذلك !

فقال لى : بلغنى أنك رَافِضىٌّ ، فقلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، وكيف أكونُ رافضيًّا و بلدى البصْرَة ومَنْشَئى فى مَسْجِد جامِعها ، وأستاذِى الأَصْمَعى ، وليس يَخْلو القومُ أن يكونوا أرادُوا الدين أو الدنْيا ؛ فإن كانوا أرادوا الدِّينَ فقد أجمع الناس على تقديم مَنْ أخّرُوا ، وتأخيرِ من قدموا ، و إن كانوا أرادوا الدنيا فأنتَ وآباؤك أمراء المؤمنين ، لا دِينَ إلاّ بك ، ولا دنيَا إلاّ معك .

قال : كيف ترى دَارِى هذه ؟ قال : قلت : رأيت الناس بَنَوْا دورهم فى الدنيا ، وأنت بنيتَ الدنيا فى دارك .

فقال لى : ما تقول فى عبيدالله بن يحيى ؟ قلت : نِعْمَ العَبْد لله ولك ؛ مقَسَّم بين طاعته وخدمتك ، يؤثِر رِضَاكَ على كل فائدةٍ ، وما عاد بصلاح ملكك على كل لذةٍ

قال : فما تقول فى صاحب البريد ميمون بن إبراهيم ؟ ـ وكان قد علم أنى

---

(١) الجبس : هو الدنىء الجبان ، ويجمع على أجباس ، قال :

ماض إذا الأجباس بعد الكرى ... تناكحت أزواج أحلامها

بواجدٌ عليه بتعصيرٍ وقعَ منه فى أمرى ـ فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، يدٌ تَسْرِق واستٌ تضرط ! وهو مثل اليهوديّ سرق نصف جزيته ، فله إقدامٌ بها أدى ، و إحجام بما أبقى ، إساءتُه طبيعة ، و إحسانه تكلّف !

قال : قد أردْتك لمجالستى ، قلت : لا أطيق ذاك ، وما أقول ذلك جهلاً بمالى فى هذا المجلس من الشرفِ ، ولكنى محجوب ، والمحجوب تختلف عليه الإشارة ، ويَخفَى عليه الإيماء ، ويجوز أن يتكلّم بكلام غضبان ووَجْهك راضٍ أو بكلام راضٍ ووَجْهُك غضبان ، ومتى لم أميز بين هذين هلكت ، قال: صدقت ، ولكن تلزمنا ، قلت : لزومَ الفَرْضِ الواجبِ اللازم ، فوصَلني بعشرة آلاف درهم.

ولأبى العيناء مع المتوكّل مجالس أدْخَلَ الرواة بعضَها فى بعضٍ ، وسأورد مستظرفها إن شاء الله :

قال له المتوكل يوماً : يا أبا العَيناء ؛ لا تُكْثِر الوقيعةَ فى الناس ، قال : إن لى فى بَصَرِى لشغلاً عن الوقيعة فيهم، قال: ذلك أشد لحيفك فى أهل العافية !

وقال له يوماً : هل رأيتَ طالبيا حسنَ الوَجْهِ قطّ؟ فقال : يا أمير المؤمنين، أرأيت أحداً قطّ سأل ضريراً عن هذا ؟ قال : لم تكن ضريراً فيما تقدم ، وإنما سألتُك عما سلف ، قال : نعم ، رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتًى ما رأيت أجمل منه ، قال المتوكّل : تَجِدُه كان مؤاجراً ، وتَجِدُك كنت قوّادا عليه ! فقال أبو العيناء : وفرغت لهذا يا أمير المؤمنين ، أتُرانى أدَعُ موَاليَّ على كَثْرَتِهم ، وأقودُ على الغرَبَاء ؟ قال : اسكتْ يا مأبون؟ قال: مَوْلَى القوم منهم ! قال المتوكل: أردتُ أن أشتفى به منهم فاشتَفى لهم منّى .

وكان أبو العيناء أحدَّ الناسِ خاطراً ، وأحضَرَهم نادرة ، وأسْرَعهم جواباً ، وأبلغهم خطاباً .

المتوكل أول من أظهر الانهماك على شهوته

والمتوكلُ أولُ من أظهرَ من خلفاء بنى العباس الانهماكَ على شهوَته ، وكان أصحابه يتسخَّفون و يستخفون بحضْرَتِه ، وكان يُهَاتِرُ الجلساء ، و يفاخِرِ الرؤساء،

وهو مع ذلك من قلوب الناس مُحَبب ، وإليهم مُقَرَّب ؛ إذْ أماتَ ما أحياهُ الواثق من إظهار الاعتزالِ ، وإقامة سوق الجِدَالِ .

منزلة أبي العيناء في الكتابة

قال محمد بن مكرم الكاتب : مَنْ زعم أن عبدَ الحميد أكْتَبُ من أبي العيناء إذا أحسّ بكرم ، أو شرع في طمع ، فقد ظلم .

كتب إلى أبي عبيد الله بن سليمان وقد نكبه وأباهُ المعتمدُ ، وهما يُطَالَبان بمال يبيعان له ما يَمْلِكَانِه من عَقَارٍ وأثاثٍ وعَبْدٍ وأَمَةٍ ، وقد أعطى بخادمٍ أسْوَد لعبيد الله خمسون ديناراً :

قد علمت ـ أصْلَحك اللهُ ! ـ أن الكريمَ المنكوب أجْرأ على الأحرار من اللئيم الموفور ؛ لأنّ اللئيمَ يزيدُ مع النّعمةِ لُؤماً ، والكريم لايزيدُ مع المِحْنَةِ إلاّ كرماً ، هذامُتَّكِلٌ على رازقه ، وهذايُسيء الظنّ بخالقه ، وعبدك إلى مِلكٍ «كافور» فقيرٌ ، وثمنه على ما اتَّصلَ بي يَسِير ؛ لأنه بخدمته السلطان يعرّفني الرؤساء والإخوان ؛ ولست بواجدٍ ذلك في غيره من الغلمان ؛ فإنْ سمحت به فتلك عَادَتُك ، وإن أمرت بأخْذِ ثمنه فمالُكَ مادَّتي ، أدام الله دَوْلَتَك ، واستقبل بالنعمة نَكْبَتَك . فأمَرَلَهُ به .

وسمع ابن مكرم رجلا يقول : من ذهب بَصَرُه قلت حيلته ، قال : ما أغْفَلك عن أبي العَيْناء !

من أبي العيناء لعبيد الله بن سليمان

وكتب أبو العيناء إلى عبيد الله بن سليمان : أنا — أعزّكَ الله تعالى ! — ووَلَدِي وعيالي زَرْعٌ من زَرعِك ، إن سقيتَه راعَ وزَكا ، وإن جفَوْتَه ذَبُلَ وذَوَى ؛ وقد مسّني مِنْكَ جفَاءٌ بعد برّ ، وإغفالٌ بعد تعاهُد ، حتى تكلّمَ عدوّ ، وشَمِتَ حَاسِدٌ ، ولعبت بي ظنونُ رجالٍ كُنْتُ بهم لاعباً ، ولهم مجرِّساً[1] ، ولله در أبي الأسود في قوله :

لا تُهِنّي بعد إذ أكْرَمْتَني ... وشديدٌ عادةٌ مُنتزَعَه

فوقّع في رقعته : أنا ـ أسعدك الله ! ـ على الحال التي عهِدْتَ ، ومَيْلي إليك كما

---

(١) كنت لهم مجرسا : أي كنت أكثر التسميع بهم (م)

عامت ، وليس من أنسأناه أهملناه ، ولامن أخرناه تركناه ، مع اقتطاع الشغل لنا ، واقتسام زماننا ، وكان من حقك علينا أن تذكرنا بنفسك ، وتعلمنا أمرك ؛ وقد وقعت لك برزق شهرين ؛ لتريح غلتك ، وتعرفنى مبلغ استحقاقك ، لأطلق لك باقى أرزاقك ، إن شاء الله ، والسلام .

وكان إذا خرج من داره يقول : اللهم إنى أعوذ بك من الركب والركب ، والآجر والخشب ، والزوايا والقرب .

قطعة من خطابه وجوابه :

من أجوبة أبى العيناء

دخل على أبى الصقر بعد ماتأخر عنه ، فقال : ما أخرك عنا ؟ قال : سرق حمارى ، قال : وكيف سرق؟ قال : لم أكن مع اللص فأخبرك ! قال : فلم لم تأتنا على غيره ؟ قال: قعدبى عن الشراء قلة يسارى، وكرهت ذلة المكارى، ومنة العوارى

وزحمه رجل بالجسر على حماره ، فضرب بيديه على أذنى الحمار ، وقال : يا فتى، قل للحمار الذى فوقك يقول : الطريق !

ودخل على إبراهيم بن المدبر ، وعنده الفضل بن اليزيدى ، وهو يلقى على ابنه مسائل من النحو ، فقال : فى أى باب هذا ؟ قال : فى باب الفاعل والمفعول به ، قال : هـذا بابى و باب الوالدة حفظها الله ! فغضب الفضل وانصرف ؛ وكان البحترى حاضراً فكتب بعد ذلك بقصيدته إلى إبراهيم بن المدبر التى أولها :

ذكرتنيك روحة للشمول أوقدت لوعتى وهاجت غليلى

أى شىء ألهاك عن سر من را ء وظل للعيش فيها ظليل[1]

وفيها يقول :

أفتصاراً على أحاديث فضل وهو مستكره كثير الفضول

فعلام اصطفيت منكسف البا ل معاد المخراق نزر القبول[2]

---

(١) سر من راء : هى مدينة سر من رأى

(٢) فى ديوان البحترى « فعلام اصطفيت منكسف الزيف » (م)

إن تَزره تَجِدْه أخلق من شَيْـبِ الغَوانى ومن تَعَفِّى الطُّلول
مُسْرِجاً ملجِماً وما مَتَعَ الصُّبْحِ ادلاجاً للشَّحْذِ والتَّطفيلِ (١)
غَـيْرَ أنَّ المعلمين على حالِ قليلو التمييز ضَعْفَى العُقولِ
فإذا ما تَذاكَرَ النَّاسُ معنى مِنْ متبنِ الأشعار والمجهول
قال : هـذا لَنَا ونحن كشفنا غَيْبَه للسّؤال والمسئول
ضرب الأَصمعىُّ فيهم أَم الأحمـر أم ألقحوا بأير الخَليل (٢)
جُـلّ ما عنده التردد فى الفاعلِ مِنْ وَالِدَيْهِ والمَفْعُولِ

تعزيةأبىالعيناء لبعض الأمراء

وعَزَّى بَعْضَ الأمراء ، فقال : أيُّها الأمير ؛ كان العزاء لك لا بك ، والفناءُ لنا لا لك ، وإذا كنتَ البقيّةَ فالرزيَّةُ عطية ، والتعزيةُ تَهْنِية .

سؤاله عن مالك بن طوق

وسئل أبو العيناء عن مالك بن طَوْق ، فقال : لوكان فى زَمَنِ بنى إسرائيل ونَزَل ذَبْحُ البقرة ما ذُبِحَ غيره ! قيل : فأخوه عمر ؟ قال : كسَرَابٍ بِقيعَةٍ يَحْسَبُه الظَّمْـآنُ ماءً حتى إذا جاءَهُ لم يَجِدْهُ شيئا .

سؤاله عن موسى بن عبد الملك

وكان موسى بن عبد الملك قد اغتال نجاح بن سلمة فى شراب شَرِبه عنده ، فقال المتوكّلُ بعد ذلك لأَبى العيناء : ماتقول فى نجاح بن سلمة ؟ قال : ما قال الله تعالى : فوكَزَه موسَى فقَضَى عليه ! فاتَّصَل ذلك بموسى ، فلقى الوزير عُبيد الله ابن يحيى ابن خاقان ، فقال : أيّها الوزير ، أرَدْتَ قتْلِى فلم تَجِدْ إلى ذلك سبيلا إلاّ بإدخال أبى العيناء إلى أمـير المؤمنين مع عَدَاوته لى ؛ فعاتب عبيدُ الله أبَا العيناء فى ذلك ، فقال : والله ما استَعْذَبتُ الوقيعةَ فيه حتى ذَمَمْتُ سريرته لك ؛ فأَمْسَك عنه .

ثم دخل بَعْدَ ذلك أبو العَيْنَاء على المتوكل فقال : كيف كنتَ بعدُ ؟ قال : فى أَحوالٍ مختلفة : خَيْرُها رُؤْيتك وشرُّها غَيْبَتك ، فقال : قد واللهِ اشْتَقْتُكَ !

---

(١) متع الصبح : ظهر ، والشحذ والتطفيل : التسول والسؤال
(٢) الأحمر : هو خلف الأحمر

قال : إنمـا يَشْتَاقُ العَبْدُ ؛ لأنه يتعذّرُ عليه لقاء مولاه ، وأما السيّدُ فتى أراد عَبْدَه دعاه .

وقال له المتوكل : مَنْ أسْخَى مَنْ رأيت ؟ قال : ابنُ أبى دُوَاد ، قال المتوكّل : تأتى إلى رجل رفضته فتنسبه إلى السخاء ؟ قال : إنّ الصدقَ يا أميرَ المؤمنين ليس فى موضع من المواضع أنْفَق منه فى مجلسك ؛ و إنّ الناس يغلطون فيمن يَنْسبونَه إلى الجود ؛ لأنّ سخاء البرامكة منسوبٌ إلى الرشيد ، وسخاء الفضل والحسن ابنى سَهْل منسوبٌ إلى المأمون ، وجودُ ابن أبى دُواد منسوبٌ إلى المعتصم ؛ فإذا نَسَب الناسُ الفَتْحَ وعبيد الله ابنى يحيى إلى السخاء فذلك سَخَاؤُك يا أَميرَ المؤمنين ، قال : صدقت ؛ فمن أبْخَلُ من رأيت ؟ قال : موسى بن عبد الملك ، قال : وما رأيتَ من بُخْله ؟ قال : رأيته يَحْرِم القريب كما يَحْرِم البعيد ، ويَعْتَذِر من الإحسان كما يعتذِرُ من الإساءة ، فقال له : قد وَقَعْتَ فيـه عندى مرتين ، وما أحبّ لك ذلك ؛ فالْقَهُ واعتذر إليه ، ولا يعلم أنّى وجهت بك ، قال : يا أمير المؤمنين ، من يستكتمنى بحضرة ألف ؟ قال : لن تخاف ، قال : على الاحتراس من الخوف .

فصار إلى موسى فاعتذر كلٌّ واحد منهما إلى صاحبه ، وافترقا عن صلح ؛ فلقيه بعد ذلك بالجعفرى ، فقال : يا أبا عبد الله ، قد اصطلحنا ، فمالك لا تأتينا ؟ قال : أتريد أن تقتلَني كما قتلت نفْساً بالأمس ؟ فقال موسى : ما أرانا إلا كما كُنا .

وقال له المتوكل : إبراهيم بن نوح النصرانى وَاجِدٌ عليك ، قال : ولن تَرْضَى عنك اليهودُ ولا النصارى حتى تتّبع ملّتهم ! قال : إن جماعة من الكتاب يلومونك ! فقال :

إذا رضِيَتْ عَنّى كِرَامُ عشيرتى فلا زال غَضْبَاناً علىّ لِئَامها

قال المتوكل له : أكان أبوك فى البلاغة مِثْلَكَ ؟ قال : لو رأى أمير المؤمنين أبى لرأى عَبْدًا له لا يَرْضَانى عبداً له .

وقيل لأبى العيناء : إن المتوكل قال : لولا أنّه ضرير البصر لنادَمْتُه ، فقال: إن أعفانى من رُؤْية الأهلّة ، وقراءة نَقْشِ الفصوص ، فأنا أصْلُح للمنادمة .

ولقيه رجلٌ من إخوانه فى السَّحَر ، فجعل يُعْجَبُ من بُكوره ، فقال : أراكَ تشاركنى فى الفعل وتُفرِدُنى بالتعجّب !

ووقف به رجلٌ من العامّة فأحَسَّ به ، فقال : مَنْ هذا ؟ قال : رجل من بنى آدم ! قال : مرحباً بك ، أطال الله بقاك ! و بقيت فى الدنيا ، ماظننتُ هذا النَّسْل إلاقد انقطع !

ودخل على عبيد الله بن سليمان فقال : أقْرُبْ منّى يا أبا عبد الله ، فقال : أعزَّ الله الوزير ، تقريبُ الأولياء ، وحِرْمانُ الأعداء ، قال : تقريبُك غُنْمٌ ، وحِرْمانك ظُلْمٌ ؛ وأنا ناظرٌ فى أمرك نظراً يُصْلِحُ مِنْ حالك إن شاء الله .

وقال له يوماً : اعذرنى فإنّى مشغول ، فقال له : إذا فرغت من شغلك لم نحتَجْ إليك ، وأنشده :

فلا تَعْتَذِرْ بالشُّغْلِ عنّا ؛ فإنّما تُناطُ بكَ الأمالُ ما اتَّصَلَ الشُّغْلُ

ثم قال: ياسَيِّدى قد عذرتك، فإنه لايَصْلُحُ لشُكْرِكَ مَنْ لايَصْلُح لعُذْرِك.

وأقبل إليه يوما فقال : مِنْ أينَ يا أبا عبدِ الله ؟ قال : من مَطَارِحِ الجَفَاء !

وقال له مرة : نحن فى العطلة مَرْحُومُون ، وفى الوزارة محرومون ، وفى القيامةِ كلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ رَهِينة .

وسار يوماً إلى باب صاعد بن مخلد ، فقيل : هومشغولٌ يُصَلِّى ، قال : لكلِّ جديدٍ لذّةٌ ! وكان صاعدٌ نصرانيا قبلَ الوزارة .

ودخل إلى عبيد الله بن سليمان ، فشكا إليه حالَه ، فقال : أليسَ قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبِّر ؟ فقال : كتبتَ إلى رجلٍ قد قصَّرَ من همَّتِه طولُ الفقْر ، وذُلّ الأسْر ، ومعاناةُ مِحَنِ الدَّهْرِ ، فأخفقته فى طَلِبَتى ! قال : أنْتَ اخترْتَه ؟ قال : وماعلىّ ــ أعزَّالله الوزير! ــ فى ذلك ؟ قد اختار موسى قومه سَبْعِينَ

جلا ، فما كان منهم رَشيد ، واختار النبيّ صلى الله عليه وسلم ابنَ أبى سَرْحٍ كاتباً ، فرجع إلى المشركين مرتدًّا ، واختار علىّ بن أبى طالب أبا موسى حاكما ه فحكَمَ عليه !

[إبراهيم بن المدبر]

وكان إبراهم بن المدبر أسَرَهُ صاحبُ الزّنج بالبصْرَة وحبَسه ؛ فاحتال حتى نقب السِّجْن وهرَب ، فلذلك ذكر أبو العيناء ذُلّ الأسْر ، وكان قد ضُرِب فى وجهه ضَرْبَةً بَقِى أثرها إلى أنْ مات ؛ ولذلك قال البحترى :

للبحترى فى ابن المدبر

ومُبِينَة شَهَرَ المنازِلُ وَسْمَها	والخيلُ تَكْبُو فى العجاجِ الكابى
كانت بوجهك دون عِرْضك إذ رأَوْا	أنّ الوُجــوهَ تُصانُ بالأحْساب
ولئن أُسِرت فما الإسارُ على امرئ	نَصَرَ الإسارَ على القرار بعاب(١)
نامَ المضلّل عن سُراكَ ولم تَخَفْ	عَيْنَ الرقيب وقَسْوَةَ البوّابِ
فركبتها هَوْلاً متى تُخْبِرْ بها	يَقُلِ الجَبانُ : أتيت غَيْر صَوابِ
ما راعَهُمْ إلا استراقُكَ مُصْلَتاً	فى مِثْلِ بُرد الأرْقَمِ المُنْسابِ(٢)
تَحْمِى أُغَيلمةً وطائشة الخطى	تصل التَّلَفُّتَ خَشْيَةَ الطّلّاب
قد كان يوم ندى بِطَوْلِك باهراً	حتى أضفت إليه يَوْمَ ضِراب(٣)
ذِكْرٌ من البأس استعذت إلى الّذى	أُعْطِيت فى الأخلاقِ والآدابِ
ووحيدة أنتَ انفَرَدْتَ بِفَضْلِها	لولاكَ ما كُتبت على الكُتّاب

[حديث صاحب الزنج ، ودعواه ، وبطلانها]

قال أبو بكر الصولى : حدثنى محمد بن أبى الأزهر ، وقد ذاكرتُه خبرَ على صاحب الزنج ، قال : ادّعى أنه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على

---

(١) العاب : العيب (٢) المصلت : السيف ، والأرقم : الحية
(٣) الضراب : الطعان

ابن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فنظرتُ مولده ومولد محمد ابن أحمد الذى ادعاه فكان بينهما ثلاث سنين ، وكان لمحمد بن أحمد ولدٌ اسمه على مات بعد هذا المدعى اسمَه ونسبَه بزمانٍ . ثم رجع عن هذا النسب فادَّعى أنه على بن محمد بن عبــد الرحيم بن رحيب بن يحيى المقتول بخُراسان ابن زيد بن على .

قال أبو عبيدة محمد بن علىّ بن حمزة : ولم يكن ليحيى وَلَد يقال له رحيب ولا غيره ؛ لأنَّه قُتل ابنَ ثمانى عشرة سنةً ولا وَلَدَ له .

قال بشر بن محمدبن السَّرِىِّ بن عبد الرحمن بن رحيب : هو ابن عم أبى لَحًّا على بن محمد بن عبد الرحمن بن رحيب ، ورحيب رجل من العجم من أهل وَرتين من ضياع الرىّ ، وهو القائل لبنى العباس :

بنى عمنا إنا وأنتم أناملٌ ... تضمنها من راحتَيْها عُقودُها
بنى عمِّنا وَلَّيتُم الترك أمْرَنا ... ونحن قديمًا أصلُها وعمودُها
فما بالُ عُجْم الترك تقسم فَيْئَنَا ... ونحن لديها فى البلادِ شُهودُها
فأقسم لاذُقْت القَراح وإن أذُقْ ... فبُلْغَةَ عَيْشٍ أو يُبَادَ عميدُها[1]

وقال أيضاً :

لَهْفَ نفسى على قصورٍ ببغدا ... دَ وما قد حوَتْهُ مِنْ كلِّ عاصٍ
وخُمورٍ هُناك تُشْرَبُ جَهْرًا ... ورجالٍ على المعاصى حِراصِ
لستُ بابْنِ الفواطِمِ الزُّهْرِ إنْ لمْ ... أُقْحِم الخَيْلَ بين تلكَ العِراصِ

وله فى هذا المعنى شعرٌ كثير قد ناقضَه البغداديون ، وكانت مدّتُه حين نَجَم إلى أن قتل أربعَ عشرةَ سنةً ، وجملة مَنْ قتل ألفُ ألفٍ وخمسمائة ألف .

(١) البلغة ـ بضم الباء وسكون اللام ـ مايتبلغ به

[عَوْدٌ إلى مدح أبى العيناء]

وذكر أبو العيناء رجلا ، فقال : ضَحِكٌ كالبكاء ، وتودّد كالعزاء ، ونوادر كنَدْب الموتى !

وكان يُهاتِر ابن مكرم كثيراً ، وكتب إليه ابنُ مكرمٍ يوماً : قد ابتَعْتُ لك غلاماً من بنى ناشر ، ثم من بنى نَاعِظ ، ثم من بنى نهد . فكتب إليه : فأتنا بما تَعِدُنَا إن كُنتَ من الصادقين .

ووُلد لأبى العيناء وَلد ، فأتى ابنُ مكرمٍ فسلم عليه ، ووضع حجراً بين يديه وانصرف ، فأحس به ، فقال : مَنْ وضع هذا ؟ فقيل : ابن مكرم ، قال : لعنه الله! إنما عرَّض بقول النبى صلى الله عليه وسلم : الولَدُ للفراش وللعاهر الحجر .

وقال لابن مكرم ، وقد قدم من سفر : مالك لم تُهْدِ إلينا هديةً ؟ قال : لم آتِ بشىء ، وإنما قدمت فى خف . قال : لو قدمت فى خف لخلَّفتَ رُوحَكَ !

وأتى إلى باب إبراهيم بن رياح ، فحُجب ، فقال : إذا شغل بكأس يمناه وبحر يُسْراه ، وانتسب إلى أبٍ لا يعرف أباه ، لا يَحْفِل بحِجاب مَنْ أتاه .

وقدّم إليه أبو عيسى بن المتوكل سِكْباحة ، فجعل لا تقعُ يدهُ إلا على عظم ؛ فقال : جعلت فِدَاك ! هذه قِدر أو قبر ؟.

ودعا ضريراً ليعشيه ، فلم يَدَعْ شيئاً إلا أكله ، فقال : ياهذا ، دعوتك رحمةً فتَرَكتَنِى رحمة .

قد تم — بحول الله وقوته ، وحسن معونته — الجزء الأول من كتاب « زهر الآداب ، وثمر الألباب » لأبن إسحاق الحصْرى ، ويليه — إن شاء الله تعالى — الجزء الثانى ، مفتتحاً بقول المصنف « ألفاظ لأهل العصر فى صفات الطعام ومقدماته ، ومَوَائده وآلاته » نسأل الله — جلت قدرته ! — أن يعين على إكماله ، إنه ولى ذلك .

فهرست الجزء الأول

من كتاب زهر الآداب

صفحة الموضوع

صفحة الموضوع

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع

تمت فهرس الجزء الأول من « زهر الآداب » والحمد لله أولا وآخرا
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه

زهر الآداب



زهر الآداب

وثمر الألباب

لأبي إسحاق إبراهيم بن علي ، الحصري ، القيرواني ، المتوفى في عام ٤٥٣ من الهجر

مفصل ومضبوط ومشروح بقلم المرحوم

الدكتور زكي مبارك

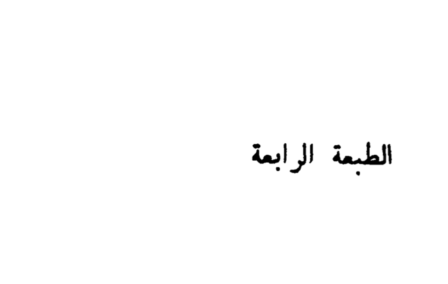
الجزء الثاني

دار الجيل

للنشر والتوزيع والطباعة

بيروت - لبنان

ص. ب. ٨٧٣٧



الطبعة الرابعة

ألفاظ لأهل العصر فى صفات الطعام
ومقدماته ، وموائده ، وآلاته

أفْرِشْ طعامَك اسم الله ، وألْحِفْهُ حمدَ الله . لا يَطِيبُ حضور الخِوان ، إلاّ مع الإخوان . البخْلُ بالطَّعام ، من أخلاق الطَّغَام . الكريم لا يَحْظُر ، تقديمَ ما يَحْضُر . قد قامت خطباء القدور . قدورٌ أبكار ، بخواتم النَّار . قِدْرٌ طار عَرْفُها ، وطاب غرْفُها . دَهْمَاءُ تَهْدِرُ كالفَنِيقِ (١) ، وتَفُوحُ كالمِسْكِ الفَتِيقِ . مائدة كدَارَةِ البَدْر ، تباعد بين أنفاس الجلاَّس . مائدة مثلُ عروس . مائدة لطيفة ، محفوفةٌ بكل طَرِيفة . مائدة تشتمل على بدائع المأكولات ، وغرائب الطيِّبات . مائدةٌ كأنما عملها صُنَّاع صنعاء ، تجمع بين أنوار (٢) الربيع ، وثِمَارِ الخريف .

وقال الجماز : جاءنا فلان بمائدةٍ كأنها زَمَنُ البرامكةِ على العُفَاة !

وذَمَّ آخر رجلا فقال : لا يَحْضُرُ مائدتَه إلا أكرمُ الخَلْق وألأمهم ـ يريد الملائكةَ والذُّبَاب .

وقال ابن الحجاج لرجل دعاه وأخَّر الطعام :

قد جُنَّ أصحابك من جُوعِهِمْ ... فاقرَأ عليهم سورةَ المائِدَه

ولبعض أهل العصر يذم رجلا :

خِوَانٌ لا يُلِمُّ به ضُيوفٌ ... وعِرْضٌ مثل مِنْدِيل الخِوَانِ

رُغْفَانٌ كالبدور المنطقة بالنجوم . حَمَلٌ ذهبيّ الدِّثار ، فِضِّيُّ الشعار . أطْيَبُ ما يكون الحَمَلُ ، إذا حلَّت الشمس الحَمَل (٣) . جَدْى كأنما نُدِف على جَبينه القزّ . زِيرْبَاجة ، هى للمائدة دِيباجة ، تَشْفِى السِّقام ، ولونها لونُ السقيم . سِكْبَاجة تفتق

---

(١) الفنيق : الفحل الهائج (٢) فى الأصل « أنواع » وهو تحريف .
(٣) الحمل الأول : الصغير أولاد الضأن ، والحمل الثانى : برج فى السماء (م)

الشهوة ، واسفيذباجة تُغَذِّى القرم[١] ، وطَباهِجَة يُتفكَّه بها ، وخَبِيص يختم بخير. طَبَاهِجَة من شرط الملوك ، كأَعْرَافِ الديوك ، وقَلِيَّة كالعود المُطرَّى. مغمومة تفرج غَمَّ الجائع . هريسة نَفِيسة ، كأنها خيوط قزّ مشتبكة ، كأنّ المُرِّى[٢] عليها عُصَارَةُ المسك على سبيكة الفضة . أرزة مَلْبونة ، فى السكر مدفونة . شواء رشراش[٣] وفالوذج رَجْرَاج[٤] . طبَاهِجَة تغذى ، وفالودجة تعزى ، واسفيذباجة تصفع قفَا الجوع[٥] . لا فِراشَ للنبيذ ، كالحَمَل الحنيذ[٦] . دجاجة سميطة ، لها من الفضة جسم ، ومن الذهب قشرة . دجاجة دِينارِيَّة ثمنا ولونا .

لابن الرومى فى وصف طعام

وهذا محلول من قول على بن العباس الرومى يصف طعاماً أكله عند أبى بكر الباقطانى :

وسَمِيطة صفراء دينـــارية	ثمناً ولَوْناً زَفَّها لَكَ حَزْوَرُ[٧]
عظمت فكادَتْ أن تكونَ أوزَّةً	وغلت فكاد إهَابُهـــا يتفطَّرُ
طفقت تجودُ بذَوْبِها جَوْذَابَة	فأتى لباب اللَّوز فيها السكَّرُ
ظَلْنَا نقشِّر جِلْدَها عن لحمهـــا	فكانّ تِبْراً عن لُجَيْنٍ يُقْشَرُ
وتقَدَّمَتْهَا قبـــل ذاكَ ثَرائدٌ	مثل الرِّيَاضِ بمثل ذاك تُصَدَّرُ
ومرقّقـات كلُّهُنَّ مزخرفٌ	بالبيض منهـــا مُلْبَس ومُدَثَّرُ
وأَتَتْ قطائِفُ بَعْدَ ذاكَ لطائفٌ	تَرْضَى اللَّهَاةُ بها ويَرْضى الخُنْجَرُ
ضحك الوجوه من الطبرزد فوقها	دمع العيان مِنَ الدّهان يُعَصَّرُ

---

(١) فى نسخة « تغزو القرم » والقرم : شديد الشهوة إلى أكل اللحم (م)

(٢) المرى : ضرب من الإدام (م)

(٣) الشواء : اللحم المشوى، ورشراش: سمين (م) (٤) من كلام أبى بكر الخوارزمى

(٥) تلك أسماء الأطعمة التى كان يعرفها العرب لعهد الدولة العباسية ، وأكثرها أسماء فارسية تغيب عنا مسمياتها الآن ؛ لأن للأطعمة اليوم أسماء جديدة أكثرها تركية وفرنسية (٦) الحنيذ : المشوى (م) (٧) الحزور: السريع إلى إكرام الضيف .

مقامة لبديع الزمان فيها وصف طعام

قال البديع : حدثني عيسى بن هشام قال : اشْتَهَيْتُ الأَزَاذَ، وأنا ببَغْدَاذَ[1]، وليس مَعِي عَقْد ، عَلَى نَقْد[2]، فخرجتُ أَنْتَهِزُ مَحالَّه ، حتى أحَلَّنِي الكَرْخَ[3] ؛ فإذا أنا بسَوَادِيٍّ يَحْدُو بالجَهْدِ حمارَه ، ويُطَرِّفُ بالعَقْدِ إزارَه[4] ؛ فقلتُ : ظَفِرْنَا والله بصَيْدٍ ، وحَيَّاكَ اللهُ أبا زَيْد ! مِنْ أَيْنَ أقبلْتَ ؟ وأَيْنَ نزلْتَ ؟ ومتى وافَيْتَ ، فهَلُمَّ إلى البيتِ . فقال السَّوَادِي : لستُ بأبي زيد ، وإنما أبو عُبَيْد ! فقلتُ : نعم لَعَنَ اللهُ الشيطانَ ، وأبْعَدَ النِّسيانَ ، أنْسَاني طُولُ العَهْدِ بِكَ ، كَيْفَ أبوكَ ، أشَابٌّ كَعَهْدِي ، أمْ شَابَ بَعْدِي؟[5] قَالَ : قد نَبَتَ المَرْعَى على دِمْنَتِه[6] ، وأرجو أن يُصَيِّرَه اللهُ إلى جَنَّتِه ، فقُلْتُ : إنّا للهِ ، ولا قوة إلا بالله ، ومددت يدَ البِدار ، إلى الصِّدَار[7] أريد تمزيقه ، وأحاول تخريقه[8] فقبض السواديّ على خَصْري بجُمْعِه[9]؛ وقال : نَشَدْتُكَ بالله لامزَّقْتَه ، فقلت : فهلم إلى البيت نُصِبْ غداء ، أو إلى السوق نشتري شِوَاءً ؛ والسوقُ أقرب ، وطعامه

(١) الأزاد : من أجود أنواع التمر ، وبغداذ : هي بغداد

(٢) ليس معي عقد على نقد : أي ليس معي نقود يعقد عليها الكيس والثوب

(٣) المحال : جمع محل ، والكرخ : من الجانب الغربي من بغداد

(٤) السوادي : الرجل من قرى العراق ، نسبة إلى السواد، وسمي العراق سواداً لاكتساء أرضه بالخضرة ، ومعنى «يطرف بالعقد إزاره» أي يرد أحد طرفيه إلى الآخر

(٥) كعهدي : أي كعهدي به حين عرفته

(٦) الدمنة : آثار الديار ، ولا ينبت الربيع على الدمنة إلا حين يبعد عهدها بالخراب ، يريد أن أباه مات منذ زمن طويل .

(٧) البدار : المسارعة ، والصدار : قميص صغير يلي البدن

(٨) يريد أنه هم بتمزيق ثوبه من الحزن

(٩) جمع الكف ـ بضم الجيم ـ قبضته

أطيب ، فاستفزّته حُمَةُ القَرَم[١] ، وعطفَتْه عطفة النّهم ، وطَمِع ، ولم يعلم أنه وقع ، ثم أتيت شَوّاء يتقاطرُ شِوَاؤُه عَرَقاً ، ويتسايل جُوذابُه مرقاً[٢] ، فقلت : أفرِز لأبي زيد من هذا الشواء ، ثم زِنْ له من تلك الحَلْوَاء ، واختر من تلك الأطباق ، ونضّد عليها أوراقَ الرقاق ، وشيئا من ماء السُّمّاق[٣] ؛ ليأكله أبو زيد هنيا . فانحى الشّوّاء بساطُوره[٤] ، على زُبْدَة تَنُّوره ، فجعلها كالكحل سَحْقاً ، وكالطحين دَقّا ، ثم جلس وجلست ، ولا نبَس ولا نبست ، حتى استوفيناه . وقلت لصاحب الحلواء : زِنْ لأبي زيد من اللوزِينج رطلين[٥] ، فإنه أجرى فى الحلوق ، وأسْرَى فى العروق ، وليكن ليليّ العُمْر ، يوميّ النَّشْر[٦] ، رقيق القِشْر ، كثيف الحَشو ، لؤلؤيّ الدهن ، كوكبي اللون ، يذوب كالصَّمْغ ، قبل المَضْغ ، ليأكُلَه أبو زيد هنيّا . فوزنه ، ثم قعد وقعدتُ ، وجرّدَ وجرّدت[٧] . واستوفيناه ، ثم قلت : يا أبا زيد ، ما أحوجنا إلى ماء يُشَعْشَع بالثلج ، ليقمَع هذه الصّارة[٨] ، ويَفْثَأ هذه اللُّقَم الحارة[٩] ؛ اجلسْ أبا زيد حتى آتيك بسقّاء ، يُحْيِينا بشَرْبَة من ماء ، ثم خرجت ، وجلست بحيث أراه ولا يراني ، أنظر ما يُصْنع به . فلما أبطأتُ عليه قام السّوَاديّ إلى حماره ، فاعتلق الشّوّاء بإزاره .

---

(١) الحمة : إبرة العقرب يلسع بها من يلمسه ، والقرم : شدة الشهوة إلى اللحم

(٢) الجوذاب : خبز يوضع فى التنورة ومعه طائر أو لحم

(٣) السماق : حب أحمر صغير شديد الحموضة ، شجره يشبه الرمان

(٤) الساطور : آلة يقطع بها الجزار اللحم

(٥) اللوزينج : نوع من الحلواء يصنع من نوع من الخبز يسقى بدهن اللوز ، ويحشى بالجوز .

(٦) ليلى العمر : صنع من ليلته ، ويومى النشر : نشر فى يومه

(٧) جرد وجردت : يريد أن كلا منهما جرد يده من ثيابه استعداداً للمائدة

(٨) الصارة العطش

(٩) يفثأ : يسكن

وقال : أين ثمنُ ما أكلتَ ؟ قال : ما أكلته إلا ضيفا ! قال الشوّاء : هاك وآك متى دعوناك ؟ زن يا أخا القحبة عشرين ، وإلا أكلت ثلاثا وتسعين ! فجعل السوادىّ يبكى ويمسح دموعه بأردانه ، ويحُلّ عقدَهُ بأسنانه ، ويقول : كم قلت لذلك القُرَيد ، أنا أبو عبيد ، وهو يقول : أنت أبو زيد ! ؟ فأنشدت :

اعمَل لرزقك كلّ آلَهْ　　لا تقعُدَنّ بذُلّ حالهْ
وانهَضْ بكلّ عزيمةٍ　　فالمرء يَعجزُ لا المَحالةْ[1]

لعلى بن يحيى المنجم

ومن مليح ما قيل فى القطائف قول علىّ بن يحيى بن أبى منصور المنجم :

قطائفٌ قَدْ حُشِيَتْ　　باللَّوْزِ　　والسكرِ الماذِىّ حشْوَ الموزِ[2]
يسبح فى آذِىّ[3] دُهْنِ الجَوْز　　سُرِرْتُ لما وقعَتْ فى حَوْزى
سرور عبّاسٍ بقُرْب فَوْزِ[4]

ومن ألفاظ أهل العصر فى الحلواء : فالوذج بلُبَاب البُرّ ، ولُعابِ النَّحْل ، كأنّ اللوز فيه كواكب دُرّ ، فى سماء عَقيق .

لابن لرومى يصف اللوزينج

ولم يقل أحد فى صفة اللوزينج أحْسن من قول ابن الرومى :

لا يُخطِئَنّى مِنْك لَوْزينَجٌ　　إذا بدا أعْجَبَ أو عجّبا
لو شاء أن يَذْهَبَ فى صَخْرَةٍ　　لسهّل الطِّيبُ له مَذْهَبا
لم تُغلِق الشَّهْوَةُ أبوابها　　إلاّ أبَتْ زُلْفاهُ أنْ يُحْجَبا
يَدور بالنَّفْحَـــة فى جامِهِ　　دَوْراً تَرَى الدُّهْنَ له لَوْلبا[5]

---

(١) قد ترجمنا هذه المقامة الطريفة إلى الفرنسية فى كتابنا
La prose Arabe au IV siécle de l'Hégire

(٢) الماذى : العسل

(٣) الآذى : الموج

(٤) فوز : هى معشوقة العباس بن الأحنف

(٥) اللولب : استدارة الماء

عاوَن فيه مَنظَرٌ مخبَرًا مُستحسَنٌ ساعَدَ مُستعذَبا
مُستكثَفُ الحشْوِ ولكنّه أرقُّ جِلْداً من نسيمِ الصَّبا[١]
كأنما قُدّتْ جلابيبُهُ من نقطة القَطْرِ إذا حَبّبا[٢]
يُخالُ من رِقّةِ خِرْشائه[٣] شاركَ فى الأجنحَة الجُنْدُبا[٤]
لو أنّه صُوِّرَ من خُبْزِه ثغرٌ لكان الواضحَ الأشْنَبا[٥]
من كلِّ بيضاءَ يَوَدُّ الفتى أن يجعلَ الكفَّ لها مَرْكبا
مَدْهُونةٍ زَرْقاءَ مَدْقُوقةٍ[٦] صَهْباءَ تحكى الأزْرَقَ الأشْهَبا
قُرةَ عَيْنٍ[٧] وفَمٍ حُسِّنَتْ وطُيِّبت حتى صَبا مَنْ صَبا
ديف له اللوزُ ؛ فما مُرّةٌ مَرَّتْ على الذائق إلا أَبَى[٨]
وانتَقَدَ السُّكَّرَ نُقّادُهُ وشاوَرُوا فى نَقْدِه المذهبا
فلا إذا العَيْنُ رَأَتْه نَبَتْ ولا إذا الضِّرْسُ عَلاه نَبا
لا تُنكِروا الإدْلالَ من وامِق وَجَّه تلقاءَكُمُ المَطْلَبا

هذه الأبيات يقولها فى قصيدة طويلة يمدح فيها أبا العباس أحمد بن محمد ابن عبد الله بن بشر المرثدى ، ويهنيه بابن ولده ، وأولها :

شمسٌ وبدرٌ وَلَدَا كَوْكبا أقْسَمْتُ باللهِ لَقَدْ أنْجَبا

قال أبو عثمان سعيد بن محمد الناجم : دخلت على أبى الحسن وهو يعمل هذه

---

(١) رواية الديوان « أرق قشرا »
(٢) حبب : صار ذا حبب ، بالتحريك . ورواية الديوان « من أعين القطر الذى قببا » وفى رواية أخرى « طنبا »
(٣) الخرشاء : الجلدة الرقيقة (٤) الجندب : الجراد
(٥) الأشنب : من الشنب ــ بالتحريك ــ وهو رقة وبرد وعذوبة فى الأسنان
(٦) كذا فى الأصل. وفى الديوان « مدفونة » (٧) رواية الديوان «ملذعين»
(٨) يريد أن صانع اللوزينج كان يختبر اللوز ليطرح منه ما يجد فيه مرارة

القصيدة ، فقلت : لو تفاءلت فيها لأبى العباس بسبعة من الولد ؛ لأن أبا العباس منكوساً سابعٌ ، لجاء المعنى ظريفاً ، فقال :

وقد تفاءَلْتُ له زاجِراً كُنْيَته ، لا زاجِراً ثَعْلبا
إنّى تأمّلْتُ له كُنْيَةً إذا بدا مَقلوبُها أعْجَبا
يَضُوعُها العكسُ أبا سابعٍ لا كَذَّب اللهُ ولا خَيَّبا
بل ذاكَ فألٌ ضامِنٌ سَبْعَةً مثلَ الصُّقور استشْرَفتْ مَرْقَبا
يأتون من صُلْبِ فتًى ماجِدٍ وذاكَ فألٌ لم يُعْدْ مَعْطَبا
وقد أتانا منهمُ واحِدٌ فلننتظِرهُمْ سِتَّةً غُيَّبا
فى مُدَّةٍ تَغمرُها نِعمةٌ يجعلُها اللهُ له تُرْتُبا[1]
حتى نراهُ جالساً بينهُمْ أجَلَّ من رَضْوَى ومن كَبْكَبا[2]
كالبدرِ وافَى الأرضَ من نُورِهِ بينَ نجومٍ سبعةٍ فاحْتَبى[3]
ولْيُشكَرِ النَّاجِمُ عن هذهِ فإنّها من بَعضِ ما بَوَّبا
سَدًّى وألحَمْتُ أخٌ لم أزَلْ أشْكُر ما أسْدَى وما سَبَّبا

نهم ابن الرومى وحبه السمك

وكان ابنُ الرومى منهوماً فى المآكل ، وهى التى قتلَتْهُ ، وكان مُعْجَباً بالسمك ، فوعده أبو العباس المرثدى أن يبعثَ إليه كلَّ يوم بوظيفة لا تَنْقَطِع ، فبعث إليه يوم سَبْتٍ ، ثم قطعه ، فقال :

ما لِحيتاننِا جَفَتْنا وأنَّى أخْلَفَ الزائرونَ منتظِريهمْ
جاء فى السَّبت زَوْرُهم فأتينا من حِفَاظٍ عليه ما يَكْفِيهم[4]

---

(١) الترتب ـ على وزن قنفذ وجندب ـ الشىء المقيم الثابت
(٢) رضوى وكبكب : جبلان (م) (٣) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها . وهى جلسة معروفة عند أشراف العرب ـ كذا ، والصواب « فاجتبى » بالجيم ـ أى اختار واجتبى (م) (٤) الزور : الضيف

وجعلناه يوم عيـــد عظيم   فـكأنَّا اليهودُ أو نحْـكيهم
وأراهم مُصَمِّمِينَ على الهَجْـــرِ فَلِمْ يُسْخِطُون مَنْ يُرْضيهم
قد سبَتْنا وما أتتنا وكانُوا   يوم لا يَسْبِتُون لا تأتيهم

من الناجم إلى ابن الرومى

فاتَّصل ذلك بالناجم ، فـكتب إلى ابن الرومى :

أبا حسنٍ أنتَ مَنْ لا تزا   لُ تَحْمَدُ فى الفضْلِ رُجْحانَهُ
فـكم تُحْسِنُ الظنّ بالمرتدىً   وقد قلَّلَ اللهُ إحسانَهُ
ألم تَدْرِ أنَّ الفتى كالسَّرَابِ   إذا وَعَدَ الوَعْدَ إخوانَهُ
فبَحْرُ السراب يَفُوتُ الطَّلوبَ   فقُـلْ فى طِلابك حيتانَهُ

لابن الرومى يصف العنب الرازقى

وخرج ابنُ الرومى إلى بعض المتنزهات وقصـدوا كَرْما رازِقيًّا ، فشر[illegible] هناكَ عامَّةَ يومهم ، وكانوا يتهمونه فى شِعْره ، فقالوا : إن كان ما تُنْشِدنا له[illegible] قُلْ فى هذا شيئاً ، فقال : لا تَرِيموا حتى أقول فيه ، وأنشدهم لوقته :

ورازقىّ مُخْطَفِ الخصُورِ   كأنه مَخَازِنُ البلُّورِ
قد ضُمِّنت مِسْكاً إلى الشطور   وفى الأعالى ماء وَرْدٍ جُورِى[1]
بلا فَرِيد وبلا شُذُورِ   له مَذاقُ العَسَلِ المَشُورِ[2]
وبَرْدُ مَسِّ الخَصِر المَقْرورِ   ونَـكْهَة المِسْك مع الكافورِ[3]
ورقَّة الماء على الصـــدورِ   باكَرْتُه والطَّيْرُ فى الوُكُورِ
بفِتْيَةٍ من وَلَدِ المنصـــورِ   أمـــلَا للعَيْنِ من البدُورِ
حتى أتَيْنا خَيْمَةَ النَّاطور   قبل ارتفاعِ الشمسِ للذُّرُورِ[4]

---

(١) جورى : نسبة إلى جور ، وهى مدينة فيروزاباد
(٢) من «شارالعسل يشوره» أى جناه
(٣) من الخصر ـ بالتحريك ـ وهو البرد ، والقر ـ بالضم ـ ومعناه البرد أيـ[illegible]
(٤) الذرور : الطلوع ، والناطور : حافظ الكرم والنخل

فانحطّ كالطّاوى من الصُّقُور بطاعةِ الرّاغِبِ لا المقْهُورِ
والحرُّ عَبْدُ الحلَبِ المشطورِ حتى أتانا بِضُروعِ حُورِ (١)
مملوءةٍ من عَسَلٍ محصورِ والطّلُّ مثل اللؤلؤ المنثورِ
ثمّ جلَسْنا جِلْسَةَ المحبورِ بين حِفافَىْ جَدْوَل مَسْجورِ (٢)
أبيض مثل المُهْرَق المنشورِ أو مثلِ متن المُنصلِ المشهورِ (٣)
يَنْسَابُ مثل الحيَّةِ المذعورِ بَيْنَ سِماطَىْ شَجرٍ مَسْطُورِ (٤)
ناهيك للعقود من ظُهورِ فنيلَت الأوطارُ فى سُرُورِ
وكلُّ ما يُقضَى مِنَ الأُمورِ تَعِلَّةٌ من يَوْمِنا المَنْظُورِ
ومُتْعَةٌ من مُتَعِ الغُرورِ

ألفاظ تناسب هذا النحو لأهل العصر فى صفات الفواكه والثمار

كَرْم نُسْلِفه الماء القَرَاح، ويَقْضِينا أُمّهاتِ الرّاح. عنقود كالثريّا ، وعِنَبٌ كمخازن البلّور ، وضروبِ النُّور ، وأَوعيةِ السرور . أمّهات الرحيق . فى مخازن العَقِيق . نَخْلٌ نُسْلِفه الماء ، و يقضينا العسل. رُطَب كأنها شُهْدة بالعقيق مُقَنَّعة ، و بالعِقْيان مُقمَّعة . رُمّان كأنه صُرَرُ الياقوت الأحمر . سَفرجل يَجْمَع طيباً ، ومنظراً حسناً عجيباً ، كأنه زِئْبِر[٥] الخزّ الأغبر ، على الديباج الأصفر . تفّاحٌ نفّاح[٦] ، يجمع وَصْفَ العاشقِ الوَجِل ، والمعشوق الخَجِل ، له نسيمُ العبير ، وطَعْمُ السكر ، رسولُ المحب ، وشبيه الحبيب . تِين كأنه سُفر مضمومة على عسَل . مشمش كأنه الشّهد فى بيَادِق الذهب .

---

(١) جمع أحور (٢) المحبور : المسرور ، ومسجور : مملوء
(٣) المهرق : الصحيفة (٤) السماط : الصف
(٥) الزئبر ـ بكسر الزاى وسكون الهمزة وكسر الباء الموحدة ـ هو مايظهر من درز الثوب (٦) ينفح بالرائحة العطرة

[بعض ما جاء فى وصف الليل]

قال بعضُ الرواة : أنشدت أعرابيا قولَ جرير بن عطية بن الخَطَفَى :

أَبُدِّلَ الليلُ لا تَسْرِى كواكبُهُ ... أمْ طالَ حتى حسبتَ النجمَ حَيْرَانا

لأعرابى فى صف ليل لقاء

فقال : هذا حسَنٌ فى معناه ، وأعوذ بالله من مثله ؛ ولكنى أنشدك فى ضدّه من قولى ، وأنشدنى :

وليلٍ لم يُقَصِّرْه رُقادٌ ... وقصَّر طولَه وَصْلُ الحبيبِ

نَعيمُ الحبِّ أَوْرَقَ فيه حَتَّى ... تناوَلنا جَناهُ من قريبِ

بمجلس لذَّةٍ لم نَقْوَ فيه ... على شكْوَى ولا عَدِّ الذُّنوبِ

بَخِلْنا أن نقطِّعه بلَفْظٍ ... فتَرْجَمتِ العيونُ عن القلوبِ

لأعرابى يصف وفاءه لصحبه

فقلت له : زدنى ، فما رأيت أظرفَ منك شعراً ؛ فقال : أمّا هذا الباب فحسبك ، ولكن أنشدك من غيره :

وكنتُ إذا علِقْتُ حبالَ قومٍ ... صحبتُهُمُ وَشِيمَتِىَ الوفاءُ

فأُحسِنُ حين يُحْسِنُ محسنوهم ... وأجتنب الإساءة إن أساءوا

أشاء سوى مشيئتهم فآتِى ... مشيئتَهم وأترك ما أشاء

لجرير يصف يوم صيد

قال الأصمعى : قرأتُ على أبى مُحْرِز خلف بن حيّان الأحمر شعرَ جرير ، فلما بلغت إلى قوله :

ويومٍ كإبهامِ القَطاةِ محبَّبٌ ... إلىّ صِباهُ غالبٌ لِىَ باطِلُهْ

رُزِقْنا به الصَّيدَ الغزيرَ ولم نَكُن ... كمَنْ نَبْلُهُ محرومةٌ وحَبائلُهْ

فيالكَ يومٌ خَيْرُه قبلَ شرِّهِ ... تغيّب واشيهِ وأقْصَرَ عاذِلُهْ

فقال خلف : وَيْحَه ! فما ينفعه خيرٌ يؤول إلى شرّ ؟ فقلت له : كذا قرأته على أبى عمرو بن العلاء ، فقال لى : وكذا قال جَرير ، وما كان أبو عمرو ليُقرئك إلاّ ما سمِعَ ، قلت : فكيف كان يَجبُ أن يكونَ ؟ قال : الأجْوَد أن

يقولَ : خيرُهُ دون شرِّه ، فَأرْوِه كذلك ، فقد كانت الرواةُ قديما تُصْلِحُ أشعارَ الأوائل ، فقلت : والله لا أرويه بعدها إلاَّ كذا .

لإبراهيم بن العباس يصف قصر الليل

ومن أجود ما قيل فى قِصَرِ الليل قول إبراهيم بن العباس :

وليلةٍ من الليـــالى الغُرِّ قابلتُ فيهــا بَدْرَها ببَدْرِى
لم تكُ غـــير شفقٍ وفَجْرٍ حتى تقَضَّت وهى بِكْرُ الدَّهْر

للأصبهانى يصف يوم لهو

وقال محمد بن أحمد الأصبهانى فيما يتعلق بهذا المعنى و إن كان فى ذكر النهار :

كيف يُرْجَى لمقلتىَّ هُـــدُوّ ورُقادى لطَرْفِ عَيْنِى عَـدُوُّ
بأَبِى مَنْ نَعِمْتُ منـه بيَوْمٍ لم يَزَلْ للسرورِ فيـه نُمُوُّ
يوم لهْوٍ قَدِ الْتَقَى طَــرفاهُ فكأنَّ العشىَّ فيـــه غُدُوُّ
إذْ لشَخْصِ الرقيب فيـه تَنَاءٍ ولبَدْرِ السَّماء مِـــنِّى دُنُوُّ

لابن المعتز يصف ليل سرور

وقال ابن المعتز :

يا رب ليـلٍ سَحَـرٌ كلّهُ مفتضَح البَدْرِ عَليل النَّسيمْ
تلتقطُ الأنفاسُ بَرْد النَّدَى فيه فنهديه لِحَرِّ الهُمــومْ
لا أعرفُ الإصباحَ لمـا بدا فى ضوئه إلا بِسُكْرِ النَّديمْ
لبستُ فيــه بالتذاذ الهــوى ولذةِ الرَّاحِ ثيــابَ النعيمْ

وصف منبج[1]

بين الرشيد وعبد الملك بن صالح

أخذ قوله : « سَحَر كله » من قول عبد الملك بن صالح بن علىّ ، وقد قال له الرشيد لمـا دخل منبج : أهَذا منزلك[2] ؟ قال : هو لك ، ولِى بك يا أميرَ المؤمنين ، قال : كيف بناؤه ؟ قال : دون منازل أهْلى ، وفوق منازلِ الناس ، قال :

---

(١) بلد قديم ينسب إليه كثير من الشعراء أشهرهم البحترى وأبو فراس

(٢) رواية ياقوت : « أهذا البلد منزلك ؟ »

وكيف ذلك وقَدْرُكَ فوق أقدارهم ؟ قال : ذلك خُلُق أميرِ المؤمنين أتأسَّى به ، وأقْفُو أثَره ، وأحْذُو حَذْوَهُ ، قال : فكيف طِيبُ مَنْبِج ؟ قال : عَذْبَةَ الماء ، قليلة الأَدْوَاء ، قال : فكيف لَيْلُها ؟ قال : سحر كله[1] ؟

لأبي تمام

وأخذ هذا الطائي فقال :

أيامنا مصقولةٌ أطرافها بك ، والليالي كلّها أسحارُ

* * *

للحاتمي

ولأهل العصر ، قال أبو علي محمد بن الحسين بن المظفر الحاتمي :

يا ربَّ ليل سُرور خِلْته قِصَراً كعارضِ البرقِ في أفقِ الدُّجَا بَرَقَا
قد كادَ يعثر أولاَه بآخرِه وكادَ يسبق منه فَجْرُه الشَّفَقا
كأنَّما طَرَفَاه طَرْفُ اتفق الْجَفْنَانِ مِنْهُ على الإطْبَاقِ وافْترَقَا

ألفاظ في هذا المعنى لأهل العصر

ليلة من حسنات الدهر ، هواؤها صحيح ، ونسيمُها عليل . ليلة كبُرْدِ الشباب ، و بَرْدِ الشراب . ليلة من ليالِي الشباب ، فِضِّيَّة الأَديم ، مِسْكية النسيم . ليلة هي لُمْعَةُ العمر ، وغُرَّةُ الدهر. ليلة مِسْكية الأديم ، كافوريّة النجوم . ليلة رَقَد الدّهر عنها ، وطلعت سعودُها ، وغابت عُذَّالُها . ليلة كالمسك منظرُها ومَخْبَرُها . ليلة هي باكورةُ العمْر ، وبِكْرُ الدهر . ليلة ظلماتها أنوار ، وطِوال أوقاتها قِصَار .

---

(١) زاد ياقوت في معجم البلدان «قال: صدقت، إنها لطيبة، قال : بل طابت بأمير المؤمنين، وأين يذهب بها عن الطيب؟ وهي برة حمراء، وسنبلة صفراء، وشجرة خضراء، في فيف فيح ، بين قيصوم وشيح؟ » فقال الرشيد: هذا الكلام والله أحسن من الدر النظيم

[سعيد بن هريم ، وصِلَتُه بالفضل بن سهل]

سبب صلته به

كان سببُ اتصال سعيد بن هُرَيْم بِذى الرياستين الفَضْلِ[1] ـ وسمى ذا الرياستين لأنه جمع بين رياسة القلم ورياسة التدبير للمأمون ـ أنه دخل عليه يوماً ، فقال : «الأَجَلُ آفةُ الأمل ، والمعروف ذُخْرُ الأَبد ، والبِرُّ غنيمةُ الحازم ، والتفريط مصيبةُ أخِى القدرة ، و إنّا لم نَصُنْ وجوهَنا عن سؤالك ، فصُنْ وجهك عن ردِّنا ، وضَعْنا من إحسانك بحيث وضَعْنا أنفُسَنا من تأميلك » .

فأمر أن يُكْتَب كلامُه ، وسماه سعيداً الناطق ، ووصله المأمون[2] فخصّ به .

فلحقته فى بعض الأوقات جَفْوَة من الفضل ، فكتب إليه : « يا حافظَ مَنْ يَضع نفسَه عنده ، ويا ذَاكِرَ مَنْ نَسِىَ نصيبه منه ، ليس كتابى إذا كتبتُ استبطاء ، وما إمساكى إذا أمسكتُ استغناء ؛ فكتبت مذكِّراً لامستقصراً فِعْلَك» فوصله وأحْسَن إليه

وقد رُوِىَ بعضُ هذا الكلام المنسوب إلى سعيد بن هريم لأبى حفص الكرمانى مع ذِى الرِّياستين .

للتميمى يمدح الفضل بن سهل

ويقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التميمى :

لعَمْرُكَ ما الأَشْرافُ فى كل بَلْدَةٍ ... وإنْ عَظُمُوا لِلفَضْل إلاَّ صَنَائِعُ
تَرَى عُظَمَاء الناس لِلفَضْل خُشَّعاً ... إذا ما بَدا ، والفَضْلُ لِلّه خاشعُ
تَوَاضَعَ لَمَّا زاده اللهُ رِفعةً ... وكلُّ جليل عِنْده مُتَواضِعُ

لإبراهيم بن العباس يمدح الفضل

وقال إبراهيم بن العباس :

لفضل بن سَهْلٍ يدٌ ... تقاصرَ عَنْهَا المَثَلْ

---

(١) هو الفضل بن سهل ، ولد سنة ١٥٤ فى سرخس ، وتوفى بها سنة ٢٠٢ ، اتصل بالمأمون فى صباه ، وأسلم على يده سنة ١٩٠ ، وصحبه قبل أن يلى الخلافة ، فلما ولى اجعل له الوزارة وقيادة الجيش معاً . وقد مات قتيلا فى الحمام وهو فى سرخس . وقيل : إن المأمون أعان على قتله ليخلص من سلطانه (٢) كذا ، ولعله « ووصله بالمأمون»(م)

فباطِنُها للنَّـدى وظاهِرُها للقُبَلْ
وبَسْطَتُها لِلغِنَى وسَطْوَتُها لِلأجَلْ

لابن الرومى يمدح إبراهيم ابن المدبر

أخذه ابنُ الرومى فقال لإبراهيم بن المدبر :

اصْبَحْتُ بين ضَرَاعة وتجمُّل والمـرء بينهما يموتُ هزيلا
فامدد إلى يداً تعـوَّدَ بَطْنُها بَذْلَ النوالِ وظَهْرُها التقبيلا

لابن الرومى يمدح ابن طاهر

وقال يمدح عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، وزاد فى هذا المعنى تشبيها ظريفاً :

مقبَّلُ ظَهْرِ الكفِّ وَهَّابُ بَطْنها لها راحةٌ فيها الحطيم وزَمْزَمُ
فظاهِرُها للناسِ رُكْنٌ مقَبَّلٌ وباطنها عَيْنٌ من العُرْفِ عَيْلَمُ[1]

***

من ترجمة الفضل بن سهل

وكان ذو الرياستين يَقْبَلُ صوابَ القائلين بما فى قوَّته من صَفَاء الغريزة ، وجَوْدَة النَّحيزة[2] فهو كما قال أبو الطيب :

مَلِكٌ مُنْشِدُ القَرِيضِ لَدَيْه يضعُ الثَّوب فى يَدَىْ بَزَّازِ

وكانت مخايلُ فَضْلِه ، ودلائلُ عَقْله ، ظهرت ليحيى بن خالد وهو على دِين المجوسية ، فقال له : أَسْلِمْ أجد السبيلَ إلى اصْطِناَعِك ، قال : فأسلم على يَدِ المأمون ، ولم يزل فى جَنَبَتِه[3] ، إلى أن رقى إلى رُتْبته .

وذكره يحيى عند الرشيد فأجْمَل الثناء ، فأمر بإحضاره ، فلما رآه أُفْحِمَ ؛ فنَظَرَ الرشيد إلى يحيى كالمستفهم ؛ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ من أدلّ دليل على فَرَاهَةِ المملوك أن تَمْلكَ هَيْبَةُ مولاه لسانَه وقلبَه ، فقال الرشيد : لئن كنت سكتَّ لكى تقولَ هذا فقد أحْسَنْت ، ولئن كان هذا شيئاً اعتراك عند الحَصَرِ لقد أجدْتَ ؛ وزاد فى إكرامه وتقريبه ، وجعل لا يَسْأله بعد ذلك عن شىء إلا أجابه بأفْصَحِ لسان ، وأجود بَيانٍ .

(١) عيلم : كثيرة الماء ، والعيلم أيضاً : البحر (٢) النحيزة : الطبيعة
(٣) جنبته جا: نبه (م) .

مختارات من كلام الفضل ابن سهل

قال سهل بنُ هارون : ومما حُفِظ من كلام ذى الرياستين مما رأينا تَخْليدَه فى الكتب ؛ ليُؤْتَمّ به ، ويُنْتَفَع بمِقْوَلِ حكمته ، قولُه : مَن تركَ حقًّا فقد غبن حظًّا ، ومَن قضَى حقًّا فقد أحْرَزَ غُنْماً ، ومَن أتَى فضْلاً فقد أوْجَب شكراً ، ومن أحْسَن توكّلا لم يعدم مِنَ الله صُنْعاً ، ومَن تركَ لله شيئاً لم يَجدْ لِما تركَ فَقْداً ، ومَنِ التمسَ بمعصية الله حَمْداً عادَ ذلك على مُلْتَمِسِه ذمًّا ، ومن طلب بخلاف الحقّ له دَرَكاً عاد ماأدرك من ذلك له مُوبِقاً[1] ؛ وذلك أوْجَب الفَلاحَ للمحسنين ، وجعل سوءَ العاقبة للمسيئين المقصِّرينَ .

ووقَّع فى رُقْعَةِ ساعٍ : نحن نرى قبولَ السعاية شرًّا منها ؛ لأنَّ السِّعاية دلالةٌ ، والقبولَ إجازة ، وليس مَنْ دَلّ على شىء وأخْبَر به كمن قَبِلَه وأجازَهُ ؛ فاتّقُوا السَّاعِىَ ؛ فإنّهُ لو كان فى سِعَايَتِهِ صادِقا لكان فى صِدْقِه آثما ؛ إذْ لم يحفَظ الْحُرْمة ، ولم يستر العوْرَة .

* * *

من محمد ابن على إلى محمد بن يحيى ابن خالد

والشىء يُقْرَنُ معجِنْسِه : كتب محمد بن على إلى محمد بن يحيى بن خالد ، وكان واليا على أرمينية للرشيد : إنَّ قوماً صارُوا إلى سبيل النُّصْحِ فذكروا ضِياعا بأرمينية قد عَفت ودَرَسَتْ[2] ، يرجع منها إلى السلطان مَالٌ عظيم، وإنى وقفتُ عن المطالبةِ حتى أعْرِفَ رأيَك .

جواب يحيى ابن خالد

فكتب إليه : قرأتُ هذه الرقعةَ المذمومة ، وفَهِمْتُها ، وسُوقُ السعاية بحَمْد الله فى أيامنا كاسِدَة ، وألْسِنَة السُّعاةِ فى أيامنا كَليلة خاسئة ؛ فإذا قرأْتَ كتابى هذا فاحْمِل الناسَ على قانونك ، وخُذْهم بما فى ديوَانِك ؛ فإنّا لم نولِّكَ الناحية ، لِتتبّعَ الرسوم العافية ، ولا لإحياء الأعْلام الدائرة ، وجنبنى وتجنَّب بيتَ جريرٍ يخاطبُ الفرزدق :

---

(١) الدرك ــ بالتحريك ــ اللحاق ، والموبق : المهلك (م)

(٢) عفت ودرست : كلاهما بمعنى ذهبت معالمها (م)

وكنتَ إذا حللتَ بدارِ قومٍ رحلتَ بخزيةٍ وتركتَ عارَا

وأجْرِ أمورَك على ما يكسب الدُّعاء لنا لا علينا ، واعلم أنها مدّة تنتهى ، وأيامٌ تنقضى ، فإمّا ذِكْرٌ جميلٌ ، وإما خزىٌ طويل .

رجل يريد أن ينصح المهدى

وقال رجلٌ للمهدى: عندى نصيحةٌ ياأمير المؤمنين ، فقال : لِمَنْ نصيحتك هذه ؟ لَنا ، أمْ لِعامّةِ المسلمين ، أم لنفسك ؟ قال : لك ياأميرَ المؤمنين(١) ، قال: ليس الساعى بأعظم عورةً ولا أقْبَحَ حالاً ممن قَبِل سِعايته ، ولا تخلو من أن تكونَ حاسِدَ نعمة ، فلانَشْفِى غَيْظَك ، أوْ عَدُوًّا فلا نعاقب لك عدوّك ! ثم أقبل على الناس فقال : لايَنْصَحْ لنا نَاصِحٌ إلا بما فيه لله رضاً ، وللمسلمين صَلاَح؛ فإنما لنا الأبدانُ وليس لنا القلوبُ ؛ ومن استتَرَ عنّا لم نكشفه ، ومن بادَانَا طلبنا تَوْبته ، ومن أخطأ أقَلْنَا عَثْرَتَه ؛ فإنى أرى التأديبَ بالصّفحِ أبْلغَ منه بالعقوبة ، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المُعَاجلة ، والقلوب لاتبقى لِوالٍ لايَنْعَطِف إذا استُعْطِفَ ، ولا يعفو إذا قَدَر ، ولا يغفر إذا ظفر ، ولا يَرْحَمُ إذا استُرحم .

بعض توقيعات الفضل بن سهل

ووقّع ذو الرياستين إلى تميم بن خزيمة : الأمورُ بتمامها ، والأعمالُ بخَوَاتمها ، والصنائعُ باستدامتها ، وإلى الغاية يَجْرِى الجواد ؛ فهناك كشفَتِ الخِبْرَةُ قِناعَ الشّكّ ؛ فحمد السابق ، وذمّ الساقط

وذو الرياستين هو القائل :

أمضيتِ أحرف «لا» مما لَفَظْتِ بها فحوّلى رَحْلَها عنّا إلى نَعَمِ

أوْ صيّريها إليها منك منعمةً إن كنتِ حاولتِ فيها خِفة الكَلِم(٢)

---

(١) لم نر فى الأصل ذكراً للنصيحة . والظاهر من كلام المهدى أن ذلك «الناصح» ذكر أصحاب المهدى بسوء ؛ فقال المهدى : ليس الساعى الخ . فليلاحظ القارىء تلك الجملة التى ضاعت ليظهر له ربط الكلام . قلت : ليس هذا بلازم ، بل يجوز أن يكون المهدى قد قطع عليه أن يسعى بما أجاب به من الكلام (م)

(٢) الضمير فى صيريها » يعود إلى «لا» وفى» إليها » يعود إلى « نعم » وكأنه قال : صيرى لا إلى نعم (م)

قِسْتُمْ علينا فعارَضْنَا قياسَــــكُمُ   يا أَحْسَنَ الناسِ من قَرْنٍ إلى قَدَمِ

ولما قتل ذُو الرياستين دخَل المأمونُ على أمّه فقال: لا تجزَعِي فإنّى ابنُك بعد ابنك. فقالت: أفلا أبْكى على ابنٍ أكْسبَنِي ابناً مثلَكَ؟

[بعض أوصاف الخيل]

لابن القرية

ووصف ابن القِرِّيّة(١) فرساً أهْدَاه الحجاجُ إلى عبدالملك بن مروان فقال: حَسَنُ القَدِّ، أَسِيلُ الخَدِّ، يسبق الطَّرْفَ، ويستَغرِقُ الوَصْفَ.

لعبد الله بن طاهر

وأهدى عبد الله بن طاهر إلى المأمون فرساً وكتب إليه: قد بعثتُ إلى أميرِ المؤمنين بفرسٍ يلحق الأرانب فى الصَّعْدَاء، ويجاوزُ الظِّباءَ فى الاستواء، ويسبق فى الحُدُور جَرْىَ الماء، فهو كما قال تأبّط شراً:

ويَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيح من حيث يَنْتَحِى   بمُنْخَرِقٍ من شَـــــدِّهِ الْمُتَدَارِكِ

رجل يريد شراء فرس

وقال رجل لبعض النخاسين: اشتَرِ لى فرساً جَيِّدَ القَمِيص، حسَنَ الفُصوص، وثيقَ القَصَبِ، نقيَّ العَصَب، يُشيرُ بأُذُنيه، ويَنْدِسُ بِرِجْليه(٢)، كأنه موجٌ فى لُجَّة، أو سَيْلٌ فى حَدُور.

لمحمد بن الحسن بن الحرون

جمع محمد بن الحسين(٣) هَذَيْنِ الكلامين وزاد فقال يصف فرساً: هو حَسَنُ القميص، جَيِّد الفصوص، وثيق القَصَب، نقيُّ العَصَب، يُبْصِرُ بأذنيه، ويَتَبَوَّعُ بيديه(٤)؛ ويُدَاخِل برِجْلَيه، كأنه موجٌ فى لجّة، أو سيلٌ فى حَدُور، يناهبُ المشى قبل أن يُبْعث، ويلحق الأرانب فى الصعداء، ويجاوزُ جوارى الظباء فى الاستواء، ويسبِق فى الحُدُور جَرْىَ الماء، إنْ عُطِف جارَ، وإن أرسِل طار، وإنْ كلِّف السيرَ أمْعَن وسار، وإن حُبِس صَفَنَ(٥)، وإن استوقف فطن، وإنْ رعَى أبَنَ(٦)؛ فهو كما قال تأبّط شرًا، وذكر البيت.

---

(١) هو أيوب بن زيد المتوفى سنة ٨٤ هـ (٢) يندس: يضرب (٣) سماه النويرى فى نهاية الأرب (٦٩/١٠) محمد بن الحسن بن الحرون (م) (٤) التبوع: إبعاد خطو الفرس فى جريه (٥) صفن الفرس: قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة (٦) أبن: ترقب

أبيات لتأبط شرا

وأول هذه الأبيات :

وإنى لَمُهْدٍ من ثَنَــائى فقَاصِدٌ به لابْنِ عمّ الصِّدْق شَمْس بن مالك
أهزُّ به فى نَدْوَةِ الحىّ عِطفَــهُ كما هزَّ عطْفى بالهِجانِ الأوَارِكِ[١]
قَليل التَّشكّى لِلْمُلِمِّ يُصِيبهُ كثيرُ الهوَى شتّ النَّوَى والمَسَالك
يظَلُّ بمَوْماةٍ ويُمْسِى بِغَـيْرِها جَحِيشاً ويَعْرَوْرِى ظهورَ المهالك[٢]
ويَسْبِقُ وَفْدَ الرّيح من حيث ينتحى بمُنْخَرِق مِنْ شَــدّه المتدارك
إذا خاط عينيه كرَى النوم لم يَزَل له كالىءٌ من قلب شَيْحَان فاتك[٣]
إذا طَلَعَتْ أولىٰ العدو فَنَفْرُهُ إلى سَلَّةٍ من صارمِ الغَرْب باتِك
ويجعل عينيه رَبيئــة قلبه إلى ضربة من حدّ أخلق صائك[٤]
إذا هَزَّهُ فى عظم قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ نواجذُ أفْوَاهِ المنايا الضَّوَاحِك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى بحيث اهْتَدَتْ أمُّ النجوم الشَّوَابِك[٥]

عقبة بن سنان يصف خيلا أهداها عمرو ابن العاص لمعاوية

وأهدى عمرو بن العاص إلى معاوية ثلاثين فرساً من سَوابِق خَيْل مِصْر ، فعُرِضت عليه ، وعنده عقبة بن سنان بن يزيد الحارثى ، فقال له معاوية : كيف تَرَى هدايانا يا أبَا سعيد ؟ فإن أخَاكَ عَمْراً قد أطْنَبَ فى وَصْفها ، فقال : أراها يا أميرَ المؤمنين على ما وصف ، وإنها لمُخَيِّلة[٦] بكلّ خير ؛ إنها لسَامِيَةُ العُيون ، لاحقة البطون ، مصغية الآذان ، قَبَّاء الأسنان[٧] ، ضِخَام الرُّكبَات ، مشرفات

---

(١) الندوة : المجتمع ، والهجان : الإبل الكريمة ، والأوارك : راعية الأراك

(٢) الموماة : المفازة ينعدم فيها الماء ، وجحيش : منفرد ، ويعروري : يركب على العرى ، يريد أنه يركب ظهور المهالك بلا سرج وهو تعبير بدوى

(٣) الكالىء : الحافظ ، والشيحان : الحازم ، يريد أن قلبه يقظ وإن نامت عينه ، وفى الأصل « سبحان »

(٤) الربيئة : الرقيب ، والصائك : القاطع ، وفى الأصل « صابك »

(٥) أم النجوم الشوابك : هى الشمس (٦) مخيلة :مبشرة (٧) قباء : لها صرير

الحجبات[١] ، رِحَاب المَنَاخِرِ ، صِلَابُ الحوافر ، وَقْعُها تحليل ، ورفعها تعليل[٢]
فهذه إن طُلِبت سَبَقت ، و إن طَلَبتْ لَحِقَتْ . قال له معاوية : اصرفها إلى
رَحْلك ؛ فإنّ بِنَا عنها غِنًى ، و بفتيانك إليها حاجة .

للنابغة الجعدى

وقال النابغة الجعدىّ :

و إنّا أناسٌ لا نُعَوِّدُ خَيْلنَا ... إذا ما التقَيْنَا أن تَحِيدَ وتَنْفِرَا
ونُنكر يوم الرَّوْعِ ألوانَ خَيْلِنا ... من الطعن حتى نحسب الجَوْنَ أشْقَرا[٣]
فليس بمعروفٍ لنَا أنْ نَرُدَّهَا ... صِحَاحاً ، ولا مُسْتَنكَر أن تُعقَّرا

لبعض العرب

وقال بعض العرب :

ولقد شَهِدْتُ الخيلَ يوم طرادها ... بسليم أَوْظِفَةِ القَوَائِم هَيْكلِ[٤]
فدعَوا : نَزالِ ! فكنت أوَّل نازلٍ ... وعَـــلامَ أركبه إذا لم أنزلِ

لأعرابى

ووصف أعرابى فرسا فقال : لما أرسلت الخيل جاءوا بشيطانٍ فى أشْطَانٍ[٥] ،
فأرسلوه ، فلمع لَمْعَ البَرْقِ ، واستهلَّ استهلالَ الوَدْقِ[٦] ، فكان أقْرَبهم إليه
الذى تتبعُ عينه من بُعْدٍ عليه .

لأعرابى

وذكر أعرابى رحلا فقال : عنده فرسٌ طويل العِذَارِ ، أَمِينُ العِثَار ؛
فكنت إذا رأيته عليه ظننته بازيا على مَرْبأ ، عليه رُمْحٌ طويل يقصّرُ به الآجال.

وقال بعض المحدَثِينَ فى هذا التطابق :

لَقيناهُمْ بأرْماحٍ طوالٍ ... تُبَشِّرُهم بأعمـــارٍ قِصَارِ

---

(١) جمع حجبة ـ بالتحريك ـ وهى من الفرس ما أشرف على صفاق البطن من وركيه (٢) التحليل والتعليل : من حركات الخيل
(٣) الجون : الأسود (٤) الأوظفة : جمع وظيف ، وهو مستدق الذراع والساق من الخيل والإبل وغيرها ، والهيكل : الفرس الطويل
(٥) الأشطان : جمع شطن ـ بالتحريك ـ وهو الحبل (٦) الودق : المطر

أعرابى يصف خيل بنى يربوع

ووصف أعرابى خيلا لبنى يربوع فقال : خرجَتْ علينا خيلٌ من مستطير نَقْعٍ[١] ، كأن هَوَادِيَهَا أَعْلَام ، وآذانَها أقلام ، وفرسانها أُسود آجام[٢] .

ولما أنشد العمَّانى الرشيد يصف فرساً :

كأنَّ أذنَيْهِ إذا تَشَوَّفَا قادِمَــةً أو قَلَمًا مُحَرَّفَا

ولحن ، ففهم ذلك أكْثَرُ من حضر ؛ فقال الرشيد : اجعل مكان « كأن » تَخَال ، فعجبوا لسُرْعَة تَهَدِّيه .

لأبى تمام يصف فرسا

وللطائيين فى هذا النوع أشعارٌ كثيرة منعنى من اختيارها كثْرة اشتهارها ؛ وسأنشد بعض ذلك ، قال أبو تمام :

ما مُقْرَبٌ[٣] يَخْتَالُ فى أَشْطَانِه ملآن مِنْ صَلَفٍ به وتَلَهْوُقِ[٤]
بِحَوافرٍ حُفْرٍ وصُلْبٍ أصلتٍ[٥] وأشَاعِرٍ شُعْرٍ[٦] وخلق أَخْلَقِ
ذو أولقٍ تحْتَ العجاج ، وإنَّما من صحةٍ إفراطُ ذاكَ الأَوْلَقِ[٧]
صافِى الأديمِ كأنَّما ألبستهُ من سُنْدُسٍ بُرْداً ومن إسْتَبْرَقِ
إمْلِيسَةٌ إمليدَةٌ لو عُلِّقَت فى صَهْوَتيهِ العينُ لم تتعلَّقِ[٨]
مُسْوَدُّ شَطْرٍ مثلَ ما اسْوَدَّ الدجى مبيضُّ شَطْرٍ كابيضاضِ المُهْرَقِ[٩]

---

(١) النقع : غبار الحرب

(٢) الآجام : جمع أجمة ــ بفتحات ــ وهى مسكن الأسود (م)

(٣) المقرب والمقربة ــ على صيغة المفعول ــ الفرس التى تدنى وتقرب لئلا يطرقها فحل لئيم (٤) التلهوق : بريق البياض فى الفرس (٥) الصلت : الجبين الواضح

(٦) الأشاعر : جمع أشعر ، وهو ما استدار بالحافر من منتهى الجلد

(٧) الأولق : الجنون (٨) الصهوة : موضع السرج من الفرس ، والشاعر يصف الفرس بأنه إمليسة إمليدة أى ناعم الملمس براق .

(٩) المهرق : الصحيفة

للبحتري يصف فرسا

وقال أبو عبادة :

وأغَرَّ فى الزَّمَنِ البهيم مُحَجَّل ... قد رحتُ منه على أغرَّ مُحَجَّلِ (١)

وَافِى الضلوعِ يشُدُّ عقد حزامه ... يومَ اللقـــاء على مُعِمٍّ مُخْوِلِ

يهوى كما هَوَتِ العقابُ إذا رأَتْ ... صيداً ويَنْتَصِبُ انتِصابَ الأجْدَل (٢)

متوحّش بدقيقتين كأنما ... تُرَيَانِ من وَرِقٍ عليه مُوَصَّل (٣)

كالرائح النَّشْوان أكثرُ مَشيِهِ ... عرض على السَّنَن البعيد الأطْوَل

ويظنّ رَيعَانَ الشباب يَرُوعُهُ ... من نَشْوَةٍ أو جِنَّةٍ أو أفكل (٤)

هَزِجِ الصهيل كانَّ فى نَبَراته ... نغماتِ مَعْبَدَ فى الثَّقيلِ الأوَّلِ

تَتَوَهَّمُ الجَوْزاء فى أرْسَاغِهِ ... والبَدْرُ غُـــرةُ وَجْهِهِ المتهلِّلِ

صافِى الأديم كأنَّما عُنِيَتْ لَهُ ... بصفاء نُقْبَته مَدَاوِكُ صَيْقَلِ (٥)

وكأنمــا كُسِيَ الخدودَ نَوَاعِماً ... مهما تلاحِظْهَا بلَحْظ يَخْجَلِ

وكأنما نفَضَتْ عليـــه صِبْغها ... صَهْبَاءُ للبَرَدانِ (٦) أو قُطْرُبُّلِ (٧)

---

(١) البهيم : المظلم ، والغرة والتحجيل: بياض فى الجبهة والقوائم ، والأغر المحجل هو الفرس ، وهو مجازاً الرجل الكريم

(٢) الاجدال : الصقر (٣) الدقيقتان : صفة للساقين (٤) الأفكل : الرعدة

(٥) المداوك : جمع مدوك ، وهو المصقلة بكسر الميم فيهما ، يقال : داك الصيقل السيف وسنه بالمدوك . وأخذنا فى الدوك وهو تسوية الحلية وتزيينها

(٦) البردان ، بالتحريك ، اسم لعدة أماكن ، والمراد به هنا الموضع الذى كان بهذا الاسم قرب بغداد ، وكان مشهوراً بالخمر ، وفيه يقول جحظة :

ادفع ورود الهم عنك بقهوة مخزونة فى حانة الخمار

جازت مدى الأعمار ؛ فهى كأنها عند المذاق تزيد فى الأعمار

يسعى بها خنث الجفون منعم فى خده ماء النضارة جار

فى رقة البردان بين مزارع محفوفة ببنفسج وبهار

بلد يشبه صيفه بخريفه رطب الأصائل بارد الأسحار

(٧) قطربل بضم فسكون ثم فتح الراء وباء موحدة مشددة مضمومة ولام ، اسم قرية

مَلَكَ العيونَ ؛ فإن بَدَا أعْطَينهُ ... نَظَرَ المُحب إلى الحبيبِ المقبلِ

وقال إسحاق بنُ خلف النهروانى لأبى دُلَف ، وكان له فرسٌ أدهم يسميه غرابا :

لإسحاق بن خلف يصف فرس أبى دلف

كم كم تجرّعه المنون ويسلمُ ... لو يستطيعُ شَكَا إليك لَهُ الفمُ

من كل منبت شعرة من جِلْدِهِ ... خَطٌّ ينمّقه الحُسامُ المِخْذَمُ[1]

ما تُدْرِكُ الأرواحُ أدْنَى جَرْيِهِ ... حتى يَفُوتَ الريحَ وهو مقدَّمُ

رَجَعَتْه أطْرَافُ الأسِنَّة أشْقراً ... واللونُ أدْهَمُ حين ضَرَّجَه الدَّمُ

وكأنما عقدَ النُّجُومَ بِطَرْفهِ ... وكأنَّهُ بِعُرَى المجرَّة مُلْجَمُ

وقال أبو الطيب :

جَفَتْنِي كأنِّى لَسْتُ أنْطَقَ قَوْمِها ... وأطْعَنَهمْ والشُّهْبُ فى صُوَرِ الدُّهْمِ

لأبى الفتح كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم :

قد راح تحت الصُّبْحِ لِيلٌ مظلم ... إذ لاح فى السَّرْجِ المحلّى الأدْهَمُ

ديباجُ ألْوانِ الجيادِ ، ولم يكن ... ليُخَصّ بالديباج إلاَّ الأكْرَمْ

ضَحِكَ اللَّجَيْنُ على سَوادِ أدِيمه ... وكذا الظلامُ تُنيرُ فيه الأنجمُ

فكأنه بينات نعشٍ ملببٌ ... وكأنما هُوَ بالثريَّا مُلجَمُ

لابن المعتز

قلت : هذا من قول ابن المُعتزّ :

ألاَ فاسقيانى والظلامُ مُقوّضٌ ... ونَجْمُ الدُّجَى تحتَ المغارب يَرْكُضُ

= بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر . وكانت لها أخبار كثيرة تتسع لكتاب فى عدة مجلدات كما قال ياقوت ، إذ كانت ملعبا للاهين من شعراء الخمر والمجون

(١) المخذم : القاطع

كأنَّ الثريا فى أواخرِ لَيلِها تفتّحُ نَوْرٍ أو لِجامٌ مفضضُ

وقال أبو الفتح :

لأبى الفتح أيضاً

مَنْ شكَّ فى فَضْلِ الكُمَيْتِ فبينهُ فيـه و بين يقينه المِضْمارُ

فى منظرٍ مستحسَنٍ محمـودةٍ أخْبَارُه إذ تُبْتَلى الأخبارُ

ماءٌ تدفّق طَاعةً وسَـلاسَةً فإذا استُدِرَّ الُحْضرُ فيه فنَارُ

و إذا عَطَفْتَ بهِ على ناوَرْدِه لتدِيرَه فكأنَّه بِرْكَارُ

وصف الَخلوقَ أَدِيمُه فكأنَّما أهْـدَى الَخلوقَ لجلدِه عَطارُ[(١)]

قصرَتْ قِلادَةُ نحْرِهِ وعِذَارِهِ والرّسغ ، وهيَ من العِتَاقِ قِصَارُ

وكأنما هاديه جِذْعٌ مُشْرِفٌ وكأنما للضبع فيـه وِجارُ[(٢)]

يَرِدُ الضَّحَاضِحَ غيرثانى سُنْبكٍ و يَرُودُ طَرْفك خَلفه فتحارُ[(٣)]

لو لم تكن للخيلِ نسبة خَلْقه حاَكته من أشْـكَالِها الأطْيَارُ

لابن المعتز

وقال ابن المعتز :

وخَيْلٍ طَواها القَوْدُ حتى كأنّها أنابيبُ سُمْرٌ من قَنَا الخط ذُبّلُ

صببنا عليها ــ ظالمين ــ سِيَاطنا فطارتْ بها أيدٍ سِرَاعٌ وأرْجُلُ

قولُهُ : « ظالمين » من أبْدَع حَشْوٍ جرى فى بيت ، وكأنّ ابن المعتز أشار إلى قول أعرابى مولد :

لأعرابى مولد

وعَوْدٍ قليلِ الذنب عاوَدْتُ ضَرْبه إذا هاج شَوْقِى من معاهدها ذِكْرُ[(٤)]

فقلتُ لهُ : ذَلفاء ــ وَيْحَكَ ! ــ سَبَّبَتْ لكَ الضَّرْبَ، فاصبر إن عاد تَكَ الصّبْرُ[(٥)]

لابن المعتز أيضاً

وقال ابن المعتز :

أراجعتى فِدَاكَ بأعْوَجِىّ كقِدْحِ النَّبْعِ فى الرّيشِ اللُّؤامِ[(٦)]

---

(١) الخلوق : نوع من الطيب (٢) هاديه : صدره (٣) الضحاضح : بقايا الماء

(٤) العود : البعير (٥) ذلفاء : اسم امرأة ، يريد أن حب السرعة إلى لقائها هو السبب فى ضرب راحلته (م) (٥) الأعوجى : الفرس الكريم ، منسوب إلى أعوج . واللؤام : المحكم

بأدهمَ كالظّلامِ أغرَّ يَجْلو ... بغرّتِهِ دَياجيرَ الظّلامِ
تَرَى أحْجَالَه يَصْعَدْنَ فيه ... صُعودَ البَرْقِ فى جَوِّ الغَمَامِ

وقال أيضاً :

قدأغْتَدِي والصُّبْحُ كالمَشيبِ ... فى أُفْقٍ مِثْلِ مَدَاكِ الطِّيبِ
بقارحٍ مُسَوَّمٍ يعْبُوبِ ... ذى أُذنٍ كخُوصَةِ العَسيبِ (١)
أو آسةٍ أوْفَتْ على قَضِيبِ ... يَسْبِقُ شَأوَ النظرِ الرّحِيبِ
أسْرَعَ من ماء إلى تَصْوِيبِ ... ومن رُجوعِ لحظةِ المُرِيبِ (٢)

وقال :

رُبَّ رَكْبٍ عرّسوا ثم هَبُّوا ... نحو إسْرَاجٍ وشَدِّ رِحَالِ
وعَدَوْنا بأعِنَّةِ خيلٍ ... تأْكُلُ الأرْضَ بأيْدٍ عِجَالِ
زينَتْها غررٌ ضَاحِكَاتٌ ... كبدورٍ فى وُجُوهِ ليالِ

لعلى الايادى

وقال على بن محمد الإيادى :

مسح الظلامُ بعُرفه يدَهُ ... ومَشَى فقبَّل وَجْهَهُ البَدْرُ

لأبى العباس الناشىء

وقال الناشىء أبو العباس عبد الله بن محمد :

أحْوَى عليه مَسائحٌ من لِيطةٍ ... شُهُبٌ تسيلُ على نَوَاشِرِ سَاقِهِ (٣)
فكأنهُ مُتَلفِعٌ قُبطِيَّةً ... أثناؤُها مشدودةٌ بنطاقِهِ
فَسَوادُه كاللّيلِ فى إظْلامهِ ... وبَيَاضُه كالصُّبْحِ فى إشْراقِهِ
صَافِى الأديمِ كريمةٌ أنْسَابُهُ ... أخْلاقه عَيْنٌ على أعْراقِهِ

---

(١) القارح : الفرس القوى ، ومسوم : وضعت عليه السومة ، وهى العلامة ، واليعبوب : الفرس السريع الطويل ، والعسيب : جريدة من النخل مستقيمة دقيقة والذى لم ينبت عليه الخوص من السعف

(٢) تصويب : انحدار (٣) الليطة ـ بكسر اللام ـ قشر القصبة والقوس والقناة

لأبى منصور الثعالبى

كتب أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى إلى الأمير أبى الفضل عبد الله بن أحمد بن ميكال ، وقد زاره الأميرُ فى داره :

لازال مَجْدُكَ للسِّماكِ رَسِيلا ... وعلوُّ جَـدِّكَ بالخلود كَفيلا(١)
ياغُرَّةَ الزمنِ البهيم إذا غدا ... أهلُ العُلاَ لزمانهم تحجيلا
يازائراً مَدَّت سَحَائبُ طَوْلِه ... ظِلاً علىَّ مِنَ الجَمالِ ظليلا
وأتت بصَوْبِ جواهرٍ من لَفظِه ... حتى انتظَمْنَ لمفرِقى إكليلاَ
بأبى وغيرِ أبى هِلالٌ نُورُهُ ... يستَعْجِلُ التسبيحَ والتهليلا
نقشت حَوافِرُ طِرْفِهِ فى عَرْصَتِى ... نَقْشاً مَجَوْتُ رسومَه تقبيلا
ولو استطعتُ فَرَشْتُ مسقطَ خَطْوِهِ ... بعيون عِينٍ لا تَرَى التَّكحيلاَ
ونَثَرتُ رُوحى بعدما مَلَكَتْ يدِى ... وخَرَرْتُ بين يَدَىْ هَواهُ قَتيلا

لابن هانى يصف خيل المعز

وقال أبو القاسم بن هانىء يصف خيل المعز :

له المُقْرَبات الجُرْدُ يُنْعِلُها دَماً ... إذا فَرَعَتْ هَامَ الكُماةِ السَّنَابِكُ
يُرِيقُ عليها اللؤلؤُ الرطبُ مَاءَهُ ... ويَسبِكُ فيها ذائبَ التِّبرِ سابِكُ
صقيلاتُ أجسامِ البرُوق كأنما ... أمرّتْ عليها بالشموس المَدَاوِكُ

ولابن هانى أيضاً

وقال يصف فرساً لجعفر بن على بن حمدون :

تهلَّلَ مَصْقُولَ النواحى كأنه ... إذا جالَ ماءُ الحُسْنِ فيه غريقُ
مِنَ البُهْمِ وَرْدُ اللونِ شِيبَ بِكُمْتَةٍ ... كما شِيبَ بالمسكِ الفَتيقِ خَلوقُ(٢)
فلو مِيزَ منه كلُّ لون بذاتِهِ ... جَرَى سَبَجٌ منه وذَابَ عَقيقُ(٣)

وقال فى قصيدة يمدح بها أبا الفرج الشيبانى :

فتقَتْ لكم رِيحُ الجِلاَدِ بعَنْبَرِ ... وأمدَّكُمْ فَلَقُ الصَّباح المُسْفِرِ

---

(١) رسيل : قرين (٢) البهم : جمع بهيم ، وهو الأسود ، وشيب : خلط
(٣) السبج : السواد ، والعقيق : أراد الأحمر

وجنيتمُ ثمــرَ الوقائع يانعاً ... بالنَّصرِ من ورق الحديد الأخضَرِ

أبنى العوالى السَّمهريّة والسيو ... ف المَشرَفيَّة والعديد الأكْثرِ

مَنْ مِنكُمُ الملكُ المطاعُ كأنّهُ ... تحت السَّوابغِ تُبَّعٌ فى حِمْيَرِ

القائد الخيــلِ العِتَاقِ شــوازِباً ... خُزْراً إلى لحظ السِّنان الأخْزَرِ (١)

شُعْثَ النَّوَاصى حَسْرَةَ آذانُها ... قُبَّ الأياطل داميات الأنْسُرِ (٢)

تنبُو سنا بكهن عن عفَرِ الثرى ... فيَطَأْنَ فى خَدِّ العزيز الأصْعَرِ (٣)

فى فتية صدأُ الحديدِ عَبِيرُهم ... وخَلوقُهم عَلَقُ النَّجيع الأحمرِ (٤)

لا يأكل السِّرْحَانُ شِلْوَ عقيرهم ... ممــا عليه من القَنــا المتــكَسِّرِ (٥)

وقال فى قصيدة يمدح بها إبراهيم بن جعفر بن على :

فخــرٌ لطرف أعوجى أنتَ فى ... صهواتِهِ والحســن والتَّطهيمُ (٦)

يُبْدِى لعزِّك نَخْوَةً ، فكأنَّهُ ... مَلِكٌ تَدينُ له الملوكُ عظيمُ

هادٍ على الخيلِ العِتاق ، كأنّهُ ... بين الدُّجُنَّة والصباح صَرِيمُ (٧)

---

(١) شوازب : جمع شازب ، وهو الفرس الضامر ، والخزر: جمع أخزر ، وهو الذى ينظر بمؤخر عينه

(٢) الأياطل : جمع أيطل وهو الخصر ، وقب: جمع أقب وقباء من القبب بالتحريك وهو دقة الخصر وضمور البطن ، والأنسر: جمع نسر ، وهو ما ارتفع فى باطن حافر الفرس من أعلاه .

(٣) الأصعر : الذى يصعر خده ويميله عن النظر إلى الناس تهاونا وكبرا

(٤) النجيع : دم الجوف ، والعلق : الدم الغليظ ، والخلوق : الطيب

(٥) السرحان :الذئب ، والشلو : العضو والجسد

(٦) التطهيم : الحسن ، يقال: جواد مطهم ، ورجل مطهم ، وامرأة فى خلقها تطهيم

(٧) العتاق : الخيل الجياد ، والدجنة : الظلمة ، والصريم : المنقطع ، وأصله الرملة المنصرمة من الرمال . والمراد أن لونه وسط بين السواد والبياض فهو كميت

سامى القَذال بِمِسْمَعَيْهِ عيـافَةٌ تحت الدُّجى ولطَرْفِه تَنْجيم[١]

أذُن مُؤَلَّلةٌ ، وقلب أصْمَعٌ وحَشًا أقبُّ ، وكَلْكَلٌ ملموم[٢]

فالطَّوْدُ من صَهوَاتِهِ مُتزَلْزِلٌ والجيشُ من أنفَاسِه مَهْزُومُ

خَرَقَ العيونَ فَضَلَّ عنها لونُه وصفَا فقُلْنَا ما علـــيه أديمُ

فكأنما جَمَدَتْ عليـه مُزْنَةٌ والجابَ عَنه عارِضٌ مَرْكُرم[٣]

وكأنمـا نُحِرَتْ عليه بَوارِقٌ وكأنمـا كُسِفَتْ عليـه نُجومُ

وكأنّكَ ابنُ المنذرِ النعمانُ فو ق سراته ، وكأنه اليَحْمُومُ[٤]

لعلى بن محمد الإيادى

وقال على بن محمد الإيادى يصف فرس أبى عبد الله جعفر بن أبى القاسم القائم :

وأقبُّ من لحق الجيادِ ، كأنه قَصْرٌ تباعَدَ رُكْنُهُ من رُكْنِه[٥]

لَبِسَتْ قوائمُـهُ عصائبَ فِضَّةٍ وغدَتْ بِسُمْرِ صفَا المسيل ودُكْنِه

وكأنما انفجرَ الصَّباحُ بوجهِهِ حُسْناً ، أو احْتَبَس الظلامُ بمَتْنِه[٦]

قَيْدُ العيون إذا بصرْنَ بشَخْصه ورضا القلوب إذا اصطلَيْنَ بضِغْنِه

مُتَسَيْطِر بالراكبينَ ، كأنَّهُ بَازٍ ترُوح به الجَنوب لوَكْنِهِ[٧]

---

(١) القذال : معقد العذار من الفرس خلف الناصية ، والعيافة : زجر الطير وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها وأنوائها فتتسعد أوتتشأم ، والعائف : المتكهن بالطير أو غيرها ، والتنجم : النظر فى النجوم بحسب مواقيتها وسيرها ،والمراد أن أذنى هذا الجواد تدلانه على مواقع الخير والشر فى الظلام

(٢) مؤللة : من قولهم «أل الفرس» إذا نصب أذنيه وحددهما ، والقلب الأصمع: هو الذكى المتيقظ ، والأقب : الضامر . والكلكل : الصدر، ومن الفرس ما بين محزمه إلى مامس الأرض منه إذا ربض.

(٣) العارض : السحاب المعترض فى الأفق ، والمركوم : المتراكم الذى جمع بعضه فوق بعض . (٤) اليحوم : علم على فرس النعمان بن المنذر (م)

(٥) أقب : ضامر دقيق ، ولحق : ضمر (م) (٦) متنة : ظهره (م)

(٧) الوكن : العش ومثله الوكنة .

يستوقف اللحظات فى خطراته ... بكمال خلقته ودقة حسنه
حلو الصهيل تخال فى لهواته ... حاد يصوغ بدائعاً من لحنه[1]
متجبر ينبى بعتق نجاره ... إشراف كاهله ودقة أذنه[2]
ذو نخوة شمخت به عن نده ... وشهامة طمحت به عن قرنه[3]
وكأنه فلك إذا حركته ... جار على سهل البلاد وحزنه
قد راح يحمل جعفر بن محمد ... حمل النسيم لوابل من مزنه

لأبى الطيب المتنبى

وما أحسن ما قال أبو الطيب المتنبى :

ويوم كليل العاشقين كمنته ... أراقب فيه الشمس أيان تغرب[4]
وعينى إلى أذنى أغر كأنه ... من الليل باق بين عينيه كوكب[5]
له فضلة عن جسمه فى إهابه ... تجىء على صدر رحيب وتذهب[6]
شققت به الظلماء ، أدنى عنانه ... فيطغى ، وأرخيه مراراً فيلعب[7]
وأصرع أى الوحش قفيته به ... وأنزل عنه مثله حين أركب[8]
وما الخيل إلا كالصديق قليلة ... وإن كثرت فى عين من لا يجرب
إذا لم تشاهد غير حسن شياتها ... وأعضائها فالحسن عنك مغيب[9]

---

(١) اللهوات : مجارى الحلق
(٢) عتق النجار : كرم العنصر (٣) الند ، ومثله القرن : النظير
(٤) كمنته : أى كمنت فيه واستترت (٥) أغر : من الغرة وهى البياض فى جبهة الفرس
(٦) الإهاب : الجلد ، وهو يصف الفرس بعرض الصدر وسعة الجلد لتسهل عليه سرعة العدو
(٧) العنان : اللجام
(٨) قفيته : اتبعته ، ومثله : منصوب على الحالية من الضمير فى (عنه). يريد وصف الحصان بدوام النشاط فهو عند النزول مثله عند الركوب
(٩) الشيات : الألوان

مقامة لبديع الزمان فى وصف فرس

وينخرط فى سِلْكِ هـــــذا المعنى مقامة[١] من مقامات الإسكندرى فى الـكُدْية[٢] مما أنشأه بديعُ الزمان وأملاه فى شهور سنةِ خمسٍ وثمانين وثلثمائة .

قال البديع :

حدَّثنا عيسى بن هشام قال : حضرنا مجلسَ سيف الدولة يوماً وقد عُرِضَ عليه فَرَسٌ * متى ماتَرَقَّ العين فيه تَسهَّل[٣] * فلحَظَتْهُ الجماعة ؛ فقال سيف الدولة : أيكم أحْسَنَ صفته ، جعلته صِلَتَه ؛ فـكلٌّ جَهد جَهْدَه ، وبذل ماعِنْده؛ فقال أحد خدَمِه : أصْلَح الله الأمير ! رأيْتُ بالأمس رجـلا يَطأُ الفَصاحَة بنَعْلَيْه[٤] ، وتَقِفُ الأبصارُ عليه ، يُسَلِّى الناس ، ويشفى الياس ، ولو أمر الأميرُ بإحضاره ، لفضَلَهم بحِضَاره[٥] .

فقال سيفُ الدولة : علىّ به فى هيئته ، فصار الخدمُ فى طلبه ، فجاءوا للوقت به ، ولم يُعْلِمُوه لأىّ حالٍ دُعِىَ به ، ثمَّ قُرِّب واستُدْنى ، وهو فى طِمْرَيْنِ قد أكل الدهرُ عليهماوشرب[٦] ، وحين حضر السِّماط ، لثَمَ البساطَ ، ووقف . فقال سيف الدولة : بلغَتْناعنك عارضة[٧] ، فاعْرِضْها فى هذا الفرس وصِفْه . فقال : أصلح اللهُ الأمير ! كيف به قبلَ ركوبه ووُثوبه ، وكَشْفِ عيوبه [وغُيُوبِهِ] ؟ فقال : اركَبْه ، فركبه وأجْراه ، ثم قال: أصلح اللهُ الأميرَ ! هو طويل الأُذنين،

---

(١) هذه المقامة شرحها مؤلف زهر الآداب فليعد القارىء إلى شرحه فى الصحيفة التى تلى المقامة ، وليكتف منا بما نراه من الشرح القليل (وانظر مقامات البديع ١٥٠ بيروت) (٢) الـكدية : قسوة الدهر ، والمراد هنا الاستجداء

(٣) يريد أن أعلاه وأدناه مستويان فى الحسن ، وهذا التعبير مأخوذ من معلقة امرىء القيس

(٤) كناية عن انقيادها له (٥) الحضار ـ بالكسر ـ أصله جودة السير وسرعته

(٦) الطمران : ثوبان باليان (٧) العارضة : سرعة البديهة

قليل الاثنين، واسع المَرَاثِ[١]، لين الثلاث، غَليظ الأكْرُع[٢]، غامض الأربع، شَديد النَّفْس، لطيف الخَمْس، ضيق القَلْتِ[٣]، رقيق السِّتّ، حديد السَّمع، غليظ السَّبع، رقيق اللسان[٤]، عريض الثَّمان، شديد الضِّلْع[٥]، قصير التِّسع، واسع السَّحْر[٦]، بعيد العَشْر، يأخذ بالسَّابح، ويُطْلِقُ بالرَّامح، ويَطْلُع بلائح، ويَضْحَكُ عن قارح، يحزّ وَجْهَ الكَدِيد[٧]، بمداقّ الحديد، يُحْضِر كالبَحْر إذا ماجَ، والسيل إذا هاج.

فقال سيفُ الدولة: لك الفرس مُباركاً فيه. فقال: لازلت تأخُذُ الأنفاس، وتَمْنَحُ الأفراس، ثم انصرف، وتبعتُه، وقلت: لكَ عليَّ ما يليقُ بهذا الفرس من خِلْعَةٍ إن فسَّرْتَ ما وصفْتَ؛ فقال: سَلْ عما أحببت

فقلت: مامعنى قولك: بعيدُ العشر؟ فقال: بَعيد النظر، والخَطْو، وأعالى الجَنْبَيْنِ[٨]، وما بين الوَقْبَيْن والجَاعِرَتَيْنِ، وما بين الغُرَابَيْنِ، والمنخرين، ومابين الرِّجلين، ومابين النقبة والصِّفاق، وبعيد القامَةِ فى السباق.

فقلت: لا فُضَّ فُوك! فما معنى قولك: قصير التِّسْع؟ قال: هاك: قصير الشَّعرة، قصير الأُطْرَة، قصير العَسيب، قَصير القضيب، قصير العَضُدَين، قصير الرُّسْغَيْن، قصير النَّسَا، قصير الظَّهر، قصير الوَظيفِ.

فقلت: لله أنت! فمات معنى قولك: عريض الثَّمان؟ قال: عريض الجَبْهَة، عريض الصَّهْوَة، عريض الكتف، عريض الجَنْب، عريض الورك، عريض العَصَب، عريض البَلْدة، عريض صَفْحَة العنق.

فقلت: أحسنت، فما معنى قولك: غليظ السّبع؟ قال: غليظ الذراع،

---

(١) المراث: خوران الفرس، وهو المبعر (٢) الأكرع: جمع كراع، وهو مادون الكعب (٣) القلت: النقرة فى رأس الورك (٤) فى المقامات «دقيق اللسان» (م)

(٥) وفيها «مديد الضلع» (م) (٦) وفيها «واسع الشجر» وفى نسخة «واسع النحر» (م) (٧) الكديد: الأرض الغليظة، وفى المقامات «وجه الجديد» (م)

(٨) بعد أعالى الجنبين كناية عن متانة الخلق

غليظ المخْزِمِ ، غليظ العُكْوَة ، غليظُ الشَّوَى، غليظ الرُّسْغِ ، غليظ الفَخِذَيْن ، غليظ الجِبَالِ [١] .

فقلت : لله درُّك ! فما معنى قولك : رقيق الستّ ؟ فقال : رقيق الجَفْن ، رقيق السَّالِفَة ، رقيق الجَحْفَلة ، رقيق الأديم ، رقيق أعْلَى الأُذنين ، رقيق العُرْضَيْن [٢] .

فقلت : أجَدْتَ ، فما معنى قولك : لطيف الخمس ؟ قال : لطيف الزَّوْر ، لطيف النَّسْر ، لطيف الجُبَّة ، لطيف المُجَايَة ، لطيف الرَّكْبَة .

فقلت : حياك الله ! فما معنى قولك : غامض الأربع ؟ قال : غامض أعالى الكَتِفَيْن ، غامض المَرْفِقَيْن ، غامض الحِجَاجَيْنِ ، غامض الشَّظَى .

قلت : فما معنى قولك: لَيِّن الثلاث؟قال: لَيِّن المَرْدَغَتَيْن، لَيِّن العُرْفِ ، لَيِّن العِنان

قلت : فما معنى قولك : قليل الاِثْنين ؟ قال:قليلُ لَحْم الوجه ، قليل لحم المَتْنَين .

قلت فمن أين نَبَاتُ هذا العلم؟ قال:من الثغور الأموية ، و بلاد الإسكندرية .

فقلت له : أنت مع هذا الفضلِ ، تُعَرِّضُ وجهكَ لهذا البَذْلِ ؟! فأنشأ يقول :

ساخِفْ زمانك جِدًّا فالدهر جِدُّ سَخِيفِ
دَعِ الحَمِيَّةَ يِسْيًا وعِشْ بخَيْرٍ وريفِ
وقُلْ لعبدك هَذا يَجِئْ لنا برَغِيفِ

سقط عنا تفسيره فى « لَيِّن الثلاث » [٣] ، وأكثرُ هذا التفسير يحتاجُ إلى

---

(١) الجبال : جمع حبل ، والمراد بها هنا العروق ، وهكذا وقع هذا « اللفظ» وسيكرره المؤلف فى شرح ألفاظ هذه المقامة ، ووقع فى أصل المقامات (١٥٥ بيروت « غليظ الحاذ » والحاذ : الظهر ، أو موضع اللبد من الفرس (م)

(٢) فى المقامات « العرضين » بالعين المهملة (م)

(٣) قول المؤلف : « سقط عنا تفسيره فى لين الثلاث » يدل على أن المقامة التى أثبتها لم يكن فيها تفسير « لين الثلاث » ولكن النص الموجود فيه تفسير ذلك ، فمن المرجح إذن أن يكون بعض النساخ أضاف هذا التفسير إلى المقامة نقلا عن إحدى نسخ المقامات ، وقد فات ذلك الناسخ أن يشير إلى أن المؤلف نقل عن نسخة لم يكن فيها تفسير « لين الثلاث »

تفسير، ولم يُرِدْ بما أورد إفهام العوامّ ، والبلاغة لمحة دالة ، و بلاغة النثر أُخت بلاغة الشعر ؛ وقد قال البحترى :

والشعر لمح تكفى إشارتهُ وليس بالهَذْر طُوِّلت خُطَبُهْ

وسأقول فى شرحه بكلام وجيز زيادة فى الإفادة : الوَقْبان : نُقْرتان فوق العينين . والجاعِرتان من الفرس : موضع الرَّقمتين من الحمار ، وهما منتهى ضَرْبه بذَنَبه إذا حرَّكه . والغرابان : الناتئان من أعلى الوركين ، وذكر النقبة هنا ، وهو الذى يُعْرف بالمنْقَبِ ، وهو من السُّرَّة حيث ينقب البيطار . والصِّفاق : الخاصرة ، وقد قيل : جلد البطن كلّه صفاق ، والذى أراده الخاصرة . وأراد ببُعْد القامة فى السباق امتدادَهُ إذا جرَى مع الأرض . والأُطرَة هنا : طرف الأبْهر ، وهى طِفطفة غليظة . والأبهر : عِرْق يستبطن الظّهر ، فيتّصل بالقلب ، وقيل : هو الأكحل . والعسيب : عظم الذنب . والرُّسْغ من الفرس : موضع القيد . والنَّسا : عرق مستبطن الفخذين ، وقِصَره محمود فى جرْىِ الفرس ، ولكنه لا يسمح بالمشى . والوظيف لكل ذى أربع : ما فوق الرُّسْغ إلى الساق . والصَّهوة : الظهر . والبَلْدة : مابين عينيه . والعُكْوَة : مغرز الذَّنَبْ . والشَّوى : الأطراف . والحبال : حبلا العاتق والظَّهْر . والجَحْفَلة من ذوات الحافر : كالشفة من الإنسان . والغُرْضَان من الفرس : ما انحدر من قَصَبة الأنف من جانبيها . والزور : الصدر . والنَّسْر فى الحافر : لحمة يابسة أسفله يشبهها الشعراء بالنَّوى . والجُبَّة : التى فيها الحوشب . والحَوْشَب : حشو الحافر . والعُجَاية : عَصَب فى قوائم الفرس والبعير مركّب فيه فصوص من عظام كأمثال الكِعَابِ تكون عند الرّسغ . والحِجَاجان : العظمان المُطيفان بالعين . والشَّظَى : عظم لاصقٌ بالذراع . والمتنان : جانبا الظهر ؛ وسقط عنّا تفسير الثّلاث من نفس المقامة[١] .

---

(١) تلك الثلاث هى « لين المردغتين » والمردغة : مابين العنق إلى الترقوة ، ثم «لين العرف» وهوالشعر الغزير النابت على عنق الفرس ، ثم «لين العنان» وهو سير اللجام ، ولين العنان : كناية عن طاعة الجواد

[قولهم فى الوعد ومنزلة إنجازه]

بين أبى القاسم المسعودى وعيسى بن موسى

قال الجاحظ : قال أبو القاسم بن معن المسعودى لعيسى بن موسى : أيُّها الأمير ؛ ما انتفعتُ بك مُنْذُ عرفتُك ، ولا إلى خيرٍ وصلتُ منك منذ صَحِبْتُك ، فقال : ولم ؟ ألم أُكلِّمْ لك أميرَ المؤمنين فى كذا وكذا ؟ قال : بلى ! فهل استنجزتَ ما وُعِدْت ، وعاودت ما ابتَدَأْت ؟ فقال : حالَتْ دون ذلك أمورٌ قاطعة ، وأحوالٌ عاذرة . قال : أيُّها الأمير ، فما زِدْتَنِي على أنْ نبَّهْتَ الهمَّ من رَقْدَته ، وأثَرْتَ الحُزْنَ من رَبْضَتِه ، إنَّ الوعدَ إذا لم يصحَبْه إنجازٌ يحقِّقُه كان كلفظٍ لا مَعْنى له ، وجسمٍ لا روحَ فيه .

بين منصور بن زياد ويحيى بن خالد

وكلَّم منصورُ بنُ زيادٍ يحيى بنَ خالدٍ فى حاجةٍ لرجلٍ ، فقال : عِدْه قَضَاءَها . قال : فقلت : أصلحك الله ! وما يَدْعُوك إلى العِدَة مع وجود القدرة ؟ فقال : هذا قولُ من لا يعرفُ موضِعَ الصَّنائع من القلوب ، إنَّ الحاجَـةَ إذا لم يتقدَّمها مَوْعِدٌ يُنتظر به نُجْحُها لم تتجاذَب الأنفس سرورها ؛ إنّ الوَعْدَ تطعُّم والإنجاز طَعَام ؛ وليس من فَاجأهُ طعامٌ كمن وجَدَ رائحته ، وتمطَّق به ، وتطعَّمه ثم طَعِمه ؛ فدَعِ الحاجَة تَخْتَمِرْ بالوَعْد ؛ ليكونَ بها عند المصطنع حُسْنُ مَوْقع ، ولُطْفُ مَحَلّ .

بين المهدى وابن دأب

ووعد المهديُّ عيسى بنَ دَأْبٍ جَارِيَةً ، ثم وهبها له ، فأنشده عبد الله بن مُصْعب الزبيرى معرِّضاً يقول مضرِّس الأسدى :

فلا تيأسَنْ مِنْ صالِحٍ أنْ تَنَالَهُ　　　وإن كَانَ قِدْماً بين أيْدٍ تُبَادِرُه

فضَحِك المهدى ، وقال : ادفعوا إلى عبد الله فلانة ، لجاريةٍ أخرى ؛ فقال عبد اللهَ بن مصعب :

أَنجزَ خَيْرُ الناسِ قبـل وَعْدِه　　　أراح من مَطْلٍ وطُولِ كَدِّه

فقال ابن دأب : ما قلت شيئاً ، هلاَّ قلت :

حَلَاوَةُ الفضـل بوَعْدٍ يُنْجَزُ . لا خَيْرَ فى العُرْفِ كَنَهْبٍ يُنْهَزُ

فقال المهدى :

الوَعْدُ أحْسَنُ ما يكو نُ إذا تقدَّمَه ضَمَانُ

لأبى قابوس يمدح يحيى بن خالد

وقد قال أبو قابوس النصرانى يمدح يحيى بن خالد :

رأيتُ يَحْيَى ، أتمَّ اللهُ نِعْمَتَهُ عليه ، يَأْتِى الَّذِى لم يَأْتِهِ أحَدُ

يَنْسَى الَّذِى كانَ من معروفه أبداً إلى الرِّجال ، ولا يَنْسَى الذى يَعِدُ

لأبى الطيب المتنبى

وقال أبو الطيب المتنبى :

قَوْمٌ بُلوغُ الغُلامِ عنـدَهُمُ طَعْنُ نُحُورِ الكُماةِ لاَ الحُلُمُ

كأنَّمَا يُولَدُ النَّدَى مَعَهُمْ لا صِغَرٌ عاذِرٌ ولا هَرَمُ

إذا تَوَلَّوْا عداوَةً كَشَفوا وإنْ تَوَلَّوْا صنيعَةً كَتَمُوا

تظُنُّ من فَقْدِكَ اعْتِدادَهُمُ أنَّهُمُ أنعَموا وما عَلِموا[1]

لأبى على البصير فى الفضل بن يحيى

ودخل أبو علىّ البصير على الفضل بن يحيى ، فأنشده :

وُصِفَ الصدُّ لمَنْ أهوَى فصدْ وبدا يَمْزَحُ بالهَجْرِ فجَدّ

مالَهُ يعـدل عَنّى وجْهَهُ وهو لا يعدِلُهُ عندى أحَدْ

لا تُريدوا غِرّةَ الفَضْلِ ، ومنْ يطلب الغِرّةَ فى خِيسِ الأسَدْ[2]

ملكٌ نَدْفَعُ ما نَخْشَى بهِ وَبِهِ نُصْلِحُ منَّا ما فَسَدْ

يُنْجِزُ الناسُ إذا ما وَعَدُوا وإذا ما أنْجَزَ الفضلُ وَعَدْ

لابن الرومى

وقال ابن الرومى فى هذا المعنى :

له مواعـدُ بالخَيْرَاتِ بادِرَةٌ لـكنها تَسْبِقُ الميعادَ بالصَّفَدِ[3]

يُعْطِيكَ فى اليومِ حقَّ اليوم مبتدئاً ولا يُضَيِّع بعْدَ اليومِ حقَّ غَدِ

---

(١) الاعتداد : الاهتمام ، وفى طبعة بولاق « اعدادهم »

(٢) خيس الأسد : عرينه (٣) الصفد : العطاء

[من عرف قدر النعمة استدامها]

بين سليمان بن عبدالملك وأبى وائلة حاجبه

خطب سليمانُ بن عبد الملك فقال : أيها الناسُ ، مَنْ لم يعلم أبْوَابَ مَدْخَله فى الـكرامة ، وجَهِل طريقته التى وقَعَتْ به على النِّعمة كان بِعُرْضِ رُجوعٍ إلى دارِ هوَان ، وانقلابٍ بفادحِ خُسْرَان .

فقام إليه أبووائلة السدوسى، وهو حاجِبُه، فقال : ياأميرَ المؤمنين كنا كما قال الله تعالى : (هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) ، ثم صِرْنا كما قال زُهير :

يَدُ المِلكِ الجليـــلِ تناولَتْهُمْ ... بإحسانٍ فليس لهـا مُزيلُ
لأنَّ الخيرَ أجْمَـــعَ فى يَدَيْه ... ورَبِّى بالجـــزاء له كَفِيلُ

فقال سليمان : هذه والله المعرفةُ بقَدْرِ النِّعمة ، والعلمُ بما يجب للمنعم .

يونس بن المختار وحاجب المأمون

ورؤى يونس بن المختار فى دار المأمون ، ومرتَبَتُه فى أعْلَى مراتِبِ بنى العباس ، قاعداً على الأرض ، فقال الحاجبُ : ارتفِـعْ يا أبَا المعلّى إلى مَرْتَبتِكَ، قال : قد رفعنى الله إليها بأميرالمؤمنين ، وليس لى عملٌ يَفِى بها ، فلِمَ لاأُكْرِمها عن القعود عنها[1] إلى أن يتهيَّأ لى الشكر عليها ؟ فبلغ الكلامُ المأمونَ ؛ فقال : هذا والله غايةُ الشكر ، وبمثله تدرّ النِّعَم .

بين رجل والمعلى بن أيوب

وقال رجل للمعلّى بن أيوب ، وقد رَفَعه المعتصمُ إلى مرتَبَة أهْـل بيته : مايزيدُكَ التقريبُ إلا تباعُداً . فقال : ياهذا ؛ إنى أصُون تقريبَه إياى بتباعدِى منه ؛ لئلا تفسد حُرْمَتى عنده بقلَّةِ الشكرِ على نعمته .

بين المنصور والحارث بن حسان

ولما استعانَ المنصورُ بالحارث بن حسَّان قال له : يا حارث ؛ إنّى قد مكَّنتُك من حُسْنِ رَأْيى فيك ، فاحفَظْهُ بتركِ إغفال مايجبُ عليك ! قال : يا أميرَ

---

(١) فى نسخة بولاق « عليها »

المؤمنين ، مَنْ أغفَل سببَ حُلولِ النعمة ، وَلَهَا عَن الحال التى أصارَتْهُ إليها ، استصحبَ الياسَ من نَيلِ مِثْلِها ، وانقطع رجاؤُه من الزيادة فيهـا ، فقال أبو جعفر : مَنْ كانت عنده هذه المعرفةُ دامَت النعمةُ له ، وبقى الإحسانُ إليه .

بين المأمون وعبد الله بن طاهر

ولما قال المأمونُ لعبد الله بن طاهر عند قدومه من مصر : ما سرَّنى اللهُ منذ ولِّيتُ الخلافةَ بشىء عَظُم موقعُه عندى ، بعد جميل عافيةِ الله ، هو أكثر من سرورى بقدومك ، فقال عبدُ الله : إيذَنْ لى يا أميرَ المؤمنين فى تفريق أموالى من طَارِفٍ وتالد . قال : ولِمَ ؟ قال : شكراً على هذه الكلمة ؛ وإلا قَصَّر بى الحياء عن النظرِ إلى أمير المؤمنين ، فقال المأمون لِمَنْ حضر من أهل بيته وقوّاده : ماشىء من الخلافة يَفِى لعبد الله ببعض شكره .

لأبى نواس فى المعنى

وقال أبو نواس :

قد قلتُ للعباس معتـــذراً ... عن ضعف شكرِ يهِ ومُعْتَرِفا
أنتَ امرؤٌ جَلَّلتَنى نعماً ... أوْهَتْ قُوى شكرى فقد ضَعُفَا[1]
فإليكَ منى اليوم تَقْدِمةً ... تَلْقَاك بالتَّصريح منكشفا
لاتسدينَّ إلىّ عارِفَةً ... حتى أقومَ بشكرِ مَا سَلفَا

للناشى يعارض أبا نواس

عارضه الناشىء واعترض معناه ، فقال :

إنْ أنتَ لم تُحْدِثْ إلىَّ يداً ... حتى أقومَ بشُكْرِ ما سَلفَا
لم أحْـظَ مِنكَ بنائلٍ أبداً ... ورجَعْتُ بالحِرْمان مُنْصَرِفا

لابن الرومى

وقال ابن الرومى :

ماقَنا أنْ نَعودَ أنَكَ أوْلَيْـــتَ أموراً يَضيقُ عَنْهَا الجزاء
غَمَرَتْنَا مِنكَ الأيادى اللّواتى ... ما لِمِعْشارِها لَدَيْنَ كِفاء

---

(١) جللتنى نعما : يريد غمرتنى بها ، وأوهت : أضعفت (م)

فنهانا عنك الحياء طويلاً ثم قد ردّنا إليك الحياء
ولَمَا حقّ إنْ قَرُبتَ التّنائى ولَما حقّ إنْ بَرَزْتَ الجفاء
غيرَ أنّا أنضاء شكرٍ أُريحتْ وقديما أُريحتِ الأنضاء[1]

ألفاظ لأهل العصر

في العجز عن الشكر لتكاثر الإنعام والبر

عنـدى من بِرّه ما ملك الاعتذار بأزِمّته ، وقبض ألسنةَ أمراء الكلام وأئمّته . عنـدى له مبارّ[2] أعجزنى شكرُها ، كما أعوزنى حَصْرها . شُكْرُه شأوٌ بعيدٌ لاتبلغه أشْوَاطى ، ولا أَتلافَى التفريطَ فى حقّه بإفراطى . إحسانُه يُعيد العربَ عُجْما ، والفُصحاء بُكْما . قدْ زحمنى من مكارمه مايَحصَرُ عنه المبين ، ويصحبه العيّ وبئس القَرِين[3] .

وقال أعرابى :

رهنت يَدِى بالعَجْزِ عن شُكرِ بِرّهِ وما فَوْقَ شُكْرِى للشكورِ مَزِيدُ
ولو كان شيئاً يستطاعُ استطعتُهُ ولكنّ مالا يُستَطاعُ شَدِيدُ

وقال يحيى بن أكثم : كنتُ عند المأمونِ ، فأُتى برجل تُرْعَدُ فرائِصُه[4] ؛ فلما مثـل بين يديه قال المأمونُ : كَفَرْتَ نعمتى ، ولم تشكر معروفى ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ وأين يقعُ شكرى فى جَنْبِ ما أنعم اللهُ بك علىّ ، فنظر إلىّ المأمون وقال متمثّلا :

ولو كان يَستغنى عن الشكر ماجدٌ لرفعةِ قَدْرٍ أو علوِّ مَكانِ
لمـا أمر اللهُ العبادَ بشكرهِ فقال : اشكروا لى أيُّها الثقلانِ

---

(١) الأنضاء : المهازيل ــ واحدها نضو بكسر النون وسكون الضاد (م)
(٢) جمع مبرة (٣) نسخة بولاق « ويبز القرين » وهو تحريف
(٤) الفرائص : أوداج العنق

ثم التفت إلى الرجل فقال : هلاّ قلت كما قال أصرم بنُ حميد :

مَلَكت حَمْدِىَ حتى إنّنى رَجُلٌ ... كُلّى بكل ثناء فيك مشتَغِلُ
خُوِّلت شكرى لما خَوَّلت من نِعَمٍ ... فحُرُّ شكرى لما خَوَّلتَنِى خَوَلُ[1]

لأبى الفتح البستى

وقال أبو الفتح البستى :

لئن عَجَزَتْ عن شُكْرِ بِرِّكَ قوّتى ... وأقوَى الوَرَى عن شكرِ بِرِّكَ عاجزُ
فإنّ ثنائى واعتقادى وطاقتى ... لأفلاكِ ما أوليتَنِيها مَرَاكِزُ

وقال أبو القاسم الزعفرانى :

لى لسانٌ كأنه لى مُعَادِى ... ليس يُنْبِى عن كُنْهِ مافى فؤادى
حكم اللهُ لى عليه فلو أنـ ... ـصف قلبى عرفت قَدْرَ ودادِى

بين أبى العتاهية وعمر بن العلاء

وقال إسماعيل بن القاسم ، أبو العتاهية ، يمدحُ عُمر بن العلاء :

إنى أَمِنْتُ من الزمان ورَيْبِهِ ... لما عَلِقْتُ من الأمير حِبَالا
لو يستطيعُ الناسُ من إجلالِه ... لحذَوْا له حُرَّ الوجُوهِ نِعَالا
ما كان هذا الجودُ حتى كنت يا ... عمر، ولو يوماً تَزُولُ لزالا
إنّ المطايا تشتكيكَ لأنّهَا ... قطعَتْ إليك سَبَاسِباً ورِمالا
فإذا ورَدْنَ بنا وَرَدْنَ مُخِفَّةً ... وإذا صدَرْنَ بنا صدَرْنَ ثِقالا

وهى قصيدة سهلةُ الطبع ، سلسلة النظام ، قريبة المتناول .

وروى أنّ عمر بن العلاء وصلَه عليها بسبعين ألف درهم ، فحسدته الشعراء ، وقالوا : لنا بباب الأمير أعوامٌ نخدُم الآمالَ ، ماوصلنا إلى بعض هذا ! فاتصل ذلك به ، فأمر بإحضارهم ، فقال: بلغنى الذى قُلْتُم ؛ وإنّ أحدكم يأتى فيمدحنى بالقصيدة يشبِّب فيها فلا يَصِلُ إلى المدح حتى تذهب لَذّةُ حلاوته ، ورائقُ طلاوته ؛

---

(١) خولتنى : أعطيتنى وملكتنى (م) ــ و الخول : حاشية من العبيد والإماء للواحد والجمع والمذكر والمؤنث

وإنّ أبا العتاهية أتى فشبب بأبياتٍ يسيرة ، ثم قال : إنّ المطايا تشتكيك لأنّها ... وأنشد الأبيات . وكان أبو العتاهية لمّا مدحه بهذا الشعر تأخّر عنه برّه قليلا ، فكتب إليه يستبطئه :

أصابتْ علينا جودَكَ العينُ ياعُمَرْ ... فنحن لها نَبْغِى التمائمَ والنُّشَرْ[١]

أصابتك عَيْنٌ فى سخائك صُلْبةٌ ... ويارُبّ عين صُلْبَةٍ تَفْلقُ الحجَرْ

سَنَرْقِيكَ بالأشعارِ حتى تملّها ... فإن لم تُفِقْ منها رقَيْنَاكَ بالسُّوَرْ

وقال :

يابْنَ العَلاء ويابْنَ القَرْم مرداسٍ ... إنى مَدَحْتُكَ فى صَحْبِى وجُلّاسى[٢]

أُثْنِى عليك ولِى حالٌ تُكَذِّبُنِى ... فيما أقول فأَسْتَحْيِى مِنَ النّاسِ

حتى إذا قيل : ماأَوْلاكَ من صَفَدٍ ... طأطأتُ من سُوء حالى عندها رَاسِى[٣]

فأمرحاجبه أن يدفع إليه المال ، وقال : لا تُدْخِلْه عَلَىّ ، فإنى أسْتَحْيِى منه .

وذكر بعضُ الرواةِ أنّ المهدى خرج متصيّداً ، فسمع رجلا يتغنّى من القصيدة التى مرّت منها الأبيات فى عمر بن العلاء آنفا :

يا مَنْ تفرّدَ بالجمال فما تَرَى ... عينى على أحَدٍ سِوَاهُ جَمالا

أكثرتَ فى قولى عليكَ من الرُّقَى ... وضرَبْتُ فى شِعْرِى لكَ الأمْثَالا

فأبَيْتَ إلاّ جَفْوةً وقَطِيعةً ... وأبيت إلاّ نَخْوةً ودَلالاَ

باللهِ قولى إنْ سألتك واصْدُقِ ... أوَجَدْتَ قَتْلِى فى الكتاب حَلالاَ

أم لاَ ، ففِيمَ جَفَوتنِى وظلَمْتَنِى ... وجعلتنى للعالمين نَكالاَ

كم لائمٍ لو كنت أسْمَعُ قولَه ... قد لامنى ونَهَى وعَدَّ وَقالاَ

---

(١) النشر : جمع نشرة بالضمة ، وهى الرقية يداوى بها المريض والمجنون .

(٢) القرم ـ بالفتح ـ الفحل .

(٣) الصفد ـ بالتحريك ـ العطاء .

فقال المهدىّ : عَلَىَّ به ، فجاءه ، فقال : لِمَنْ هذا الشعر ؟ قال : لإسماعيل ابن القاسم أبى العتاهية ، قال : لمن يقوله ؟ قال : لعُتْبة جارية المهدى ، قال : كَذَبْتَ ، لو كانَتْ جاريتى لوَهَبْتُها له ، وكانت عُتبة لرَيطة بنت أبى العباس السفاح ، وكان أبو العتاهية قد بلغ من أمرها كل مبلغ ، وكلّ ذلك فيما زعم الرواةُ تصنُّع ، وتخلّق ؛ ليُذكَر بذلك .

[من أخبار أبى العتاهية]

ولوعه بعتبة

قال يزيد [بن] حوراء المغنى : كلّمنى أبو العتاهية أنْ أُكَلِّمَ المهدى فى عتبة ؛ فقلت : إنّ الكلام لا يمكننى ، ولكن قل شعراً أُغنيه إياه ، فقال :

نفسى بشىء من الدنيـا مُعَلَّقَةٌ   اللهُ والقـائمُ المهدِىُّ يَكْفِيها
إنّى لأَيأَسُ منها ثم يُطْمِعُنى   فيها احتقارُك للدنيـا وما فِيها

فعملت فيه لَحناً وغنَّيتـه المهدى ؛ فقال : لِمَنْ هذا ؟ فأخبرته خَبَرَ أبى العتاهية . فقال : ننظرُ فى أمره ، فأخبرت بذلك أبا العتاهية ؛ فمكث أشهراً ، ثم أتانى فقال: هل حَدَثَ خبر ؟ فقلت : لا ، فقال : غَنِّه بهذا الشعر :

ليت شِعْرِى ماعندكم ليت شعرى   إنّما أُخِّرَ الجـــوابُ لِأَمْرْ
ما جوابٌ أَوْلى بكلِّ جميـــلٍ   من جوابٍ يُرَدّ من بَعْدِ شَهْرِ

قال يزيد : فغنَّيْتُ به المهدى ، فقال : علىَّ بعُتبة ، فأحضرت ، فقال : إنَّ أبا العتاهية كلَّمنِى فيك ، وعندى لكِ وله ما تحبَّانِ ؛ فقالت له : قد علم مولاى أمير المؤمنين ما أوْجَبه من حق مولاتى ، فأريد أن أذْكُرَ لها ذلك ؛ قال : فافعلى ؛ فأَعْلَمْتُ أبا العتاهية بما جرى ، ومضت الأيامُ ؛ فسألنى معاودةَ المهدى ، فقلتُ له : قد عرفْت الطريقَ فقل ما شئت حتى أُغنيه ، فقال :

أشربتَ قَلْبِى مِنْ رَجائك مالَهُ   عَنَقٌ إليكَ يَخبُّ بى ورَسِيمُ(١)

---

(١) العنق والرسيم : من أنواع السير السريع .

وأمَلْتُ نحو سماء صوْبِك ناظِرِى   أرْعَى مَخَايِلَ بَرْقِها وأشِيمُ[١]
ولقد تنَسَّمْتُ الرياحَ لحاجتى   وإذا لها من راحَتَيْك نَسِيمُ
ولربما استيأست ثم أقولُ : لا   إنّ الذى ضَمِنَ النجاحَ كريمُ

فغنيته بالشعر ، فقال : عَلَيَّ بعُتبة ، فأتت ؛ فقال : ماصنعت ؟ قالت : ذكرت ذلك لمولاتى فأبَتْه وكرِهَتْه ، فليفعَلْ أميرُ المؤمنين ما يريد ، فقال : ما كنتُ لأفعل شيئاً تكرهه ، فأعلمت أبا العتاهية بذلك ، فقال :

قطَّعت منك حبائلَ الآمالِ   وأرَحْت من حلٍّ ومن ترحالِ
ما كان اشأمَ إذْ رجاؤك قادَنِى   وبناتُ وعدك يَعْتَلِجْنَ ببَالِى
ولئن طَمِعْتُ لَرُبَّ برقٍ خُلَّبٍ   مالَتْ بذى طَمَعٍ ولُمْعَةِ آلِ[٢]

وقد نُقِلت هذه الحكاية على غير هذا الوجه ، والله أعلم بالحقّ فى ذلك .

المهدى يضرب أبا العتاهية مائة سوط

وضرب المهدى أبا العتاهية مائة سوط لقوله :

ألاَ إنَّ ظَبْياً للخليفة صادَنِى   ومالى على ظَبْىِ الخليفة من عدْوَى

وقال : أبى يتمرَّسُ[٣] ، ولحرمى يَتعرَّضُ ، وبنِسائى يَعْبث ؟ ونفاهُ إلى الكوفة .

وفى ضربه يقول أبو دُهمان :

ولا الّذِى أحْدَث الخليفةُ للعشاق من ضَرْبِهِمْ إذا عشقوا
لبُحْتُ باسمِ الذى أُحِبُّ ، ولكنّى امرُؤٌ قد ثنانِىَ الفرَقُ[٤]

---

(١) أشيم : أنظر .
(٢) البرق الخلب : ما لامطر فيه ، والآل : السراب .
(٣) يقال : تمرس بالشىء وامترس ، إذا احتك به .
(٤) الفرق ـ بالتحريك ـ الخوف ـ وثنانى : صرفنى ومال بى عما أريد (م).

من شعره في عتبة

وكان أبو العتاهية بالكوفة لما نفى يَذْكُرُ عُتبة ، ويكنّى باسمها ، فمن ذلك قوله :

قل لمن لَسْتُ أسمّى بأبى أنت وأمّى
بأبى أنت لقد أصبحْتِ من أكبرِ همّى
ولقد قلت لأهْلى إذْ أذاب الحبُّ لَحْمِى
وأرَادُوا لى طبيباً فاكتَفُوا منّى بعلمى :
من يكن يَجْهَلُ ما ألْقَى فإنَّ الحبَّ سُقْمِى
إنَّ رُوحِى لبغدا دَ ، وفى الكوفةِ جِسْمِى

وقوله :

أمسى ببغدادَ ظَبْىٌ لَسْتُ أذْكُرُهُ إلاَّ بَكَيْت إذا ما ذِكْرُه خَطَرا
إنَّ المحبَّ إذا شطَّتْ مَنازِلُهُ عن الحبيب بكى أوْ حَنَّ أو ذَكَرا
يا ربَّ لَيْلٍ طويلٍ بِتُّ أرْقُبهُ حتى أضاء عمودُ الصُّبْح فانفَجَرا
ما كنتُ أحسِب إلاَّ مُذْ عرفتكُمُ أنَّ المضَاجعَ مِمَّا تُنبِتُ الإبَرا
وَاللَّيلُ أطْوَلُ مِنْ يَوْمِ الحِسَابِ عَلَى عَيْنِ الشَّجِىِّ إذا مَا نَوْمُهُ نَفرا

بين المهدى وأبى العتاهية

ولما قدمت عُتبة ببَغْداد قدِم معها أبو العتاهية، وتلطَّف حتى اتَّصل بالرشيد فى خلافة أبيه المهدى ؛ وتمكَّن منه ، و بلغ المهدىَّ خبرُه ، فأحضره ؛ فقال : يابائس؛ أنت مستقتل ، وسأله عن حاله ؛ فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

أنتَ المُقَابِلُ والمُدَا بِرِ فِى المناسبِ والعَديدِ
بَيْنَ العُمُومَـةِ والخُئو لَةِ والأُبُوَّةِ والجُدُودِ
فَإِذَا انْتَمَيْتَ إلى أبيـكَ فَأنْتَ فِى المَجْدِ المَشِيدِ
و إذا انْتَمَى خَالٌ فَمَا خالٌ بِأكْرَمَ مِنْ يَزِيدِ

يريد يزيد بن منصور ؛ وكانت أم المهدىّ أم موسى بنت منصور الحميرى وأنشده :

عِلِمَ العَالِمُ أنّ المَنَايا سامعاتٌ لكَ فيمَنْ عصَاكا
فإذا وجّهتَهَا نحوَ طاغٍ رجَعَتْ تَرْعُفُ منه قنَاكا(١)
وَلَوَ أنّ الريحَ بارَتْكَ يوْماً في سماحٍ قصَّرت عنْ نداكا

وأنشده:

أتتهُ الخلافَةُ مُنْقَادَةً إليهِ تُجَرِّرُ أذيالَهَا
فلم تَكُ تَصْلُحُ إلاَّ لهُ ولم يكُ يَصْلُحُ إلاَّ لهَا
ولو رامَها أحدٌ غيرهُ لزُلزِلَت الأرضُ زِلزَالَهَا
ولولم تُطِعه بناتُ القلوبِ لمَا قَبِل اللهُ أعمالَهَا

فقال له المهدى: إن شئت أدَّبناك بضَرْبٍ وجيع ؛ لإقدامك على مانُهيت عنه ، وأعطيناك ثلاثين ألف درهم جائزةً على مَدْحِك لنا . وإن شئتَ عَفَوْنا عنك فقط .

فقال : بل يُضِيف أميرُ المؤمنين إلى كريم عفوه جميلَ معروفه ؛ ومكرُمتان أكثرُ من واحدة ، وأميرُ المؤمنين أولى من شَفع نعمَته وأتمّ كرمه . فأمر له بثلاثين ألف درهم وعفا عنه .

الرشيد يحبسه على ترك الشعر

ولما قدم الرشيدُ الرَّقّة أظهر أبو العتاهية الزّهد والتصوف وترْكَ الغَزل ، فأمره الرشيد أن يتغزّل ، فأبى ، فحبسه ، فغنّى بقوله :

خَليليَّ مَالى لا تَزالُ مَضرّتى تكونُ على الأقدار حتْماً من الحتْم
كفاكَ بحقّ اللهِ ما قد ظلمتَنِي فهذا مقامُ المستجيرِ من الظلم
ألا فى سبيل الله جسْمى وقُوّتى ألا مُسعِدٌ حتى أنوحَ على جِسْمِى

---

(١) ترعف : أراد به تسيل دما .

فأمر بإحضاره وقال : بالأمس يَنْهاك أميرُ المؤمنين المهدى عن الغزَل فتأبَى إلاّ لَجاجا ومَحْكا ؛ واليوم آمرك بالقول فتأبَى جُرْأة علىّ و إقداما ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئات ، كنتُ أقول الغزلَ ولى شباب وجِدَة ، وبى حَراك وقُوّة ، وأنا اليوم شيخٌ ضعيف لا يحسن بمثلى تَصابٍ فردّه إلى حبسه ؛ فكتب إليه :

أنا اليوم لى ، والحمدُ لله ، أشْهرٌ ... يَرُوح علىَّ الغمُّ منك وَيَبْكُرُ

تذكَّرْ،أمينَ اللهِ، حَقّى وحُرْمَتِي ... وما كنتَ تُولِينِي ، لعلَّك تَذْكُرُ

ليالىَ تُدْنِي منك بالقُرب مجلسى ... ووجهُك من ماء البشاشة يقطُرُ

فمَنْ لىَ بالعين التى كنتَ مرةً ... إلىَّ بها من سالفِ الدَّهْر تَنْظُرُ

فبعث إليه : لا بأس عليك ؛ فقال :

كأنَّ الخلقَ رُكِّبَ فيه رُوحٌ ... له جَسَدٌ وأنْت عليه راسُ

أمين الله إنَّ الحبس بأسٌ ... وقد وقّعتَ : ليس عليك باسُ

فأخرجه .

أخذ البيتَ الأول من هذين علىّ بن جبلة وزاد فيه ، فقال لأبى غانم الطوسى

دجلة تَسْقِى وأبو غانمٍ ... يُطْعِمُ مَنْ تَسْقِى من النَّاسِ

والخلقُ جِسمٌ، وإمامُ الهدى ... رَأْس،وأنتَ العينُ فى الرَّاس

***

بشار يمدح عمر بن العلاء

وكان عمر بن العلاء ممدَّحا ، وفيه يقول بشار بن برد :

إذا أيقَظَتْكَ حُرُوبُ العِدَى ... فنَبِّه لها عُمراً ثمَّ نَمْ

دَعَانِى إلى عُمَرٍ جودُهُ ... وقولُ العشيرة بَحْرٌ خِضَمْ

ولولا الذى ذكروا لم أكُنْ لأمْدَح ريحانةً قبل شَمْ
فتًى لا يَبيتُ على دِمْنَةٍ ولا يشرب الماء إلاّ بدَمْ[(١)]

لأبى سعد المخزومى

أخذ هذا البيت أبو سعيد المخزومى[(٢)]، فقال :

وما يُريدون ، لولا الجبن ، من رَجُل بالليل مشتَمِل بالجَمْر مُكتَحلِ
لايضربُ الماء إلا من قليبِ دمٍ[(٣)] ولا يبيتُ له جارٌ على وَجَلِ

وقال أبو الطيب :

لأبى الطيب المتنبى

تعوَّدَ ألاَّ تَقْضَمَ الحبَّ خيلُهُ إذا الهامُ لم تَرْفَع جُنوبَ العَلائقِ[(٤)]
ولا تَرِدِ الغُدران إلاَّ وماؤُهَا مِنَ الدَّمِ كالرَّيْحَانِ تحتَ الشَّقائقِ[(٥)]

وقال أبو القاسم بن هانىء :

---

(١) الدمنة هنا معناها الحقد الثابت .

(٢) كان أستاذنا المرحوم الشيخ سيد المرصفى أملانا أنه « أبو سعد » بدليل قول من هجاه :

إن أبا سعد فتى ماجد يعرف بالكنية لا الوالد
ينشد فى حى معد أبا ضل عن المنشود والناشد
فرحمة الله على مسلم يرد مفقوداً على فاقد

(٣) القليب : البئر .

(٤) القضم : أكل اليابس ، والهام : الرؤوس ، والعلائق : جمع علاقة وهى ما يتعلق به الشىء ، والمراد المخالى . قال ابن جنى: سألت أبا الطيب عن معنى هذا البيت ، فقال : الفرس إذا علقت عليه المخلاة طلب لها موضعاً مرتفعاً يجعلها عليه ثم يأكل فخيله أبداً إذا أعطيت عليقها جعلته على هام الرجال الذين قتلهم لكثرة ما هناك منها.

(٥) الغدران : جمع غدير ، وهو القطعة من الماء يغادرها السيل ؛ وفى الأصل « الغربان » ، والشقائق : جمع شقيق . وهو زهر أحمر

لابن هانىء

مَنْ لَمْ يَرَ المَيْدَان لَمْ يَرَ مَعْرَكاً   أشبأ ، ويَوْماً بالأسنة أكْهَبَا[1]
وكتائبا تُرْدِى غَوَارِبُها العِدَى   وفَوَارسا تَعْدو صَوالجها الظُّبا
لايوردون الماء سُنْبُكَ سَابِحٍ   أو يكتسى بِدَمِ الفَوَارس طُحْلُبا[2]

[رجع إلى عمرَ بن العلاء]

بين عمر بن العلاء وأبى العتاهية

قال : و بلغ عمرَ بنَ العلاء أن أبا العتاهية عاتبٌ عليه فى هَنَاتٍ نالها منه فى مجلس ، وكان كثيرَ الانقطاع إليه، فتخلّف عنه ، فساء ذلك عمر، فكتب إليه : قد بلغنى الذى كان من تجنُّبك فيما استخفّك به سوء الأدب عن عِلْمِ حقيقةٍ منى ، فصرت مُتَرَدّداً من العمى فى يَلاَميع الشبهة[3] ؛ ولو كان معك من علمك داعٍ إلى لقائى لـكشفت لك مَوْرِدَ الأمر ومصدره ، لترجع إلى الصِّلة ، فتقال أو تأبى إلا الصَّريمة فتَصْرِم ؛ وقد قال الأول :

ومُسْتعتب أبْدَى على الظنّ عَتْبَهُ   وأخرج منه الحفِظَاتِ غَليلُ
كشفتُ له عُذْراً فأبْصَر وجهَهُ   فعاد إلى الإنصافِ وهو ذَليلُ

فأجابه أبو العتاهية : لم أجُزْ بعَتْبِى الحقيقةَ إلى الشبهة ، ولم أجد سعةً مع عظيم قدرتك إلى حمل اللائمة ، فقصَّر بى الخوفُ من سُخْطِك ، على تَرْك معاتبتك ؛ لأنَّ المعاتبة لا تجتنى إلاّ من المساوِى ، ولو رغبت عن الصلة إلى القطيعة لتقاضيتك ذلك عن طول الصُّحبة، وسالف المدَّة ، وأنا أقول :

رضِيتُ ببعض الذُّلّ خَوْفَ جميعهِ   وليسَ لمثـلى بالملوكِ يدَانِ
وكنتُ امْرَأً أخْشَى العقَابَ وأتَّقى   مَغَبَّةَ ما تَجْنِي يَدِى ولِسَانِى
فهل مِنْ شَفيع منك يَضْمَن تَوْبَتِى   فإنى امْرُؤٌ أوفِى بكلّ ضمانِ

فتراجعا إلى أحسن ما كانا عليه

---

(١) أشب: مختلط ، وأكهب : مظلم
(٢) الطحلب : خضرة تعلو الماء المزمن
(٣) اليلاميع : جمع يلمع ، وهوالبرق الخلب والسراب ، ويشبه به الكذاب .

وإنما ألم أبو العتاهية فى قوله « إنّ المطايا تشتكيك ... وما يليه » بقول أبى الْخَجْنَاء نُصَيبٍ الأكبر :

فعاجوا فأَثْنَوا بالذى أنتَ أَهْلُه ولوسَكَتُوا أثْنَتْ عليك الحقَائِبُ

للمتنبى

وقال أبو الطيب فى أبى العشائر الحمدانى :

تُنْشِدُ أَثْوَابُنَا مَدَائِحَهُ بِأَلْسُنٍ مَالَهُنَّ أَفْوَاهُ

إِذَا مَرَرْنَا عَلَى الْأَصَمِّ بِهَا أَغْنَتْهُ عَنْ مِسْمَعَيْهِ عَيْنَاهُ

وهذا المعنى من النُّصْبَةِ[1] الدالة بذاتها التى ذكرتُهَا عن الجاحظ فى أقسام البيان .

***

وقال بَعْضُ الخطباء : أشهد أن فى السموات والأرض آياتٍ ودَلاَلاَتٍ ، وشواهدَ قائماتٍ ؛ كلٌّ يؤدى عنك الحجَّة ، ويشهد لك بالربوبية .

ونظيرُ هذا قولُ أبى العتاهية ، وروى أنه جلس فى دكان ورّاق ، وأخذ كتاباً فكتب على ظهره :

لأبى العتاهية

فواعجباً كيف يُعْصَى المليـــكُ أم كيف يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

ولله فى كلِّ تحريكةٍ وتَسْكِينَةٍ فى الوَرَى شَاهِدُ

وفى كلِّ شىء له آيةٌ تَدُلُّ على أنَّه وَاحِـــدُ

لأبى نواس

وانصرف ، فاجتاز أبو نواس بالموضع فرأى الأبياتَ ، فقال : لِمَنْ هذا ؟ فلوِدِدْتُها لى بجميع شِعْرِى ، فقيل : لإسماعيل بن القاسم ، فوقع تحتها :

سبحان مَنْ خَلق الخَلْـــقَ من ضعيفٍ مَهِينِ

فصاغَـــــهُ من قَرَارٍ إلى قَـرَارٍ مكينِ

يَحُـــولُ شيئاً فشيئاً فى الحُجْب دونَ العيون[2]

حتى بدَتْ حـــركاتٌ مخلوقـــةٌ مِنْ سُكُون

(١) النصبة : ماينصب من العلامات لتدل على معان جرى العرف بدلالتها عليها (م)

(٢) يحول : يتحول من حال إلى حال أخرى (م)

وقال الفضل بن عيسى الرّقاشى : سَلِ الأرض مَنْ غَرس أشْجارَكِ ، وشَقّ أنهارَكِ ، وجَنَى ثمارَكِ ، فإنْ لم تُجِبْكَ حِوَارا ، أجَابَتْك اعتباراً .

وهذا شبيهٌ بقول عدىّ بن زيد ، وقد نزل النعمانُ بنُ المنذرِ تحت سَرْحَة[1] ؛ فقال : أتدرِى ما تقول هذه السَّرْحَة أيها الملك ؟ قال : وما تقول ؟ قال : تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قد أنَاخُوا حَوْلَنَا يشربون الخَمْرَ بالماء الزُّلال
ثم أضْحَوْا لَعِبَ الدَّهْرُ بهم وكذاكَ الدَّهْرُ حالاً بَعْدَ حَال

ويروى « عَكَفَ الدَّهْرُ بهم فثَوَوْا[2] » . فتكدَّرَ حالُ النُّعْمان وما كان فيه من لذّةٍ .

ألفاظ لأهل العصر فى الشكر بدلالة الحال

لو سكتَ الشَّاكرُ لنطقَتِ المآثِرُ . لو صَمتَ المُخَاطِبُ لأثْنَت الحقائِبُ ، ولَشَهِدَتْ شواهِدُ حالِه على صِدْقِ مَقَالِه . إن جَحَدْتُ ما أوْلاَنيه ، وكَفَرْتُ ما أعطانيه ، نطقتْ آثارُ أياديه علىَّ ، ولمت أعلامُ عَوَارِفه[3] لدىَّ .

لأبى الفضل الميكالى

ولأبى الفضل الميكالىّ من رسالة : وَرَدَ فلانٌ فتعاطى من شُكْرِه على نعمه التى ألبسه جمالَهَا ، وأسحَبه أذْيالَها ، ما لو لم يتحدَّثْ به ناشراً ومُثْنِياً ، ومُعيداً ومُبْدِياً ، لأثْنَت به حَالُه ، وشهِدَتْ به رِحَالُه ، حتى لقد امتلأت بذكره المحافلُ ، وسارت بخبره الرُّكْبَان والقوافلُ ، وصارت الألسِنةُ على الشكر والثناء لساناً ، والجماعة على النَّشْرِ والدعاء أنصاراً وأعواناً ، على أنه وإن بالغَ فى هذا الباب ، وجاوزَ حَدَّ الإكثار والإسهاب ، نهايتُه القصورُ دون واجبه ، والسقوطُ عن أدنى درجاته ومَرَاتبه .

---

(١) السرحة : الشجرة العظيمة ، أو هى كل شجرة لاشوك لها (م) ، وقد تطلق مجازاً على المرأة (٢) كذا ، ولا يستقيم وزنه ، ولو كان «عكف الدهر بهم ثم ثووا» لتم
(٣) العوارف : جمع عارفة ، وهى النعمة (م)

لأبى الفتح البستى

ومما يقترن لهم بهذا المعنى من ذِكْرِ الشكر : قال أبو الفتح البستى : الحرُّ نَخلُ الشكر ، إن أجْنَاه المرء من خيره شكراً أجناه من بِرّه شَهْداً .

غيره : الشكر ترجمانُ النيَّةِ ، ولسانُ الطَّوِيَّة ، وشاهدُ الإخلاصِ ، وعنوان الاختصاص . الشكرُ نسيمُ النِّعَمِ ، وهو السببُ إلى الزيادة ، والطريقُ إلى السعادة . الشكرُ قَيْدُ النِّعْمَة ، ومفتاحُ المزيد ، وثَمنُ الجنةِ . مَنْ شكرَ قليلا ، استحقَّ جزيلا . شُكْرُ المولَى ، هو الأوْلَى . الشكر قَيْد النِّعم وشِكالُها ، وعِقالُها ، وهو شبيه بالوَحْشِ التى لا تقيم مع الإيحاش ، ولا تَرِيم[1] مع الإيناس . مَوْقِعُ الشكرِ من النعمة مَوْقِعُ القِرَى من الضيفِ ، إنْ وجده لم يَرِم[1] ، وإن فَقَدَهُ لم يُقِم . الشكر غرسٌ إذا أُودِع سَمْع الكريم أثمر الزيادةَ ، وحفظ العادة . الشكرُ تعرّض للمزيد السائغ ، والنِّعم السَّوابغ . شُكْرُهُ شكرُ الأسير لمن أطلَقه ، والمملوكِ لمن أعتَقه . أثنَى عليه ثناء الرَّوْضِ المُمْحِل ، على الغَيْثِ المُسْبِل . أثنى عليه ثناء لسان الزَّهَر ، على راحة المطر . أثنى عليه ثناء العطشان الوارد، على الزُّلالِ الباردِ . شكرُه شكر الأرض للدِّيَم[2] ، وزُهَيْرٍ لهَرِم . بَسَطَ لسانَ الثناء والدعاء ، و بلغ عنان الشكرِ عَنَان السماء . شَكَره شكراً ترتاحُ له المكارم ، وتهتزّ له المواسِم . لأشكرَنّه شُكْراً تَشيع أنواعُه، وتَنْبَسِطُ أبْواعه[3] ، ويلذ ذكره وسماعُه . شكرٌ ملأ القلبَ واللسانَ ، كشكرِ حَسَّان لآلِ غَسَّان . أطال عِنان الشكرِ ، وفسح مجالَه ، ورفع أعْمِدته ، ومدَّ أرْوِقَته . شكرٌ كأنفاسِ الأحبابِ ، أو أنفاس الأسحارِ ، أو أنفاس الرِّياض غِبَّ القِطَارِ .

[من أخبار نُصَيب وشعره]

رجع ما انقطع :

كان سببُ قولِ نصيب :

---

(١) لا تريم : لا تنطلق ولا تذهب ولا تفارق (م)

(٢) الديم : جمع ديمة ـ بكسر الدال ـ وهى السحابة التى يدوم مطرها (م)

(٣) الأبواع : جمع باع ، وهو مسافة ما بين أطراف أصابع يديك حين تبسطهما موازيين لصدرك (م) .

بين نصيب والفرزدق

* فَمَاجُوا فأَثْنَوْا بالَّذِى أنتَ أَهْلُه *

أنه كان مع الفرزدق عند سليمان بن عبدالملك، فقال سليمان بن عبدالملك : يافرزدق؛ مَنْ أشعر الناس ؟ قال : أنا يا أمير المؤمنين ، قال : لماذا ؟ قال بقولى :

وركْبٍ كأنَّ الريحَ تطلبُ عندهم لهَاتِرَةً من جَذْبها بالعصائب
سرَوْا وسَرَتْ نَكْباء وهى تلفّهم إلى شُعَب الأكْوارِ ذاتِ الحقائِبِ (١)
إذا آنَسُوا ناراً يقولون : لَيْتَها ، وقد خَصِرَتْ أيديهم نارُ غالبِ

يريد أباه ــ وهو غالب بن صَعْصَعَةَ بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان ابن مجاشع ــ فأعرض عنه سليمان كالمغضَب ؛ لأنه إنما أراد أن يُنْشِدَ مدحاً فيه : ففهم نُصَيب مرادَه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قد قلتُ أبياتاً على هذا الروىّ ليست بدونها ، فقال : هَاتِها ؛ فأنشأ نُصَيْبٌ يقول :

أقولُ لركْبٍ قافلين لَقِيتهم قَفَا ذَاتِ أَوْشَالٍ ومولاكَ قَارِبُ (٢)
فقد أخبرونى عن سليمان أننى لمعروفِهِ من آل وَدَّانَ طالبُ (٣)
فعاجوا فأثنَوْا بالّذِى أنْتَ أهلهُ ولو سكتوا أثنَتْ عليكَ الحقَائبُ
فقالوا : تركْنَاهُ وفى كلِّ ليْلَةٍ يُطِيفُ به من طالبى العُرْف راكِبُ
ولو كان فَوْقَ الناسِ حىٌّ فِعالهُ كفعْلِكَ أو للفعلِ منكَ يقارِبُ
لقُلْنَا : له شِبْهٌ ، ولكِنْ تعذَّرَتْ سِوَاكَ عن المستشفعِين المطالِبُ
هو البدرُ والناسُ الكواكبُ حَوْلَهُ وهل تُشْبِه البدرَ المنيرَ الكواكبُ

فقال سليمانُ : أحسنتَ ، والتفتَ إلى الفرزدق،فقال: كيف تسمعُ يا أبا فِراس؟ قال : هو أشعرُ أهل جِلْدَته ، قال : وأهل جِلْدَتك ؛ فخرج الفرزدق وهو يقول :

(١) النكباء : هى الريح التى تميل عن مهاب الرياح ، والأكوار : جمع كور بالضم وهو الرحل ، والحقائب : جمع حقيبة ، وهى الرفادة فى مؤخر القتب وكل ما شد فى مؤخر رحل أو قتب .

(٢) الأوشال : جمع وشل، وهو الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ــ وقفا : منصوب تقديرا على أنه ظرف مكان ، أى لقيتهم فى هذا الموضع (م)

(٣) حفظى «قفوا خبرونى» وهو أدق (م)

وخَيْرُ الشعر أكرَمُه رجالاً   وشَرُّ الشعرِ ما قَالَ العبيدُ

[من المديح]

قال أبو العباس محمد بن يزيد : وهـذا بابٌ فى المدح حسن متجاوز مُبْتَدع لم يُسْبَق إليه .

قول نصيب : « من أهل ودّان » . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : ذكر محمد ابن كناسة والزبيدى أنّ نُصَيبا من أهل ودّان ، وكان عبْداً لرجل من بنى كنانة هو وأهل بيته ، وزعم أبو هفّان أنه عبدٌ لعبد العزيز بن مروان ، وكان نصيبٌ شديدَ السواد ، وهو القائل :

كُسيتُ ـ ولم أملك ـ سَواداً ، وتحتَهُ   قميصٌ من القُوهيِّ[1] بيضٌ بنَائقُهْ

فما ضرَّ أثوابى سَوادِى ، وإنّى   لكالمِسْكِ لا يَسْلُو عن المسك ذائقُهْ

لسحيم

وقال سُحَيم عبد بنى الحسحاس :

أشعارُ عَبْدِ بنى الحسْحاس قُمْنَ لهُ   عند الفَخار مَقَامَ الأصْلِ والوَرِقِ

إن كنتُ عبْداً فنفسى حُرَّةٌ كَرَماً   أو أسْوَدَ اللَّوْنِ إنى أبْيَضُ الخُلُقِ

وقال أبو الطيب المتنبى لـكافور الإخشيدى :

للمتنبى

إنَّما الجِلْدُ مَلْبَسٌ وابيِضاضُ الـ   ـخلق خَـيْرٌ من أبْيِضاضِ القَبَاء

وقال نصيب لبعض ملوك بنى أمية: إن لى بنات نَفَضْتُ عليهن من سوادى ، فقال : ما أحسن ما تلطّفت لهنّ ! وأمر له بصلة .

بين أبى تمام وابن الزيات

وكان أبو تمام حبيبُ بن أوْسٍ لما مدح أبا جعفر محمدَ بنَ عبد الملك الزيات بقصيدته التى أولها :

لهَانَ علينا أنْ نقولَ وتَفْعلا   ونذكرَ بعضَ الفضل منك وتفضلا

وهى من أحسن شعره ، وقَّع له على ظهرها :

رأيتك سَمْحَ البيع سَهْلاً ، وإنما   يُغَالَى إذا ماضَنَّ بالشىء بائعُهْ

---

(١) القوهى: ثياب بيض تنسب إلى قوهستان. والبنائق : الجيوب ، مفردها بنيقة

فأما إذا هانت بضائعُ بَيْعِهِ فيوشك أنْ تبقى عليه بَضَائعُهْ
هو الماء إن أجْمَمته طاب وِرْدُهُ ويفسد منه أنْ تُبَاحَ مَشَارِعُه

فأجابه بقصيدة طويلة ، واحتجّ عليه واعتذَر إليه فى مدحه لغيره ؛ فقال فى بعض ذلك :

أمّا القوافى فقد حصَّنْتُ غرَّتَها فــا يُصَابُ دَمٌ منها ولا سَلَبُ
مَنَعْت إلاَّ مِنَ الأكفاء أيِّمها وكانَ منكَ عليها العَطْفُ والحدَبُ
ولو عضلْتَ عن الأكفاء أيِّمَها ولم يكنْ لكَ فى إظهارها أرَبُ(١)
كانت بناتِ نصيبٍ حين ضَنَّ بها على المَوالى ولم تحفِلْ بها العَرَبُ

وقد قيل إن أبا تمام أجابه بقوله :

أبا جعفر إن كنتُ أصبحتُ شاعرا أُسَامِح فى بَيْعِى له من أبايعُهْ
فقد كنتَ قبلى شــاعراً تاجراً بِهِ تسَاهلُ من عادَت عليك مَنَافعه
فصِرْتَ وزيراً والوزارة مَــكْرَعٌ يَغَصُّ به بعد اللَّذَاذة كَارِعُه(٢)
وكم من وزيرٍ قد رأينا مُسَلَّطا فعادَ وقد سُــــدَّت عليه مَطَالِعُه
ولله قَوْسٌ لا تطيشُ سِهامُهــا ولله سيفٌ لا تفلُّ مَقَاطعُـــه

قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولى : ويقال إن هذه الأبيات منحولة لحبيب ، وليس مثل أبى جعفر فى جلالةِ قَدْره واصطناعه لحبيب يُعامَل بمثل هذا الجواب ،

---

(١) عضل المرأة: منعها عن الزواج ظلماً ، والأيم : من لازوج لها ،بكراً أو ثيباً . ومن لا امرأة له ، وتأيم : مكث زمانا لم يتزوج .

(٢) المكرع : المكان الذى تشرب منه الدواب ، وكان كذلك لأن الحيوان لايكاد يشرب إلا بإدخال أكارعه فيه ، والكراع ـ بالضم ـ هو ما دون الكعب فى الدابة وما دون الركبة من الإنسان، وكرع فى الماء: أدخل فيه أكارعه بالخوض فيه ليشرب .

ولا يَنْتَهى جَهْلُ حبيب أن يقابل مأموله ومن يَرْتَجى جليلَ الفائدة منه بهذه الأبيات .

وقد قيل : بل قالها ، ولم ينشدها أحداً ؛ و إنما ظهرت بعد موته .

لابن الزيات يمدح الحسن بن سهل

وكان ابنُ الزيات كما قال شاعراً ، ومدح الحسنَ بن سهل فى وزارته للمأمون ؛ وأعطاه عشرة آلاف درهم ، فقال :

لم أَمْتَدِحْكَ رجاء المـــالِ أَطْلُبُهُ	لـكن لِتُلْبِسنِى التَّحْجِيلَ والغُرَرَا
ما كان ذلك إلا أنَّنى رَجُـــلٌ	لا أقربُ الوِرْدَ حتى أَعْرِفَ الصَّدَرَا

قال الصولى : وكان السببُ الذى أَوْجد [1] أبا تمام على ابى تمام حتى

لأبى تمام يمدح ابن أبى دواد

قال « لقد رأيتك سَهْلَ البيع ـ الأبيات » قولَ أبى تمام قصيدته المشهوره فى ابن أبى دُوَاد التى أولها :

سَقَى عَهْدَ الحمى سَبَلُ العِهادِ	ورُوِّىَ حاضر منـــه و بادِ [2]
نَزَحتُ به رَكِىَّ الدمعِ لما	رأيت الدمعَ مِنْ خَيْرِ العَتَادِ [3]

يقول فيها فى مدحه :

هُمُ عظم الأثافِى من نزارٍ	وأهلُ الهَضْبِ منها والنِّجَادِ [4]
مُعَرَّسُ كلِّ مُعْضِلَةٍ وخَطْبٍ	ومَنْبِتُ كلِّ مكرمةٍ وآدِ [5]

---

(١) أوجده : أثار موجدته ، وهى الغضب

(٢) العهاد : أمطار الربيع ، والواحدة عهدة .

(٣) الركى والركايا : الآبار ، والمفرد ركية . وارتكى على صديقه : عول عليه، العتاد : العدة ، والعتيد : المعد الحاضر .

(٤) الأثافى: جمع أثفية ، وهى الحجر أو الجبل .

(٥) المعرس: موضع التعريس وهو النزول ليلا . والآد والأيد : القوة ، وآد يئيد أيدا : اشتد وقوى .

إذا حدَثتُ القبائلِ ساجَلوهم فإنهمُ بَنُو المجــد التِّلادِ[١]
تُفرِّج عنهم الغمراتِ بيضٌ جِلادٌ تحت قَسْطَلةِ الجِلادِ[٢]
وحشو حوادِثِ الأيامِ منهم معاقل مِطْرَدٍ وبنو طِرادِ[٣]
لهم جهلُ السباعِ إذا المنــايا تمشَّتْ فى الوغى وحُلومُ عادِ
لقد أَنسَتْ سُلوّى كلَّ دهرٍ محاسنُ أحمــدَ بن أبى دُوادِ
متى تَحْلُلْ به تحلُلْ جَنابًا رضيعاً للسَّوارى والغَوادِى[٤]
وما اشتبهت سبيلُ المجــدِ إلاَّ هَــداك لِقِبْلَةِ المعروفِ هادِ
وما سافرتُ فى الآفاق إلاّ ومِنْ جَدْواك راحِلَتى وزادى
مقــيمُ الظنِّ عندك والأمانِى وإن قَلِقَتْ ركابى فى البــلادِ

وهذه النــكت[٥] التى أحْقَدت أبا جعفر، وأعتبته على أبى تمام، وفى هذه القصيدة يقول معتذراً إليه فى الذى قُرِفَ[٦] به عنده من هجاء مضر:

أتانى عائرُ الأنباء تَسْرى عقاربُهُ بداهيــةٍ نآدِ[٧]
نَثَا خَبَرًا كأنَّ القلبَ منهُ يُجَرُّ به على شَوْكِ القَتادِ
بأنِّى نِلْتُ من مُضَرٍ وخَبَّتْ إليكَ شَكِيَّتى خَبَبَ الجوادِ

---

(١) التلاد: جمع تليد، وهو المجد القديم.
(٢) الغمرات: جمع غمرة وهى الشدة، والبيض الجلاد: هى السيوف القوية، وقسطلة الجلاد: شدة الحرب.
(٣) الطراد: القتال، قال الزمخشرى فى الأساس: «وطارد قرنه، وتطاردا، وبينهما طراد ومطاردة، وهى حمل أحدهما على صاحبه ومقاتلته وإن لم يكن ثم طرد، كما قيل للمحاربه جلاد ومجالدة وإن لم يكن ثم مسايفة».
(٤) السوارى: جمع سارية وهى السحابة تمطر ليلا، والغوادى: جمع غادية وهى السحابة تمطر نهاراً.
(٥) المراد بالنكت الإشارات.
(٦) وقع فى كافة المطبوعات «فى الذى قرب به» تحريف ما أثبتناه (م)
(٧) نآد: شديدة الأذى.

وما رَبْعُ القطيعةِ لى بِرَبْعٍ ولا نَادى الأَذَى مِنّى بِنَادِ
وأين يجوز عن قَصْدٍ لسانى، وقَلْبى رائحٌ بِرِضَاكَ غادِ
ومما كانت الحُكَمَاء قالَتْ: لِسَانُ المرء من خَدَمِ الفُؤَاد
وقِدْماً كنتُ معسولَ القوافى ومأدومَ المعانى بالسَّدادِ

[من أخبار ابن أبى دُوَاد]

غلوه فى التعصب لإياد

وكان ابن أبى دُوَاد غالياً فى التعصُّب لإياد وإلحاقها بنزار، على مذهب نُسَّاب العَدْنَانيين. قال: وكلٌّ من بالعراق من إياد دخلوا فى النَّخَع، وإليهم يُنْتَسبون؛ ومَنْ كان بالشام فلم[1] على نسبهم فى نزار، وابن أبى دُوَاد يرمى بالدعوة؛ والتكثيرُ من أخباره يُخْرِجُ إلى ما أَخَافَهُ من تَطْوِيلِ التصرُّف، فى مملول التكلُّفِ.

علمه وعداوته لابن الزيات

وكان ابن أبى دُوَاد عالماً بضروبِ العلمِ والأدب، متصرِّفاً فى صناعة الجِدال، على مذهب أهل الاعتزال، وكانت العداوةُ بينه وبين ابنِ الزيَّات بيِّنة، والنفاسة فى الرياسة بينهما متمكِّنة، وقال له بعض الشعراء:

أَكُلَّ أبى دُوَاد مِن إيادٍ فكلُّ أبى ذؤيبٍ من هُذَيْلِ

قال مسلم: ماتاه إلاَّ وضيع، ولا فاخر إلا سقيط، ولا تعصَّب إلاَّ دَخِيل.
وقال مدنى لرجل: ممن أنت؟ فقال: من قريش، والحمد لله، قال: بأبى أنت! التحميد هاهنا رِيبة! واسم أبى دُوَاد دُعْمِىّ. قال أبو اليقظان: وهم من قبيلة يقالُ لها بنو زهرة إخوة بنى جِدَّان، وقد ذكرهُ الطائى فى قوله:

أصله

والغيث من زَهْرٍ سحابةُ رَأْفةٍ والركنُ من شيبانَ طَوْدُ حَدِيدِ

ذكر شيبان، لأن خالدَ بن يزيد الشيبانى شَفَع له عنـد ابنِ أبى دُوَاد فيما ينساقُ الحديثُ إليه من مَوْجِدَتِه عليه.

قال محمود الوراق: كنتُ جالساً بطَرَفِ الجِسْر مع أصحاب لى، فمرَّ بنا أبو تمام، فجلس إلينا، فقال له رجل منا: يا أبا تمام، أىُّ رجل أَنْتَ لو لم تكن من اليَمَنِ! قال: ما أُحِبُّ أَنِّى بغير الموضع الذى اختاره اللهُ لى، فَمِمَّنْ[2] تحبُّ أن

(١) هكذا، وأحسبه «فهم على نسبهم - إلخ» (م)
(٢) فى جميع المطبوعات «فمن تحب - إلخ» (م)

غضبه على ... في عام ... رضاه عنه

أ كونَ ؟ قال : من مُضَر ، قال : إنما شَرُفَتْ مُضَر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك ماقِيسوا بملوكنا وأذوائنا ، وفينا كَذَا ، ومِنَّا كذا — يَفْخَر ؛ وذكر أشياء عاب بها مُضَر ، ونُمِي الخبرُ إلى ابن أبى دُوَاد وزِيدَ فيه ، فقال : ما أُحِبُّ أنْ يَدْخُلَ عَلَيَّ ، فقال يعتذر إليه بقصيدة أولها :

سَعِدَتْ غُرْبةُ النَّوَى بسُعَادِ ... فى طلوع الإتْهـامِ والإنجادِ

يقول فيها :

بعد أن أصْلَتَ الوُشَاةُ سُيُوفاً ... قَطَعَتْ فِيَّ وَهْيَ غيرُ حِدَادِ

فنَفَى عنكَ زُخْرفَ القولِ سَمْعٌ ... لم يكُنْ فرضه لغـيرِ السَّدادِ

ضربَ الحِلْمُ والوَقَارُ عليـه ... دونَ عُورِ الكلامِ بالأسْدادِ

ملأتك الأحْسَابُ أيّ حيـاةٍ ... وحيا أزْمَـــةٍ وحيَّةَ وَادِ

عاتقٌ مُعْتَقٌ من الرقّ إلاّ ... من مُقَاسَاةِ مَغْـرمٍ أوْ نِجَادِ

للحَمالاتِ والحمائلِ فيـــهِ ... كلحوبِ المواردِ الأعدادِ (١)

فما رَضِي عنه حتى تشفّع إليـه بخالد بن يزيد بن مزْيد الشيبانى ، فقال فى قصيدة :

أسْرَى طَرِيداً للحياء مِنَ التى ... زَعَمُوا ، وليس لقوله بطَرِيدِ (٢)

كنتَ الربيعَ ، أمامَهُ ووراءَهُ ... قَمَرُ القبائلِ خَالِدُ بن يزيدِ

وغداً تَبَيّنُ ما براءَةُ ساحَتِي ... لو قدْ نفضت تَهَائمي ونجودِي

لله درُّكَ أيُّ بابِ مُلِمَّةٍ ... لم يُرْمَ فيـهِ إليك بالإقليدِ (٣)

---

(١) الأعداد : جمع عد بالكسر وهو الماء الجارى الذى لاينقطع ، واللحوب: الوضوح . والمعنى أن عاتق الممدوح تظهر فيه آثار الحمالات والحمائل ظهور قنوات الماء الذى لاينقطع (٢) الذى فى الديوان « وليس لرهبة بطريد » (م)

(٣) الإقليد . المفتاح ، وكذلك المقلاد والمقلد

لما أظلّتنى غمامك أصبحت   تلك الشهود علىّ وهى شهودى
من بعد ما ظنّوا بأن سيكون لى   يومٌ بزعمهم كيوم عبيـــد

يريد عَبيـــدَ بن الأبرص الأسدى ، وكان النعمان بن المنذر لقيه يوم بؤسه فقتله .

بين ابن أبى دوأد والحاجب أبى منصور

وكان ابن أبى دُوَاد كريماً فصيحاً جَزْلا . قال أبو العيناء : كنا عند ابن أبى دُوَاد ومعنا محمود الورّاق وجماعةٌ من أهل الأدب والعلم ؛ فجاءه رسول إيتاخ فقال : إن الحاجب أبا منصور يقرأ على القاضى السلام، ويقول : القاضى يتعنّى (١) ويجىء فى الأوقات ؛ وقد تفاقم الأمرُ بينه وبين كاتب أمير المؤمنين ، يريد ابن الزيات ، فصار يضرُّنا عند قصْدِه القاضى ،وما أحِبّ أن يتعنّى إلىّ لهذا السبب ؛ إذ كنت لا أصِل إلى مكافأته . فقال : أجيبوه عن رسالته ، فلم ندْر ما نقول ، ونظر بعضُنا إلى بعض ، فقال : أما عنـدكم جواب ! قلنا : القاضى ـ أعزّه الله ، أعلمُ بجوابه منا ، فقال للرسول : اقرَأْ عليه السلام ، وقل له : ما أتيتك متكثّراً بك من قلّة ، ولا متعزّزاً بك من ذِلّة ، ولا طالباً منـك رُتْبة ، ولا شاكياً إليك كُرْبة ، ولـكنك رجـلٌ ساعدَك زَمَان ، وحرّكك سلطان ، ولا علم يُؤلف ، ولا أصلَ يُعْرَف ؛ فإن جِئتك فبسلطانك ، وإن تركتك فلنفسك ! فعَجِبْنا من جوَابه .

[من بَرَاعة خالد بن عبد الله القسْرى]

صعد خالدُ بنُ عبد الله القسرى المنبر يومَ جمعة ، فخطب وهو إذ ذاك أميرٌ على مكة ، فذكر الحجّاج فأحْمَد طاعته ، وأثنى عليه خيراً ، فلما كان فى الجمعة الثانية وردَ عليه كتابُ سليمان بن عبد الملك يأمرُه فيه بِشَتْم الحجّاج وذِكْرِ

---

(١) يتعنى : يتعب

عيو به ، و إظهار البراءة منه ، وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن إبليس كانَ مَلَكاً من الملائكة ، وكان يُظْهِر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترَى له بذلك فضلا ، وكان الله تعالى قد علم من غِشّه ما خَفِيَ عن الملائكة ، فلما أراد الله فضيحتَه ابتلاه[1] بالسجود لآدَم ؛ فظهر لهم ما كان يُخْفيه عنهم فلعنوه ؛ وإن الحجاجَ كان يُظْهِر من طاعة أمير المؤمنين ما كنّا نرى له بذلك فضلا ، وكان الله عزّ وجل أطْلَعَ أميرَ المؤمنين من غِلّه وخُبْثه على ما خَفِيَ عنا ، فلما أراد الله فضيحتَه أجرى ذلك على يدى أمير المؤمنين ، فالْعَنُوه ، لعنهُ الله . ثم نزل .

وكان أبو تمام قد مدح الأفشين التركى،واسمهخيذر[2] بن كاوُس ،وكان من أجلّ قُوّاد المعتصم ، وأبلى فى أمر بابك الخُرّمِىّ بلاءً حمده له ؛ فلما سَخِطَ المعتصمُ عليه لِمَا نُسِبَ إليه من سوء السيرة ، وقُبْح السريرة ، وأنه يخطب درجة بابك ، ويريد التحصّن بموضع يَخْلَعُ فيه يدَه عن الطاعة ، وأظهر القاضى أحمد بن أبى دُواد عليه أنه على غيرِ الإسلام ، قال أبو تمام معتذرا للمعتصم من تقديمه واجتبائه ، ولنفسه من مدحه و إطرائه :

أبو تمام يعتذر للمعتصم عن سابق مدحه للأفشين

ما كان لولا فحشُ غدرة خيذرٍ	ليكونَ فى الإسلامِ عامُ فِجَارِ
هـذا الرسول وكان صفوةَ ربِّهِ	من خَيْرِ بادٍ فى الأنام وقَارِ
قد خصّ من أهل النفاق عصابةً	وهمُ أشدُّ أذًى من الكُفّارِ
واختار من سعدٍ لَعِينَ بنى أبى	سَرْحٍ لعمر الله غيرَ خيار
حتى استضاء بشعلةِ السُّوَرِ التى	رَفعت له ستـرا من الأستارِ

ثم ذكر فى هـذه القصيدة أن قتل الأفشين لبابك لم يكن بصِدْق بصيرة ، ولا لصحة سريرة ، فقال :

---

(١) ابتلاه : اختبره . (٢) فى بعض الأصول «خيدر» وفى بعضها «حيدر»(م)

والهاشمون المستقلة ظُعنهـــم عن كَرْبلاَءَ بأثقلِ الاوزارِ
فشفاهم المختارُ منـهُ ولم يكن في دينهِ المختارُ بالمختارِ

[المنافقون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم]

أما من ذُكِرِ من أهـل النفاق ، فقد كانوا يظهرون غَيْرَ ما يُسِرُّون ، حتى أطلع الله نبيَّهُ عليه السلام على أخبارهم ، ونَشَرَ له مَطْوِىّ أسرارهم .

عبد الله بن أبى سرح

وأما ابنُ أبى سَرْحٍ فهو عبدُ الله بن سعد بن أبى سَرْح بن الحسام بن الحارث بن حبيب بن خزيمة بن نصر بن مالك [بن حِسْل] بن عامر بن لؤىّ، أسلم قبل الفتْح، واستكتبه النبىّ عليه السلام؛ فكان يكتبُ موضعَ « الغفورِ الرحيم » العزيزِ الحكيم ، وأشباه ذلك ؛ فأطْلَع اللهُ عليه النبىّ عليه السلام ، فهرب إلى مكة مرتدّا ؛ وأُنزل فيه :(ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) . فأهْدَر النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح دَمَه ، فهرب من مكّة ، فاستأمن له عثمانُ رضى الله عنه ؛ فأمّنه رسولُ الله صلى الله عليه وسـلم ، وهو أخو عثمان من الرَّضَاعة ، وأسلم فحَسُنَ إسلامُه ، وولّى مصر سنة أربع وعشرين، فأقام عليها إلى أنْ حُصِر عثمان ، ومات بقَيْسارية الشام ، ولم يدخل فى شىء من الفِتَن الحجازية فى ذلك الوقت .

المختار بن أبى عبيد الخارجى

وأما المختارُ الذى ذكره فهو المختار بن أبى عُبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير ابن عوف بن عَقدة بن عروة بن عَوف بن قَسىّ وهو ثقيف ؛ وكانت لأبيـه فى الإسلام آثارٌ جميلة ، وأختُ المختار صفية بنت أبى عبيد زوجُ ابن عمر ، والمختار هو كذّاب ثقيف الذى جاء فيه الحديث ، وكان يَزْعُم أنه يُوحَى إليه فى قتَـلَةِ الحسين ؛ فقتلهم بكل موضع ، وقتل عبيد الله بن زياد ، وله أسْجاع يَصْنَعُها ، وألفاظٌ يبتدعها ، ويزعم أنها تنزل عليه ، وتُوحَى إليه .

وقيل للأحنف بن قيس : إنّ المختارَ يزعم أنه يُوحَى إليه ! فقال : صدق ، وتلا :(وَ إنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحِى بَعْضُهم إلى بَعْضٍ).وأخبارُه كثيرة ليس هذا موضعها.

بين أمية بن خالد وعبد الله بن الأهتم

لمـا هُزم أمية بن خالد بنُ أُسَيْدٍ لم يَدْرِ النـاس كيف يقولون له ، فدخل عبدُ الله بن الأهتم عليه ، فقال : الحمد لله الذى نظر لنـا أيُّها الأمير عليك ،

ولم ينظرْ لك علينا ، فقد تعرَّضت للشهادة بجَهْدِكَ ، إلّا أن الله علم حاجةَ أهل الإسلام إليك ، فأبقاكَ لهم بخذلان مَنْ معك . فصدر الناسُ عن كلامه .

ويتعلق بهذه المقامة فصل فى غرائب الكتاب

من حمدون بن نهران لعامل عزل عن عمله

كتب حمدون بن نَهْرَان إلى عاملٍ عُزِل عن عَمَله :

بلغنى أعزَّك اللهُ انصرافك عن عملك، ورجوعُكَ إلى منزلك؛ فسُرِرْت بذلك، ولم أستَفْظِعْهُ وأجْزَع له ؛ لعلمى بأنَّ قدرك أجلُّ وأعْلَى من أنْ يرفعَك عملٌ تتولَّاه ، أو يضعَك عَزْلٌ عنه؛ ووالله لو لم تختَرْ الانصرافَ وتُرِد الاعتزالَ لكان فى لُطْفِ تدبيرك ، وثُقوبِ رَوِيَّتك ، وحُسْنِ تأتِّيك ، ما تُزِيل به السببَ الداعى إلى عَزْلك ، والباعثَ على صَرْفِكَ ؛ ونحن إلى أن نهنئك بهذه الحال أوْلَى بنا من أن نعزِّيك ؛ إذ أردْتَ الانصرافَ فأوتيته ، وأحببْتَ الاعتزالَ فأُعْطيته ، فبارك اللهُ لك فى مُنْقَلَبك، وهنَّاكَ النعمَ بدوامها، ورزقك الشُّكْرَ الموجِبَ لها الزائدَ فيها.

من ابن مكرم نصرانى أسلم

وكتب ابن مكرم إلى نصرانى أسْلَمَ :

أمّا بعد فالحمدُ لله الذى وفَّقك لشكره ، وعرّفك هدايته ، وطهّر من الارتياب قلبَك ، وما زالت مخايِلُك ممثِّلةً لنا حقيقةَ ما وهب اللهُ فيك ، حتى كأنَّك لم تزَلْ بالإسلام مَوْسُوماً ، وإن كنت على غيره مُقيما ، وكنا مؤمّلين لما صِرْتَ إليه ، مُشْفِقين مما كنتَ عليه ، حتى إذا كاد إشفاقُنا أن يَسْتَعْلِيَ رجاءنا أتت السعادةُ بما لم تَزَلِ الأنفسُ تعدّ منْكَ ؛ فأسأل اللهَ الذى أضاء لك سبيلَ رُشْدِك أن يوفِّقَك لصالح العمل ، وأنْ يُؤْتيكَ فى الدنيـا حسنةً وفى الآخرة حسنةً ، ويَقِيَكَ عذابَ النار .

بعض ما يستحسن تركه وإن كان حلالا

قال بعضُ الكتاب : من الحقّ ما يُسْتَحسن تَرْكُه ، ويستهجَنُ عمله ، وقد يقع من ذلك فيما يُحِلّه الشرع ، ويكرهه الأدباء ؛ وكثيرٌ ممن يغلبُ على طبعه هذا المعنى يراه سموَّ نَفْس ، وعلوَّ همة . حتى رأينـا من لا يحضر ترويج

كريمته ، ويولّى أمرَها غيرنفسه ، ورأينا من يجاوِز ذلك إلى ألاّ يُنكِحَ مستنكحا، وزاد به العلوُّ إلى تركِهِ ما ذكره أوْلى ؛ وكنا عرفنا حال إنسان تزوجتْ أُمه ؛ فعظُمَ لذلك همُّه ، وانفرد عن أودّائه ، وتوارَى عن أصفيائه ؛ حياءً من لقائهم ، وكُرْهاً لتهنئتهم له أو عزائهم ، واضطرّته الوَحْشَة إلى قصْدِ من ظنّ به منهم المُشْكَة فى تحامى خطابه فيما اجتنب لأجله خُلاّنه ، وفارق بسببه إخوانَه ،وتخيّل ذلك المقصودُ أنه إنما لجأ إليه ليسلّيه ؛ فأفاض معه فيما قدَّر أنه قصد له من المعنى الذى جعله وحيداً خوف المفاوضة .

ثم مضت الأيامُ واختلف الحال ، ورجع إلى العِشْرَة وأبناء المودَّة ؛ فكان عنده من لم يخاطِبْه أحظَى ، وفى نفسه أوْفى ، وعلى قلبه أخفّ ، وفى نفسه أشفّ ؛ ونَقَم على ذلك الصديق وعَتَب ؛ إذْ لكلٍّ من الناس ـ إلا من طاب مَحْتِدُه وطالَ سؤدده ـ حالٌ من الإلف والرغبة تحسّن المساوى ، ثم حالٌ من المَلَلِ والزَّهادة تقبّحُ المحاسن ؛ واعتذر المتكلِّفُ من التسلية بما لم يلزمه ، ولم يُرِدْه صفيُّه ، فإنه فعل ما أوجبته الأخوّة ، وحقوق الخلطة ، وأسبابُ العِشرة ، وانبساط المفاوَضة ؛ ودبّتْ عقاربُ الظنون والوشايةُ ، إلى أن خرجَا بالمُلاحاةِ إلى المُعاداة ؛ فلما وقع بعضُ الناس بينهما من معاوَدَة الحسنى ، ومراجعة الأُولى ؛ جاهرَ هذا الماقِتُ بقَرْعِ سِنِّ الأسفِ على تخيّل النهى والوقار من الممقوت ، وظاهر الممقوت بتَقْريع الماقت ، بتزويج أمِّه الذى تجشّم من كلامِه فيه فضلاً ، وتكلّف من خطابه عليه ما من حَسْرة خَلاَ ؛ فأفضى الأمرُ بينهما إلى الأوْتَار ، وطلب الثّار .

ما يقال لمن تزوجت أمه

فإن اضطرّ إلى القول فى هذا المعنى أحدٌ بأمرٍ قاهرٍ من السلطان ، أو حوادثِ الأزمان ،أو تطارُحِ الإخوان، فليقل وليكتُبْ ما مثّلنا إن لم يَجِدْ منه بدًّا : أنت ـ بفضلِ الله عليك وإحسانِ تبصيره إياكَ ـ من أهل الدّين،وخلوصِ اليقين،فكما لاتتَّبع الشهوة فى محظورٍ تُبيحه ، فكذا لا تُتَبِّعُ الأَنفَةَ فى مُباحٍ تحظره ؛ وقد اتصَل بنا اختاره اللهُ والقضاءُ لذات الحقِّ عليك ، المنسوبةِ ـ بعد نسبك إليها ـ إليك ،

عما كرهه إباؤك الدُّنيوى لك ولها ، [ورَضِيَه الحلالُ الدينى له ولهـا] ، فنحن نعزّيك عن فائت محبوبك ، ونهنّئك فى الخِيرَة فى اختيارِ القَدَرِ لك ، ونسألُ الله أن يجعلها أبداً معك فيما رضيت وكَرِهْتَ ، وأبَيْتَ وأتَيْتَ .

فهذا ونحوه أصْوَبُ وأسلم ، إن اضطررت إليه ، وتركُهُ أحْسن وأحزم ، إن ملكت رأيَك فيه ؛ والتلطفُ للكتابة عما يُسْتَهْجَن ولا يستحسن التواجه به من أحْسنِ الأشياء وأسَدِّها .

من أبى الفضل بن العميد لمن تزوجت أمه

وكتب أبو الفضل بن العميد فى بابه: الحمدُ لله الذى كشف عنا سِتْرَ الحَيْرة . وهدانا لسَتْرِ العَوْرَة ، وجَدَعَ بما شرع من الحلال أنفَ الغَيْرَة ، ومَنَع من عَضْلِ الأمهات ، كما منَع من وَأْدِ البنات ، استِنْزالاً للنفوس الأبيَّة ، عن حَمِيَّةِ الجاهلية . ثم عرّض للجزيل من الأجر من استسلم لمواقع قضائه ؛ وعوّض جزيلَ الثواب لمنْ صبر على نازلِ بلائِه ؛ وهنَّأك الله ، الذى شرح للتقوى صَـدْرك ، ووسّع فى البَلْوَى صبْرَك ، ما ألهمك من التسليم بمشيئته ، والرضا بقضيّته ، ووفّقك له من قضاء الواجب فى أحـد أبويك ، ومن عظم حقّه عليك ؛ وجعل الله تعـالى حدّه[١] ما تجرّعْتَه من أنَفٍ[٢] ، وكَظَمْتَه من أَسَفٍ ، معدوداً يعظِّمُ اللهُ عليه أجرك ، ويُجْزِلُ به ذُخْرك ؛ وقَرَن بالحاضر من امتِعَاضك لفِعْلها المنتظرَ من ارْتِمَاضِك لدَفْنِهـا[٣] ، وعوّضك من أسِرَّة فَرْشِها أعوادَ نَعْشِها ؛ وجعل ما يُنْعِمُ به عليك من بعدها من نعمة مُعَرًّى من نِقْمة ، وما يوليك بعد قَبْضِها من منحة مبرأً من مِحْنَةٍ .

---

(١) الحد : البأس ، ومثله الجد .

(٢) الأنف والأنفة : الحمية .

(٣) الارتماض : الحزن .

ألفاظ لأهل العصر فى التهانى بالبنات

هنأ الله سيدى وِرْدَ الكريمة عليه ، وثمّر بها أعداد النّسل الطيّب لديه ؛ وجعلها مُؤْذِنَةً بإخوة بررَة ، يَعْمُرون أندية الفضل ، ويَغْبُرون⁽¹⁾ بقيّةَ الدّهر .

اتصل بى خَبَر المولودة ، كرّم الله غرّتها وأنبتها نباتاً حسناً ، وما كان من تَغَيُّرِك بعد اتّضاح الخبَر ، وإنكارك ما اختاره اللهُ لك فى سابق القَدَر ، وقد علمتَ أنهنّ أقربُ من القلوب ، وأنّ الله تعالى بدأ بهنّ فى الترتيب ، فقال جل من قائل : (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ) . وما سمّاه هبة فهو بالشكر أوْلَى ، وبحُسْنِ التقبُّل أحرَى . أهلا وسهلاً بعقيلة النساء ، وأمّ الأبناء ، وجالبة الأصهار ، وأولاد الأطهار ، والمبشرة بإخْوَة يتناسقون ، ونُجَباء يتلاحقون .

فلَوْ كانَ النِّساءُ كَمِثْلِ هَذِى لَفُضِّلَتِ النِّساءُ على الرِّجَالِ
فما التَّأْنِيثُ لاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ ولاَ التَّذْكِيرُ فَخْرٌ لِلهِلاَلِ

والله يعرفُكَ البركَةَ فى مَطْلَعها ، والسعادةَ فى موقعها ، فادّرع اغتباطا ، واستأنِف نشاطا . الدنيا مؤنّثة ، والرجال يخدمونها . والنارُ مؤنثة ، والذكور يَعْبُدونها . والأرض مؤنثة ، ومنها خُلِقت البرية ، وفيها كثرت الذّرية . والسماء مؤنثة ، وقد حُلِّيت بالكواكب ، وزُيِّنَت بالنجوم الثواقب . والنفسُ مؤنّثة ، وهى قِوامُ الأبدان ، ومِلاَكُ الحيوان . والحياةُ مؤنّثة ، ولولاها لم تتصرّف الأجسامُ ولا عُرِفَ الأنام . والجنّة مؤنّثة ، وبها وُعِدَ المتقون ، وفيها يَنْعم المرسلون ؛ فهنأك الله ما أُولِيت ، وأوْزَعك شُكْرَ ما أُعطيت ، وأطَال اللهُ بقاءك ما عُرِفَ النَّسْل والوَلد ، وما بقِى العَصْرُ والأبد ؛ إنه فعال لما يشاء .

---

(١) يغبرون : يبقون (م) .

[بعض مالا يُمْدَح النساء به]

والتصرف فى النساء ضيّقَ النطاق ، شديدُ الخِناَق ، وأكثرُ ما يُمْدح به الرجال ذمّ لهن ، وَوَصْمٌ عليهن ، قال ابن الرومى :

لابن الرومى

ما لِلحِسَان مسيئاتٍ بِنَا ، ولَنَا ... إلى المسيئاتِ طولَ الدَّهْرِ تَحْنَانُ

فإن يَبُحْنَ بَعَهْدٍ قُلْنَ : معذرةً ... إنّا نسينا، وفى النسوان نَسْيَان

لا نُلْزَم الذِّكْرَ، إنّا لَمْ نُسَمَّ بِهِ ... ولا مُنِحْنَاه، بل للذَّكر ذُكْرَانُ

فَضْلُ الرجالِ علينا أنْ شيمتَهم ... جودٌ وبأسٌ وأحلامٌ وأذْهان

وأنّ منهم وفاء لا نقومُ له ... وهل يكون مع النّقصان رُجْحَان ؟

وقال أبو الطيب المتنبى :

للمتنبى

بنَفْسى الخيالُ الزَّائِرِى بعْدَ هَجْعَةٍ ... وقَوْلَته لِى : بعْدَنَا الغُمْضَ تَطْعَمُ

سَلاَمٌ فلولا البُخْلُ والخَوْفُ عِنْدَهُ ... لَقُلْنَا أبو حَفْصٍ عَلَيْنَا المُسَلِّمُ

ألا ترى أنّ الجـود ، والوفاء بالعهود ، والشجاعة والفطَن ، وما جرى فى هـذا السَّنَنِ ، من فضائل الرجال ، لو مُدِح النساء به لكان نَقْصاً عليهن ، وذمًّا لهنّ ؟

رجل يمدح زبيدة أم الأمين

ولمديح النساء أبواب تفرّقت فى الكتاب :

أنشد رجلٌ زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور :

أزُبَيْـدة بنة جَعْفَرٍ ... طُوبَى لزائرِك المثَابِ

تُعْطِينَ من رِجْلَيك ما ... تُعطِى الأكفُّ من الرِّغابِ

فوثب إليه الخدمُ يضربونه ، فمنعتهم من ذلك ، وقالت : أراد خيراً وأخطأ ، وهو أحبُّ إلينا ممن أراد شراً فأصاب ، سمع قولهم « شِمالك أندَى من يمين غيرك » فظن أنه إذا قال هكذا كان أبلغ ، أعطُوه ما أمّل ، وعرِّفوه ما جهل .

لكثير عزة

وقال كثير :

ولما قضَيْنا من مِنًى كلَّ حاجةٍ ... ومَسَّحَ بالأركانِ مَنْ هو ماسِحُ

وشُدّت على حُدْبِ المَطَايا رحالُنا ... ولا يعلم الغادى الذى هو رَائِحُ
أخذْنَا بأطرَافِ الأحَادِيثِ بيننا ... وسالَتْ بأعْنَاقِ المَطِىِّ الأبَاطِحُ
نَقَعْنَا قلوباً بالأحاديثِ واشْتَفَتْ ... بذاك صدُورٌ مُنْضجَاتٌ قَرَائِحُ[1]
ولم نَخْشَ رَيْبَ الدّهْرِ فى كلِّ حالةٍ ... ولا رَاعَنا منه سَنِيحٌ وبَارِحُ

وقال :

ولكثير أيضا

تفرّق ألاّفُ الحجيج على مِنًى ... وشتّتهم شَحْط النوى مشى أربع
فريقان منهم سَالِكٌ بطن نَخْلَةٍ ... وآخرُ منهم جازع ظَهْر تَضْرُع
فلم أرَ داراً مثلها دَار غِبطَةٍ ... ولَهْوٍ إذا التفّ الحجيجُ بجمع
أقلَّ مقيماً رَاضِياً بمكانِهِ ... وأكثرَ جاراً ظاعناً لم يُوَدَّع
فأصبح لا تلقى خباءً عَهِدْتَهُ ... بمَضْربه أوْتَادُهُ لم تُنزَّع
فشاقُوكَ لمّا وجّهوا كلَّ وجهةٍ ... فبانُوا وخلّوا عن مَنازِلَ بَلْقَع

عزة تفضل الأحوص على كثير

ودخل كثيّر على عزّة يوماً ، فقالت : ما ينبغى أن نَأذَن لكَ فى الجلوس ، فقال : ولم ذلك ؟ قالت : لأنى رأيت الأحوص ألينَ جانباً عند الغوانى منك فى شعره ، وأضرعَ خدًّا للنساء ، وأنه الذى يقول :

يأيهـا اللائمى فيها لِأُصْرِمَها ... أكْثَرْتَ لو كان يُغْنِى عنك إكثار
أكْثِرْ فلستَ مُطاعاً إذ وَشَيْتَ بها ... لا القَلْبُ سَالٍ ولا فى حُبّها عارُ

ويعجبنى قوله :

أدُورُ ولَوْلَا أنْ أرَى أُمَّ جَعْفَرٍ ... بأبْيَاتِكُمْ مادُرْتُ حَيْثُ أدُورُ
وما كنتُ زوّاراً، ولكنّ ذا الهوى ... إذَا لم يُزَرْ لابدّ أنْ سَيَزُورُ
لقد منعَتْ معروفَها أمُّ جعفرٍ ... وإنى إلى معروفِها لفَقِيرُ

---

(١) نقع : روى ، ومنضجات قرائح : أنضجها الحزن وقرحها

ويعجبني قوله :

كم من دنيٍّ لها قد كنتُ أتبعهُ ... ولو صحا القلبُ عنها كان لي تبعا

لا أستطيعُ نزوعاً عن محبّتِها ... أو يصنع الحبُّ بي فوق الذي صنعا

أدعُو إلى هجرِها قلبي فيتبعني ... حتى إذا قلتُ هذا صادقٌ نزعا

وزادني رغبةً في الحبِّ أن منعتْ ، ... أشهى إلى المرء من دُنياه ما مُنعا

وقوله :

إذا أنت لم تَعشق ولم تدرِ ما الهوى ... فكُنْ حجراً من يابسِ الصّخر جَلْمَدا

وما العيشُ إلا ما تلذُّ وتشتهي ... وإن لام فيه ذو الشّنانِ وفنّدا

وإنى لأهْوَاها وأهْوَى لقاءها ... كما يشتهى الصّادِى الشرابَ المبرَّدا

علاقة حبٍّ لجَّ في سَنَن الصبا ... فأبلى ، وما يزدادُ إلاّ تجدُّدا

هذان البيتان ألحقهما العُتبي وغيرُه بشعر الأحوص ، وأنشدها أبو بكر بن دريد لأعرابي ، فقال كثير : قد والله أجادَ فما استقبحت من قولي ؟ قالت : قولك :

وكنت إذا ما جئت أجْلَلن مَجلسي ... وأظهرْنَ منّى هيبـــة لا تجهُّما

يُحاذِرْن منّى غيرةً قد عرَفْنها ... قديماً ، فلا يضحكن إلاّ تبسُّما

تراهنّ إلا أن يخالِسْنَ نظرةً ... بمؤخرِ عَيْنٍ أو يقلّبن مِعْصَما

كواظِمَ لا يَنْطِقن إلا مَحُورةَ ... رَجيعَة قول بعـــد أن يتفهما

وكنّ إذا ما قُلْنَ شيئاً يسرُّهُ ... أسرّ الرضاَ في نَفسِه وتحرّما

وقولك :

وَدِدتُ وبَيْتِ اللهِ أنك بَكْرةٌ ... هِجانٌ ، وأنى مُصْعَبٌ ثم نَهْرُبُ[1]

---

(١) هجان : بيضاء ، والمصعب : الفحل ، ورواية صاحب الوشح :-

ألا ليتنا يا عز كنا لذى غنى ... بعيرين نرعى فى الخلاء ونعزب

كِلاَنا به عُرٌّ فمَنْ يَرَنا يَقُلْ   على حُسْنِها جَرْباءُ تُعْدِى وأجْرَبُ[١]
نكون لذِى مالٍ كثيرٍ مغَفَّلٍ   فلا هو يَرْعَانَا ولا نَحْنُ نُطْلَبُ
إذا ما ورَدْنا منهلا صاح أهْلُه   علينا فما ننفكُّ نُؤْذَى ونُضْرَبُ[٢]

وَيْحك ! لقد أردتَ بى الشقاء ، أفما وجدت أمنية أوْطأ من هذه ؟ فخرج خَجلا .

[من الأمانى]

لأبى صخر الهذلى

وقد تمنَّى بمثل هذه الأُمنية الفرزدق . وأغرب من هذا قول أبى صَخْر الهذلى :

تمَنَّيْتُ من حُبِّى عُلَيَّـه أنَّنا   على رَمَثٍ فى البحر ليس لنا وَفْرُ[٣]
على دائمٍ لا يعبر الفلكُ مَوْجَهُ   ومِنْ دوننا الأهوالُ واللُّجَج الخُضْرُ
فنقضىَ همَّ النفسِ فى غير رِقْبةٍ   ويُغرِق مَنْ نَخْشَى نميمته البَحْرُ

وقيل : الأمل رفيق مُؤْنِس ؛ إن لم يُبلغك فقد ألهاكَ .

وقال مسلم بن الوليد :

وأكثرُ أفعالِ الليالى إساءةٌ   وأكثرُ ما تَلْقَى الأمانِى كَوَاذِبَا

وقال آخر :

مُنًى إنْ تكُن حقا تكن أحْسنَ المُنَى   وإلاّ فقد عِشْنَا بها زمناً رَغْدَا
أمانىّ من لَيْلَى حِسَانٌ كأنما   سقتنى بها لَيْلَى على ظَمَإٍ بَرْدا

وقال آخر

رَفَعْتُ عن الدنيا المُنَى غيرحبها   فلا أسأل الدنيا ولا أسْتزيدُها

وقيل لأعرابى :ما أمتع لذّات الدنيا ؟ فقال: ممازحةُ المحب ، ومحادثةُ الصديق ،

---

(١) العر ــ بالفتح ويضم ــ الجرب
(٢) رواية صاحب الموشح :
إذا ما وردنا منهلا هاج أهله   إلينا ، فلا ننفك نرمى ونضرب
(٣) الرمث بالتحريك خشب يضم بعضه إلى بعض ويركب فى البحر

وأمانيّ تقطّع بها أيامك ، وأنشد :

عللّيني بِوَعدٍ وامطُلِي ماحَييتِ بِهْ
ودَعِيني أفوزُ منـــك بنَجْوَى تطلبه
فعسى يعثر الزّمَا ن بحظّي فينْقَلِبه

[بعض أخبار كثير وعزّة]

حمق كثير

وكان كثيرُ بنُ عبدِ الرحمن بن أبي جُمعة الخزاعي — ويعرف بعزّة ، على حِدَّةِ خاطره ، وجَوْدَةِ شعره — أحمقَ الناس .

دخل عليه نفرٌ من قريش وهو عليل يهزءون به ، قال بعضهم : فقلت له : كيف تجدُك ؟ قال : بخير ، هل سمعتُم الناسَ يقولون شيئاً ؟ فقلت : نعم ، سمعتُهم يقولون : إنك الدجّال . فقال : والله لئن قلتَ ذلك إني لأجِدُ في عيني اليمنى ضَعْفا منذ أيام .

كان رافضيا

وكان رافضياً يَدِين بالرَّجْعة ، ويقول بإمامة محمد بن الحنفية ، والروافض يزعمون أنه دخل في شِعْب باليمن في أربعين من أصحابه ، ولا بدّ من ظهوره ، وفي ذلك يقول :

ألاَ إنّ الأئمـــة من قُرَيشٍ وُلاَةَ الحَقّ أرْبعَةٌ سَـــوَاء
عَلِيٌّ والثَّلاَثَةُ مِنْ بَنِيـــهِ هُمُ الأسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاء
فَسِبْطٌ سِـبْطُ إيمَانٍ وبِرٍّ وَسِـــــبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبلاَء
وَسِبْطٌ لا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودَ الْخَيْلَ يَقْدُمُهَا اللِّوَاء
تَغَيَّبَ لا يُرَى عنهـم زَمَاناً بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ ومَاء

وكان خلفاءُ بني أمية يعلمون ذلك منه ، ويَلْبَسُونه عليه .

بين كثير وعبد الملك بن مروان

دخل يوما على عبد الملك بن مروان فقال : نشدتُك بحقّ علي بن أبي طالب ، هل رأيت أعْشَق منك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو سألتَني بحقّك لأخبرتُك ، نعم ، بينا أنا أسيرُ في بعض الفَلَوات إذا أنا برجل قد نَصَب حَبَائِلَه ، فقلت له :

ما أجلَسك ها هنا ؟ قال : أهلكني وأهلي الجوع ، فنصبت حَبَائلي لأُصيبَ لهم ولنفسي ما يكفينا سجابة يَوْمِنا ، قلت : أرأيتَ إن أقمتُ معك فأصَبْنا صيدا أتجعَلُ لي منه جزءا ؟ قال : نعم ، فبينا نحن كذلك إذ وقعَتْ ظبيةٌ ، فخرجْنا مُبْتَدِرِين ، فأسرع إليها فحلّها وأطلقها ؛ فقلتُ : ما حملك على هذا ؟ قال دخلتني لها رِقَّةٌ لشبهها بلَيْلَى ، وأنشأ يقول :

أيا شِبْهَ لَيْلَى لا تُرَاعِي فإنّني ... لك اليوم من وَحْشِيَّةٍ لَصَدِيقُ

أقول وقد أطلقتُها من وَثاقها ... لأنتِ - لليلى - ما حَييت طليقُ

وروى الكلبي وابن دأب أنه لمّا حَلَّها قال :

اذهبي في كِلاَءة الرّحْمَنِ ... أنْتِ منى في ذِمَّةٍ وأمَانِ

لا تخافِي بأن تُهاجِي بسوء ... ما تغنَّى الحمَام في الأغصانِ

ترهبيني والجيدُ منك لِلَيْلَى ... والحَشَا والبُغَام والعينَانِ ؟

وقال قيس بن الملوّح :

لقيس بن الملوح

راحوا يَصِيدون الظِّباء وإنني ... لأرى تَصَيُّدها عليَّ حَرَاما

أَشْبَهْنَ مِنْكِ محاجراً وسوَالِفاً ... فأرى عليَّ لهـا بذاك ذِمَاما

أعْزِزْ عليَّ بأنْ أرُوع شبيهها ... أو أنْ يَذُقْنَ على يَدَيَّ حِمَاما

ومن جيد شعر كثيّر :

من جيد شعر كثير

وكانت لِقطْعِ الحَبْل بيني و بينها ... كناذِرَةٍ نَذْراً فأوْفَتْ وحَلَّتِ

فقلتُ لها : يا عزُّ كلُّ مُصيبةٍ ... إذا وُطِّنَتْ يَوْما لها النَّفْسُ ذَلَّتِ

ولم يَلْقَ إنسانٌ من الحبِّ مَيْعَةً ... تعمُّ ولا غمَّاء إلاَّ تَجلَّتِ

أباحَتْ حِمًى لم يَرْعَهُ الناسُ قبلها ... وحَلَّتْ تِلاَعاً لم تكن قبلُ حُلَّتِ

هنيئاً مريئاً غَيْرَ دَاء مُخَامِر ... لعزَّةَ من أعْرَاضنا ما استحلَّتِ

أسِيئى بِنَا أوْ أحْسِنِى لا مَلُومَةً ... لَدَيْنَا ولا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ

ووالله ما قارَبْتُ إلا تباعدتْ ... بهجْرٍ، ولا استكثرت إلاّ أقلت

وما مرَّ من يومٍ عليَّ كيومها … وإن عظُمت أيام أخرى وجلَّتِ
فياعجبا للقَلْبِ كيف اعترافُهُ … وللنفس لما وُطِّنت كيف ذَلَّتِ
وإنِّى وتَهيامى بعزَّة بعد ما … تخلَّيتُ مما بيننا وتخلَّتِ
لكالمرتجى ظلَّ الغمامة ، كلَّما … تبوَّأ منها للمَقيلِ اضْمَحلَّتِ

كان كثير قصير دميا

وكان كثير قصيرا دميا ، ولذلك قال :

فإنْ أكُ معروقَ العِظام فإننى … إذا ماوَزَنت القومَ بالقومِ وَازِنُ[1]

ودخل كثير على عبد الملك بن مروان فى أول خلافته ، فقال : أنتَ كثيّر ؟ فقال : نعم ، فاقتحمه ، وقال : تَسْمَع بالمَعَيْدِيّ لا أنْ تَراه[2] ! فقال : يا أميرَ المؤمنين ، كلٌّ إنسان عند محله رَحْبُ الفِناء ، شامِخُ البناء ، عَالِى السَّناء ، وأنشد يقول :

ترى الرجل النحيفَ فتَزْدَرِيهِ … وفى أثوابه أسَدٌ هَصُورُ
وَيُعْجِبُك الطَّرِيرُ إذا تراهُ … فيُخلِفَ ظنَّك الرجلُ الطريرُ[3]
بُغَاثُ الطير أطولها رِقاباً … ولم تَطُلِ البُزاة ولا الصقورُ[4]
خَشاشُ الطيرِ أكثرُها فِراخاً … وأمُّ البازِ مِقْلاَةٌ نَزُورُ[5]

---

(١) قبل هذا البيت
رأت رجلا أودى السقام بجسمه … فلم يبق إلا منطق وجناجن
وبعده :
وإنى لما استودعتنى من أمانة … إذا ضيع الأسرار ياعز دافن
(٢) رواية القالى : « أن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه »
(٣) رجل طرير : له هيئة حسنة
(٤) البغاث : شرار الطير
(٥) خشاش الطير : هى العصافير ونحوها ، والمقلاة : التى لا يحيا لها ولد ، والنزور : قليلة الأولاد

ضِعافُ الأُسْدِ أكثرُها زئيراً وأصْرَمُها اللَّـواتى لا تَزِيرُ
وقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ فلم يستغْنِ بالعِظَم البعيـر
يُنَوَّخُ ثم يُضرَبُ بالمراوَى فلا عُرْفٌ لديه ولا نَكيرُ
يُقَوِّدُه الصبىُّ بكلِّ أرْضٍ ويَصْرَعُه على الجَنْبِ الصغيرُ[1]
فما عِظَم الرجال لهم بزَيْنٍ ولكن زَيْنُهم حَسَبٌ وخِيرُ[2]

فقال : قاتله الله ! ما أطْوَلَ لسانَه ، وأمد عِنانَه ، وأوْسع جَنانه ؛ إنى لأحسبه كما وصف نفسه[3] .

[قولهم فى الطول والقِصَر]

وأنشد أحمد بن عبيد الله لشاعر قديم :

لشاعر قديم

وعاذلةٍ هبَّتْ بليـلٍ تَلومُنى ولم يغتمرنى قَبْلَ ذاك عَذولُ[4]
تقول: اتئدْ لا يدْعُك الناس مُمْلِقاً وتُزْرِى بمَنْ يابْنَ الكرام تَعولُ
فقلتُ : أبَتْ نفسٌ علىَّ كريمةٌ وطارقُ ليل عند ذاك يَقولُ
ألم تعلمى يا عَمْـرَكِ الله أننى كريمٌ على حين الكرامُ قليلُ
وأنىَ لا أخزَى إذا قِيل مُمْلِقٌ سَخِىٌّ، وأخزَى أن يُقالَ بخيلُ
فلا تَتبَعِى النفسَ الغويَّةَ وانظُرِى إلى عُنْصُرِ الأحساب كيف يَئُولُ
ولا تَذْهَبَنْ عيناكِ فى كل شَرْمحٍ له قَصَبٌ جُوفُ العِظام أسيلُ[5]
عسى أن تَمَنَّى عِرْسُه أننى لها به ، حين يشتدُّ الزمانُ ، بَدِيلُ

---

(١) رواية القالى : « وينحره على الترب الصغير »

(٢) رواية القالى « كرم وخير »

(٣) روايه القالى «فقال عبد الملك : لله دره ! ما أفصح لسانه ، وأضبط جنانه ، وأطول عنانه ! والله انى لأظنه كما وصف نفسه » .

(٤) اغتمره يغتمره : عده غمرا ــ بالضم ويفتح ــ وهو من لم يجرب الأمور

(٥) الشرمح : الرجل الطويل.

إذا كنتُ في القوم الطوال فُطْلتُهم[1] بعارفة حتى يقال طويل[2]
ولا خير في حسن الجسوم وطولها إذا لم تَزِنْ حسنَ الجسوم عقول
فكائن رأينا من فروع طويلة تموت إذا لم تحيهن أصول
فإلاّ يَكُنْ جسمي طويلاً فإنني له بالفعال الصالحاتِ وَصول
ولم أرَ كالمعروفِ : أمّا مَذاقه فحلوٌ ، وأمّا وَجْهُهُ فجميلُ

لابن الرومي

وقال ابن الرومي :

ونَصِيفٍ من الرجال نحيفٍ رَاجح الوَزْنِ عند وَزْنِ الرجالِ
في أُناسٍ أُوتوا حُلومَ العصافيـرِ فلم تُغْنِهم جُسُومُ البِغَالِ

أخذه من قول حسان بن ثابت ، وقال له بنو الديان الحارثيون : قد كنّا ونحن نَطُول بأجسامنا على العرب حتى قلت :

دَعُوا التَّخَاجُؤَ وامْشُوا مِشْيَةً سُجُحاً إنَّ الرجال ذوو قــدّ وتَذْكير[3]
لا بَأسَ بالقومِ من طُولٍ ومن عِظَمٍ جِسْمُ البغالِ وأحلامُ العصافيرِ

فتركتنا لا نرى أجسامَنا شيئاً

والعربُ تمدح الطول ، وتثني عليه ، وقال عنترة بن شداد :

لعنترة العبسي

بَطَلٌ كأنَّ ثِيَابَه في سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعَالَ السِّبْت لَيْس بتَوْأَمِ

قوله « ليس بتوأم » يريد ليس ممن زُوحم في الرَّحِمِ فضعف ، كما قال الشعبي ، وقد دخل على عبد الملك بن مروان ، فجعل ينظرُ إليه ، وكان الشعبي قد وُلد توأماً مع أخيه ، فكان نحيفاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إني زُوحمت في الرحم ، وقال :

---

(١) رواية القالي « فضلهم »
(٢) العارفة : المكرمة ، وفسرها أبو بكر ابن الأنباري بالنفس الصابرة
(٣) التخاجؤ : فتح الصدر عند المشي تيها وكبرياء

ولما التقى الصفَّانِ واختلف القَنَا نِهَالاً ، وأسبابُ المنـايا نِهالها
تبيَّن لِي أن القماءةَ ذِلةٌ وأنَّ أعـــزاء الرجال طِوالُها

لأبى نواس

وقال أبو نواس :

وكنا إذا ما الحائن الجِّدّ غرَّهُ سَنَى بَرْقِ غادٍ أو ضجيج رعَادِ
تَرَدَّى له الفضلُ بن يحيى بن خالدٍ بماضى الظُّبَى يَزْهاهَ طولُ نجادِ
أمام خميس أرجـــوانٍ كأنهُ قَميصٌ مَحُوكٌ من قناً وجِيَادِ[1]

ومن هذا البيت أخذ أبو الطيب المتنبى قوله :

ومَلْمُومةٌ زَرَدٌ ثوبُها ولـكِنهُ بالقَنَا مُخْمَلُ

[عَوْد إلى أخبار كثير عزة]

كثير عند عبد العزيز بن مروان وهو مريض

ودخـل كثيِّر على عبـد العزيز بن مروان وهو عَليل ، وأهلُه يتمنَّوْن أنْ يتبسم ، فقال : لولا أن سرورَكَ لايتمّ بأن تَسْلَمَ وأسقم لدعوتُ اللهَ أن يصرف مابك إلىّ ، ولـكنى أسألُ اللهَ أيها الأمير العافيةَ لك ولى فى كَنَفك ؛ فضحك وأمر له بمال فخرج وهو يقول :

ونعودُ سيِّدنا وسيِّدَ غـيرنا ليت التشكّى كانَ بالعُوَّادِ
لو كان تُقْبَلُ فِدْيةٌ لفديتهُ بالمصْطَفَى من طارِفى وتِلاَدِى

نقد سلام الجمحى بعض شعر كثير

قال محمد بن سلام الجمحى : قال أبى : ذاكرْتُ مروان بن أبى حَفْصَة شِعْرَ جرير والفرزدق وكثير ، فذهب إلى تقديم كثيِّر ، وجعل يُطْرِيه ويقول : هو أمدحهم للخلفاء ، فقلت : أمِنْ جودة مدحه للخلفاء قوله لعبد الملك بن مروان :

ترى ابنَ أبىِ العاصى وقدصُفّ دُونهُ ثمانون ألفاً قـــد توافَتْ كُمولها
يقلِّب عيـــــنَىْ حية بمَفَازَةٍ إذا أمكَنَتْه شَـــدَّةٌ لايُقِيلها

فقال هذا للخليفة ودونه ثمانون ألفاً ، وجعله يقلّب عينى حية .

---

(١) الخميس : الجيش لأنه خمس فرق: المقدمة،والقلب، والميمنة،والميسرة،والساقة

وقوله :

وإن أميرَ المؤمنين هو الذى غزَا كامناتِ الودِّ منى فنالها

زعم أن أمير المؤمنين استعطفَه حتى غزَا كامناتِ صَدْره .

وقوله لعبد العزيز بن مروان :

وما زالتْ رُقاكَ تَسُلّ ضِغْنى وتُخْرِجُ من مَكامنها ضِبَابى

ويَرْقِينى لك الحاوون حتى أجابك حَيةُ تحت الحجاب

زعم أن عبدالعزيز ترَضَّاه ، واحتال له ورَقَاه ، حتى أجابه ؛ أ كَذَا تُمْدَح الملوك ؟ فأسْكَته(١).

فصول قصار

من كان له من نَفْسِه واعظ ، كان من الله عليه حافظ . العبد حرٌّ إذا قَنع ، والُحرُّ عبدٌ إذا طمع . الأمانى تَخْدَعك ، وعند الحقائق تَدَعك . إذا كان الطمعُ هلاكا ، كان اليأسُ إدراكا . ليس يُعَدُّ حكيما ، من لم يكن لنفسه خَصِيما . تعزَّ عن الشىء إذا مُنِعْتَه ، بقلة ما يصحبك إذا مُنِحْتَه . تجرَّعْ مَضَضَ الصبر تطفىء نار الضر . الحكمة حِفْظُ ما كلفت ، وتَرْكُ ما كفيت . الصَّبْرُ عن محارِمِ الله ، أيسر من الصبر على عذاب الله .

شذور لأهل العصر فى معانٍ شتَّى

من كلام قابوس بن وشمكير

قطعة من كلام الأمير قابوس بن وَشْمَكير شمس المعالى فى أثناء رَسَائله : بزَنْد الشفيع تُورِى نار النجاح ، ومن كف المفيض يُنْتَظر فوز القِداح ،

---

(١) راجع ما أخذه الرواة على كثير فى الصفحات ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ من كتاب الموشح ؛ فإن ما هنا قد اقتبس من هناك

الوسائل أقدام ذوى الحاجات ، والشفاعات مفاتيحُ الطَّلِبات . العفو عن الجرم من مُوجباب الكرم ، وقَبُولُ المعذرة من محاسن الشِّيَم . و بالقوادم والخوافِى قُوَّةُ النجاح ، و بالأسنة والعوَالى عمل الرماح . الدنيا دار تغرير وخداع ، وملتقى ساعةٍ لوداع ، والناس مُتَصَرِّفون بين كل وِرد وصدَر ، وصائرون خبَرًا بعد أثر . غايةُ كل متحرّك إلى سكون ، ونهايةُ كل متكون ألاّ يكون ، وآخر الأحياء فَنَاء ، والجزع على الأموات عَنَاء ، و إذا كان ذلك كذلك ، فلِمَ التهالك على الهالك ؟ . حشْوُ الدهر أحزان وهموم ، وصَفْوُه من غير كدر معدوم . إذا سمح الدهر بالحِبَاء ، فأبشر بوشْك الانقضاء ، و إذا أعار ، فاحسبه قد أغار . الدهر طعمان حلو ومرّ ، والأيام ضربان عُسْر و يسر . لكل شىء غاية ومنتهى ، وانقطاع و إن بلغ المدى . تَرْكُ الجواب ، داعيةُ الارتياب ، والحاجة إلى الاقتضاء ، كسوف فى وجه الرجاء . همّ المنتظر للجواب ثقيل ، والمدى فيه وَإن كان قصيراً طويل . النجيب إذا جرى لم يشقّ غباره ، و إذا سرى لم تلحق آثاره . ومن أيْنَ للضباب صَوْب السحاب ، وللغراب هُوِىُّ العقاب ، وهيهات أن تكتسب الأرض لطافة الهواء ، و يصير البدر كالشمس فى الضياء .

* * *

للثعالبي يصف شمس المعالى

وقد ترجم عن شمس المعالى أبو منصور الثعالبى فى كتاب ألّفه له ؛ قال فى أوله : أمَّا على أثر حَمْدِ الله الذى هو أوّلُ كتابه ، وآخرُ دعوى ساكنى دَار ثَوَابِه ، والصلاةِ على خِيرته من بريَّته ، وعلى الصَّفْوةِ من ذرّيته ، فإنَّ خيرَ الكلامِ ماشغل بخِدْمَة مَنْ جمع اللهُ له عِزَّةَ المُلْكِ إلى بَسْطَةِ العلم ، ونورَ الحكمة إلى نفوذِ الحكم ، وجَعَله مميّزاً على ملوكِ العصر ، ومدبِّرِى الأرض ووُلاة الأمر ، بخصائص من العَدْلِ ، وجلائلَ من الفضل ، ودقائقَ من الكَرِمِ المَحْض ، لايدخلُ أيسرُها تحت العادات ، ولا يُدْرَكُ أقلُّها بالعبارات ؛ ومحاسنُ [سِيَرِ] الأنام[1] ، تَحْرُسها أسِنَّةُ الأقلام ، وتدرسها ألسنةُ الليالى والأيام ، وهذه صفة تُغنى

(١) فى الأصول كلها « ومحاسن سير الأيام » تحريف ما أثبتناه (م)

عن تشبيه الموصوف لاختصاصه بمعناها ، واستحقاقه إياها ، واستئثاره على جميع الملوك بها ، ولعلم سامعها ببديهة السماع أنها للأمير ، شمس المعالى ، خالصة ، وعليه مقصورة ، و به لائقة ، وعن غيره نافرة ؛ إذ هو - بمعاينة الآثار ، وشهادة الأخيار ، و إجماع الأولياء ، واتفاق الأعداء - كافلُ المجد ، وكافى الخَلْق ، وواحدُ الدهر ، وغُرَّة الدنيا ، ومفزَع الوَرَى ، وحسَنةُ العالم ، ونُكْتَةُ الفلَكِ الدائر ؛ فبلَّغه اللهُ أقصى نهايةِ العمر ، كما بلَّغه أقصى غايةِ الفخر ؛ وملَّكه أزِمَّة الأمر ، كما ملَّكه أعِنَّة الفضل ؛ وأدام حُسْنَ النظر للعباد والبلاد ، بإدامة أيامه التى هى أعيادُ الدَّهرِ ، ومواسم اليُمن والأمْنِ ، ومطالع الخير والسَّعْدِ ، وزاد دولتَهُ شباباً ونموًّا ، كما زادهُ فى الشرف عُلوًّا ، حتى تكون السعاداتُ وفْدَ بابه ، والبشائر قِرَى سَمْعِهِ ، والمسارّ غِذَاء نفسه ، و يترامَى به الإقبالُ إلى حيث لا يبلُغه أمل ، ولا يَقْطَعه أجل .

* * *

نَحَاقى قوله « وهـذه صفة تُغْنى عن الموصوف » إلى قول أبى الطيب يَرْثِى أختَ سيف الدولة :

يا أختَ خَيْرِ أخٍ يابنْتَ خَيْرِ أبِ ... كنايةً بهماَ عن أشْرَفِ النَّسَبِ
أُجِلُّ قَدْرَكِ أن تُسْمَىْ مُؤَنَّثَةً ... ومَنْ دعَاكِ فقَدْ سَمَّاكِ لِلعَرَبِ

* * *

مدائح فى شمس المعالى ابن وشمكير

وفى شمس المعالى يقول الأمير أبو الفضل الميكالى :

لا تَنْعَصِــبَنْ شَمْسَ العُلاَ قابوسا ... فمن عَصَى قابوسَ لاقَى بوساَ

وله يقولُ بديعُ الزمان فى قصيدة نظمها فى تضاعيف رسالةٍ موشحة :

إنَّ مَنْ كنت من مُناه بمَرْأى ... وتعـــدَّاك سيّئُ الاقتراح
بَيْنَ بِشْرٍ يَرُدُّ غائضَ جاهى ... وقَبُولٍ يُعيـد رِيشَ جناحِى

وبساطٍ ورَدْتُ مَشْرَعة الأُنْـــس بهِ وادَّرَعْتُ بُرْد النجاح
فاقْض أوْ طَارًا التقتْ والمَعَالِي في نظامٍ من النُّهى وتَصاحِ
ملك دُونَه تَقَطَّعُ أبصا ر الليالى يَوْمًا نَدًى وكِفَاحِ
ملك لو يشاه مَدَّ على النَّجْـــم رِوَاقًا ورَدَّ وَفْدَ الرِّيَاحِ
تارةً فى خُشونَةِ الدَّهْرِ تَلقا هُ وطوراً فى حُسْنِ ذات الوِشَاحِ
ملك كلَّما بَدَا نقفُ الأفـــلاك عُجْباً به وفَرْطَ ارْتِيَاحِ
هكذا هكذا تكونُ المعـالى طُرُقُ الجدِّ غيْرُ طُرُقِ المِزاحِ

وهى طويلةٌ ، كتبتها على طريق الاختيار .

[من رسـائل بديع الزمان]

رقعة لبديع الزمان إلى شمس المعالى ، وقد ورد حضرته :

لم تزَلِ الآمالُ ـ أطال اللهُ بقاء الأميرالسيد شمس المعالى،وأدام سلطانه ـ تَعِدُنى هذا اليوم ، والأيامُ تمطلُنى بألسنةِ صروفِها ، على اختلافِ صنوفِها ، بين حُلْوٍ اُسترقَّنى ، ومرٍّ استخفَّنى ، وشر صار إلىّ ، وخيرٍ صِرْتُ إليه ، وأنا فى خلال هذه الأحوال أذْرَعُ الآفاقَ فأكون طوراً مُشْرِقًا للمشرق الأقصى ، وطوراً مُغرِبًا للمغرب ، ولا مطمح إلاّ حضرته الرفيعة ، وسُدَّتُه المريعة ، ولا وسيلة إلا المنزع الشّاسع ، والأمل الواسع ؛ وقد صرت ـ أطال اللهُ بقاء الأمير مولانا ـ بين أنيابِ النوائب ، وتجشَّمْت هَوْلَ الموارد ، وركبت أكْتَافَ المكاره ، ورضعْتُ أخْلافَ العوائق ، ومسحت أطْراف المراحل ، حتى حضرتِ الحَضْرَةَ البهيّة أو كِدْتُ ، وبلغت الأُمنية أو زِدْت ، وللأمير السيد فى الإصغاء إلى المجد ، والبَسْطِ من عنان الفَضْل ، بتمكين خادِمه من المجلس يَلْقَاه بقَدَمه ، والبساط يلْثِمه بفمه ، تفضُّله . فلهُ الرأْيُ العالى إن شاء الله .

وله إلى بعض الرؤساء وقد وعد بحضور مجلسه بالغداة وأمره أنْ يزفَّ إليه ما أنشأه ، فبعث به وكتب إليه :

مَرْحَبًا بسلامِ الشيخ سيّدى ومولاى أطال اللهُ بقاه ، ولا كالمَرْحَبِ

بِطَلْعَتِه ؛ وقد وصَلت تحيَّتُه فشكرتها ، وعِدَتُه الجميلةُ بالحضور غدا فانتظرتها ؛ ودعوتُ اللهَ أن يَطوِىَ ساعاتِ النهار ، ويزجَ الشمسَ فى المَغَار، ويُقرِّب مسافةَ الفَلَكِ الدوّار ، ويرفعَ البركةَ من سيره ، ويجهز الحركةَ إلى دوره ؛ ويُسيِّرنى بوَفْدِ الظلام وقد نزل ، ثم لم يَلبَثْ إلاّ ريثما رَحَل ؛ وقد بعثتُ بما طلب سمعاً لأمره وطاعة ، والنسخة أسقمُ من أجفَان الغَضْبَانِ ، والشيخ سيدى — أدام اللهُ عزّه — يرْكِضُ قلمه فى إصلاحها، وحبَّذا هو فى غدٍ ، وقد طلع كالصبح إذا سطع ، والبرق إذا لمع :

يامرحباً بغَدٍ ويا أهلاً بهِ إن كان إلمامُ الأحبَّةِ فى غدِ

وله إلى أبى الطيب سهل بن محمد يسأله أن يصله بأبى إبراهيم إسماعيل بن أحمد :

لوكان للكرم عن جَنابِ الشيخ مُنصَرَفٌ لانصَرَفْت ، أوللأمل مُنحَرَف إلى سواه لَانحرَفت ، أو للنُّجح بابٌ سواه لَوَلجت ، أو للفضل خاطبٌ غيره لزوّجت، ولكِنْ أبَى الله أنْ يعقدَ إلا عليه الخنصر ، أو يتحلّى إلا بفواضله الدهر ، ولا يزال كذا يتَّسِم المجدُ بِسِمَتِهِ ، ويجذب العلاءَ بهمّته ، ويُسْعِدُ الدينَ بنظره ، والدنيا بجماله ، وغلامُه أنالو استعار الدَّهْر لسانا ، واتّخذ الريح تَرجُمَانا ، ليُشِيع إنعامَه حق الإشاعة ، لقَصُرَتْ به يَدُ الاستطاعة ، فليس إلاأن يلبس مكارمه صافيةً سابغة ، ويَرِدَ مشارِعَه صافيةً سائغة ، ويحيل الجزاء على يد قصور ، والشكر على لسان قَصِير ؛ ثم إنّ حاجاتى ، إذا لم يَعْرَ من قلائدِ المجدِ نحرُها ، ولم يَعْطَلْ من حَلْيِ المجدِ صَدْرُها ، كبر مَهْرُها ، وعَزَّ كفؤها ، ولم أجِد لها إلا واحداً أخْضَر الجلدة فى بيت العرب ، أو ماجداً يملأ الدَّلو إلى عقد الكَرَب(١) . وهذه حاجةٌ أنا أزفّها إلى الشيخ الإمام حرَس اللهُ مُهْجَته ، وأسُوقها منظومة من الصَّدْرِ إلى العجز ، كما يساقُ الماء إلى الأرض الجُرُز(٢) ؛ وأنا من مفتَتَح اليوم إلى مختَتمِه ، ومن

---

(١) الكرب — بفتحتين — الحبل يلى الماء .

(٢) الجرز — بضمتين — الأرض لاتنبت شيئاً .

قَرْنِ النهار إلى قَدَمِه ، قاعد كالـكُرْكِىِّ[1] ، أو الديك الهِنْدِى ، فى هذا الأُدْحِىّ[2] ، يمرُّ بى أُولو الحلى والحلل ، ويجتاز ذوو الخيل والخَوَل[3] ، وما أنا والنَّظر إلى مالا يَلِينى ، والسؤال عما لا يَعْنِينى ، واليوم ، لما افتضضنا عُذْرة الصباح ، ملأتُ جفونى من مَنْظَرٍ ما أحْوَجَه إلى عَيْبٍ يَصْرِفُ عَيْنَ كالِه ، عن جماله ، فقلت لمن حضر : مَنْ هذا ؟ فأخذوا يحرِّكون الرءوسَ استظرافاً لحالى ، ويتغامزون تعجُّباً من سؤالى ، وقالوا : هذا الشيخُ الفاضلُ أبو إبراهيمَ إسماعيلُ بن أحمد ، فقلت : حَرَسَ اللهُ مُهْجَته ، وأدام غِبْطته ؛ فكيف الوصولُ إلى خِدْمَتِه ، وأنَّى مَأْتَى معرفته ؟ قالوا : إن الشيخ الإمام ـ أدام الله تأييده ـ يضربُ فى مودَّتِه بالقِدْحِ المُعَلَّى ، ويَأْخُذ فى معرفته بالحظِّ الاعلى ، فإن رأى الشيخ ـ أطال الله بقاه ـ أن تُجْعَلَ عنايتُه حَرْفَ الصلة ، وتفضّله لاَمَ المعرِفَة ، فَعَلَ ، إن شاء الله .

[من أخبار البرامكة]

قال الرشيد ليحيى بن خالد : يا أبت ، إنى أردتُ أن أجعل الخاتم الذى فى يد الفَضْل إلى جعفر ، وقد احتشمت منه فا كْفِنيه .

فكتب إليه يحيى : قد أمر أميرُ المؤمنين ـ أعْلَى الله أمره ـ أن يحوِّل الخاتم من يمينك إلى شمالك .

فأجاب الفضل : قد سمعتُ ما قاله أمير المؤمنين فى أخى ، وقد اطّلعت على أمره ، وما انقلَبَتْ عنى نِعمةٌ صارت إليه ، ولا عزَبَت[4] عنى رتبةٌ طلعَتْ عليه .

فقال جعفر : لله أخى ! ما أنْفَسَ نفسه ، وأبْيَنَ دلائل الفضل عليه ، وأقوى مُنَّة العَقْل فيه ، وأوْسع فى البلاغة ذَرْعَه ، وأرْحَبَ بها جنابه . يُوجب على نفسه ما يجب له ، ويَحْمِلُ بكرمه فوق طاقته .

(١) الكركى : طائر يقرب من الوز ، أبتر الذنب ، رمادى اللون ، يأوى إلى الماء أحيانا (م) (٢) الأدحى : المكان الذى تبيض النعام فيه من الرمل .

(٣) الخيل : أراد به الخيلاء ، والخول ـ بالتحريك ـ الخدم والعبيد والإماء (م)

(٤) كذا ، وعزبت معناه بعدت ، وأحسبه « غربت » لمقابلته بطلعت (م)

ثمامة بن أشرس يصف جعفر بن يحيى

وذُكِر جعفرُ بن يحيى فى مجلس ثُمَامَةَ بن أشرس فقال: ما رأيتُ أحداً من خَلْقِ الله كان أبْسَطَ لساناً، ولا أَلْحَن بحجة، ولا أقدر على كلام، بنَظْمٍ حَسَنٍ، وألفاظٍ عذبة، ومَنْطقٍ فصيحٍ، من جعفر بن يحيى، كان لا يتوقّف، ولا يتحبّس، ولا يَصِلُ كلامه بِحَشْوٍ من الكلام، ولا يُعيدُ لفظا ولا معنى، ولا يَخْرجُ من فنٍّ إلى غيره، حتى يبلغ آخِرَ مافيه؛ وكان لا يرى شيئاً إلا حكاه، ولا يَحْكى شيئاً إلا كان أكثر منه، ولا يمرُّ بذهنه شيء إلا حفظه، وكان إذا شاء أضحكَ الثَّكْلَى، وأذْهَل الزاهد، وخشَّن قَلْبَ العابد.

قلت: فكيف كانت معرفته؟ قال: كان من أعلم الناس بالخبر الباهر، والشعر النادر، والمثل السائر، والفصاحة التامة، واللسان البسيط.

سهل بن هارون يصف يحيى وابنه جعفر

قال سهل بن هارون، وذكر يحيى بن خالد وابنه جعفراً، فقال: لو كان الكلام مُتَصَوَّراً دُرًّا، ويُلْقِيه المنطق جَوْهراً، لكان كلامَهُمَا، والمنتَقَى من ألفاظهما. ولقد غَبَرت معهما، وأدْرَكْتُ طبقة المتكلمين فى أيامهما، وهم يَرَوْن البلاغة لم تُسْتَكْمَلْ إلا فيهما، ولم تكُنْ مقصورةً إلا عليهما، ولا انقادت إلا لهما. وإنهما لَلُبابُ الكرم، عِتْقَ منظرٍ، وجودَةَ مَخْبرٍ، وسهولةَ لفظٍ، وجزالة منطق، ونزاهة نفس، وكمال خصال؛ حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهما، والمأثورِ من خصائصهما جميعَ أيامِ مَنْ سواهما من لَدُنْ آدم إلى أن يُنْفَخَ فى الصور، ويُبْعثَ أهل القبور ــ حاشا أنبياء الله الكرام، وسَلَفِ عباده الصالحين ــ لما باهت إلا بهما، ولا عوَّلت فى الفخر إلا عليهما، ولقد كانا ــ مع تهذيب أخلاقهما، ومَعْسُول مَذَاقهما، وسنا إشْرَاقهما، وكمالِ الخيرِ فيهما ــ فى محاسن المأمونِ كالنُّقْطَةِ فى البحر، والخَرْدَلِ فى القَفْرِ

توقيع لجعفر ابن يحيى

ووقّع جعفرُ بن يحيى لرجلٍ اعتذر عنده من ذنب: قد قدُمَتْ طاعَتُك، وظهرت نصيحتك، ولا تَغلِبُ سيئةٌ حسنتين.

ووقَّع - وقد قرأ كتاباً فاستحسن خطّه -: الخطُّ خَيْطُ الحِكْمة ، يُنْظَمُ فيه منثورُها ، ويفصَّل فيه شذُورُها .

واختصم رجلان بحضرته ، فقال لأحدهما : أنت خليّ ، وهذا شَجِيّ ؛ فكلامك يجْرِي على بَرْدِ العافية ، وجوابُه يَجْرِي على حَرِّ المصيبة .

بين جعفر بن يحي ومروان ابن أبي حفصة

ودخل مروان بن أبي حفصة على جعفر بن يحيى فأنشده :

أبَرّ فمـــا تَرْجُو الجِيادُ لَحَاقَهُ　　أبو الفضل سبَّاقُ الأضَامِيمِ جَعْفَرُ

وزيرٌ إذا ناب الخلافةَ حادِثٌ　　أشار بما عنـه الخلافةُ تَصْدُرُ

فقال جعفر : أنشدني مرثيتك في معْنِ بن زائدة ، فأنْشَدَهُ :

أقَمْنَا باليمـامة أو نَسِينا　　مقاماً ما نُرِيدُ به زَوالا

وقلنا : أيْنَ نذهبُ بعد مَعْنٍ　　وقدذهبَ النَّوَالُ فلانوَالا ؟

وكان الناسُ كلُّهم لمَعْنٍ　　إلى أن زار حُفْرَتَهُ - عِيَالا

حتى فرغ من القصيدة ، وجعفر يُرْسِل دموعَه على خدّيه ، فقال : هـل أثابك على هذه المرثية أحدٌ من أهْلِ بيته وولده ؟ قال : لا ، قال : فلو كان معن حيًّا ، ثم سمعَهَا منك ، كم كان يُثيبك عليها ؟ قال : أربعمائة دينار ، قال : فإنَّا كنَّا نظنّ أنه لا يَرْضَى لك بذلك ، وقد أمرنا لك عن مَعْن - رحمه الله - بالضّعف ممـا ظننته ، وزِدْناك مثلَ ذلك ؛ فاقْبض من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تخرج ، فقال مروان - يذكر جعفراً وما سمح به عن معن - :

نفَحْتَ مُكَافِئًا عن جُودِ مَعْنٍ　　لنـــا فيما تَجُودُ به سِجَالا

فعجّلْتَ العطيـــة يابْنَ يَحْيَي　　لنـــادِبهِ ولم تُرِدِ المِطَالا

فكافأ عن صَدَى معْنٍ جَوَادٌ　　بأَجْوَدِ راحةٍ بَذَلتْ نَوَالا

بَنَى لك خالدٌ وأبوكَ يحيي　　بناءً في المكارِمِ لَنْ يُنالا

كأنَّ البرمكيّ لـكلِّ مالٍ　　تجودُ به يداه يُفيـــد مَالا[1]

* * *

(١) يفيد هنا : بمعنى يأخذ ، لا بمعنى يعطي (م)

أخذ هذا من قول زهير :

تَرَاهُ إذَا ما جِئْتَه مُتَهَلِّلاً ... كأنَّكَ تُعطِيه الذى أنتَ سائِلُهْ

وهذا البيت لزهير من قصيدة يقول فيها :

من قصيدة لزهير بن أبى سلمى

وَذِى نِعْمَةٍ تَمَّمْتها وشكرتهـا ... وخَصْمٍ يكادُ يغلِبُ الحقَّ باطلُهْ

دفعتُ بمعروفٍ من الحقِّ صائبٍ ... إذا ما أَضَلَّ القائلين مَفاصِلُهْ

وذى خطلٍ فى القول يَحْسَبُ أنهُ ... مُصيبٌ فما يُلْمِمْ به فهو قائلُهْ

عَبَأْتُ له حلما ، وأكرمتُ غيرهُ ... وأعرضتُ عنهُ وهو بادٍ مَقاتِلُهْ

وأبيضَ فيّاضٍ يَدَاهُ غَمامَةٌ ... على مُعْتَفِيهِ ما تُغِبُّ نوافِلُهْ(١)

غَدَوْتُ عليــه غُدْوَةً فرأيْتُهُ ... قُعُوداً لَدَيْهِ بالصَّرِيمِ عَواذِلُهْ

يُفَدِّينَهُ طَوْراً ، وطَوْراً يَلُمْنَهُ ... وأَعْيَا فما يَدْرِينَ أين مَخاتِلُهْ

فأعْرَضْنَ عنه عن كريمٍ مُرَزَّإٍ ... جَمُوحٍ على الأمرِ الذى هو فاعِلُهْ

أَخِى ثِقَةٍ لا يُذْهِبُ الخمرُ مالَهُ ... ولــكنّه قد يُذْهِبُ المالَ نائِلُهْ

تعليق عليها لقدامة بن جعفر

قال أبو الفرج قُدامَةُ بن جعفر ، فى معنى أبيات زهير الأولى : لما كانت فضائلُ الناسِ من حيث هم ناس ، لا من طريقٍ ماهم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ، على ما عليه أهلُ الألباب من الاتّفاق فى ذلك ، إنما هى العقلُ والعفةُ والعَدْلُ والشجاعة ، كان القاصد للمَدْح بهذه الأربعة مُصيبا ، وبما سواها مخطئاً ؛ وقد قال زهير :

أَخِى ثقةٍ لا يُتْلِفُ الخمرُ مالَهُ ... ولــكنه قد يُهْلِكُ المالَ نائِلُه

فوصفه بالعفّة لقلةِ إمعانه فى اللذات ، وأنه لا يُنْفِــد فيها ماله ، وبالسَّخاء لإهلاك ماله فى النوال ، وانحــرافه إلى ذلك عن اللذات ، وذلك هو العدل ، ثم قال :

تراه إذا ما جِئْتَه مُتَهَلِّلاً ... كأنّك تُعْطِيهِ الذى أنتَ سائِلُهْ

---

(١) المعتفون : طالبو عطائه ، وما تغب نوافله : ما تتأخر عطاياه (م)

فزاد فى وَصْفِ السخاء بأنه يَهَشّ ولا يلحقه مضَضٌ ولا تَكَرُّهٌ لفِعْله ثم قال :

فَمَنْ مثل حِصْنٍ فِي الحروب ومِثْلهُ   لإنكار ضَيْم أو لأمْرٍ يُحَاوِلُهُ

فأتى فى هـذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل ؛ فاستوفى ضروبَ المدح الأربعة ، التى هى فضائلُ الإنسان على الحقيقة ، وزاد الوفاء ، وإن كان داخلا فى الأربعة ؛ فكثير من الناس لايعلم وَجْهَ دخوله فيها حيث قال « أخى ثقة » فوصفه بالوفاء ؛ والوفاء داخلٌ فى هذه الفضائل التى قدّمناها .

وقد يتفنَّنُ الشعراء فيعدّون أنواعَ الفضائل الأربع وأقسامها ، وكلٌّ ذلك داخلٌ فى جملتها ؛ مثل أن يذكروا ثقابَةَ المعرفة ، والحياء ، والبيانَ ، والسياسة ، والصَّدْعَ بالحجّة ، والعلم ، والحلم عن سفاهة الجَهَلةِ ؛ وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، وهو من أقسام العقل . وكذ كرهم القناعة ، وقلّة الشَّرَهِ ، وطهارة الإزار ؛ وغير ذلك أيضاً من أقسام العفّة . وكذِكْرِهم الحماية ، والأخْذَ بالثّار ، والدفاع ، والنِّكايَةَ ، والمهابة ، وقَتْلَ الأقران ، والسير فى المَهَامِه والقفار ؛ وما يشاكلُ ذلك ، وهو من أقسام الشجاعة ؛ وكذِكْرِهم السماحة ، والتغابن ، والانظلام ، والتبرّع بالنائل ، وإجابة السائل ، وقِرَى الأضياف ؛ وما جانس هذه الأشياء ، وهو من أقسام العدل .

فأمّا تركيب بعضها على بعض فتحدث منها ستة أقسام : يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة : الصبرُ على الملماتِ ، ونوازِلِ الخطوب ، والوفاء بالوعود . وعن تركيب العقل مع السخاء : إنجازُ الوعد ، وما أشبه ذلك . وعن تركيب العقل مع العفة : التنزه والرغبةُ عن المسألة ، والاقتصار على أدنى معيشة ، وما أشبه ذلك . وعن تركيب الشجاعة مع السخاء : الإخلاف ، والإتلاف ، وما أشبه ذلك . وعن تركيب الشجاعة مع العفّة : إنكارُ الفواحش ، والغيرةُ على الحُرَم . ومن السخاء مع العفة :

الإسعاف بالقوت ، والإيثارُ على النفس ، وما شا كَل ذلك . وكل واحدة من هذه الفضائل الأربع وَسَطٌ بين طرفين مذمومين(١)

محمد بن مناذر في البرامكة

وقد قال أبو جعفر محمد بن مناذر لما حجَّ الرشيد مع البرامكة :

أتانا بنو الأملاكِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ فيا طِيبَ أخْبارٍ، ويا حُسْنَ مَنْظَرِ
لهم رِحْلةٌ في كلِّ عام إلى العِـدا وأُخْرَى إلى البيتِ العتيقِ المُشَهَّرِ
فتُظْلِم بغدادٌ، ويَجْلو لنا الدُّجَى بمكَّةَ ما حَجُّوا ثلاثةَ أقْمُرِ
إذا نزلوا بطحاءَ مكةَ أشرقَتْ بيَحْيَى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ
فما خُلِقَتْ إلّا لجـودٍ أكفُّهم وأقدامُهم إلّا لأعْوَادِ مِنْـبَرِ
إذا راضَ يحيى الأمرَ ذَلَّتْ صِعَابهُ وحَسْبُكَ مِن راعٍ له ومـدبِّرِ
ترى الناسَ إجلالاً له وكأنهم غَرانيقُ ماء تحت بازٍ مُصَرْصِرِ(٢)

[مُثُل من التجنيس]

لأبي الفضل الميكالي

قطعة من شعر الأمير أبي الفضل الميكالي في طَرَف اخذ بطرف من التجنيس مستطرف في ضروب من الغزل ، قال :

لقـد راعني بَدْرُ الدُّجَى بصُدُودهِ ووَكَّلَ أجفـاني بِرَعْي كواكِبه
فيا جَزَعي ، مَهْلًا عَسَاهُ يَعودُ لي ويا كَبِدي، صَبْرًا على ما كَوَاكَ بهْ

وقال :

مواعيدُه في الفَضْـل أحلامُ نائم أشَبِّهُهَا بالقَفْـرِ أو بِسَرَابِهِ
فمَنْ لي بوَجْهٍ لو تَحَيَّرَ في الدُّجَى أخُو سَفَرٍ في ليلِ غَيْمٍ سَرَى بِهِ

---

(١) راجع الباب السابع من كتاب « الأخلاق عند الغزالي » لتفهم هذا الحديث
(٢) الغرانيق : جمع غرنوق ، وهو طير مائي أسود ، والبازى : الصقر

وقال :

صِــلْ محبًّا أعياه وَصْفُ هواهُ ... فضَــناه يَنُوبُ عن تَرْجمانِهْ

كلمـا راقهُ سِــواكَ تَصدَّتْ ... مُقْلَتَاهُ بدمعِه تَرْجُمَـــانِهْ

وقال :

ياذا الذى أرســل من طَرْفِه ... علىّ سَيْفاً قــدّنى لو فَرَا

شــفاه نفسى منــك تخميشةٌ ... تَغْرِسُ فى خــدّك نيلَوفَرَا

وقال :

يا مُبْتَلَى بضــناهُ يَرْجُو رحمةً ... من مالكٍ يشفيهِ من أوْصَابهِ

[أوصاكَ سِحْرُ جفونه بتسهُّد ... وتبلّد ، فقبلت ما أوْصَى به]

اصْــبِرْ على مَضَضِ الهوىفلربّما ... تَحْلُو مرارةُ صــبرهِ أوصابهِ

وقال :

كَتَبْتُ إليــه أستهدى وِصالاً ... فعــلّلنى بوَعْــدٍ فى الجواب

ألاَ ليت الجوابَ يكون خيراً ... فيطفئَ ما أحاط من الجوَى بى

وقال :

إنْ كنتَ تأنَسُ بالحبيبِ وقُرْبِه ... فاصْــبِر على حُــكْمِ الرقيبِ ودارِهِ

إنَّ الرقيبَ إذا صــبرت لحكمهِ ... بَوَّاكَ فى مَثْوَى الحبيبِ ودارِهِ

وقال :

شكوتُ إليــه ما ألاقِى فقال لى : ... رُوَيداً،ففى حُــكمِ الهوَىأنتَمُوتَلى[1]

فلو كان حقا ما ادَّعيت مِنَ الهوَى ... لقلّ بمـــا تلقى إذاً أنْ تموتَ لى

وقال :

نَوَى لى بعــد إكثارِ السؤال ... حبيبٌ أنْ يُسامحَ بالنَّوالِ

فلمـا رُمْتُ إنجازاً لوعــدى ... عليْه أبَى الوفاءَ بما نَوَى لى

وكان القربُ منــه شفاء نفسى ... فقد قَضَتِ النوائبُ بالنَّوَى لى

(١) أنت مؤتلى : مقصر (م)

وقال :

سقياً لدهرٍ مضَى والوصلُ يجمَعُنا ونحنُ نحكِي عِناقا شَكل تنوِينِ
فصِرْتُ إذ عَلِقَتْ كفِّي حَبَائِلكُم فَسَهْمُ هجرك ترْمِي ثم تنوِينِي

وقال :

صَدَفَ الحبيبُ بوَصْلِهِ فجفَا رُقَادِي إذْ صَدَفْ
ونثرت لؤلؤ أدمُعٍ أضْحَى لها جَفْنِي صَدفْ

وقال :

يا مَنْ يقولُ الشعرَ غيْرَ مهذَّبٍ ويَسُومُنِي التعذيبَ فى تهذيبهِ
لو أنَّ كلَّ النَّاس فيك مُسَاعِدِى لعجزت عن تهذيبِ ما تَهْذِى بهِ

وقال :

أراد أنْ يُخْفِى هَوَاهُ وقَدْ نمَّ بمَا تُخْفِى أسَارِيرُهُ
وكيفَ يُخْفِى داءه مُدْنَفٌ قدذاب من فرْط الأسَى رِيرُهُ(١)

وقال :

وبهفهف تَهْفُو بِلُبِّ المرء مِنْه شَمَائِل
فالرِّدْفُ دِعْصٌ هائلٌ والقدُّ غُصنٌ مائلُ
والخدّ نورُ شقائقٍ تنشقُّ عنه خمائلُ
والعَرْفُ نَشْرُ حَدائقٍ نمّت بهنَّ شمَائِلُ
والطَّرْفُ سَيْفٌ ماله إلا العِذار حَمَائِلُ

لأبى الفتح البستى

ولأبى الفتح البستى فى هذا المذهب :

إن لى فى الهوى لِسَاناً كَتُوماً وجَناناً يخفى حَرِيقَ جَواهُ
غير أنى أخافُ دَمْعِي عليهِ سَتَرَاهُ يُفْشِى الذى ستَرَاهُ

(١) الرير : الدم ، أو ذائب المخ

ولأبي الفتح البستى فى مذهب هذا البيت الأخير :

نَاظِرَاهُ فيما جَنَى نَاظِرَاهُ أَوْدَعانى أَمُتْ بما أَوْدَعانى

وله :

خُذِ العفوَ وأمر بعُرْفٍ كما أُمِرْتَ وأعرِضْ عن الجاهلينْ
ولِنْ فى الكلام لكلِّ الأنام فمستَحْسَنٌ من ذوى الجاه لِينْ

وله :

إلى حَتْفِى سَعَى قَدَمِى أرَى قَدَمى أراقَ دَمِى
فمَا أنفكُّ منْ نَدَمِى وليس بنافعى نَدَمِى

وله :

إنْ هزَّ أقلامَه يوماً ليُعْمِلَها أنساكَ كلَّ كمِيٍّ هزَّ عامِلَهُ
وإن أقرَّ على رَقٍّ أنامِلَهُ أقرَّ بالرِّقِّ كتَّابُ الأنامِ لهُ

وقال لمن استدعاه إلى مودّته :

فَدَيْتُكَ قلَّ الصديقُ الصَّدُوق وقلَّ الخليلُ الحَفِيُّ الوفى
ولِى راغبٌ فيك إمَّا وفيت فهل راغبٌ أنت فى أنْ تَفِى

وللأمير أبي الفضل :

أهلاً بظَبْي حواهُ قصر كجَنَّةٍ قد حوَتْ نعيما
طرَقْتُه لا أهاب سوءًا أباحَنِى حبّه الحريما
فجاد مَنْ فيه لى براحٍ تَنْفِى حريقاً به قديما
أفدِى حريقاً أباح رِيقاً لا بَلْ حَرِيماً أباح رِيماً

وله :

مَنْ لى بشَمْلِ المُنَى والأُنْس أجْمَعه بشادنٍ حَلَّ فيه الحسْنُ أجمعُهُ

مازال يُعْرِضُ عن وَصْلى وأَخْدَعُهُ　　فالآن قد لاَنَ بعد الصدِّ أَخْدَعُه(١)

وقال :

بأَبى غَزَالٌ نام عَنْ وَصَبى به　　ومُراقِ دَمْعِى للنَّوَى وصَبِيبِهِ

ياليتــــه يَرْثِى على وَلَهى بهِ　　لغرامِ قَلْبى فى الهوَى ولَهِيبِهِ

وله فى هذا الباب من غير هذا النمط يصف غلاماً مخمورا خمش وجهه :

هَبْهُ تَغَيَّرَ حائلا عن عَهْدِهِ　　ورَمَى فُؤادى بالصدود فأَزْعَجا

ما بالُ نَرْجِسِهِ تحوَّلَ وردةً　　والوردُ فى خدَّيه عاد بَنَفْسَجا

وله فى هذا المعنى :

وريمٍ على السُّكْرِ خَمَّشْتُهُ　　بقَرْصٍ بعارضـــــهِ أَثَّرا

فأصبح نَرْجِسُه وردةً　　ووردةُ خدَّيْهِ نَيْلَوْفَرا

وقال فى وصف العِذار :

ظَبْىٌ كَسَا رَأْسَ الشبابِ بعارضٍ　　نَمَّ العِذارُ بحافَتَيْه فلاَحَا

فــكأنما أَهْدَى لعارضِ خِدِّهِ　　شعرى ظَلاماً واستعاضَ صَبَاحا

وقال فى غلام افتصد :

ومُهفْهَفٍ غرس الجمـا　　لُ بخدِّه رَوْضاً مَرِيعا

فَصَدَ الطبيبُ ذِراعَهُ　　فجرى له دَمْعِى ذريعا

وأمسَّنى وقعُ الحـديـــدِ　　بعِرْقِه أَلَماً وَجيعاً

فأَريته من عَـــبْرَتى　　ما سال من دَمِهِ نجيعَا

فقرٌ في ذكر العلم والعلماء

العلماء ورثةُ الأنبياء . والعلماء أعلامُ الإسلام . العلماء فى الأرض كالنجوم فى السماء .

---

(١) الأخدع : عرق ، وهو شعبة من الوريد

ابن المعتز ـ العلماء غرباء ، لكَثْرَةِ الجهل . وله : العلمُ جمالٌ لايخفى ، ونَسَب لا يُخْفَى . وله : زَلَّةُ العالم كانكِسَار سفينةٍ تَغرق ويَغرق معها خَلْقٌ كثير .

غيره ـ إذا زلَّ العالم ، زَلَّ بزلَّتِهِ عالَمَ . غيره : الملوكُ حُكّامٌ على الناس ، والعلماء حكام على الملوك . من لم يحتمل ذلَّ التعلم ساعة ، بقى فى ذلّ الجهل أبداً . مَاصِينَ العلمُ بمثل بَذْلِهِ لأهله . من كتم علماً فكأنه جاهله .

العلمُ يمنعُ أهله * أن يمنعوه أهله[1]

أبو الفتح كشاجم :

لاتمنع العلم امرأً والعلمُ يمنعُ جانبَهْ
أما الغبىّ فليس يفهم لُطْفَهُ وغرائبهْ
وتكون حاضرةُ الفوائد عنده كالغائبهْ
وأخو الحصافة مُسْتَحِقٌ أنْ ينالَ مَطَالبه
فبحقِّه أعطيتهُ مِنْ فَضْلِ عِلمكَ وَاجبَه

ومن رقَّ وجهُه عندالسؤال ، رقّ عِلمُهُ عندالرجال . عِلْمٌ بلا عمل ، كشجرة بلا ثمر . كما لا يُنْبِتُ المطرُ الكثيرُ الصَّخْرَ ، كذلك لاينفعُ البليدَ كثرة التعلم . من ترفَّع بعلمه وضَعَه اللهُ بعملِهِ . الجاهلُ صغيرٌ وإن كان كبيراً ، والعالم كبيرٌ وإن كان صغيرا . من أكثر مذاكرةَ العلماء ، لم ينس ماعلم ، واستفاد ما لم يعلم .

ابن المعتز : المتواضعُ فى طلاب العلم أكثرهم عِلْماً ، كما أن المكان المنخفضَ أكثر البقاع ماء . إذا علمت فلا تذْكُرْ مَنْ دونك من الجهال ، واذكُرْ مَنْ فوقَكَ من العلماء . النارُ لا يُنْقِصُها ماأُخذَ منها ، ولكن يُنْقِصُها ألاَّ تجد حطباً ، كذلك العلمُ لا يُفْنِيه الاقتباسُ منه ، وفَقْدُ الحاملين له سببُ عدمه .

---

(١) هذا بيت من الشعر يروى أن الشافعى كتب به إلى محمد بن الحسن الشيبانى ، وكان قد استعار منه كتابا فتأخر عن إعارته ، وقبله قوله :

فقل لمن لم تر عين من رآه مثله (م)

مات خَزَنة الأموال وهم أحياء ، وعاش خُزّانُ العلم وهم أموات . مثَلُ عِلم لاينفع كـكنز لايُنفَقُ منه . أزْهَدُ الناس فى عالم جيرانُه .

وقيل للصَّلْتِ بن عطاء ، وكان مقدّماً عند البرامكة : كيف غَلَبت عليهم وعندهم مَنْ هو آدَبُ منك؟ قال : ليس للقُرَباء طَرافة الغُرَباء ، وكنت امرأً بعيدَ الدار ، نائى المَزار ، غريبَ الاسم ، قليلَ الجرم ، كثير الألتِواء ، شحيحاً بالإملاء ؛ فرغَّبهم فىّ رغبتى عنهم ، وزهَّدنى فيهم رغبتُهم فىّ .

علم لا يَعْبُرُ معك الوادى ، لا يعمر بك النادى . لو سكت مَنْ لايعلم لسقط الاختلاف . إذا ازدحم الجوابُ خَفِيَ الصواب . الغلط تحت اللَّغط . خَرْقُ الإجماع خُرْق . المحجوج بكلّ شىء ينطق

استعارات فقهية تليق بهذا المكان

بين أبى تمام وابن أبى دواد

دخل أبو تمام الطائى على أحمد بن أبى دُوَاد فى مجلس حكمه ، وأنشده أبياتاً يستَمْطِرُ نائِله ، وينشر فضائلَه ، فقال : سيأتيك ثوابُها يا أبا تمام ، ثم اشتغل بتوقيعات فى يده ؛ فأحفظَ ذلك أبا تمام ، فقال : احْضُرْ أيدك الله فإنك غائب ، واجْتَمِعْ فإنك مفترق ، ثم أنشده :

إنّ حَرَاماً قبـــولُ مِدْحَتِنا ... وتَرْكُ ما نَرْتَجى منَ الصَّفَدِ
كما الدنانيرُ والدراهمُ فى الـــصَّرْف حرامٌ إلا يَداً بِيَدِ

فأمر بتوفير حِبَائه ، وتعجيلِ عطائه .

بين طاهر بن عبد الله وابن أبى تمام

ولما وَلى طاهر بن عبد الله بن طاهر خراسان دخل الشعراء يهنئونه ، وفيهم تمام بن أبى تمام فأنشده :

هَنَّاك رَبُّ الناس هَنَّا كا ... مامن جزيل الملك اعطاكا
قرّتْ بما أعطيت ياذَا الحِجَى ... والبأسِ والإنعامِ عَيْنَا كا
أشرقتِ الأرضُ بِمَا نِلتَهُ ... وأوْرَقَ العودُ بجَدْوَا كا

فاستضعف الجماعةُ شعره ، وقالوا : يا بُعدَ ما بينه وبين ابيه ! فقال طاهر

لبعض الشعراء : أجبه ، فقال :

حيَّاك ربُّ الناس حيَّا كا إن الذى أمَّلْتَ أخطا كا
فقلتَ قولا فيـــه ما زانهُ ولو رأى مَـدْحا لآساكا
فهاكَ إن شئتَ بها مدحةً مثل الذى أعطيتَ أعْطا كا

فقال تمام : أعز الله الأمير ، و إنَّ الشّعْرَ بالشعر رِبًا ، فاجعل بينهما صنجاً من الدراهم ، حتى يحلّ لِي ولك ! فضحك وقال : إلا يكن معه شعرُ أبيه ، فمعه ظِرف أبيه ؛ أعطوه ثلاثة آلاف درهم ! فقال عبد الله بن إسحاق : لو[1] لم يعط إلا لقول أبيه فى الأمير أبى العباس ــ رحمه الله ــ يريد عبد الله بن طاهر :

يقولُ فى قَوْمَسٍ صَحْبِى وقد أخذَتْ منَّا السُّرَى وخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ :
أمطلع الشمس تبغى أن تَؤُمَّ بنا ؟ فقلتُ : كلا ، ولـكن مطلعَ الجودِ

فقال : و يعطى بهذا ثلاثة آلاف .

[ولاية طاهر بن عبد الله بن طاهر خراسان ، وسببها]

وكان سببُ ولاية طاهر خراسان بعد أبيه ما حدَّث به أبو العيناء قال :

كنا عند أحمد بن أبى دواد ، فجاء الخبر أن الـكتبَ وردت على الواثق من خراسان بوفاة عبدالله بن طاهر، وأن الواثق يُعَزَّى عنه ، وأنه قد ولّى مكانه خراسان إسحاق ابن إبراهيم ، وكان عدوًّا له لانخراطِه فى سِلْكِ ابن الزيات ؛ فلبس ثيابه ومضى ، وقال : لا تبرحوا حتى أعودَ إليكم ؛ فلبث قليلا ، ثم عاد إلينا فحدّثنا أنه دخل على الواثق فعزّاه عن عبـد الله وجلس ، قال : فقال لى الواثق : قد وَلّينا إسحاق خراسان ، فما عندك ؟ قلت : وفق الله أمير المؤمنين ولا نَدمّه . قال : قلْ ما عندك فى هذا . قلت : أمرٌ قد أُمضِى ، فما عسيت أن أقولَ فيه . قال : لَتَفْعَلنّ . فقلت : يا أمير المؤمنين ، خراسانُ منذ ثلاثين سـنة فى يد طاهر وابنه ، وكلُّ مَنْ بها صنائعُهم ، وقد خَلَّفَ عبدُالله عشرَ بنين أ كثرهم رجال ، وجميعُ جيش خراسان

---

(١) جواب لو هذه محذوف ، وتقدير الكلام : لو لم يعط إلا لقول أبيه لكان ذلك سائغا (م)

لهم عبيدٌ أو موَالٍ أو صَنَائع ، وسيقولون : أما كان فينا مُصْطَنَع ؟ وكان يجب أن يجرّبَنا أميرُ المؤمنين ، فإن وَفَيْنَا بما كان يَفِى به أبونا وجدُّنَا ، وإلّا استبدل منا بعد عُذْرٍ فينا ؛ ويقدمخراسانَ إسحاقُ وهو رجل غريب فينافسه هؤلاء ، ويتعصّب أهلُها لهم ؛ فينتقض ما أُبْرِمَ ، ويفسد ما أُصلح

قال : صدقت يا أبا عبد الله ؛ والرأى ما قلت ، اكتبوا بعهد طاهر بن عبد الله على خراسان . فكتبت كتبُ طاهر ، وخرقت كتب إسحاق ، فخرجت الزنج تطيرُ بها ، ثم لقينى إسحاق داخلا ، فقلت : ياأبا الحسن ، لا عدمت عداوةَ رجلٍ أزال عنك ولاية خراسان بكلمة .

* * *

بين ابن الرومى وابن ثوابة

ومدح ابن الرومى أبا العباس بن ثوابة ، فعارضه أخوه أبو الحسن بقصيدة يمدح أخاه بها ، فقال ابن الرومى :

أَلَيْسَ الْقَوَافِى بَنَاتِ الْفَتَى ... إذا صورَةُ الحقِّ لم تُمْسَخِ
فلا تَقْبَلَنَّ أَمَادِيحَهُ ... حَرامٌ نِكاحُ بَنَاتِ الأَخِ

بين المعتصم وأبى تمام

ولما أنشد أبو تمام قصيدته فى المعتصم : * السيف أصدق أنباء من الكتب * قال له : لقد جَلَوْتَ عروسك يا أبا تمام فأحسنت جلاءها . قال : يا أمير المؤمنين ، والله لو كانت من الحورِ العين لكان حُسْنُ إصغائك إليها من أَوْفَى مُهُورِها .

لأبى الفضل الميكالى

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى :

أقول لشَادِنٍ فى الحُسْنِ أَضْحَى ... يَصِيدُ بلَحْظِه قَلْبَ الكَمِىِّ
ملكتَ الحسنَ أجمعَ فى قوام ... فأدِّ زكاةَ منظرك البَهِىّ
وذلك أن تجودَ لمُستَهامٍ ... بريقٍ من مُقَبَّلك الشَّهِىّ
فقال : أبو حنيفة لى إمامٌ ... فعندى لا زكاةَ على الصَّبِىِّ

وربما أنشد هذه الأبيات على قافية أخرى فقال :

أقول لشَادنٍ فى الحسن فَرْدٍ ... يصيد بلَحْظِهِ قَلْبَ الجليدِ

ملكتَ الحسن أجمعَ فى قوام فلا تَمنَع وجوباً عن وجُودِ
وذلك أنْ تجـــودَ لمستهامٍ برَشْفِ رُضَابكَ العذْبِ البَرودِ
فقال : أبو حنيفة لِى إمامٌ فعندى لا زَكاة على الوليـــدِ

وقال :

بنَفْسِى غَزالٌ صار للحُسْنِ قبلةً يُحَجُّ من البيت العتيق ويُقصَدُ
دعانى الهوَى فيه فلبَّيتُ طائعا وأحرَمتُ بالإخلاصِ والسَّعْىُ يَشْهَدُ
فطرفىَ بالتسهيد والدَّمْعِ قارِنٌ وقلبى عليْـــهِ بالصبابة مُفرِدُ

لأبى الفتح كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم :

فَدَيْتُ زائرةً فى العيد واصِلةً والهَجْرُ فى غفلة من ذلك الخبرِ
فلم يزل خدُّها رُكناً أطوف بهِ والخالُ فى خدّها يُغنى عن الحجَرِ

و ينضاف إلى هذا النظم قطعة من رسالة طويلة كتبها بديع الزمان إلى أبى نصر بن المرزبان :

لبديع الزمان الهمذانى

كتابى أطال الله بقاء الشيخ وأنا سالم ، والحمد لله رب العالمين ، كيف تقلُّبُ الشيخ فى درع العافية ، وأحوالُه بتلك الناحية ؛ فإنى ببعده مُنغَّصُ شِرْعة العيش ، مقصوص أجنحة الأنس . ورد كتابه المشتملُ من خبر سلامته ، على ما أرغب إلى الله فى إدامته ، وسكنتُ إليه بعد انزعاجى لتأخُّره ؛ وقد كان رَسَمَ أن أعرِّفه سببَ خروجى من جرجان ، ووُقوعى بخُراسان ، وسببَ غضبِ السلطان ؛ وقد كانت القصة أنى لما وردتُ من ذلك السلطان حضرتَه ، التى هى كَعْبَةُ المحتاج ، لا كعبةُ الحجَّاج ، ومستقَرُّ الكرم ، لا مَشْعَر الحرم ، وقِبْلَة الصِّلَاتِ ، لا قبلة الصلاة ، ومُنَى الضَّيف ، لا مِنَى الخَيْفِ ، وجدت بها نُدَمَاء من نَبَاتِ العام[1] ، اجتمعوا

---

(١) من نبات العام : يريد أنهم حديثو العهد

قِيضَةَ كلب[1] على تلفيق خطب ، أزعجنى عن ذلك الفِناء ، وأشرف بى على الفَناء ، لولا ما تداركه الله بجميل صُنْعه ، وحسن دفعه ؛ ولا أعلم كيف احتالوا ، ولا ما الّذى قالوا ؛ و بالجملة غـيَّروا رأىَ السلطان ، وأشار علىّ إخوانى ، بمفارقه مكانى ، و بقيت لا أعلم أيمنةً أضرب أم شآمة ، ونجْدا أقصد أم تِهامة !

ولو كنت فى سَلْمى أجا وشعابِهَا لكان لِحَجَّاج علىَّ دليـلُ

وقد علم الشيخ أن ذلك السلطان سماء إذا تغيّم لم يُرْجَ صَحْوُه ، وماء إذا تغيّر لم يُشرب صَفْوُه ، وملك إذا سَخِط لم يُنتظر عفوه ، وليس بين رضاه والسخط عَوْجَة ، كما ليس بين غَضَبه والسيف فَرْجة ، وليس من وراء سُخْطِه مجاز ، كما ليس بين الحياة والموت معه حِجاز ؛ فهو سيِّدٌ يُغضِبُه الْجُرْم الخَفِىّ ، ولا يُرْضِيه العذر الجلى ؛ وتـكفيه الجناية وهى إرجاف ، ثم لا تشفيه العقوبة وهى إجحاف ، حتى إنه ليرى الذنب وهو أضيق من ظل الرمح ، ويَعْمَى عن العذر وهو أبين من عمود الصُّبح ؛ وهو ذو أذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان ، ويحجب عن هذه العذر وله برهان ؛ وذو يدين يبسط إحداهما إلى السفك والسفح ، و يقبض الأخرى عن العفو والصفح ؛ وذو عينين يفتح إحداهما إلى الجرم ، و يغمض الأخرى عن الحلم ، فمزحه بين القَدِّ والقَطْع ، وجده بين السيف والنِّطع ، ومراده بين الظهور والكمون ، وأمره بين الـكاف والنون ؛ ثم لا يعرف من العقاب ، غير ضرب الرقاب ، ولا يهتدى من التأنيب إلا لإزالة النعم ، ولا يعلم من التأديب غير إراقة الدم ، ولا يحتمل الهَنَةَ على حجم الذرة ، ودقة الشعرة ، ولا يحلم عن الهَفْوَة ، كوزن الهَبْوَة ، ولا يُغْضِى عن السقطة ، كجِرم النقطة ؛ ثم إن النقم بين لفظه وقلمه ، والأرض تحت يده وقـــدمه ، لا يلقاه الولى إلا بفمه ، ولا العدو إلا بدمه ؛ والأرواح بين حَبْسه و إطلاقه ، كما أنَّ الأجسام بين حله ووَثاقِه ؛ فنظرتُ فإذا أنا بين

---

(١) قيضة كلب : القيضة بالكسر هى العظم ، والمراد تحقيرهم بوصفهم بعظام الكلب

جُودَين : إماأنأجودَ بيأسي ، و إمّا أن أجود برأسي ؛ و بين رُكُوبَين : إمّا المفازة ، و إمّاالجنَازة ؛ و بين طريقين : إماالغُرْبة، وإمّاالتربة ؛ و بين فِراقَيْنِ : إمّا أن أُفارق أرْضِي ، أو أُفارق عرضي ؛ و بين راحلتين : إمّا ظهور الجمال ، و إمّا أعْنَاق الرجال ؛ فاخترتُ السماح بالوَطَن ، على السماح بالبَدَن ؛ وأنشدت :

إذا لم يكُنْ إلاَّ المنية مَرْكبٌ ... فلا رَأْيَ للمحمول إلا ركوبُها

وَلَّدَ ما ذكر من « كعبة [المحتاج ، لا كعبة] الحُجّاج » ، من قول أبي تمام :

بيتان حجَّهُما الأنامُ ؛ فهذِهِ ... حجُّ الغنِيِّ ، وتِلكُمُ لِلمُعْدِمِ

[أبو عليّ البصير وشيء من أدبه]

بين طالبي وأبي علي البصير

وشتم بعضُ الطالبيين أبا عليّ الفضلَ بن جعفر البصيرَ ، فقال أبو عليّ : والله مانَعْيَا عن جوابك ، ولانَعْجِزُ عن مَسَابِّك ؛ ولـكنّا نكونُ خيراً لِنَسَبِك منك، ونحفظ منه ما أضَعْتَ ؛ فاشكُرْ توفيرَنا ما وفَّرْنا منك ، ولا يغُرَّنَّكَ بالجهل علينا حِلْمُنا عنك .

بين أبي علي وبعض الرؤساء

وسأل أبو علي البصير بعض الرؤساء حاجةً ولقيه ؛ فاعتذر إليه من تأخّرها ؛ فقال أبو عليّ : في شُكْرِ ماتقدّم من إحسانك شاغلٌ من استبطاء ما تأخَّر منه .

من شعر أبي علي البصير

وأبو عليّ أحَدُ مَنْ جمع له حظُّ البلاغة في الموزون والمنثور ، وهو القائلُ :

ألمَّت بنا يوْمَ الرحيـــل اختلاسَةً ... فأضْرَمَ نيرانَ الهوى النَّظَرُ الخَلْسُ

تأبَّتْ قليـــلا وهي تُرْعَدُ خِيفةً ... كما تتأبَّى حـين تَعْتَدِل الشمسُ

فخاطبها صَمْتِي بمـــا أنا مُضْمِرٌ ... وأنْبَسْتُ حتى ليس يُسْمَع لي حِسٌّ

وولَّت كما ولى الشباب لِطِيّـــةٍ ... طوَتْ دونها كَشْحاً على يَأسها النفسُ

وقال يصف بلاغةَ الفتح بن خاقان وشعره :

سَمِعْنا بأشـــعار الملوكِ ؛ فكلُّها ... إذا عَضَّ مَتْنَيْـــه الثِّقافُ تأوَّدَا

سوى ما رأينا لِامْرِئ القيس ؛ إننا ... نراه ــ متى لم يَشْعُرِ الفتحُ ــ أوْحَدا

أقام زماناً يَسْمَعُ القـــولَ صامتاً ... ونحسبه إن رام أ كْدَى وأصْلَدا
[فلمـــــا امتطاه راكباً ذلّ صعبُه ... وســار فأضحى قد أغار وأنجَدَا]

والفتح بن خاقان يقول :

من شعر لفتح بن خاقان

وإنى وإياها لـكالخَمْرِ، والفــــتى ... متى يستَطِع منهـــا الزيادةَ يَزْدَدِ
إذا ازدَدْتُ منها زاد وَجْدِى بقُرْبِهـا ... فـكيف احتراسِى مِنْ هَوًى متجدّدِ

كتاب إلى عبيدالله بن يحيى

وكَتب إلى أبى الحسن عبيدالله بن يحيى : وإن أميرَ المؤمنين لمَّا اسْتخلَصَك لنفسه ، وائْتَمنك على رعيَّته ؛ فنطق بلسانك ، وأخـذَ وأعطى بيدك ، وأوْرَدَ وأصْدَر عن رأيك ، وكان تفويضُه إليك بعـد امتحانِهِ إياك ، وتَسْليطه الحقّ على الهوى فيك ، وبعد أن مثّل بينك وبين الذين سَمَوْا لمَرْتبتك ، وجرَوْا إلى غايتك ، فأسقطهم مَضَاؤُك ، وخَفُّوا فى ميزانك ، ولم يزدك ـ أكرمك الله ـ رفعة وتشريفاً إلا ازددتَ له هيبةً وتعظيما ، ولا تسليطا وتمـكينا ، إلا زِدْتَ نفسك عن الدنيا عُزوفاً وتنزيها ، ولا تقريباً واختصاصاً ، إلا ازددْتَ بالعامة رأفةً وعليها حدَبا ، لا يخرجك فَرْطُ النصح له عن النظر لرعيَّته ، ولا إيثارُ حقّه عن الأخذ بحقِّها عنـده ، ولا القيامُ بما هو له عن تضمينِ ما هو عليه ، ولا يشغلك مُعاناة كِبار الأمور عن تفقُّد صغارِها ، ولا الجِدُّ فى صلاح ما يَصْلُحُ منها عن النظر فى عواقبها ؛ تمْضِى ما كان الرّشَدُ فى إمضائه ، وتُرْجِىء ما كان الحَزْمُ فى إرجائه ، وتبذُلُ ما كان الفضلُ فى بَذْله ، وتمنعُ ما كانت المصلحةُ فى مَنْعِه ، وتَلين فى غـــير تكبُّر ، وتَخُصّ فى خـير مَيل ، وتعمُّ فى غير تصنّع ، لا يَشْقَى بك المحقُّ وإن كان عدوّا ، ولا يَسْعَدُ بك المبطلُ وإن كان وليّا ؛ فالسلطان يعتـدّ لك من الغَناء والـكِفاية ، والذَّبِّ والحياطة ، والنّصح والأمانة ، والعِفّة والنزاهة ، والنصب فيما أدّى إلى الراحة ، بما يراك معه ـ حيث انتهى إحسانُه إليك ـ مستوجبا للزيادة . وكافةُ الرعية ـ إلا من غَمِطَ منهم النِّعْمة ـ مُثْنُونَ عليـك بحُسْنِ السيرة ، ويُمْنِ النقيبة ، ويَعُدُّونَ من مآثرك أنك لم تُدْحِض لأحــــدٍ حُجَّة ؛ ولم تدفع حقّا

لشبْهَة ؛ وهذا يسيرٌ من كثير ، لو قصدنا لتفصيله ، لأنفدْنا الزمان قبل تحصيله ، ثم كان قَصْدُنا الوقوفَ دون الغاية منه

كتاب آخر إلى عبيدالله بن يحيى

وله إلى عبيدالله بن يحيى : يقطعني عن الأخذِ بحظِّي من لقائك ، وتعريفك ما أنا عليه عن شُكْرِ إنعامك ، وإفرادى إياك بالتأميل دونَ غيرك ، تخلفى عن منزلة الخاصّة ، ورغبتى عن الحلول محلّ العامة ، وأنى لستُ معتاداً للخِدْمَةِ ولا الملازمة ، ولا قويًّا على المغَادَاةِ والمُرَاوحة ؛ فلاَ يمنَعْك ارتفاعُ قَدْرك ، وعلوّ أمرك ، وما تعانيه من جلائل الأحوال الشاغلة ، من أنْ تتطوّل بتجديد ذكرى، والإصغاء إلى مَنْ يحضُّك على وَصْلى وبِرّى ، ويرغّبك فى إسداء حُسْنِ الصنيعة عندى .

وله إليه آخرَ فصل من كتاب : وأنا أسألُ الله الذى رَحِمَ العبادَ بك ، على حينِ افتقارٍ منهم إليك ، أن يُعيذهم من فَقْدِك ، ولا يُعيدهم إلى المكاره التى استنقذتَهم منها بيدك .

[بعض ما يبعث على الرحيل]

ولقى رجلٌ رجلا خارجا من مِصْرَ يريدالمغرب، فقال : يا أخى ؛ أتتَّبعُ القَطْرَ ، وتَدَع مَجْرَى السيول؟ فقال : أخرجنى من مصر حقٌّ مُضَاع ، وشُحٌّ مُطَاع ، وإقتار الكريم ، وحركةُ اللئيم ، وتغيُّر الصديق ، بين السعة والضِّيق ، والهربُ إلى النَّزْرِ بالعز ، خيرٌ من طلب الوَفْرِ بذُلِّ العَجْزِ .

[من الوصايا لمن اعتزم السفر]

وأوصى بعضُ الحكماء صديقاً له ، وقد أرادَ سفراً ، فقال: إنك تدخُلُ بلداً لايَعْرِفُك أهلُه؛ فتمسّكْ بوصيتى تنفق بها فيه : عليك بحُسْنِ الشمائل فإنها تدلُّ على الحرية؛ ونقَاءِ الأطراف فإنهاتشهد بالمُلوكية ؛ ونظافة البِزَّة فإنها تنبىء عن النَّشْء فى النِّعمة ؛ وطيب الرائحة فإنها تظهرُ المروءة ، والأدبِ الجميل فإنه يكسب المحبة . وليَكُنْ عقلُك دون دِينك ، وقولُك دون فِعْلك ، ولباسُك دون

قَدْرِكِ ، والزَم الحياءَ والأَنفَة ؛ فإنك إن استحييت من الغضاضة اجتنبت الخساسة، وإن أَنِفْتَ عن الغلبة ، لم يتقدمْكَ نظيرٌ في مرتبة .

قال الأصمعي : سمعتُ أعرابياً يُوصِي آخرَ أراد سفراً ؛ فقال : آثر بعملك مَعادَكَ ، ولا تَدَع لِشَهْوَتِك رَشادَكَ ، وليكُنْ عقلُك وزيرَكَ الذى يدْعُوك إلى الهدى ، ويجنِّبك من الرَّدى ، واحْبِس هواكَ عن الفواحش ، وأطلِقه في المكارم ؛ فإنك تبرّ بذلك سَلَفك ، وتَشِيد به شرفَك .

وأوصت أعرابية ابنَها في سفر ، فقالت : يابنى ؛ إنك تجاورُ الغرباء، وتَرْحَلُ عن الأصدقاء ، ولعلَّك لا تَلْقَى غيرَ الأعداء ؛ فخالِط الناسَ بجميل البِشْر ، واتَّقِ اللهَ في العَلاَنية والسرّ .

وقال بعضُ الملوك لحكيم وقد أراد سفراً : قِفْني على أشياء من حِكْمتك أعْمَلْ بها في سفري ؛ فقال :

اجعل تأنيك أمام عَجَلَتِك ، وحِلْمَك رسولَ شِدَّتك ، وعفوَك مالِكَ قدرتك ، وأنا ضامنٌ لك قلوبَ رعيَّتك ، مالم تُحْرِجْهم بالشدةِ عليهم ، أو تُبْطِرْهم بالإحسان إليهم .

وقال أبان بن تغلب : شهدت أعرابيةً تُوصِي ولداً لها أراد سفراً وهي تقول: أى بنى ! اجلس أمْنَحْكَ وصيتى ، وبالله توفيقُك ، قال أبان : فوقفت مستمعاً لكلامها ، مستحسناً لوصيَّتها ، فإذا هى تقول : أى بنى ! إياكَ والنَّميمة ، فإنها تَزْرَعُ الضغينة ، وتفرِّق بين المحبِّين ، وإياكَ والتعرض للعيوبِ فتُتَّخَذ غَرَضاً ، وخليقٌ ألاَّ يَثْبُتَ الغَرضُ على كثرة السهام؛ وقلَّما اعتَوَرَتِ السهامُ غَرَضا إلاَّ كَلَمَتْه ، حتى يَهِيَ مااشتدَّ من قوَّته ؛ وإياكَ والجودَ بدينك ، والبخلَ بمالك ؛ وإذا هززت فاهزز كريما يَلِنْ لِمَهَزَّتك ؛ ولا تَهزُز اللئيم فإنه صخرةٌ لايتفجَّرُ ماؤها ، ومثِّل بنفسك مثالَ مااستحسنتَ من غيرك فاعمل به ، وما استقبحتَ من غيرك فاجتنبه ؛ فإن المرء لايرى عيْبَ نفسه ؛ ومن كانت مودَّته بشره ، وخالَفَ منه ذلك فعلُهُ ، كان صديقه منه على مِثْلِ الريح في تصرّفها .

ثم أمسكت ، فدنوتُ منها ، فقلت لها : بالله يا أعرابية ، إلاّ ما زِدْته فى الوصية ؛ قالت : أو قد أعْجَبَكَ كلامُ العرب يا حَضَرى ؟ قلت : نعم ! قالت : الغَدْرُ أقبح ما تعاملَ به الناسُ بينهم ، ومَنْ جمع الحِلْمَ والسخاء فقد أجادَ الحُلّة رَيْطتَها وسِرْبالها .

فقر فى مدح السفر

أبو القاسم بن عباد الصاحب : الخبر المنقول أنَّ المقبوضَ غريبا شهيد . وفى الحديث : سافروا تَغْنَموا . السفرُ أحدُ أسباب العيش التى بها قِوامه ، وعليها نِظَامه . إنَّ الله لم يجمَعْ منافعَ الدنيا فى الأرض ؛ بل فرّقها وأحوجَ بعضها إلى بعض . المسافرُ يسمعُ العجائب ، ويَكْسبُ التجارِبَ ، ويَجْلِبُ المكاسب . الأسفارُ مما تَزِيدك علما بقدرة الله وحِكْمته ، وتدعوكُ إلى شكر نعمته . ليس بينك و بين بلدٍ نَسَب ؛ فخيرُ البلاد ما حملك . السفرُ يُسْفِر عن أخلاق الرجال . أوحِشْ أهلكَ إذا كان فى إيحاشهم أُنْسُك ، واهْجُرْ وطنَك إذا نبتْ عنه نفسك . ربما أسفر السفَرعن الظّفَر ، وتعذَّر فى الوطن قضاء الوطَر ، وأنشد :

ليس ارتحالُكَ تَزْتادُ الغِنَى سفراً   بَلِ المُقَامُ على خَسْفٍ هو السفرُ

وهذا كقول الطائى :

وما القفْرُ بالبِيدِ الفضاء ، بَلِ الّتى   نَبتْ بى وفيهاساكِنُوهاهِىَ القَفْرُ

أخذه المتنبى فقال :

إذا تَرَحَّلْتَ عن قومٍ وقد قَدَرُوا   ألاَّ تُفارِقَهم فالرّاحِلونَ هُمُ

نقيض ذلك فى ذم السفر والغربة

فى الحديث إن المسافرَ وماله لَعَلَى ، قلت : إلاّ ما وَقى الله ، أى على هلاك . شيئان لا يعرِفهما إلا من ابْتُلى بهما : السفرُ الشاسع ، والبناء الواسع . السفرُ والسّقَمُ والقتال ثلاث متقاربة ؛ فالسفرُ سفينة الأذى ، والسّقَمُ حَرِيقُ الجسد ،

والقتالُ مَنبِتُ المنايا . إذا كنتَ فى غير بلدك فلا تنسَ نصيبك من الذّل . الغربةُ كُرْبة . النّقلةَ مُثْلة . الغريب كالغرْسِ الذى زايل أرْضَه، وفَقَد شِرْبه ؛ فهو ذَاوٍ لا يُثمِر ، وذابلٌ لا ينضر. الغريبُ كالوَحْشِ النائى عن وطنه ؛ فهو لكل سَبُعٍ فَرِيسةٌ ، ولكل رامٍ رَمِيّة ؛ وأنشد :

لَقُرْبُ الدار فى الإقتار خَيْرٌ ... من العيش الموسَّع فى اغترابِ

وقال أبو الفتح البُسْتِى :

لا يعدم المرء شيئاً يستعينُ بهِ ... ومنعه بين أَهْلِيــــه وأصحابهْ

ومن نأى عنهمُ قلّتْ مَهَابتهُ ... كالليثِ يحقرُ لمّا غاب عن غَابِه

[العزل والإبعاد والحجب بعد التقريب والمؤانسة]

بين المهدى وأبى عبيد الله

كتب أبو عبيد الله إلى المهدى بعد عَزْلِه إياه عن الدواوين : لم يُنكِر أميرُ المؤمنين حالى فى قُرْبِ المؤانسة وخصوصِ الخلطة، وحالِى عنده قَبْلَ ذلك فى قيامى بواجب خِدمَته ، التى أدْنتنى من نِعمته ، فلم أُبَدّل ـ أعزَّ اللهُ أميرَ المؤمنين ـ حال التبعيد ، و يقرّب فى محل الإقصاء ، وما يعلمُ اللهُ منى فيما قلت إلاّ ماعلمه أميرُ المؤمنين ، فإن رأى أكرمه الله أن يُعَارِض قولى بعلمه بدءاً وعاقبةً فعل إن شاء الله .

فلما قرأ كتابه شهد بتصديقه قلبُه ، فقال : ظلمنا أبا عبيد الله ، فيردّ إلى حاله ، و يُعْلَمَ ما تجدّد له من حُسْنِ رأيى فيه .

بين المأمون والفضل بن الربيع

ولما أمر المأمونُ أن يُحْجَب عنه الفضلُ بن الربيع لسببٍ تألَّم قلبُه منه كتب إليه :

يا أمــيرَ المؤمنين ! لم يُنْسِنِى التقريبُ حالى أيامَ التبعيد ، ولا أغفلتنى المُؤَانسةُ عن شكر الابتداء ؛ فعلى أىٍّ الحالين أبعد من أمير المؤمنين ، و يَلْحَقُنِى ذمٌّ التقصير فى واجب خدمته ؟ وأميرُ المؤمنين أعْدَلُ شهودى على الصِّدْق فيما وصَفْت ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين ألا يكتم شهادتى فعل إن شاء الله .

بين المنصور وأبى مسلم الخراسانى

وقال أبو جعفر المنصور لأبى مسلم حين أزْمَع قتْله : هل كنتَ قبل قيامك بدولتنا جائزَ الأمرِ على عَبْدين ؟ قال : لا ، يا أمير المؤمنين . قال : فلِمَ لَمْ تَعرِض

حالَيْ عُسْرتك ومَهانتك على أيامنا ، وتعرِف لنا ما يَعْرِفُ غيرُكَ من إجلالنا وإعظامنا ، حتى لا ينازعك الحين عِنَان الطمأنينة ؟ قال : قد كان ذلك يا أميرَ المؤمنين : ولكنّ الزمانَ وإساءَته قَلَبَا ما كان من حُسْنِ صنيعتى ، قال : فلا مرغوبَ فيك ، ولا مأسوفَ عليك ، وفى الله خَلَفٌ منك ! وأمر بقتله (١)

جملة من شعر أبى الفتح كشاجم فى الأوصاف

- من قوله فى وصف أجزاء من القرآن الكريم

قال يصف أجزاء من القرآن :

مَنْ يَتُبْ خشيةَ العقابِ فإنى ... تُبْتُ أنساً بهذهِ الأجزاء

بَعَثَتْنِي على القراءة والنُّسْـ ... ـكِ وما خِلْتُنى مِنَ القرّاء

حين جاءت تَرُوقنى باعتدالٍ ... من قدود وصيغَةٍ واستواء

سبعة أشْبَهَت لىَ السبعةَ الأنـ ... ـجم ذاتَ الأنوار والأضواء (٢)

كُسيت من أديمها الحالك اللَّوْ ... ن (٣) غشاءً أحْبِبْ به من غِشاء

مُشْبِهاً صبغة الشَّباب ولَمَّا ... تِ العَذارى ولِبْسَةَ الخطباء

ورأت أنها تحسنُ بالضـدِّ ... فتاهَتْ بحِلْيةٍ بيضاء

فهى مسودّةُ الظهور ، وفيها ... نورُ حقٍّ يَجْلُو دُجَى الظَّلماء

مطبقات على صحائفَ كالرَّيْـ ... ـط تُخيّرْنَ من مُسوك الظباء (٤)

وكأنَّ الخطوط فيها رياضٌ ... شاكِراتٌ صنيعةَ الأنْوَاء

وكأنّ البياضَ والنُّقطَ السُّو ... دَ عَبيرٌ رشَشْتهُ فى مُلاء

وكأن العشورَ والذّهب السا ... طع فيها كواكبٌ فى سماء

---

(١) انظر واجبات الملوك فى كتاب « الأخلاق عند الغزالى »

(٢) رواية الديوان :

سبعة شبهت بها الأنجم السـ ... ـبعة ذات الأنوار والأضواء

(٣) رواية الديوان « الجون »

(٤) المسوك : جمع مسك ــ بالفتح ــ وهو الجلد . ورواية الديوان « متون »

وهى مشكولةٌ بعدّةِ أشكا ل ومقروءةٌ على أنحـاء

فإذا شئتَ كان حمزةُ فيها وإذا شئت كان فيها الكِسائى

خُضْرة فى خلالِ حُمْرٍ وصُفْر بين تلك الأضعاف والأثناء

مثل ما أثَّر الدَّبيبُ من الذَّرّ على جِلْدِ بَضَّةٍ عَذْراء(١)

ضُمِّنت مُحكَم الكتابِ كتاب الله ذى المكرُمات والآلاء

فحقيقٌ علىَّ أنْ أتلوَ القرآنَ فيهنَّ مُصْبَحى ومَسائى

من قوله فى وصف تخت حساب

وقال يصفُ التخت الذى يُضْرَب عليه حِسَاب الهند :

وقلمٍ مِـدادُهُ تُرابُ فى صُحُف سُطورُها حِسابُ

يَكْثُرُ فيها المَحْوُ والإضرابُ من غير أنْ يَسوّد الكتابُ

حتى يبينَ الحقُّ والصواب وليس إعجامٌ ولا إعرابُ

فيه ولا شَكٌّ ولا ارتيابُ

من قوله يصف بركارا

وقال يصف بِرْكاراً استهداه :(٢)

جُدْلى ببركارك الذى صنَعَتْ فيـه يَدَا قَيْنه(٣) الأعاجيبا

ملتئم الشُّعبتَيْن(٤) معتـدلٌ ماشينَ من جانبٍ ولا عِيَبا

شخصان فى شكلٍ واحدٍ قدرا ورُكّبا بالعقـولِ تركيبا

أشبه شيئين فى اشتكالهما(٥) بصاحبٍ لا يزالُ مصحوبا

أوثِقَ مسمارُهُ وغُيِّب عن نواظر النـاقدين تَغْييبا

فعَيْنُ مَنْ يجتَليـه يحسبهُ فى قالب الإعتدال مَضْبوبا

قد ضَمَّ قُطْرَيْه(٦) مُحْكِماً لها ضَمَّ مُحِبٍّ إليـه محبوبا

يزداد حِرْصا عليـه مُبصره ما زَاده بالبَنانِ تَقْليبا

---

(١) رواية الديوان « غضة غيداء » (٢) هو البرجل

(٣) رواية الديوان « القين » ـ والقين : الحداد ، أو كل صانع (م)

(٤) رواية الديوان « الشفرتين » (٥) رواية الديوان « ائتلافهما»

(٦) فى الديوان « شطريه »

ذو مُلَة بصْرته مَذهبه(١) لم تألُه رِقَّةً وتهـذيبا
ينظرُ فيها إلى الصوابِ فما بها يزالُ الصوابُ مطلوبا
لولاه ما صحّ خطُّ دائرة(٢) ولا وَجَدْنا الحسابَ محسوبا
[الحق فيه فإن عَدَلت إلى سواه كان الحسابُ تقريبا]
لَوْ عَيْنُ إقليدس به بَصُرَتْ خرَّ لهُ بالسجودِ مكبوبا
فابعَثْهُ واجْنُبْه لى بِمسْطَرةٍ تُلْفِ الهوَى بالثناء مجنُوبا

وقال يصف بيكاتا(٣):

من قوله يصف بيكاتا

روحٌ من الماء فى جِسْمٍ من الصُّفرِ مولّد بلطيف الحِسِّ والنـظرِ
مستعبرٌ لم يَغِبْ عن طَرْفِه سكنٌ ولم يَبِتْ من ذَوِى ضِغْنٍ على حَذَرِ
له على الظهر أجفان محـجّرةٌ ومقـلةٌ دَمْعُها جارٍ على قَدَرِ
تُنْشَا له حـركاتٌ من أسافلهِ كأنها حـركاتُ الماءِ فى الشجرِ
وفى أعاليـه حسبانٌ يُفَصِّلُهُ للناظرين بلا ذِهْنٍ ولا فِـكَرِ
إذا بكى دارَ فى أحشـائه فلَكٌ خافى المسير وإن لم يَبْكِ لم يَدُرِ
مُترجمٌ عن موَاقيتٍ يخـبِّرُنا بها فيوجَـدُ فيها صادق الخـبر
تُقْضَى به الخمسُ فى وَقْتِ الوجوب وإن غَطَّى على الشمس سِتْرُ الغَيْم وَالَمطَرِ
وإن سَهِرْتُ لأوقاتٍ تؤرِّقنى عرفتُ مقدارَ ما ألقَى من السَّهَرِ
مُحَدِّدٌ كلَّ ميقاتٍ تخيّرَهُ ذَوُو التَّخَيُّرِ للأسفار والحضَرِ
ومخرجٌ لكَ بالأجـزاء أَلطَفَها من النهار وقوسُ الليلِ والسَّحَرِ
نتيجة العلمِ والتفـكير صـورتُهُ ياحَبَّذا أبدعُ الأفكار فى الصورِ

(١) فى الأصل : « منسبة » ، والتصحيح عن الديوان .
(٢) فى الديوان « شكل دائرة » .
(٣) روى صاحب نهاية الأرب هذه القطعة (١/١٥٥) وذكر أنه يصف فيها طرجهارة ، وقال : هى من الآلات التى تعرف بها الساعات ، والأبيات نفسها تدل على ما قاله النويرى (م)

من قوله يصف اسطرلابا

وقال يصفُ اسطرلابا :

ومستديرٍ كجِرْم البَدرِ مَسْطوحٍ عن كلّ رافعةِ الأشكال مَصفُوحِ
صُلْب يُدَارُ على قُطبٍ يثبِّتهُ تمثالُ طرف بشكل الحذقِ مَكبُوحِ
ملءُ البنَان وقد أوْفَتْ صفائحُهُ على الأقاليم من أقطارهَا الفِيحِ[1]
تُلفى به السبعةَ الأفلاكَ مُحدِقةً بالمـاء والنـارِ والأرْضِينَ والريحِ
تُنْبيـك عن طائح الأبرَاجِ هيئتُه بالشمس طَوْراً ، وطَوْراً بالمصابيح
و إن مضَتْ ساعـة أو بعض ثانيةٍ عرفْتَ ذاك بعـلم فيـه مَشْرُوحِ
و إنْ تعـرَّض فى وقتٍ يُقدِرهُ لكَ التشكّكُ جَلاَّهُ بتصحيحِ
مميز فى قياساتِ الضلوغ به بين المشائم منها والمنَاجِيحِ
له على الظهر عَيْناً حِكمَةٍ بهما يَحْوِى الضيـاء وتُنْجيه من اللوحِ
وفى الدواوين من أشكاله حِكَمٌ تنقِّح العقلُ فيها أىَّ تَنقِيحِ
لا يستقلُّ لما فيه بمعرفةٍ إلاَّ الحصيف اللطيفُ الحِسِّ والرُّوحِ
حتى ترى الغيب فيه وهو مُنْغلقُ الأبوَابِ عمن سواهُ جدّ مفتوح
نتيجة الذهنِ والتفكير صَوّرهُ ذَوُو العقولِ الصحيحات المَرَاجِيحِ

***

أبو إسحاق الصابى يهدى اسطرلابا إلى عضد الدولة ويبعث معه بشعر

وكان أبو شجاع فنَاخَسْرو عَضُدُ الدولة قد نكب أبا إسحاق الصابى ، على تقدمه فى الكتابة ، ومكانه فى البلاغة ، واستصفى أمواله من غير إيقاع به فى نفسه ، فأهدى إليه فى يوْم مهرجان اسطرلابا فى دَور الدرهم ، وكتب إليه :

أهْدَى إليكَ بنو الحاجاتِ واحْتَشَدُوا فى مِهْرَجَانٍ عظيمٍ أنْتَ تُعليهِ

---

(١) الفيح : الواسعة ، جمع أفيح أو فيحاء .

لـكنَّ عبدَك إبراهـيم حين رأى ... سُمُوَّ قَدْرِكَ عن شيء يُسَامِيهِ
لَمْ يَرْضَ بالأرض يُهْدِيها إليك ، فقد ... أَهْدَى لك الفَلَكَ الأعْلَى بما فيهِ

***

[من أوصاف النساء]

لابن الرومى

وقولُ أبي الفتـح : « ملء البنان . . . . . . البيت » نظـيرُ قول علىِ ابن العباس الرومى يصف هَن امرأة[1] :

يَسَعُ السبعة الأقاليم طُرًّا ... وهو فى أصبعين من إقليمِ
كضميرِ الفؤادِ يَلتَهِمُ الدنـــيا ... وتحويهِ دَفَّتَا حَيْزُومِ

لبعض الشعراء يصف القلم

و إنما أخذه ابن الرومى من قول بعض الشعراء يذكر كاتباً

فى كَفهِ أخْرَس ذُو مَنطقٍ ... بقافهِ واللام والمـــيمِ
شبْرٌ إذا قِيسَ ، ولـكنهُ ... فى فِعـلهِ مِثـلُ الأقاليمِ
محذَّف الرَّأسِ ومُسْوَدُّهُ ... كإبرةِ الرَّوْقِ منَ الرِّيمِ[2]

قلب المعنى ليس من السرقة

وهذا البيت الأخير مقلوب من قول عدى بن الرقاع العاملى ، وقد وصف قَرْنَ ريم ، وشبهه بقلم عليه مداد ، وذكر ظبية .

تُزْجِى أغَنَّ كأنَّ إبرَةَ رَوْقِهِ ... قلمٌ أصابَ منَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

وقلبُ للمعنى إذا تمكن الشاعرُ من إخفائه لايَجْـرِى مَجْـرَى السرقةِ .

وقد ترى تـكثيرَ الشعراءِ من تشبيه أوراك النسوان بالرَّملِ والـكُثبان ، قال الشاعر :

لشاعر يصف نســاء بالعبالة والسمن

و بيضٍ نضيرَاتِ الوجــوه كأنما ... تأزَّرْنَ دُون الأُزرِ رَمْلاَتِ عالجِ
خِدَالِ الشَّوَى لا تحتشى غيرخَلقها ... إذا الرُّسْحُ لم يصبرنَ دون المَنَافِجِ[3]

---

(١) الهن : الفرج . (٢) روق الريم : قرن الظبي .

(٣) خدال الشوى : ممتلئة الأطراف ، والرسح : جمع رسحاء ، وهى قليلة لحم العجز والفخذين ، والمنافج : حشايا توضع فوق الأرداف .

يَذَرْنَ مُرُوطَ الخزِّ مَلْأَى كأنها ... قِصَارٌ وإنْ طَالَتْ بِأَيْدِي النَّوَاسِجِ

وهذا المعنى متداوَل متناقَل فى الجاهلية والإسلام ، فأغرب ذو الرمة فى قلبه وأحسن ، فقال يصف رملا :

ورمل كأوْرَاكِ العذارى قطعتُهُ ... وقد جَلَّلَتْهُ المُظلمَاتُ الحَنَادِسُ

وكذلك مدحهم ضُمُورَ الكَشْح ، وجولان الوُشُح ، وصُمُوت القُلْب والخلخال ، وامتناع الخِدَام من المَجَال ؛ قال خالد بن يزيد بن معاوية ، وذكر رملة بنت الزبير بن العوام :

لخالد بن يزيد معاوية

تجُولُ خلاخيلُ النساء ، ولا أرَى ... لِرَمْلَةَ خلخالاً يجولُ ولا قُلْبا(١)

أُحِبُّ بنى العوَّام طُرًّا لحبها ... ومن أجلها أحببتُ أخوالها كَلْبا

للنابغة

وقال النابغة :

على أنَّ حِجْلَيْهَا وإن قلتُ أوسعا ... صَمُوتان من ملء وقلة منطق

لأبى تمام الطائى

وقال الطائى :

مَهَا الوحشِ إلاَّ أنَّ هَاتَا أوانِسٌ ... قَنَا الخطِّ إلاَّ أنَّ تلك ذَوَابِلُ

من الهِيف لو أنَّ الخلاخيلَ صُيِّرَتْ ... لها وُشُحًا جالت عليها الخلاخِلُ(٢)

لابن أبى زرعة الدمشقى

وقال ابن أبى زُرْعة الدمشقى :

استسكتمت خلخالها ومَشَتْ ... تحتَ الظلام به فما نطقا

حتى إذا ريحُ الصَّبَا نَسَمتْ ... ملأ العبيرُ بسيرها الطُّرُقَا

للمتنبى

وقال المتنبى :

وخَصْرٍ تَثْبُتُ الأبصارُ فيهِ ... كأنَّ عليهِ من حَدَقٍ نِطَاقَا

قلَبَ هذا كله أبو عثمان الناجم ، فقال يهجو قَيْنة :

---

(١) القلب ــ بالضم ــ السوار . (٢) الوشح ــ بضمتين ــ جمع وشاح

لأبى عثمان الناجم

مسلولة الكل غـيرَ بَطْنٍ مثقَلٍ فهى عنكبوتُ
حُجولها الدهرَ فى اضطِرَابٍ ووُشْحُهَا كُظَّمٌ صُمُوتُ

وقال أبو عثمان يمدح قَيْنة :

محسنة فى كل أَلْحَانها لا كالتى تحسن فى النَّدْرَه

ثم قلبه فى هجاء ، فقال :

عجِبْتُ منها وَنْحِهَا كيف لا تُخطِئُ بالإحسان فى النَّدره

لمحمد بن مناذر يهجو خالد بن طليق

وهذا مأخوذٌ من قول محمد بن مناذر يهجو خالد بن طليق ، وكان قد تقلد قضاء البصرة :

يا عجباً من خالدٍ كيف لا يُخْطِئُ فينا مَرَّةً بالصوابْ
كان قضاةُ الناسِ فيما مضى مِنْ رَحْمَةِ الله ، وهذا عَذَابْ

لمسلم بن الوليد

وهذا أيضاً من قلب الهجاء مديحاً ، والمديح هجاء ؛ كما قال مسلم بن الوليد يهجو قوما :

قَبُحَتْ مَنَاظِرُهم لحين خَبَرْتهُمْ حَسُنَتْ مناظرهم بقُبْحِ المَخْبَرِ

للمتنبى

قلبه أبو الطيب المتنبى فقال :

وأَسْتَكْبِرُ الأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِه فَلَمَّا الْتَقَيْنَا صَغَّر الخبرَ الخَبَرُ

لأبى تمام

وقال أبو تمام :

عبأَ الكَمِينَ له فَضَلَّ لحِينهِ وكَمِينُهُ المَخفى عليـهِ كَمِينُ

للبحترى

قلبه البحترى فقال :

لا ييأس المـرء أن ينجيه ما يحسب الناسُ أنه عَطَبُه

لأبى تمام

وقال أبو تمام :

وحشيَّة تَرْمى القلوبَ إذا غَدَتْ وَسْنَى فما تَصْطَادَ غَيْرَ الصَّيدِ

للبحترى

قلبه البحترى فقال :

على أننى أخشَى على دارِ أَمْنِهـا فوارس يصطاد الفوارسَ صيدُها

لأبى تمام

وقال أبو تمام :

يُشْنَأُ الغيثُ وهو جِدُّ حبيبٍ رُبَّ حَزْمٍ فى بِغْضَةِ الموموقِ

للبحترى

قلبه البحترى فقال :

يَسُرُّنِى الشىء قد يسوءكُمُ نوَّهَ يَوْماً بِخاملٍ لقبُهْ

قال أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر : المعنى فى المصراع الأول أَبْيَنُ منه فى الثانى ؛ ألا ترى أنه لو قال : إنه ليسوءك الشىء قد يسر ، كان مثل ذلك المعنى مستويا ، إلا أنه قلبه لحاجته .

لابن الرومى

قال ابن الرومى يهجو مغنية :

قينة ملعونةٌ من أجلها رَفَضَ اللَّهْوَ معاً مَنْ رفضَه

فإذَا غَنّتْ ترى فى حَلقها كلَّ عِرْقٍ مثل بَيْتِ الأَرَضَه

لابن المعتز

فقلبَهُ ابن المعتز فقال يصف أرَضة أكلت له كتابا .

تَدْنِى أنابيبَ لها فيها سبل مثل العروق لا ترَى فيها خَلَل

وهذا كثير يُكتَفى منه باليسير .

[من المعانى مالا ينقلب]

ومن المعانى مالا ينقلب: ألا ترَى أنك تقول: نام القوم حتى كأنهم موتى، ولا يحسن أن تقول: ماتوا حتى كأنهم نيام ؛ وقد أخِذ على أبى نواس قوله يصف داراً وقف بها :

بعض ما آخذ على أبى نواس

كأنها إذ خَرِسَتْ جارمٌ بين يَدَىْ تفنيدهِ مُطرِقُ

قالوا : إنما يجب أن يشبه الجارم إذا عذلوه فسكت وانقطعت حجَّتُه بالدار الخالية التى لا تُجِيب .

وأخذوا عليه قوله :

كأن نيراننا فى جَنْبِ حصنهمُ معصفراتٌ على أرْسَانِ قَصَّارِ

وقد تبعه أبو تمام الطائى فقال فى الأفشين لما أحرق :

ما زالَ سرُّ الكُفرِ بَيْنَ ضُلُوعِه حتى اصْطَلَى سرَّ الزِّنَادِ الوَارِى

نارٌ يساورُ جسمَه من حرِّها لَهَبٌ كما عصفرتَ شِقَّ إزارِ

طارت له شُعَلٌ يهدّم لفحُها أركانَهُ هَدْمًا بغير غبارِ
فصَّلْنَ منه كلَّ مَجْمَعٍ مَفْصِلٍ وفعلنَ فاقرةً بكُلِّ فَقَارِ
صلّى لها حيًّا، وكان وقُودَها مَيْتاً، ويدخُلها مع الكفارِ
وكذاكَ أهلُ النارِ فى الدنيا همُ يومَ القيامةِ جُلُّ أهْلِ النَّارِ

أردت البيت الثانى، قالوا: وإنما تشبه الثيابُ المعصفرة بالنار؛ فهذا وماأشبهه لا يتوازنُ انعكاسه، وتتضادّ قضاياه؛ وإنما يصح القلبُ فيمايتحقق تضادّه أو يتقارب.

قطعة من شعر أهل العصر فى ذكر النجوم

لأبى الفتح البستى

قال أبو الفتح البستى:

قد غضَّ مِن أملى أنى أرى عملى أقوَى من المشترى فى أوّلِ الحَمَلِ
وأننى راحِلٌ عمّا أُحاوِلهُ كأننى أسْتَدِرُّ الحظَّ من زُحَلِ

وقال:

إذا غدا ملكٌ باللَّهْوِ مشتغلاً فاحكم على مُلْكه بالوَيْلِ والحَرَبِ
ألم تر الشمس فى الميزان هابطةً لما غدا برج نجمِ اللَّهْوِ والطَّرَبِ

وقال:

وقد تُدْنِى الملوكُ لدى رِضَاهَا وتُبْعِدُ حين تحتقِدُ احتقادا
كما المرِّيخ فى التثليث يُعْطى وفى التربيع يَسْلُبُ ما أفَادا

وقال:

ألا فثقوا بى فإنى كما تمدَّحت فَلْيمتحن من يُحِبْ
فما كوكبى راجعاً فى الوفاء ولا بُرْجُ قلبِىَ بالمنقلبْ[1]

وقال:

لئن كسَفُونا بلا علّةٍ وفازت قِداحُهُمُ بالظفَرْ
فقد يَكْسِفُ المرءَ مَنْ دونه كما يَكْسِفُ الشمسَ جِرمُ القَمَرْ

(١) فى الأصول «ولا برح قبى» بالحاء المهملة، وماأثبتناه موافق لمافى يتيمة الدهر (م)

وقال :

شَرَفُ الوَغـــد بوغد مثلهِ مثـل مافيهِ بزيغٍ وخَلَل
ودليل الصـدقِ فيما قُلْتُهُ شرفُ المرّيخ فى بيت زُحَل

وقال :

قل للذى غَرّتْهُ عِزَّةُ مُلْكِهِ حتى أَخَلَّ بطاعةِ النُّصَحاء
شرفُ الملوكِ بعلمهم و برأيهم وكذاك أَوْجُ الشمسِ فى الجوزاء

وقال :

وقد يفسدُ المرء بعـد الصلاح فساد الأماكن ، والشرُّ يُعْدِى
كما السّعد يَقبل طبع النحوس إذا كان فى موضـعٍ غَيْر سَعْدِ

وقال :

ما أُنسُ ظمآنٍ بمـــاء باردِ من بَعْدِ طولِ العهـد بالمواردِ
إلا كأُنْسِى بكتابٍ وارد من سيدٍ مَحْضِ النِّجارِ ماجدِ

* كأنما استملاه من عُطارِد *

وقال :

يا معشرَ الكتّاب لا تتعرضوا لرياسةٍ، وتصاغَرُوا ، وتَخَادَمُوا
إن الكواكب كُنَّ فى أشرافها إلا عطارد حين صُوِّر آدَمُ

وقال :

دعانى إلى بيتـــه سيّدٌ له الْخُلُق الأشرفُ الأظرفُ
فلازَمْت بيتى ولاطَفْتــهُ بعذر هو الأظرف الأطرفُ
عُطَارِدُ نَجْمِى ، ولا شكّ أن عطاردَ فى بيتـــه أشرفُ

وقال :

لئن تنقَّلْتُ مِنْ دارٍ إلى دارٍ وصِرْتُ بعد ثَوَاء رَهْنَ أسفارِ
فالحرُّ حرٌّ عزيزُ النفس حيث ثَوَى والشَّمسُ فى كل بُرْجٍ ذاتُ أنوار

وقال :

لئن صدّع الدهرُ المشتّتُ شملَنا ... وللدهرِ حكمٌ للجميع صَدُوعُ

فللنَّجْمِ مِن بعدالرجوع استقامةٌ ... وللشمس من بعد الغروب طلوعُ

وقال لمحبوس :

حُبِسْتَ ومن بعد الكسوفِ تبلّجٌ ... تضيء به الآفاقُ للبدر والشمسِ

فلا تعتقدْ للحبس غمًّا ووَحْشَةً ... فأول كونِ المرء فى أضيَق الحبْسِ

وقال أيضاً :

يامن تولى المشترِى تدبيرَهُ ... حاشاك أن تنقادَ للمرّيخ

وقال :

لا تفزعَنْ من كل شيء مُفْزِعِ ... ما كلُّ تدبير البروج بضائرِ

وقال يرثى أبا القاسم الصاحب :

فَقَدْناهُ لما تمّ واعتمّ بالعُلاَ ... كذاك كسوفُ البدر عند تمامِه

لابن درست

وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن درست لأبى الفضل الميكالى :

إذا ما غاب وَجْهُ البَدْرِ عنا ... فَوَجْهكَ عِنْدَنَا البَدْرُ المُقيمُ

فَإنْ رَجَعَتْ نجُومُ السَّعْدِ يَوْماً ... فوجهك نجمُ سعدٍ مستقيم

لمسكويه

وقال مسكويه الخالدى :

لا يعجبنَّكَ حسنُ القصر تنزله ... فضيلة الشمس ليست فى منازلها

لو زِيدت الشمسُ فى أبراجهامائةً ... مازاد ذلك شيئاً فى فضائلها

الخوارزمى

وقال أبو بكر الخوارزمى :

رأيتك إن أيسرت خيّمْتَ عندنا ... لزاماً ، وإن أعْسَرت زُرْتَ لماما

فما أنت إلا البدر : إن قلّ ضوءه ... أغبَّ ، وإن زاد الضياء أقاما

الصولى

وهذا كقول إبراهيم بن العباس الصولى فى محمد بن عبد الملك الزيات :

أسَدٌ ضَارٍ إذا مانَعْتَهُ ... وأبٌ برٌّ إذا ما قدرا

يعرف الأبعد إن أثرى، ولا ... يعرف الأدنى إذا ما افتقرا

لابن المعتز

وقال ابن المعتز :

إذا ما أراد الحاسدون انهدامهُ بناهُ إلهٌ غالبُ العزّ قاهرُهْ
وماذا يريد الحاسدون من امرىءٍ تزينهم أخلاقهُ ومآثرُهْ
إذا ماهواستغنى اهتدى لافتقارهم ولا تهتدى يوماً إليهم مفاقرُهْ
وكانوا كراماً كوكبا ببصاقه فردّ عليهم وبلَه ومواطرُهْ

وهذا البيت كما قال بعض العرب فى إحدى الروايات :

رمانى بأمرٍ كنتُ منه ووالدي بريًّا ومنْ جالِ الطَّوِىّ رمانى

الجُول والجَال : الناحية ، والطوىّ : البئر ؛ يريد رمانى بما عاد عليه ، والرواية المشهورة : ومن أجل الطَّوِىّ ، فعلى هذا تسقط المناسبة بينه وبين قول ابن المعتز .

[الأصمعى و بعض الأعراب]

قال بعضُ الرواة : كنا مع أبى نصر راوية الأصمعى فى رياضٍ من المذاكرة نجتنى ثمارها ، ونجتلى أنوارها ، إلى أن أفضنا فى ذكر أبى سعيد عبد الملك بن قُريب الأصمعى ؛ فقال : رحم اللهُ الأصمعىّ ! إنه لمَعْدِنُ حِكم ، وبَحْرُ عِلْمٍ ، غيرَ أنه لم نر قطّ مثلَ أعرابى وقف بنا فسلّم ، فقال : أيكم الأصمعى ؟ فقال : أنا ذاك ، فقال : أتأذنون بالجلوس ؟ فأذِنّا له ، وعجبنا من حُسْن أدبه مع جفاء أدب الأعراب .

قال : يا أصمعى ، أنتَ الذى يزعمُ هؤلاء النَّفر أنك أثقبُهم معرفةً بالشعر والعربية ، وحكايات الأعراب ؟ قال الأصمعى : فيهم مَنْ هو أعلم منى ، ومَنْ هُوَ دونى ، قال : تنشدوننى من بعض شعر أهل الحضر حتى أقيسَهُ على شعر أصحابنا ؟ فأنشده شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك :

أمَسْلَمَ أنتَ البحرُ إن جاء واردٌ وليثٌ إذا ما الحربُ طارَ عُقابُها
وأنت كسيفُ الهِنْدُوَانِيّ إن غدَتْ حوادثُ من حربٍ يعبُّ عُبابُها
وما خُلِقَتْ أُكْرُومَةٌ فى امرىءٍ له ولا غاية إلاَّ إليك مآبُها

كأنك ديّانٌ عليها مُوَكَّلٌ بها، وعلى كفّيك يجرى حِسابُها
إليك رحلنا العِيسَ إذ لم نجد لها أخا ثقة يُرْجَى لديه ثوابُها

قال : فتبسّم الأعرابى ، وهزّ رأسه ، فظنَنّا أنّ ذلك لاستحسانه الشعر ، ثم قال : ياأصمعىّ؛ هذا شعرٌ مُهَلْهل خَلَقُ النَّسج ، خطؤه أكثرُ من صوابه ، يغطى عيوبَه حسنُ الرَّوِىّ ، ورواية المنشد؛ يشبّهون الملك إذا امْتُدح بالأسد ، والأسد أبخَر شَتِيمُ المَنْظَر[1] ،وربما طرده شِرْذِمَةٌ من إمائنا، وتلاعَب به صِبْيانُنا، ويشبّهونه بالبحر ، والبحرُ صَعْبٌ على مَنْ رَكبه ، مُرٌّ على من شربه ، وبالسيف وربما خان فى الحقيقة ، ونبَا عند الضَّريبة ! ألا أنشدتنى كما قال صبىٌّ من حيّنا ! قال الأصمعى : وماذا قال صاحبكم ؟ فأنشده :

إذا سألت الوَرَى عن كل مكرمة لم يُعْزَ إكرامُها إلا إلى الهوَلِ
فتًى جَوادٌ أذابَ المالَ نَائِلُهُ فالنّيلُ يشكرُ منه كثْرَةَ النَّيْلِ
الموتُ يكره أن يلقى مَنِيّتَهُ فى كرِّه عند لفِّ الخيل بالخيلِ
وزاحم الشمسَ أبقى الشمسَ كاسِفةً أو زاحم الصُّمَّ ألجاها إلى الميْلِ
أمضَى من النجم إن نابَتْه نَائبةٌ وعند أعدائه أجرَى من السَّيْلِ
لا يستريح إلى الدنيا وزينتِها ولا تراه إليها ساحبَ الذَّيْلِ
يقصِّرُ المجدُ عنه فى مكارمه كما يقصّر عن أفعاله قَوْلِى !

قال أبو نصر : فأَبْهَتَنا والله ما سمعنا من قوله ، قال : فتأنّى الأعرابى ، ثم قال للأصمعى : ألا تنشدنى شعراً ترتاحُ إليه النفس ، ويسكن إليه القلب ؟ فأنشده لابن الرِّقاع العاملى :

وناعمةٍ تجلو بعود أراكةٍ مؤشَّرَةً يَسْبى المُعَانِقَ طِيبُها
كأنّ بها خمراً بماء غمامةٍ إذا ارتشفَتْ بعد الرّقاد غُروبُها
أراكَ إلى نَجْدٍ تحِنٌّ ، وإنما مُنَى كلِّ نفس حيثُ كان حبيبُها

(١) شتيم المنظر : كريهه .

فتبسّم الأعرابى وقال : يا أصمعى ، ما هـــذا بدون الأول ، ولا فوقه ، ألا أنشدتنى كما قلت ؟ قال الأصمعى : وما قلت ؟ جعلت فداك ! فأنشده :

تَعلّقْتُها بِكراً ، وعُلّقت حبَّها ... فقلبىَ عن كلِّ الورَى فارغٌ بِكْرُ
إذا احتجبَتْ لم يكفِكَ البدرُ ضوءها ... وتكفيك ضوءَ البدر إن حُجِبَ البَدْرُ
وما الصبرُ عنها ، إن صبرتَ ، وجدتهُ ... جميلا ، وهل فى مثلها يَحْسُن الصَّبْرُ ؟
[وحسبُك من خمر يفوتُك ريقُها ... وواللهِ ما من ريقها حَسْبُكَ الخمرُ]
ولو أنّ جــلد الذَّر لامَسَ جِلْدَها ... لـكان لمسّ الذَّر فى جِلْدِها أثْرْ
ولو لم يكُنْ للبَدْرِ ضِدًّا جمالُها ... وتفضــله فى حُسْنِها لصفا البَدْرُ

قال أبو نصر : قال لنا الأصمعى : اكتبوا ما سمعتم ولو بأطراف المُدَى فى رِقاق الأكباد ! .

قال : وأقامَ عندنا شهراً ، فجَمع له الأصمعىُّ خمسمائة دينار ، وكان يتعاهدنا فى الحِين بعد الحِين ، حتى مات الأصمعى وتفرّق أصحابنا !

فِقَرٌ من كلام الأعراب فى ضروب مختلفة

قال الجاحظ : ليس فى الأرضِ كلامٌ هو أمْتَع ، ولا أنفَع ، ولا آنَقُ ، ولا ألذ فى الأسماع ، ولا أشــــدّ اتّصالا بالعقول السليمة ، ولا أفْتَق لِلّسان ، ولا أجود تقويما البيان ، من طُولِ استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء .

قال ابنُ المقفع ، وقد جرى ذِكْرُ الشعرِ وفضيلته : أى حكمة تكون أبلغ ، أو أحسن ، أو أغرب ، أو أعجب ، من غــلام بدوىّ لم يرَ رِيفاً ، ولم يشبع من طعام ؛ يستوحشُ من الكلام ، ويَفْزَع من البشر ، ويَأوِى إلى القفْرِ واليرابيع والظِّباء ، وقد خالط الغِيلَان ، وأنِسَ بالجانِ ؛ فإذا قال الشعر وصف مالم يَرَه ،

ولم يغذَّ به[1] ولم يعرفه ، ثم يذكر محاسن الأخلاق ومساويها ، ويمدح ويهجو ، ويذمّ ويعاتب ، ويشبّب ويقول ما يُكتبُ عنه ، ويروى له ، ويبقى عليه .

وقال بعض الأعراب :

وإنى لأهدَى بالأوانس كالدُّمى ... وإنى بأطرافِ القنَا لَلَعُوبُ[2]

وإنى على ما كان من عُنجُهيّتى ... ولُوثَة أعرابيتى لأديبُ[3]

كأنَّ الأدبَ غريبٌ من الأعراب ، فافتخر بما عنده منه .

وقال الطائى فى فطنتهم ، يستعطف مالك بن طَوْق على قومه بنى تغلب :

لا رِقةُ الحضر اللَّطيف غذَتْهمُ ... وتباعدوا عن فِطْنَةِ الأعرابِ

فإذا كشفتهمُ وجدْتَ لديهمُ ... كرَم النفوس وقلةَ الآداب

ووصف أعرابى رجلا فقال : هو أطهرُ من الماء ، وأرقُّ طباعا من الهواء ، وأمضى من السيل ، وأهدى من النّجم .

ووصف أعرابىّ رجلا فقال : ذاك والله من ينفع سِلْمه ، ويتَوَاصَفُ حِلمه ، ولا يُسْتَمْرَأُ ظُلْمه .

وقال أعرابى : جلستُ إلى قومٍ من أهل بغداد فما رأيتُ أرجَح من أحلامهم ، ولا أطيَشَ من أقلامهم .

وذكر أعرابى من بنى كلاب رجلا فقال : كان واللهِ الفهمُ منه ذا أُذنين ، والجواب ذا لِسانين ؛ ولم أرَ أحداً أرْتقَ لخلَلِ رأْى ، ولا ابعد مسافة روّية ، ومَرادَ طَرْفٍ منه ؛ إنما كان يرمى بهمّته حيث أشار إليه الكرم ، وما زال يتحسَّى مرارةَ أخلاق الإخْوَان ، ويسقيهم عذوبةَ أخلاقه .

وذكر أعرابىٌّ رجلا فقال : والله لكأنَّ القلوبَ والألسُن رِيضَتْ له ، فما تعقَد إلا على وُدّه ، ولا تنطق إلاَّ بحمده .

---

(١) فى طبعة بولاق «ولم يعهده» . (٢) لأهدى : لأعرف ، أى أشد معرفة (م)

(٣) العنجهية واللوثة : الكبر والحمق .

وقال أعرابى : أقبحُ أعمال المقتدرين الانتقامُ ، وما استنبط الصوابُ بمثل المشاوَرة ، ولا اكتُسِبت البغضاء بمثل الـكبر .

قال الأصمعى : وخطَبنا أعرابى بالبادية ، فقال : أيُّها الناس : إن الدنيا دارُ مفرّ ، والآخرة دار مقَرّ ؛ فخذوا من مفرِّكم لمقرِّكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسرارُكم .

قال المعافر بن نعيم : وقفتُ أنا ومعبد بن طوق العنبرى على مجلس لبنى العنبرى ، وأنا على ناقة وهو على حمار ، فقاموا فبدءونى فسَلَّمُوا علىّ : ثم انكفئوا على معبد ، فقبض يده عنهم ؛ وقال : لا ، ولا كَرَامة ! بدأتم بالصغير قبل الـكبير ، وبالموْلَى قبل العربىّ ، وبالمُفْحَم قبل الشاعر ، فأسكت القومُ ، فانبرى إليه غلام ، فقال : بدَأْنا بالكاتب قبل الأُمىّ ، وبالمهاجر قبل الأعرابى ، وبراكبِ الراحلة قبل راكب الحمار .

ووصف أعرابى قومَه فقال : لُيُوثُ حَرْب ، وغُيوث جَدْب ، إنْ قاتلوا أَبْلَوْا ، وإنْ بذلوا أَغْنَوْا .

ووصف أعرابى قوماً فقال : إذا اصطفُّوا سفَرَتْ بينهم السهام ، وإذا تصافَحُوا بالسيوف فَغَر فَمَه الحِمامُ .

وسُئل أعرابىٌّ عن صديق له ، فقال : صَفِرَت عِيَابُ الودّ بينى وبينه بعد امتلائها[1] ، واكفهرّتْ وجوهٌ كانت بمائها .

وقال الأصمعى : وسمعت أعرابياً يقول : إنَّ الآمالَ قَطَعَتْ أعناقَ الرجال ، كالسراب غَرَّ مَنْ رآه ، وأخلف من رَجاه ، ومَنْ كان الليـلُ والنهار مَطِيَّته أسرعا السير والبلوغ به .

والمرء يفـــرح بالأيام يقطَعُها ... وكلُّ يوم مضى يدْنِى من الاجَلِ

---

(١) صفرت : خلت .

وذكر أعرابىّ مصيبة نالته ، فقال : إنها والله مصيبة جعلت سُودَ الرءوس بيضاً ، و بيضَ الوجوه سودا ، وهوّنت المصائب ، وشيَّبت الذوائب .

وهذا كقول عبدالله بن الزَّبِير الأسدى :

رَمَى الحِدْثَانُ نِسْوَةَ آل حَرْب ... بمقدار سَمَدْنَ له سُمُودَا[1]

فردّ شعورهنّ السُّودَ بيضاً ... وردَّ وجوهَهُنّ البيضَ سُودا

وإنك لو رأيت بكاء هِنْدٍ ... ورَمْلَةَ إذ تَصُكَّان الخدُودَا

بَكَيْتَ بُكاء مُعْوِلَةٍ حَزِين ... أصابَ الدهرُ واحدَها الفقيدا[2]

ونظيرُ هذا التطابق بين السواد والبياض ، وإن لم يكن من هذا المعنى، قولُ ابن الرومى :

يا بَيَاضَ المشيبِ سَوَّدْتَ وَجْهِى ... عند بيضِ الوجوهِ سُودِ القرونِ

فلعمرِى لأخفينَّك جَهْدِى ... عن عِيانى وعن عِيان العيونِ

ولعمرى لأمنعنَّك أن تَضْحَك في رَأْسِ آسفٍ محزون

بسوادٍ فيه ابيضَاضٌ لوجهى ... وسوادٌ لوَجْهِكَ المَلْعُونِ

سأل أعرابيان رجلا ، فحرمهما ، فقال أحدُهما لصاحبه : نزلتَ والله بوادٍ غير ممطور ، وأتيتَ رجلا بك غير مسرور ، فلم تدرك ماسأَلت ، ولا نِلتَ ماأمَّلت ؛ فارتَحِلْ بندم ، أو أقم على عَدَم .

قال الأصمعى : وسمعتُ أعرابيا يقول : غَفَلنا ولم يَغفُلِ الدهرُ عنا ، فلم نتّعظ بغيرنا حتى وُعِظ غيرُنا بنا ، فقد أدركتِ السعادةُ من تنبّه ، وأدركت الشقاوة من غفَل ، وكفى بالتجربة واعظاً

وقال أعرابى لرجل : اُشكر للمنعم عليك ، وأنعم على الشاكر لك ، تستَوْجب من ربك زيادته ، ومن أخيك مُنَاصحتَه .

---

(١) سمدن له : تلوت له رؤوسهن ـ وسمد : قام متحيراً (م) .

(٢) رواية الحماسة « رأيت بكاء معولة حزين » (م)

ومدح أعرابى رجلا فقال : ذلك والله فَسيحُ الأدب ، مُسْتَحْكِم السبب ، من أىِّ أقطاره أتيته تُثْنى عليه بكرم فعال ، وحُسْن مقال .

وذمّ أعرابى رجلا فقال : أفسد آخِرَته بصلاح دُنْياه ، ففارقَ ماأصْلح غيرَ راجعٍ إليه ، وقدم على ماأفسد غَيْرَ منتقلٍ عنه ، ولوصدق رجلٌ نفسه ما كَذَبَتْه، ولو ألقى زمامه أوْطأه رَاحِلَتَهُ .

وقال أعرابى : خرجت حين انحدرَتْ أيدِى النجوم ، وشَالَتْ أرجلها ، فما زلتُ أصدع الليلَ حتى انصَدَع الفجر .

وقال أعرابى :

وقد تعَالَلْت ذَمِيــــل العنْسِ بالسَّوْطِ فى دَيْمُومة كالتّرسِ[1]

إذ عَرّج الليلُ بُرُوجَ الشَّمْسِ

ومن مليح الاستعارة فى نحو هـذا قولُ الحسن بن وهب : شربت البارحة على وَجهِ الجوْزَاء ؛ فلما انتبه الفَجْرُ نِمْت ، فماعقلت حتى لَحفَنى قَميصُ الشَّمسِ.

وقال أعرابى لصاحبه فى شىء ذكره : قل إن شاء الله ، فإنها ترْضِى الربَّ ، وتُسْخِط الشيطان ، وتُذْهِب الحِنْثَ[2] ، وتَقْضِى الحاجة .

وروى العتبىُّ عن أبيه قال: سمعت أعرابياً يقول لأخيه فى معاتبة جرَتْ بينهما : أما والله لرُبَّ يوم كتَنُّور الطاهى ، رقّاص بالحمامة ، قد رميتُ نَفْسى فى أَجِيج سَمُومِه ، أحْتَمِلُ منه ما أكره لما أحبّ .

قال أبو العباس محمد بن يزيد : وأحسب العتبى صنع هذا الكلام ، وأخذه من قول بَشّار :

ويوم كتَنُّورِ الإماء سَجَرْنه وأوْقَدْنَ فيه الجَزْل حتى تَضَرّما

رميتُ بنفسى فى أجِيج سَمُومهِ وبالعيس حتى بَضّ منخرها دَمَاَ

---

(١) تعاللت : أعطيت أقصى ما عندك من السير ، والديمومة : الصحراء الواسعة البعيدة الأطراف (م) .

(٢) يعنى أنك إذا حلفت وقلت « إن شاء الله » ثم لم تفعل ما حلفت عليه لم تحنث (م)

أخذ هذا المعنى بعضُ أصحاب أبي العباس ثعلب فقال يهجو المبرد :

ويوم كتنُّور الطهاة سَجَرْتُه على أنه منه أحَرُّ وأوقدُ

ظللت به عند المبرّدِ جالساً فما زلت في ألفاظِه أتبرَّدُ

قال الأصمعي : حجَّت أعرابيةٌ ومعها ابنٌ لها ، فأصيبت به ، فلما دُفِن قامت على قبره ، وهي مُوجَعة فقالت : والله يابنيّ لقد غَذَوْتُك رضيعاً ، وفقدتُك سريعا ، وكأنه لم يكن بين الحالين مدةٌ ألتذُّ بعيشك فيها ، فأصبحتَ بعد النَّضارة والغَضارة ورونق الحياة والتنسّم في طِيب روائحها ، تحت أطباق الثَّرَى جسداً هامداً ، ورُفَاتا سحيقاً ، وصعيداً جُرُزا ؛ أي بني ! لقد سَحَبَتِ الدنيا عليك أذيال الفناء ، وأسكنَتْك دارَ البِلَى ، ورمتني بعدك نكْبَةُ الرَّدَى ، أي بني ! لقد أسفر لي وجهُ الدنيا عن صباح داجٍ ظلامُه .

ثم قالت : أي ربّ ومنك العدل ، ومن خَلْقك الجَوْر ، وهَبْتَه لي قُرَّةَ عين ، فلم تُمَتِّعني به كثيراً ، بل سَلَبْتَنِيه وَشِيكا ؛ ثم أمرتني بالصبر ، وَوَعَدْتَني عليه الأجر ، فصدقت وَعْدَك ، ورضيت قضاءك ، فرحم الله من ترحَّم على من استودَعْتُه الرَّدْم ، ووسَّدْتُه الثَّرَى ؛ اللهم ارحم غربته ، وآنِسْ وحْشَته ، واستُرْ عَوْرَته ، يوم تُكْشَف الهَنَات والسَّوءات .

فلما أرادت الرجوعَ إلى أهلها وقفت على قبره ، فقالت ! أي بنيّ ! إني قد تزوَّدْت لسفري ، فليت شعري ما زادُك لبُعْدِ طريقك ، ويوم مَعَادِك ؟ اللهم إني أسألُكَ له الرضا برضائي عنه . ثم قالت : استودَعْتُك مَن استودَعَنِيك في أحْشائي جنيناً ؛ واثُكْلَ الوالدات ! ما أمضّ حرارةَ قلوبهن ، وأقلق مضاجِعهنّ ، وأطولَ لياليهنّ ، وأقصرَ نهارهن ، وأقلّ أنسهن ، وأشدّ وحشتهنّ ، وأبعدهنّ من السرور ، وأقربهن من الأحزان .

لم تزلْ تقولُ هذا ونحوه حتى أبكتْ كلَّ مَنْ سمعها . وحمدت الله عز وجل واسترجعَتْ وصلت ركعات عند قبْره وانطلقت .

وأنشد المُفضَّلُ الضبيُّ لامرأةٍ من العرب ترثى ابناً لها :

يا عمْرُو مالى عنــك من صبرِ ... يا عَمْرُو يا أسَفى على عَمْرِو .
لله يا عمرُو ، وأىَّ فـــتَى ... كفّنْت يوم وُضِعْتَ فى القبر ؟
أحْثو الترابَ على مَفارقِهِ ... وعلى غَضارَةِ وجهه النَّضْرِ (١)
حين استوى وعَلا الشبابُ بهِ ... وبدا مُنيرَ الوجهِ كالبـــدر
ورجا أقاربُه منافعَهُ ... ورأوا شمائل ســيّد غَمْرِ (٢)
وأهمَّه همّى فساوَرَهُ ... وغدَا مع الغادينَ فى السّفر
تغدْو به شـــقراء سامِيةٌ ... مَرَطَى الجِراء شَديدةُ الأسْر (٣)
ثبت الجَنَان به ، ويقدمها ... فَلِجٌ يقلّبُ مُقْلَتَىْ صَقْرِ (٤)
ربَّيْتُه دَهْراً أُفَتِّقُهُ ... فى اليُسْر أغْذُوه وفى العُسْر
حتى إذا التأميلُ أمكننى ... فيـــه قُبَيْلَ تلاحُقِ الثغر
وجعلتُ من شغفى أُنقِّلهُ ... فى الأرض بين تَنائِفٍ غُبْرِ (٥)
أدَع المَزارعَ والحصونَ بهِ ... وأُحِـــلُّه فى المَهْمَهِ القَفْرِ
ما زلت أُصْعِده وأُحْدِرُهُ ... من قُتْرٍ مَوْماةٍ إلى قُتْرِ (٦)
هرباً به والمَوْتُ يطلبُـــه ... حيث انتَويْتُ به ولا أدْرِى (٧)
حتى دفَعْتُ به لمَصْرَعِـه ... سَوْقَ المعيز تُساق للعَتْرِ (٨)
ما كان إلا أن هَجَعْتُ لهُ ... ورمى فأغْفى مطلع الفجر
ورمى الكَرَى رأسى ومال بهِ ... رَمْسٌ يُساوِر منه كالسُّكْرِ

---

(١) المفارق : مواضع فرق الشعر من الرأس . (٢) غمر : جزيل العطاء .
(٣) مرطى : سريعة ، والأسر : القوة . (٤) فلج : حليف النصر .
(٥) التنائف: جمع تنوفة، وهى الصحراء ـ والغبر: جمع غبراء ، وأرادالمظلمة (م)
(٦) القتر . بالضم : الجانب . (٧) انتويت : قصدت .
(٨) العتر : اسم نبات أو شجر صغير ـ لا . بل العتر هنا الذبح (م)

إذ راعنى صوتٌ هببت بهِ وذُعِرْتُ منه أيّما ذُعْرِ
وإذا منيتُه تساوِرُهُ قد كدَّحت فى الوَجْه والنَّحْرِ
وإذا له علَق وحَشْرَجَةٌ مما يَجِيشُ به من الصَّدْرِ
والموتُ يَقْبِضُه ويَبْسُطُهُ كالثوبِ عند الطىِّ والنَّشْرِ
فدَعاَ لأنْصُرَه وكُنْتُ لهُ من قبل ذلك حاضرَ النَّصْر
فعجزتُ عنه وهى زَاهِقَةٌ بين الوريد ومَدْفَعِ السَّحْرِ
فمَضى وأىّ فتى فُجِعْتُ بهِ جَلَّت مصيبتُه عن القَدْرِ
لو قيــل تَفْدِيه بذلتُ لهُ مالى وما جَّمعت من وَفْرِ
أو كنت مقتدراً على عُمُرى آثرتُه بالشَّطْرِ من عُمْرِى
قد كنتُ ذا فقْرٍ له، فَعدَا ورَمَى علىَّ وقد رأى فَقْرِى
لو شاء رَبِّى كان متَّعنى بابْنِى وشدّ بأَزْرِه أزْرِى
بُنيَتْ عليك بُنَىَّ، أحوج ما كنّا إليك، صفائحُ الصَّخْرِ
لا يبعدنْكَ الله يا عمرى إمَّا مَضَيْتُ فنحنُ بالإثْرِ
هٰذِى سبيلُ النـــاس كلّهم لا بدّ سالكها على سَفْرِ
أوَلا تراهم فى ديارهمُ يتوقَّعون وهم على ذُعْرِ
والموتُ يُورِدُهم مواردَهم قَسْراً؛ فقد ذَلّوا على القَسْرِ

وقال أعرابى يمدح رجلا :

يمُدُّ نِجادَ السّيف حتَّى كأنهُ بأعلى سنامَىْ فالِجٍ يَتَطوّحُ
ويُدلِجُ فى حاجاتِ مَنْ هو نائمٌ ويُورِى كريماتِ الندى حين يقدحُ
إذا اعتمّ بالبُرْدِ اليمانِى حسبتهُ هلالاً بَدَا فى جانب الأفْق يَلْمَحُ
يزيدُ على فَضْل الرجال فضيلةً ويَقْصُر عنه مَدْحُ مَنْ يَتمدَّحُ

وأنشد ابنُ أبى طاهر لأعرابى :

وقبلىَ أبكىَ كلَّ مَنْ كان ذاهوى   هَتوفُ البواكى والديارُ البَلاَقِعُ[(١)]
وهنَّ على الأطلال من كل جانبٍ   نَوَائحُ ما تَخْضَلُّ منها المَدَامِعُ
مُزَبْرَجَةُ الأعناق نُمْرٌ ظهورُها   مخطَّطة بالدُّرِّ خُضْرٌ رَوَائعُ
تَرَى طرُزاً بَيْنَ الخوَافى كأنها   حَوَاشِىّ بُرْدٍ زينتها الوَشَائعُ
ومن قِطَع الياقوت صِيغَتْ عُيونُها   خواضب بالحِناء منها الأصَابِع

ومن جيد ما قيل فى الحمام قول ابن الرومى :

وقَفْتُ بمِطْرَاب العشيَّاتِ والضُّحَى   فَظَلْتُ أسُحُّ الدمع منى وأسْجُمُ
حليفة شَجْوٍ هاَجَ مابى وما بها   تباريحُ شوق يشتكيها المتيَّمُ
فَبَاحَ به فُوهاَ وأخفَتْه عينُها   وباحَتْ به عَيْنى وكتَّمهُ الفَمُ

ودخل أعرابى على الرشيد، فأنشده أرجوزةً مدحه بها ، و إسماعيل بن صبيح يكتبُ كتاباً بين يديه ــ وكان من أحسنِ الناسِ خطّاً ، وأسرعهم يداً ــ فقال الرشيد للأعرابى : صف الكاتب فقال :

رقيقُ حَواشى العلم حينَ تبورهُ   يُرِيكَ الهُوَيْنا والأُمورُ تَطِيرُ[(٢)]
له قَلَماَ بؤسَى ونُعمَى كلاهما   سحاَبتُه فى الحالتَيْن دَرُورُ
يُنَاجيك عما فى ضميرك خَطُّهُ   ويَفْتَحُ بابَ النُّجْحِ وهو عسيرُ

فقال الرشيد : قد وجب لك يا أعرابى عليه حق ، كما وجب لك علينا ياغلام ؛ ادفَعْ له دِيَة الُحرّ ، فقال إسماعيل : وعلى عبدِك دِيَة العَبْد .

وقال أعرابى من بنى عقيل :

أحنُّ إلى أرضِ الحجاز، وحاجَتى   خِيامٌ بنَجْدٍ دونها الطَّرْفُ يقصُر
وما نَظَرِى نحو الحجازِ بنافعى   فتيلا ، ولكنى على ذاك أنْظر

(١) البلاقع : جمع بلقع ، وهى الخالية التى لا أنيس بها (م)
(٢) تبوره ، تختبره وتبلوه (م) .

أفى كلِّ يوم نَظرَةٌ ثم عَبرةٌ   لعينَيْك يجرى ماؤُها يتحَدَّرُ
متى يستريح القلب إمَّا مجاورٌ   حزينٌ وإمَّا نازحٌ يتذَكَّرُ

وقال أعرابى :

وإنى لأُغْضِى مقلتىَّ على القَذَى   وألْبَسُ ثوبَ الصبرِ أبْيَض أبْلَجا
وإنّى لأدْعو اللهَ والأمرُ ضَيّقٌ   علىَّ ، فما ينفكُّ أنْ يتفرَّجا
وكم من فتًى ضاقَتْ عليه وجوهُهُ   أصاب لها من دَعْوَةِ اللهِ مَخْرَجاَ

وقال آخر:

ذكرتُكِ ذِكْرى هائمٍ بك تَنْتَهِى   إليك أمانيهِ وإن لم يكُنْ وَصْلُ
وليسَتْ بذِكْرَى ساعةٍ بعد ساعةٍ   ولكنها موصـولةٌ مالَهَا فَصْلُ

وقال آخر :

أريتُكِ إنْ شطَّتْ بك العامَ نِيَّةٌ   وعَالَكَ مُصْطَافُ الحِمَى ومرابعُهْ
أترعَيْنَ مااستُودعت أم أنت كالذى   إذا ما نَأَى هانَتْ عليك ودَائِعُهْ
ألا إن حَـيًّا دونه قُلَّةُ الحِمَى   مُنَى النفسِ لو كانت تُنَالُ شَرَائعُهْ[1]

أخذتْ أزْدُ العتيك شاعراً من قَيْس بن ثعلبة اسمه المعذَّل فى دَمٍ، فأتاه البَيْهَس بن ربيعة لحمله ، وأمره أن يَنْجُوَ بنفسه ، وأسلم نفسه مكانه ، فقال له المعذل : أُخيِّرُك بين أن أمْدَحَك أو أمدح قومَك ؛ فاختار مدحَ قومه فقال :

جزى اللهُ فِتْيانَ العَتيك ، وإن نَأَتْ   بِىَ الدَّارُ عنهم ، خيرَ ما كان جازِيا
هُم خَلَطُونى بالنفوس وأحسنوا الصَّـحابة لمـا حُمَّ ما كان آتِياَ
مَتَاعُهم فَوْضى فَضًا فى رحالِهمْ   ولا يُحْسِنُون الشرَّ إلاَّ تَبَادِياَ
كأن دنانيراً على قَسَمَاتِهمْ   إذا الموتُ فى الأبطال كان تحاميا

وذكرت الرواة أنَّ المهلب بن أبى صُفْرَةَ عرض جُنْدَه بخراسان ، فعرض جيش

(١) الحمى — بالفتح — السهل فيه ماء قليل ، والشرائع : جمع شريعة ، وهى مكان ورود الماء (م)

بكر بن وائل، فمر به المعذّل فقال : هذا المعذل القيسى الذى يقولُ، وأنشد الأبيات، فقالوا: أيها الأمير؛ احسبه علينا ، فانطلق مائةٌ منهم ، فجاءوا بمائة وصيف ووصيفة، فقالوا : أعْطِه هذا وليعذرنا .

قوله « كأنَّ دنانيراً على قسماتهم » نظيرُ قول أبى العباس الأعمى :

ليت شِعْرِى من أيْنَ رائحة الْمِسْـــك وما إن إخال بالَخْيف إنْسى؟
حينَ غابت بنو أمية عنـــهُ والبهاليلُ من بنى عبـد شمس
خطباء على المنـــابر، فُرْسَا نٌ عليها ، وَقَالَةٌ غيرُ خُرْسِ
فى حـلوم إذا الحلوم استُفِزَّتْ ووجوه مثـل الدنانير مُلْسِ

[بَعْضُ أخبار أبى نواس].

المأمون يعير أخاه الأمين بصحبة أبى نواس

ولما خلع المأمونُ أخاه محمد بن زُبَيْدة ووجّه بطاهر بن الحسين لمحاربته ، كان يعملُ كتباً بعيوبِ أخيه تُقرأُ على المنابر بخراسان ؛ فكان مما عابه به أن قال : إنه استخلص رجلا شاعرا ماجِناً كافراً ، يقال له الحسن بن هانئ ، واستخلصه ليَشْرَبَ معه الخمر ، ويرتكبَ المآثم ، ويَهتِكَ المحارم ، وهو الذى يقول :

ألا فاسْقِنى خَمْرًا وقُل لى هى الخمرُ ولا تسقنى سرًّا إذا أمْكَنَ الجهْرُ
وبُحْ باسم مَنْ تهوى ودَعْنِى عن الكُنَى فلا خَيْرَ فى اللَّذَّاتِ من دونها سِتْرُ

ويذكر أهلَ العراق فيقول : أهـل فسوق وخمور، ومَاخُور وفجور ؛ ويقوم رَجلٌ بين يديه فيُنْشِد أشـعار أبى نواس فى المجون ؛ فاتصل ذلك بابن زبيدة ؛ فنهى الحسنَ عن الخمر ، وحبسه ابنُ أبى الفضل بن الربيع ؛ ثم كلّمه فيه الفضل، فأخرجه بعد أن أخذ عليه ألاّ يشربَ خمرا ، ولا يقول فيها شعرا ، فقال :

ما مِنْ يدٍ فى الناسِ واحِدةٍ كَيدٍ أبو العباس مَولاَها
نام الثقات على مضاجعهم وسَرَى إلى نفسى فأحياها
قد كنت خفتك ، ثم آمننى من أن أخافك ، خَوْفُكَ اللهَ
فعفوتَ عنى عَفْوَ مقتــدرٍ وجَبَتْ له نقمٌ فألغـــاها

ومن قوله فى ترك الشراب :

أيُّهــا الرائحان باللَّوْمِ لُوما　　لا أذوقُ المُـدامَ إلاَّ شَمِيما
نَالَنِي بالمــلام فيها إمامٌ　　لا أرى لى خلافَهُ مستقيما
فاصْرِفاها إلى سِوَاىَ ؛ فإنّى　　لسْتُ إلاَّ على الحديثِ نديما
جُلُّ حظى منها إذا هى دارتْ　　أنْ أراها وأن أشمّ النسيما
فكأنى وما أُزَيِّنُ منها　　قَعَـدِىٌّ يُزَيِّنُ التحكيما
[كَلَّ عَنْ حَمْلِهِ السلاحَ إلى الحر　　ب فأوصى المُطيق ألاّ يقيما]

القَعَدِيّة : فرقة من الخوارج ، يأمرون بالخروج ولا يخرجون ؛ وزعم المبرد أنه لم يُسْبَقْ إلى هذا المعنى .

وقال :

عَيْن الخليفـةِ بى موكَّلةٌ　　عَقَدَ الحِذارُ بطَرْفِها طَرْفى
صحَّتْ عَلاَنِيتى له ، وأرى　　دينَ الضمير له على حَرْفِ
ولئن وعدتك تَرْكها عِدَةً　　إنى عليك لخائفٌ خُلْفى
سلبوا قِنَاعَ الدَّن عن رَمَقٍ　　حى الحيـاة مُشَارِف الحتْفِ
فتنفّستْ فى البيت إذ مُزِجتْ　　كتنفس الرَّيْحَانِ فى الأنْفِ

* * *

أخذ قوله : « ولئن وعدتك تركها عدة » الحسنُ بن على بن وكيع فقال :

متى وَعَدْتُكَ فى تركِ الصِّبا عِدَةً　　فاشْهَدْ على عِدَتى بالزُّورِ والكَذِبِ
أمَا ترى الليلَ قد ولَّت عَساكِرُهُ　　وأقبل الصبحُ فى جيش له لَجِبِ
وجدَّ فى أثر الجوْزَاء يطلُبها　　فى الجوّ رَكْضًا هِلالٌ دائمُ الطلب
كصولجانِ لُجَين فى يدَىْ ملك　　أدناه من كُرَةٍ صيغَتْ من الذهب
فقُمْ بنا نَصْطَبِحْ صفراء صافيـةً　　كالنـار لكنها نارٌ بلا لَهَبِ
عروسُ كَرْمٍ أتت تختالُ فى حُلَلٍ　　صُفْرٍ على رأسها تاجٌ من الحَبَبِ

وقال أبو الفضل الميكالى فى اقتران الهلال بالزهرة :

أَمَا تَرَى الزُّهرةَ قد لاحَتْ لنا ... تحت هلال لونُه يَحْكِى اللَّهَبْ
كَكُرَةٍ من فِضَّةٍ مَجْلُوَّةٍ ... وافَى عليها صَوْلَجانٌ من ذَهَبْ

وعلى قول أبى نواس :

صَحَّتْ عَلانيَتى له ، وأرى ... دِينَ الضمير له على حَرْفِ

كتب أبو العباس بن المعتز إلى أبى الطيب القاسم بن محمد النميرى :

يأيها الجافى ويستجفى ... ليس تجنِّيك من الظَّرفِ
إنك فى الشوقِ إلينا كمَنْ ... يُؤْمِنُ باللهِ على حَرْفِ
مَحَوْتَ آثارَكَ من ودِّنا ... غير أساطيرك فى الصُّحْف
فإن تحامَلْتَ لنا زَوْرَةً ... يوماً تحاملت على ضَعْف

ضرب من الرياء

وحدث أبو عمر الزاهد قال : دَلَّك بعضُ الزهاد المرائين جَبْهَتَهُ بِثَوْمٍ وعصبها ، ونام ليُصْبِح بها كأثر السجود ، فانحرفت العِصابة إلى صُدْغه ، فأَخَذَ الأثر هناك ، فقال له ابنُه : ما هذا يا أبت ؟ فقال : أصبح أبوك ممن يَعْبُدُ الله على حرف !

* * *

من خمريات أبى نواس

وقال أبو نواس فى الباب الأول :

غَنِّنا بالطلولِ كيف بَلينا ... واسْقِنَا نُعطِكَ الثناءَ الثمينا
من سُلافٍ كأنها كلُّ شىء ... يتمنَّى مُخَيَّرٌ أنْ يَكونَا
أَكَلَ الدَّهْرُ ما تَجسَّم منها ... وتبقَّى لبابُها المَكْنُونَا
فإذا ما اجتليتها فهَبَاءٌ ... يمنع الكفَّ ما يُبِيحُ العيونا
ثم شُجَّت فاستضحكت عن لآلٍ ... لو تجمَّعْنَ فى يدٍ لاقتُنِينا
فى كئوس كأنهنَّ نجومٌ ... دائراتٌ بُرُوجُها أَيْدِينا
طالعاتٌ مع السُّقَاةِ علينا ... فإذا ما غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فينا

لو ترى الشَّرْبَ حولَها من بعيد   قلت قوماً من قِرَّةٍ يصطَلُونا[1]
وغزالٍ يُدِيرُها ببَنَانٍ   ناعماتٍ يَزِيدُها الغَمزُ لِينَا
كلما شِئْتُ عَلَّنِي بِرُضَابٍ   يَتْرُكُ القلبَ للسرور قرينـا
ذاكَ عيشٌ، لودامَ لى، غيرَ أنى   عِفْتُه مكْرَهاً وخِفْتُ الأمِينا

وقال :

أعاذلَ أعتبْتُ الإمامَ وأعتبا   وأعْرَبْت عمَّا فى الضمير وأعْرَبا
وقلتُ لساقيها : أجزها فلم أكن   ليأبى أمــيرُ المؤمنين وأشْرَبا
فجوَّزَها عنى سُلاَفاً تَرَى لهـا   لدى الشَّرَفِ الأعلى شُعَاعا مُطَنَّبَا
إذا عَبَّ فيها شاربُ القوم خِلْتَهُ   يُقَبِّلُ فى داجٍ من الليل كوكبا
ترى حيثما كانتْ من البيت مَشْرِقاً   ومالم تـكن فيه من البيت مَغْرِبا
يَدُورُ بها رَطْبُ البنان ترى لهُ   على مستدار الخدّ صُدْغاً مُعَقْرَبَا
سقاهم ومَنَّـانِى بعينَيْهِ مُنْيَةً   فـكانت إلى قلبى ألذّ وأطيبا

قال الحسين بن الضحاك الخليع : أنشدت أبا نواس قولى :

وشاطرىِّ اللسانِ مختلق التَّـــكْرِيهِ شابَ المُجُونَ بالنُّسُكِ

فلما بلغْتُ فيه :

كأنما نُصْبَ كَأسِهِ قَمَرٌ   يَـكْرَعُ فى بَعْضِ أنجُم الفَلَكِ

نعرَ نَعْرَةً منـكرةً ، فقلت : مالَك ، فقد رعتنى ؟ قال : هـذا المعنى أنا أحقُّ به منك ؛ ولـكن سترى لمن يُرْوَى ! ثم أنشد بعد أيام :

إذا عبَّ فيها شاربُ القومِ خِلْتَهُ   يُقَبِّلُ فى داجٍ من الليل كوكبا

فقلت : هذه مطالبة[2] يا أبا على ! فقال : أتظنّ أنه يُرْوى لك معنى مليح وأنا فى الحياة ؟

وقال ابن الرومى فـكان أحسن منهما

ومهفهف كَمُلَتْ مَحَاسِنُهُ   حتى تجاوزَ مُنْيَةَ النفسِ

(١) القرة : البرد الشديد ، ويصطلون : يتدفئون بالنار (م) .
(٢) كذا ، ولعلها «مغالبة» (م) .

تَصْبُو الـكئوس إلى مَرَاشِفِهِ ... وتَضِجُّ فى يده من الحَبْسِ

أبصرتُها والـكأسُ بين فمٍ ... منه وبين أنامِلٍ خَمْسِ

فـكأنَّها وكأن شارِبَها ... قمرٌ يقبِّل عارِضَ الشمس

وقال أبو الفتح كشاجم :

وسحاب يجرُّ فى الأرض ذَيْلَ ... مُطْرَفٍ زَرَّهُ على الأرض زَرّا[1]

بَرْقُه لَمْحةٌ ، ولـكِنْ له رَعْـــدٌ بطىءٌ يكسو المسامِعَ وَقْرا

كخَلِيٍّ منافقٍ لِلَّـــذِى يهـــواهُ يَبْكى جَهْراً ويَضْحَكُ سِرّا

قد سقتنى المُدامَ فيهـــا فَتاةٌ ... سحرَتْنى وليس تُحْسِنُ سِحْرا

فإذَا ما رأيتُهـــا تشربُ الرَّا ... حَ أرتنِى شَمْساً تُقَبِّلُ بَدْرا

[من أخبار بشار]

احتذاء أبى نواس على مثاله

وإنما احتذَى أبو نواس فى هذه الأشعار التى وصف فيها تَرْكَ الشراب وطاعته لأمْرِ الأمين مثالَ بشّار بن بُرْد ، وصب على قالبه ؛ وذاك أنّ بشاراً لمـا قال :

لا يُؤْيِسَنَّكَ من مخبَّـــأةٍ ... قَوْلٌ تُغلِّظه وإن جَرَحا

عُسْرُ النساء إلى مُيَاسرةٍ ... والصعبُ يُمْكِنُ بعد ما جَمَحا

بلغ ذلك المهدى فغاظه ؛ وقال : يحرِّض النساء على الفجور ، ويسهِّل السبيل إليه ! فقال له خالُه يزيد بن منصور الحِميرى : يا أميرَ المؤمنين ؛ قد فتن النساء بشعره ، وأىّ امرأة لا تَصْبُو إلى مثل قوله :

عجِبَتْ فَطْمَةُ من نَعْتِى لهـا ... هل يُجِيد النعتَ مكفوفُ النَّظَرْ

بِنْتُ عَشْرٍ وثلاثٍ قُسِّمت ... بين غُصْنٍ وكثيبٍ وقمَرْ

دُرَّةٌ بَحْرِيَّةٌ مكنونةٌ ... مازَها التاجر من بَيْنِ الدرَرْ

أذْرَتِ الدمع وقالت : وَيْلَتِى ... من وَلُوعِ الـكفِّ ركَّابِ الخَطَرْ

أمتى بدِّدَ هَـــذَا لُعَبِى ... ووِشَاحِى حـــلَّه حتى انتَثَرْ

---

(١) المطرف ــ بضم الميم وفتح الراء مخففة ــ رداء من خز له أعلام (م)

فدَعِينى معــــه يا أمتى علَّنا فى خَـلْوَةٍ نَقضِى الوَطَر
أقبَلَتْ فى . خَلْوَة تضربهاَ واعتراها كجنون مستَعِرْ
بِأَبى واللهِ ما أحسـنَه دَمْع عين غَسَّلَ الكُحْلَ قَطرْ
أيهـــا النُّوَّامِ هبُّوا وَيحَكُم وسَلُونِى اليومَ ما طَعْم السَّهَرْ

فأمره المهدى ألاَّ يتغزل ، فقال أشعاراً فى ذلك ، منها :

المهدى يأمر بشارا بترك الغزل

يا منظراً حسناً رأيتُهْ من وجه جاريةٍ فدَيتُهْ
لمعتْ إلىَّ تَسُومنى ثوْبَ الشباب وقد طويْته
واللهِ ربِّ محمـــدٍ ما إن غَدَرْتِ ولا نَوَيته
أمْسَكْتُ عنكِ ،وربما عَرض البلاء وما ابتغيتُهْ
إنَّ الخليفة قـــد أبى وإذا أبى شيئاً أبيتُـه
ويَشُوقنى بيتُ الحبيـــب إذاغدَوت، وأينَ بَيْتُه
قام الخليفةُ دونَهُ فصبَرْتُ عنه وما قَلَيْته[1]
ونهـانىَ المَلِكُ الهما م عن النساء فما عصيتُه
بل قد وفيتُ ولم أُضِع عَهْداً ، ولا رأياً رأيته

وقال أيضاً :

والله لولا رِضاَ الخليفةِ ما أعطيتُ ضَيْماً علىَّ فى شجَنِ
قدعشتُ بينَالنَّدْمَان والرَّاح والْ مِزْهر فى ظل مَجْلِسٍ حَسَنِ
ثم نهانى المهدىُّ فانصرفَتْ نفسىَ ، صُنْعَ الموفَّق اللقِنِ

وقال :

أفنيتُ عمرى وتَقَضَّى الشبابْ بين الحُمَيَّا والجَوَارِى العِذَابْ
فالآن شفَّعتُ إمام الهُدَى وربما طِبْت لحبٍّ وطَاب
لهوت حتى رَاعَنى دَاعياً صوتُ أمير المؤمنين المُجَابْ
لبَّيك لبَّيك ! هَجَرْتُ الصِّبا ونَام عُذَّالِى وماتَ العِتَابْ

(١) قليته : كرهته ، ويقال «قلوته» أيضاً ؛ فالفعل يائى واوى (م) .

أبصرت رُشْدِي وتركت المُنَى ... وربما ذلَّتْ لهنَّ الرِّقَابْ

فى كلمة طويلة يقول فيها :

ياحامد القول ، ولم يَبْلُهُ ... سبقتَ بالسَّيلِ مَسَاكَ السَّحَاب[1]

الفعلُ أَوْلَى بثناء الفتى ... ما جاءه من خَطأٍ أوْ صَوَاب

دعْ قولَ وَاءٍ وانتظرْ فِعْلَهُ ... يُثْنِي على اللِّقْحَةِ ما فى الحِلَابْ[2]

إذا غدا المهدىُّ فى جُنْدِهِ ... وراحَ فى آلِ الرسول الغِضَاب

بدَا لك المعروفُ فى وجههِ ... كالظَّلْمِ يَجْرِى فى الثنايا العِذَابْ[3]

من شعر بشار فى الغزل

ومن شعر بشار فى الغزل :

أيها الساقيانِ صُبَّا شَرَابِى ... واسقيانى من رِيقِ بيضاءَ رُودِ[4]

إنَّ دائِى الصَّدَى ، وإنَّ شفائِى ... شَرْبَةٌ من رُضَابِ ثَغْرٍ بَرُودِ

عندها الصبرُ عن لقائِى ، وعندى ... زَفَرَاتٌ يأْكُلْنَ قَلْبَ الجليدِ

ولها مَبْسِمٌ كغُرِّ الأقاحى ... وحديثٌ كالوَشْىِ وَشْىِ البُرُودِ

نزلَت فى السواد من حبة القلــ ... ـب ونالت زيادة المستزيد

ثم قالت : نَلقَاكَ بعد لَيالٍ ... والليالى يُبْلِينَ كلَّ جديد

لا أُبالى مَنْ ضَنَّ عنى بوَصْلٍ ... إنْ قَضَى اللهُ منك لى يَوْمَ جودِ

وقال :

تُلْقَى بتسبيحةٍ من حسنِ ما خُلِقَتْ ... وتستفزُّ حَشَا الرَّائِى بإرْعَادِ

كأنما صُوِّرَتْ من ماءِ لؤلؤةٍ ... فكلُّ جارحةٍ وَجْهٌ بمِرْصَادِ

وقال :

وهبْتِ له على المسواكِ رِيقاً ... فطابَ له بطِيبِ ثنيَّتيك

---

(١) المساك ـ بزنة السحاب ـ الموضع الذى يمسك فيه الماء (م)

(٢) واء ، من الوأى وهو الوعد ـ واللقحة، بالكسر، الناقة الحلوب ، والحلاب: الوعاء الذى يحلب فيه اللبن، يريد أن اللبن الذى يكون فى الحلاب يدل على مقدار ما تحلبه الناقة ؛ فيكون هو الذى يثنى عليها (م)

(٣) الظلم ـ بالفتح ـ الريق (م)

(٤) الرود ـ بالضم ـ الناعمة الحسناء (م)

أقبّله على الذكرى كأنّى أقبّل فيه فاكَ ومقلتيك[١]

وقال :

لا أستطيعُ الهوى وهِجْرتها قلبى ضعيفٌ وقلبُهَا حَجَرُ
كأنَّ وجْدِى بها وقد حجبت فى الرأس والعين والحشا سُكُرُ

وأنشد له أبو تمام ، وكان يقول : مارأيتُ شعراً أغزل منه :

زوِّدينا ياعَبْدَ قبْلَ الفراقِ بتلاق ، وكيف لى بالتَّلاقِ[٢]
أنا واللهِ أشتهى سِحْرَ عينيك وأخْشَى مصارعَ العشاق
أمَتِى من بنى عقيل بن كَعْب موضع السِّلْكِ فى طُلَا الأعْنَاقِ

وقال :

لقد عشِقَتْ أذْنِى كلاماً سمعتهُ رَخيما ، وقلْبِى للمليحةِ أعْشَقُ
ولو عاينُوها لم يَلومُوا على البُكى كريماً سقاهُ الخمرَ بَدْرٌ مُحَلِّقُ
وكيف تناسِى مَنْ كأنَّ حديثهُ بأذنى وإن عنيت قُرْطٌ مُعَلَّقُ

وقال :

وقد كنت فى ذاك الشباب الذى مضى أزَارُ ويَدْعُونى الهوَى فأزُورُ
فإن فاتنى إلْفٌ ظلِلْتُ كأنما يُديرُ حياتى فى يديه مُدِيرُ
ومُرْتَجَّة الأرْداف مهضومة الحشَا تَمُورُ بسِحْرٍ عَيْنُهَا وتَدُورُ
إذا نظرت صبَّت عليك صبابةً وكادَتْ قلوبُ العالمين تَطِيرُ
خلوتُ بها لايَخْلصُ الماء بيننا إلى الصُّبح دونى حَاجِبٌ وسُتُور

ومن هذا أخذ على بن الجهم قوله :

لعلى بن الجهم

صِلِينِى وحَبْلُ الوصل لم يتشعَّب ولاتهجرى أفْدِيك بالأمّ والأب
رَعَى اللهُ دَهْراً ضَمَّنَا بعد فُرْقَةٍ وأدْنَى فؤاداً من فؤادٍ مُعَذَّبِ

---

(١) من هنا أخذ ابن زيدون وأبدع وأجاد :
يدنى خيالك حين شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاك
(٢) كذا ، وربما كان «مخلق» بالخاء معجمة : أى مضمخ بالخلوق .

عناقاً وضمّاً والتزاماً كأنما يرى جسدانا جسمَ روحٍ مركب

فبتنا وإنا لو تراق زجاجةٌ من الخمرِ فيما بيننا لم تسرّبِ

وشعره فى هذا المعنى كثير .

منزلة شعر بشار ومقداره

وروى أنه قال : أنا أشعرُ الناسِ ؛ لأنَّ لى اثنى عشر ألفَ قصيدة ، فلو اختير من كل قصيدة بيتٌ لاستندر، ومن ندرت له اثنا عشر ألف بيت فهو أشعرُ الناس(١) ؛ وقد نثرتُ نَظْمَه فى أضعاف الكتاب استدعاءً لنشاط القارىء وكراهة فى إملاله .

وكان بشارٌ أرقَّ المحدَثين ديباجةَ كلام، وسُمّى أبا المحدثين ؛ لأنه فَتَقَ لهم أكمام المعانى ، ونهَج لهم سبيل البديع ، فاتَّبعوه ؛ وكان ابن الرومى يُقَدِّمه ، ويزعمُ أنه أشعرُ من تقدَّم وتأخر .

ولاؤه

وهو يتعلق فى شعره بولاء عَقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ويفتخرُ بالمضرية . قال له المهدى : فيمن تَعْتَزِى ؟ قال : أمَّا اللسان فعربىّ ، أما الأصل فكما قلت فى شعرى ! قال : وما قلت ؟ فأنشده :

ونُبِّئْتُ قوماً لهم إحْنةٌ يقولون مَنْ ذا وكُنْتُ العَلَمْ

ألا أيها السائلى جاهِلاً ليَعْرِفَنى أنا إلْفُ الكَرَمْ(٢)

نمتْ فى المكارمِ بنى عامرٌ فرُوعى وأصلى قُريشُ العَجَمْ

وإنى لأُغنى مقام الفتى وأُصبى الفتاةَ فلا تَعْتَصِم

البيت الأول من هذه الأبيات ينظرُ إلى قول جميل :

إذا ما رأونى طالعاً من ثنيةٍ يقولون مَنْ هذا وقد عرَفونى

---

(١) كان المسيو مرسيه أخبرنى وأنا فى باريس أنه توجد نسخة من ديوان بشار عند أحد أدباء تونس ، فليت من يملك تلك النسخة يتفضل بنشرها لأننا فى أشد الظمأ إلى مجموعة كاملة من شعر بشار الذى عده القدماء إمام شعراء البديع — أقول : قد بدأ ينشر هذه النسخة فى مصر ، وقد ظهر منها الجزء الأول مطبوعا طبعا أنيقا فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (م)

(٢) حفظى «أنا أنف الكرم» ولها وجه وجيه (م) .

وفى هذه القصيدة يقول بشار :

وبيضاء يضحكُ ماءُ الشبا ... ب فى وجهها لكَ إذ تَبتَسِمْ
دوار العــذَارى إذا زُرْنَها ... أطَفْن بحَوْرَاء مِثْــلِ الصَّنَمْ
يَرُحْنَ فيَمْسَحْنَ أركانَها ... كما يَمْسَحُ الحجرَ المسْتَلِمْ
أصفراء ليس الفتى صَخْرَةً ... ولــكنه نُصْب هَمّ وغَمّ
صَبَبْتِ هواكِ على قلبــهِ ... فضاق وأعْلن ما قد كَتَمْ

ويقال : إنه مولى لأم الظباء السَّدُوسية ، ولذلك قال أبو حُذَيفة واصِلُ بن عطاء الغزَّال رئيس المعتزلة لما هجاه بشار : أمَا لهذا الأعمى الملْحِد المشَنَّف المــكتنى بأبى معاذ مَنْ يَقْتُله ؟ والله لولا أنَّ الغِيلة من سجَايَا الغَالِية ، لبعثتُ إليه من يَبْعَجُ بطنه فى جوف منزِله ، ولا يكون إلا سَدُوسِيّا ، أو عُقَيْلِيًّا .

شىء من خبر واصل بن عطاء المعتزلى

وكان واصلُ بنُ عطاء أحَدَ أعاجيب الدنيا ؛ لأنه كان ألثغ فى الراء ، فأسقطها من جميع كلامه وخطبه ؛ إذ كان إمامَ مَذْهَب ، وداعىَ نِحْلة ، وكان محتاجاً إلى جَوْدَةِ البيَانِ ، وفصَاحَةِ اللِّسَان . قال الجاحظ : فانظر كثرةَ ترداد الراء فى هذا الكلام وكيف أسقطها ؟ قال: الأعمى ، ولم يقل الضرير ، وقال: الملحد، ولم يقل الكافر ، وقال: المشنَّف ، ولم يقل المرَعَّث ، وقال : المكتَنى: بأبى معاذ ، ولم يقل بشاراً ولا ابن برد ، وقال : الغالية ، ولم يقل المغيرية ، ولا المنصورية ، وهم الذين أراد، وقال: لبعثت، ولم يقل لأرسلت ، وقال: يبعَج ، ولم يقل يَبْقُر، وقال: فى جوف منزله ، ولم يقل فى داره ، وأراد بذكر عُقَيْل وسَدُوس ماذكر من اعتزائه إليهم .

***

عود إلى أخبار بشار بن برد

وزعم الجاحظ أن بشاراً كان يَدِين بالرَّجعة ، ويُكَفِّر جميعَ الأُمة ؛ وأنشد له أشعاراً صوّب بها رَأْىَ إبليس فى تقديم النار على الطين ، منها قولُه :

الأرض مُظْلِمَةٌ ، والنارُ مُشْرِقةٌ ... والنارُ معبودةٌ مُذْ كانتِ النارُ

وقال داود بن رَزِين : أتينا بشاراً ، فأذِنَ لنا والمائدةُ بين يديه ، فلم يَدْعُنَا إلى الطعام ، ثم جلسنا لحضر الظهر والعصر والمغرب فلم يصلّ ، ودعا بطَسْت فبالَ

بحضرتنا ، فقلنا له : أنت أستاذُنا ، وقد رأينا منك أشياء أنكرناها ، قال : ماهي؟ قلنا : دخلْنَا والطعامُ بين يديك فلم تَدْعُنَا ، قال : إنما أذِنْتُ لتأكلوا ، ولو لم نُرِدْ ذلك لم نأذن لكم ، قلنا له : ودعوت بالطَّست ونحن حضور ، قال : أنا مكفوف ، وأنتم مأمورون بغضّ الأبصار دونى ، قلنا : وحضرت الصلاة فلم تصلّ ! قال : الذى يقبلها تفاريقَ يقبلها جملة ! هذا وهو القائل :

كيف يبكى لَمحْبَس فى طلولٍ ... من سَيُفْضِى لِحَبْسِ يَوْمٍ طويل
إنَّ فى البَعْثِ والحسابِ لَشُغْلًا ... عن وقوفٍ برَسْمِ دارٍ محيلِ

وقال :

ذَكرتُ بها عيشاً فقلت لصاحبي : ... كأن لم يكُنْ ما كان حين يزولُ
وما حاجتى لوساعد الدهرُ بالْمُنَى ... كِعَاب عليها لؤلؤٌ وشُكُولُ
بدا لى أن الدهرَ يَقْدَحُ فى الصَّفَا ... وأنَّ بَقَائى إن حَييتُ قليلُ
فعِشْ خائفاً للموتِ أوغيرَ خائفٍ ... على كل نفسٍ للحمامِ دَليلُ
خليلك ما قَدَّمْتَ من عمل التُّقَى ... وليس لأيَّام المَنُون خَليلُ

بين بشار وعقبة بن رؤبة ابن العجاج

وكان بشَّارٌ حاضرَ الجواب ، سجَّاعا ، خطيباً ، صاحبَ منثور ومُزْدَوَج ورَجز ورسائل مختارة على كثير من الكلام ، ودخل على عُقْبَة بن مسلم بن قتيبة ، فأنشده مديحاً وعنده عقبة بن رُؤْبة ، فأنشده أرجوزة ، ثم أقبل على بشار فقال: هذا طِرازٌ لاتحسنه يا أبا معاذ ! فقال : والله لأنا أرجز منك ومن أبيك ! ثم غدا على عقبة من الغَد ، فأنشده أرجوزته :

ياطَلَل الحيّ بذات الصَّمْدِ ... باللهِ خَبِّرْ كيف كنتَ بعدى

يقول فيها :

صدَّت بخدٍّ وجلَتْ عن خَدِّ ... ثم انثَنَتْ كالنَّفَس المُرْتَدِّ
وصاحبٍ كالدُّمَّلِ المُمِدِّ ... حملتُه فى رُقْعَةٍ من جِلْدِى
حتى اغتدى غيرَ فقيد الفَقْدِ ... وما درى ما رَغْبَتى من زُهْدِى

وهذا كقول الآخر :

يودّون لو خاطُوا عليك جلودَهم ... ولا يَدْفع الموتَ النفوسُ الشحائحُ

وفيها يقول :

الحرّ يُلحَى والعصا للعَبْدِ ... وليس لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الردِّ

أسلَمْ وحُيِّيتَ أبا المِلَدِّ ... مفتاحَ باب الحَدث المُنْسَدِّ

والبس طِرَازى غيرَ مُسْتَرَدِّ ... للهِ أيامُك فى مَعَدِّ

وهى طويلة ، فأجزلَ صلته ، فلما سمع ابن رُؤبة ما فيها من الغريب قال : أنا وأبى وجدّى فتحْنَا الغريبَ للناس ، وإنى لخليق أن أسدّه عليهم ، فقال بشار : ارحمهمَ رحمك الله ! قال : تستخفّ بى ، وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر ؟ قال : إذاً أنت من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرِّجْس وطهَّرهم تطهيراً ! فضحك كلّ مَنْ حضر .

بين بشار ويزيد بن منصورالحميرى عند المهدى

ودخل على المهدى وعنده خالُه يزيد بن منصور الحميرى ، فأنشده قصيدة ، فلما أتمَّها قال له يزيد : ما صناعتك يا شيخ ؟ قال : أثقُبُ اللُّؤْلُؤَ ، فقال له المهدى : أتهزَأُ بخالِى ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، فما يكونُ جَوَابى لمن يَرَى شَيْخاً أعمى يُنْشِدُ شعراً فيسأله عن صِناعته ؟

بشار وجوارى المهدى

وقال جَوَارى المهدى للمهدى : لو أذِنْتَ لبشَّار يدخلُ إلينا يؤانسنا ويُنْشِدنا فهو محجوب البَصَرِ ، لا غيرة عليكَ منه ، وأمره فدخل إليهن واستظرَفْنَه ، وقلن له : وددنا والله يا أبا معاذ أنك أبونا حتى لا نفارقك ، قال : ونحن على دينِ كسرى[1] ! فأمر المهدى ألاّ يدخل عليهن .

وكأن المتنبى نظر إلى هذا فقال :

يا أخْتَ معتَنِقِ الفوارسِ فى الوَغَى ... لَأَخُوكِ ثَمَّ أرَقُّ مِنْكِ وأرْحَمُ

يَرْنُو إليكِ مع العَفَافِ وعِنْدَهُ ... أنَّ المجوسَ تصِيبُ فيما تَحْكُم

(١) كان كسرى مجوسياً يستبيح زواج البنات والأخوات (م) .

[كلمات مأثورة]

قال على بن عبيدة الريحانى : المودَّةُ تعاطُفُ القلوب ، وائتلافُ الأرواح ، وحَنين النفوس إلى مَثَابة السرائر ، والاسترواحُ بالمستكنَّات فى الغرائز ، ووحشة الأشخاص عند تبايُن اللقاء ، وظاهر السرور بكثرة التَّزوار ، وعلى حسب مشاكلة الجواهر يكون اتفاقُ الخصال .

وقال : العِتابُ حدائقُ المتحابِّين ، وثمارُ الأوِدّاء ، ودليل الظنّ ، وحركات الشَّوق ، وراحةُ الوَاجد ، ولسان المُشْفِق .

قال بعض الكتاب : العِتاب عَلامةُ الوَفاء ، وحاصَّة الجَفَاء ، وسلاحُ الأكْفاء .

وقال على بن عبيدة : التجنّى رسولُ القطيعة ، وداعى القِلَى ، وسبب السلوّ ، وأوّلُ التجافى ، ومنزل التهاجرِ .

وقال : الصدقُ ربيعُ القلب ، وزكاة الخُلقِ ، وثمرة المروءة ، وشُعاعُ الضمير وعن جلالة القدر عبارته ، وإلى اعتدالِ وزْن العقل يُنسَب صاحبه ، وشهادتُه قاطعةٌ فى الاختلاف ، وإليه ترجع الحكومات .

وقال : الكذبُ شِعارُ الخيانة ، وتحريفُ العلم ، وخواطرِ الزّور ، وتسويلُ أضغاث النفس ، واعوجاجُ التركيب ، واختلافُ البنية ، وعن خمول الذكر ما يكون صاحبه .

وعلى بن عبيدة كثيرُ الإغارة ، عَلَى ما كان غَيْرُه قد استَثَارَه .

فقر فى الكذب لغير واحد

بعض الفلاسفة : الكذّاب والميّتُ سواء ؛ لأن فضيلة الحىِّ النُّطق ، فإذا لم يُوثَق بكلامه فقد بطلت حياته .

الحسن بن سهل : الكذّاب لِصّ ؛ لأن اللصّ يسرقُ مالك ، والكذّاب يسرقُ عقلك ، ولا تأمن مَنْ كذب لك أنْ يَكْذِب عليك ، ومن اغتاب غيرَك عندك

فلا تَأمَنْ أن يغتابك عند غيرك .

قال إبراهيم بن العباس فى هذا النحو .

إنى متى أحقِد بحِقْدك لا أضُرُّ به سِواكا
ومتى أطعتُك فى أخيك أطعتُ فيك غداً أخاكا
حتَّى أُرَى متقسِّما يَوْمِى لذا ، وغَداً لِذَاكا
حَسْبُ الكاذب بعقله سَقَمًا و بقلبه خصما

ابن المعتز : علامةُ الكذاب جُوْده باليمين لغير مستحلف ، وقال :

وفى اليمين على ما أنت فاعلهُ ما دلّ أنك فى الميعادِ مُتَّهَمُ

وقال : اجتنِبْ مصاحبةَ الكذّاب ، فإن اضطررت إليه فلا تصدّقه ، ولا تُعلِمه أنك تكذّبه ، فينتقل عن وُدّه ، ولا ينتقل عن طبعه . يعترِى حديثَ الكذّاب من الاختلاف مالا يعترى الجَبانَ من الارتعاد عند الحرْب . لا تَصِحُّ للكذّاب رُؤْيا ؛ لأنه يُخْبِر عن نفسه فى اليقظة بما لم يَرَ، فتريه فى النوم ما لا يكون ، وأنشد :

لا يكذبُ المرء إلا مِنْ مَهَانتِهِ أو عادة السوء، أو مِنْ قِلَّةِ الأدَبِ

ولأهل العصر : فلانٌ مُنْغمِس فى عيبه ، يكذب لذيله على جَيْبه ، يقول بَهْتاً ، وزُوراً وبَحْتاً ، قد ملأ قلبه رَيْنا ، وقوله مَيْناً ؛ يدين بالكذب مَذْهباً ، و يستثير الزّور مركباً . أقاويلُ يتمشّى الزُّورُ فى مناكِبِها ، ويَبْرُزُ البهتانُ فى مذاهبها .

وقال أعرابى لابنه وسمعه يَكْذِب : يا بنى ، عجبتُ من الكذَّاب المُشِيد بكَذبه ، و إنما يدلُّ على عَيْبه ، و يتعرّضُ للعقاب من ربّه ؛ فالآثامُ له عادة ، والأخبارُ عنه متضادّة ، إن قال حقاً لم يُصَدّق ، و إن أراد خيراً لم يوفَّق ؛ فهو الجانى على نفسه بفعاله ، والدّالُّ على فضيحته بمقَالِه . فما صحَّ من صدقه نُسِب إلى غيره ، وما صحّ من كذب غَيْرِه نُسِب إليه ، فهو كما قال الشاعر :

حَسْب الكذوب من المَهَا نة بَعْضُ ما يحكى عليهِ
ما إن سمعت بكذبة من غَيْرِه نسبَتْ إليهِ

[جزاء الشكر]

بين الحسن بن سهل والمأمون

كتب الحسن بن سهل إلى المأمون ، بعد أن زُفَّت إليه بوران وتوهَّم القوادُ أن هذا التزويجَ قد أنْسَى الحسَن حالَه قبل ذلك : قد تولَّى أميرُ المؤمنين من تَعْظيم عبده فى قبول أَمَتِه شيئاً لا يتّسعُ له الشكرُ عنه إلا بمعونة أميرِ المؤمنين ، أدام الله عزَّه ، فى إخراج توقيعه بتزيين حالِى فى العامة والخاصة ، بما يراه فيه صواباً إن شاء الله .

فخرج التوقيع : الحسنُ بن سهل زمامٌ على ما جمع أُمور الخاصة ، وكنَفَ أسبابَ العامة ، وأحاط بالنفقات ، ونفذ بالولاة ، و إليه الخراجُ والبريدُ واختيارُ القُضَاة ، جزاءً بمعرفته بالحالِ التى قرَّبَتْهُ منا ، و إثابةً لشكره إيانا على ما أولينا .

[من خطب النكاح]

خطبة للمأمون

قال يحيى بن أكثم : أراد المأمون أن يزوّج ابنته من الرضا فقال : يا يحيى؛ تكلم ، فأجللْتُه أن أقولَ : أنكحت ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، أنت الحاكم الأكبر ، والإمام الأعظم ، وأنتَ أوْلى بالكلام ، فقال :

الحمدُ لله الذى تصاغرت الأمورُ بمشيئته ، ولا إلهَ إلا هو إقراراً بربوبيته ، وصلى الله على محمد عند ذكره .

أما بعد ، فإنَّ اللهَ قد جعل النكاح دِينا ، ورَضِيَه حُكْماً ، وأنزله وَحْياً ؛ ليكونَ سببَ المناسبة ؛ ألاَ و إنى قد زوّجت ابنة المأمون من علىّ بن موسى ، وأمهرتها أرْبَعَمِائَةِ درهمٍ ، اقتداءً بسنةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهاءً إلى ما دَرَج إليه السَّلفُ ، والحمدُ لله رب العالمين .

ما يستحب من الخاطب و المخطوب إليه

قال الأصمعى : كانوا يستحبّون من الخاطب إلى الرجل حُرمته الإطالَة ؛ لتدلّ على الرغبة ، ومن المخطوب إليه الإيجاز ، ليدلّ على الإجابة .

وخطب رجل من بنى أمية إلى عمر بن عبد العزيز أخته ، فأطال ؛ فقال عمر :

الحمدُ لله ذى الكبرياء ، وصلّى الله على محمد خاتم الأنبياء ؛ أما بعد فإن الرغبةَ منك دعَتْك إلينا ، والرغبة منا فيك أجابَتْ ، وقد زوّجناك على كتاب الله : إمساكٌ بمعروف ، أو تسريحٌ بإحسان .

وخطب رجل إلى قوم فأتى بمن يَخْطُب له ، فاستفتح بحمد الله وأطال، وصلّى على النبيّ عليه السلام وأطال ، ثم ذكر البَدء وخلْقَ السموات والأرض ، واقتصّ ذِكْرَ القرون حتى ضَجر مَنْ حضر ، والتفت إلى الخاطب ، فقال : ما اسْمُكَ أعزّكَ الله ؟ فقال : والله قد أُنسيت اسمى من طول خطبتك ، وهى طالقٌ إن تزوجتها بهذه الخطبة ؛ فضحك القوم ، وعَقَدُوا فى مجلس آخر .

[الكتب والأقلام والخط]

لابن المعتز — وقال ابن المعتز : الكتاب وَالِجُ الأبواب ، جرىءٌ على الحجّاب ، مُفْهِم لا يَفْهَمُ ، وناطقٌ لا يتكلم ، به يشخص المشتاقُ ، إذا أقعده الفراق ، والقلم مجهِّزٌ لجيوش الكلام ، يخدم الإرادة ، ولا يملّ الاستزادة ، ويسكتُ واقفاً ، وينْطِقُ سائراً ، على أرض بياضُها مُظْلِم ، وسوادُها مُضِىء ؛ وكأنه يقبِّل بِساط سلطان أو يفتح نُوّار بُسْتان .

وله فى القاسم بن عبيد الله — وهذا كقوله فى القاسم بن عبيد الله ، قال الصولى : لما عُرِض القاسم بن عبيد الله ليخلف أباه : قال ابن المعتز :

قلمٌ ما أراهُ أم فلكٌ يَجْـــرى بما شاء قاسمٌ ويسيرُ
خاشعٌ فى يَدَيْه يَلْثِمُ قِرْطا ساً كما قبَّل البساطَ شكورُ
ولَطيفُ المعنى جَليلٌ نَحيفٌ وكبير الأفعال وَهْوَ صغيرُ
كم منايا وكم عطايا وكم حَتْـــفٍ وعيشٍ تَضُمُّ تلك السُّطورُ
نقشت بالدُّجا نهارا فما أدْ رى أخطٌّ فيهنّ أم تَصْويرُ
هكذا مَنْ أبوه مِثْلُ عُبَيْدِ الـــلّه ينمى إلى العُلا ويَصير
عَظُمَتْ مِنَّـــةُ الإلٰهِ عليهِ فهناك الوزيرُ وهْوَ الوَزِيرُ

لبعض البلغاء

وقال بعض البلغاء : صورةُ الخطّ فى الأبصار سواد ، وفى البصائر بيَاض .

لمتنبي

وقال أبو الطيب المتنبي :

دَعانِى إليكَ العلمُ والحِلْمُ والحِجَى ... وهذا الكلامُ النَّظْمُ والنّائِلُ النثْرُ
وما قُلْتُ مِنْ شِعْرٍ تكَادُ بُيوتهُ ... إذا كُتِبَتْ يَبْيَضُّ مِنْ نورِهَا الحِبْرُ

لابن المعتز

وقال ابن المعتز فى عبيد الله بن سليمان بن وهب :

عليمٌ بأعْقَاب الأمور ، كأنهُ ... بمختلسات الظنّ يسمعُ أو يرى
إذا أخذ القرطاس خِلْتَ يمينهُ ... يُفتِّح نَوْرًا أو يُنَظِّمُ جوهرا

مفاخرة بين صاحب سيف وصاحب قلم

فاخرَ صاحبُ سيفٍ صاحبَ قلم ، فقال صاحب القلم : أنا أقتلُ بلا غرَر ، وأنت تقتلُ على خطَر . فقال صاحب السيف : القلمُ خادِمُ السيف ، إن تَمَّ مرادُه وإلا فإلى السيف مَعاده ؛ أما سمعت قول أبى تمام :

السيفُ أصْدَقُ إنباءً من الكتُبِ ... فى حَدِّه الحدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ
بِيضُ الصفائح لا سُودُ الصَّحَائفِ فى ... مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

للمتنبي

وقال أبو الطيب :

مَا زِلْتُ أُضْحِكُ إبْلِى كُلّما نظرَت ... إلى مَن اخْتَضَبَتْ أخْفَافُها بدَمِ
أسيرُها بَيْنَ أصنَامٍ أُشَاهِدُهَا ... ولا أشَاهِدُ فيها عِفّةَ الصّنَمِ
حتى رجَعْتُ وأقلامِى قوائِلُ لى ... المجد للسَّيف ليْسَ المجد لِلقلَمِ
اكْتُبْ بنَا أبداً بعدَ الكِتَابِ به ... فإنَّما نَحْنُ للأسيافِ كالخَدَمِ

للنوبختي

هذا مقلوبٌ من قول على بن العباس النوبختى ، وقد رواه أبو القاسم الزجاجى لابن الرومى ، وإنما وهم لاتّفاق الاسمين :

إن يَخْدُمِ القلمُ السيفَ الذى خضعَتْ ... له الرقابُ ودانَتْ خوفَه الأُمَمُ
فالموتُ ـ والموتُ لا شىءٌ يُغَالبه ـ ... ما زال يَتْبَعُ ما يَجْرِى به القلمُ
بذا قَضَى الله للأقلام مذْ بُرِيَتْ ... أنّ السيوفَ لها ـ مذْ أرهِفت ـ خَدَمُ

لابن الرومى

وقال ابن الرومى :

لَعَمْرُكَ ما السَّيْفُ سَيْفُ الكَمِىِّ ... بأخْوَفَ منْ قَلَمِ الكاتِبِ
لَهُ شاهِدٌ إنْ تأمَّلْتَهُ ... ظَهَرْتَ على سِرِّهِ الغَائِبِ
أداةُ المنيَّةِ فى جانبيه ... فمِنْ مِثْلِهِ رَهْبَةُ الرَّاهِبِ
سِنَانُ المنيةِ فى جَانِبٍ ... وحَدُّ المنيَّةِ فى جَانِبِ
ألم تَرَ فى صَدْرِهِ كالسِّنَانِ ... وفى الرِّدْفِ كالمُرْهَفِ القَاضِبِ

للبستى

وقال أبو الفتح البستى :

إذا أقسم الأبطالُ يوماً بسيفهم ... وعدّوه مما يُكْسِبُ المجدَ والكرمْ
كفى قَلَمُ الكتّاب مَجْدًا ورفعةً ... مدَى الدَّهرِ أنّ الله أقْسَم بالقلَمْ

وقد قيل : صريرُ الأقلام ، أشدّ من صليل الُحسام .

لطلحة بن عبيد الله

قال الصولى : أنشدنى طلحة بن عبيد الله :

وإذا أمرّ على المَهَارِقِ كَفَّهُ ... بأناملٍ يَحْمِلْنَ شَخْتا مُرْهَفا(١)
متقاصراً مُتطاولا ومفصّلا ... وموصلا ومشتّتاً ومُؤَلّفا
ترك العُدَاة رَواجفاً أحشاؤُهاَ ... وقِلاَعها قِلعاً هنالِكَ رُجَّفا
كالحيةِ الرَّقْشَاء إلا أنه ... يستنزل الأرْوَي إليه تلطفا
يرمى به قلماً يمجُّ لُعابه ... فيعود سيفاً صارمًا ومثقّفا

لمحمود الأصبهانى

وقال محمود بن أحمد الأصبهانى :

أخرسُ يُنْبيك بإطْرَاقِهِ ... عن كل ما شئتَ منَ الأمرِ
يُذرِى على قِرْطاسِهِ دَمْعَةً ... يُبْدِى بها السرَّ وما يَدْرِى
كعاشق أخْفَى هواه وقد ... نمَّت عليه عَبْرَةٌ تجْرِى
تُبْصِرُه فى كلِّ أحوالهِ ... عُرْيَانَ يَكْسُو الناسَ أو يُعْرِى
يُرَى أسيراً فى دوَاةٍ وقد ... أطلَق أقواماً من الأسْر

(١) المهارق : الصحائف البيضاء ، واحدها مهرق ـ بزنة مكرم ـ والشخت : الضامر الدقيق من غير هزال (م) .

أخـرق لو لم تَبْرِه لم يَكُنْ يَرْشُقُ أقواماً وما يَبْرِى،
كالبَحْر إذ يجرى ، وكالليل إذ يَغْشَى ، وكالصارم إذ يَفْرِى

لأحمد بن جرار

وقال أحمد بن جِرَار :

أهيفُ ممشوقٌ بتحريكه يحلّ عقدَ السِّرِّ إعلانُ
له لسانٌ مُرْهَفٌ حدُّهُ من رِيقةِ الكُرْسُف ريّانُ
تَرَى بسيطَ الفِكْرِ فى نَظْمِهِ شَخْصاً له حدٌّ وجُثْمَان
كأنما يَسْحَبُ فى إثرهِ ذَيْلاً من الحِكْمة سَحْبَانُ
لولاه ما قام مَنَارُ الهدى ولا سَمَا لِلْمُلْكِ ديوانُ

لأبى تمام

ومن أجود ما قيل فى صفة القلم قول أبى تمام لمحمد بن عبد الملك الزيات :

لكَ القَلَمُ الأعلى الذى بِشَباتِهِ تُصابُ من الأمْرِ الكُلَى والمفاصلُ
له رِيقةٌ طَلٌّ ولكنّ وَقْعَهَا بآثاره فى الشَّرْقِ والغَرْبِ وابلُ
لُعابُ الأفاعِى القاتلاتِ لُعابُهُ وأَرْىُ الجَنَى اشْتَارَتْهُ أيْدٍ عَوَاسِلُ
له الخلوات اللاء لولا نَجِيُّها لما اختلفت لِلمُلْك تِلْكَ المَحَافل

لتميم بن المعز الفاطمى

وقال الأمير تميم بن المعز :

وذى عَجب من طول صَبْرِى على الذى أُلاَقِى من الأرْزَاء وَهْوَ جليل
يقولون: ما تَشْكو؟ فقلتُ: مَتَى شَكاَ شَبَا السيفِ عَضْبُ الشفرتَيْنِ صَقيل
وإنّ امرأً يشكو إلى غير نافع ويَشْخو بما فى نفسه لجهول
عذابِىَ أنْ أشكو إلى الناس أننى عليلٌ ومَنْ أشكو إليه عليل
ويمنعنى الشكوى إلى الله علمه بجُملَة ما ألْقاه قَبلَ أقولْ
سأسكت صَبْراً واحتساباً ، فإننى أرى الصَّبْرَ سيفاً ليس فيه فُلولُ

وقال :

يا دَهْرُ ما أقساك من متلوّن فى حالتيك ، وما أقلّك مُنْصِفاَ
أتروخ للنِّكس الجهول ممهّدا وعلى اللبيب الحرِّ سيفاً مُرْهَفاَ؟

وإذا صفوتَ كَدُرْتَ ، شيمةَ باخلٍ ، وإذا وفيت نَقَضْتَ أسبابَ الوَفَا
لا أرتضيك ، وإن كَرُمتَ ؛ لأننى أدرِى بأنك لا تدومُ على الصَّفَا
زمنٌ إذا أعطى استردَّ عَطَاءَهُ وإذا استقام بَدَا له فتحرَّفَا
ما قام خيرُك يا زمانُ بشرِّهِ أوْلَى بنا ما قلَّ منك وما كَفَى

[الصدق فى النصيحة]

بين أحمد بن يوسف وغسان ابن عباد

وكان أحمدُ بنُ يوسف منصرفاً عن غسَّان بن عباد ، وجرَتْ بينهما هَنَات بحَضْرَةِ المأمون ، فقال يوماً بحضرة خاصَّة أصحابه : أخبرونى عن غسَّان بن عباد ؛ فإنى أُريده لأمرٍ جسيم ؛ وكان قد عَزم على تقليده السِّند مكانَ بِشْرِ بن داود ؛ فتكلَّمَ كلُّ فريقٍ بما عنده فى مَدْحِه ؛ فقال أحمد بن يوسف : هو يا أميرَ المؤمنين رجلٌ محاسِنُه أكثرُ من مساويه ، لا يتطرَّفُ به أمرٌ إلاَّ تقدَّم فيه ، ومهما تُخوِّف عليه فإنه لن يَأْتِىَ أمراً يَعْتذر منه ؛ لأنه قسم أيامه بين أفعال الفَضْل ؛ فجعل لكلِّ خُلُق نَوبة ، إذا نظرتَ فى أمْرِه لم تَدْر أَى حالاته أعجب ؛ أماهَدَاهُ إليه عَقْلُه أمْ ما اكتسبه بأدبه ؟

فقال له المأمون : لقد مدحته على سوء رَأْيِك فيه! قال : لأنى فى أمير المؤمنين كما قال الشاعر :

كَفَى ثمنا لِمَا أسْدَيْت أنى نصحْتُك فى الصديق وفى عِدَانى
وأنى حين تَنْدُبُنى لأمرٍ يكون هَواكَ أغْلَبَ مِنْ هَوانى

قال الصولى : وقد رُوى هذا لغير أحمد ، ولعلَّ أحمد استعاره ؛ فأعجب المأمون ذلك منه ، وشكره غسان بن عبَّاد له ، وتأكَّدت الحالُ بينهما .

من ترجمة أحمد ابن يوسف ومنزلته فى البلاغة

وكان أحمدُ بن يوسف بن القاسم بن صبيح مولى عِجْل بن لجيم عالِىَ الطبقة فى البلاغة ، ولم يكن فى زمانه أكْتَب منه ، وله شعرٌ جيد مرتفع عن أشعار الكتاب ، ووزر للمأمون بعد أحمد بن أبى خالد ، وكان أول ما ارتفع به أحمد أن

المخلوعَ محمد بن الرشيد لما قتلِ، أمر طاهرُ بنُ الحسين الكُتَّاب أن يكتبوا إلى المأمون ؛ فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أخصَر من هذا؛ فوُصِفَ له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة ، فأحضره لذلك ، فكتب : أمَّا بعد فإنْ كان المخلوعُ قَسِيمَ أمير المؤمنين في النَّسَب واللُّحْمَة ، فقد فرّق بينهما حكمُ الكتاب في الولاية والخدمة ، بمفارقته عِصمة الدينِ ، وخروجه عن الأمْرِ الجامع للمسلمين ؛ لقول الله عزّ وجل فيما اقتص [علينا] من نبأ نوح وابنه : (إنه لَيس مِنْ أَهْـلِكَ إنه عملٌ غيرُ صالح) ، ولا طاعة لأحدٍ في معصيةِ الله ، ولا قطيعةَ ما كانت القطيعةُ في ذاتِ الله ؛ وكتابي إلى أميرِ المؤمنين وقد أنجز اللهُ له ما كان ينتظرُ من سابقِ وَعْدِهِ ، والحمدُ لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلومَ حقّه ، الكائد له فيمن خَتَر عَهْدَه ، ونقضَ عَقْدَه ، حتى رَدّ به الألْفَةَ بعد فُرْقَتِها ، وجمع به الأمةَ بعد شَتَاتِها ، وأضاء بهِ أعْلام الدين بعد دُرُوسِها ؛ وقد بعثتُ إليك بالدنيا وهى رأسُ المخلوع ، وبالآخرة وهي البُرْدَةُ والقَضِيب ؛ والحمدُ لله الآخذِ لأمير المؤمنين حقَّه ، الراجع إليه تُرَاثَ آبائه الراشدين .

وكان أحمد بن أبي خالد كثيراً مايَصِفُ أحمد للمأمون ويحثّه عليه ، فأمره المأمونُ بإحضاره ، فلما وقف بين يديه قال : الحمدُ لله يا أميرَ المؤمنين الذى استخصّك فيما استحفظَكَ من دينه ، وقلّدك من خلافته ، بسوابغ نعمِه ، وفضائل قِسَمِه ، وعرّفكَ من تيسير كلِّ عسيرٍ حاولك عليه متمرّد ، حتى ذلّ لك ماجعله تكملة لما حَبَاك به من موارِدِ أمورِه بنُجْحِ مصادرها ، حمداً نامياً زائدا لاينقطعُ أولاه ، ولا يَنْقَضِي أُخْرَاه ، وأنا أسألُ الله ياأميرَ المؤمنين من إتمام بلائه لديك ، ومِنَنِه عليك ، وكفايَتِه ما ولاّك واسترعاك ، وتحصين ما حازَ لك ، والتمكين من بلادِ عدوِّك ، ما يمنعُ به بَيْضَةَ الإسلام ، ويُعِزُّ بك أهْلَه ، ويُبِيحُ بك حِمَى الشِّرْكِ ، ويجمعُ لك مُتَبَايِن الأُلْفَة ، ويُنْجِز بكَ فى أهل العِنادِ والضلالة وَعْدَهُ ؛ إنه سميع الدعاء ، فعّال لما يشاء .

فقال المأمون : أحسنتَ ، بُورِكَ عليكَ ناطقًا وساكتًا ! ثم قال بعد أنْ بلاه واختبره : يا عجبًا لأحمد بن يوسف ! كيف استطاع أن يكتُمَ نفسَه !

وكتب إلى المأمون يستجدي لزوّار على بابه : إن داعِيَ نَدَاكَ ، ومُنَادِي جَدْوَاكَ ، جَمَعا ببابك الوُفُود ، يرجون نائِلَكَ العَتِيد ، فمنهم من يَمُتُّ بحُرْمَة ، ومنهم من يُدْلِي بسالفِ خِدْمَة ، وقد أجْحَفَ بهم المُقام ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يَنْعَشهم بسَيْبِه ، ويحقّق ظنَّهم بطَوْله ، فعَلَ .

فوقّعَ المأمونُ في عرض كتابه :

الخيرُ متَّبَع ، وأموالُ الملوك مَظَانّ لطلاّب الحاجات ؛ فاكتُبْ أسماءَهم ، وبيِّن مرتبةَ كلّ واحد منهم ، ليصيرَ إليه على قَدْرِ استحقاقه ؛ ولا تُكدِّرَنّه معروفنا بالمَطْلِ والحجاب ؛ فقد قال الشاعر :

فإنّكَ لَنْ تَرَى طَرْداً لحُرٍّ كإلصاقٍ بهِ طَرَفَ الهَوَانِ
ولم تَجْلِبْ مودَّةَ ذِي وَفَاءٍ بمثلِ الوُدِّ أو بَذْلِ اللِّسَانِ

قال أحمد بن يوسف : أمرني المأمون أن أكتبَ في زيادة قناديل شهر رمضان ؛ فأعْيا عليّ ، ولم أجِدْ مثالا أحتَذِي عليه ؛ فبتّ مغموماً ، فأتاني آتٍ في النوم فقال : اكتب : فإنّ فيها إضاءة للمتهجّدين ، ونفياً لمكان الرِّيب ، وأنسًا للسابلة ، وتنزيهاً لبيوت الله من وَحْشَةِ الظُّلَم ، فأخبرت بذلك المأمون ، فاستظرفه ، وأمر أن تمضي الكُتُبُ عليه .

وأهدى إلى المأمون في يوم نوروز طبقَ جَزْع عليه ميل من ذَهب ، فيه اسمه منقوش ، وكتب إليه :

هذا يوم جَرَتْ فيه العادةُ ، بإلطاف العبيد السادة ، وقد بعثتُ إلى أمير المؤمنين طبق جزع فيه ميل .

فلما قرأ المأمون الرقعة قال : أجاءت هديةُ أحمد بن يوسف ؟ قالوا : نعم . قال : هي في داري أمْ داري فيها ؟ فلما رفع المنديل استظرف الهديّة واسترجع مُهْدِيها .

وأهـدى إلى إبراهيم بن المهدى هدية وكتب إليه : الثقةُ بك قد سهّلت السبيلَ إليك ، فأهْدَيْتُ هديةَ من لا يَحْتَشِم إلى من لا يَغْتَنِم .

وكتب إلى بنى سعيد بن سلم : لولا أنّ الله عزّ وجل ختم نبوّته بمحمد صلى الله عليـــه وسلم ، وكتبَه بالقرآن ، لنزّل فيكم نبيّ نِقْمَة ، وأنزل فيكم قرآنَ غدْر ؛ وما عَسيت أن أقولَ فى قومٍ محاسنهـم مساوى السُّفْل ، ومساويهم فَضَائحُ الأمم ، وألسنتُهم معقولة بالعِيّ ، وأيديهم معقودة بالبُخْل ، وهم كما قال الشاعر :

لا يكبرون وإن طَالَتْ حياتهُمُ ... ولا تَبِيد مَخَازِيهم وإنْ بَادُوا

وغنَّى مُغَنٍّ بحضرة أحمد بن يوسف ولم يكن مُحْسنا ، فلم يُنْصِتوا له ، وتحدَّثوا مع غِنائه ، فغضب المغنّى ؛ فقال أحمد بن يوسف : أنت عافاكَ الله تحمِّل الأسماع ثقلا ، والقلوب مَلَلاً ، والأَعْيُن قَبَاحة ، والأنف نتَانة ، ثم تقولُ : اسمعوا منى ، وأنصِتوا إلىّ ! هذا إذا كانت أفهامُنا مُقْفلة ، وآذاننا صَدِئة ، فإما رضيت بالعفْو منا ، وإلا قمت مذموماً عنا .

ألفاظ لأهل العصر فى ذم المغنين

يترنَّم فيُتْعِبُ ولا يُطرِب . إذا غـــنَّى عَنَّى ، وإذا أدَّى آذى . يميت الطَّرَب ، ويحيى الـكُرَب . ضَرْبُه يُوجِب ضَرْبَه . من عجائب غِنائه أنه يُورِد الشتاء فى الصيف . ما رؤى قطّ فى دارٍ مرتين . وحضر جحظة مجلساً فيــه علىّ بن بسام ، فتفرّق القومُ المخادّ ، فقال جحظة : فما لى لم تعطونى مخدَّة ؟ فقال على بن بسام : غنِّ فالمخادّ كلها إليــك تصير ! وفيه يقول ابن بسام :

يا مَنْ هَجَوْناه فغنَّانا ... أنت ، وبيتِ الله ، أهجانا

سِيَّان إن غنّى لنا جحظة ... أو مرّ مجنـــون فزنّانا

وكان خالد يُستَبرد ، فبعث بعضُ الظرفاء غلامــه يشترى له خمسة أرطال ثلج ، فأتاه بخالدٍ وقال : يا مولاى ، طلبت خمسة أرطال ، وهذا حِمْل !

وتغنّى بحَضْرَة محموم ، فقال : ويحك ! دَعْنا نعرق !

وقال بعض المحدثين فى قريس المغنى :

ألا فاسقنى قدحاً وافراً   يُعِينُ على البَلْغَمِ المائجِ
أكلنا قَرِيسا وغَنَّى قريس   فنحنُ على شرف الفالجِ

ولقى أبو العباس المبرد برد الخيار المغنّى فى يوم ثَلْج بالجسر ، فقال : أنت المبرّد وأنا برد الخيار ، واليوم كما ترى ، اعبُرْ بنا لا يهلكُ الناس بالفالج بسببنا

وقال ابن عباد الصاحب فى مغنٍّ يعرف بابن غذاب :

أقول قولاً بلا احتشام   يعقله كلُّ مَنْ يَعِيه
ابن عذَابٍ إذا تغنّى   فإننى منه فى أبيــه

***

[عود إلى أحمد بن يوسف]

ومن شعر أحمد بن يوسف :

ضَمِيرُ وَجْدٍ بقَلْبِ صَبٍّ   تَرْجَمَ دَمْعِى بِهِ فَشَاعَا
فصار دَمْعى لِسانَ وَجْدى   ضَيَّع سِرِّى بِهِ فَذاعَا
لولا دموعى وفَرْط حُبِّى   ما كان سِرِّى كذا مُضاعا

وقال :

وعاملٍ بالفجورِ يَأْمُر بالْـــبِرِّ كهادٍ يخوضُ فى الظُّلَمِ
أو كطبيب قد شفَّه سَقَم   وَهْو يُدَاوِى من ذلك السَّقَمِ
يا واعظَ الناسِ غيرَ متَّعظٍ   ثَوْبَكَ طَهِّرْ أوّلا فلا تَلُمِ

وقال :

إذا ما التقينا والعيونُ نواظرٌ   فألْسُنُنا حَرْبٌ وأبصارنا سَلْمٌ

وقال فى الحزن :

كثيرُ هموم القلبِ حتى كأنما ... عليه سرورُ العالَمين حرَامُ
إذا قيلَ ماأضْنَاك! أسْبَلَ دَمْعَهُ ... فأخبر ما يلقى وليس كلام

وقال :

كريمٌ له نفسٌ يَلينُ بلينِها ... يروِّعَ عَنْ سلطانِه سُنَنَ الكِبْرِ
إذا ذكَّرتْه نفسه عظَمَ قَدْرِها ... دعاه إلى تسكينها عظم القَدْرِ

ووقَّع فى كتابِ رجلٍ يحثُّه على استتمام صنائعه عنده : مستتمُّ الصنيعةِ من عدَّل زَيْغَها ، وأقام أَوَدها ، صيانةً لمعروفِه ، ونصرةً لرأيه ؛ فإن أول المعروف مستخفٌ ، وآخره مستَثْقَل ، يكاد أول الصنيعة يكون للهوى ، وآخرها للرَّأى ، ولذلك قيل : رَبُّ الصنيعة أشد من ابتدائها[1].

وكان أبو العتاهية له صديقاً[2] قبل ارتفاع حالِه ، فأحسَّ منه فى حين وزارته تغيّرا ، فكتب إليه :

أمنت إذ استغنيت من سَوْرةِ الفَقْرِ ... فصرتَ ترَى الإخوانَ بالنَّظرِ الشَّزْرِ
أبا جعفر إنَّ الشريفَ يُهينهُ ... تَتَايُهه دونَ الأخِلاء بالوَفْرِ
فإن تِهْتَ يوماً بالذى نِلْتَ من غنى ... فإن غنائى بالتجمُّل والصَّبْرِ
ألم ترَ أن الفقرَ يُرْجَى له الغنى ... وأنَّ الغِنَى يُخْشَى عليه من الفقر

وروى أبو بكر يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ قال : حجب أحمدُ بن يوسف أبا العتاهية ، ثم عاد ، فقيل : هو نائم ، فكتب إليه :

لئن عدتُ بعد اليوم إنى لظالمٌ ... سأصْرِفُ وجهى حيثُ تُبتغَى المكارِمُ
متى يظفر الغادى إليكَ بحاجةٍ ... ونِصْفُك محجوب ونِصْفُك نائمُ

---

(١) الرب : التعهد بالإصلاح .

(٢) فى المطبوعات كلها « له صديق » بالرفع ، وليس بشىء (م) .

وقال :

فى عداد الموتى وفى ساكنى الدنـــيا أبو جعفر أخى وخَليـــى
ميّتٌ مات وهو فى ورق العَيْــــشِ مقيما فى ظلّ عيش ظليلِ
لم يمت ميتةَ الوفاةِ ، ولكِنْ مات عن كلّ صالح وجميـــلِ

وخاصم أحمدُ بنُ يوسف رجلا بين يدى المأمون، وكان صَغَا المأمون إليه[1] على أحمد ، ففطن لذلك ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنه يَسْتَمْلِي من عينيك ما يَلْقَاني به ، ويستبينُ بحركته ما تُجنّه له[2] ، و بلوغُ إرادتك أحبُّ إلىّ من بلوغ أملى ، ولذةُ إجابتك أمتعُ عندى من لذّة ظفرى ؛ وقد تركتُ له ما نازعنى فيه ، وسلّمتُ له ما طالبنى به . فاستحسن ذلك المأمون .

ومن كلام أحمد بن يوسف : مجالسةُ البُغضاء تُثيرُ الهمومَ ، وتَجْلِبُ الغموم ، وتُؤلم القلبَ ، وتقدح فى النّشاط ، وتَطْوى الانبساط .

ألفاظ لأهل العصر فى صفات الثقلاء

فلان ثقيل الطّلعة ، بَغيضُ التفصيل والجُملة ، باردُ السكونِ والحركةِ ؛ قد خرج عن حدّ الاعتدال ، وذهب من ذاتِ اليمين إلى ذات الشّمال . يحكى ثقل الحديث المعاد ، ويَمْشِي فى القلوب والأكباد ، ولا أدرِى كيف لم تحمل الأمانةَ أرضٌ حَمَلَتْهُ ؟ وكيف احتاجت إلى الجبال بعد ما أقلّته ؟ كأنّ وجهه أيامُ المصائب ، ولياليِ النوائبِ ، وكأنما قُرِب به فقدُ الحبائب ، وسوء العواقب . وكأنما وصلُه عدمُ الحياة ، وموتُ الفجأة ، وكأنما هَجْره قوة المُنّة ، وريحُ الجنّة . يا عجبى من جِسْمٍ كالخيال ، وروحٍ كالجبال . كأنه ثقل الدَّيْنِ ، على وَجعِ العين . هو ثقيلُ السكون ، بغيضُ الحركةِ ، كثيرُ الشؤم ، قليلُ البركة . هو بين الجَفْنِ والعينِ قَذَاة ، و بين الأخمص والنَّعْلِ حصاة . ما هو إلا غـداةُ الفراق ، وكتابُ الطلاق ، وموتُ الحبيب ، وطلوعُ الرقيب . ما هو إلاّ أربعاء

(١) صغاه إليه : ميله (م) . (٢) تجنه لى : تكتمه وتخفيه (م) .

لاتدُورُ فى صفَر ، والكابوسُ فى وَقْتِ السَّحَر ، وأثْقَل من خَرَاجٍ بلا غلّة ، ودَوَاء بلا عِلَّة ، وأبْغَض من مثلٍ غيرِ سائر ، وأجْمَع للعيوبِ من بغلة أبى دُلامة ، وحمار طيّار ، وطيلسان ابْنِ حَرْب ، وأيرِ أبى حكيمة ، وأنشد :

مشى فدعا من ثقلِهِ الحوتُ ربَّهُ　　وقال: إلهى زِيدَتِ الأرضُ ثَانِيَه(١)

وأنشد :

تحمل منه الأرض أضعافَ ما　　يحمله الحوتُ من الأرضِ(١)

وأنشد :

مشتَمِل بالبُغْضِ لا تَنْثَنِى　　إليه لَحْظاً مُقْلَةَ الرَّامِقِ

يظلُّ فى مجلسنا قاعِداً　　أثْقَل من وَاشٍ على عَاشِقِ

وقال الحمدونى :

سألتك باللهِ إلاّ صدقْتَ　　وعِلْمِي بأنّك لا تصدقُ

أتُبْغِضُ نفسَك من ثقلها　　وإلا فأنت إذاً أحْمَق

وكتب أبو عبد الرحمن العطوى إلى بعض إخوانه :

إذا أنت لم تُرْسِلْ وجئْتَ فلم أصل　　مَلَأْت بعذْرٍ منكَ سَمْعَ لبيبِ

أتيتك مشتاقاً فلم أرَ حاجباً　　ولا صاحباً إلا بوجهِ قطوبِ

كأنى غريمٌ مُقْتَضٍ ، أو كأننى　　طلوعُ رَقيبٍ أو نهوضُ حَبيبِ

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى يستثقلُ جليساً اسمه زنباع ، فقال له رجل يوما : ما الزنبعة فى كلام العرب ؟ قال : التثاقُل ، ولذلك سُمِّى جليسُنا زنباعا .

وقد كَثَّر الناس فى الثقلاء ، وأنا أستحسن قول جحظة ، وإن كان غيره قد تقدّمه فى مثله :

---

(١) إشارة إلى الخرافة التى تزعم أن الأرض يحملها حوت !

يا لفظةَ النَّعْى بموْتِ الخليلْ يا وقفة التَّوْدِيع بين الحُمول
يا شربةَ اليارج يا أجرة الـ مَنْزِل ياوَجْهَ العَذُولِ الثقيلْ
يا طلعـةَ النَّعْش ويا منزلاً أقفر من بعد الأنيس الحُلُول
يا نهضة المحبوب عن غَضْبةٍ يا نعمةً قد آذَنَتْ بالرَّحيل
يا كتاباً جاء من مُخْلِفٍ للوعد مملوءًا بعـــذرٍ طويل
يا بُكرة الثَّكْلَى إلى حُفْرةٍ مستودعٍ فيها عزيزُ الثكول
يا وثبةَ الحافظِ مســتعْجلا بصَرْفه القَيْناتِ عندالأصيل
ويا طبيبـاً قد أتى باكراً على أخى سُقْمٍ بماء البقول
يا شوكةً فى قدمٍ رَخْصةٍ ليس إلى إخراجها من سبيل
يا عِشْرَةَ المجذوم فى رَحْله ويا صُعود السِّعْر عند المُعيل
يا رَدَّة الحاجب عن قَسْوةٍ ونَكْسَةً من بعد بُرْء العليل

* * *

من ترجمة جحظة البرمكى ومن شعره

وجَحْظَةَ هذا هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، وقال أبو الحسن على بن محمد بن مُقْلَةَ الوزيرُ: سألتُ جَحْظَةَ مَنْ لقَّبه بهذا اللقب ؟ فقال : ابنُ المعتز، لقينى يوماً ، فقال لى : ما حيوان إنْ نَكَّسُوه أتانا آلة للمراكب البحرية، فقلت : عَلَقٌ، إذا نُكِّس صارَ قِلعاً ، قال: أحسنت يا جحظة ؛ فلزمنى هذا اللقب ، وكان ناتىء العينين جدًّا ، قبيحَ الوجه، ولذلك قال ابن الرومى :

نبئت جَحْظَةَ يستعيرُ جُحوظَهُ مِنْ فِيلِ شِطْرَنج ومن سرطانِ
يا رحمتى لمُنَادِميه تحمَّـــلوا ألمَ العيونِ للذَّةِ الآذانِ

وكان طيِّبَ الغناء ، ممتدَّ النفَس ، حسنَ المسموع ؛ إلا أنه كان ثقيلَ اليدِ فى الضرب ؛ وكان حُلْوَ النادرة ، كثير الحكاية ، صالح الشِّعرِ ؛ ولا تزال تندرله الأبيات الجيدة ، وهو القائل :

جانبت أطْيَبَ لذَّتِى وشرابى وهجرت بعدك عامداً أصحابى

فإذا كتبتُ لكى أزُرْه نظرى ... فى حُسْنِ لفظك لم تجُدْ بجواب
إن كنت تنكر ذِلّتى وتذلّلى ... وتحوّلَ جسمى وامتدادَ عذابى
فانظر إلى بدَنِى الذى موّهتَهُ ... للناظرين بكثرةِ الأثواب

وقال :

وإذا جفانى صاحِبٌ ... لم أستجِزْ ما عِشْتُ قطعَهْ
وتركتُه مِثْلَ القُبُو ... رِ أزورها فى كلّ جُمْعَهْ

وقال :

ضاقت علىَّ وجوهُ الرأى فى نفَر ... يَلقَوْنَ بالجحْدِ والكُفْرانِ إحسانى
أقلّب الطرْفَ تصعيداً ومنحدراً ... فما أُقابل إنساناً بإنسانى

وقال :

لقد مات إخوانىَ الصالحون ... فمالى صديقٌ ومالى عماد
إذا أقبل الصبحُ ولّى السرور ... وإن أقبل الليل ولّى الرقاد

وقال يهجو رجلا :

لا تعذلونى إن هَجَرْتُ طعامه ... خوفاً على نفسى مِنَ المأكولِ
فمتى أكلْتُ قتلتُه من بُخْلِه ... ومتى قَتَلْتُ قُتِلت بالمقتولِ

ومن حكاياته ما حدّثنى خالدٌ الكاتبُ قال : جاءنى يوماً رسولُ إبراهيم ابن المهدى، فصرت إليه، فرأيتُ رجلا أسْوَدَ على فُرُش قدغاص فيها ، فاستجلسنى وقال : أنشدنى من شعرك ، فأنشدته :

رأتْ منه عينى منظرَيْنِ كما رأتْ ... من الشمسِ والبدرِ المنيرِ على الأرضِ
عشيّةَ حيّانى بورْدٍ كأنهُ ... خدودٌ أضيفَتْ بعضُهن إلى بعضِ
ونازعنى كأساً كأن حبابَها ... دموعىَ لمّا صدّ عن مقلتى غُمْضى
وراح وفِعْلُ الراحِ فى حرَكاتِه ... كفِعْلِ نسيم الريح بالغُصُنِ الغضّ

فزحف حتى صار فى ثلثى الفراش ، وقال : يافتى ، شبهوا الخدودَ بالوَرْدِ ، وأنت شبهت الورد بالخدود ، زِدْنى فأنشدته :

عاتبتُ نفسى فى هوا ... كَ فلم أجدها تقْبَلُ
وأطعتُ داعيَها إليـــكَ فلم أطِعْ من يَعْذُلُ
لا والذى جعل الوُجُو ... هَ لحُسْنِ وَجْهك تَمْثُلُ
لا قلتُ إن الصبرَ عنـــكَ من التَّصابى أجْمَلُ

فزحف حتى انحدر عن الفرش ثم قال لى : زدنى ، فأنشدته :

عِشْ فحُبِّيك سَرِيعاً قاتلى ... والضَّنَى إن لم تَصِلْنى وَاصِلى
ظَفِرَ الحبّ بقَلْب دَنِفٍ ... فيك والسُّقْمُ بجسمٍ ناحلِ
فهما بين اكتئابٍ وضَـــنًى ... تَركانى كالقضـــيب الذّابل
وبكى العـاذِلُ لِى من رحمةٍ ... فبكائى لبكاء العـــاذِل

فنَعَر طرباً وقال : يا يَلْبَق ؛ كم معك لنفقتنا ؟ قال : ثمانمائة وخمسون ديناراً . قال : اْقسِمْها بينى و بين خالد ، فدفع إلىّ نصفها

وأنشد جحظة أو غيره ولم يسمّ قائله :

لا يبعد الله إخواناً لنا سلفوا ... أفناهُم حَدَثَان الدّهْرِ والأبدُ
نُمِدُّهُمْ كلَّ يوم من بقيّتنا ... ولا يؤوب إلينا مِنْهُمُ أحَدُ

[السكاكين]

بين المأمون وأحمد بن يوسف

وكان أحمد بن يوسف جالساً بين يدى المأمون ، فسأل المأمونُ عن السكّين فناوله أحمد السكين ، وقد أمسك بنِصابها ، وأشار إليه بالحدّ ، فنظر إليه المأمون نظر مُنْكِرٍ ؛ فقال: لعل أميرَ المؤمنين أنكر علىّ أخْذِى النِّصاب ؛ و إشارتى إليه بالحدّ ؛ و إنما تفاءلت بذلك أن يكونَ له الحدُّ على أعدائه ، فعجب المأمون من سُرْعَةِ فطنته ، ولطيف جوابه .

وقال بعضُ الكتّاب : السكين مسنُّ الأقلام يشحذها إذا كلت ، و يصقُلها إذا نَبَتْ ، ويُطلِقُها إذا وقفت ، و يلمّها إذا شَعِثت ، وأحسَنُها ما عَرُضَ صَدْرُه ، وأرْهِفَ حدُّه ، ولم يفصل على القبضة نِصَابُه .

وقال أبو الفتح كشاجم يرثى سكيناً سرقت له :

يا قاتل اللهُ كتّابَ الدواوين	مايستحلُّونَ من أخْذِ السكاكين
لقد دهانى لطيفٌ منهمُ خَتِلٌ	فى ذات حدٍّ كحدِّ السيفِ مَسْنُونِ
فأقْفَرَتْ بعـــد عُمْرانٍ بموقعها	منها دواةُ فتًى بالكُتْبِ مَفْتُون
تبكى على مُديَةٍ أودى الزمانُ بها	كانت على جائرِ الأقلام تُعْدِينى
كانت تقدِّمُ أقلامى وتَنْحَتُها	نحتاً وتسْخِطها بَرْياً فتُرْضينى
وأضحك الطرسوالقرطاسعن حُلَلٍ	ينوب للعين من نَوْرِ البساتين
فإن قَشَرت بها سوداء من صُحُفٍ	عادت كبعض خدودِ الخُرَّدِ العين
جزْعُ النصاب لطيفات شعَائرُها	محسَّنات بأصناف التَّحاسين
هيفاء مُرْهَفَـةٌ بيضاء مُذْهَبَةٌ	قال الإلهُ لهـا سبحانه : كُونى
لـكن مِقَطّىَ أمْسى شامتاً جَذِلاً	وكان فى ذِلَّةٍ منهـا وفى هُونِ
قَصِين حتى يُضَاهِى فى صـيانته	جَاهِى لصَوْنيهِ عَمَّنْ لا يُدَانينى
ولستُ عنها بسَالٍ ماحَيِيتُ ، ولا	بواجِـــدٍ عِوَضاً منها يُسلينى
ولو يَردُّ فِدَاء ما فجِعتُ بهِ	منها فديناه بالدنيـــا و بالدين

ألفاظ لأهل العصر فى صفات السكاكين

سكّين كأنّ القدرَ سائقُها ، أو الأجل سابقها ، مُرْهَفَة الصَّدْرِ ، مُخْطَفَة الخصْر ، يجولُ عليها فِرند العِتْق ، و يموج فيها ماء الجَوْهر ؛ كأنّ المنيةَ تبرق من حدِّها ، والأجل يَلْمَع من مَتْنها ، ركِّبَتْ فى نِصَاب آبنوس ، كأنّ الحدَقَ نفِسَت

عليـه صِبْغَهَا ، وحَبّ القلوب كَسَته لباسها . أخذ لها حديدها الناصح بحظ من الروم ، وضرب لها نصابها الحالك بسهم من الزنج ، فكأنها ليلٌ من تحتِ نَهار، أو مجمر أبدَى سَنَاً نَار، ذات غِرار ماض ، وذُبَاب قاض . سكين ذات مَنْسَر بَازِىّ ، وجَوْهر هوائى، ونِصَاب زنجى، إن أرضيت أولت مَتْناً كالدِّهَان ، و إن أسْخِطَتْ اتَّقَتْ بناب الأفعوان . سكّين أحْسَنُ من التَّلاَقْ ، وأقطَع من الفِرَاق، تفعل فِعْلَ الأعْدَاء ، وتنفعُ نَفعَ الأصدقاء . هى أمْضَى من القَضَاء ، وأنفَذُ من القَدَر المُتَاح ، وأقْطَعُ من ظُبَةِ السيف الحُسَام، وألمع من البَرْقِ فى الغَمام . جمعت حُسْنَ المنظر ، وكَرَمَ المَخْبَر ، وتملَّكَتْ عِنان القلب والبصر ، ولم يُحْوِجْهَا عِتْقُ الجَوْهَر إلى إمْهاء الحجر(١)

[السَّمَرُ والمنادمة]

بين محمد بن أنس والقاسم ابن صبيح

قال محمد بن أنس للقاسم بن صبيح : مازِلنا فى سَمَرٍ نَصِلُ فصولَه بتشوّقك، فَيُذْهِب ذِكْرُك مَلَالَ السامر ، ونَعْسَةَ الساهر . فقال القاسم : مثلُك ذكر صديقه فأطراه ، واعتذر إليه فأرضاه ، ولو كنتم آذنتُمُونى كنت أحدكم ، مسروراً بما به سُرِرتم، مُفيضاً فيما فيه أفضْتُم .

شرط المنادمة

قال بعضُ الظرفاء : شَرْطُ المنادمة قِلّة الخلاف ، والمعاملةُ بالإنصاف ، والمسامحةُ فى الشراب ، والتغافل عن ردّ الجواب، و إدمان الرضا، واطّرَاح مامَضَى، و إسقاط التحيَّات ، واجتناب اقتراح الأصـوات ، وأكل ما حضر ، وإحضار ما تيسّر ، وسَتْر العَيْبِ ، وحفظ الغيب .

وقد أحسن أبو عبد الرحمن العطوى فى قوله :

حقوقُ الكاسِ والنَّدْمَان خمسٌ فأوّلُها التزيُّن بالوَقَارِ
وثانيهـــا مسامَحَةُ النَّدَامَى فـكَمْ حَمَتِ السماحةُ مِنْ ذِمار
وثالثها ، و إن كنتَ ابنَ خَيْرِ الـــبَرِيّة مَحْتِداً ، تَرْكُ الفَخَار

(١) إمهاء : مصدر «أمهى السلاح» أى أحده ، وإضافته إلى الحجر من إضافة المصدر لفاعله ، والحجر : أراد به المسن . (م)

وربيعها والندمانِ حقٌ ســوى حقّ القرابة والجوارِ
إذا حدثته فاكتمْ الحديثَ الــذى حدَّثته ثوبَ اختصارِ
فما حُثَّ النبيذُ بمثلِ حسن الــأغانى والأحاديثِ القصارِ
وخامسةٌ يدلُّ بهــا أخوها على كرم الطبيعةِ والنِّجار
حديث الأمس ننساه جميعاً فإنَّ الذَّنب فيــه للعُقَارِ
ومن حكَّمتَ كأسكَ فيه فاحكمْ له بإقالةٍ عنــدَ العِثار

وقال حسان بن ثابت :

نولِّيها الملامــةَ إنْ ألَمْنَا إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحاءُ[1]

بين اليزيدى والمامون

وشرب اليزيدى عند المأمون فلما أخذتْ منه الكأس أقبل يعتزّ عليه بتعليمه إياه، وأساء مُخاطبته؛ فلما أفاق من سُكره عُرِّف ماجرى، فلبس أكفانه، ووقف بين يدى المأمون فأنشده :

أنا المذنبُ الخطَّاء والعفوُ واســعٌ ولو لم يكن ذنبٌ لمــا عُرِفَ العفوُ
ثملْتُ فأبدَتْ منِّىَ الكاسُ بعضَ ما كرِهْتَ وما إن يستوى السُّكْرُ والصَّحْوُ
ولا سيما إن كنتُ عنــد خليفةٍ وفى مجلسٍ ما إنْ يجــوز به اللَّغْوُ
فإن تَعفُ عنى ألْفِ خَطْوِىَ واسعاً وإلا يكنْ عَفْوٌ فقــد قَصُرَ الخَطْوُ

فقال المأمون : لاتثريبَ عليك، فالنبيذُ بساطٌ يُطْوَى بما عليه .

بين كوران والشريف لرضى

وشرب كوَران المغنى عنــد الشريف الرضى، فافتقد رِداءه، وزعم أنه سُرِق . فقال له الشريف : ويحك ! مَنْ تتّهم منا ؟ أما علمتَ أنّ النبيذَ بساط يُطوَى بما عليه ؟ قال : انشروا هذا البساط حتى آخذَ ردائى واطْوُوه إلى يوم القيامة !

بين أحمد بن جدار وعمر ابن ايوب

وكان أبو جعفر أحمد بن جَدَار كاتب العباس بن أحمد بن طولون ينقل أخبارَ أبى حفص عمر بن أيوب كاتب أحمد بن طولون على الشراب إلى العباس، فصار إليه أبو حفص فقال : يا أبا جعفر ؛ إنما مجلس المُدَام مجلس حُرمة ، وداعيةُ أُنْس ،

---

(١) المغث : الشر والقتال ، واللحاء : الملاحاة ، وهوقول ما يلام عليه

ومسرح لُبانة ، ومَذَادُ هَمّ ، ومَرْتَع لهو ، ومَعْهَد سرور ، وإنما توسطته عند من لا يُتهم غَيْبُه ، ولا يُخشَى عَتْبه ، وقد اتصل بى ما تُنْهيه إلى أميرنا أبى الفضل أعز اللهُ أمره ، من أخبار مجالستى ، فلا تَفْعَل ، وأنشده :

ولقــد قلت للأخلاء يوماً   قَوْلَ سارٍ بالنُّصْح لو سمروهُ
إنما مَجْلِسُ المُدام بِساطٌ   للمودّات بينهم وَضَعُوهُ
فإذا ما انتهوا إلى ما أرادوا   من نعيم ولذةٍ رفعوه
وهُمُ أحرياء ، إنْ كان منهم   حافظٌ ، ماأتوه أن يمنعوهُ

فاعتذر ابن جدار وحلف ما فعل ، وقام من مجلسه .

وأنشد أبو حفص :

كم من أخٍ أوْ جَسْتُ منه سجيّةً   فأنِستُ بعــدَ وِدَادِهِ بفراقهِ
لم أحمَــدِ الأيام منه خليقةً   فتركتُه مستمتعاً بخَلاقهِ

عوّل أبو حفص فى أكثر كلامه على نَقْل كلام أبى العبـاس الناشىء فى الشراب ، والأبيات التى أنشد أولا له .

أبو القاسم الصاحب : قدماً حُمِلَتْ أوْزَارُ السُّكْرِ ، على ظهور الخمـر ، وطوى بساطُ الشراب ، على مافيه من خطأٍ أو صوابٍ . متابعة العُقار ، تعذِر فى خَلْعِ العِذَار ، وتُغنى عن الاعتذار . متابعة الأرطال ، تبطل سـورة الأبطال ، وتَدَعُ الشيوخ كالأطفال .

من إسحاق الموصلى إلى بعض الجلة

كتب إسـحاق بن إبراهـيم الموصلى إلى بعض الجِـلّة يستدعيـه : يَوْمُنا يومٌ لَيِّنُ الحواشى ، وَطِىءُ النواحى ؛ وسماؤنا قد أقبلت ، ورعدت بالخـير وبَرَقَتْ ، وأنت قُطْبُ السرور ، ونظام الأمور ؛ فلا تُفْرِدْنا فنقلّ ، ولا تنفرد عنا فنذلّ .

وكتب بعض أهل العصر — وهو السَّرِىُّ الموصلى — إلى أخ له يستدعيه إلى مؤانسته :

السرى الموصلى

خِلاَلُكَ، مااختلّ الصديقُ، سَحَائِبُ ... وبِشرك ، ماهبّتْ رِياحٌ، مَوَاهِبُ
وأنت شقيقُ الرُّوح تُؤْثِرُ وَصْلَهَا ... إذا رَاعَها بالهَجْرِ خِلٌّ وصاَحِبُ
ونحن خلالَ القَصْفِ وَالعَزْفِ نجتنى ... ثمارَ مَلاَهٍ كلهنّ أطَايبُ
وعندى لك الرّيحان زِينَ بِساطُهُ ... بزَهْرٍ كما زانَتْ سماءً كَوَاكِبُ
وجَيْشٌ كما انجرّتْ ذُيولُ غَلاَئِلٍ ... مُصَنْدَلة تختالُ فيها الكَوَاعِبُ
وقد أُطْلِقَتْ فيه الشمائِل ، واثنَتْ ... مُفَنّدَةً عن جانبيها الجَنَائِبُ
وحافظة ماءَ الحيَاةِ لِفتيَةٍ ... حياتهمُ أن تستلذّ المشارِبُ
نُسَرْبِلُها أخْفَى اللباس ، وإنما ... يُلَفُّ بها أفْوَاهُه والسَّبَائِبُ
على جَسَدٍ مثلِ الزَّبَرْجَدِ لم تزل ... تشاكله فى لونه وتُناسِبُ
إذا استُودعت حُرّ اللُّجَيْنِ سبائكا ... تَصَوّبَ فى أحشائها وَهْوَ ذَائِبُ
وفوق رءوس القوم غَيْمٌ معلّقٌ ... من النَّدِّ لا يَجْرِى ولا هو ذَاهِب
بوارقُهُ خَمْرُ الكئوس ورَعْدُهُ ... أناملُ بيضٌ للطبول تلاَعِب
ولاعائق يَثْنِى عِنَانَكَ عَنْ هوًى ... رَغَى جانبٌ منه وأوْمَضَ جَانبُ
فبادِرْ ؛ فإن اليوم صافٍ من القَذَى، ... ويارُبَّ يومٍ بادَرَتْهُ النوَائب

لابن المعتز

وقال ابن المعتز

لاشَىْءَ يُسْلِى همّى سِوَى قَدَحٍ ... تَدْمَى عليه أوْدَاجُ إبْرِيقِ
فى غَيْمِ نَدّ يُزْجِى سَحائبَهُ ... بَرْقُ ابتسامٍ ورَعْدُ تصفيقِ

الحسن بن محمد الكاتب

وقال الحسن بن محمد الكاتب يصف طبلا :

ياحبّذَا يومنا نَلْهُو بمُلْهِيَةٍ ... تُلْهى بشىء له رَأْسَانِ فى جَسَدِ
قد شُدّ هذا إلى هذا كأنهما ... من شِدّةِ الشدّ مقرونَانِ فى صَفَدِ[1]
نَظَلّ نلطم خَدّيهِ إذا ضربَتْ ... بكلّ طاقتها لَطْماً بلا حَرَدِ[2]
فتسمعُ الصوتَ منه حين تَضْرِبُه ... كأنه خارجٌ من ماضِغَىْ أسَدِ

(١) الصفد — بفتح الصاد والفاء جميعا — القيد والوثاق (م)
(٢) الحرد — بفتح الحاء والراء جميعا — الغضب (م)

ومن ألفاظهم فى الاستدعاء

نحن فى مَجْلِسٍ قد أبت رَاحُه أن تصفوَ لنا أو تتناولهَا يُمنَاك ، وأقسم غِنَاؤُه لاطاب أو تَعِيه أُذُنَاك ، فأمّا خدودُ نارنجه فقد احمرّتْ خجَلا لإبطائك ، وعيون نَرْجِسه قد حدّقَتْ تأْميلاً للقائك ، فبحياتى عليك إلاّ تعجّلْت ، وما تمهّلْت .

نحن بغيبتك كعِقْد تغيّبَتْ وَاسِطَتُهُ ، وشبابٍ قد أَخْلَقَتْ جِدَّتُه ؛ و إذ قد غابت شمسُ السماء عنّا ، فلا بد أن تَدْنُوَ الأرض منـا . أنت من ينتظم به شَمْل الطرَب ، و بلقائه يُبْلَغُ كلُّ أرَب . طِرْ إلينا طَيَرَانَ السَّهْمِ ، واطلُعْ علينـا طلوعَ النّجم . ثِبْ إلينا وثوبَ الغـزال ، واطلُعْ علينا طلوعَ الهِلال ، فى غُرّة شوّال . كن إلينا أسرعَ من السهم إلى ممرّه ، والمـاء إلى مقرّه . جشم إلينا قدمك ، واخلَعْ علينا كَرَمَك ، و إن رأيتَ أن تحضرنا لتتّصِل الواسِطَة بالعِقْد ، وتَحْصل نقُرْبِك فى جَنَّةِ الخُلْدِ ، وتُسْهِم لنا فى قُرْبِك الذى هو قوتُ النّفس ، ومادةُ الأُنس .

ولهم فى استدعاء الشراب

قد تألّف لى شَمْـلُ إخوانٍ كاد يفترق لعوَز المشروب ، واعتدنا فضلَك المعهـود ، ووردْنا بَحْرَكَ المورود ، وأنا ومَنْ ساعنى الدهرُ بزيارته من إخوانى وأوليائك وقوفٌ بحيث يقفُ بنا اختيارُكَ من النشاط والفتُور ، ويرتَضِيه لنـا إيثارك من الهمّ والسرور ، والأمرُ فى ذلك إليك ، والاعتمادُ فى جَمْعِ شَمْلِ المسرّةِ عليـك ؛ فإن رأيتَ أن تَـكِلَنى إلى أوْلى الظّنَّيْن بك فعلت . ألطفُ المِنَنِ مَوْقعا ، وأجَلُّها فى النفوس موضعاً ، ماعَمّرَ أوْطَانَ المسرّةِ ، وطرد عوارض الهمِّ والفِـكْرَة ، وجمع شَمْـلَ المودةِ والأُلْفَة . قد انتظمتُ فى رُفْقَةٍ لى فى سِمْط الثريا ، فإن لم تحفظ علينا النظام بإهداء المُدَام عُـدْنا كبنات نَعْش ، والسلام . فرأيك فى إرواء غلّتنا بما ينقعها ، والطَّوْل على جماعتنا بما يجمعها .

ولهم فى الكناية عن الشراب

قد نَشِطَ لتناول مايستمدّ البِشر ، ويشرح الصّدْر . قد استمطر سحابةَ الأُنس ، واستدرّ حَلُوبة السرور ، وقَدَح زَنْدَ اللهو ، فهو يَمْرِى دِماءَ العناقيد ، ويَفصد عروقَ الدّنان ، ويَنْظم عِقْدَ النّدْمان .

من الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب

كتب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اصطبح فى يوم دَجْن لم يمطر : أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس فى يومنا هذا بقُرْبِ المطر و بعده ، كأنه قول كثير :

و إنى وَتَهْيَامِى بعزّة بعد ما تَخَلَّيْتُ ممــا بيننا وتَخَلَّتِ

لكالمرتجِى ظِلَّ الغمامةِ ، كلما تبوَّأ منها للمَقيلِ اضمحلّتِ

وما أصبحَتْ أُمنيتى إلاَّ فى لِقائك ، فليت حِجابَ النَّأى هُتِك بينى و بينك! رُقْعَتِى هــذه وقد دارت زجاجاتٌ أوقعَتْ بعقلى ولم تَتَحَيَّفه ، و بعثَت نشاطا حرّكنى للكتاب ؛ فرأيك فى إمطارى سروراً بسارّ خَبَرِك ؛ إذ حُرِمْت السرور بمَطَر هذا اليوم ، موفقا إن شاء الله .

من الحسن بن وهب إلى الحسن بن سهل.

وكتب الحسنُ بن وهب : وصــل كتابُ الامير أيّده الله وفِىِ طَاعِم و ويدى عَامِلة ؛ ولذلك تأخر الجوابُ قليلا ، وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم وإساءته ، وما استوجب ذنبا استحق به دماً ؛ لأنه إذا أشمس حكى حُسْنَكَ وضياءك ، و إن أمطر حكى جودَك وسخاءك ، و إن غام أشبه ظِلَّك وفِناءَك ، وسؤالُ الامير عنى نعمةٌ من نعم الله عزّ وجل أُعَفِّى بها آثارَ الزمان السيىء عندى؛ وأنا كما يُحِبُّ الأمير صرف اللهُ الحوادثَ عنه ، وعَنْ حَظِّى منه .

وذمّ رجــلٌ رجلا فقال : دعواته وَلائم ، وأقْدَاحُه مَحَاجِم ، وكئوسُه مَحَابر ، ونوادره بوادر .

لكشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم : كان عندى بعض المُجّانِ من النبيذيّينَ ، فسمعنى

وأنا أحمدُ اللهَ جلَّ ذِكْرُه فى وسط الطعامِ لشىء خطر ببالى من نِعَم الله التى لا تُحْصَى، فنهض وقال : أُعْطِى اللهَ عهداً إن عاودْتُ ! ومامعنى التحميد هنا ؟ كأنك تُعلِمُنا أنا قد شبعنا . ثم مال إلى الدواة والقرطاس، وكتب ارتجالا :

وَحَمْدُ الله يَحْسُنُ كلَّ وقتٍ ... ولَكِنْ ليس فى أولَى الطعامِ
لأنك تُحْشِمُ الأضيافَ فيهِ ... وتأمرُهم بإسراع القِيَامِ
وتُؤْذِنهم ، وما شَبِعُوا ، بشَبْعٍ ... وذلك ليس من خُلُقِ الكِرَامِ

وكتب المَرِيمى إلى بعض إخوانه وقد ترك النبيذ :

إنْ كُنْتَ تُبْتَ عن الصَّهْباء تَشْرَبُها ... نُسْكاً فما تُبْتَ عَنْ بِرٍّ وإحسانِ
تُبْ راشداً ، واسقِنا منها، وإنعَذَلوا ... فيما فعلت فقلْ ماتاب إخوانى

وقال بعض النبيذِيِّينَ ، وقد ترك الشرب :

تحامَوْنِى لتَرْكِى شُرْبَ رَاحٍ ... أقَمْتُ مكانها الماء القَرَاحَا
وما انفرَدُوا بها دُونِى لِفَضْلٍ ... إذَا ما كُنْتُ أكثَرَهُمْ مِرَاحَا
وأرفعَهُمْ على وتر وصَنْجٍ ... وأظرفَهُمْ وأظرَفهم مُزَاحَا
إذا شقُّوا الجيوبَ شَقَقْت جَيْبِى ... وإنْ صَاحُوا عَلَوْتُهُمُ صِيَاحَا

فِقر للنبيذيين

ما جُمِشَتْ الدنيا بأظْرَفَ من النبيذ ، ما للعُقَارِ والوَقَارِ . إنما العيشُ مع الطَّيْش ، الراح ترياق سمِّ الهَمِّ . النبيذ ستر فانظرْ مع مَنْ تهتكه . اشرب النبيذ مااستبشعته ، فإذا استطَبْتَه فدَعْه . لولا أنَّ المخمورَ يعلم قصَّتهلقدّم وصيَّته . الصاحِى بين السكارى كالحىِّ بين الموتى : يضحك من عَقْلِهم ، ويَأْكلُ من نَقْلهم . أحمق ما يكونُ السَّكْرَان إذا تعاقل . التبذل على النبيذ ظَرْف ، والوقار عليه سُخْف ، حدّ السَّكْران أن تَعْزُبَ الهموم ، ويظهر السرّ المكتوم .

وقال الحسن بن وهب لرجل رآه يعبس عندالشراب : ماأ نصفتها ، تضحك في وجهك ، وتعبس في وجهها .

وقال الطائي :

إذا ذاقها ، وَهْيَ الحياةُ ، رأيتَهُ　　يُعَبِّسُ تعبيسَ المقدَّمِ لِلقتْلِ

وقد أحسن الشيخ صدر الدين حيث قال :

وأن أقطِّب وَجْهي حينَ تَبْسِمُ لي　　فعند بَسْطِ المَوالي يحفظ الأدبُ

وترك رجلٌ النبيذَ ، فقيل له: لم تركتَه ، وهو رسولُ السرورِ إلى القلب ؟ قال : ولكنه رسولُ بأسٍ يُبْعَثُ إلى الجَوْفِ فيذهب إلى الرأس .

وقيل لبعضهم: ماأصبَك بالخمر ! فقال: إنها تُسْرج في يدِي بنورها، وفي قلبي بسرورها كأنَّ الناشيء نظر إلى هذا الكلام فقال :

راحٌ إذا علَت الأكفَّ كئوسُها　　فكأنها من دونهــا في الرَّاح[(١)]

وكأنما الكاسَاتُ مما حولها　　من نورها يَسْبَحْنَ في ضَحْضَاح[(٢)]

لو بُثَّ في غَسَق الظلام ضياؤُها　　طلع المساء بغُرَّةِ الإصباح

نفضَتْ على الأجسام ناصعَ لَوْنِهَا　　وسَرَتْ بلذَّتها إلى الأرواح

البيت الأول كقول البحتري :

يُخْفي الزجاجةَ ضوءُها ، فكأنها　　في الكفِّ قائمةٌ بغيرِ إناء[(٣)]

وللناشيء في هذا المعنى :

ومُدامةٍ يَخفَى النهارُ لنورِها　　وتَذِلُّ أكنافُ الدُّجا لضيائها

صُبَّت وأَحْدَقَ نورُها بزُجاجِها　　فكأنها جُعِلتْ إناءَ إنائها

وترَى إذا صُبَّت بدَتْ في كأسها　　متقاصرَ الأرْجاء عن أرْجَائها

وتكادُ إنْ مُزِجَتْ لرقَّةِ لونِها　　تمتازُ عند مزاجِهَا من مَائها

صفراءُ تُضْحِي الشمسُ،إن قِيسَتْ بها　　في ضوئها ، كاللَّيلِ ، في أضوائها

---

(١) الراح ، هنا : الكف (م) . (٢) الضحضاح : الماء القليل (م) .

(٣) الذي في الديوان « يخفي الزجاجة لونها » (م) .

وإذا تصفحْتَ الهــــواءَ رأيتهُ ... كَدِرَ الأديمة عند حُسْنِ صفائها
تَزْدَادُ مِنْ كَرِمِ الطباعِ بقَدْرِ ما ... نُودِيَ بهِ الأيامُ مِنْ أجزائها
لا شيء أعْجَبُ من تَوَلُّدِ بُرْئها ... من سُقْمِها ، ودَوَائها مِنْ دائها

وقال :

إنْ رُمْتَ وصْفَ الراحِ فأْتِ بما ... فيها من الأوْصَاف من قُرْبِ
هي ماءُ ياقوتٍ ، وإن مُزِجَتْ ... في كأْسِها بالباردِ العَــذْبِ
فكأنها وحَبَابُها ذَهَبٌ ... كلّلْتَه باللُّؤْلؤ الرَّطْبِ

ولأهل العصر : الدنيا معشوقةٌ رِيقُها الراح . أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومى فى صاعد بن مخلد :

فتًى هاجرَ الدنيا وحرَّم رِيقَها ... وهل رِيقُهَا إلّا الرحيقُ المورَّدُ
ولو طَمِعَتْ فى عَطْفِهِ ووِصالِهِ ... أباحَتْه منها مَرْشَفاً لايُصَرَّدُ

الخمرُ أشبهُ شيء بالدنيا ؛ لاجتماع اللذاتِ والمرارة فيها . الخمرمصباحُ السرور، ولـكنها مفتاح الشرور . لـكل شيء سرٌّ ، وسرُّ الراح السرور . لايطيبُ المُدَام الصافى ، إلاّ مع النديم المُصَافِي .

ومن ألفاظهم فى صفات مجالس الأنس وآلات اللهو وذكر الخمر

مَجْلِسٌ رَاحُه ياقوت، ونَوْره وَرد ، ونَارَنْجُه ذَهَبٌ، ونرجسه دينار ودرهم ، يحملهما زَبَرْجَد . عندنا أُتْرُج كأنه من خَلْقِك خُلِق ، ومن شَمَائِلِك[1] سُرِق ، ونَارَنج كـكُرَاتٍ من سَفَن ذُهِّبت[2] ، أو ثدى أبكار خُلِّقت. مجلسٌ أخَذَتْ فيه الأوتارُ تتجاوب ، والأقداح تتناوب . أعْلامُ الأُنْسِ خافقةٌ ، وأَلْسُن اللاهى

---

(١) الشمائل : السجايا والطباع ، واحدها شمال (م) .

(٢) سفن : جلد سمك خشن يسفن به الخشب حتى تذهب عنه آثار المبراة ، شبه ما يسمى اليوم « سنفرة » (م) .

ناطقة . ونحن بين بدور ، وكاساتٍ تدُور ، وبروقِ رَاح ، وشموس أقْدَاح . قد نشأت غُمامة النَّدِّ ، على بساط الوَرْدِ . مجلسٌ قد تفتَّحتْ فيه عيونُ النرْجِس ، وفاحت مَجامِر الأُتْرُجّ ، وفتقت فَارَات النَّارَنْج ، ونطقت ألسُنُ العِيدان ، وقامت خطباء الأوتار ، وهبَّت رياحُ الأقداح ، وطلَعتْ كواكبُ النَّدْمَان ، وامتدَّتْ سماء النَّدّ . مجلسٌ مَنْ رآه حسب الجِنانَ قداصْطَفَّتْ عيونَهَا ، فجلت فى قدر من الأرض ، وتخيّرت فصوصها ، فنُقِلَتْ إلى مجلس الأُنْس واللَّهْوِ . قد فضّ اللَّهْوُ ختامه ، ونشر الأُنْس أعلامه . قد هَبَّت للأُنْس ريحٌ بَرْقُها الراح ، وسحابها الأقداح ، ورعودها الأوتار ، ورياضها الأقمار . قد فرغنا للهو والدهرُ عنا فى شغل .

جُلٌّ هذا من قولٍ بعض أهل العصر :

كم جوًى مثله رَسْمٌ مَثَل ... ودَمٍ قد طُلَّ أثنـاء طَلَلْ

وَلآلٍ كلّـلِ الخـدّ بها ... لعب البين بربّاتِ الكِلَلْ

حبذا عيشُ الليالى باللِّوى ... لو تجافَى الدّهْرُ عنَّا وغَفَلْ

إذ فرَغنا فيـه للَّهو وقد ... باتَتِ الأقْدَارُ عنَّا فى شُغُلْ

وأدَرْنَا ذهباً فى لَهَبٍ ... كلما أُخْمِدَ بالمـاء اشتَعَلْ

قد اقتَعدْنا غاربَ الأُنْسِ ، وجرينا فى مَيْدَانِ اللهو . عمدنا إلى أقْدَاحِ اللهو فأجَلْنَاها ، ولمراكبِ السرور فامتطَيْنَاهَا . قد امتطينا غـوارِبَ السرور بالأقداح . مُـدَامة تُورِدريحَ الوَرْدِ ، وتحْـكِى نَارَ إبراهيم فى اللَّون والبَرْدِ ، ولستُ أدرى أشقيق أم عقيق ، أم رحيـق أم حريق . راحٌ كأنّ الدُّيوكَ صبّتْ أحداقَها فيها . راح كأنما اشتقّت من الرَّوْح والراحة .

قال ابن الرومى :

والله ما نَدْرِى لِأيَّةِ عِلَّةٍ ... يَدْعُونَهَا فى الرَّاح بِاسْم الرَّاحِ

أَلِرِيحِهَا أمْ روحها تحتَ الحَشَى ... أمْ لِارْتِيَاحِ نَدِيمِها المُرْتَاحِ

راحٌ كالنار والنُّور والنَّوْرِ ، أصْفَى من البَلُّور ، ومن دَمْعِ المهجور . روح نور لها من الكأس جسم ، كأنها شمسٌ فى غِلالة سَرابٍ . شراب أكادُ أقولُ : هو أصْفَى من مودّتى لك ، ومِنْ نعم اللهِ عندى فيك ، وأطْيَبُ من إسعافِ الزمان بلقائك . مُدامة قد سبك الدهرُ تِبْرَها فصَفَا . كأسٌ كأنها نورٌ ضميرهُ نارٌ . راح كياقوتة فى دُرَّةٍ ، أصْفَى من ماء السماء ، ودَمْعِ العاشقة المَرْهاء[1] ، أحسن من الدنيا المُقْبِلة ، والنعم المكملة . أحْسن من العافية فى البدَن ، وأطْيَب من الحياة فى السرور . أرقّ من نسيمِ الصَّبا ، وعَهْدِ الصِّبا . أرقّ من دَمْع محبّ ، وشَكْوَى صَبّ . أرقّ من دموع العشّاق ، مَرّتْها لَوْعَةُ الفراق . مُزِجَ نَارُ الرَّاح بنُورِ الماء . راحٌ كأنها معصورة من وَجْنَةِ الشمس ، فى كأسٍ كأنها مخروطة من فِلْقَة البَدْرِ . كأسها مِلْء اليدِ ، وريحها ملء البَلَد ، تصبُّ على الليل ثَوْبَ النهار ، كأنها فى الكأس معنى دقيق فى ذِهْنٍ لطيف . كأنّ الراح من خَدّه معصورة ، وملاحَةُ الصورةِ عليها مقصورةٌ . وهذا من قول الطائى * كأنها من خَدِّهِ تُعْصَرُ * وقال عبد السلام بن رَغْبان الملقب بديك الجن الشاعر المشهور :

معتّقة مِنْ كفّ ظَبْيٍ كأنما ... تَناوَلها من خَدّه فأدَارَها

تمشَّت الصَّهباء فى عِظامهم ، وتَرَقَّت إلى هَامِهِمْ ، وماسَتْ فى أعْطافِهم ، ومالَتْ بأطْرَافهم . سارَتْ فيهم الكئوس ، ونالَتْ منهم سَوْرَةُ الخَنْدَريس[2] . شربت عقولَهم ، وملكت قلوبَهم .

وقال أبو نُوَاس ، وهو أستاذ الناس فى هذا الشأن :

صِفَةُ الطولِ بَلاَغَةُ القَدْمِ ... فاجعل صفاتك لابْنَةِ الكَرْمِ

تصفُ الطلولَ على السماع بها ... أفَذُو العِيان كثابتِ العِلْمِ

---

(١) مرهاء : بيضاء . (٢) الخندريس ، والصهباء : من أسماء الخمر .

وإذا وصفت الشىء متبعا ... لم تَخْلُ من غَلَطٍ ومن وَهْمِ

وقال :

الكأس أهواها وإن رَزَأَت ... بُلَغَ المعاشِ وقلَّلَتْ فَضْلى[1]

صفراء مجّدها مَرَازِبُها ... جلّت عن النظراء والمثلِ

ذخِرتْ لآدَمَ قبل خلقتهِ ... فتقدمته بخطوة القبلِ

فاعذر أخاك فإنه رجلٌ ... مَرَنَتْ مَسامِعُه على العَذْلِ

وقال :

فتسلَّيْتُ بشُرْبِ عُقَارٍ ... نشأَتْ فى حِجْرِ أُمِّ الزمان

فتناساها الجديدان حتى ... هى أنصاف شطور الدِّنان

وافترعْنَا مُرة الطعْم بهـا ... نَزَقُ البكر ولين العوَانِ

واحتسينا من رحيق عتيق ... وشديد كاملٍ فى ليانْ

لم يُجفِهَا مِبْزَلُ القوم حتى ... نجمَتْ مثلَ نجومِ السنان

أو كعِرْقِ السام تنشقّ منه ... شُعَبٌ مثل انفِراج البنان

وقال :

وخَدِين لذّاتٍ معلّل صاحب ... يَقْتَاتُ منه فكاهةً ومُزَاحا

قال: أُبغِنى المصباحَ، قلتُ له : اتَّئِدْ ... حسبى وحسبُك ضَوْءها مصباحا

فسكبت منها فى الزجاجة شربةً ... كانت له حتى الصباح صَبَاحَا

وهذا كقوله :

وخَمَّار أنَخْتُ عليه ليلا ... قلائصَ قد تَعِبْنَ من السِّفار[2]

فترجم والكَرَى فى مُقْلَتيهِ ... كمخمورٍ شكا ألمَ الخُمَارِ

أبِنْ لى كيف صرت إلى حريمى ... وجَفْنُ الليلِ مكتحلٌ بقارِ

---

(١) بلغ المعاش : مواد الرزق، واحدتها بلغة ، بالضم (م) .

(٢) القلائص : جمع قلوص ، وهى الناقة الفتية ، يريد ألقى عنده عصا السفر ، وفى الديوان « حططت عليه » وفيه « قدونين » (م) .

فقلت له : تَرَفّقْ بى ؛ فإنى رأيتُ الصبحَ من خَلَلِ الديارِ
فكان جوابُه أنْ قال : كلاّ وما صبحٌ سوى ضوء العُقَارِ
وقام إلى الدّنانِ فسدَّ فَاها فعاد الليلُ مسدولَ الإزارِ

وقال بعض المحدَثين :

ما زال يَشْربُها وتَشْربُ عَقْلهُ خبلا ، وتُؤْذِنُ رُوحه برَوَاحِ
حتى انْثَنَى متوسِّداً بيمينهِ سَكَراً ، وأَسْلَمَ رُوحَه للرَّاحِ

وقال الصنوبرى وذكر شَرْبا(١) :

نازعتهم كأسا تخالُ نَسِيمَها مِسْكاً تضوّعَ فى الإناء عَتِيقَا
شقّتْ قِناعَ الفَجْرِ لما غادَرَتْ كفُّ النديم قناعَها مَشْقُوقَا
صبغت سوادَ دُجاهُ حمرةُ لونِها فكأنه سَبَجٌ أُعِيد عقيقا

وقال أبو الشِّيصِ :

وكأس كَساَ الساقِى لنا بعد هَجْعةٍ حَواشِيها ما مجٌّ من ريقة العِنَبْ
كأنَّ اطِّرادَ الماء فى جَنَباتِها تربُّع ماء الدرّ فى سُبُك الذّهَبْ
سقانِى بها ، واللَّيلُ قد شابَ رأْسُهُ، غزالٌ بحنَّاءِ الزجاجةِ مختَضِبْ

وقال أبو عدى الكاتب :

ليس لها حدٌّ تُحيطُ بوَصفِهِ لغاتٌ ، ولا جِسمٌ يباشرهَ لَمْسُ
ولكنه كالبرقِ أَوْمَضَ ماضياً فلم يَبْقَ منه غيرُ ما تَذْكُرُ النَّفْسُ

وقال ابن المعتز :

ألا فاسقِنِيهاَ قدمَشَى الصبحفى الدُّجَى عُقَاراً كمثل النارِ حمراءَ قَرْقَفا
فناولنى كأساً أضاءت بنَانَهُ تَدَفَّقُ ياقوتاً ودُرًّا مُجَوَّفا
ولما أريناها المزاج تسعَّرت وخِلْت سنَاهَا بارقا قد تكشّفا

---

(١) الشرب ــ بالفتح ــ هم القوم يشربون .

يطوف بها ظَبْىٌ من الإنس شادِنٌ   يقلّب طرْفاً فاسقَ اللّحْظِ مُدْنَفا
عليم بأسرار المحبين حاذقٌ   بتسليم عينيهِ إذا ما تخوّفا
فظل يناجيني يُقلّب طرْفَهُ   بأطيب من نجْوَى الأماني وألطفا

وقال :

ألا عُجْ على دار السرورِ فسلّمِ   وقل : أينَ لذّاتي وأينَ تكلمي؟
وقل : ماحَلَتْ بالعين بعدكِ لذةٌ   سواكِ ، وإنْ لم تعلمي ذاك فاعلمي
وصفراء من صبغ المِزَاج برأسها ،   إذا مُزِجت ، إكليلُ دُرٍّ منظم
قطعتُ بها عُمْرَ الدُّجى وشربتُها   ظلاميّةَ الأحشاء نورية الدَّم

[من رسائل بديع الزمان الهمذانى]

تعزية إلى أبي عدنان محمد الضبي

كتب أبو الفضل بديع الزمان إلى أبي عدنان بن محمد الضبي[1] يعزّيه عن بعض أقاربه :

إذا ما الدهرُ جرَّ على أُناسٍ   حوادِثَه أناخَ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا   سيَلْقى الشامتون كما لقينا

أحْسَنُ ما فى الدهرِ عمومُه بالنوائب ، وخصوصه بالرغائب ، فهو يَدْعو الجفَلَى[2] إذاساء ، ويخصُّ بالنعمة إذاشاء ، فليفكّر الشامت ؛ فإن كان أفلت ، فله أنْ يَشْمت ، ولينظرِ الإنسانُ فى الدهروصُروفهِ ، والموتِ وصنوفهِ ، من فاتحةِ أمْرِه ، إلى خاتمة عُمْرِه ؛ هل يجدُ لنفسه ، أثراً فى نَفَسِه ؟ أم لتدبيره ، عَوْناً على تصويره ، أم لعمله ، تقديما لأمله ، أم لحِيَله ، تأخيرا لأَجَلِه ؟ كلا ، بل هو العَبْدُ لم يكن شيئاً مذكوراً ؛ خُلق مَقْهوراً ، ورُزِق مقدوراً ، فهو يَحْيَا جَبْراً ، ويهلك صَبْرا ، وليتأمّلِ المرء كيف كان قَبْلا ؛ فإن كان العَدَمُ أصلا ، والوجودُ فضلا ، فليعلم

(١) الذى فى الرسائل (ص ٢١٢ بيروت) « إلى أبي عامر عدنان بن عامر الضبي » وفى العبارات قليل من الاختلاف عما هنا (م) .

(٢) الجفلى ـ بفتح الجيم والفاء واللام ـ الدعوة العامة التى لا يخص بها واحد دون آخر ، والدعوة الخاصة يقال لها « النقرى » بفتحات أيضا (م) .

الموتَ عَدْلا ؛ فالعاقل من رَقَّع من جوانب الدهر ماساءه بما سرّ، ليذهب ما نَفَع بما ضرّ ؛ فإن أحبّ ألاّ يحزن فلينظر يَمنة ، هَلْ يرى إلا مِحْنَة ، ثم ليعطف يَسْرَة ، هل يرى إلاّ حَسْرَة ؟ ومثلُ الشيخ الرئيس — أطال الله بقاءه ! — من فَطِنَ لهذه الأسرار ، وعَرف هذه الديار ، فأعدّ لنعيمها صَدْراً لا يملؤه فرحا ، ولبؤسها قلباً لا يطيره تَرَحا ؛ وصحب البريَّة برأى من يعلم أنّ للمتعة حدًّا ، وللعارِيَّة رَدًّا ، ولقد نُعِى إلىّ أبو قبيصة قدّس الله رُوحه ، وبرّد ضريحه ، فعرُضت علىّ آمالى قُعودا ، وأمانىّ سوداً ، وبكيت ، والسخىُّ جودُه بما يملك، وضحكت ، وشرُّ الشدائد ما يُضْحِك ، وعضضت الأصبع حتى أدْمَيْتُه ، وذممت الموتَ حتى تمنَّيته ؛ والموتُ أطال الله بقاء الشيخ الرئيس خَطْبٌ قد عظُم حتى هان، وأمرقد خشن حتى لاَنَ ، ونُكْرٌ قد عَمَّ حتى عادَ عُرْفاَ ؛ والدنيا قد تنكّرت حتى صار الموت أخفّ خطوبها ، وقد خبثت حتى صار أقلّ عيوبها ، ولعل هذا السهم قد صاب آخر ما فى كِنَانتها ، وأنكأ ما فى خزانتها ، ونحنُ معاشِرَ التّبَع نتعلمُ الأدبَ من أخلاقه ، والجميلَ من أفعاله ، فلا نحثّه على الجميل وهو الصبر ، ولا نرغّبه فى الجزيل وهو الأجر ؛ فَلْيَرَ فيهما رأيه إن شاء الله .

كتابٌ منه لبعض إخوانه

وله إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب كتبه يهنّيه بمرض أبى بكر الخوارزمى وكانت بينهما مُقَارَعة ، ومنازعة ، ومنافَرة ، ومهاتَرة ؛ ولهما مجالس مستظرفة قهره البديعُ فيها وبَهره ، وبكّته حتى أسْكَتَه ، ليس هذا موضعها ، لكنى أذْكر بعد هذه الرسالة بعضَ مكاتبات جرَتْ بينهما ؛ إذ كان ما لهما من الابتداء والجواب آخذاً بوَصلِ الحكمة وفَصْلِ الخطاب :

الحرُّ أطال الله بقاءك — لا سيما إذا عرف الدهرَ معرفتى ، ووصفَ أحوالَه صفتى — إذا نظر علم أنّ نِعمَ الدَّهْرِ ما دامت معدومة فهى أمانىّ ، وإن وُجدت فهى عَوَارى، وأنّ مِحَنَ الأيام وإن طالت فستنفد ، وإن لم تُصب فكأنّ قَدْ، فكيف يشمت بالمِحْنَة مَنْ لا يأمنها فى نَفْسِه ، ولا يعدَمُها فى جِنْسِه ، والشامت

إن أفلَتَ فليس يَفوت ، وإن لم يَمُتْ فسيموت ؛ وما أقبَح الشماتة ، بمن أمِن الإماتة ، فكيف بمَنْ يتوقَّعُها بعد كل لحظة ، وعَقِبَ كلّ لفظة ، والدّهْرُ غَرْثَانَ طَعْمُه الخِيَار[1] ، وظمآن شِرْبُه الأحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكِلِه ، أم يُسَرُّ العاقل بسلاح قاتله ؟ وهذا الفاضل شفاه الله وإن ظاهرناه بالعداوة قليلا ، فقد باطنّاه وُدًّا جميلا ، والحرُّ عند الحَمِيَّةِ لا يصطادُ ، ولكنه عند الكرم يَنْقَادُ ، وعند الشدائد تَذْهَبُ الأحقاد . فلا تتصور حالتى إلا بصورتها من التوجُّع لعلَّتِه ، والتحزُّن لمرضته ، وقاهُ اللهُ المكروه ، ووقانى سماعَ المحذور فيه ، بمَنِّه وحَوْله ، ولُطْفِه وطَوْله .

قال البديع فى سياقة أخباره مع أبى بكر الخوارزمى :

أولها أنا وطئنا خُرَاسانَ ، فما اختَرْنَا إلاّ نيسابور داراً ، وإلاّ جوار السادة جوَارا ، لا جرم أنا حطَطَنَا بها الرَّحْلَ ، ومدَدْنَا عليها الطُّنُبَ ، وقديما كنا نسْمَعُ بحديث هذا الفاضل فنتشوّقه ، ونخبره على الغَيْبِ فنتعشّقه ، ونقدّر أنا إذا وطئنا أرْضَه ، ووردْنا بلدَه ، يخرج لنا فى العِشرة عن القِشْرَة ، وفى المودّة عن الجلدة ، فقد كانت كلمةُ الغُرْبَةِ جمعتنا ، ولُحْمَةُ الأدب نظمَتْنَا ، وقد قال شاعر القوم غير مدافع[2] :

أجارَتَنَا إنّا غريبان هاهُنا وكلٌّ غريبٍ للغَريبِ نَسِيبُ

فأخلف ذلك الظنّ كلّ الإخلاف ، واختلف ذلك التقدير كلّ الاختلاف ، وكان قد اتفق علينا فى الطريق من العرب اتفاق ، لم يوجبه استحقاق ، من بزّة بَزوها ، وفِضّة فضوها ، وذهب ذَهَبُوا به ، ووردنا نيسابور براحَةٍ ، أنْقَى من

---

(١) غرثان : جوعان ، والطعم : المطعوم (م) .

(٢) هو امرؤ القيس بن حجر الكندى (م) .

الراحة ، وَكيسٍ أخْلى من جَوْفِ حمار[1] ، وزى أوْحَشَ من طَلْعة المعلمِّ ، بل اطلاعة الرقيب ، فما حَلَلْنَا إلا قصبة جواره ، ولا وَطِئْنَا إلا عتَبة دَارِه ؛ وهذا بعد رُقْعَةٍ قدَّمْنَاها ، وأحوالِ أُنْسٍ نظمناها ـ

ونسخة الرقعة : أنا بقُرْبِ الأستاذ أطال اللهُ بقاه كما طَرِب النَّشْوَان مالَتْ به الخمرُ ، ومن الارتياح للقائه كما انتفض العُصفور بلَّلَه القَطْرُ ، ومن الامتزاج بولائه كما التقَت الصَّهباء والبارد العَذْبُ ،ومن الابتهاج لمَزَاره كما اهتز تحت البارِح الغُصُنُ الرَّطْبُ ، فكيف نَشَاطُ الأستاذ سيدى لصديقٍ طرأ إليه ممَّا بين قَصَبتي العراق وخُرَاسان ، بل عتبتي نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيفٍ :

رثّ الشمائل مُخْلَقِ الأثوابِ ... بَكَرَتْ عليه مُغيرَةُ الأعرابِ

وهو ـ أيَّدَه الله ! ـ وليُّ إنعامه ، بإنفاذ غُلاَمه ، إلى مستقَرّى ، لأُفْضِى إليه بما عندى ـ إن شاء الله ـ

فلما أخذتنا عَيْنُه سقانا الدُّرْدِيّ من أوَّلِ دَنّه ، وأجْنَانا سوءَ العِشرة من باكورة فنّه ، من طَرْفٍ نَظَر بشَطْرِه ، وقيامٍ دَفَع فى صَدْرِه ، وصديقٍ استهان بقَدْرِه ، وضيف استخفّ بأمره ؛ لكنا أقطعناه جانب أخلاقه ، وولَّيناه خُطَّة نفاقه ؛ فواصلناه إذ جانَبَ ، وقارَبْنَاه إذ جاذب ، وشَرِبنَاه على كُدُورته ، ولَبسناه على خُشُونته ، ورَدَدْنا الأمر فى ذلك إلى زِىّ استغثّه ، ولباس استرثّه ، وكاتبناه نستمِدُّ وِدادَه ، ونستلِينُ قيادَه ، ونُقيمُ مُنْآدَه ، بما هذه نسخته :

الأستاذ أبو بكر ، واللهُ يطيل بقاءه ، أزْرَى بضيفه أن وجده يَضربُ إليه آباطَ القِلَّة ، فى أطمار الغُرْبة ، فأعمل فى رُتْبتِه أعمالَ المصارفة ، وفى الاهتزاز إليه أصناف المضايقة ، من إيماء بنِصْفِ الطَّرْف ، وإشارة بشَطْرِ الكف ،

---

(١) الحمار هنا يقال : هو الحيوان المعروف ، وخلو جوفه كناية عن كونه لا ينتفع منه بشيء ، وقيل : الحمار رجل من عاد ، وجوفه : واد كان بحله وكان ذا ماء وشجر ، فكفر بنعم الله عليه ، فأهلكه الله وأقفر واديه (م) .

ودَفعٍ فى صدر القيام عن التمـام ، ومَضْغٍ للـكلام ، وتـكلُّفٍ لردِّ السلام ؛ وقد قبلت ترتيبه صَعَراً ، واحتملته وزرا ، واحتضَنْته نكراً ، وتأبَّطته شرًّا ، ولم آلُهُ عُذْراً ؛ فإن المرء بالمالِ وثياب الجمال ، ولستُ مع هذه الحال وفى الاسمال ، أتقزّز من صَفنٍّ النعال ، فلو صدَقْتُهُ العتاب ، وناقشته الحساب ، لقلت : إنَّ بِوَادِينا ثاغية صباح ، ورَاغية رَوَاح ، وناسا يجرّون المَطارِف ، ولا يمنعون المعارف :

وفيهم مقاماتٌ حِسَانٌ وجوهُهم وأنْدِيَة يَنْتَابُهـا القوْلُ والفِعْلُ

فلو طوّحت بأبى بكر ـ أيّدَه اللهُ ـ إليهم مطارِحُ الغُرْبَة ، لوجد منزلَ البشْرِ رحيبا ، ومحطّ الرَّحْلِ قريبا ، ووَجه المُضِيف خَصيبا ؛ فرأى الأُستاذ أبى بكر أيده الله فى الوقوف على هذا العتاب الذى معناه وُدّ ، والمرءُ الذى يَتْلُوه شَهْد ، موفقٌ إن شاء الله .

فأجاب بما نسخته : وصلتْ رُقْعَةُ سيدى ورئيسى أطال الله بقاه إلى آخر السِّكْبَاج[1] ، وعرَفت ما تضمّنه من خَشِنِ خطابه ، ومؤْلِمِ عِتَابه ، وصرفت ذلك منه إلى الضَّجْرةِ التى لا يخلو منها مَنْ مسَّه عُسر أو نبَا به دَهر ؛ والحمد لله الذى جعلنى موضعَ أُنْسِه ، ومظنَّةَ مشتكَى مافى نفسه ، أما ماشكاه سيدى ورئيسى مِنْ مضايقتى إياه فى القيام ، فقد وفيته حقّه ـ أيّدَه اللهُ ـ سلاما وقياما ، على قَدْرِ ماقدَرْت عليه ، ووصلت إليه ، ولم أرْفَعْ عليه إلا السيد أبا البركات[العلوى] أدام الله عزه ، وما كنتُ لأرفع أحداً على مَنْ أبوه الرسول ، وأُمُّه البتُول ، وشاهداه التوراة والإنجيل ، وناصراه التأويل والتنزيل ، والبشير به جبريل وميكائيل ؛ فأما القوم الذين صدر عنهم سيدى فكما وصف : حسن عشرة ، وسداد طريقة ، وجمال تفصيل وجملة ، ولقد جاوَرْتُهم فأحمدت المَراد ، ونلت المرَاد :

---

(١) السكباج : طعام يتخذ من اللحم والخل والمرق . والمراد هنا ألوان العتاب الذى قدمه (م) .

فإن كنت قد فارقت نجداً وأهلهُ ... فما عهد نجدٍ عنـــدنا بذميمِ

والله يعلم نيّتي للأحرار[1] كافة ، ولسيدى من بينهم خاصة ؛ فإن أعانني الدهرُ على ما في نفسي بلغتُ له ما في النيّة ، وجاوزتُ به مسافةَ القَدْر والأمنية ، وإن قطع عليّ طريقَ عَزْمي بالمعارضة ، وسوء المناقضة ، صرفتُ عِنَاني عن طريق الاختيار ، بيد الاضطرار .

فمـا النفسُ إلاّ نطفة بقَرارةٍ ... إذا لم تُكَدَّر كان صفواً غديرُها[2]

و بعد ، فحبذا عتابُ سيدى إذا استوجَبْنَا عَتبا ، واقترفْنَا ذَنْبا ؛ فأما أن يسلفنا العَرْبَدَة فنحن نَصُونُهُ عن ذلك ، ونَصُونُ أنفسنا عن احتماله ، واستأسومه أن يقول : (استَغْفِرْ لنا ذنوبَنا إنّا كنّا خاطئين) ، ولـكن أسأله أن يقول : (لا تَـثْرِيبَ عليكمُ اليومَ يغفر اللهُ لكم وهو أَرْحَمُ الراحِمِين) .

فحين وَرَدَ الجواب وعينُ العذر رَمِدَة تركناه بعُرِّه ، وطوَيْنَاهُ عَلَى غرّه ، وعمدنا إلى ذِكْرِه فسحَوْنَاه ، ومن صحيفتنا محَوْنَاه ، وصِرْنا إلى اسمه فأخذناه ونبذناه ، وتنكّبْنَا خطته ، وتجنبنا حِطّته[3] ، فلا طرنا إليه ، ولا صِرْنا به ، ومضى على ذلك الأسبوع ، ودبَّت الأيام ، ودَرَجت الليالى ، وتطاولَتِ المُدَّة ، وتصرّم الشهرُ ، وصِرْنا لا نُعِيرُ الأسماعَ ذِكْرَهُ ، ولا نودعُ الصدورَ حَدِيثَه ؛ وجعل هذا الفاضل يستزيد ، و يستعيد ، بألفاظ تقطعها الأسماع من لسانه ، وتؤديها إليّ ، وكلمات تحفظها الألسنة من فمه ، وتُعِيدها عليّ ؛ فكاتبناه بما هذه نسخته :

أنا أرِدُ من الأستاذ سيدى ــ أطال الله بقاه ــ شِرْعَةَ وُدّه و إن لم تَصْفُ ، وألبَسُ خلعة برِّه و إن لم تَضْفُ ، وقصارَاى أن أكيله صاعا عن مدٍّ ؛ فإني و إنْ كنْتُ في الأدب دَعِيَّ النَّسب ، ضيق المضْطَرَب ، سيِء المنقلَب ، أمتُّ إلى عشرة أهله بنِيقَةٍ ، وأنزع إلى خدْمَة أصْحابِه بطريقة ، ولـكن يَبْقى أن يكون الخليطُ مُنْصِفا في الوداد ، إذا زرتُ زَارَ ، و إنْ عُدْتُ عاد ، وسيدى ــ أبقاه الله ــ

(١) في الرسائل (ص ٣٤ بيروت) « للاخوان كافة » (م) .

(٢) في الرسائل « كان صفو آمعينها » (م) . (٣) في الرسائل « وتجنبنا خلطته » (م) .

ناقشنى فى القبول أولا[١] ، وصارمنى فى الإقبال آخرا ؛ فأما حديثُ الاستقبال، وأمرُ الإنزال والأنزال[٢] ، فنطاقُ الطمع ضيّق عنه ، غيرُ متسع لتوقعه منه ، و بعد فكلفة الفضل بيّنة ، وفروض الودّ متعيّنة، وأرضُ العشرة ليّنة ، وطرقها هيّنة ، فلمَ اختار قعود التّعالى مركبا ، وصعودَ التغالى مَذهبا ؛ وهلاّ ذاد الطير عن شجر العِشْرَة ، وذاق الحُلْوَ من ثمرها ؛ فقد علم الله أن شوقى إليه قد قدَّ الفؤادَ بَرْحاً إلى برح، ونكأه قَرْحاً إلى قرح ، ولكنها مِرّةمُرّة ، ونفسٌ حرّة ، لم تُقَد إلا بالإعظام، ولم تُلْقَ إلا بالإجْلالِ والإكرام، و إذا استعفانى من معاتبته ، فأعْفَى نفسه من كُلَفِ الفضْلِ يتجشّمها ، فليس إلاّ غصص الشوق أتجرّعها، وحُلل الصبْرِ أتدرّعها ،ولم أعره من نفسى ، وأنا لوأعِرْتُ جناحَىْطائر لماطِرْتُ إلاّ إليه ، ولا وقعت إلا عليه :

أحبكَ يا شَمْسَ النهار و بَدْرَهُ و إنْ لامنى فيكَ السها والفَرَاقِدُ
وذاكَ لأنّ الفضْلَ عندكَ باهرٌ وليس لِأن العيشَ عندكَ بَارِدُ

فلما وردت عليه الرُّقعة حشَد تلاميذَه وخَدَمه ، وجَشم للايجاب قدمه[٣] ؛ وطَلَع علينا مع الفجر طلوعُه ، ونظمتنا حاشيتا دار الأمير أبى الطيب ؛ فقلنا : الآن تُشرق الحشمةُ وتنوّر ، ونُنجِدُ فى العشرة ونُغَوِّر ، وقصدناه شاكرين لما أتاه ، وانتظرنا عادةَ بِرّه ، وتوقّعْنا مادّةَ فضله ؛ فكان خُلّبا شِمْناه ، وآلاً ورَدْناه[٤] ، وصرفنا فى تأخّره وتأخُّرِنا عنه إلى ما قاله ابن المعتز :

إنّا على البعاد والتفرُّقِ لَنَلْتَقِى بالذكْرِ إنْ لم نَلْتَقِ

وأنشدنا قول ابن عصرنا[٥] :

أحبك فى البتول وفى أبيها ولكنى أحِبّكَ من بعيدِ

---

(١) فى الرسائل « ناقشنى فى الحساب القبول أولا وصارفنى فى الإقبال ثانيا » (م) .
(٢) الإنزال ـ بكسر الهمزة ـ مصدر أنزله ، والأنزال ـ بالفتح ـ جمع نزل ، وهو ما يقدم للضيف (م) . (٣) فى الرسائل «وجشم الإيجاف قدمه » (م).
(٤) الخلب ـ بزنة سكر ـ البرق الذى لا يعقبه مطر ، والآل : السراب (م) .
(٥) فى الرسائل ذكر بعد هذه العبارة البيتين السابقين اللذين أولهما « أحبك ياشمس النهار وبدره » (م) .

و بقينا نَلْتَقِي خيالا ، ونقنع بالذكر وصالا ، حتى جعلت عواصفه تهُبّ ، وعقارِبه تَدِبّ .

والمجلس طويل جداً .

قلت : إن كنتُ خرجتُ بطولِ هذا الكلام عن ضبط الشرط ، فلعلى أُسامَح فيه لفضله ، وعدم مثله ، وهو وإن كان فى باب الاتصال ، فهو بتقدير الانفصال ، لقيامِ كلّ رسالةٍ بذاتها ، وانفرادِها بصفاتها .

كتاب منه لرئيس هراة

وكتب إلى رئيس هَرَاةَ عدنانَ بن محمد يصفُ ماجرى بينه وبين الخوارزمىّ :

ما أَلُوم هذا الفاضل على بساط شَرٍّ طواه ، وموقد حَرْبٍ اجتواه ، ولكنى أَلُومُه على مانواه ؛ ثم لم يتبع هواه ، ورامَه ، ثم لم يبلغ آثامه ، وأقولُ : قد ضرب فأينَ الإيجاع ؟ وأنْذَر فأينَ الإيقاع ؟ وهذه بَوارِقه ، فأينَ صواعقه ؟ وذلك وعيدُه ، فأين عديده ؟ وتلك بنودُه ، فأين جنودُه ؟ وأنشدَ :

* هذى معاهده فأين عهوده ؟ *

وما أَهْول رَعْدَه ، لو أمطر بعده ! اللهمّ لا كُفْرَان ، ولعن اللهُ الشيطان ، فإنّه أشفق لغريب أن يُظْهِرَ عوارَه ، وإن طارَ طوارَه[1] ، وإنْ كان قصد هذا القَصْدَ فقد أساء إلى نفسه من حيث أحْسَنَ إلىّ ، وأَجْحَفَ بفضله من حيث أَبْقَى عَلَىّ ، وأوْهم الناس أنه هاب البَحْر أن يخوضه ، والأسدَ أنْ يَرُوضَه ، وشجّعنى على لقائه ، بعد ما بَرَعَنى[2] بإيمائه ، فبينا كنت أنشد :

* إنّ جنبى على الفراش لنَابِ *

إذ أنشدت :

* طاب لَيْلِي وطاب فيه شَرَابِى *

---

(١) العوار ــ بزنة سحاب ــ العيب ، والطوار ــ بزنة سحاب أيضاً ــ الحوم حول الشىء . (٢) برعنى : غلبنى ، والإيماء : الإشارة .

و بينا أنا أقول :

* ما لقلبى كأنه ليس منى *

إذْ قلت :

* أين مَنْ كان مُوعِداً لى بأنى *

فلو أنّ هذا الفاضلَ قضى حقَّنا بالزيارة عند قدومِنا أو الاستزارة ، لكان فى الضّرب أحسن ، وفى طريق المعاشرة أذهب . لا ، ولكنه وعَد بالمُباراة أولا ، وهدّدنا بالمسائل ثانياً ، وأخلف بالتخلف ثالثاً ؛ فأبْلِغْ وَجْدى إليه ، واعْرِض شوق عليه ، وقل له إن كنت ندمت على النضال ، فلا تندمْ على الإفضال ، فإن طَوَيْتَ ناحيث الجهاد، فانشُرْ ناحيثُ الوداد، وإن لم تلْقَنا فى باب المكاشرة ، فأْتنا من بابِ المعاشرة .

كتاب منه للامام سهل ابن محمد

وله إلى الإمام أبى الطيب سهل بن محمد : قد كان الشيخُ يَعِدُنى عن هذه الحضرة عِدَاتٍ أشمّ لها الأنف ، لا ذهابا بتلك الفواضل عنها ، لكن استحالةً من هذا الزمان أنْ يجودَ بها ؛ فحين أسرفْتُ على الخَضْرَة ماجَتْ إلىّ أمواجُ الشرف منها ، وخلص إلىّ نسيمُ الكَرَم عنها ، وأتحفَنى على رسم الإجلال بمركوب شامخ ، ومركب ذهبٍ سابغ ، وجنيبٍ[1] شرف زائد؛ وسرتُ بحمد الله محفوفا بأعيانِ الكتّاب ، وعيونِ الرجال ، حتى شافهْتُ بِسَاطَ العزّ ، مستقبلا مَلِكَ الشرق أدام الله عُلُوّه ، فجذب بضَبْعَىّ عن أرْضِ الخدمة ، إلى جوارِ ولىّ النعمة ، حرس اللهُ مكانه ، فاهتزّ اهتزازا فات سِمَةَ الإكرام ، وتجاوز اسْمَ الإعظامِ إلى القيام ، فقبلت من يُمْناه مِفْتَاحَ الأرزاق ، وفتّاح الآفاق ، ولحقت منه بقاب العقاب[2] ، وخاطبنى بمخَاطبات نَشَدْتُ بها ضالَّةَ الكِرام ، وهلمّ جرّا إلى ماتبعها من جميل الإنزال ، وسَنِىّ الأجْزَال[3] .

---

(١) أصل الجنيب : الفرس تجنبه مع الذى تركبه لتركبه إذا تعب المركوب ، وفى الرسائل « وحنين شرف زائد » (م) .

(٢) قاب العقاب : هو بيضه الذى يضرب به المثل فى عزة المنال .

(٣) الأجزال : النعم الجزيلة ، وسنيها : شريفها ، وانظر ص ٤٨٠ هامشة ٢ .

وطرأت من الشيخ العميد على شَخْصٍ يسَعُه الخاتم ، ولا يَسَعُهُ العالَمَ ، ويهتزُّ عند المكارم كالغُصن ، ويثبت عند الشدائد كالرُّكْن ، وسلطانٍ يحلم حِلْمَ السيفِ مُغْمَدا ، ويغضب مجرّدا ، فهو عند الكرم لَيِّنٌ كصَفْحَته، وعند السياسة خشِنٌ كشَفْرته ، وملك يَأْبِى الكرمَ نيّة ، والفضلَ سجيّة ، ويفعل الشرّ كُلْفَة أو خطيَّة ، فهو ضَرُور بآلاته ، نَفُوع بذاته ، عطارد قَلَمُه ودَوَاتُه ، والمريخ سَيْفُه وقَنَاتُه ؛ عيْبُه أنْ لا عَيْبَ فيه ، فيصرف عَيْن الكمال عن معاليه .

وصادفت من الشيخ الموفق أيّده الله ملَكا يُشاهَدُ بِعيانا ، وجبلا قد سُمِّى إنسانا ، وحسنا قد مُلِيء إحسانا ، وأسدا قد لقِّبَ سلطانا ، وبَحْراً قد أمسكَ عِنَانا ، وحطَطْتُ رَحْلِى بفناء الأمير الفاضل أبى جعفر أدام الله عِزَّه ، فوجدت حكمى فى ماله أنفذَ من حكمه ، وقَسْمِى من غِناه أوْفَرَ من قَسْمه ، واسْمِى فى ذاتِ يده مقدَّما على اسْمِه ، ويَدِى إلى خزانته أسرَعَ من يَدِه، وإن قصدت أن أُفْرِدَ لكلٍّ مدحا، وأعبر الجملة شرحاً ، أطَلْت، فهلمّ جرّا إلى ماافتتحت الكتاب لأجله .

ورد للخوارزمى كتاب يتقلّب فيه على جَنْبِ الحردِ ، ويتقلّى على جَمْر الضّجَر، ويتأوّه من خُمار الخجل ، ويتعثَّرُ فى أذْيالِ الكَلَل ، ويذكر أنّ الخاصة قد علمت لأينا كان[1] الفَلْج، فقلت : است البائن أعلم، والخوارزمى أعرَف، والأخبار المتظاهرة [أعدل ، والآثار الظاهرة] أصْدَقُ ، وحَلْبة السباق أحْكَمَ ، وما مضى بيننا أشهد ، والعَوْدُ إن نَشِطَ أحْمَد ، ومتى استزاد زِدْنا ، وإن عادت العقرب عُدْنا ، وله عندى إذا ما شاء ، كلُّ مَاشَاء !

وهى طويلة فيها هَنات ضِنْتُ الكتابَ عنها ، وقد أعادَ البديع معنى قوله فى صدر حكايته مع الخُوارزمى ، فقال فى رقعة كتبها إلى سعيد الإسماعيلى ، وقد وقفت به الضرورةُ على تلك الصورة من سلب العرب ماله :

كتاب منه للاسماعيلى

كتابى ، بل رُقْعتى ، أطال الله بقاء الشيخ ، وقد بكرت علىّ مُغِيرَةُ

(١) الفلج : الظفر والغلبة على قرنه .

الأعراب، كمهلهل ، وربيعة بن مُكَدَّم، وعتيبة بن الحارث بن هشام، وأنا أحمد الله إلى الشيخ الفاضل ، وأذمّ الدهر ؛ فما ترك لى من فِضّةٍ إلاّ فضّها ، ولا ذهبٍ إلا ذَهب به ، ولا عِلْق إلا عَلقه[1] ، ولا عَقَار إلا عقَره ، ولا ضَيْعة إلا أضاعها ، ولا مال إلا مال إليه ، ولا سَبَدٍ إلا استبدّ به ، ولا لَبَد إلا لبَد فيه ، ولا بِزّة إلا ابْتَزّها[2] ، ولا عارية إلا ارتجعها ، ولا وَدِيعة إلا انتزعها ، ولا خِلْعة إلا خلعها ، وأنا داخل نيسابور ولا حِلْية إلا الجلدة ، ولا بُرْدَ إلا القِشْرَة ، والله ولىُّ الخلف يعجّله ، والفرج يسهّله ، وهو حَسْبى ونعم الوكيل .

وليس البديع بأبى عذرة هـذا الخطاب ، وسترى نظير هذا المعنى فى هذا الكتاب .

ومن إنشائه فى مقامات أبى الفتح الإسكندرى

مقامة الفزارية للبديع

قال : حدَّثنى عيسى بن هشام قال : كنتُ فى بعض بلاد بنى فَزارة مرتحلا نَجيبة ، وقائدا جَنيبَة ، يَسْبَحان سَبْحا ، وأنا أهيم بالوطن ، فلا الليل يَثْنينى بوعيده ، ولا البُعْد يُدْنينى ببيده[3] ، وظَلِلْتُ أخبِط ورقَ النَّهار ، بعصا التَّسيار ، وأخوضُ بَطْنَ الليـل ، بحوافر الخيلِ ، فبينا أنا فى ليلةٍ يضلُّ بها الغَطَاط[4] ، ولا يُبْصر بها الوَطْوَاط ، أَسْبَحُ ولا سانح إلا السبع ، ولا بارح إلا الضَّبع ، إذ عنّ لى راكب تامّ الآلات ، يطوى منشور الفَلوات ، فأخذنى منه ما يأخذُ الأعْزَلَ من شاكى السلاح ، لـكنى تجلَّدت فقلت : أرضَكَ لا أمّ لك ! فدونك شَرْطُ الحِداد ، وخَرْطُ القَتَاد ، وخَصْمٌ ضخم ، وحمية أزْدِيَّة ، وأنا سِـلْم إن شئت ، وحَرْبٌ إن أردت ، من أنت ؟ قال : سلماً أصبت ، قلت : خيراً أجبت ، قلت : فمن أنت ؟ قال : نصيح إن شاورت ، فصيح إنْ حاوَرْت ، ودون اسمى

---

(١) العلق ــ بالكسر ــ الشىء النفيس الذى يضن به ، وعلقه : أى أخذه (م)

(٢) بزها : سلبها وغلب عليها (م) (٣) الذى فى المقامات «ولا البُعْد يلوينى ببيده» (م)

(٤) الغطاط ــ بزنة سحاب ــ القطا ، وهو مضرب المثل فى الهداية .

لِثام ، لا تُميطه الأَعلام . قلت : فما الطُّعمة ؟ قال : أَجُوب جُيوبَ البلاد ، حتى أقع على جَفنَة جَوّاد ، ولِى فؤاد يَخْدُمه لسان ، و بيانٌ يَرْقِيه بنَان ، وقصارَايَ كريمٌ ينفض إلىّ حقيبته ، ويخفّف لى جَنِيبته ، كابن حُرّة طلع إلىّ بالأمس، طُلوعَ الشمس[1]، وغرب عنى بغروبها ؛ لكنه غاب ولم يَغِبْ تذكارُه ، وودّع وشيّعتْنى آثارُه ، ولا ينبئك عَنْها أقربُ منها ، وأومأ إلى ما كان يَلْبسه ، فقلت : شحاذ وربّ الكعبه أخاذ ، له فى الصَّنعة نَفاذ ، بل هو فيها أستاذ ، ولا بد أن تَرْشَح له وتَسِحَّ عليه ، وقلت له : يافتى ، قد أجليت عبارتك ، فأين شعرُك من كلامك ؟ فقال : وأين كلامى من شِعْرِى ! ثم استمدّ غريزته ، ورفع عقيرته ، بصوت ملأ الوادى ، وأنشأ يقول :

وأروَعَ أهداه لِىَ الليلُ والفَلاَ ... وخَمْسٌ تمسُّ الأرضَ لكن كلا ولاَ[2]
عرَضْتُ على نارِ المكارِمِ عُودَهُ ... فكانَ مُعمًّا فى السوابق مُخْولا
وخادَعْتُه عن ماله فخدَعْتُه ... وساهَلْتُه فى برّه فتسهَّلاَ
ولما تجالينا وأحمدَ مَنْطِقى ... بَلاَنِىَ فى نَظْمِ القريضِ بِما بَلاَ[3]
فما هَزَّ إلا صارماً حين هزَّنى ... ولم يَلْقَنى إلا إلى السَّبْقِ أوّلا
فلم أرَه إلا أغرَّ محجّباً ... وما تحتَه إلا أغرَّ محجَّلاَ

فقلت : على رِسْلِك يا فتى ، ولك مما يصحبنى حكمك . فقال : الجنيبة ، قلت : إنّ[4] وما عليها . ثم قبضت بجُمْعى عليه ، وقلت : لا والله الذى ألهمها لَمسا ، وشقّها من واحدة خَمْسا ، لا تُزايلنا أو نَعلَمَ عِلْمك ، فحدَر لِثامه عن وَجْهه ، فإذا والله شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، فما لبثت أن قلت :

توشّحتَ أبا الفتح ... بهذا السيفِ مُخْتالا

---

(١) طلوع الشمس ، هنا : منتصب على الظرفية ، وليس مفعولا مطلقاً ، ويدل له ما ذكره بعده (م) (٢) كلا ولا: يريد فى غاية السرعة كسرعة النطق بلفظ لا (م)
(٣) بلانى : اختبرنى (م) (٤) أن ، هنا : بمعنى نعم .

وما تصنعُ بالسيف إذا لم تكُ قتّالا ؟
[فصُغْ ما أنت حليت به سيفَك خلخَالا]

[من طرف الأدب]

بين عبد الله بن الزبير بن العوام وشاعر

وعلى ذكر قوله : « إنَّ وما عليها » قال أبو عبيدة : وَفَدَ عبدُ الله بن الزَّبِيرِ الأسدى على عبد الله بن الزُّبَيْرِ بن العوام فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنَّ بينى و بينك رَحِما من قِبَل فلانة الكاهلية ؛ هى أختنا ، وقد ولدتكم ، وأنا ابنُ فلان ؛ فلانة عمّتى . فقال ابنُ الزبير : هذا كما ذكرت ، وإن فكّرت فى هذا أصبت ، الناسُ كلهم يرجعون إلى أبٍ واحد ، وأم واحدة .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إنَّ نفقتى قد ذَهَبَتْ . قال : ما كنت ضمنت لأهلك أنها تكفيك إلى أنْ ترْجِع إليهم . قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن ناقتى قد نَقِبت ودَبِرَتِ[1] . فقال له : أنجِدْ بها يَبْرُدْ خفّها، وارقَعها بسِبْت، واخْصِفها بهُلْب[2]، وسِرْ عليها البردين. قال: يا أمير المؤمنين، إنما جئتك مستَحْمِلا ، ولم آتك مستوصفا[3] لعن اللهُ ناقةً حملتنى إليك . قال ابنُ الزبير : إنَّ وراكِبَها ! فخرج وهو يقول :

أرَى الحاجاتِ عند أبى خُبَيْب نَكِدْنَ ، ولا أُمَيَّةَ فى البلادِ
من الأعياص أو مِنْ آل حَرْبٍ أغرّ كغُرَّةِ الفرس الجوادِ
ومالى حين أقْطع ذاتَ عِرْقٍ إلى ابنِ الكاهلية من مَعادِ[4]
وقلت لصحبتى أدْنوا ركابى أفارِقْ بطْنَ مكّةَ فى سَوَادِ

فبلغ شعره هذا عبد الله بن الزبير، فقال : لو علم أنّ لى أمًّا أخَسَّ من[5] عمته الكاهلية لنسبنى إليها ، وكان ابنُ الزبير يكنى أبا بكر وأبا خُبَيْب .

(١) نقبت : رق خفها ، ودبرت : أصابتها قرحة (م) .
(٢) السبت : الجلد المدبوغ ، والهلب : الشعر ، أو شعر الخنزير خاصة (م) .
(٣) مستحملا : طالباً أن تحملنى بأن تعطينى ركوبة ، ومستوصفا : أى طالبا منك أن تصف الدواء (م) . (٤) فى كل المطبوعات « من مفاد » تطبيع (م) .
(٥) فى كل المطبوعات « أحسن » تطبيع (م) .

فرس ابن الزيات

قال الصولى : أخذ المعتصم من محمد بن عبد الملك الزيات فرساً أشهب أحمّ ، كان عنده مَكِينا ، وكان به ضَنينا ، فقال يَرْثيه

قالوا: جزعت، فقلتُ : إنّ ، مصيبةٌ جلّت رزيّتها ، وضاق المذهبُ(١)

قال أبو بكر: هكذا أنشدنيه ابنُ المعتز على أن (إنّ) بمعنى نعم ، وأنشد النحويون:

قالوا: كبِرتَ ، فقلتُ : إن، وربما ذَكَرَ الكبيرُ شبابَه فتطرّبا

* * *

كيف العَزاء وقد مضى لسبيله عنّا فودّعنا الأحمُّ الأشهبُ

دبّ الوُشَاةُ فباعدوه ، وربما بَعُدَ الفتى وهو الحبيبُ الأقربُ

لله يومَ غدوت فيــه ظاعناً وسُلِبْتَ قُرْبَك، أيَّ عِلْقٍ أُسْلَبُ؟

نفسى مقسّمة أقام فَريقُهــا ومضى لطيَّته فريقٌ يُجْنَبُ

الآن إذْ كَمُلَتْ أداتك كلها ودعا العيون إليك حُسْنٌ مُعْجِبُ

وغدوت طَنّان اللّجام كأنمــا فى كل عُضْوٍ منك صَنْجٌ يُضْرَبُ

وكأنّ سَرْجَك، إذْ علاك، غَمَامةٌ وكأنما تحت الغمامة كَوْكَبُ

أنساك ؟ لا زَالَتْ إذاً منسيةً نفسى. ولا بَرِحَتْ بمثلك تنكب

أضْمَرْتُ منك اليأس حين رأيتنى وقُوَى حبالى مِنْ حِبالِك تُقْضَب

يا صاحبيَّ لمثــل ذَا من أمرهِ صَحِبَ الفتى فى دَهْرِهِ من يَصْحَبُ

إنْ تُسْعِدا فصنيعةٌ مشكورةٌ أو تخذُلا فصنيعةٌ لا تَذْهَبُ

عُوجا فقولا : مرحبا ، وتزوّدا نظراً وقلّ لمن تُحِبُّ المرحَبُ

منعَ الرقادَ جَوًى تضمَّنه الحَشَى ممــا أكابده وهَمٌّ مُنْصِب

[المزاح]

بين الحجاج وابن القرية

قال الحجاج بن يوسف لابن القِرِّيَّة : ما زالت الحكماء تَكْرَهُ المُزَاح ، وتَنْهَى عنه ، فقال : المُزَاح من أدنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب : المُزَاح أوله فَرَح ، وآخره تَرَح . المزاح نقائضُ السفهاء، كالشعرِ نقائض الشعراء . والمزاح

(١) تقدير الكلام « فقلت : نعم ، هذه مصيبة عظمت رزيتها ــ إلخ » (م) .

يُوغِر صدْرَ الصديق ، وينفِّر الرفيق . والمزاح يُبْدِى السرائر ؛ لأنه يظهر المَعايِر . والمزاح يُسْقِطُ المروءة ، ويُبْدِى الخنى . لم يجُرَّ المزح خيراً ، وكثيراً ما جرَّ شرًّا . الغالب بالمزاح وَاتِر ، والمغلوب به ثائر . والمزاح يجلب الشتمَ صغيرُه والحربَ كبيرُه ، وليس بعد الحرب إلا عفوٌ بعد قدرة.

فقال الحجاج : حسبك ، الموت خيرٌ من عَفْو معه قدرة .

خالد ابن صفوان يبين مساوىء المزاح

وذُكِر المزاح بحضرة خالد بن صفوان فقال : يُنْشِق أحدُكم أخاه مثل الخَرْدَل ، ويُفرِغُ عليه مثل المِرْجل ، ويَرْميه بمثل الجَنْدل . ثم يقول : إنما كنت أمزح !

للوراق فى هذا المعنى

أخذ هذا المعنى محمود بن الحسين الوراق فقال :

تَلْقَى الفتى يَلْقَى أخاهُ وخِدْنَهُ ... فى لَحْنِ مَنْطِقِه بما لا يُغفَرُ
ويقول : كنت ممازحاً ومُلاَعباً ... هيهات نارُك فى الحشى تَتَسعَّرُ !
أو ما علمت وكان جهلك غالباً ... أنَّ المُزاحَ هو السِّبَابُ الأَصْغَر

فِقَر فى هذا النحو لأهل العصر وغيرهم

المزَاحة تذْهَبُ بالمهابة ، وتُورِثُ الضغينة . الإفراط فى المُزَاح مُجون ، والاقتصاد فيه ظَرْف ، والتقصير عنه نَدَامة . أوكد أسباب القطيعة المِرَاء والمُزَاح .

لابن المعتز

ابن المعتز — من كَثُر مُزَاحُه لم يَخْلُ من استخفاف به أو حِقْدٍ عليه .

لابن القرية

قال أيوب بن القِرِّيَّة : الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر ؛ فالعاقل الدِّينُ شريعته ، والحلم طبيعته ، والرأيُ الحسنُ سجيَّته ؛ إن سُئل أجاب ، وإن نطق أصاب ، وإن سَمِعَ العلم وَعَى ، وإن حدَّث روى . وأما الأحمق فإنْ تكلّم عجِل ، وإن حدّث وَهِل[1] ، وإن استُنْزِل عن رأيه نزل ، فإن حُمِل على القبيح حَمل . وأمَّا الفاجر فإن ائتمنته خانك ، وإن حدَّثته شانَكَ ، وإن وثقت به لم يرعَك ، وإن استُكْتِم لم يكْتُم ، وإن عُلِّمَ لم يعلم ، وإن حُدِّث لم يفهم ، وإن فُقِّه لم يَفقَه.

(١) وهل : غلط ونسى (م) .

في التفاؤل لأبي حيـة النميري

قال أبو حية النميري :

جرَى يوْمَ رُحْنا عامدين لأرضنا سَنيحٌ ، فقالالقوم : مرَّ سَنيحُ
فهابَ رجالٌ منهمُ فتعيفــــوا فقلت لهم : جارى إلىَّ ربيحُ
عُقَابٌ بأعقابٍ من الدار بعدما نَأَتْ نَأْيةٌ بالظاعنــــين طَرِيحُ
وقالوا : حمامات ، فحُـمَّ لِقاؤها وطَلْحٌ فنِيلَتْ والمطيُّ طَليـــحُ
وقال صحابي : هُدْهُدٌ فوق بَانةٍ ، هُدًى وبيـــانٌ بالنجاح يلوحُ
وقالوا : دمٌ ، دَامَتْ مواثيقُ بيننا ودام لنا حُـلْوُ الصـفاء صَرِيحُ
لَعيناك يومَ البـين أسْرَعُ واكفاً من الفَنَنِ المطـور وهو مَرُوحُ
ونسـوةِ شَحْشَاحٍ غَيُورٍ يَخَفْنَهُ أخى ثقةٍ يَلْهُونَ وهو مُشِيحُ
يقلن ، وما يَدْرِين أنِّى سمعتُهُ وهنَّ بأبواب الخيـام جُنُوحُ :
أهذا الذى غـنَّى بسمراء مَوْهِناً أتاحَ له حسنَ الغِناء مُتِيـــحُ
إذا ما تغــنَّى أنَّ مِنْ بَعْدِ زَفْرَةٍ كما أنَّ من حَرِّ السلاح جَرِيحُ
وقائلةٍ : يادَهْمَ وَيْحَكِ ! إنهُ على ما به من عُنّةٍ لمليـــحُ(١)
فلو أنَّ قولا يجرح الجـلد قد بدا بجـلدىَ من قول الوُشاة قروحُ

وهذا من غريب الزَّجْرِ مليحُ التفاؤل .

مما ينسب لذى الرمة

قال أبو العباس محمد بن يزيد : أنشـدنى أعرابىّ فى قصيدة ذى الرمة التى أولها :

ألا يَا اسْلَمِى يادَارَمىَّ عَلَى البِلَى ولا زَالَ مُنْهَلاً بجَرْعائِكِ القَطْرُ

بيتين لم يروهما الرواة فى ديوانه ، وهما :

رأيتُ غراباً ساقطاً فوق قَضْبـةٍ من القَضْبِ لم يَنبُتْ لها وَرَقٌ خُضْرُ
فقلت : غرابٌ لاغترابٍ ، وقَضْبةٌ لقَضْبِ النوى هذى العيافةُ والزَّجْرُ

---

(١) لعله «على ما به من غنة» فقد وردت فى الأمالى ١/٦٩ « على غنة فى صوته »

وقال آخر :

دعا صُرَدٌ يوماً على غُصْنِ بانةٍ   وصاح بذات البين منها غُرَابُها
فقلت:أتَصْرِيدٌ وشَحْطٌ وغُرْبَةٌ؟   فهذا لعمرى نَأْيُهَا واغترابُها

عادة الجاهلية والنهى عنها

وقد أكثرت العرب من ذكر الطِّيَرَة ، والزَّجْرِ ، وكانت تقتدى بذلك وتجرِى على حكمه ، حتى ورد النَّهْىُ فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا عَدْوَى ولا طِيَرَة ، وقد قال الأول :

لعمركَ ما تدْرِى الضَّوَارِبُ بالحصى   ولا زَاجِراتُ الطَّيْرِ ما اللهُ صانعُ

وقال ضابئُ بن الحارث البرجمى :

وما عاجلات الطير، تُدْنِى مِنَ الفتى   نجاحاً ولا عن رَيْثِهِنَّ يخيبُ[1]
ولا خيرَ فيمن لا يوطِّنُ نفسهُ   على نائباتِ الدَّهْرِ حين تنوبُ
ورُبَّ أمورٍ لا تَضِيرك ضَيْرَةً   وللقلب من مَخْشاتِهِنَّ وَجِيبُ

الكميت ابن زيد

وقال الكميت بن زيد الأسدى :

ولا أنا ممن يَزْجُرُ الطيرَ همُّه   أَصاح غرابٌ أم تَعَرَّضَ ثعلبُ
ولا السانحات البارحات عشيةً   أمرَّ سَليمُ القَرْنِ أمْ مَرَّ أعضَبُ

وقال شاعر قديم :

لا يمنعنَّك من بُغَا   ء الخير تَعْقادُ التَّمائم
ولا التشاؤمُ بالعُطَا   س ولا التَّيامُنُ بالمقاسِم
فلقد غَدَوْتُ وكنت لا   أغدو على واقٍ وحاتم[2]
فإذا الأشائمُ كالأيَا   من والأيامنُ كالأشائمْ
وكذاك لا خيرٌ ولا   شرٌّ على أحدٍ بدائمْ
قد خُطَّ ذلكَ فى الزُّبُو   ر الأوَّليَّات القدائمْ

(١) وقع فى نسخة «تدرى من الفتى» و « ولا عن ريثهن تجيب » تحريف (م)

(٢) الواقى : الصرد ، والحاتم : الغراب (م) .

لابن كناسة

ولقد أحسن ابن كناسة فى رثاء ولده يحيى ، أنشده أبو العباس ثعلب :

تيمّمت فيه الفأل حتى رُزِئْتهُ ولم أدرِ أن الفال فيه يَفِيلُ
فسمَّيْته يَحْيَى ليَحْيا ؛ فلم يكن إلى ردِّ أمرِ اللهِ فيه سبيلُ

بين كثير ورجل نهدى

وروى المدائنى قال: خرج كثيّر من الحجاز يريدُ مصر ، فلما قَرُبَ منها نزل بمنزل ، فإذا هو بغُراب على شجرة بَانٍ يَنْتِف رِيشَه ويَنْعَبُ ؛ فأسرع الرحيل ، ومضى لوجهه ؛ فلقيه رجلٌ من بنى نَهْد ، فقال : يا أخا الحجاز ؛ مالى أراكَ كاسِفَ اللون ؟ قال : ما علمت إلا خيراً ، قال : فهل رأيت فى طريقك شيئاً أنكَرْته ؟ قال : لا والله إلا فى منزلى هذا ، فإنى رأيتُ غراباً يَنْتِف رِيشَه على بانة ويَنْعَبُ . قال : أما إنك تطلب حاجةً لا تدركها .

فقدم مصر والناسُ منصرفون من جنازة عزة ، فقال :

رأيتُ غراباً ساقطاً فَوْقَ بانةٍ يُنتِّفُ أعْلى رِيشه ويطايرُهْ
فقلت ـ ولو أنى أشاء زجرتهُ بنفسىَ ـ للنهدىّ: هل أنت زاجره؟
فقال : غراب لاغتراب من النوى وفى البانِ بَيْنٌ من حبيب تجاورهْ
فما أعيفَ النهدىَّ، لا دَرَّ دَرُّهُ! وأزجرَه للطير ، لا عزَّ ناصِرُه

ثم أتى قبر عزة فأناخ به ساعة ثم رحل ، وهو يقول :

أقولُ ونِضوى واقفٌ عند رأسها عَلَيْكِ سلامُ اللهِ والعَيْنُ تَسْفَحُ
فهذا فراق الحق لا أن تُزِيرنى بلادَكِ فتلاء الذراعين صَيْدحُ[1]
وقد كنت أبكى من فراقِكِ حيّة وأنتِ لعمرى اليومَ أنأى وأنزحُ

جرير

وقال جرير :

بَانَ الخليطُ برامَتَيْن فودَّعُوا أوَ كُلَّمَا نعبوا لبَيْن تجزَعُ
إن السَّوانح بالضُّحَى هَيَّجْنَنى فى دارِ زَيْنَبَ والحمامُ الوُقعُ

لعوف الراهب

وقال عوف الراهب خلاف هذا :

غلط الذين رأيتهم بجهالةٍ يَلْحَوْنَ كلُّهم غراباً يَنْعَق

(١) فتلاء الذراعين : قويتهما ، وصيدح : فرس شديد الصوت (م) .

ما الذنبُ إلاَّ للأباعر؛ إنهـا   مما يُشِتّ جميعَهم ويفـرّق
إنّ الغرابَ بيُمْنِهِ تَدْنُو النّوى   وتُشَتِّتُ الشملَ الجميعَ الأَيْنُقُ

لأبى الشيص

وقد تبعه فى هذا المذهب أبو الشيص فقال :

ما فرّق الأحبابَ بَعْـــد اللهِ إلاّ الإبلُ
والناس يَلْحَوْن غُرا   بَ البين لَمَّا جهلوا
وما على ظَهْرِ غُرا   بِ البَيْنِ تُطوى الرّحل
ولا إذا صـاح غُرا   بٌ فى الديار احتملوا
وما غرابُ البين إلـــلَا ناقةٌ أو جَمَلُ

وما أملح ما قال القائل :

زعمـوا بأنَّ مطيهم عَوْنَ النوى   والمؤذِناتُ بفُرْقَةِ الأَحبابِ
وَلَوَ أنها حَتْـفِى لما أبغَضـتُها   ولها بهم سـببٌ من الأسبابِ

ابن الرومى كان شديد الطيرة

وكان على بن العباس الرومى مُفْرِطَ الطِّيرَة ، شديدَ الغلوّ فيها . قال علىّ بن عبد الله بن المسيب : وكان يحتجُّ لها ، ويقول : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يُحِبُّ الفأل ، ويَكْرَه الطِّيرَة ؛ أفتراه كان يتفاءلُ بالشىء ، ولا يتطيّر من ضدِّه ؟ ويقول : إن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ برجل وهو يَرْحَل ناقةً ويقول : يا ملعونة ، فقال . لا يَصْحَبُنا ملعون ، وإن علياً رضى الله عنه كان لا يَغْزُو غزاة والقمرُ فى العقرب ، ويزعم أنّ الطيرة موجودةٌ فى الطباع قائمةٌ فيها ، وأنّ بعضَ الناس هى فى طباعهم أظهر منها فى بعض ، وأن الأكثرَ فى الناس إذا لقى مايكرهُه قال : على وَجْهِ من أصبحت اليوم ؟ .

فدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسبعين وقد أهدى إلىّ عدةٌ من جوارى القيان ، وكانت فيهنّ صبيّةٌ حَوْلاَء ، وعجوزٌ فى إحدى عينيها نكتة ، فتطيّر من ذلك ، ولم يُظهِرْ لى أمره ، وأقام باقى يومه ؛ فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة له

من بعض السطوح ، وجفاه القاسم بن عبيد الله ، فجعل سبَب ذلك المغنيين المغنيتين، وكتب إلىّ :

أيها المُتْحِفِى بحُولٍ وعُورٍ أين كانت عنك الوجوهُ الحسانُ
قد لَعَمْرِى ركِبْتَ أمرا مهينا ساءنى فيك أيها الخلْصَانُ
فتَحكَ المهرجان بالحُول والعُو رِ أرانا ما أعْقب المهرجانُ
كان من ذاك فقدُك ابنتكَ الحُـرَّة مصبوغةً بها الأكفانُ
وتَجافِى مؤمَّلٍ لى جليـلٍ لجّ فيـه الجفاء والهِجْرانُ
وعزيز علىّ تقريع خِلٍّ لا يُدانيه عنـدىَ الخُلاَّنُ
غير أنى رأيت إذكارَهُ الحز مَ وإشعارهُ شِعاراً يُصَانُ
لا تَهاوَنْ بطيرة أيّها النظار واعْلَمْ بأنها عُنْوَانُ
قف إذا طيرة تلقّتك وانظُرْ واستمع ثَمَّ ما يقولُ الزّمانُ
قَلما غاب من أمورك عنوا ن مبين وللزّمان لِسَانُ
لا تكن بالهوى تكَذّب بالأخبار حتى تهين مالا يُهان
لا يَقُدْكَ الهوى إلى نصرة الأخبارِ حتى يقدّم البرهانُ
إن عُقْبى الهوى هُوِىٌّ ، وعُقْبى طول تلك المهوِّنات هَوان
لا تصدق عن النبيين إلاّ بحديث يلوحُ فيه البيان
خبّر الله أنّ مشأمَةً كا نت لقومٍ وخبّر القرآن
أفزُورَ الحديثِ تقبل أم ما قاله ذُو الجلال والفُرْقَانُ ؟
أترى من يرى البشيرُ بشيرا يَمْترى فى النذير يا وَسْنَانُ
فدع الهزل والتضاحك بالطيرة والنصح مُثمنٌ مجّانُ

الفرق بين الطيرة والفال

وقد فرّق حُذّاقُ أهل النظر فى المقال ، بين الطيرة والفال ، فقالوا : الطيرة كانت العرب ترجعُ إلى ما تمضيها ، وتجرى على تقضيها ، وكان الذى يهُمُّ بهم إذا ما رأى ما يتطير منه رجع عنه ؛ وفى ذلك ما يصرف عن الإحالة على المقادير

الجارية بيد مُمْضيها ، النازلة على حكم قاضيها ، والفَأْل لا يردّ المريد عما يريد ! يُقوِّى مُنّته ، و يَسُرُّ مهجته ؛ وليس هذا موضع تطويل ، فى إيراد الدليل .

* * *

من ابن الرومى للقاسم بن عبيد الله

وفى جفاء القاسم بن عبيد الله إياه يقول معاتباً :

ألم ترنى أقرضْتُكَ الودَّ طائعاً ... ولم تر قبلى مُعسِراً قطّ أقْرَضا

لعمرى لقد صوّرت أبيض مشرقاً ... فَلِمْ لا تُرِينى وَجْهَ نُعاكَ أبيضا

فيا وِيح مولاك استغاث بمشرب ... فأشرق فاستشفى شفاء فأفرضا[1]

ولولا اعتقادى أنك الخيرُ كلهُ ... لأَزْمَعْتُ توديعاً ، قضى الله ماقَضَى

وإنى وإن دارَتْ علىّ دوائرٌ ... لَأُعْرِض عمَّنْ صَدَّ عنى وأعْرَضا

وما زلت عَرّافا إذا الزاد ... بخبثٍ وعيّافا إذا الماء عَرْمَضا[2]

وهذا البيت كقول الآخر

وإنى لِلْمَاء المخالط للقذى ... إذا كثرت وُرَّادُهُ لعَيوفُ

ابن الرومى يرثى ابنة المسيبى

وفى ابنة المسيبى يقول ابن الرومى يعزّيه :

أخا ثقتى أَعْزِزْ علىَّ بنكبةٍ ... مَنَاكَ بها صَرْفُ القضاءِ المقدَّرُ

صِبْتَ ، وما للمرء من حُكْمِ ربّه ... محيدٌ ، وأمرُ الله أعلى وأقهرُ

وقد مات من لا يخلف الدهر مثلَهُ ... عليك من الأسلاف والحقُّ يَبْهَرُ

تعزيت عمن أثمرتك حياتُهُ ... ووَشْكُ التعزى عن ثمارك أجْدَرُ

لأن اختيال الدهر فى ابن وفى ابنةٍ ... يسيرٌ وكرُّ الدهر شيخيك أعْسَرُ

تعذَّر أن نعتاض من أمهاتنا ... وآبائنا ، والنسلُ لا يتعذّر

---

(١) أفرض : شرب من المشرع . والمشرع يسمى الفرضة (م) .

(٢) عرمض الماء : خبث وطحلب .

فلا تهلِكَنْ حُزْناً على ابنة جنةٍ مضت وهي عند الله تحيا وتُحْبَرُ
لعلَّ الذى أعطاك ستر حياتها كساها من اللَّحْدِ الذى هو أسْتَرُ
فكم من أخي حرية قد رأيتهُ بنارِ ذوى الأصهار يكوى ويُصْهَرُ
فلا تتهم لله فيها ولايةً ولا نظراً فاللهُ للعبد أنظرُ
وأنت وإن أبصرت رشدك مرةً فذو النظرِ الأعلى برشدك أبْصَرُ

وله يعزى على بن يحيى فى ابنته

ومن مليح تعازيه عن أُبنَةٍ قوله لعلىّ بن يحيى المنجم :

لا تبعدنَّ كريمةٌ أودعتها صِهْراً من الأصهار لا يخزيكا
إنى لأرْجُو أنْ يكونَ صداقُها من جنة الفردوس ما يرضيكا
لا تيأسنَّ لها فقد زوَّجتها كفؤا وضمَّنْتَ الصَّداقَ مليكا

[الرغبة فى موت البنات]

لعبيد الله بن عبدالله بن طاهر

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

لكل أبى بنت يرجّى بقاؤها ثلاثةُ أصهار إذا ذُكر الصِّهْرُ
فبيتٌ يغطيها ، وبَعْلٌ يَصُونُها، وقبر يُوَاريها ، وخيرهما القَبْرُ

لعقيل بن علفة

وقال عقيل بن[1] علفَةَ وكان أغير العرب .

إنى وإن سِيق إلىَّ المهرُ ألفٌ وعُبدانٌ وذَوْدٌ عشرُ
أحَبُّ أصهارى إلىَّ القبرُ

لابن خلف البهرانى

ومنه أخذ عبيد الله ، قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : دخل علينا ابن خلف البهرانى فأنشدنا :

لولا أُمَيْمَةُ لم أجْزَعْ من العدمِ ولم أجُبْ فى الليالى حِنْدِسَ الظلمِ
وزادنى رغبةً فى العيش معرفتى أنَّ اليتيمةَ يجفُوها ذوو الرَّحمِ
أُحاذِرُ الفقر يوماً أن يُلِمَّ بها فيهتك الستر عن لَحْمٍ على وَضَمِ

---

(١) فى المطبوعات «عقيل بن علقمة» تحريف ، وعلفة بوزن سكرة (م) .

تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا والموتُ أكرمُ نزَّال على الحُرَمِ

وكانت أميمة بنت أخته ، وكان قد تبنَّاها ، ثم غابت غيبة ، فسألناه عنها ، فأنشد :

أمست أميمة مغموراً بها الرَّجَمُ لدى صعيدٍ عليه التُّربُ مُرْتكِمُ
يا شِقّة النفس ، إنّ النفسَ والهةٌ حرّى عليك ، ودَمْع العين مُنْسَجِم
قد كنت أخشى عليها أن يؤخرها عنى الحِمام فيُبْدِى وجهَها العُدُم
فالآنَ نمت فلا همٌّ يؤرِّقنى تَهْدَا العيونُ إذا ما أَوْدَت الحُرَمُ
فالآن نمت ، فلا همٌّ يُؤَرِّقنى بعد الهدوء ؛ ولا وَجْد ولا حُلُم
للموت عندى أيادٍ لست أنكرها أحيا سروراً وبى مما أتى ألم

[عَوْدٌ إلى تطير ابن الرومى]

بين ابن الرومى وأبى الحسن الأخفش

عادَ ذكر ابن الرومىّ — وكانَ أبو الحسن علىّ بن سليمان الأخفش غلام أبى العباس المبرد فى عصر ابن الرومى شابًّا مترفًا ، ومليحاً مستظرَفًا ، وكان يعبث به ، فيأتيه بسَحَر ؛ فيقرع الباب ، فيقال له : مَن ؟ فيقول : قولوا لأبى الحسن مُرَّة بن حنظلة ، فيتطير لقوله ، ويقيم الأيام لا يخرجُ من داره ، وذلك كان سبب هجائه إياه ، فمن أول ما عاتبه به :

قولوا لنحوينا أبى حسن إن حسامى متى ضَرَبْتُ مَضَى
وإنّ نبلى إذا هممت بأنْ أرْمِىَ نَصَّلْتُها بجَمْرِ غَضَا
لا تحسبنّ الهجاء يحفل بالرفع ولا خَفْضَ خافضٍ خَفَضا
ولا تَخَلْ عودتى كباديتى سَأُشْمِطُ السمّ من أبى الحضَضا
أعرف فى الأشقياء بى رجلا لا ينتهى أو يصير لى غَرَضًا
يُليح لى صَفْحَةَ السلامة والسلم ويخفى فى قلبه مَرَضا

أضحى مغيظاً علىّ أنْ غضب ا لّـ له عليه ، ونلتُ منـه رضا
وليس تجدِي عليه موعظتي   إن قدّر الله حَيْنَهُ وقضى
كأننى بالشقىّ معتذرا   إن القوافى أذقْنَهُ المَضَضاَ
ينشدنى العهد يوم ذلك والـ   ـعهدُ خضاب إذا له قبضا(١)
لا يأمـنَنّ السفيهُ بَادِرَتى   فإننى عارضٌ لِمَنْ عَرَضا
عندى له السوط إن تلوّم فى الـ   ـسير وعندى اللّجام إن رَكَضاَ(٢)
أسمعت إنْبَاضَتى أبا حسن   والصفحُ لاشكّ نصحُ من محَضاَ(٣)
وهو معـافى من السهاد فلا   يحمل فيمسى فراشـه قَضَضاَ(٤)
أقسمت بالله لا غفرت لهُ   إنْ واحدٌ من عُروقِه نَبضاَ

فاعتذر إليه ، وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد ــ وكان الأخفش أكثر الناس إخوانا ــ فقبل عذره ، ومدحه بقصيدته التى يقول فيها :

ذُكِرَ الأخفش القديمُ فقلنـا   : إن للأخفش الحديثِ لفَضْـلاَ
وإذا ماحكمت ــ والرومُ قومى ــ   فى كلام مُعرّب كنتُ عَدْلا
أنا بين الخصوم فيـه غريبٌ   لا أرى الزّور للمُحاباة أهـلا
ومتى قلت باطـلا لم ألقَّب   فيلسـوفا ولم أسمَّ هِرَقْلا

* * *

الأخفش القديم هو أبو الخطاب ، وكان أستاذ سيبويه ، وهو من المتقدمين فىالنحو ، ويُعْرَف بالأخفش الـكبير ، وكان فىعصرسيبويه [أيضاً] أبوالحسن سعيد بن مسعدة ، وهو الأَخْفش الصغير ، وهو الذى قال : كان سيبويه يَعْرِض ماوَضَع من النحو علىّ ، ويَرى أنى أعلَمُ منه ، وكان فىوقته ذلك أعلم منى .

(١) فى نسخة « وللعهد خضاب أذاله فنضا » (م)
(٢) تلوم : تمهل وتمكث ،وركض :أسرع (م) (٣) إنباضتى : أراد صوتى (م)
(٤) القضض التراب أوصغار الحصى ، والمراد أنه لا يتمكن من النوم (م) .

ثم عاد على بن سليمان إلى أذاه ، واتصــل به أنّ رجلا عرض عليه قصيدة من شعره فطعَن عليها ، فقال قصيدته التى يقولُ فيها :

أعتقتُ عبدىَّ فى القريض معا ... عبدةَ والفَحْل من بنى عَبَدَهْ
إن أنا لم أرم بالإساءة مَنْ ... زَاغَ عن القَصْد أو أبى سددَهْ
قلت لمن قال لى عرضت على الْ ... أخفش ما قلته فمــا حَمِدَهْ
قصرت بالشعر حين تعرضــه ... على مبــين العمى إذا انتقدهْ
أنشــدته مَنْطِقى ليشهدَه ... فغاب عنــه عمًى وما شَهِدَهْ
ما بلغَتْ بى الخطوب رتبة مَنْ ... تَفْهَمُ عنه الكلابُ والقِرَدَه
ولا أنا المفهم البهائم والــطــير سليمانُ قاهرُ المَرَدَه
فإن يقل إننى حفظت فكالــد فتر جَهْلاً بكل ما اعتَقَدَه
سأُسمع النــاسَ ذَمَّهُ أبداً ... ما سَمِــع اللهُ حَمْدَ مَنْ حمده

عَبْدة بن الطبيب، وعلقمة بن عبدة الفحل ،وكانا شاعرين مجيدين ، وقال علقمة ابن عَبَدة لرجل ورأى آخر يعتذرُ إليه وهو معبّس فى وجهه : إذا اعتذر إليك المعتذر فتلقّه بوجه مُشْرِق ، و بِشْر مطلَق؛ ليتبسط المتذلّل، و يؤمّن المتنصّل .

ولابن الرومى فى الأخفش إلحاش صُنْتُ الـكتابَ عنه .

* * *

من آثار تطير ابن الرومى

قال علىُّ بن إبراهيم كاتب مسروق البلخى : كنت بدارى جالساً فإذا حجارة سقطَتْ بالقرب منى، فبادرتُ هار با، وأمرتُ الغلام بالصعود إلى السّطْح، والنظر إلى كل ناحية ؛ من أين تأتينا الحجارة ، فقال : امرأةٌ من دارِ ابن الرومى الشاعر ! قد تشوّفَتْ وقالت : اتقوا الله فينا ، واسقونا جَرَّة من ماء ، و إلاّ هلَـكْنا ، فقد مات مَنْ عندنا عطشا .

فتقدمتُ إلى امرأةٍ عندنا ذات عَقْل ومعرفة أَنْ تصــعدَ إليها وتخاطبها ، ففعلَتْ و بادرتْ بالجرّة ، وأتبعَتْها شيئاً من المأكول ؛ ثم عادتْ إلىّ فقالت :

ذكرت المرأةُ أنّ الباب عليهـا مُقْفَلٌ من ثلاث بسببِ طِيَرة ابن الرومى ، وذلك أنه يَلْبَس ثيابَه كلَّ يوم ، ويتعوّذُ ثم يصيرُ إلى الباب ، والمِفْتاحُ معه ، فيضعُ عينَه على ثَقْبٍ فى خشب الباب ، فتقعُ عينُه على جارٍ له كان نازلا بإزائه ، وكان أحْدَب يقعُد كل يومٍ على بابه ، فإذا نظر إليـه رجع وخلع ثيابه ، وقال : لا يفتح أحدٌ البابَ .

فعجبتُ لحديثها ، وبعثتُ بخادمٍ كان يعرفه ، فأمرتُه بأن يجلس بإزائه - وكانت العينُ تَميلُ إليه - وتقدّمت إلى بعض أعوانى أن يَدْعوَ الجار الأحدب ؛ فلما حضر عندى أرسلتُ وراءَ غلامى ؛ لينهض إلى ابن الرومى ، ويستَدْعيه الحضور ؛ فإنى لجالسٌ ومعى الأحدب إذْ وافى أبو حذيفة الطَّرَسُوسِىّ ومعه بِرْذَعَة الموسوس صاحبُ المعتضد ، ودخـل ابن الرومى ، فلما تخطّى عتبة باب الصَّحْن عَثَر فانقطع شِسْعُ نَعْـله ، فدخل مذعورا ؛ وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدلّ على تغـيرِ حالٍ ؛ فدخل وهو لا يَرَى جارَه المتطيّر منه ، فقلت له : يا أبا الحسن ، أيكون شىء فى خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ، ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال : وقد لحقنى ما رَأيت من العَثْرَة ، لأنى فـكرت أنَّ به عاهة ! وهى قطع انْثَيَيْه ، قال بِرْذَعة : وشيخُنا يتطيّر ؟ قلت : نعم ويُفْرط ، قال : ومن هو ؟ قلت : على بن العباس ، قال : الشاعر ؟ قلت : نعم ، فأقبل عليه وأنشده :

ولـما رأيت الدهرَ يُؤْذِنُ صَرْفُه ... بتَفْريق ما بينى وبين الحبائبِ
رجعتُ إلى نفسى فوطَّنْتُها على ... ركوبِ جميلِ الصَّبْرِ عند النوائبِ
ومَنْ صَحِبَ الدنيا على جَوْرِ حُـكْمِها ... فأيامُه مَحْفُوفَةٌ بالمصائبِ
فخُذْ خُلْسَةً من كل يومٍ تعيشُه ... وكُنْ حَذِراً من كامِنَاتِ العواقب
ودعْ عنكَ ذِكْرَ الفألِ والزّجْرِ واطَّرِح ... تطيُّرَ جَار أو تَفاؤُل صَاحِبِ

فبقى ابن الرومى باهتا ينظرُ إليه ولم أَدْرِ أنه شَغَل قَلْبَه بحفظ ما أنشده ، ثم قام أبو حذيفة وبِرْذَعة معه ، فحلف ابنُ الرومى لا يتطيَّر أبداً من هـذا ولا مِنْ

غيره ، وأومأ إلى جاره ، فقلت : وهذا الفكر أيضاً من التطير ، فأمسك ، وعجب من جودة الشعر ومعناه ، وحُسن مَأْتاهُ ، فقلت له : ليتنا كتبْناه ؟ قال : اكتبه فقد حفظته ، وأملاه علىّ .

من ابن الرومى إلى ابن ثوابة فى التطير

ومن شدة حذره ، وعظيم تطيّره ، قوله لأبى العباس بن ثوابة ، وقد ندَبَه إلى الخروج إليه وركوب دجلة :

حَضَضْتَ على حَطْبِى لِنَارِى فَلاَ تَدَعْ ... لكَ الخَيْرُ ، تَحْذِيرى شُرُورَ المَحاطِبِ

وَمَنْ يَلْقَ مالاقَيْتُ فى كُلِّ مُجْتَنًى ... من الشَّوْكِ يَزْهَدْ فى الثِّمارِ الأطَايبِ

أذاقتْنِىَ الأسْفَارُ مَا كَرَّهَ الغِنَى ... إلىّ ، وأَغْرانِى بِرَفْضِ المَطَالِبِ

وَمِنْ نَكْبَةٍ لاَ قَيْتُهَا بعد نَكْبَةٍ ... رَهِبْتُ اعتِسافَ الأرضِ ذَاتِ المَناكِبِ

فَصَبْرِى على الإقْتَارِ أيْسَرُ مَطْلَباً ... على منَ التَّغْرِيرِ بعد التَّجارِبِ

لَقِيتُ من البَرِّ التَّبارِيحَ بعدما ... لَقِيتُ منَ البَحْرِ ابْيِضاضَ الذَّوائِبِ

سُقِيتُ على رِىٍّ به أَلْفَ مَطْرةٍ ... شُغِفْتُ لِبُغْضِيها بِحُبِّ المَجَادِبِ

ولم أبغِها ، بل ساقَها لمكيدَتى ... تلاعُبُ دَهْرٍ جَدَّ بى كالمُلاعِبِ

أَبَى أنْ يُغيثَ الأرضَ حتى إذا زَمَت ... بِرَحْلِى أتاهَا بالغُيوثِ السَّوَاكِبِ

سَقَى الأرضَ من أجْلِى فأَضْحَتْ مَزَلَّةً ... تَمَايَلَ صاحِيها تمايُلَ شارِبِ

فمِلْتُ إلى خَانٍ مُرِثٍّ بِنَاؤُهُ ... تَمِيلَ غريقِ الثَّوْبِ لَهْفَانَ لاغِبِ

فما زِلْتُ فى جوعٍ وخَوْفٍ وَوَحْشَةٍ ... وفى سَهَرٍ يَسْتَغْرِقُ الليلَ وَاصِبِ

يُؤَرِّقُنِى سَقْفٌ كأنِّىَ تحته ... من الوَكْفِ تحتَ المُدْجِناتِ الهَوَاضِبِ

يَظَلُّ اذا ما الطِّينُ أثْقَلَ مَتْنَهُ ... تَصِرُّ نَواحِيهِ صَرِيرَ الجَنادِبِ

وكم خَانِ سَفْرٍ خَانَ فانقَضَّ فوقهمْ ... كما انْقضَّ صَقْرُ الدَّجْنِ فَوْقَ الأرانبِ

وما زالَ ضاحِى البَرِّ يَضْرِبُ أهْلَهُ ... بِسَوْطَىْ عذابٍ جامِدٍ بعدَ ذائبِ

فإنْ فاتَهُ قَطْرٌ وثَلْجٌ فإنَّهُ ... رَهِينٌ بسافٍ تارةً وبحاصبِ

فذاكَ بلاءُ البَرِّ عِندىَ شاتياً ... وكم لِىَ من صَيفٍ به ذى مَثالِبِ
ألا رُبَّ نارٍ بالفَضاء اصْطَليْتُها ... من الضِّحِّ يُودِى لَفْحُها بالحواجِبِ (١)
فَدَعْ عنكَ ذِكْرَ البَرِّ إنى رأيْتُهُ ... لِمَنْ خافَ هَوْلَ البحرِ شرَّ المهارِب
وما زالَ يَبْغِينى الْحُتوفَ مُوارِباً ... يَحُومُ على قَتْلى وغيرَ مُوارِبِ
فطَوْراً يُغادِينى بِلصٍّ مُصَلَّتٍ ... وطوراً يُمَسِّينى بِوِرْدِ الشَّوارِبِ
وَأَمَّا بَلاءُ البحرِ عندى فإنهَ ... طَوانِى على رَوْعٍ مع الرَّوحِ واقِبِ (٢)
ولو ثابَ عقلى لم أدَعْ ذِكْرَ بعضِهِ ... ولكنّه من هَوْلِه غيرُ ثائِبِ
ولم لا ولو أُلقيتُ فيه وصخرةً ... لَوافَيْتُ منه القَعْرَ أوَّلَ راسبِ
ولم أتعلَّمْ قَطُّ من ذى سِباحَةٍ ... سِوَى الغوصِ والمضعُوفُ غيرُ مُغالِب
وأيْسَرُ إشْفاقى من الماء أنَّنى ... أمُرُّ به فى الكوزِ مَرَّ المُجانِبِ
وأخْشَى الرَّدَى منه على كلِّ شارِبٍ ... فكيف بأمْنِيهِ على نَفْسِ راكِبِ

أخذه من قول أبى نُوَاس وقد رأى التمساح بمصرَ أخذَ رجلا :

أضْمَرْتُ للنيل هجرانا ومَقْلِيَةً ... مُذْ قيلَ لى إنما التمساحُ فى النيلِ
فمن رأى النيل رأْىَ العين عن كَثَبٍ ... فما أرى النيل إلا فى البراقيل (٣)

رجع

أظَلُّ إذا هَزَّتهُ ريحٌ ولَألأَتْ ... لهُ الشمسُ أمْواجاً طوالَ الغَوارِبِ
كأنى أرَى فيهنَّ فُرْسانَ بُهْمَةٍ ... يُليحُونَ نحوى بالسيوفِ القَواضِبِ (٤)
فإنْ قلتَ لى قد يُرْكَبُ اليَمُّ طامياً ... ودِجْلَةُ عند اليَمِّ بعضُ المَذانِبِ (٥)

---

(١) الضح — بكسر الضاد — الشمس
(٢) واقب : مستكن (م)
(٣) البراقيل : أوانى الشرب
(٤) يليحون : يشيرون
(٥) المذانب : القنوات

فلا عُذْرَ فيها لامْرِیءٍ هَابَ مِثْلَها ... وفی اللُّجَّةِ الخضْرَاءِ عُذْرٌ لِهَائِبِ
لدِجْـلَةَ خِبٌّ لَيْس لليمِّ ؛ إنَّهَا ... تَرَاءَی بِحِلْمٍ تحتَهُ جَهْلُ وَاثِبِ
تطَامَنُ حَتَّى تَطْمَئِنَّ قـلوبُنا ... وتَغْضَبُ منْ مَزْحِ الرِّياحِ اللَّوَاعِبِ
ولِليَمِّ إِنْذَارٌ بغَوْصِ مُتُونِه ... وما فيـه من آذِيِّه المُتَرَاكِبِ[1]

وهی طويلة، وفيما مرّ كفاية تنبیء عنه وتدلّ عليه، ولو مددت أطناب الاختيار لتَتَبُّع هذا النحو من شعره لخرجتُ عن غَرَضِ الـكتاب .

[من مليح العيافة والزجر]

أبو نواس وبعض أصحابه

ومن مليح العيافة والزجر ما رواه الصُّولی ، قال : كان لأبی نواس إخْوانٌ لا يُفَارِقُهم ، فاجتمعوا يوماً فی موضع أَخْفَوْه عنه ، ووجَّهوا إليه برسولٍ معه ظهرُ قرطاس أبيض، لم يكتبوا فيه شيئاً ،فخزَمُوه بزِيرٍ[2]، وختموه بقار ، وتقدموا إلى رسولهم ليرمِیَ بالـكتاب من وراء الباب ؛ فلما رآه استعلم خبَرَهُمْ ، وعلم أنه مِنْ فِعلِهم ، فتعرَّفَ موضِعَهم وآثارَهم ، فأتاهم فأنشدهم :

وجـدتُ كتابَكم لمّا أتانی ... يمرُّ بسـانح الطيرِ الجوَارِی
نظـرت إليه مخـزوماً بزيرٍ ... على ظَهْرٍ ، ومختـوماً بِقَارِ
فقلت : الزِّيرُ مُلْهِيـةٌ وَلَهْوٌ ... وخِلْتُ القارَ من دَنِّ العُقار
وخِلْتُ الظَّهْرَ أَهْيَفَ قُرْطَقِيًّا ... يحيل العقـلَ منه باخْوِرَار[3]
فَهِمْتُ إليـكمُ طَرَبا وشَوْقاً ... فمـا أخطأت دَارَكُمُ بدار
فـكيف ترونی وترون وَجْدِی ... أَلَسْتُ من الفلاسفة الـكبار ؟

لأبی تمام

وقال الطائی :

أتضعضعت عبراتُ عَيْنِك أَنْ دَعَتْ ... ورْقَاءُ حـين تضعضعَ الإظْلَامُ[4]

---

(١) الآذی : الموج (٢) الزير : الوتر
(٣) القرطق : الذی يلبس القرطق ، وهو ضرب من رقيق اللباس
(٤) فی الديوان (٢٧٩) « أتحدرت عبرات عينك »

لا تنشجنّ لها؛ فإنّ بكاءها ضَحِكٌ، وإن بكاءك استغرامُ
هنّ الحَمَام وإنْ كَسَرْتَ عِيافةً مِنْ حائهنّ فإنهنّ حِمَامُ

***

أحمد بن المدبر والجمل الشاعر المصرى

وروى يموت ابن المزرع قال: كان أحمدُ بن المدبر إذا مدحه شاعرٌ فلم يَرْضَ شِعْرَه قال لغلامه: امْضِ به إلى المسجد الجامع فلا تفارقْه حتى يُصلى مائةَ ركعة، ثم خَلِّه؛ فتحاماه الشعراءُ، إلاالأفرادَ المجيدين؛ فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصرى المعروف بالجمل، فاستأذنه فى النشيد، فقال: قد عرفت الشَّرْط؟ قال: نعم، وأنشده:

أَرَدْنَا فى أبى حسَن مَديحاً كما بالمَدْحِ يُنْتَجَعُ الوُلاةُ
فقلنا: أَكْرَمُ الثقلَيْنِ طرًّا ومَنْ كفَّاه دجلةُ والفراتُ
فقالوا: يقبل المدحات لكن جوائزهُ عليهنّ الصَّلاَةُ
فقلت لهم: وما تُغنى صَلاَتى عيالى! إنما الشأْنُ الزَّكَاةُ
[فأما إذْ أبَى إلا صَلاَتى وعاقتنى الهموم الشاغلاتُ]
فيأمر لى بكَسْرِ الصَّاد منها فتصبح لى الصَّلاةُ هى الصِّلاتُ

فضحك واستظرفه، وقال: من أين أخذت هذا؟ قال: من قول أبى تمام الطائى:

هُنّ الحَمَامُ فإن كَسَرْتَ عِيافةً مِنْ حَائِهِنَّ فإنهنّ حِمَام

فأحسن صلته.

لأبى الفضل الميكالى فى أهل مرو

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى لقوم من أهل مَرْو انخلعوا عن طاعته:

يا راكباً أَضْحَى يَخُبُّ بعنسِه لِيؤُمَّ مَرْوَ على الطريق المَهْيَعِ
أَبْلِغْ بها قَوْماً أثارُوا فِتْنَةً ظلَّتْ لها الأكبادُ رَهْنَ تقطّعِ
إذ أقدموا ظُلْماً على سُلْطَانهم بالغَدْرِ والخَلْعِ الذميم المفظِعِ
وبحلِّ عقْدِ لوائهِ وإباحةِ لجنابه وحَريمِه المتمنِّعِ

ابلغهمُ أنى اتخــذت لفعلهم فألاً ، له فى القوم أسوأ موقع
أمّا اللوّاءُ وحــلّه فمخــبِّرٌ عن حَلّ عقدٍ بينهم مُستَجْمِــع
والخلع يُخبر أنْ ستُخلَعُ عنهمُ الـ أرواحُ بالقتْلِ الأشدّ الأشنعِ
والغدرُ ينبىء أنْ تُغادَرَ فى الوَغى أشلاؤهم لنُســوره والأضبُعِ
والفرقتان فشــاهدٌ معناهما بتفــرُّق لجميعهم وتَصَــدُّعِ
فتســمَّعوا لمقالتى وتأهّبُوا بذميم بَغْيــكمُ لشرِّ المَصْرَعِ
فاللهُ ليس بغافــلٍ عن أمرِكم حتى تحلّ بكم عقوبةُ مُوجِــع

الثقفى يصف رجلا يرتاح إليه

قال أبو عثمان الجاحظ : سمعت النظام ، وذكر عبد الوهاب الثّقفى ، قال : هو أحْلى من أمْنٍ بعد خوف ، و بُرْء بعد سَقَم ، ومن خِصْب بعد جَدْب ، وغِنًى بعد فَقْر ، ومن طاعة المحبوب ، وفرج المكروب ، ومن الوصال الدائم ، والشبابِ الناعِم .

[ابن أبى دواد يعفو عن الجاحظ]

ابن أبى دواد والجاحظ

وكان الجاحظ مائلا عن ابنِ أبى دُواد إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، فلما نُكِب محمد بن عبد الملك أدْخِل الجاحظُ على ابنِ أبى دُواد مقيّداً ، فقال له أحمد: والله ما أعْلَمُــك إلاّ متناسِياً للنعمة ، كفوراً للصَّنيعة ، معدّداً للمساوى، وما فتّنى باستِصْلاحى لك ، ولــكن الأيام لا تُصْلِح منك ؛ لفسادِ طوّيتك ، ورداءة دَخِيلتك ، وسوء اختيارِك ، وتغَالُبِ طباعك .

فقال الجاحظ : خفِّض عليك ، أصلحك الله ، فوالله لأنْ يكونَ لك الأمرُ علىّ خيرٌ من أن يكونَ لى عليك ، ولأنْ أُسيء وتحسن أحسنُ فى الأُحْدُوثة من أن أحْسنَ فتسيء ، ولأن تعفوَ عنى على حالِ قدرتِك علىّ أجْمَــلُ بك من الانتقام منى، فعفا عنه[1] .

---

(١) انظر بقية هذا المجلس فى إرشاد الأريب (٦ / ٩٠

[عتبة بن أبى سفيان وأعرابى]

قال سعد مولى عُتْبَةَ بن أبى سفيان : خطب عُتْبَةَ الناسَ فى الموسم سنة إحدى وأربعين ، والناسُ إذ ذاك حديثو عَهْدٍ بالفتنة ؛ فقال : قد وَلينا هذا المقام الذى يُضَاعَفُ فيه للمحسن الأَجْرُ ، وللمُسِيء الوِزْر ؛ ونحن على سبيل قَصْد ، فلا تمدُّوا الأعناقَ إلى غيرنا ؛ فإنها تُقْطَعُ دوننا ؛ فربَّ مُتَمَنٍّ أمراً حَتْفُه فى أمنيته؛ فاقبلوا منا العافية ماقبِلْنَاها منكم[1] ؛ وأنا أسأل الله أن يُعِين كلاًّ على كلّ .

فناداه أعرابىٌّ من ناحية المسجد : أيها الخليفة ، فقال : لستُ به ولم تُبْعِد ، قال : يا أخاه ، قال : سمعتُ فقل ، فقال : والله لانْ تحسنوا وقد أسأْنا خيرٌ من أن تسيئوا وقد أحسنّا ، فإن كان الإحسان منكم فما أوْلاَكم بإتمامه ، وإن كان منّا فما أوْلاَكم بمكافأتنا عليه ، وأنا رجلٌ من بنى عامر بن صعصعة يمتُّ بالعمومة ويختصُّ بالخؤولة ، كَثُرَ عِيالُه ، ووَطِئه زمانُه ، [وبه فقر] وفيه أجر ، وعنده شُكْر .

فقال له عتبة : أستغفر الله منك ، وأستعين به عليك ، وقد أمَرْتُ لك بغناك، فليت إسراعى إليك يقوم بإبطائى عنك !

[بين الجاحظ وابن الزيات]

قال الجاحظ : تشاغلت مع الحسن بن وَهْب أخى سليمان بن وهب بشُرْبِ النبيذ أياماً ، فطلبنى محمدُ بن عبد الملك لمؤانسته ، فأُخْبِرَ باتصالِ شغْلى مع الحسن ابن وهب ، فتنكَّر لى ، وتلوَّن علىّ ؛ فكتبتُ إليه رقعة نسختها : أعاذك الله من سُوءِ الغَضَب ، وعَصَمَكَ مِن سَرَفِ الهوى ، وصَرَفَ ما أعارَكَ من القوّة إلى حبِّ الإنصاف ، ورجّح فى قلبك إيثار الاناة ، فقد خِفْتُ — أيّدك الله ! —

(١) زاد فى الأمالى (٢٣٦/١) «وأياكم ولوا ؛ فإنها أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم » .

أن أكون عندك من المنسوبين إلى نَزَقِ السفهاء ، ومُجانَبة سُبُلِ الحكماء ، وبعدُ ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن امرأً أمسى وأصبح سالمًا من الناس إلا ما جَنَى لَسَعِيدُ

وقال الآخر:

ومن دعا الناس إلى ذَمِّه ذَمُّوهُ بالحقِّ وبالْبَاطِلِ

فإن كنتُ اجترأْتُ عليك — أصلحك الله! — فلم اجترئْ إلا لأنَّ دوامَ تغافلك عنى شبيهٌ بالإهمال ، الذى يُورِثُ الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمنُ مِنَ المكافأة ، ولذلك قال عُيَيْنة بن حِصْن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لى منك ، أرْهَبنى فأتقانى ، وأعْطانى فأغنانى ، فإن كنت لا تَهَبُ عقابى ـ أيدك الله ! ـ لخدْمَة فهبْه لأياديك عندى ؛ فإنَّ النعمةَ تشفع فى النِّقْمة ، وإلا تفعلْ ذلك لذلك فعُدْ إلى حُسْن العادة ، وإلاّ فافعَلْ ذلك لحُسْن الأحدوثة ؛ وإلا فأتِ ما أنْتَ أهلُه من العفو دون ما أنا أهلُه من استحقاق العقوبة ، فسبحان مَن جعلك تَعْفُو عن المتعمّد ، وتتجافى عن عقابِ المُصِرّ ، حتى إذا صرت الى مَنْ هَفْوَته ذِكْرٌ ، وذَنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكرَ إلاّ لك ، والإنعامَ إلا منك هجمتَ عليه بالعقوبة . واعلم ـ أيَّدَكَ الله ! ـ أنَّ شَيْنَ غضبك علىّ كزَيْنِ صَفْحِك عنى ، وأنّ موت ذِكْرِى مع انقطاع سببى منك كحياةِ ذكرك مع اتصال سببى بك ، واعلم أنَّ لكَ فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام .

[من كلام على ـ رضى الله عنه !ـ فى أعجب ما فى الإنسان]

قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أَعْجَبُ ما فى الإنسان قَلْبُهُ ، وله موادّ من الحكمة ، وأضْدَاد من خِلَافها ؛ فإنْ سَنَح له الرجاء أذَلَّه الطمع ، وإن هاجه الطَّمَعُ أهلكه الحِرْص ، وإن مَلَكه اليَأْسُ قَتَله الأسَف ، وإن عرض له الغضب اشتدَّ به الغَيْظ ، وإنْ أُسْعد بالرضا نَسِىَ التحفظ ، وإن أتاه الخوفُ

شغله الحذَر ، وإن اتّسع له الأمْن استلبته الغِرّة ، وإن أصابته مصيبة فَضَحه الجَزَع ، وإن استفاد مالاً أطْغاه الغِنَى ، وإنْ عضّته فاقةٌ بلغ به البلاء ، وإن جَهد به الجوعُ قعد به الضّعْف ، وإن أفرط فى الشبع كَظّتْه البِطْنَة ، فكلُّ تقصيرٍ مُضِرٌّ ، وكلّ إفراطٍ له قَاتِل .

* * *

لعبد الرحمن بن حسان

البيت الذى أنشده الجاحظ لعبد الرحمن بن حسان فى أبيات يقول فيها :

متى مايَرَى الناسُ الغنىَّ وجارُهُ فقيرٌ يقولوا : عاجزٌ وجَليدُ
وليس الغِنَى والفقْرُ من حيلةِ الفتى ولٰكِنْ أَحَاظٍ قُسِّمَتْ وجُدُودُ
وإن امرأً يُمْسِى ويُصْبِحُ سالما من النـاسِ إلاّ ما جَنَى لَسَعيد

لمحمد بن حازم الباهلى

والبيت الذى أنشده بعده لمحمد بن حازم الباهلى فى أبياتٍ يقول فيها :

إنْ كنتَ لا تَرْهَبُ ذَمِّى لما تعلم مِنْ صَفْحِى عن الجاهلِ
فاخْشَ سكوتى آذِناً مُنْصِتا فيك لمسموعِ خَنَى الْقَائلِ (١)
فسامعُ الشرِّ شَرِيكٌ لهُ وَمُطْعِمُ المأْكُولِ كالآكِلِ
مقالة السوء إلى أهلها أسْرَعُ مِنْ مُنْحَدَرٍ سائلِ
ومَنْ دعا النـاسَ إلى ذَمّهِ ذَمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ
فلا تهِجْ ، إن كُنْتَ ذا إِرْبَةٍ ، حَرْبَ أخِى التجربةِ الْغَافِلِ
فإنّ ذا العقلِ إذا هِجْتَهُ هِجْتَ به ذا خَبَلٍ خَابِلِ
تُبْصِرُ فى عاجلِ شَدَّاتِه عليك غِبَّ الضَّرَرِ الآجلِ

للجاحظ فى ابن الزيات

وفى ابن الزيات يقول الجاحظ :

بَدَا حين أَثْرَى لإخوانِه ففلَّلَ منهم شَباةَ العَدَمْ
وأبصر كيف انتقالُ الزمانِ فبادَرَ بالعُرْفِ قبل النَّدَمْ

[الجاحظ ورجل من البرامكة فى مرضه]

قال بعضُ البرامكة : كنتُ أتقلد السندَ ، فاتصل بى أنى صُرِفْتُ عنها ،

---

(١) حفظى « فاخش سكوتى إذ أنا منصت » (م)

وكنت كسبت ثلاثين ألف دينار ، فَخِفْتُ أن يَفجَأَنى الصارف ، ويُسْعَى إليه بالمال، فصُغْتُهُ عشرة آلاف إهْلِيلَجَة[1] فى كل إهليلَجَة ثلاثةُ مثاقيل ، وجعلتها فى رَحْلى ، ولم أبعد أن جاء الصارف ؛ فركِبْتُ البحرَ ، وانْحَدرتُ إلى البصرةِ ؛ فخُبِّرْتُ أن بها الجاحظ ، وأنه عليل ؛ فأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصِرْتُ إليه ، فأفضيتُ إلى بابِ دارٍ لطيف ، فَقَرَعْتُه ، فخرجَتْ إلىَّ خادمٌ صفراء ، فقالت : مَنْ أنت ؟ فقلت : رجل غريب أحَبَّ أن يدخل إلى الشيخ فيُسَرَّ بالنظر إليه ، فأَدت ماقلتُ ، وكانت المسافة قريبة لصغر الدهليز والحجرة ، فسمعته يقول: قولى له : وما تصنع بشق مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل ؟ فأخبرتنى ، فقلت : لا بدَّ من الوصول إليه ، فقال : هذا رجل قد اجتاز بالبَصْرَة ، فسمع بى و بِعلتى ، فقال : أراه قبل موته ؛ لأقول : قد رأيت الجاحظ .

فدخلت فسلمت فردَّ ردًّا جميلا واستَدْنَانى ، وقال : مَنْ تكون ؟ أعزك الله ! فانتَسَبْتُ له ، فقال : رحم الله أباك وقومك الأسخياء الأجواد ، الكرام الأمجاد ، لقد كانت أيامُهم رَوْضَ الأزمنة ، ولقد انجبر بهم خلق ، فسقياً لهم ورعياً ؛ فدعوت له ، وقلت : أنا أسألُ الشيخ أن يُنْشِدَنى شيئاً من الشعر أذكره به ، فأنشدنى :

لئن قُدِّمَتْ قبلى رِجالٌ فطالما ... مَشَيْتُ على رِسْلِى فكنت المقدَّما[1]

ولكنَّ هذا الدهرَ تأتى ضروفُه ... فتُبْرِمُ منقوضاً ، وتنقضُ مُبْرَما

ثم نهضتُ ، فلما قاربتُ الدهليز صاحَ بى فقال : يا فتى ؛ أرأيتَ مفلوجا يَنفَعُه الإهليلج ؟ فقلت : لا ، قال : فأنا ينفعنى الإهليلج الذى معك ، فأنْفِذْ إلىَّ منه ، فقلت : السمع والطاعة ، وخرجت مُفْرِط التعجب من وقوعه على خَبَرِى ، حتى كأنَّ بعضَ أحبابى كاتَبَه بخبَرِى حين صُغْتُه ، فأَنْفَذْتُ إليه مائة إهليلجة .

---

(١) الإهليلج : ثمر قريب الشكل من البلح ، والواحدة بهاء ، يريد أنه صاغ الذهب على شكل الإهليلج (م)

المقامة الجاحظية

مقامة من إنشاء البديع تتعلق بذكر الجاحظ]

قال : حدثنا عيسى بن هشام قال : جمعتني مع رُفقة وَليمةٌ ، وأجبْتُ إليها للحديث المأثور فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو دُعيتُ إلى كُرَاع لأجبْتُ ، ولو أُهْدِيَ اليَّ ذراع لقبلت » ، فأفضى بنا المسيرُ إلى دار قد فُرِش بساطُها ، و بُسِطت أنماطها ، ومُدَّ سِمَاطُها ، وقوم قد أخذوا الوقت بين آسٍ مخضود ، ووَرْدٍ منضود ، ودَنّ مَفْصود ، ونَاى وعود ؛ فصِرْنا إليهم وصاروا إلينا ، ثم عكفنا على خِوَان قد مُلِئَتْ حياضُه ، ونوَّرَت رياضُه ، واصطفت جِفَانُه ، واختلفت ألوانُه ؛ فمن حالِك بإزائه نَاصع ، ومن قانٍ فى تلقائه فَاقعٌ ، ومعنا على الطعام رَجلٌ تُسَافِرُ يَدُه على الخِوَان ، وتَسْفِرُ بين الألوان ، وتأخذُ وجوهَ الرُّغفان ، وتَفقَأ عيونَ الجِفَان ، وترْعَى أرْضَ الجيران[1] ؛ يَزْحَم اللقْمَة باللقمة ، ويهزِمُ المَضْغَة بالمضغة ، وهو مع ذلك ساكتٌ لا يَنْبِس ، ونحن فى الحديث نجرى معه حتى وقف بنا على ذِكْرِ الجاحظ وخَطَابته ، ووَصف ابن المقفَّع وذَرابتهِ ، ووافق أول الحديث آخِرَ الخِوَان ، وزُلنا عن ذَلِك المكان ، فقال الرجلُ : أين أنتم من الحديثِ الذى فيه كنتم ، فأخذنا فى وصف الجاحظ ولَسَنِه ، وحُسْن سَنَنِه فى الفصاحة وسُنَنه فيما عرفناه ؛ فقال : يا قومُ ؛ لكلٍّ عمل رجال ، ولكل مقام مَقَالٌ ، ولكل دارٍ سُكَّان ، ولكل زمان جاحظ ، ولو انتقدتم ، لبطَلَ ما اعتقدتُمْ ، فكلٌّ كشرَ له عن ناب الإنكار ، وشمَّ بأنْفِ الإكبار ، وضَحِكْتُ إليه ، لأجلبَ ما لديْه ، وقلت : أَفِدْنا وزِدْنا ، فقال : إنَّ الجاحظَ فى أحدِ شقى البلاغة يَقْطِف ؛ وفى الآخر يَقِف ، والبليغُ من لم يُقصِّر نظمُه عن نَثْرِه ، ولم يُزْرِ كلامُه بشعرِه ، فهل تَرْوُونَ

[1] فى المقامات « تجول فى القصعة ، كالرخ فى الرقعة » — والرخ : قطعة فى لعبة الشطرنج تسير يمينا وشمالا وخلفا وأماما من أول الرقعة إلى آخرها (م)

للجاحظ شعرا رائعا ؟ قلنا : لا ، قال : فهلمّوا إلى كلامه ؛ فهو بعيدُ الإشارات ، قريبُ العبارات ، قليل الاستعارات ، منقادٌ لعريان الكلام يستعمِله ، نفورٌ من مُعْتاصِه يُهْمِله ، فهل سمعتم له بكلمةٍ غيرِ مسموعة ، أو لفظة غير مصنوعة ؟ فقلت : لا ، فقال : هل تحبّ أن تَسْمَعَ من الكلام ما يخفِّفُ عن مَنْكِبَيْك ، ويَنِمُّ على مافى يدَيك ؟ فقلت : إى والله ، قال : فأطلق لى عن خِنْصَرِك مايعين على شكرك ، فأنلته ردائى ، فقال :

لعَمْرُ الذى أَلْقَى إلىّ ثيابهُ ‌‌‌‌‌‌ لقد كسبت تلك الثيابُ به مَجدا

وقد قَمَرَتهُ راحة الجود بِزّةً ‌‌‌‌‌‌ فما ضربتْ قِدْحاً ولا نصبتْ نَرْدَا

أعِدْ نظراً يا مَنْ كَسانى ثيابهُ ‌‌‌‌‌‌ ولا تَدَعِ الأيامَ تَهْدِمُنى هَدَّا

وقل للألى إنْ أسْفَرُوا أَسْفَرُوا ضُحًى ‌‌‌‌‌‌ وإن طلعوا فى غُمَّةٍ طلعوا وردَا

صِلُوا رَحِمَ العَلْيَا وبُلوا لهَاتَها ‌‌‌‌‌‌ فخيرُ النَّدَى ما سَحَّ وابله نَقْدَا

قال عيسى بن هشام : فارتاحت الجماعة إليه ، وانثالت الصِّلاتُ عليه ، وقلت لما تآنسْنَا : من أين مطلع هذا البدر ؟ فقال :

إسكندريةُ دارى ‌‌‌‌‌‌ لو قرّ فيها قرارى

لكِنّ ليلى بنجْدٍ ‌‌‌‌‌‌ وبالحجازِ نَهارى

[من كلام الملوك]

من كلام أردشير ابن بابك

تظلمت رعيّة أردشير بن بابك إليه فى سنة مُجْدِبة لعَجْزِهم عن الخراجِ ، وسألته أن يخفّفه عنهم ؛ فكتب لهم ما نسخته : من أردشير المزيد بالبهاء ، ابن الملوك العظماء ، إلى الفقهاءِ الذين هم حَفَظةُ البيضة ، والكُتّاب الذين هم ساسَة المملكة ، وذوى الحرث الذين هم عمرَة البلاد ، أما بَعْدُ ، فإنّا نحمدُ الله تعالى حَمْدَ الصالحين ، وقد وضعنا عن رعيتنا بفَضْل رأفتنا إتاوتنا الموظَّفة عليهم سنتنا هذه ، ونحن كاتبون مع ذلك نُمليهم بوصية تنفعُ الكلّ : لا تستشعروا الحِقْدَ

لئلا يَغْلِبَ عليكم العدوّ ، ولا تحبوا الاحتكار لئلا يشملكم القَحْط ، وكونوا للغرباء مُؤْوِين ، لتؤووا غدا فى المعاد ، وتزوّجُوا فى القرابة فإنه أحْسَنُ للرحم ، وأثبتُ للنَّسَبِ ، ولاتعدُّوا هذه الدنيا شيئا فإنها لاتُبْقِى على أحد ، ولاتَرْفُضُوها مع ذلك ؛ فإن الآخرة لا تُنَالُ إلا بها .

من كلام بزرجمهر

وقيل لبزرجمهر : أىُّ الاكتساب أفضل ؟ قال : العلمُ والأدب كنزَانِ لاينْفَدان ، وسِرَاجانِ لا يُطْفآن ، وحُلَّتان لا تَبْلَيَان ؛ مَنْ نالهما نَالَ أسبَاب الرشاد وعَرَفَ طريق المَعَاد ، وعاش رفيعاً بين العِبَاد .

من كلام أنوشروان

وقال أنوشروان لبزرجمهر لما ظفر به : الحمد لله الذى أظْفَرنى بك ، قال له : فكافِئْه بما يحبُّ كما أعطاك ما تحبّ . قال : وبم أكافِئه يا فاسقُ؟ قال : بالعفو عمَّنْ أظفرك به اليوم كما تحب أَنْ يعفوَ عنك غدا .

ونظيرُ هذا الكلام قد تقدّم لعلىّ رضى الله عنه .

وقيل لكسرى : أىُّ الملوك أفضل ؟ قال : الذى إذا جاوَرْته وجَدْتَه عليما ، وإذا خبرته وجدتَه حكيما ، وإذا أغضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا استمنح منح جسيما ، وإذا وعدَ وفى ، وإن كان الوعد عظيما ، وإذا شُكِى إليه وُجد رحيما .

[من رسائل الميكالى]

كتاب منه للثعالبى

كتب الأمير أبو الفضل الميكالى إلى أبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى : كتابى وأنا أشكو إليك شَوْقاً لو عالجه الأعرابى لما صَبَا إلى رَمْل عالج ، أو كابَدَه الخَلِيُّ لا نْثَنَى على كَبِدٍ ذَاتِ حُرَقٍ ولَوَاعِج ؛ وأذمُّ زماناً يفرِّقُ فلا يحسن جمعاً ، ويخرق فلا ينوى رَقْعا ، ويُوجِعُ القلب بتفريق شَمْلِ ذوى الوِدَاد ، ثم يبخلُ عليهم بما يَشْفِى الصدور والأكباد ؛ قاسِى القلبِ فلا

يلينُ لاستعطاف ، جائر الحُكْمِ فلا يميلُ إلى إنصاف ، وكم أستَعْدِى على صَرْفِه وأستَنْجِد ، وأتَلَظَّى غيظا عليه وأنشد :

متى وعسى يَثْنِى الزمانُ عِنانَه   بعَثْرَة حالٍ والزّمَانُ عَثُورُ
فتُدْرَكَ آمالٌ وتُقْضَى مآرِبٌ   وتحدُث من بعد الأُمور أُمُور

وكَلاً ، فما على الدهر عَتْب ، ولا له على أهْلِه ذَنْب ؛ وإنما هى أقدار تَجْرِى كما شاء مُجْرِيها ، وتَنْفُذ كالسهام إلى مَرَاميها ؛ فهى تدورُ بالمكروه والمحبوب ، على الحُكم المقدور والمكتوب ، لا على شهوات النفوس وإرادات القلوب ؛ وإذا أراد اللهُ تعالى أذن فى تقريب البعيد النازح ، وتسهيل الصَّعب الجامح ، فيعود الأُنْسُ بلقاءك الإخوان كأنمّ مالم يزل معهوداً ، ويجدد للمذاكرة والمؤانسة رسوماً وعهوداً ؛ إنه الملِبّى به ، والقادِرُ عليه .

كتاب منه إلى أبيه

وله إلى أبيه : ولو مَلَكْتُ عِنانَ اختيارى ، وأسعفنى ببعض ما أقترحه القَدَرُ الجارى ، لما غِبْتُ عن حضرته ـ آنسها الله ! ـ ساعةً من دهرى ، كما لا أعُدّ ساعاتِ بُعْدِى عنها وإخلائى لبابها من أيام عمرى ؛ ولكنت أبداً ماثِلاً بها فى زمرة الخدم والعبيد ، جامعاً بها بين حاشيتى العز المديد ، والشرف العتيد ؛ لا سيا فى هذا الوقت وقد أشرقت البلاد بنور طلعته التى هى فى ظلمة الدّهر صباح ، وعز مطالعته التى فيها لصدور ذوى الشَّنأ شجاً ولزَنْدِ الآمال اقتداح ، ومعاودة ظِلِّهِ التى أضْحَتِ الشمسُ من حساده ، والزمان من عدد ساكنيه وعتاده ، إلا أن الحريص ـ كما علمه مولانا ـ مُخلى عن أعذب موارده ، وممنوع بالعوائق عن أكرم مطالعه ومقاصده .

كتاب منه يستفتح به مكاتبة أخ

وله يستفتح مكاتبة بعض إخوانه :

أنا وإن لم تتقدم بينى وبينه المكاتبة ، وعادة المساجلة والمفاوضة ، من فرط حِرْصى على افتتاحها وتعاطيها ، واعتراض العوائق دون المرادِ والغرض فيها ، فإن

قلبى بودّه مَغْمُور ، وضميرى على مُصافَاته مقصور ، فاعتدادُه لفضائله التى أصبح فيها أوْحَدِىّ العِنان ، وزاحم فيها مَنْكِب العَنان[1] ، واستأثر فيها بالغُرَر والأوْضَاح ، ما أوْفى بها على غُرّةِ الصباح ، حتى تشاهدَتْ بها ضمائرُ القلوب ، وتهادَتْ أنباءها ألسِنَة البعيد والقريب ، اعتدادَ من يَجْمَعُ بالاعتداد لهـا بين شهادةِ قلبه ولسانه ، ومَنْ ينظم فى إجلالِ قَدْرِها صفقةَ إسرارِه وإعلانه ، فهو يتنسَّمُ الريح إذا هبَّتْ من ناحيته شوقا ونزاعا ، ويَسْتَمْلى الوارد والصادِرَ خبرَ سلامته انصياعا بالودّ إليه وانقطاعا .

فقر من كلامه

شذور من كلامه فى أثناء رسائل شتى : أياديه التى غمرتنى سِجَالُها ، واتَّسع عندى مَجَالُها ، وأعْيَا شكرى عَفْوها وانثِيالها ، تناولت فيها المُنَى دانيةَ القطوف ، واجتليت أنوار العيش مأمونة الـكسوف ، ليس يكادُ يبرد غليلُ شوقى وحنينى ، أو ترجع نافرة انسى وسكونى ، أو تَخْلو من الاهتمام والفـكرة فيه خواطرى وظنونى، إلا بالتقاء يدنو أمدُه ، ويَقْرُبُ مَوْعِدُه ، وتعلوعلى الفراق يَدُه ، فنعاوِد العيشَ طَلْقاً غزيراً ، ونجتنى ثمرَ المُنَى غَضًّا نضيراً ، ونَجْتَلى وجهَ الزمان مُشرِقا منيراً . فوائده لها عندى أثرُ الغَمام أو أنفع ، ومحلُّ السِّمَاكِ أو أرفع . حالى فى مفارقة حَضْرَته حالُ بناتِ الماء قد نَضَب عنها الغَدِير، ونباتِ الأرض[2] أخطأها النَّوْء المطيرُ . لهفى على دهر الحداثة إذ غُصْنُ شبابى غضّ وَريق ، ونَقْلُ شرابى عضٌّ وريق . كلامٌ أحلى من ريق النحل ، وأصْفَى من رَيق الوبل . من تسوّد قبل وقته وآلته ، فقد تعرَّض لِمَقْته وإذالته . نظمه له :

إن مَنْ يلتمس الصَّدْ رَ بلا وَقْتٍ وآلَهْ

لحقيق أنْ يُلَقَّى كل مَقْتٍ وإذاله

الشكلُ للـكتاب ، كالحلى للـكعاب . لو كان الشبابُ فِضّة لـكان الشيبُ له خبثاً . النعمة عروسٌ مَهْرُها الشـكر ، وثوبٌ صَوْنُه النّشر . الخضاب تذكرة الشباب . لاتقاسُ المَهاوى بالمَرَاقى ، ولا الأقدام بالتَّراقى ، ولا البحورُ بالسواقى .

---

(١) العنان بكسر العين : أصله ماتقاد به الدابة ، وبفتح العين : السحاب (م) .
(٢) فى المطبوعات كلها « وبنات الأرض » (م) .

كم أبلانى من عُرْفٍ جزيل لا يُبْلِى الدهرُ جِدَّةَ رِدَائه ، وقضانى من دَيْن تأميل لا يَقْضِى الشكرُ حقَّ نعمائه . الشكر للنعمة نتاج ، والكُفْرَان لها رِتاج ، وكلما زدت النعمةَ شكراً ، زادت طيباً ونَشْراً .

قطعة من شعره فى تجنيس القوافى

قال فى أبيه :

مبدعاً فى شمائل المجـــدِ خِيماً . ما اهتدَيْنا لأَخْـذِه واقتباسِه(١)

فهو فظٌّ بالمـالِ وقت نداهُ وجَوادٌ بالعفو فى وَقْتِ باسِهْ

وقال فيه :

إذا ما جادَ بالأموال ثنَّى ولم تُدْرِكْهُ فى الجودِ الندامَهْ

وإن هَجَسَتْ خواطِرُه بجَمْع لرَيْبِ حوادثٍ قال الندى مَه(٢)

وقال فيه :

ولما تنازع صَرْفُ الزمان فزِعْنَا إلى سيدٍ نَابِهِ

إذا كشَّرَ الدهرُ عَنْ نابهِ كشفْنَا الحوادثَ عنَّا بِهِ

وقال فيه :

إنْ نابنــا خَطْبٌ فآراؤُهُ تغنى عن الجيش وتَسْرِيبهِ

وإن دَجَا ليـلٌ بَدَا نورهُ للرَّكْبِ نَجْما فهو يَسْرِى بِهِ

وقال يفتخر :

وكم حاسـدٍ لى انْبَرى فانْثَنَى لِعَضَّة نَفْس شَجَاها شَجَاهَا

ومن أينَ يَسْمُو لنَيْلِ العُـلاَ وما بَثَّ مالاً ولا رَاشَ جَاهَا

ومنها قوله :

وسائلةٍ تُسَائِلُ عن نعالى وعمَّا حازَ فى الدنيا جَمَالى

---

(١) الخيم ــ بكسر الخاء ــ السجية والطبع (م).
(٢) الندى : الجود والكرم ، ومه : اسم فعل معناه اكفف (م).

فقلت : إلى المعالى حَنَّ قلبى وفى سُبُلِ المكارم لجّ مَالِى
وللعليــاء نَهْجٌ مستقيمٌ فمالى تاركاً ذَا النَّهْجَ مَالِى
إذا أسرجْتُ فى فَخْرٍ سَمَابى فمالى والنِّجارُ فألْجمَالى

وقال فى نوع من هذا الجنس :

ومَنْ يَسْرِ فوقَ الأرض يطلبُ غايةً من المجد يَسْرِى فوق جُمْجُمَةِ النَّسْر
ومن يختلفْ فى العالمين نِجارُهُ فإنّا من العلياء نَجْرِى على نَجْرٍ [1]
ومن يتّجِرْ فى المال يَكْسِبُ ربحُهُ فبالمال نَشْرِى رابحَ الحَمْدِ والذِّكْر

***

وعلى نحو هذا الحذو يقول أبو الفتح البستى :

لأبى الفتح البستى

أبا العبـــاس لا تحسب بأنى لشىء من حُـلَى الأَشْعَارِ عار
ولى طَبْع كسَلْسَالِ المجارى زُلاَلٌ من ذُرَا الأَحجارِ جَارِى
إذا ما أَكْبَتِ الأدوار زَنْداً فلِى زَنْدٌ على الأَدْوَارِ وَارِى

وقال أبو الفتح البستى أيضاً :

بسَيْفِ الدولةِ اتَّسَقَتْ أُمورٌ رأيناها مُبَدَّدةَ النِّظَامِ
سَمَا وحمى بنى سامٍ وحَامٍ فليس كمثلِه سامٍ وحامٍ

[أدب الحاجب]

بين ملك وحاجبه

قال بعضُ الملوكِ لحاجبه : إنكَ عينى التى أَنْظُرُ بها ، وجُنَّتى التى أستنيم إليها ؛ وقد ولَّيتُك بَابى ، فما تراكَ صانعاً برعيَّتى ؟

قال : أنظرُ إليهم بعينك ، وأحملهم على قَدْرِ منازلهم عندك ، وأَضَعهم لك فى إبطائهم عن بابك ولزومهم خِدْمتك مواضع استحقاقهم ، وأُرَتِّبهم حيث جعلهم ترتيبك ، وأُحسِنُ إبلاغَكَ عنهم ، وإبلاغَهم عنك .

---

(١) النجر : الأصل ، ومثله النجار . بزنة الكتاب .

قال : قد وَفَيْتَ بمـا عليك قولا ، إن وَفَيْتَ به فعلا ؛ والله ولىّ كفايتك ومعونتك .

وصية المهدى للفضل ابن الربيع

قال المهدى للفضل بن الربيع : إنى قد وَلَّيتُك سَتْرَ وجهى وكَشْفَه ، فلا تجعل الستر بينى وبين خواصّى سبباً لضِغْنهم بِقُبْح رَدِّكَ ، وعُبُوسِ وَجْهك ؟ وقدّم أبناء الدعوة ؛ فإنهم أوْلَى بالتقديم ، وثَنِّ بالاولياء ، واجعل للعامة وَقتاً إذا دَخلوا أعجَلَهُمْ ضِيقُه عن التلبُّث ، وصَرَفَهُم عَنِ التمَكُّث .

للحسن بن سهل

وقال الحسنُ بن سهل : إذا كان الملك محتجِباً عن الرعيّة ، ولم ينزل الوزير نفسه منزلةً تكون وسائلُ الناس إليه أنفسَهم واستحقاقَهم دون الشفاعات والحرمات ، حتى يختصّ الفاضلَ دون المفضول ، ويرتّب الناسَ على أقدارهم وأوزانهم ومعرفتهم ، امتزج التدبير ، واختلّت الأمور ، ولم يميزّ بين الصدور والاعْجاز ، والنواصِي والأذناب ، وكان الناسُ فَوْضَى ، ووَهَتْ أسبابُ المُلْك ، وانتقَضَتْ مَرَائِرُهُ ، وشاعت سرائره ، وإنّ أقْرَبَ ما أرجو به صلاحَ ما أتولاّه استماعى من المتنسِّمين بأنفسهم ، المتوسلين بأفهامهم ، المتوصّلين بكفايتهم ، وابتذالُ نفسى لهم ، وصبرى عليهم ، وتصفحى ماتوسلوا به وانتحَلوه : من العقول والآداب ، والحماية والكفاية . فمَنْ ثبتت له دَعْواه أنزلْتُه تلك المَنْزِلة ، ولم أتَحيَّفْه حقَّه ، ولا نَقصْتُه حَظَّه ، ومن قَصَّر عما ادَّعى كانت منزلتُه منزلَة المقصرين ، ولم أخيِّب أمَلَه من مقدار ما يستحِقّه .

لبعض البلغاء

وقال بعضُ البلغاء : إذا أسدَل الوالى على نفسه سِتْر الحِجَاب ، وَهَى عَمُودُ تدبيره ؛ واسترخَت عليه حمائِلُ الحَزْمِ ، وازدلَفَتْ إليه وفودُ الذمّ ، وتولّى عنه رشد الرّاجِى ، ونال أمورَه خَلَلُ الانتشار ، وآفةُ الإهمال ، وتَسَرَّعَ إليه العائبون بلواذع ألسنتهم ودَبِيب قوارضهم .

بين سعيد بن عبد الملك وعبيد الله بن سليمان

وحُجب سعيد بن عبد الملك عن عبيد الله بن سليمان فكتب إليه : سِرْتُ إلى بابك — أعزّك اللهُ — عند ما حدث من أمرك ، فلم يُقضَ لقاؤك ، وعلمت أنّ

ثِقتك بما عندى، قد مَثّلتْ لك حالى من السرور بنعمَةِ اللهِ عندك ، وأرَتْك موضعى من الاعتداد بكل ما خَصَّك ووصَل إليك ، فوكلت العُذر إلى ذلك . ثم إنَّا نَأتيك متيمِّنين بطَلْعَتك ، مشتاقين إلى رؤيتك ، فيحجبنا عنك مُلاَحظ . وهو كما علمت زَنيم الصنيعة ، لَئيم الطبيعة ، يحجُبُ عنك الكرام ، ويَأذَنُ عليك لِلّئام ، كلما نجمَتْ له يدٌ بيضاء ، أتبَعها يدا سوداء ؛ فإن رأيت — أعزّك الله — أن تصرِفَه عن باب مكارمك فعلت ، إن شاء الله .

لأبى السمط بن أبى حفصة

وقال أبو السمط بن أبي حفصة :

فتًى لا يُبَالِى المُدْلِجُونَ بنُورِهِ ... إلى بابِه ألاَّ تُضِيءَ الكواكبُ

له حاجبٌ فى كلِّ خَيْرٍ يُعِينهُ ... وليس له عن طالبِ العُرفِ حَاجِبُ[١]

لمروان بن أبى حفصة

أخذ البيت الأول من قول جده مَرْوان بن أبي حفصة الأكبر :

إلى المصطفى المهدىِّ خاضت ركابنا ... دُجَى الليل يخبِطْنَ السَّريح المُخدَّما[٢]

يكون لها نورُ الإمامِ محمدٍ ... دليلاً به تَسْرِى إذا الليل أظلَمَا

لإدريس بن أبى حفصة

وقال إدريس بن أبي حفصة ، وذكر إبلا :

لهـا أمامك نورٌ تَستَضِىءُ به ... ومِنْ رَجَائك فى أعنَاقِها حَادى

لها أحاديث من ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا ... عن الرُّتُوعِ وتُلْهِيها عن الزّادِ

لعمرو بن شأس الأسدى

وأصله قول عمرو بن شأس الأسدى :

إذا نحنُ أدْلَجنَا وأنتَ أمامنا ... كفى لمطايَانَا بوَجْهِكَ هَادِيا

أليس يَزيدُ العِيسَ خِفّةَ أذْرُعٍ ، ... وإنْ كُنَّ حَسْرَى، أنْ تكُونَ أماميا[٣]

وقال بعض أهل العصر :

وليل وَصَلْنَا بين قُطْرَيه بالسُّرى ... وقد جدَّ شوقٌ مُطْمِعٌ فى وصالِك

---

(١) حفظى * له حاجب عن كل أمر يعيبه * وهو كذلك فى كتب البلاغة (م)

(٢) المخدم : ذا الخدمة ، وهو سير يشد فى رسغ البعير (م)

(٣) حسرى : متعبات .

أَرَبَّتْ علينا من دُجاهُ حَنَادِس ... أَعدْن الطريق النهْجَ وَعْرَ المَسَالِكِ[1]
فناديتُ يا أسماء ، باسمك، فانْجَلت ... وأسْفَر منها كلُّ أسودَ حَالكِ
بنا أنت من هادٍ نَجَوْنَا بذكرِهِ ... وقد نَشِبَتْ فينا أَكُفُّ المهالك
متحتك إخلاصى وأصْفَيْتك الهوى ... وإن كنت لمّا تخْطِرينى ببالِكِ

القطامى

وقال القطامى :

ذكرتُكمُ لَيْــلاً فنوَّر ذِكْرُكم ... دُجَى الليل حتى انجابَ عَنْه دَياجِرُهْ
فوالله ما أدرِى أضَــوْءٌ مُسَجَّرٌ ... لذِكْرَاكم أم يَسْجُر الليــلَ سَاجِرُه

القينى

وقال القينى :

وإنى من القوم الذين هُمُ هُمُ ... إذا مات منهم سيِّدٌ قام صَاحِبُهْ
نجومُ سماءٍ كلما انقضَّ كوكبٌ ... بدا كَوْكَبٌ تأوى إليــه كواكبُهْ
أضَاءتْ لهم أحسابُهم ووجوهُهم ... دُجَى الليل حتى نظَّم الجزْعَ ثاقبُهْ

الحطيئة

وقال الحطيئة :

نمشى على ضَوْءِ أَحْسَابٍ أَضَأْنَ لنا ... كما أضاءت نجومُ اللَّيْلِ للسَّــارِى

وقد ردَّده فى موضع آخر فقال :

هم القوم الذين إذا أَلَمَّتْ ... مِنَ الأيامِ مُظْلِمةٌ أضاءُوا

وكلام القاسم بن حنبل المُدَنى من هذا ، حيث يقول :

القاسم بن حنبل المدنى

من البيض الوجوه بَنِى سِــنانٍ ... لَوَ انَّك تستضىءُ بهم أضَاءُوا
فَلَوْ أنَّ السماءَ دَنَتْ لَمَجْــدٍ ... ومَــكْرُمَةٍ دَنَتْ لهمُ السّماءُ
همُ حازُوا من الشَّرَفِ المعــلَّى ... ومن كَرَم العشيرة حَيْثُ شاءُوا

وقال بعض المتقدمين :

إذا أشرقَتْ فى جُنْحِ ليل وجوهُهُم ... كَفَوْا خَابِطَ الظلماءِ فَقْدَ المَصَابِح
وإنْ نَابَ خَطْبٌ أو ألَمَّتْ مُلِمَّةٌ ... فكم ثَمَّ مِنْ آسِى جِرَاحٍ وجَارِح

وقال أبو بديل الوضاح بن محمد التيمى فى المستعين :

(١) أربت : زادت ولزمت، والدجى : جمع دجية ، وهى الظلام ، والحنادس: الظلمات ، واحدها حندس (م) .

للوضاح التيمى

وقائلة والليـلُ قد نَشَر الدُّجى   فغطّى بها ما بين سَهْلٍ وقَرْدَدِ (١)
أرى بارقاً يَبْدُو من الجَوْسَق الذى   بهِ حـلَّ مِيرَاثُ النبىِّ محمدِ
أضاءت لهُ الآفاقُ حتى كأنما   رأيْنا بنصفِ الليلِ نُورَ ضُحَى غدِ
فظلَّ عَذَارَى الحىِّ ينظمن تحتَهُ   سُلوكا من الجَزْع الذى لم يُسَرَّدِ
فقلت : هو البَدْرُ الذى تعرفونهُ   وإلا يَكُنْ فالنُّورُ من وَجْهِ أحمد

[حث الاشتياق]

لعمر بن أبى ربيعة

وقال عُمَر بن عبد الله بن أبى ربيعة فى معنى قول عَمْرو بن شأس فى حثّ الاشتياق :

خليـــلىَّ ما بالُ المطايا كأنما   تَراها على الأعْقَاب بالقَوْمِ تَنْكُصُ
فقد أتْعَب الحادِى سُرَاهُنَّ ، وانحنى   بهنَّ ـ فما بَالَوْا ـ ، فَجُولٌ مقلّصُ
وقد قُطِّعَت أعناقُهنَّ صَـــبَابَةً   فأعْيُنُهَا مما تَكَلَّفُ تَشْـــخَصُ
يَزِدْنَ بنــــا قُرْباً فيزدادُ شَوْقُنَا   إذا ازدادَ قُرْبُ الدارِ والبُعد يَنقُصُ

وقال بعض الرجاز ، وذكر إبلا :

إنَّ لها لسـائقاً خَدَلَّجاً (٢)   لم يُدْلج الليلةَ فيمَنْ أدْلَجا

مما أنشده إسحاق الموصلى

يريد امرأة يحبها فيحثه ما يجدُه من الشـوق على إجهاد مطاياه بالسوق . كما أنشد إسحاق الموصلى :

صـــبٌّ يحثُّ مطاياهُ بذكرِكُمُ   وليس يَنْسَاكُمُ إنْ حَلَّ أو سَارَا
لو يسـتطيعُ طَوَى الأيامَ نحوكُمُ   حتى يبيــعَ بعُمْرِ القُرْبِ أعمارا
يَرْجُو النَّجاةَ من البلوى بقربكُمُ   والقربُ يُلْهِبُ فى أحشـائهِ نارَا

هـذا البيت يناسب أبيات ابن أبى ربيعة . يقول : كلما دنا ازدادَ حِرْصاً على اللقاء .

---

(١) القردد : ما ارتفع من الأرض ، والجمع قراديد .

(٢) خدلج : ممتلىء الذراعين والساقين .

لإسحاق الموصلى

وشخَصَ إسحاقُ الموصلي إلى الواثق بسُرَّ من رأى ، وأهْلُهُ ببغداد ، فتصيد الواثق وهو معه إلى نواحي عُكْبَراء،فلما قرب من بغداد قال :

طربتَ إلى الأُصَيْبِيَةِ الصّغار وهاجَكَ منهم قُرْبُ المَزَارِ

وكلّ مسـافر يَزْدَاد شوقاً إذا دَنَتِ الديارُ من الدِّيَارِ

ولحَّنه وغنّاه الواثق ، فاستحسنه وأطرب به ، فصرفه إلى بغداد على ما أحَب

وكان إسحاقُ قال أولا :

وكلُّ مسافر يَشْتَاقُ يوماً إذا دَنَتْ الديارُ من الديار

فعابوا قوله «يوماً» ، وقالوا : هي لفظة قَلِقة في هـذا الموضع ، لم تحلّ بمركزها ، ولا لها هنا موقع .قال : فضَعُوا مكانها مِثْلَها لا خيراً منها . فما استطاعوا ذلك ، فغيّرها إلى ما أنشدت أولا .

لأبي نواس

وقال أبو نواس :

أما الدِّيارُ فقلما لَبِثُوا بهـا بين اشتياق العِيس والرّكبانِ

وضعوا سياطَ الشّوْقِ فوق رِقَابها حتى طلَعْنَ بهـا على الأوْطَانِ

لمخلد بن بكار الموصلى

وقال مَخْلَد بن بكار الموصلي :

أقُولُ لِنِضْوٍ أنْفَدَ السَّيْرُ نَيَّهَا[(١)] ولم يُبْقِ منها غَيْرَ عَظْمٍ مجلّدِ

خِدِي بي ابتلاكِ اللهُ بالشّوْقِ والهوَى وشاقَكِ تَحْنَانُ الحمامِ المغرّدِ[(٢)]

فمرّت سريعاً خَوْفَ دَعْوَةِ عاشقٍ تَشُقُّ بِيَ المَوْمَاةَ في كلِّ فَدْفَدِ[(٣)]

فلما وَنَتْ في السير ثَنَّيْتُ دَعْوَتي فكانت لها سَوْطاً إلى ضَحْوَةِ الغَدِ

وكان مخلد حلو الطبع ، وهو القائلُ يمدحُ رجلا :

يَطْلُعُ النَّجْمُ على صَعْدَته فإذا واجَهَ نحـراً أفلا

مَعْشَرٌ إن ظَمِئَتْ أرماحهُمْ أوْرَدُوهنّ مُجَاجَاتِ الطلى

---

(١) النى : الشحم ــ والنضو ، بكسر النون وسكون الضاد ، الذى نال منه الهزال من الإبل (م) .

(٢) خدى : فعل أمر من الوخد، وهو السير السريع . (٣) الفدفد : الصحراء .

تَحْسُنُ الألوانُ منهم فى الوَغَى   حين تَسْتنكر للرُّعْبِ الحُلَى
سُخط عبد الله يُدْنِى الأَجلا   ورِضَاهُ يَتعدَّى الأَمَلاَ
يُعشب الصَّلْدُ إذا سالَمُ   وإذا حارَب رَوْضاً أَمْحَلاَ
[مَلِكٌ لو نُشِرت آلاؤه   وأياديه على الليل انجلى]
حَلَّ بالبَأْس ابنُ عَمْرٍو منزلاً   طال حتى قَصُرَتْ فيه العُلاَ
حطَّ رَحْلِى فى ذَرَاه جُودهُ   وتَمشَّى فى نَدَاهُ الخَيْزَلَى(١)

[جَوْدَة الخط]

صفة الخط الجيد

سُئِل بعضُ الكتاب عن الخطِّ: متى يستحقُّ أن يوصَفَ بالجودة ؟ فقال : إذا اعتدلَتْ أقسامُه ، وطالت أَلِفُه ولاَمُه ، واستقامت سطورُه ، وضَاهَى صعودَه حُدُورُه ، وتفتَّحَتْ عيونُه ، ولم تشتبه رَاؤه ونونُه ، وأشْرَقَ قِرْطَاسه ، وأظلمت أَنْقاسه ، ولم تختلف أَجْناسه ، وأسرع إلى العيون تصوُّرُه ، وإلى العقول تثمُّرُه ، وقُدِّرت فصوله ، واندَمجَتْ وُصُوله ، وتناسب دقيقهُ وجَليله ، وخرج من نَمَطِ الورّاقين ، وبَعُدَ عن تصنُّعِ المحررين(٢)، وقام لصاحبه مقام النسبة والحِلْيَة ، كان حينئذ كما قال صاحب هذا الوصف فى صفة خط :

إذا ما تجلل قِرْطَاسهُ   وساوَرَه القلمُ الأَرْقَشُ
تَضَمَّنَ مِنْ خَطِّهِ حُلةً   كنَقْشِ الدنانير ، بَلْ أَنْقَشُ
حروف تُعِيدُ لعين الكَليل   نشاطاً ويقرؤها الأَخْفَش

وراق يصف عيشه

قال أبو هفّان : سألت ورّاقاً عن حاله فقال : عيشى أضْيَق من مِحْبَرةٍ ، وجِسمى أدقّ من مِسْطرة ، وجاهِى أرقُّ من الزجاج ، ووَجْهِى عند الناس أشدّ سواداً من الحبر بالزَّاج ، وحظى أخْفَى من شقّ القلم ، ويَدَاى أضْعَف من قَصَبَة ، وطعامى أمرّ من العَفص ، وشَرَابى أحرّ من الحبر(٣) ، وسوءُ الحال ألزمُ لى من الصَّمْغ ؛ فقلت له : عبَّرْتَ عن بلاء ببلاء !

---

(١) الخيزلى : مشية فيها تثاقل . (٢) فى نسخة «المحدرين» (م) .
(٣) كذا ، وفى ديوان المعانى (ص٨٢) «أسود من الحبر» وهى أحسن (م) .

لإسماعيل الحمدونى

وقال الحمدونى :

ثِنْتَانِ مِنْ أَدَوَاتِ العِلْمِ قد ثَنَتَا ... عِنَانَ شَأْوِى عما رُمْتُ مِنْ هِمَمِى
أمَّا الدَّواةُ فأدْمَى جرْمُها جَسَدِى ... وقلّم الحظَّ تحريفٌ مِنَ القَلَمِ
وحَبَّرَتْ لِىَ صُحُفُ الحرْفِ مِخْبَرَةٌ ... تَذُودُ عَنِّى سَوَامَ المَالِ والنعَمِ
والعِلْمُ يَعْلَمُ أنى حِينَ آخذُهُ ... لعصمتى نَافِرٌ خِلْوٌ من العِصَمِ

وللحمدونى فى الحرفة أشعار مستظرفَة ، وكان مليحَ الافتنان ، حُلْوَ التصرّف ؛ وهو إسماعيل بن إبراهيم بن حَمْدَويه ، وحمدويه جدّه ، وهو صاحب الزنادقة فى أيام الرشيد ، والحمدونى القائل :

مَنْ كان فى الدنيا له شَارَةٌ ... فنَحْنُ من نَظّارةِ الدنيا
نَرْمُقُها مِنْ كَثَبٍ حَسْرَةً ... كأننا لَفْظٌ بلا مَعْنَى

وقال :

قد قُلْتُ إذْخرجوا لكى يستَمْطِروا: ... لا تَقْنَطوا واستمطِرُوا بثيــابى
لو فى حَزِيرانٍ هممْتُ بغَسْـلِها ... غَطى ضياءَ الشمس جوٌّ سَحابِ
فكأنها العبــاسُ يَسْتَسْقِى به ... عُمَرٌ فيرويهم دُعاءٌ مُجَابِ (١)

[حرفة الأدب]

لبعض الشعراء

وقال آخر فى المعنى الأول :

لما أجدْتُ حروفَ الخط حَرَّفَنِى ... عن كل حظّ وجاءت حِرْفَةُ الأدبِ
أقْوَتْ منــازلُ مالى حين وطّنَهـا ... مخيِّمًا سَفَطُ الأقــلامِ والكُتُبِ

للخريمى

وقال يعقوب الخريمى:

ما ازْدَدْتُ فى أدَبى حَرْفًا أُسَرُّ به ... إلا تزيدْتُ حَرْفًا تحته شُــومُ
كذاك من يَدَّعِى حِذْقًا بصَنْعَته ... أنَّى توجَّهَ فيهــا فهْوَ مَحْرُومُ

---

(١) احتبس المطر بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى ، فاستسقى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بالعباس بن عبدالمطلب ، فسقاهم الله تعالى .

لعلى بن بسام

ولما قتل المقتدر أبا العباس بن المعتز ، وزعم أنه مات حَتْفَ أنفه ، قال علىّ بن محمد بن بسام :

لله درُّكَ مِنْ مَيْتٍ بمَضْيَعَةٍ ... نَاهيكَ فى العلم والآداب والحَسَبِ
ما فيه لَوٌّ ولا لَيْتٌ فينقصهُ ... وإنما أدركَتْه حِرْفَةُ الأدَبِ

[رزق الحمقى والعقلاء]

لابن الرومى

قال ابن الرومى :

يا ليت أهل البيت إذْ حُرِموا ... عُصِمُوا من الشهوات والفِتَنِ
لكنهم حُرِموا وما عُصِموا ... فقلوبهم مَرْضَى من الحَزَنِ
وهُمُ أطَبُّ على بَليّتِهِمْ ... من غيرهم بمَضَاضَة الشَّجَنِ (١)

لجعفر بن محمد

وقال جعفر بن محمد : إن الله وسَّع أرزاقَ الحَمْقَى ليعتبرَ العقلاء ، ويعلموا أنَّ الدنيا لا يُنَالُ ما فيها بعَقْلٍ ولا حيلة ؛ ألَا إنَّ كسب المال بالحظّ ، وحِفْظَه بالعقل .

للنظام

قال إبراهيم بن سيّار النظام : الذهبُ لئيم ؛ لأنَّ الشكلَ يصيرُ إلى شَكْلِه ، وهو عند اللئام أكْثَرُ منه عند الكرام . قال المتنبى ـ وأخذ هذا المعنى :

وشِبْهُ الشىء مُنْجَذِبٌ إلَيْهِ ... وأشبهُنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ

بعض أخبار النظام وكلامه

وكان النظام له نظرٌ بوجوهِ التصرف ، وكان السلطان يَصِلُه بالكثير ، وكان محظوظا ؛ فإذا اجتمع له مالٌ حَبَسَ لنفسه بُلْغة ، وفرّق الباقىَ فى أبواب المعروف ؛ فقيل له فى ذلك ، فقال : مِنْ حقّ المالِ علىَّ أن أطلبَه من مَعْدنه ، وأُصِيب به الفُرْصَةَ عند أهله ؛ ومن حقِّ عليه أنْ يَقِينِى السوءَ بنفسه ، ويصونَ عِرْضى

(١) المضاضة : وجع المصيبة ، والشجن ـ بالتحريك ـ الحزن (م)

بابتذاله ، ولا يفعل ذلك إلا بأن أسمح به ؛ ألا ترى ذا الغنى ؛ ما أدْوَمَ نَصَبه[١] ، وأقلَّ راحته ، وأخسَّ من ماله حَظّه ، وأشدَّ من الأيام حذَره ، وأغرى الدهرَ بثَلْبه ونَقْصه ، ثم هو بين سلطان يَرْعاه ، وذوى حقوق يسبُّونه ، وأكفاء ينافسونه ، وولد يريدون فِرَاقَه ، قد بعث عليه الغِنَى من سلطانه العَنَاء ، ومن أكفائه الحَسَد ، ومن أعدائه البَغْى ، ومن ذوى الحقوقِ الذمَّ ، ومن الولدِ المَلاَلَ ، وذو البُلغة قَنِعَ فدام له السرور ، ورفض الدنيا فَسَلِمَ من المحذور ، ورَضِى بالكفاف فتنكَّبَتْه الحقوق .

[أفكار الوراقين]

وصف الوراق

قال الصولى أنشدنى محمد بن أحمد بن إسحاق :

أدْمَى البُكا جفنَىَّ والمآقِى ... فظَلْتُ ذَا هَمٍّ وذا احتِرَاقِ
ما إن أرى فى الأرض والآفاقِ ... أدْنَى ولا أشقَى من الوَرَّاقِ
إذا أتى فى القُمُصِ الأخْلاقِ ... رأيته مطيرة العُشَّاقِ[٢]
يفرح بالأقلام والأوراق ... كفَرْحَةِ الجندى بالأرزاق

وقال بعض الوراقين :

إذا كُنْتُ بالليلِ لا أكْتُبُ ... وطول النهار أنَا ألعبُ
فطوراً يبطّلنى مَأْكَلٌ ... وطوراً يبطّلنى مَشْرَبُ
فإنْ دامَ هذا على ما أرى ... فبيتِىَ أوَّل ما يَخْرَبُ

وقيل لورّاق : ما تَشْتَهى؟ فقال : قلماً مَشَّاقاً ، وحِبْراً بَرَّاقا ، وجلوداً رِقَاقا. وكل امرىء فأمنيته على ما يُطَابِقُ غريزته ، ويوافِقُ نَحِيزته[٣] .

---

(١) النصب : التعب ، وزنا ومعنى (م) .
(٢) القمص: جمع قميص، والأخلاق: جمع خلق ــ بالتحريك ــ وهو البالى(م).
(٣) الغريزة والنحيزة : الطبيعة والسجية .

[أطيب اللذات عند الشعراء]

لذات امرىء القيس

قال عليّ بن جبلة العكوك : قال الأصمعى : سُئِل امرؤ القيس : ما أطيب لذاتِ الدنيا ؟ قال : بيضاء رُعْبوبة[١] ، بالحسن مكبوبة ، بالشَّحْم مكروبة[٢] ، بالمِسْكِ مَشْبُوبة .

لذات الأعشى

وسئل الأعشى عن ذلك ، فقال : صَهْبَاء صافية[٣] ، تمزُجُها ساقِية ، من صَوْبِ غادية[٤] .

لذات طرفه

وسئل طرفة عن ذلك ، فقال : مركب وَطِىّ ، وثوبٌ بَهِىّ ، ومطعم شهى.

لذات أبى دلف

قال العكوك : فحدَّثْتُ بهذا أبا دُلَف ، فقال :

أطيبُ الطيبات قَتْلُ الأعادِى　　　واختيالٌ على مُتُونِ الجِيادِ
ورَسولٌ يَأْتِى بوَعْد حبيبٍ　　　وحبيبٌ يَأْتِى بلا ميعادِ

لذات حميد الطوسى

وحدَّثت بذلك حُميدا الطوسى ، فقال :

فلولا ثلاثٌ هنَّ مِنْ لَذَّةِ الفَتَى ،　　　وجدِّك ، لم أحْفِلْ متى قام عوَّدِى
فنهن سَبْقُ العاذلاتِ بِشَرْبةٍ　　　كُميْت ، متى ما تُعْل بالماء تزْبِدِ[٥]
وكَرِّى إذا نادى المُضَافُ مُحنَّباً　　　كَسِيدِ الغَضَا ذى السَّوْرةِ المتوَرِّدِ[٦]
وتقصيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ،والدَّجْنُ مُعْجِبٌ　　　ببَهْكَنَةٍ تحت الخِباء المعَمَّدِ[٧]

الشعر لطرفة بن العبد .

---

(١) رعبوبة : حلوة ناعمة حسنة ، وفى نسخة « بالحسين مكتوبة » (م) .
(٢) مكروبة : ممتلئة (م)　(٣) الصهباء : الخمر (م)
(٤) الغادية : السحابة (م)　(٥) الكميت ـ بالتصغير ـ الخمر ، وتزبد : تعلوها الرغوة (م) .
(٦) المضاف : البائس الذى أحيط به ، والمحنب : أراد به الفرس الشديد .
(٧) الدجن : الغيم ، والبهكنة : الخفيفة الروح الطيبة الرائحة من النساء ، والخباء : أراد الخيمة ، والمعمد : ذى الأعمدة (م) .

لذات يزيد ابن عبدالله

وحدثت بذلك يزيد بن عبد الله ، فقال : ما أدرى ما قالوا ، ولكنى أقول:

فَاقْبَلْ من الدَّهْرِ ما أتاكَ بِهِ   مَنْ قَرَّ عينــــا بِعَيْشِه نفعه

فكان أسدَّهم .

من شعر الأضبط بن قريع

والبيت للأضبط بن قُرَيع ، أنشده أبو العباس ثعلب، قال : و بلغنى أن هذه الأبيات قيلت قبل الإسلام بدَهْرٍ طويل :

لكل ضيقٍ من الأمورِ سَعَه   والصبحُ والمُسْىُ لا فلاحَ مَعه[1]

ما بالُ مَنْ سرّه مصــابُك لا   يملك شيئاً من أمْرِه وَزَعَهْ

أذود عن حَوْضِــه ويَدْفعُنى   يا قوم ، مَن عاذِرى مِنَ الخُدَعَهْ؟

حتى إذا ما انجلت عَمــايتهُ   أقْبَل يَلْحَى وغيُّه فَجَعَـــهْ[2]

قد يجمعُ المـــالَ غيرُ آكلهِ   ويأكلُ المــالَ غيرُ من جَمَعَهْ

ويقطعُ الثوبَ غــيرُ لابسهِ   ويلبسُ الثوبَ غيرُ مَنْ قَطَعَهْ

فاقْبَلْ من الدَّهْرِ ما أتاك بهِ   مَنْ قرَّ عينا بعيشــــه نَفَعَهْ

وصِلْ حبَالَ البعيد إنْ وَصَلَ الــحَبْلَ، وأقْصِ القريبَ إنْ قَطَعَهْ

ولا تُعَادِ الفقـــيرَ عَلّك أنْ   تركع يوماً والدهرُ قد رَفَعَهْ[3]

هذا البيت شبيه بما روى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يستنشدنى قول اليهودى :

ارفع ضعيفك لا يَحُرْ بكَ ضعفهُ   يوما فتُدْرِكَه العـــواقب قد نما[4]

يَجْزِيك،أو يُثْنِى عليك ، وإنَّ مَنْ   أثْنَى عليك بما فعَلْتَ كَمَنْ جزَى

فأنشده، فيقول : إنى فِطنٌ لها:

---

(١) فى الأمالى (١/١٠٧) «لكل هم من الهموم سعه» (م)

(٢) عمايته : ضلالته ، ويلحى : يلوم أشد اللوم (م) .

(٣) يرويه النحاة « لا تهين الفقير علك أن ــ إلخ » (م) .

(٤) لا يحربك ضعفه : يريد أنه قد يرجع الضعف إليك وينتعش هو (م)

الأضبط بن قريع

وكان الأضبط سيد بنى سعد ، وكانوا يشتمونه ويؤذونه ، فانتقل إلى حيٍّ من العرب فوجدهم يؤذون سادتهم ، فقال : حيثما أوجّه ألق سعداً ! فذهبت مثلا
قال الطائى :

فلا تحسَبَنْ هنداً لها الغَدْرُ وحدها ... سجيةُ نفسٍ ، كلُّ غانيةٍ هِنْدُ

[وصف المحابر والأقلام]

لبعض الكتاب يصف محبرة

قال بعضُ الكتاب يصف محبرة :

ولقد مضَيْتُ إلى المحدِّث آنفاً ... وإذا محَضْرَتِه ظِباءٌ رُتَّعُ
وإذا ظِباءُ الإنسِ تكْتُبُ كل ما ... يُمْلى ، وتحفظ ما يقول وتَسْمَعُ
يتجاذبون الحِبْرَ مِن ملمومةٍ ... بيضاءَ تحمِلُها عَلائقُ أربعُ(١)
من خالص البَلّورِ غُيِّرَ لَوْنها ... فكأنها سَبَجٌ يَلوحُ ويَلْمَعُ(٢)
إنْ نَكَّسوهَا لم تَسِلْ، ومليكها ... فيما حوَتْهُ عاجلا ، لا يَطْمَعُ
ومتى أمالوها لرَشْفِ رُضابها ... أدّاه فُوهَا وهى لا تتمنَّعُ
وكأنها قَلبي يَضَنُّ بسِرِّهِ ... أبداً، ويكتمُ كلَّ ما يُسْتودَعُ
يَمْتَاحُها ماضِي الشَّبَاة مُذَلَّقٌ ... يجرى بميْدانِ الطرُّوس فيُسْرِعُ(٣)
رِجْلاهُ رأسٌ عنده لَكِنَّهُ ... يلقاه برد حَفَاهُ ساعةَ يقطَعُ
وكأنّه والحِبْرُ يَخْضِبُ رأسهُ ... شيخٌ لوَصْلِ خريدةٍ يتصنّعُ
لِمَ لا أُلاحظه بعَيْنِ جلالةٍ ... وبه إلى اللهِ الصحائفُ ترْفَعُ

لأبى الفتح كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم :

مِحْبَرة جادَ لِي بهَا قمرٌ ... مستَحْسَنُ الخَلْقِ مُرْتَضَى الخُلُقِ
جوهرة خَصَّنِي بجوهرةٍ ... ناطَتْ له المكرماتِ فى عُنُقِ
بيضاء والحِبرُ فى قَرارَاتِها ... أسْوَدُ كالمِسْكِ جدّ مُنْفَتِقِ
مثل بياضِ العيونِ زَيّنهُ ... مُسْوَدٌّ ما شَابَهُ مِنَ الحدَقِ

(١) ملمومة : مستديرة (م) (٢) السبج : الخرز الأسود (م)
(٣) أصل المتح نزح الماء من البئر ، والشباة : حد كل شىء ، والمذلق : المحدد ، أوراد القلم (م)

كأنما حِبْرُهَا إذا نَثَرَتْ أقلامُنا ظِلُّه على الوَرَق
كُحْلٌ مَرَتْه العُيونُ مِنْ مُقَلٍ نُجْلٍ فأَوْفَتْ بِهِ على يَقَقٍ[١]
خَرسَاء لكنَّها تكونُ لنَا عَوْناً على عِلم أفْصَحِ النُّطُقِ

وقال عبد الله بن أحمد : القلم أمْرَهُ ، مالم يَكْتَحِل بإثْمِد الدَّوَاة[٢].

وكتب إبراهيم بن العباس كتاباً فأراد مَحْو حرف فلم يجد منديلا ، فمحاه بكُمِّه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : المالُ فَرْعٌ ، والعلمُ أصل ؛ و إنما بلغْنا هذه الحال ، واعتقدنا هذه الأموال[٣] بهذا القلم والمداد ، ثم قال :

إذا ما الفكرُ أضْمَرَ حُسْنَ لَفْظٍ وأدَّاه الضميرُ إلى العِيَانِ
ووَشَّاهُ ونَمْنَمَهُ مُسَدٍّ فصيحٌ بالمَقَالِ وباللِّسَانِ
رأيت حُلَى البيانِ منوّراتٍ تَضَاحَكُ بينها صُوَرُ المعانى

ألفاظ لأهل العصر فى أوصاف آلات الكتابة والدوِيّ والأقلام

الدواة من أنفع الأدوات ، وهى للكتابة عتَاد ، وللخاطر زنَاد ، غدير لا يرِدُه غَيْرُ الأفهَام ، ولا يمتح بغير أرْشية الأقلام[٤] ، دواة أنيقة الصَّنْعَة ، رَشيقة الصبغة ، مسكية الجلد ، كافُورية الحِلْيَة . غدير تفيض ينابيعُ الحِكْمَة من أقطَارِه ، وتنشأ سُحُبُ البلاغة مِنْ قَرَاره . دواة تُدَاوِى مَرَض عفَاتك ، وتُدْوِى قُلُوبَ عداتك ، على مَرْفَع يُؤْذِنُ بدوام رِفْعَتِكَ ، وارتفاعِ النوائب عَنْ سَاحَتِك ، ومدادٍ كسواد العَيْنِ ، وسُوَيْدَاء القلب ، وجناح الغُرَابِ ، ولُعَابِ الليل ، وألوانِ دُهْمِ الخيل . وهذا من قول ابن الرومى :

حِبْرُ أبِي حَفْصٍ لُعَابُ الليلِ كأنه ألوانُ دُهْمِ الخيلِ

---

(١) مرته العيون : استخرجته ، والمقل : جمع مقلة ، وهى العين ، والنجل : جمع نجلاء ، وهى الواسعة ، واليقق ـ بالتحريك ـ الأبيض (م)
(٢) الأمره : وصف من المره ـ بالتحريك ـ وهو خلو العين من الكحل (م)
(٣) اعتقدنا هذه الأموال : تأثلناها وجمعناها (م)
(٤) الأرشية : جمع رشاء ، وأصله حبل الدلو (م)

قال العاصر : مدادٌ ناسب خافية الغُراب ، واستعار لونَه من شَرْخ الشباب ، وأقلام جَمَّةُ المحاسن ، بعيدة من المَطَاعِن ، تعاصى الـكاسى ، وتمانع الغامزَ القَاسِى . أنابيب ناسبت رِماح الخطِّ فى أجْنَاسها ، وشاكلت الذهبَ فى ألوانها ، وضاهَت الحديدَ فى لمعانها ؛ كأنها الأميالُ استواء ، والآجالُ مَضاء ، بطيئة الحَفى ، قوية القُوَى ، لا يُشظِّيها[١] القطُّ ، ولا يتشعَّبُ بها الخطُّ . أقلام بحرية مَوْشِيَّةُ اللِّيط[٢] ، رائقة التخطيط . قلمٌ معتدل الـكُعُوب ، طويل الأنبوب ، باسِقُ الفروع ، رَوِىّ اليَنْبُوع ، هو أوْلَى باليد من البنَانِ ، وأخْفَى للسر من اللِّسان . هو للأنامل مطيّة ، وعلى الـكتابة معونة مَرْضِيّة . نعم العُدَّة القلم : يقلِم أظافِرَ الدَّهر ، و يملك الأقاليم بالنَّهْى والأمر ، إن أرَدْتَ كان مسجوناً لايملّ الإسار ، و إن شئتَ كان جواداً جاريا لا يعرفُ العِثار ، لا ينْبُو إذا نَبتِ الصِّفَاح[٣] ، ولا يُحْجِمُ إذا أحجمت الرِّمَاح .

لأبى الفتح كشاجم

قالَ أبو الفتح كشاجم ، يصف محبرة ومقلمة وأقلاماً وسكيناً :

جِسْمِى من اللَّهو وآلاتِ الطَّرَبْ ... ومن عَتَادٍ وثَرَاء ونَشَبْ

ومن مُـــدَامٍ ومَثَانٍ تَصْطَخِبْ ... وهمــــةٍ طمّاحةٍ إلى الرُّتَبْ

مَجَالِسٌ مَصُونَة مِنَ الرِّيَبْ ... معمورة من كلِّ عِلْمٍ وأدَبْ

تَــكَادُ مِنْ حَرِّ الحديثِ تَلْتَهِبْ ... شِعْراً وأخباراً ونحواً يقتضبْ

ولغـــةً تجمعُ ألْفَاظَ العربْ ... وفِقَراً كالوَعْدِ فى قَلْب المُحِبْ

أو كتأتِّى الرزق مِنْ غَيْرِ طلبْ ... أجَلْ ، وحَسْبِى من دُوِىّ تُنْتَخَبْ

محلّيات بلُجَيْنٍ وذهَبْ ... مخْبَرَة يُزْهَى بِهَا الحِـبْرُ الألَبّ[٤]

مثقوبة آذَانُها ، وفى الثُّقَبْ ... مثل شُنُوفِ الخُرَّدِ البيضِ العُرُبْ[٥]

---

(١) لا يشظيها : لا يقطعها شظايا (م) (٢) الليط ، بالـكسر : القشر .
(٣) الصفاح : السيوف (م) (٤) الحبر ، بالـكسر : العالم (م).
(٥) العرب ، بضم العين والراء: جمع عروب . وهى المرأة المتحببة إلى زوجها .

بصمن قطراً فيه للكتب عشب أسود يجرى بمعانٍ كالشهب
لا تنضب الحكمة إلاّ إن نضبْ نيطت إلى يسرى يدىٍّ بسببْ
كالقرط في الجيد تدلّى فاضطربْ تصحبها ، والأخوات تصطحبْ
كأنه يودع نبـلا من قصبْ لم يغلها ريشٌ ولم تحمل عقبْ[1]
لا تضحك الأوراق حتى ينتحبْ ترمى بها يمناى أغراض الكتبْ
رمياً متى أقصد به السمت أصبْ ومدية كالعضب ما مسّ القصبْ
غضبى على الأقلام من غير سببْ تسطو بها فى كلّ حين وتثبْ
وإنما ترضيك فى ذاك الغضبْ فتلك آلاتى ، وآلاتى تحبْ
والظرف فى الآلات مما يستحبْ لا سيّما ما كان منها للأدبْ

[عمال المأمون]

تظلم رجلٌ إلى المأمون من عامل له ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما ترك لى فضّة إلاّ فضّها ، ولا ذهباً إلاّ ذهب به ، ولا غلّة إلا غلّها ، ولا ضيعة إلاّ أضاعها ، ولا علقاً[2] إلا علقه ، ولا عرضاً إلا اعترض له، ولا ماشية إلا امتشّها[3] ، ولا جليلا إلا أجلاه ، ولا دقيقاً إلا أدقّه . فعجب من فصاحته وقضى حاجته .

قال عمرو بن سعد بن سلم : كانت علىّ نوبة أنوبها فى حرس المأمون ، فكنتُ فى نوبتى ليلة فخرج متفقّدا مَنْ حضر ، فعرفته ولم يعرفنى ، فقال : من أنت ؟ قلت : عَمْرو ، عمرك الله ، ابن سعيد ، أسعدك الله ، ابن سلم ، سلّمك الله . فقال : تكلؤنا منذ الليلة . قلت : الله يكلؤك قبلى ، وهو خيرٌ حافظا وهو أرحم الراحمين.

فقال المأمون :

إنّ أخاك الحقّ من يسعى معكْ ومَنْ يضرّ نفسه لينفعكْ
ومَنْ إذا صرف زمان صدعكْ بدّد شمل نفسه ليجمعكْ

---

(١) العقب : العصب الذى تعمل منه الأوتار (م) .

(٢) العلق ، بالكسر ، النفيس من كل شىء . (٣) امتشها : ذهب بها كلها .

[الورد والنرجس]

وقال على بن العباس الرومى : — لابن الرومى

خَجِلتْ خُدودُ الوَرْدِ من تَفْضِيله — خجلا تَوَرُّدها عليـه شاهدُ
لم يخجل الوردُ المورَّدُ لونهُ — إلاَّ وناحِـــلُه الفضيلةَ عانِدُ
للنرجس الفَضْلُ المبين إذا بَدَا — بين الرياض طريفـــه والتَّالدُ

وكان ابنُ الرومى متعصباً للنرجس ، كثير الذمِّ للورد ، وكتب إلى أبى الحسن ابن المسيب :

أدْرِكْ ثِقَاتكَ إنهم وَقعوا — فى نَرْجسٍ معه ابْنَةُ العِنَبِ
فَهُمُ بحالٍ لو بَصُرْتَ بهـــا — سبَّحْتَ من عُجْبٍ ومن عَجَبِ
رَيحَانُهم ذَهبٌ على دُرَرٍ — وشرابُهـــم دُرٌّ على ذهَبِ
فى رَوْضَـــةٍ شَتْويَّةٍ رَضعَت — دَرَّ الحيَا حَلَباً على حَلَبِ
واليـومُ مَدْجُون مُحرَّتُهُ — فيهِ بمُطَّلَـعٍ ومُحْتَجب[1]
ظلت تسامرنا وقد بَعَثَتْ — ضَوْءاً يُلاحِظنَا بلا لَهَبِ

وكان كِسْرى أنو شروان مستهتَراً بالنَّرجس[2] ، وكان يقول : هو ياقوت أصفر ، بين درّ أبيض ، على زمرّد أخضر . نقله بعض المحدّثين فقال : — لبعض المحدثين

وياقوتةٍ صفراء فى رأسِ دُرَّةٍ — مركَّبة فى قائمٍ مِن زَبَرْجَدِ
كمثْل بهىّ الدُّرِّ عقْد نظامها — نَثِيرُ فِرندٍ قد أطاف بِعَسْجَدِ
كأنَّ بقايا الطّلّ فى جَنَبَاتِها — بقيةُ دَمْعٍ فوق خَدٍّ مورَّد

رجع ابن الرومى : — رجع لابن الرومى

فَصْلُ القضيةِ أنَّ هـذا قائدٌ — زَهَر الرَّبيع وأنَّ هـذا طاردُ
شتَّانَ بين اثنين : هـذا مُوعدٌ — بتَصَرُّمِ الدنيا ، وهـذا وَاعدٌ

---

(١) مدجون : قدغطى سماءه الغيم ، وحرته : شمسه ، ومطلع : اسم لمكان الطلوع ، ومحتجب : اسم لمكان الاحتجاب (م) .
(٢) مستهتراً : مولعاً (م) .

فإذا احتفظتَ به فأَمْتَعُ صاحبٍ بحياته ، لو أنّ حيًّا خالدُ

ينهى النديمَ عن القبيح بلحظِهِ وعلى المُدامَةِ والسَّماعِ يُساعِدُ[١]

اطلب بعقلك فى الملاح سَمِيَّهُ أبداً ؛ فإنك لا محالةَ واجِدُ

والوردُ إنْ فتَّشت فردٌ فى اسمِهِ ما فى الملاح له سمىٌّ واحِد

هذى النجوم هى التى ربَّينها بحَيَا السحابِ كما يُرَبِّى الوالد[٢]

فانظُرْ إلى الولدين ، مَنْ أدناهما شبهاً بوالده فذاك الماجدُ

أين الخدود من العيون نفاسةً ورياسةً ، لولا القياسُ الفاسدُ

وقد ناقضه جماعة من البغداديين وغيرهم فى هذا المذهب ، وذهبوا إلى تفضيل الورد ؛ فما دانَوْه وما استطاعوه .

لأحمد بن يونس الكاتب يرد على ابن الرومى

قال أحمد بن يونس الكاتب رادًّا عليه :

يا مَنْ يُشَبِّه نَرْجِساً بنواظرٍ دُعْجٍ ، تَنَبَّهْ إنَّ فهمَك راقدُ

إنّ القياسَ لمن يصحُّ قياسُهُ ، بين العيون وبينه متباعدُ

والوردُ أصدقُ للخدودِ حكايةً فعلامَ تجْحَدُ فَضْلَه يا جاحِدُ

مَلِكٌ قصيرٌ عُمْرُه مُسْتأهِلٌ تخليده ، لو أنّ حيًّا خالدُ

إنْ قلت إنَّ الوردَ فَرْدٌ فى اسمِهِ ما فى المِلاح له سمىٌّ واحِدُ

فالشمسُ تُفْرَدُ باسمها والمشترى والبدر يُشْرَكُ فى اسمه وعُطارِد

أو قلت إنّ كواكبا ربينها بحَيَا السَّحَابِ كما يُرَبِّى الوالد[١]

قلنا أحقّهما بِطَبْع أبيه فى الـ ـجَدْوَى هو الزّاكى النجيبُ الرّاشدُ

زُهْرُ النُّجُومِ تَرُوقُنا بضيائها ولها منافعُ جمةٌ وعوائدُ

وكذلك الوَرْدُ الأَنيقُ يَرُوقُنا وله فضائلُ جَمَّةٌ وفوائد

وخليفهُ إن غاب ناب بنَفْعِهِ وبنَفْحه أبدا مقيمٌ راكِدُ

---

(١) فى نسخة « مساعد » . (٢) حيا السحاب : ماؤه .

إنْ كُنتَ تُنكِرُ ما ذكَرْنا بعد ما … وضَحَتْ عليه دَلائلٌ وشَواهِدُ
فانظُرْ إلى المُصْفَرِّ لوناً منهما … وافطن فما يَصْفَرُّ إلاّ الحاسِدُ

نبذ من النظم والنثر

في صفات النَّور والزهر

لعلى بن الجهم

قال عليّ بن الجهم :

لم يضحَك الوردُ إلاّ حين أعجبَه … حُسنُ الرِّياضِ وصوتُ الطائرِ الغَرِدِ
بدا فأَبْدَتْ لنا الدُّنيا محاسِنَها … وراحَتِ الرَّاحُ في أثوابها الجُدُدِ
وقابلَتْهُ يَدُ المُشتاقِ تُسْنِدُهُ … إلى الترائب والأحشاء والكَبِدِ
كأنَّ فيه شفاءً من صَبابتِهِ … أو مانعاً جَفْنَ عينيه مِنَ السُّهُدِ
بَيْنَ النَّديمين والخِلَّيْن مَصْرَعُه … وسَيْرُه مِن يَدٍ موصولةٍ بِيَدِ
ما قابلَتْ طَلْعَةَ الرَّيحانِ طَلعته … إلا تبيَّنْتَ فيه ذِلَّةَ الحسدِ
قامَتْ بحُجَّتِه ريحٌ مُعطَّرَةٌ … تَشْفى القلوبَ من الأوْصابِ والكَمَدِ
لا عَذَّبَ اللهُ إلاّ من يُعَذِّبه … بمُسْمِعٍ باردٍ أو صاحبٍ نَكِدِ(1)

وكان أردشير بن بابك يصفُ الورد ويقول : هو درٌّ أبيض ، وياقوتٌ أحمر ، على كراسى زَبَرْجَد أخضر ، توسطه شذورٌ من ذَهبٍ أصفر ، له رِقَّةُ الخمر ، ونفحات العِطْر(2) أخذه محمد بن عبد الله بن طاهر فقال :

لمحمد بن عبد الله بن طاهر

كأنهنَّ يواقيتٌ يُطيفُ بها … زُمُرُّدٌ وسْطَه شَذْرٌ مِنَ الذَّهبِ
فاشْرَبْ على مَنْظَرٍ مستظْرَفٍ حَسَنٍ … من خَمْرةٍ مَزَّةٍ كالجَمْرِ في اللَّهَبِ(3)

المتوكل وابن الضحاك

وقال يزيد المهلبي : أحبَّ المتوكل أن ينادمَه الحسين بن الضحاك ، الخليع

(1) المسمع — على زنة اسم الفاعل — المغنى (م) .

(2) مزة : لذيذة الطعم (م) .

البصرى ، وأنْ يَرَى ما بَقِى من ظَرْفِهِ وشهوته لما كان عليه ؛ فأحضره وقد كبر وضَعُفَ ، فسقاه حتى سكر ، وقال لخادمه شفيع : اسْقِهِ ؛ فسقاه وحياه بوَرْدَة ، وكانت على شفيع أثوابٌ ، فمدّ الحسين يده إلى دِرْع شفيع ، فقال المتوكل : أتخمش غُلاَمى بحضرتى ؟ كيف لو خَلَوْتَ به ! ما أحوجَكَ يا حسينُ إلى أدب ! وكان المتوكل غمز شفيعا على العبث به ، فقال حسين : سيدى ، أريد دواة وقرطاسا ؛ فأمر له بهما ، فكتب :

وكالوردة البيضـــاء حَيًّا بأَحْمَرٍ ... من الوَرْدِ يسعى فى قَرَاطِقَ كالوَرْدِ[1]

له عَبَثَاتٌ عنـــــد كلِّ تحيَّةٍ ... بِكفّيْهِ يستَدْعى الخلِيَّ إلى الوَجْدِ

تمنيتُ أنْ أُسْقى بكفيه شَرْبَةً ... تذكرنى ما قد نسيتُ من العَهْدِ

سَقَى اللهُ عيشا لم أَنَمْ فيه ليـــلةً ... من الدهر إلاَّ من حبيب على وَعْدِ

ثم دفع الرقعةَ إلى شفيع ، وقال : ادْفَعْها إلى مولاك ؛ فلما قرأها استملحها ، وقال : لو كان شفيع ممن تَجُوز هِبَتُه لو هَبْتُهُ لكَ ، ولـكن بحياتى ياشفيع إلاَّ كنت ساقيهُ بقيَّة يومه ! وأمر له بمال كثير حمل معه لما انصرف .

قال يزيد المهلبى : فصرتُ إلى الحسين بعد انصرافه من عند المتوكل بأيام ، فقلت : ويحك ! أتدرى ما صنعت ؟ قال : لا أدَعُ عادتى بشىء ، وقــد قلت بعدك :

لا رَأى عطفة الأحِبْـــبَةِ مَنْ لا يصرحُ

أصْغَرُ الساقِيَيْن أَشْـــكَلُ عِنْدِى وأمْلَحُ

لو تَراه كالظبى يَسْـــنح طَوْراً ويَبْرَحُ

خِلْتَ غُصْناً على كثيـــب بنَوْرٍ يُوَشَّحُ

---

(١) القراطق : جمع قرطق ، وهو ضرب من اللباس .

قال الصولى : وكأن الأول من أبيات الحسين من قول العباس بن الأحنف :

بيضاء فى حُمْرِ الثياب كَوَرْدَةٍ   بيضاء بين شقائق النعمانِ
تهتزُّ فى غَيَدِ الشباب إذا مَشَتْ   مثل اهتزازِ نَوَاعِمِ الأغصانِ

ظبى يأكل نيلوفرا

قال أبو بكر الصولى : كان عند الخصى الوزير ظبى داجن ربيب فى داره ، فعمد إلى نيلوفر فأكله ، فاستملح الغزال وأنسه ، وقال : لو عمل فى أُنْسِ هذا الغزال وفعله بالنيلوفر لاشتمل العمل على معنًى مليح ! فبلغ الخبر أبا عبد الله إبراهيم ابن محمد بن عرفة نفطويه ، فبادر لئلا يُسْبق ، وعمل أبياتا أولها :

جرَتْ ظَبْيَةٌ غنَّاء تَرْعَى برَوْضَة   تَنُوشُ لدَى أفنانِها ورَقاً خُضرا(١)

فى أبيات غير طائلة ، فاستبرد ما أتى به ، قال الصولى : فقلت :

ونَيلُوفرٍ يحكى لنا المِسْكَ طيبُهُ   تراه على اللذاتِ أفْضَلَ مُسْعِدِ
قد اجتَنَّ خوفَ الحادثات بجُنَّةٍ   تروقُ كثوبِ الراهب المتعبِّدِ
تُرَكَّب كالكاسَاتِ فى ذَهَبِيَّةٍ   على قُضُبٍ مخضرَّةٍ كالزَّبَرْجَدِ
وألبس ثوباً يفضُلُ اللَّحْظَ حُسْنُهُ   كما عبِثَتْ عينٌ بخَدٍّ مُوَرَّدِ
غذَتْهُ أهاضيبُ السماء بدَرِّها   تروحُ عليه كلَّ يوم وتَغْتَدِى
تلبّس للانوَارِ ثوْب سمائه   ففضَّلَ عنه الحسن فى كلِّ مَشْهَدِ
وفى وسطه منه اصفِرارٌ يَزِينُهُ   كياقوتةٍ زرقاءَ فى رَأْسِ عَسْجَدِ
أطاف به أَحْوَى المدامع شادِنٌ   حَكَى طَرْف من أَهْوى وحُسن المقلدِ(٢)
كما أخذ الظمآنُ بالفم كاسه   ولم يستَعِنْ فى أخذه الكاسَ باليَدِ

[وصف أيام الربيع]

لابن وكيع

وقال أبو محمد الحسن بن على بن وكيع(٣) :

يومٌ أتاك بوَجْهِهِ المتهلّل   ناهيك من يومٍ أغرَّ مُحجَّلِ

(١) تنوش : تتناول (م) .
(٢) أحوى : وصف من الحوة وهى السمرة ، والمقلد : الموضع الذى تلبس فيه القلادة ، يريد أن الظبية حكت من الملاح عينها وجيدها (م) .
(٣) فى نسخة « أبو الحسن محمد بن على » .

خلع الغمامُ على اخْضرارِ سمائه ... خِلَعاً فبَيْنَ مُمَسَّك ومُصَنْدَلِ
وكسا الرُّبىٰ حُلَلا تخالَفَ شكلها ... بمورَّدٍ ومُعَصْفر ومُكَحَّلِ
وتمايلَتْ فيه قدودُ غُصُونه ... من شُرْبِ كاساتِ العيونِ الهُطَّلِ
وعَلا على الأشجار قَطْرُ سمائها ... فهدَتْ لعينِ الناظر المتأملِ
يَحكى قِبَاب زُمُرّدٍ قد كُلِّلَتْ ... بمنظَّمٍ من لؤلؤ ومُفَصَّلِ
وأتاك نَوْرُ الباقِلاَء كأنما ... يَرْنو إليك بعين أ كْحَل أقْبلِ(١)
الوَرْدُ يُخجلُ كلَّ نورٍ طالع ... وتراه مُنْتَقِباً بحُمْرَةٍ مُخجلِ
وحكى بياضُ الطَّلْع فى كافورهِ ... وجْهَ الخريدة فى الخمارِ الصَّنْدَلى
فكأنما الدنيا عَرُوسٌ أقْبلَتْ ... فى كل أنواع الملابس تجْتَلى
فاشرب مُعَصْفَرَة القميص سُلافةً ... من صنعة البَرَدَان أو قُطْرُبُلِ

لأبى الفتح البستى

وقال أبو الفتح البستى :

يومٌ له فَضْلٌ على الأيامِ ... مزَجَ السَّحابُ ضياءه بظلامِ
فالبَرْقُ يخفق مِثْلَ قَلْبِ هائمٍ ... والغَيْمُ يَبْكى مثل طَرْفِ هَامِ
وَكأنَّ وَجْهَ الأرض خَدُّ متيَّم ... وُصِلت سِجَامُ دموعِه بسِجَامِ
فاطلبْ ليومك أربعاً : هنَّ المُنَى ... وبهنَّ تَصْفُو لذَّةُ الأيامِ
وَجْه الحبيب ، ومنظرا مستشرقا، ... ومغنِّيَا غَرِداً،وكأسَ مُدامِ

لأبى الفضل الميكالى

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى :

سَلَّ الربيعُ على الشِّتَاء صوارماً ... تَرَكَتْه مجروحاً بلا إغْمَادِ
وبكَتْ له عَيْنُ السماء بأدْمُع ... ضَحِكَتْ لساجمها رُبَى الأنجادِ
وَبَدَتْ شقائِقُها خِلال رياضها ... تُزْهَى بثوبَىْ حُمْرَةٍ وسَوادِ

---

(١) أقبل: وصف من القبل ـ بالتحريك ـ وهو إقبال سواد العين على جهة الأنف.

فكأنها بِنْتُ الشتاء توجَّعَتْ ... لمُصَـــــابه كشقيقةِ الأولادِ
فقنُوء حُمْرتهــا خِضَابُ نجيعهِ ... وسوادُ كُسْوَتِهَا لِبَاسُ حِدادِ

وقال :

تصوغُ لنا كفُّ الربيعِ حدائقا ... كعقد عَقِيقٍ بين سِمْطِ لآلِى
وفيهن أنْوَارُ الشقائقِ قد حَكَتْ ... خُدودَ عذارى نُقِّطت بِغَوَالى

وقال :

كأنَّ الشـقائقَ إذ أبرَزَتْ ... غِلاَلَة دادٍ وثَوْباً أحَــــــمْ[1]
قطـاعٌ من الجَمْرِ مشـبوبةٌ ... فأَطرافها لُمَعٌ مِنْ حُمَـــم

وقال فى حديقة ريحان :

أعدَدْت مُحْتَفلا ليوم فَرَاغى ... روضا غَدا إنسانَ عَيْنِ الباغى[2]
روض يَرُوضُ هموم قلبى حُسْنُهُ ... فيه لِـكأس الأُنْسِ أىّ مَسَاغِ
فإذا بدَتْ قضْبَانُ ريحانٍ به ... حيَّتْ بمثلِ سلاسلِ الأصْداغِ

وقال فى النرجس :

أهْلًا بنرجس رَوْضٍ ... يُزْهَى بحسْنٍ وطيبِ
يَرْنُو بعَيْنَىْ غـزالٍ ... على قَضِيبٍ رَطيبِ
وفيـــه مَعْنًى خفىٌّ ... يَزِينُهُ للقـــلوب
تَصْحِيفُه إنْ نَسَقْتَ الْـــحُرُوفَ بِرُّ حَبِيبِ

وقال :

وماضمَّ شَمْلَ الأُنْسِ يوماً كنرْجِسٍ ... يقومُ بعُذْرِ اللَّهْوِ عن خالِعِ العُذرِ[3]
فأَحداقه أحـداق تِـبْرٍ ، وسـاقهُ ... كقامةِ سَاقٍ فى غَلاَئلهِ الخُضْرِ

---

(١) داد : مولع باللهو واللعب ، واللعب يقال له : دد ، والأحم:الأسود (م).
(٢) الباغى : قيم البستان. (٣) العذر : جمع عذار .

للبحترى وقال البحترى :

سَقَى الغيثُ أكنافَ اللوى من محلّةٍ إلى الحِقْف من رَمْل اللوى المتقاودِ
ولا زال مخضرٌ من الرَّوْض يانعٌ عليه بمحمرٍّ من النَّور جاسدِ
شقائق يحملن الندى فكأنّه دموعُ التصابى فى خدودِ الخرائدِ
ومن لؤلؤ فى الأقحُوان منظّمٍ ومن نُكَتٍ مصفرّةٍ كالفرائدِ
كأن جَنَى الحوذان فى رَوْنَق الضحى دنانير تِبرٍ من تُؤام وفاردِ
إذا راوحتها مُزْنَةٌ بكرت لها شآبيبُ مجتازٍ عليها وقاصدِ
رباع تردَّتْ بالرياض مجودَةً بكل جديد الماء عَذْب الموارد(1)
كأنَّ يدَ الفتح بن خاقان أقبلت تَليها بتلك البارقات الرَّواعِد

[فى مجلس المبرد]

قال أبو محمد عبد الله بن جعفر بن دَرَسْتَويه : قال لى البحترى وقد اجتمعنا على خلوة عند المبرد وسَلَكْنا مسلكا من المذاكرة : أشعرت أنى سبقت الناسَ كلهم إلى قولى :

شقائق يحمِلْنَ النَّدَى فكأنَّهُ دموعُ التَّصابى فى خُدودِ الخرائدِ
كأن يدَ الفتْح بن خاقان أقبلَتْ تليها بتلك البارقات الرَّواعِدِ

هكذا أنشد ، فاستحسن ذلك المبرد استحساناً أسرف فيه ، وقال : ماسمعت مثل هذه الألفاظ الرّطبة ، والعبارة العَذْبة ، لأحدٍ تقدّمك ولا تأخَّرعنك . فاعترَتْهُ أرْيَحيةٌ جرّبها رِداء العُجب ؛ فكأنه أعجبنى ما يُعْجب الناس من مراجعة القول ؛ فقلت : يا أبا عُبَادة ، لم تَسْبِق إلى هذا ، بل سبقك سعيد بن حميد الكاتب إلى البيت الأول بقوله :

عَذُبَ الفراقُ لنا قُبَيل وَداعِنا ثم اجترعناهُ كسمٍّ ناقعِ

(١) تردت بالرياض : اتخذتها رداء .

وكأنما أثرُ الدموع بخدِّها طلٌّ تساقط فوق وَرْدٍ يانعِ

وشركك فيه صديقنا أبو العباس الناشىء بما أنشدنيه آنفا :

بكت للفراق وقد راعنى بكاء الحبيب لبُعْدِ الديارْ

كأنّ الدموعَ على خدّها بقيةُ طَلٍّ على جُلّنار[1]

وما أساء على بن جريج ، بل أحسن فى زيادته عليك بقوله :

لو كنتَ يوم الوداع شاهِدَنا وهنَّ يُطفِينَ غُلّةَ الوَجْدِ

لم تَرَ إلاّ دموعَ باكيةٍ تَسْفَح من مُقْلةٍ على خدٍّ

كأنّ تلك الدموع قَطْرُ نَدًى يقطُر من نَرْجِس على وَرْدِ

وسبقك أبو تمام إلى معنى البيتين معاً بقوله :

من كل زاهرةٍ ترقْرقُ بالنَّدَى فكأنها عينٌ إليه تَحَدَّرُ

تبدو ويَحجبُها الجميمُ كأنها عَذْراء تبدو تارةً وتخفَّرُ[2]

خَلقٌ أطلَّ من الربيع كأنَّهُ خُلُق الإمامِ وهَدْيه المتنشّرُ

فى الأرض من عَدْلِ الإمام وجُودهِ ومن الربيع الغضّ سَرح يُزهرُ[3]

يُنسى الربيع وما يروّض جوده أبداً على مَرِّ الليالى يُذْكَرُ

قال : فشقّ ذلك عليه ، وحلّ حَبْوَتَه ونهض ، فكان آخر عهدى بمؤانسته وغَلُظ ذلك على محمد بن يزيد ، وقدح ذلك فى حالى عنده .

* * *

للبحترى فى المدح

وقال البحترى يمدح الهيثم بن عثمان الغنوى :

ألست ترى مدَّ الفُراتِ كأنهُ جبالُ شَرَوْرَى جئن فى البحر عُوَّما

وما ذاك من عاداته غير أنهُ رَأى شِيمَةً من جارِه فتعلّما

---

(١) الجلنار : زهر الرمان ، وهو فارسى معرب . (٢) الجميم : النبت الغزير.

(٣) السرح : كل شجر طال .

وقد نبّه النَّوْرُوزُ فى غَبَشِ الدُّجى أوائل وَرْدٍ كُنَّ بالأمس نُوَّمَا
يُفتّحها بردُ النَّدى فكأنهُ يَبُثُّ حديثاً بينهنَّ مُكَتَّمَا
ومن شجرٍ رَدَّ الربيعُ لِباسهُ عليه كما نَشَّرتَ بُرداً مُنَمْنَمَا
أحَلَّ فأبدى للعيون بَشاشةً وكان قذًى للعين مُذ كان مُحْرِمَا
فما يمنع الراح التى أنت خِلُّها وما يَمْنَعُ الأوتار أن تَتَرَنَّمَا
ومازلت خِلاًّ للنَّدامى إذا اغْتَدَوْا وراحُوا بُدوراً يستحِثون أنْجُمَا
تكرَّمْت من قبل الكئوس عليهمُ فما اسْطَعن أن يحدِثن فيك تكرُّما

حيَّتك عنا شمالٌ طافَ طائفُهَا بجنّةٍ فجّرتْ راحاً وريحانا
هبَّتْ سُحَيراً فناجى الغُصْنُ صاحبَهُ سِرًّا بها وتداعَى الطَّيرُ إعلانا
وُرْقٌ تغَنَّى على خُضْرٍ مُهَدَّلةٍ تَسْمُو بها وتَمَسُّ الأرضَ أحيانا
تخالُ طائرَها نَشْوانَ من طَرَبٍ والغُصْنَ من هزِّهِ عِطْفَيْهِ نَشْوانَا

لابن المعتز ذم الصبوح

ولابن المعتز فى أرجوزته البستانية التى ذم فيها الصّبوح صفة جامعة ، إذ قال :

أمَا ترى البُسْتَان كيف نوَّرا ونَشَر المنثور بُرداً أصْفَرا
وضَحَّكَ الوردَ إلى الشقائقِ واعتَنَق الورد اعتناق الوامقِ
فى رَوْضَةٍ كحلية العروسِ وخُدَّمٍ كهامةِ الطاوسِ
وياسمين فى ذُرَى الأغصان منظم كقِطَع العِقْيَانِ
والسَّرْوُ مثل قَصبِ الزَّبَرْجدِ قد استمدَّ الماءَ من تُربٍ نَدِ
على رياضٍ وثَرًى نَدِىٍّ وجدْوَلٍ كالبَرَد الحلىٍّ
وفرَّج الخشْخَاش جَيْباً وفَتَق كأنهُ مصاحِفٌ بيضُ الوَرَق
أو مثل أقداحٍ مِن البَلّورِ تخالها تجسَّمت مِن نورِ
وبَعْضُه عُرْيَانُ من أثوابه قد خَجل اليابس من أصحابه

---

(٢) نسبها فى نهاية الأرب (١١/٢٦٣) لابن الرومى ، وهى به أشبه .

تُبْصِرُه عند انتشار الورد مثل الدبابيس بأيدى الْجُنْدِ
والسَّوْسَنُ الآزار مَنْشور الحُلَل كقُطُنٍ قد مسَّهُ بعضُ بَلل
نوَّرَ فى حاشيتى بُسْتَانِه ودَخَّل الميدان فى ضَمانه
وقد بدت فيه ثمار الكنكر كأنها جماجمٌ من عَنْبَرِ
وحلَّق البهارُ بَيْنَ الآسِ جُمْجُمَة كهامَةِ الشَّمَّاسِ
خلال شيح مثل شيب النَّصَفِ وجوهرٍ مِن زَهَرٍ مُخْتَلفِ
وجُلَّنار كاحْمِرارِ الوردِ أو مثل أعْراف ديوك الهندِ
والأقحوان كالثنايا الغُرِّ قد صُقِّلَتْ أنواره بالقَطْرِ

لأبى الفتح كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم :

وَرَوْضٍ عن صَنِيع الغيثِ رَاضٍ كما رَضِىَ الصَّدِيقُ عن الصديقِ
إذا ما القَطْرُ أسْعدَهُ صَبُوحاً أتمَّ لهُ الصنيعةَ فى الغَبُوقِ
يُعِير الرِّيحَ بالنفحَاتِ رِيحاً كأنَّ ثَرَاه مِنْ مِسْكٍ فَتِيقِ
كأنَّ الطَّلَّ مُنْتَشِرا عليه بقايا الدَّمْعِ فى خدِّ مَشُوقِ
كأنَّ غصونَه سُقِيَتْ رَحِيقاً فمالَتْ مِثْلَ شُرَّاب الرَّحِيقِ
كأنَّ شقائقَ النعمانِ فيه مُخَضَّرةً شَقَائقُ مِنْ عَقِيقِ
يُذَكِّرُنى بَنفْسَجُه بَقَايا صنيعِ اللَّطْم فى الخدِّ الرَّقيقِ

وقال :

غَيْثٌ أتَانا مُؤْذِناً بالخَفْضِ مُتَّصِلَ الوَبْلِ سَرِيعَ الرَّكْضِ
دَنَا فخِلْنَاه دُوَيْنَ الأَرْضِ مُتَصِلاً بطوله والعَرْضِ
إلْفاً إلى إلْفٍ بِسِرٍّ يُفْضِى ثم سَما كاللؤلؤ المُرْفَضِّ
فالأرضُ تُجْلَى بالنباتِ الغَضِّ فى حَلْيِهَا المحمَرِّ والمُبْيَضِّ
مِنْ سَوْسَنٍ أحْوَى ووَرْدٍ غَضٍّ مِثْلَ الخدودِ نُقِّشَتْ بالعَضِّ

وأقْحُوَانٍ كاللُّجَيْنِ المَحْضِ ونَرْجِسٍ ذا كِي النسيمِ بَضّ
مثــل العيونِ رَنَّقَتْ للغَمْضِ تَرْنُو فيَغْشَاها الكَرَى فتُغْضِي

جملة من هذا النوع لأهل العصر

لأبى فراس الحمدانى

قال أبو فراس الحمدانى :

وجلنّارٍ مُشرقٍ عَلَى أعالِي شَجَرَهْ
كأنّ فى رءُوسِه أحمرَهُ وأصفرَهْ
قُرَاضةٌ من ذَهب فى خِرْقَةٍ مُعَصْفَرَهْ

وقال :

ويوم جَلاَفيه الربيع رِياضَـــهُ بأَنْوَاعِ حَلْيٍ فوق أثْوَابِهِ الُخضْر
كأنّ ذُيولَ الجلّنار مُطِـــلّةً فضولُ ذيولِ الغانياتِ من الأُزْر

لابن هانى يصف زهرة رمان

وقال أبو القاسم بن هانىء ، يصف زهرة رُمّان قطفت قبل عَقْدِها :

وبنت أيْكٍ كالشبابِ النَّضْرِ كأنها بين الغُصُونِ الُخضْرِ
جَنانُ بازٍ أو جَنَانُ صَــقْرِ قد خفَّمَتْه لَقْوةٌ بوَكْرِ[1]
كأنما سَحَّت دَمًا مِنْ نَحْرِ أو نَبَتَتْ فى تُرْبةٍ من جمرِ
[أو سُقِيَتْ بجَـدْوَلٍ من خَمْرِ] لو كفَّ عنها الدهرَ صَرْفُ الدَّهْرِ
جاءت كمثل النَّهدِ فوقَ الصَّدْرِ تَفْتَرُّ عن مِثْلِ اللِّثَاتِ الُحمْرِ
فى مثل طعْمِ الوَصْلِ بعد الهجْرِ

ولهم فى هذا المعنى

روضة رقَّتْ حَوَاشيها ، وتأنّق واشيها . روضة كالعقود المنظّمة ، على البرود المنَمْنَمَة. روضة قدرَاضتها كفُّ المطر ، ودبَّجَتْهَا أيدى الندى. أخرجتِ الأَرضُ

---

(١) اللقوة : العقاب .

أسرارَها ، وأظهرتْ يدُ الغيثِ آثارها ، وأبدت الرياضُ أزهارها . الرياض كالعرائس في حَليها وزَخارِفها ، والقيانِ في وَشْيها ومَطارِفها ، باسطة زَرابيّها وأنماطها ، ناشرة حِبَراتها ورِياطَها ، زاهية بحمْرائها وصفرائها ، تائهة بعيدانها وغُدْرانها ، كأنما احتفلت لوَفْد ، أو هي من حبيب على وَعْد . روضة قد تضوّعتْ بالأرَج الطّيِّب أرجاؤها ، وتبرّجتْ في ظُلَلِ الغمام صحراؤها ، وتنافَحتْ بنوافج المِسْكِ أنوارُها ، وتعارضت بغرائب النُّطْقِ أطيارُها . بستان رقّ نورُه النضيد ، وراق عودُه النضير . بستان عودُه خضر ، ونوره نَضِر ، ويُنْعه خَضِل ، وماؤه خَصِر . بستانٌ أرْضُه للبقل والريحان ، وسماؤه للنخل والرمان . بستان أنهارُه مفروزة بالأزهار ، وأشجارُه مُوقَرَةٌ بالثمار . أشجارٌ كأنّ الحورَ أعارتْها قُدُودَها ، وكسَتها بُرودَها ، وحلّتها عقودها . الربيعُ شبابُ الزمانِ ، ومقدمة الورد والريحان . زَمَنُ الوردِ مَرْمُوق ، كأنه من الجنّةِ مسروق . قد ورد كتاب الورد ، بإقباله إلى أهل الوُد . إذا وَرَدَ الوَرْد ، صدَرَ البرد . مرحباً بإشراف الزهر ، في أطراف الدهر ، وأنشد :

سقى الله وَرْداً صار خَدّ رَبيعنا فقد كان قبل اليوم ليس له خَدُّ

كأنّ عَيْنَ النرجس عيْن ، وَوَرَقه وَرِق[1] النرجس نُزْهَة الطّرْف ، وظَرْفُ الظّرف ، وغذاء الروح : شقائقُ كتيجان العقيق على رءوسِ الزنوج ، كأنها أصْداغُ المسك على الوجنَاتِ المورّدة . شقائق كالزنوج تجارحت وسالت دِماؤُهَا ، وضَعُفَتْ فسال دَماؤُها . كأن الشقيقَ جامٌ من عقيق أحمر ، مُلِئَتْ قرارتُه بمسكٍ أذْفَر . الأرض زمرّدة ، والأشجارُ وَشْي ، والماء سيوف ، والطيور قِيانٌ . قد غرّدت خطباء الأطيار على منابر الأنوار والأزهار . إذا صدح الحَمامُ ، صدع الحِمامُ قَلْبَ المسْتهَام انظر إلى طَرَبِ الأشجار لغِنَاء الأطيار . ليس للبلابلَ كغناء البلابل[2] ، وَخَمْر بابل .

---

(١) العين المشبه بها : الذهب ، والورق ـ بكسر الراء ـ الفضة (م) .

(٢) البلابل الأول: الأشجان ، والثانية الطيور الغردة واحدها بلبل (م) .

ولهم فيما يتعلق بهذا النحو فى وصف أيام الربيع

يوم سماؤه فاختيّة ، وأرضه طاوُسيّة . يومٌ جَلاَبيبُ غيومه رواق ، وأرْدِيَة نسيمه رِقَاق . يوم مُمَسَّكُ السماء ، مُعَصْفَرُ الهواء ، مُعَنْبَرُ الرَّوْضِ ، مُصَنْدَل الماء . يوم زُرَّ عليه جَيْبُ الضَّباب ، وانسحب فيه ذَيْلُ السحاب . يوم سماؤه كالخزّ الأدْكَن ، وأرْضُه كالديباج الأَخْضَرِ

شادنٌ يَرْتَعِى القلوب بغدا   دَ ولا يَرْتَعِى الكلا بالنِّبَاج
أقبلَت والربيعُ يختالُ فى الرَّوْ   ض وفى المزن ذِى الحيَا الثَّجَّاجِ[1]
ذو سماء كأدْكَنِ الخزّ قد غِيـ   ـمَتْ وأرضٍ كأخْضَرِ الديباجِ
فتجلَّى عن كل ما يتمنى   موعد الكدخداة والهيلاج
فظللنا فى نُزْهَتَين وفى حُسْـ   ـنَيْن بين الأرْمَالِ والأهْزاج
بفتَاةٍ تسرُّنا فى المَثَانِى   وعَجُوزٍ تَسُرُّنَا فى الزُّجَاج
أخذَتْ من رءوسِ قومٍ كرامٍ   ثارَها عند أرْجُل الأعْلاج

يوم حَسَنُ الشمائل ، مُمْتِعُ المخايل ، سَجْسَجُ الهواء ، مُوْنِقُ الأرْجَاء . يوم تَبَسَّم عنه الربيعُ ، وتبرَّجَ عنه الروضُ المريع . يوم كأنّ سماءه مأتم تتباكى ، وأرْضه عَرُوسٌ تتجلَّى . يوم مشهّر الأوْصاف ، أغَرّ الأطراف . يوم يُغْفِى فيه النَّوْر ويَنْتَبِه ، وتُسْفِر فيه الشمس وتَنْتَقِب ، وتَعْتَنِقُ الغصون وتَفْترق ، ويوشى الغيم وينسكب . يوم غاب نَحْسُه وهوَى ، وطلع سَعْدُه واعتلى ، والزمان ساقطة جماره ، مُفْعَمَةٌ أنهاره ، مُونِقَةٌ أشجارُه ، مغرّدة أطيارُه . نحن فى غِبّ سماء ، قد أقلعت بعد الارْتِوَاء ، وأقْشعت عند الاستغناء ، فالنَّبتُ خَضِلٌ ممطور ، والنَّقْعُ ساكن محصور . يوم جوُّه طَارُونِيّ ، وأرْضه طاوسِيّ . يوم دَجْنُه عاكف ، وقَطْرُه وَاكِف . يومٌ من أعياد العُمْرِ ، وأعْيانِ الدَّهْرِ .

---

(١) الحيا : المطر ، والثجاج : كثير السيلان (م) .

[الربيع والرفاق]

ولهم فى تشبيه محاسن الربيع بمحاسن الإخوان والسادة :

غَيْثٌ متشبِّه بكَفِّك ، واعتدالُه مُضاهٍ خُلقك، وزَهْرُه مُوازٍ لنَشْرِك[1]، كأنما استعار حُلَله من شيمتك ، وحَلْيَه من سجيَّتك ، واقتبس أنوارَه من محاسن أيامك ، وأمطارَه من جُودك و إنعامِك . قـدم الربيعُ مُنْتَسِباً إلى خلقك ، مُـكْتَسِيا محاسِنَه من طَبْعك ، متوشّحا بأنوار لَفظِك ، متوضِّحاً بآثار لسانك ويَدِك . أنا فى بُستان أذْكَرَنى وَرْدُه المفتَّح بخلقك ، وجَدْوَلُه السابح بطَبعك ، وزَهْرُه الجَنِيُّ بقرْبك . أنا فى بستان كأنّه من شمائلك سُرِق ، ومن خُلُقك خلِق ، وقد قابلتنى أشجارٌ تَتَمايل فتذكرنى تَبَرِيحَ الأحباب ، إذا تداولَتْهم أيْدِى الشراب ، وأنهار كأنَّها من يدك تَسيل ، ومن راحتيك تَفِيض . أنا على حافَةِ حَوْضٍ أزرقَ كصفاء مودَّتى لك ، ورِقَّة قولى فى عَتْبِك .

[الصوم فى الربيع]

وقال ابن عون الـكاتب :

جاءنا الصومُ فى الربيع فَهلاَّ اخـتَار رُبْعا من سـائرِ الأرباع[2]
وكأنَّ الربيعَ فى الصوم عِقْدٌ فوق نَحْرٍ غطّاه فَضْـلُ قِناع

[يوم الشك]

وكتب أبو الفتح كشاجم إلى بعض إخوانه يستدعيه إلى زيارته فى يوم شك :

هو يوم شَـكٍّ يا على ءُ وبِشرهُ مُذْ كان يُحْذَرْ
والجوُّ حُلَّتُـه ممسَّكةٌ ومُطْرَفه مُعَنْبَرْ
والمـاء فضِّىُّ القَمِيص وطَيْلَسانُ الأرضِ أخْضر
نَبْتٌ يُصَعِّد زَهْـرَهُ فى الرَّوْضِ قَطْرَ ندًى تحدَّرْ
ولنـا فُضَيْلاتٌ تكونُ ليومنا قوتاً مُقَـدَّرْ

---

(١) النشر ـ بالفتح ـ الرائحة الطيبة (٢) كل فصل ربع من السنة

ومُدامةٌ صفراء أَدْ رك عُمْرَها كِسْرَى وقَيْصَرْ
فانْشَطْ لنا لِنَحثَّ مِنْ كاسَاتِنا ما كان أ كْبَرْ
أو لاَ فإنَّكَ جاهـــلٌ إن قلت إنَّكَ سوف تُعْذَرْ

وكتب بديع الزمان إلى بعض أهل هَمَذان :

من بديع الزمان لبعض اهل همذان

كتابى ـ أطال اللهُ بقاك ـ عن شهر رمضان ، عرّفنا اللهُ بركةَ مَقْدَمِه ، ويُمْنَ مُخْتَتَمِه ، وخصَّك بتقصير أيامِه ، وإتمامِ صيامِه وقيامِه ؛ فهو ـ وإن عَظُمَتْ بركَتُه ـ ثقيلٌ حركته ، وإن جلّ قَدْرُه بعيد قَعْره ، [وإن عمّت رأفته ، طويل مسافته ، وإن حسنت قربته ، شديد صحبتُه ، وإن كبرت حرمته كثير حشمته ، وإن سرّنا مُبتداه فلن يسوءنا منتهاه] فإنْ حَسُن وجْهُه فليس يَقْبُح قفَاه ، وما أَحْسَنَه فى القَذَال ، وأشبَه إدبَارَه بالإقبال ، جعل اللهُ قدومَه سـببَ تَرْحالِه ، وبَدْرَه فِداءَ هـلاله ، وأمدَّ فَلَـكه تحريكا ، بتقضى مُدَّتِه وَشِيكا ، وأَظْهر هلالَه نحيفا ، ليزفَّ إلى اللذاتِ زفيفا ، وعفا اللهُ عن مَزْحٍ يكرهه ، ومُجونٍ يُسْخِطُه .

لابن العميد

عوّل البديع فى هذا الـكلام على قول أبى الفضل بن العميد فى رسالة له فى مثل ذلك :

أسأَلُ الله أن يُعَرِّفَنى بركَته ، ويُلقِّينِى الخيرَ فى باقى أيامه وخاتمته ؛ وأرْغَبُ إليه فى أن يقربَ على الفَلَكِ دَوْرَه ، ويقصِّره سَـيْرَه ، ويُخَفِّف حرَكته ، ويعجِّل نَهْضَته ، ويَنْقُصَ مسافةَ فلـكه ودَائرتِهِ ، ويزيل بركةَ الطولِ عن ساعاته ، ويَرُدَّ علىّ غُرَّةَ شوال ، فهى أسْنَى الغُرَرِ عندى ، وأقرُّها لعَيْنى ؛ ويُطْلِـعَ بَدْرَه ، ويُرِينى الأيْدِى متطلبة هِلاله ببِشْر ، ويسمعنى النَّعْىَ لشهر رمضان ، ويعرض علىّ هلاله أخْفَى من السِّحْرِ ، وأظْلم من الـكُفْر ، وأَنْحَف من مَجنونِ بنى عامر ، وأَبْلَى من أسيرِ الهَجْرِ ، وأَستغفرُ الله جلّ وجْهُه مما قلتُ إن كَرِهه ، وأَستَعْفيه من توفيقى لما يذمُّه ، وأسأله صفحاً يُفيضه ، وعَفْواً يُوسِعه ، إنه يعلم خائنة الأعْيُنِ وما تُخْفِى الصدور .

[عَوَاقِبُ الطيش]

طاهر ابن الحسين يصف الأمين

قال المأمون لطاهر بن الحسين : صِفْ لى أخلاقَ المخلوع . قال : كان واسعَ الصَّدْرِ ، ضَيِّقَ الأَدَبِ ، يُبيح من نفسه ما تأْنَفه هِمم الأحرار ، ولا يُصْغِي إلى نصيحة ، ولا يقبل مَشُورة ، يستبدُّ برأيه ، ويُبَصِّر سوء عاقبته ؛ فلا يَرْدَعه ذلك عما يَهُمُّ به . قال : فكيف كانت حروبُه ؟ قال : كان يجمعُ الكتائب بالتبذير ، ويفرِّقها بسوء التدبير . فقال المأمون : لذلك حلّ ما حلّ به ؛ أمَا واللهِ لو ذاق لذّاتِ النصائح ، واختار مَشُورَاتِ الرجال ، وملَكَ نَفْسَه عن شهواتها ، لما ظُفِر به .

[الأمين والمأمون]

ولما عقد الرشيدُ البيعةَ للأمين وهو أصغرُ من المأمون لأجل أُمِّه زُبَيْدة ، وكلامِ أخيها عيسى بن جعفر ، وقدّمه على المأمون ، جعل يرى فَضْلَ عقله فيندَم على ذلك ، فقال :

لقد بان وجهُ الرَّأْيِ لى غَيْرَ أَنَّنى ... غُلِبْتُ على الأَمْرِ الذى كان أحْزَما

فكيف يُرَد الدر فى الضَّرْعِ بعدما ... توَزَّع حتى صار نَهْبًا مقسَّما

أخافُ الْتِوَاءَ الأمرِ بعد أستوائِه ... وأنْ يُنقَضَ الحبْلُ الذى كان أُبرِما

قال أسد بن يزيد بن مزيد : بعث إلىَّ الفضلُ بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن الأنبارى ، قال : فأتيتُه وهو فى صَحْنِ داره ، وفى يده رُقعة قد غضِب لما نظر فيها ، وهو يقول : ينامُ نَوْمَ الظَّرِبَان ، وينتبهُ انتباهَ الذئب ، هِمَّتُه بَطْنُه ، ولذّته فَرْجُه ، لا يفكّر فى زوال نِعْمَةٍ ، ولا يتروّى فى إمضاء رَأْى ولا مَكِيدة ، قد شمّر له عبدُ الله عن ساقِه ، وفوّق له أسَدَّ سهامِه ، يرميه على بُعْدِ الدار بالحَتْفِ النافذ والموت القاصد ، قد عبّى له المنايا على مُتُونِ الخيل ، وناطَ له البلاءَ فى أسِنَّةِ الرماح وشِفَارِ السيوف ، ثم تمثّل بشعر البَعيث :

يُقَارِعُ أتراكَ ابن خاقانَ لَيْلَهُ ... إلى أن يرَى الإصْبَاح لا يتلعثمُ

فيُصبحُ فى طُولِ الطِّراد وجِسْمُهُ ... نحيل ، وأُضحِى فى النعيم أصَمِّمُ

فشتان ما بينى و بين ابن خالدٍ أميّةَ فى الرِّزْقِ الذى اللهُ يقسمُ

ثم قالَ: يا أبا الحارث ، أنا وأنت نجرِى إلى غايةٍ إنْ قصَّرْنا عنها ذُمِمْنا ، وإن اجتهدنا فى بلوغها انقطعْنا ؛ وإنما نحن شُعْبَتَانِ من أصلٍ ، إن قَوِى قوينا ، وإن ضَعُفَ ضعفنا؛ إن هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاءَ الأمة الوَكْعَاء : يشاور النساء ، ويعتمدُ على الرؤيا ، وقد أمْكَنَ أهلَ اللهو والخَسَارةِ مِنْ سَمْعِه ؛ فهم يُمَنُّونه الظَّفَر ، ويَعِدُونَه عواقب الأيام ؛ والهلاكُ إليه أسرعُ من السيل إلى قِيعَانِ الرَّمْلِ ؛ وقد خشِيتُ أن نَهْلِكَ بهلاكه، ونعطَب بعَطَبه ، وأنت فارسٌ العرب وابنُ فارسها ، وقد فزِع إليك فى لقاء طاهر لأمرين : أحدهما صِدْقُ طاعتك ، وفَضْل نصيحتك ؛ والثانى يُمْنُ نَقيبتك ، وشِدَّةُ بأسك ؛ وقد أمرنى أنْ أبسطَ يدك ، غير أنَّ الاقتصاد رأسُ النصحية ، ومفتاحُ البركة ؛ فبادِرْ ماتريد ، وعَجِّل النهضة ، فإنى أرجو أنْ يوليك اللهُ شَرَفَ هذا الْفَتْح ، ويلم بكَ شَعَثَ الخلافة .

فقلت له : أنا لطاعتك وطاعةِ أمير المؤمنين مُقْدِم ، ولما وَهَنَ عدوَّكما مُؤْثِر ؛ غير أنَّ المحارِب لا يفتَتِحُ أمرَه بتقصير ؛ وإنما مِلَاكُ أمرِه الجنود ، والجنود لاتكون بلا مال ، وقد رفع أمير المؤمنين الرغائبَ إلى قوم لم يُجْدُوا عليه ، ومتى سُمت مَنْ أقدرُ به الانتفاع له الرضا بدون ما أخذه غيرُه ممن لم يكُنْ عنده غناء ولا مَعُونة ، لم ينتظم بذلك التدبير ، وأحتاج لأصحابى رِزْقَ سنة قَبْضاً ، وحملا إلى ألفِ فرس لحمل من لا أرْتَضِى فرسه ، وإلى مال أستظهر به ، لا أُلَامَ على وَضْعِه حيث رأَيْت . فقال : شاوِرْ أمير المؤمنين ؛ فأدخلنى عليه ، فلم تَدُرْ بينى وبينه كلمتان حتى أمر بحَبْسِى .

الأمين يصف طاهر ابن الحسين

ويروى أن الأمين لما أعْيَتْه مكايدُ طاهر قال :

بُليت بأشْجَعِ الثقلين نَفْسًا تَزُولُ الراسياتُ وما يزولُ

له مع كل ذى بدن رقيبٌ يشاهده ويَعْلَمُ ما يقول

فليس بمغفِـــل أمراً عَنَاهُ إذا ما الأمْرُ ضَيَّعه الجهول

الفضل بن الربيع وابنه وأبوه

وفى الفضل بن الربيع يقول بعض الشعراء :

كم مِن مقيمٍ ببغدادٍ على طَمَعٍ ... لولا رجاء أبى العباس لم يُقِمِ
البدرُ إن نظروا، والبحرُ إنْ رَغِبوا ... والحِصْن إن رهبوا، والسيف ذُو النِّقَمِ

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع : ما مدحنا شاعرٌ بشعر أحب إلينا من قول أبى نواس :

ساد الملوكَ ثلاثةٌ ما منهمُ ... إن حُصِّلوا إلا أعز قَرِيع
ساد الربيعُ وسادَ فَضْلٌ بعدهُ ... وعلتْ بعبّاس الكريمِ فروعُ
عباس عباسٌ إذا احتدم الوَغَى ... والفَضْلُ فضلٌ والربيعُ ربيعُ

وقيل للعتابى : أمدحت أحداً ؟ قال : لا ، وليس لى على ذاك قدرة ، فقيل له : فقد مدحتَ الربيع ، فقال : ذلك ليومٍ يستحقّ فيه المدح ، فقلت :

ومعضلةٍ قام الربيع إزاءَها ... ليَعْمِد ركن الدِّين لما تَهدَّمَا
بمكة والمنصور رهن كما أتى ... أخا الوحْى داعى ربّه فتقدَّمَا
غداةَ عداةُ الدين شاحذةُ المُدى ... إليه وغُولُ الحربِ فاغِرَةٌ فَمَا

[بيعة المهدى]

وكان المنصور قد تُوفِّى بمكة وهو حاجٌّ فى ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة، فأخذ الربيع للمهدى البيعةَ على الناس ، وأخذَ بتجديدها عن المنصور على أنه حىّ، وأدخل إليه قوماً فرأَوْه من بعيد وقد جلله بثوب ، وأقعد إلى جنبه من يحرّك يده وكأنه يومِئُ بها إليهم ، فلم يشكّوا فى حياته ؛ فما خالف أحد ؛ فشكره المهدى لذلك ، وفى ذلك يقول أبو نواس فى مدحه الفضل بن الربيع :

أبوكَ جلّى عَنْ مُضَر ... يوم الرواقِ المحتضرْ
والحرب تفْرِى وتَذَر ... لما رأى الأمر اقمطَرّْ
قامَ كريما فانتَصَرْ ... كهزة العَضْبِ الذَّكَرْ

ما مس منْ شيء هَبَر   وأنت تَقْتَافُ الأثَرْ
منْ ذى حُجـول وغُرَرْ

وقال أيضاً :

آلَ الربيع فَضلْتُمُ   فضل الخَميس على العشير(١)
من قاس غـيرَكم بكم   قاس الثِّمَاد إلى البُحُور
أين القليل بنـو القليـل من الكثير بنى الكثير
أين النجومُ التـاليا   ت من الأهلَّةِ والبـدور
قـومٌ كفوا أيام مـكَّة نازل الخَطْبِ الكبير
وتداركُوا نَصْرَ الخِلاَ   فةِ وهْيَ شاسعة النَّصِير
لولا مقامُهُمُ بهـا   هَوَتِ الرواسى من ثَبِير

ومن قول أبى نواس : « من قاس غـيركم بكم . . . » البيت ، أخذ أبو الطيب المتنبى :

قواصِدَ كافورٍ توارِكَ غـيرِهِ   ومَن قَصَد البحرَ استقلَّ السواقِيَا
فتًى ما سَرَيْنَا فى ظُهورِ جُدودِنَا   إلى عَصْرِه إلاّ نُرَجّى التَّلاقِيَا

[وقت كلام الملوك]

من كلام الفضل ابن الربيع

وقال الفضل بن الربيع : من كلَّمَ الملوكَ فى الحاجات فى غيرِ وَقْتِ الكلام لم يَظفَرَ بحاجته ، وضاع كلامُه ، وما أشبههم فى ذلك إلا بأوقات الصلوات لا تُقْبَل الصلاةُ إلا فيها ، ومن أراد خطابَ الملوك فى شيء فلْيَرْصُد الوقتَ الذى يصلح فى مثله ذِكْرُ ما أراد ، و يسبِّب له شيئاً من الأحاديث يحسن ذِكْرُه بعَقِبه .

بين المأمون والفضل بن الربيع

وقال المأمون للفضل بن الربيع لمـا ظَفِر به : يا فضل ؛ أكان فى حقى عليك ، وحق آبائى ونعمهم عند أبيك وعندك ، أن تَثْلِبَنى(٢) وتَسُبَّنى ، وتُحَرِّضَ على دمى ؟ أتحبُّ أن أفعل بك ما فعلتَه بى ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ عُذْرِى يُحقِدُك إذا كان واضحا جميلا ، فكيف

(١) الخميس : الخمس ، العشير : العشر . (٢) تثلبنى : تنتقصنى وتعيبنى (م) .

إذا حفَّته العيوب ، وقبَّحَتْه الذنوب؛ فلا يَضِيقُ عنى من عَفوِكَ ماوسع غيرى منك ، فأنت كما قال الشاعر فيك :

صَفوحٌ عنِ الأجرام حتى كأنهُ   من العفو لم يَعْرِفْ من الناس مُجْرِما

وليس يُبالى أن يكونَ به الأذَى   إذا ما الأذى لم يَغْشَ بالكُرْهِ مُسْلِمَا

والشعر للحسن بن رجاء بن أبى الضحاك .

[بين المنصور والربيع]

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة : دعا المنصور بالربيع ، فقال : سلنى ماتُرِيد ، فقد سكتَّ حتى نطقْتَ ، وخفَّفت حتى ثقّلت ، وأقْلَلْتَ حتى أكْثَرْت .

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أرْهَبُ بُخْلَكَ ، ولا أسْتَقْصِرُ عُمْـرَكَ ، ولا أستَصْغِر فَضْلَكَ ، ولا أغْتَنِم مالك ؛ وإنّ يومى بفضلك عَلَيَّ أحْسنُ من أمسى ، وغَدُكَ فى تأميلى أحْسَنُ من يومى ؛ ولو جاز أن يَشْـكُرَكَ مثلى بغير الخِدْمَةِ والمُنَاصحَة لما سَبَقَنى لذلك أحَد .

قال : صدقت ، عِلْمِى بهذا منك أحَلَّكَ هذا المحلّ ؛ فَسلْنِى ما شِئت

قال : أسألُك أن تقرِّب عبدك الفَضْل ، وتُؤْثِره وتحبّه .

قال : يا ربيع إنَّ الحب ليس بمال يُوهَب، ولا رُتْبَة تُبذَل؛ وإنما تؤكّده الأسباب .

قال : فاجعل لى طريقا إليه ، بالتفضل عليه

قال : صدقت ، وقد وصَلْتُه بألف ألف درهم ، ولم أصل بها أحَداً غير عمومتى ؛ لتعلم مالَه عندى ، فيـكون منه ما يَسْتَدْعِى به محبّتى ، ثم قال : فكيف سألت له المحبة يا ربيع ؟

قال : لأنها مفتاحُ كلّ خير ، ومِغْلاَق كلّ شر ، تُسْتَر بها عندك عيوبُهُ ، وتَصِير حَسناتٍ ذنوبه .

قال : صدقت وأتيت بما أردت فى بابه .

* * *

لأبي تمام يمدح ابن الزيات

أخذ قوله : « خففت حتى ثقلت » أبو تمام فقال لمحمد بن عبد الملك الزيات :

على أنّ إفراطَ الحيـاء استمالني إليكَ ، ولم أعْدِل بعرضيَ مَعْدِلا
فثقّلتُ بالتخفيف عنك، و بعضهم يخففُ في الحاجات حتى يُثقّلاَ

[سهل بن هارون والرشيد]

ودخل سهلُ بنُ هارون على الرشيد ، وهو يُضَاحِكُ المأمون ، فقال : اللهم زِدْهُ من الخيرات ، وابْسُطْ له من البركاتِ ، حتى يكونَ في كلّ يوم من أيامه مُرْبِيا[1] على أمْسِه ، مُقَصِّراً عن غده .

فقال له الرشيد : يا سَهلُ ، من رَوَى من الشعر أحسَنه وأرصنه ، ومن الحديث أفصحَه وأوضَحه ، إذا رام أن يقولَ لم يُعْجِزه القول .

فقال سهل بن هارون: ياأمير المؤمنين ؛ ماظننت أنّ أحداً تقدّمني إلى هذا المعنى.

قال : بل أعْشى هَمْدَانَ حيث يقول :

رأيتك أمْسِ خَيْرَ بني لؤيٍّ وأنْتَ اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنْتَ غداً تزيد الخَيْرَ ضِعْفا كذاك تزيد سادة عَبْدِ شمْسِ

[من شعر الفضل بن الربيع]

ومن شعر الفضل بن الربيع ما أنشده الصولي :

إنّي امرؤٌ من هاشـمٍ بفِنَاء مَعْمُـور النَّوَاحِي
أهل الهـدى وذَوِي التُّقَى وأولي البَسَالة والسَّماحِ
أهل المعـالم والمكا رِم في المَسَاءِ وفي الصَّبَاحِ

---

(١) مربيا : اسم الفاعل من «أربى» إذا زاد (م) .

أهل النبوّة والخلا فَة والكمالِ برَغْم لاحِى
يتألّمُون من الصُّدُو دِ ويَصْبِرُونَ على الجِرَاحِ

[بين ابن خاقان وأبى العيناء]

وصف دابة

حَمَلَ محمد بن عبيدالله بن خاقان أبا العيناء على دَابَّة زَعم أنها غَيْرُ فَارِه[1]، فكتب إليه : أُعلِم الوزير ، أعزه الله ، أن أبا على محمدا أراد أن يَبَرَّنِى فعقّنى ، وأن يُرْكبنى فأَرْجَلَنى،أمر لى بدابَّة تَقِفُ للنَّبْرَة[2]، وتَعْثُر بالبَعْرَة ، كالقضيب اليابس عَجَفا[3] ؛ وكالعاشق المهجور دَنَفًا ، قد أَذْكَرَتِ الرواة عذرة العذرىّ ، والمجنون العامرى ، مساعد أعلاه لأسفله ، حُبَاقه مقرون بسُعَاله ، فلو أمسَك لترجيت ، ولو أُفْرِد لتعزَّيْت ، ولكنه يَجْمَعُهُما فى الطريق المعمور ، والمَجْلِس المشهور ، كأنه خطيبٌ مُرْشِد ، أو شاعر مُنْشِد ، تَضْحَكُ من فِعْلِه النِّسْوَان ، وتَتَنَاغى من أجله الصِّبيان ؛ فمن صائح يَصِيحُ : دَاوِه بالطباشير ، ومن قائل يقول : نوِّله الشعير ، قد حفِظَ الأشعار ، ورَوَى الأخبار ، ولحق العلماء فى الأمْصار ، فلو أُعِينَ بنطق ؛ لرَوَى بحقّ وصدق ، عن جابر الجُعْفِىّ ، وعامر الشّعبى ؛ وإنما أُتيت من كاتبه الأعور ، الذى إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وإن اختار لغيره أَخْبَث وأنزر ؛ فإن رأى الوزير أن يُبَدِّلَنِى به ، ويُرِيحنى منه بمركوب يُضْحِكنى كما ضحَّك منى ، يَمْحُو بحُسْنه وفَرَاهته ، ماسطَّرَه العَيْبُ بقُبْحه ودمامته ؛ ولست أذكرُ أمْرَ سَرْجِهِ ولجامهِ ؛ فإن الوزير أكرمُ من أن يَسْلب ما يهديه ، أو يَنْقُضَ ما يُمْضِيه .

فوجّه عبيد الله إليه بِرْذونا من براذينه بِسَرْجه ولجامه ، ثم اجتمع مع محمد ابن عبيد الله عند أبيه ، فقال عبيد الله : شكوت دابَّة محمد ، وقد أخبرنى الآن أنه يشتريه منك بمائة دينار ، وما هذا ثمنه لا يُشْتكى .

---

(١) فاره : أى جيدة قادرة على السير (م) (٢) النبرة : الصيحة (م)
(٣) العجف : الهزال (م)

فقال : أعز الله الوزير ، لو لم أكذب مستزيداً ، لم انصرف مستفيداً ، وإنى وإياه لكما قالت امرأة العزيز : « الآنَ حَصْحَصَ الحقّ ، أنا رَاوَدْتُه عن نفسه وإنه لمن الصادقين » . فضحك عبيدُ الله ، وقال : حجّتك الداحضة بمَلاَحَتك وظَرْفك أبلغُ من حجّة غيرك البالغة .

قطعة من رسالة أجاب بها أبو الخطاب الصابى

عن أبى العباس بن سابور إلى الحسين بن صَبرة

عن رقعة وردت منه فى صفة حَمَل أهْدَاه

وصلت رُقْعَتك ، ففَضَضْتُها عن خَطٍّ مُشْرِق ، ولفظ مُونِق ، وعبارةٍ مُصيبة ، ومعانٍ غريبة ، واتساع فى البلاغة يَعْجِزُ عنه عبدُ الحميد فى كتابته ، وقُسّ وسَحْبَان فى خطابته ؛ وتصرف بين جدٍّ أمْضى من القَدر ، وهَزْلٍ أرقّ من نسيم السَّحَر ، وتقلّب فى وجوه الخِطاب ، الجامع للصَّوَاب ؛ إلا أنّ الفعلَ قَصَّرَ عن القول ، لأنك ذكرت حَملاً ، جعلته بصفتك جَمَلاً ، فكانَ المُعَيْدِىَّ الذى تسمعُ به ولا أنْ تراه . وحضر فرأيت كَبْشاً مُتقَادِمَ الميلاد ، من نِتَاج قَوْمِ عَاد ، قد أفْنَته الدّهور ، وتَعَاقَبَتْ عليه العصور ، فظننته أحَد الزَّوْجين اللذين جعلهما نوحٌ فى سفينته ، وحفِظَ بهما جِنْسَ الغنم لذرِّيته ؛ صَغُر عن الكبر ، ولَطُف عن القدم ، فبانَتْ دَمامتُه ، وتقاصرت قَامَتُه ، وعاد ناحلا ضئيلا ، باليًا هزيلا ، بادِىَ السَّقَام ، عارى العِظام ، جامعاً للمعايب ، مشتملا على المثَالِب ، يَعْجَبُ العاقلُ من حلول الحياةِ به ، وتأتِّى الحركةِ فيه ، لأنه عَظْمٌ مجلّد ، وصوف مُلبّد ، لا تجد فوق عظامه سَلَبا ، ولا تَلْقَى يدك منه إلا خَشَبا ، لو أُلقِىَ إلى السَّبع لأَباه ، ولو طرح للذئب لَعافَه وقَلاه ، قد طال للكلأ فَقْدُه ، وبعُدَ بالمَرْعَى عَهْدُه ، لم يرَ القَتَّ إلا نائماً ، ولا عرف الشعيرَ إلا حالمًا ، وقد خيّرتنى بين أن أقْتَنيه فيكون فيه غِنَى

الدهر ، أو أذبحه فيكون فيه خِصْب الرَّحل ؛ فمِلْتُ إلى استبقائه لما تعرف من محبتى فى التوفير ، ورغبتى للتَّثمير ، وجَمْعى للولد ، وادّخارى لغَد ، فلم أَجِدْ فيه مستمتعاً للبقاء ، ولا مَدْفعاً للفناء ؛ لأنه ليس بأُنثى فتَحْمِل ، ولا بفتى فيَنْسُل ، ولا بصحيح فيَرْعَى ، ولا بسليم فيَبْقَى ؛ فلتُ إلى الثانى من رأييك ، وعوّلت على الآخر من قَوْلَيك ، وقلت : أذبحه فيكون وظيفة للعيال ، وأقيمه رَطباً مقام قَديدِ الغَزال ، فأنشدنى وقد أُضرِمت النار ، وحُدَّت الشِّفار ، وشمَّر الجزّار :

أعيذُها نظراتٍ منك صادِقَةً أنْ تحْسِب الشَّحْم فيمَنْ شَحْمُه وَرَمُ

وقال : ما الفائدة لك فى ذبحى ؟ وأنا لم يَبْقَ منى إلا نَفَس خافِتٌ ، ومُقلةٌ إنسانُها باهت : لَسْتُ بذى لَحم ، فأَصلح للأكل ؛ لأن الدهرَ قد أكل لحمى ، ولا جِلدى يصلُح للدّباغ ؛ لأن الأيام قد مزَّقَتْ أديمى ، ولا لى صوف يصلُح للغزل ؛ لأن الحوادث قد حَصَّت وَبَرِى ؛ فإن أردتنى للوَقُود فكفُّ بَعرٍ أبقى من نارى ، ولن تَفِى حرارةُ جمرى بريح قُتَارى، فلم يبق إلا أن تطلبنى بذَحْل[1] أو بينى و بينك دَم . فوجدته صادقاً فى مقالته ، ناصحاً فى مَشُورته ، ولم أعلم من أى أمْرَيْه أعجب ؛ أمِن مماطَلَتِه للدهر بالبقاء ، أم من صبره على الضُّر واللأْواء[2] ، أم من قدرتك عليه مع إعواز مثله ، أم من تأهيلك الصديق به مع خَسَاسة قَدْرِه! و ياليت شعرى إذ كنتَ — و إليك سوق الغنم ، وأمْرُكَ يَنفُذ فى الضأن والمَعز ، وكلٌّ كبش سمين وحَمل بطين مجلوبٌ إليك ، مقصورٌ عليك — تقول فيه قولا فلا تُرَدّ ، و تريده فلا تُصدّ ، وكانت هديتك هذا الذى كأنه ناشر من القبور ، أو قائم عند النفخ فى الصور ، فما كنتَ مُهْدِيا لو أنك رجل من عُرْض الكُتَّاب ، كأبى علىّ وأبى الخطّاب ، ما كنت تهدى إلا كلباً أجرب ، أو قرداً أحدَب .

---

(١) الذحل : الثأر (م) (٢) اللأْواء : الشدة (م)

[الحدونى وشاة سعيد بن أحمد]

وقال الحدونى فى شاة سعيد بن أحمد بن خوسنداذ :

أسعيد قد أعطيتنى أضـحيّةً ... مكثَتْ زماناً عندكم ما تطعَمُ
نِضواً تعاقرت الكلابُ بها وقد ... شدّوا عليها كى تموت فيُولِمُوا
فإذا الملا ضَحِكوا بها قالت لهم: ... لا تهزءُوا بى وارحمونى تُرْحَمُوا
مرّت على عَلَف فقامت لم تَرِم ... عنه ، وغنّت والمدامعُ تَسجم
وقفَ الهوى بى حيث أنت فليس لى ... متأخَّر عنه ولا متقـدَّمُ(١)

وقال أيضاً :

أبا سـعيدٍ لنا فى شاتِك العِبَرُ ... جاءت وما إن لها بَوْلٌ ولا بَعَرُ
وكيف تَبْعَرُ شاةٌ عندكم مكثَتْ ... طعامُها الأبيضانِ الشمسُ والقمرُ
لو أنَّها أبْصَرَتْ فى نومها عَلَفاً ... غَنَّت له ودموعُ العين تَنْحَدِر
يا مانعى لذَّةَ الدنيا بأجمعها ... إنى ليفتننى من وَجْهِك النظرُ

وقال أيضاً :

شاةُ سعيدٍ فى أمرِها عِبَرُ ... لما أتتنا قد مسَّها الضررُ
وَهْىَ تغنى من سوء حالتها ... حَسْبى بما قد لقيت يا عُمَرُ
مرَّت بقطف خضر ينشّرها ... قومٌ فظنّتْ بأنها خُضُر
فأقبلَتْ نحوها لتأكلها ... حتى إذا ما تبيّنَ الخَبَرُ
وأبدلتها الظنونُ من طَمَعٍ ... يَأْساً تغنّت والدمعُ مُنْحَدِرُ
كانوا بعيداً وكنت آمُلُهم ... حتى إذا ما تقربوا هجروا

قال :

لسـعيدٍ شُوَيْهَةٌ ... سلَّها الضُّر والعَجَفْ
قد تغنّتْ وأبصرت ... رجلا حاملا عَلَفْ

(١) هذا البيت من شعر دعبل الخزاعى

بأبى مَنْ بكفّه | بُرْءُ مابى من الدَّنَفْ
فأتاها مطمِّعـا | وأتَتْهُ لتعْتَلِفْ
فتـولَّى فأقبلتْ | تتغنَّى من الأسَـفْ
ليته لم يكن وَقَفْ | عذَّبَ القلبَ وانْصَرفْ

[الحدونى وطيلسان ابن حرب]

[قال] : و إذ قد جرَتْ بعضُ تضمينات الحدونى فى هذا الموضع فأنا أذكر هنا قطعةً من شعره فى الطيلسان ، وأنعطف فى غير هذا الموضع إليها وأكر عليها؛ وكان أحمد بن حَرْب المهلّبى من المُنعِمين عليه ، والمحسنين إليه ، وله فيه مدائح كثيرة ، فوهب له طيلساناً أخضر لم يَرْضَه ، قال أبو العباس المبرّد : فأنشدنا فيه عشر مقطعات ، فاستَحْلَينا مَذْهَبَه فيها ، فجعلها فوق الخمسين ؛ فطارت كل مَطَار ، وسارت كل مَسَار ، فنها :

يابْنَ حرب كَسَوْتنى طَيْلَسانًا | مَلَّ من صُحْبة الزمان وصَدَّا
فحسبنا نَسْجَ العناكب قد حا | لَ إلى ضَعف طَيْلَسانِك سدَّا
طال تَرْدادُه إلى الرَّفْوِ حتى | لو بَعَثْناه وَحْـدَه لتَهَدَّى

وقال فيه أيضاً :

ياطيلسان ابن حرب قد هَمَمْتَ بأنْ | تُودِى بجسمى كما أوْدَى بكَ الزَّمَنُ
ما فيـك مِنْ ملبس يغنى ولا ثمن | قد أَوْهَنَتْ حيلتى أركانُك الوُهنُ
فـلو تَرَانى لَدَى الرَّفَّاء مُرْتَبطاً | كأننى فى يَدَيْهِ الدهـرَ مُرْتَهن
أقولُ حـين رآنى الناسُ ألزمهُ | كأنمـا لىَ فى حانوته وَطَنُ
مَنْ كان يسأل عنّا أيْنَ منزلُنا | فالأقحـوانة مِنّا منْزِلٌ قَمِنُ

وقال :

قلْ لابْنِ حَرْبٍ طيلسا | نُك قومُ نوحٍ منه أحْدَثْ

أفنَى القرونَ ولم يَزَلْ عمَّنْ مضى من قبل يُورَثْ
وإذا العيونُ لحظنَهُ فكأنه باللَّحْظِ يُحْرَثْ
يُودِي إذا لم أرْفُــهُ فإذا رَفَوْتُ فليس يَلبثْ
كالكلبِ إن تَحْمِل عليـــه الدَّهرَ أو تترُكْه يَلْهَثْ

وقال :

قل لابن حرب طيلسانك قد أوْهَى قوَاى بكَثرةِ الغُرمِ
متبـــينٌ فيه لمُبصِرِه آثارُ رَفْوِ أوائلِ الأُمَمِ
وكأنه الخمرُ التى وصفت فى «ياشقيقَ الرّوحِ من حكَمِ»
فإذا رَمَمْناه فقيـــل لنا : قدصَحَّ، قال له البلى: انهَدِمِ
مثل السّقيم بَرَا فراجَعهُ نُكسٌ فأسلَمه إلى سَقَمِ
أنشدت حين طَغَى فأعْجَزَنى «ومن العناء رياضةُ الهرمِ»

« الخمر التى وُصِفت » من قول أبى نواس :

ياشقيقَ النّفسِ من حكم نِمت عن لَيلِي ولم أنَمِ
فاسْقِنى البِكرَ التى اعتَجَرت بخِمَارِ الشَّيْبِ فى الرَّحِمِ
ثُمَّتَ انْصَاتَ الشباب لها بعد أن جازت مَدى الهرمِ
فهى لليوم الذى بُزِلت وهى تِلْو الدَّهْر فى القِدَمِ
عُتِّقَتْ حتى لو اتصلت بلســـانٍ ناطقٍ وفَمِ
لاحتَبَت فى القوم مَاثلةً ثم قصَّت قِصَّةَ الأمَمِ
فرَعَتْها بالمِـــزاج يَدٌ خُلِقت للكاس والقَـــلَمِ

وقال الحمدونى :

طَيْلَسَانٌ لابنِ حربٍ جاءنى خِلْعَةً فى يوم نَحْسٍ مستمرّ
فإذا ما صِحْتُ فيه صَيْحَةً تركتــه كهشيم المحتظر

وإذا ما الريح هبَّتْ نحــوهُ   طيَّرتْه كالجرادِ المنتشِرْ
مُهطِع الدّاعى إلى الرّاقى إذا   ما رآه قال : ذا شىءٌ نُكُر
وإذا رفَّاؤه حاوَلَ أن   يتــلافاه تعاطى فعقَرْ

وقال :

أيا طيلسانىَ أعْييت طِبِّى   أسلٌ بجسْمِك أم داء حبِّ
ويا ريحُ صيَّرْتنى أتّقيك   وقد كنتُ لا أتّقى أن تَهُبِّى
ومستخبر خَــبَرَ الطيلسان   فقلت له الروح من أمْرِ ربى

وقال فيه :

طَيْلَسانٌ لابن حربٍ جاءنى   قد قَضَى التمزيقُ منه وَطَرَهْ
أنا من خوفٍ عليه أبداً   سامِرىٌّ ليس يَألُو حَذَرَه
يابْنَ حرب خُذْه أو فابعَثْ بما   نشترى عِجْلا بصفرٍ عشرَه
فلعل اللهَ يُحْيِيه لنــا   إن ضربناه ببَعْض البَقَرَهْ
فهو قد أدركَ نوحا ، فعسى   عنــده من عِلْم نوحٍ خَبَرَه
أبدا يَقرأُ مَن أبْصَرَهُ   أئذا كنّا عِظَاماً نَخِرَهْ

وقال فيه :

يابْنَ حرب أطلَتَ فقْرِى برَفْوِى   طيلسانا قد كنتُ عنه غَنِيّا
فهوفى الرَّفْو آلُفرْعَوْن فى العرْ   ضِ على النار غُـدْوةً وعَشِيّا
زُرْتُ فيه معاشراً فازْدرَوْنى   فتغنَّيْتُ إذ رأونى زَرِيّا
جِئْتُ فى زِىِّ سائلٍ كى أراكم   وعلى الباب قد وَقَفْتُ مَلِيّا

وقال فيه :

وهبتَ لنا ابنَ حربٍ طَيْلسانا   يَزيدُ المرء ذا الضَّعة اتِّضَاعَا
يَسلِمُ صاحبى فيعيد شَتْمِى   لأنَّ الروحَ يَكْسِبُه انصداعا
أُجيل الطَّرْفَ فى طرَفيهِ طُولاً   وعَرْضا ما أرى إلّا رِقَاعَا

فلست أشكّ أنْ قد كان قِدْماً ... لنُوحٍ فى سفينته شِرَاعا
فقد غَنِيتُ إذ أبصرت منهُ ... جوانبه على بَدنى تَدَاعَى
قِفى قَبلَ التفرُّقِ يا ضُباعَا ... ولا يَكُ مَوْقِفٌ مِنكِ الوَداعَا

[المأمون والحسن بن رجاء]

دخل المأمونُ بعضَ الدواوين، فرأى غلاماً جميلا على أذنه قلم، فقال: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا يا أمير المؤمنين الناشىءُ فى دولتك، المتقلِّبُ فى نعمتك، المؤمِّل لخدمتك، خادِمُكَ وابنُ خادِمِك الحسنُ بن رجاء. فقال: أحسنت يا غلام، وبالإحسانِ فى البديهة تفاضَلَت العقُول. فأمر أن يرفع عن مرتبة الديوان.

قال أبو إسحاق إبراهيم بن السرى الزجاج: قال لى أبو العباس المبرّد: ما رأيتُ فى أصحاب السلطان مثل إسماعيل والحسن؛ كنت إذا رأيته رأيت رجلا كأنما خُلق لذِرْوَة مِنبَر، أو صَدْرِ مجلس، يتكلّم وكأنه يتنفّس، يُسْهِبُ ويُطنِب، ويُغرِبُ ويُغرِب، ولا يعجَب ويعجِب.

أراد القاضى إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد، والحسن ابن رجاء بن أبى الضحاك.

[بديهة المبرد]

المبرد عند المتوكل

وكان أبو العباس يُعَدّ فى البلغاء، وقال: لما دخلت على المتوكل اختار لى الفَتحُ ابن خاقان وَقْتَ شُرْبه، وكان الشراب قد أخذ منه، فسألنى وقال: يا بصرى، أرأيت أحسنَ وجهاً منّى، فقلت: لا والله ولا أسْمَح راحةً، ثم تجاسرت فقلت:

جهَرْتُ بحَلْفَةٍ لا أتَّقيها ... بشكٍّ فى اليمين ولا ارتيابِ
بأنك أحسنُ الخلفاء وَجْها ... وأسْمَحُ راحتين، ولا أحَابى
وأنَّ مُطيعك الأعلى مَحَلاًّ ... ومَنْ عاصاك يهوى فى تَبَابِ (١)

(١) التباب ــ بوزن سحاب ــ الهلاك والخسران

فقال : أحسنت وأجملت فى حُسن طبعك وبديهتك ، فقلت : ما ظننتُنى أبلغُ هذا الشرف ، ولا أنال هذه الرتبة ؛ فلا زال أميرُ المؤمنين يسمو بخَدَمه إلى أعلى المراتب ، ويُصَرِّفهم فى المذاهب .

[من أدب المبرد]

بين ابن المعتز والمبرد

وكان ابنُ المعتز قد غضبَ على بعض وكلائه ، فصار إلى أبى العباس المبرّد يسأله أن يكلمه له ؛ فكتب إليه المبرّد : أنْتَ والله كما قال مسلم بن الوليد فى جدك الرشيد :

بابى وأمى أنْتَ ما أندَى يَداً ... وأبرّ ميثاقًا ، وما أزْكاكا

يَغْدُو عدوُّك خائفا ، فإذا رأى ... أن قد قدرت على العِقَاب رَجاكا

وهذا معنًى كثير .

[فى المدح]

لأعرابى

أنشد أحمد بن يحيى ثعلب الأعرابى :

كريم يغض الطَّرْفَ فَضل حَيَائه ... ويَدْنُو وأطرافُ الرماحِ دَوَانِي[1]

وكالسيفِ إن لايَنْته لاَنَ مَتْنهُ ... وحَدَّاه إنْ خاشَنْتَهُ خَشِنَان

لابن المعتز

وهذا يناسب قول ابن المعتز فى بعض جهاته :

ويَجْرَحُ أحشائى بعَيْنٍ مريضةٍ ... كمالانَ مَتْنُ السيفِ والحدُّ قاطعُ

للأخطل

وقال الأخطل فى بنى مروان :

صُمٌّ عن الجَهْلِ، عن قيل الخنا أُنُفٌ ... إذا ألمَّتْ بهم مكروهةٌ صَبَرُوا

شُمسُ العداوةِ حتى يُسْتَقَاد لهم ... وأعْظَمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا[2]

لابن هرمة

وقال إبراهيم بن علىّ بن هَرْمَةَ يمدح أبا جعفر المنصور :

كريمٌ له وَجْهان : وَجْهٌ لدى الرضا ... طليقٌ ، ووَجْهٌ فى الكريهة باسِلُ

وليس بمُعْطِى الحقّ من غيرِ قُدْرَةٍ ... ويَعْفو إذا ما أمْكَنَتْهُ المَقَاتِلُ

له لحظاتٌ من حِفافَىْ سريره ... إذا كرَّها فيها عِقَاب ونائِلُ

(١) فضل حيائه : منصوب على أنه مفعول لأجله (م)

(٢) شمس العداوة : يعنى أنهم لايرجعون إلى الرضا إلابعد أن يؤخذلهم بحقهم(م)

فأمّ الذى أَمَنْتَ آمِنَـــةُ الرَّدى وأمّ الذى حاولت بالشكْلِ ثاكِلُ

لأبى تمام

وقال الطائى فى أبى سعيد محمد بن يوسف :

هو السيلُ إن واجَهْتَه انقَدْتَ طَوْعَهُ وتقتادُهُ من جَانِبَيْهِ فيتبعُ

لعصابة الجرجانى فى الحسن بن رجاء

وكان عصابة الجرجانى ، واسمه إسماعيل بن محمد، منقطعا إلى الحسن بن رجاء متصلا به ، وهو القائل فيه :

ومحجَّبٍ بالنور ليس بمدرَكٍ إلا بما تَأْتِى به الأَنْبَاء

ملك يُحِبُّ الله فهو يُحِبُّهُ ويُطِيعُه فتطيعُه الأَشْيَاء

يمشى المُوَيْنَا للصلاةِ يُقِيمُها وإذا مشى للحَرْبِ فالخُيَلاَء

لله درّكَ أيما ابنِ عزيمةٍ يشوى الزمان ومَالَهُ إشْوَاء

ثم عتب عليه فى بَعْضِ الأمر ، فهجاه هجاء قبيحا ؛ فهرب إلى عمان ، ثم اعتذر إليه بقصيدته التى أولها :

لا تخضبَنَّ عَوَالِىَ المُرّانِ إلا من العلق النَّجِيع الآنِ[1]

وهى أجود شعر قيل فى معناه ، وهى التى يقول فيها :

اقرَ السلام على الأمير ،وقل له : إن المنادمةَ الرضاعُ الثّانِى

ما إنْ أَتَى حَشَمِى بأنّك سَاخِطٌ حتى استخفّ بمَوْضِعى غِلْمَانِى

وغَدت علىّ مطاعمى ومَشَارِبى وملابسى من أَعْوَنِ الأَعْوَانِ

فكتب إليه الحسن :

أَبلغ أبا إسحاق أنّ محلّهُ منى بحيث الرأسُ والعينانِ

لا تبعدنّ بك الديارُ لِنَزْغَةٍ ولَتُبْعِدَنَّ نوازغَ الشيطانِ

فَلْيُفرِخِ الرَّوْعُ الذى رُوِّعتَهُ إن المحل محـــلُّ كلّ أمانِ

[بين جميل وعمر بن أبى ربيعة]

اجتمع جميل بن معمر العذرى بعُمَر بن أبى ربيعة المخزومى ، فأنشده جميل قصيدته التى أولها :

(١) عوالى المران : أطراف الرماح ، والعلق : الدم ، والنجيع : الضارب إلى السواد ، والآن : الحار (م)

لَقَدْ فَرِحَ الوَاشُونَ أَنْ صَرَمَتْ حَبْلِى ... بُثَيْنَةُ أو أَبْدَتْ لَنَا جَانِبَ البُخْلِ
يَقُولُونَ : مَهْلاً يا جميلُ ، وإنّنى ... لأُقْسِمُ مَالِى عن بُثَيْنَةَ مِنْ مَهْلِ
خليلىَّ فِيما عِشْتُما هَــــلْ رأيْتُما ... قَتيلاً بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِى

نقله أبو العتاهية ، فقال :

يامَنْ رأى قبــلى قتيلا بكى ... من شِدَّةِ الوَجْـدِ على القاتلِ

فلما أتمّها قال لعمر : يا أبا الخطاب ، هل قلت فى هذا الروىّ شيئاً ؟ قال : نعم ، ثم أنشده :

جرى ناصح بالود بينى و بينها ... فقرّبنى يوم الحِصَاب إلى قتلى
فما أنسَ م الأشياء لا أنسَ قولَها ... وموْقِفِها يوما بقارِعــة النخل
فلما تواقفنا عَرَفْتُ الذى بهـا ... كمثل الذى بى حَذْوَكَ النَّعل بالنَّعلِ
فسلّمْتُ واستأنستُ خِيفَةَ أنْ يرَى ... عدوٌّ مكانى أو يرى حاسد فِعْلِى
وأقبلَ أمثالُ الدُّمى يكتنِفْنَها ... وكلٌّ يُفَدِّى بالمودَّةِ والأَهْلِ
فقالت وأرْخَتْ جانب السِّتْر : إنما ... معى فتكلَّمْ غَيْرَ ذِى رِقْبَةٍ أهلى
فقلتُ لها : ما بى لهم من ترقُّب ... ولـكنّ سرّى ليس يحمِلُه مِثْلِى

فاستخذى جميل وصاح : هذا والله الذى طلبَت الشعراء فأخطأته ، فتعلَّلُوا بوصف الديار ، ونعت الأطلال .

ولما مات عمر بن أبى ربيعة نعى لامرأة من مولّدات مكة ، وكانت بالشام، فبكت وقالت : مَنْ لأباطح مكة ؟ ومن يَمْدحُ نساءها ، ويصفُ محاسنهن ، ويبكى طاعتهن؟! فقيل لها : قد نشأ فتًى من ولد عثمان بن عفان[1] على طريقته ، فقالت : أنشدونى له ، فأنشدوها :

وقد أرسلَتْ فى السر لَيْلَى بأنْ أقِمْ ... ولا تَقْرَبنَّا فالتجنُّبُ أجْمَـــلُ
لعلّ العيونَ الرامقات لوَصْلِنَا ... تكذب عَنَّا أو تَنَامُ فتغفل
أُنَاسٌ أمنّاهم فبثوا حَديثنا ... فلما كتَمْنَا السرَّ عنهم تقوّلُوا

(١) هو العرجى ، وسيأتى بعد هذا نسبه وبعض خبره (م)

فما حفظوا العَهْدَ الذى كان بيننا ولا حين هَمُّوا بالقطيعة أجْمَلُوا

فتسلَّت وقالت : هذا أجلُّ عِوَضٍ ، وأفضل خَلَف ، فالحمدُ لله الذى خلف على حرمه وأمته مثل هذا .

من شعر العرجى

وقال عروة بن أذينة : أنشدت ابن أبى عتيق للعَرْجِى :

فما ليلةٌ عندى و إنْ قِيل لَيلةٌ ولا ليلة الأضْحَى ولا ليلة الفِطْرِ

بعادلةِ الإثنين ، عندى و بالحرَى يكونُ سواء مثلها ليلة القَدْرِ

وما أَنْسَ مِ الأَشياء لا أنس قولَها لجارتها : قُومِى سَلِى لى عن الوِتْرِ

فجاءت تقولُ الناس فى ست عشرةٍ ولا تَعْجَلِى عنه فإنك فى أجْرِ

فقال ابن أبى عتيق : هذه أفقَه من ابنِ أبى شهاب ؛ أُشهِدكم أنها حُرَّة من مالى إن أجاز أهلها ذلك .

نسب العرجى وبعض أخباره

والعَرْجِىُّ هو عبدالله بن عمرَ بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وكان ينزل بعَرْج الطائف فنسب إليه ، وهو القائل :

هل فى ادِّكَارِى الحبيبَ مِنْ حَرَجِ أمْ هل لِهَمِّ الفؤادِ من فَرَجِ

أمْ كيف أنسَى مسيرنا حرما يَوْم حَلَلْنَا بالنَّخْلِ مِنْ أَمَجِ (١)

يوم يقولُ الرسولُ قد أذنت فاتِ على غير رِقْبةٍ فَلِجِ (٢)

أقبلْتُ أهْوِى إلى رِحالِهِمُ أهْدَى إليها بريحها الأرِجِ

وكان محمد بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم واليا على مكة — وهو خال هشام بن عبد الملك — بلغه أنّ العرجىّ هجاه ، فضربه ضربا مبرحاً ، وأقامه على أعين الناس ، فجعل يقول :

سيغضب لى الخليفة بعد رقّى ويَسْأل أهل مكة عن مَسَاقِى

علىّ عباءةٌ بَرْقاء ليست من البَلْوَى تُجاوِزُ نِصْفَ سَاقِى

وتَغْضَبُ لى بأسرتها قُصَىٌّ ولاةُ الشعبِ والطُّرُف العِتاق

(١) أمج : قرية كثيرة النخل والزرع يسكنها قوم من قضاعة (م)

(٢) رقبة — بكسر الراء — ترقب وحذر ، ولج — بوزن صف وعد — أمر من الولوج (م)

فحلف محمد بن هشام ألا يخرجه مادامت له ولاية ؟ فأقام فى السجن سبع سنين حتى مات ، وهو القائل فى سجنه :

أضاعونى وأىَّ فتىً أضاعوا ... ليوم كريهة وسِدَادِ ثَغْرِ
وخَلَّوْنِى ومعترك المنايا ... وقد شُرِعَتْ أسِنَّتهم لنَحْرِى
كأنى لم أكن فيهم وَسِيطاً ... ولم تك نسبتى فى آلِ عَمْرو
أُجَرَّرَ فى الجَوامع كلَّ يوم ... ألاَ لله مَظْلمَتى وهَضْرِى
عسى الملكُ المجيبُ لمن دعاهُ ... سيُنْجِينِى فيعلم كَيْفَ شُكْرِى
فَأَجْزِى بالكرامة أهْلَ وُدِّى ... وأجْزِى بالضغائن أهْلَ ضُرِّى

جملة من الفصول القصار لابن المعتز

البشر دالٌّ على السخاء كما يدلُّ النَّوْر على الثمر . إذا اضطررت إلى الكذّاب فلا تصدّقه ، ولا تُعلِمْه أنك تكذِّبُه ، فينتقل عن وُدِّهِ ، ولا ينتقل عن طَبْعِه . كما أن الشمس لا يَخْفَى ضوءها وإن كانت تحت السحاب كذلك الصبىُّ لا تخفى غريزة عَقْلِه وإن كان مغموراً بأخْلاَقِ الحداثة . كَرَمُ الله عزّ وجل لا يَنْقُضُ حِكمته ، ولذلك لا يجعل الإجابة فى كل دعوة . كما أنّ جلاء السيف أهْوَنُ من صُنْعه ، كذلك استصلاح الصديق أهونُ من اكتساب غَيْرِه . إذا استرجع اللهُ مواهبَ الدنيا كانت مواهب الآخرة . لولا ظلمةُ الخطإ ما أشرق نورُ الصواب . الحوادث المِضَّة مُكْسِبةٌ لحظوظ جزيلة : من صوابٍ مدَّخر ، وتطهيرٍ من ذَنْب ، وتَنْبيه من غَفْلة ، وتعريفٍ بقَدْرِ النعمة ، ومُرُون على مُقَارَعَةِ الدهر .

ومثل هذا الفصل محفوظ عن ذى الرياستين ، قاله بعقب عِلَّةٍ فأغار عليه ابن المعتز .

وكتب إلى أحمد بن محمد جواباً عن كتاب استزاده فيه : قَيِّدْ نِعْمَتِى عندك

بما كنت استدْعيتها به ، وذُبّ عنها أسبابَ سوءِ الظن ، وَأسْتَدِمْ ما تُحِبُّ منى بما أُحبُّ منك .

وكتب إليه : واللهِ لاقَابَلَ إحسانَكَ منى كفرٌ ، ولا تَبِعَ إحسانى إليك مَنّ ، ولك عندى يدٌ لا أَقبضُها عن نفعك ، وأُخْرَى لا أَبْسطُها إلى ظُلْمِكَ ، فتجنّبْ مايُسْخِطنى ؛ فإنى أصون وجهك عن ذُلّ الاعتذار .

وكان أحمدُ بن سعيد يؤدّبه فتحمل البلاذرى على قبيحةَ أم ابن المعتز بقوم سألوا أن تأذن له أن يدخلَ إلى ابن المعتز وقتاً من النهار ، فأجابت أو كادَتْ تجيب ، قال ابنُ سعيد : فلما اتصل الخبرُ بى جلستُ فى منزلى غَضْبَانَ لما بلغنى عنها ، فكتب إلىّ ابن المعتز وله ثَلَاثَ عشرة سنة .

أصبحتَ يابن سعيد خِدْنَ مَكْرُمَةٍ ... عنها يقصّر مَنْ يَحْفَى ويَنْتَعِلُ

سَرْبَلْتنى حِكْمةً قد هذّبَتْ شِيَمِى ... وأَجّجَتْ نارَ ذِهْنِى فهى تَشْتَعِلُ

أكونُ إنْ شِئْتَ قُسًّا فى خَطَابتهِ ... أو حارثاً وهو يوم الحَفْلِ مُرْتَجِلُ

وانْ أشأْ فكَزَيْدٍ فى فرائِضِهِ ... أو مِثْلَ نعمانَ لما ضَاقَتِ الحِيَلُ

أو الخليلِ عَرُوضيًا أخا فِطَنٍ ... أو الكِسَائىّ نَحْوِيًا لَهُ عِلَلُ

تَغْلُو بَدَاهةُ ذِهْنِى فى مراكبها ... كِمِثْلِ ما عَرَفَتْ آبائىَ الأوَلُ

وفى فمى صارِمٌ مَاسلّهُ أحدٌ ... من غِمْده فدرى ما العيشُ والجَذَلُ

عُقباكَ شُكْرٌ طويل لا نَفَادَ لهُ ... يَبْقَى بجدتِهِ ما أَطّتِ الإبِلُ

وقسّ الذى ذكر : هو قسّ بن ساعدة الإيادى ، وقد سَمِع النبىُّ صلى الله عليه وسلم شِعْرَه ، وعجب منه .

وحارث: هو الحارث بن حِلّزة اليشكرى، وصف ارتجاله يوم فَخْرِه بقصيدته التى أنشدها بحضرة عمرو بن هند التى أولها :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أسْمَاه ... رُبّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّوَاه

وزيد: هو زيد بن ثابت الأنصارى ، وإليه انتهى علم الفرائض . ونعمان : هو

أبوحنيفة النعمان ـ رضى الله عنه ـ بن ثابت، سبق أهل العراق فى الفقه. والخليل بن أحمد الفرهودى ، و يقال : الفراهيدى ، منسوب إلى حىّ من الأزد، اليحمرى . والكسائى : على بن حمزة الكوفى .

[من أبن العميد إلى بعض إخوانه]

وكتب أبو الفضل محمد بن العميد إلى بعض إخوانه :

أنا أشكو إليك ـ جعلنى الله فداك ـ دهراً خؤوناً غدوراً، وزماناً خدوعاً غروراً، لا يمنحُ ما يمنح إلا ريثَ ما ينتزع ، ولا يبقى فيما يهب إلا ريثْ ما يرتجع ، يبدو خيرُه لُمَعاً ثم ينقطع ، ويحلو ماؤه جُرعا ثم يمتنعُ . وكانت منه شيمة مألوفة ، وسجيّة معروفة، أن يشفع ما يُبرمُه بقرب انتقاض، ويهدى لما يبسطه وشكَ انقباض، وكنا نلبسه على ما شرط ، و إن خان وقسط ؛ ونرضى على الرغم بحكمه ، ونستنيم بقصده وظلمه ، ونعتدّ من أسباب المسرة ألاّ يجىء محذورُه مصمتا بلا انفراج، ولا يأتى مكروهُه صِرفا بلا مِزاج ، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته ، ونسترقه من ساعاته. وقد استحدث غيرَ ما عرفناه سُنّةً مبتدعة ، وشريعةً متّبعة ، وأعدّ لكل صالحة من الفساد حالا ، وقرن بكلّ خلّة من المكروه خِلالا . و بيان ذلك ـ جعلنى الله فداكَ ـ أنه كان يقنعُ من معارضته الإلفين ، بتفريق ذات البَيْن، فقد أثنى مَمْنُوًّا فيك بجميع ما أوغره ،وما أطويه من البلوى منك أكثرُ مما أنشرُه، وأحسبنى قد ظلمتُ الدهرَ بسوء الثناء عليه ، وألزمته جُرما لم يكن قدره بما يحيط به ، وقدرته ترتقى إليه ، ولو أنك أعنته وظاهرته ، وقصدت صرفه وآزرته ، و بعتنى بيع الخلَق وليس فيمن زاد ولكن فيمن نقص ، ثم أعرضت عنى إعراضَ غير مراجع ، واطّرحتنى اطراحَ غير مجامل ؛ فهلاّ وجدت نفسك أهلا للجميل حين لم تجدنى هناك ، وأنفذتَ من جلّ ما عقدت من غير جريمة ، ونكثت ما عهدت من غير جريرة ،فأجبنى عن واحدة منهما ؛ ما هذا التغالى بنفسك ،

والتعالى على صديقك ؟ ولِمَ نبذتنى نبذَ النواة ، وطرحتنى طرْح القَذاة ؟ ولم تلفظنى من فِيك ، وتمجّنى من حلْقك ؟ وأنا الحلال الحلوُ ، والبارد العـذب ، كيف لا تخطرنى ببالك خَطْرة ، وتُصَيِّرنى من أشغالك مرة ؛ فترسل سلاما إن لم تتجشم مُكاتبة ، وتذكرنى فيمنْ تذكر إن لم تكن مخاطبة ؟ وأحسب كتابى سيَردُ عليك فتنكره حتى تتثبّت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتَصَوّر شخصه حتى تتذكّر ؛ فقد صرت عنـدك ممن محَا النسيانُ صورتَه من صـدرك ، واسمَه من صحيفةِ حِفْظِك ، ولعلك أيضاً تتعجب من طمعى فيـك وقد توليت ، واستمالتى لك وقد أبيت ، ولا عجب فقد يتفجّر الصَّخْرُ بالماء الزلال ، ويَلين مَنْ هو أقسى منك قلبا فيعود إلى الوصال ، وآخر ما أقوله أنّ ودّى وقْفٌ عليـك ، وحَبْسٌ فى سبيلك . ومتى عدت إليه وجدته غضًّا طريًّا ، فجرِّبه فى المعـــاودة فإنه فى العود أحْمَـدُ .

اجتليت هذا الكلام على اختيار الاختصار .

حلّ قوله « فقد يتفجر الصخْرُ بالماء الزلال » من قول ابن الرومى :

يا شبيه البدر فى الحســـن وفى بُعْدِ المَنَالِ
جُد فقد تنفجر الصَّخْـــرة بالماء الزُّلالِ

وفى هذه الرسالة فى ذكر فَتْح و إن لم يستبق منه المعنى:

وقد خصنا اللهُ تعالى،معاشرَ عُبُدِ الأمير عضد الدولة بنعمة يَعْلُو مراتبَ النعم مَوْقعُها، ويفوتُ مقدار المواهب موضعها، فباسْمِه ـ أبقاه الله ـ فُتِح الفتْح ، و بشعاره استُنزِل النّجْح،و بيُمْن نَقيبته فُرِج الكَرْب،و بسعادة جدّه كُشِف الخطْب،و باهتزازه للدولة وحمايته عاد إليها ماؤها ، وراجعها بهاؤها ، فعزّ الملك ونُصر ، وذلّ العدو وقُهر ، وحُميت أطرافُ الدولة ، وحُفِظت أكنافُ الملّةِ ، واستجدّ نظام النعمة ، وسُدِلَتْ ستورُ الصيانة دون الحرمة؛ولوجعل المولى ـ تقدّس اسمه ـ لنعمته إذا تناهت على عبيده جزاء غَيْرَ الإخلاص فى شكره،وقَبل ما فى مقابلة المَوْهبة التى يستجدها عند خَلْقه غيرَ

الإغراق فى حَمْده ، لرأيت ألاّ أقتصر فى قضاء حقه على بعض الملك دون بعض ؛ ولجعلت فى صَدْرِ ما أبذل عن هذه النعمة الأعزّيْن : الأهل والولد ، والأنْصَرين: الساعد والعَضُد ، بل العميدين : القلب والكبد ؛ بل النفس كلها ، والمُهْجَة بأسرها .

[من بديع ما قيل في العتاب]

لسعيد بن حميد

وقال سعيد بن حميد يعاتِبُ بعض إخوانه :

أَقلِلْ عتابك فالبقاءُ قليلُ ... والدَّهر يُعدِل تارةً ويميلُ
لم أبْكِ من زمن ذَممْتُ صُروفهُ ... إلاَّ بكَيتُ عليه حين يزُولُ
ولِكُلِّ نائبةٍ ألمّت مُدّةٌ ... ولِكل حالٍ أقبلَتْ تحْويلُ
والمنتمون إلى الإخاء جماعةٌ ... إنْ حُصِّلوا أفناهم التحصيل
ولعل أحداثَ المنيَّةِ والرَّدَى ... يوماً ستَصْدَعُ بيننا وتحول
فلئن سَبقْتُ لتبكينّ بحسرةٍ ... وليكثُرنّ عليّ منك عَويل
ولتفجَعَنّ بمُخْلِصٍ لك وامقٍ ... حَبْلُ الوفاء بحَبْلِه موصول
ولئن سَبَقْتَ ـ ولا سبقت ـ ليمضيَنْ ... مَنْ لا يُشاكُله لدىَّ خليل
وليذهبنّ بهاء كلّ مروءةٍ ... وليُفقَدنَّ جمالُها المأهول[1]
وأراك تكْلَفُ بالعتاب وودُّنا ... صافٍ عليه من الوفاء دليل
ودٌّ بدا لذَوِى الإخاء جمالهُ ... وبدت عليه بَهْجَةٌ وقَبول
ولعل أيامَ الحياة قليلةٌ ... فعَلامَ يكثر عَتْبُنَا ويَطُولُ

وقال أيضاً :

لقد ساءنى أنْ ليس لى عنك مَذْهَب ... ولا لك عن سوء الخليقة مَرْغَبُ
أفكر فى ودّ تقادم بيننا ... وفى دونه قُرْبَى لمن يتقرَّبُ
وأنت سقيمُ الودِّ رَثٌّ حِبالهُ ... وخيرٌ من الودِّ السقيمِ التجنُّبُ

(١) فى نسخة «جمالها المأمول» (م) .

تُسِيءُ وتأبَى أنْ تعقِّب بَعْدَهُ بحُسْنَى ، وتَلقَانى كأنىَ مُذْنِبُ
وأَحْذَرُ إن جازيت بالسوء والقِلَى مقالةَ أقوامٍ هُمْ منك أنْجَبُ
أساء اختياراً أو عرَتْه مَلاَلةٌ فعاد يُسِيء الظنَّ أو يتعتَّبُ
فخِبْتُ من الودِّ الذى كان بيننا كما خاب رَاجِى البرقِ والبَرْقُ خُلَّبُ

لعبيدالله بن عبد الله بن طاهر

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

إلى كم يكونُ الصَّدُّ فى كل ساعةٍ وَلِمْ لا تملّنَّ القطيعةَ والهجْرَا؟
رويدك ! إنَّ الدهرَ فيه بقيَّةٌ لتفريقِ ذاتِ البين فانتظر الدَّهْرَا

آخر :

ولقد علمت فلا تكن متجنِّباً أنّ الصدُودَ هو الفِرَاقُ الأوّلُ
حَسْب الأحِبَّة أن يفرِّقَ بينهم صَرْفُ الزمان، فما لنا نَسْتَعْجِلُ؟

آخر :

ذَرِ النفسَ تأخذ وُسْعَهَا قبل بَيْنِها فمفـــترق جَارانِ دارهما العمرْ

للمتنبى

ويقرب من المعنى قول المتنبي أيضاً :

زَوِّدِينَا من حُسْنِ وجهكِ ما دَا مَ فحُسْنُ الوجوهِ حالٌ يَحُولُ
وَصِلِينَا نَصِلْكِ فى هذهِ الدُّنــيَا فإنَّ المُقَامَ فيها قَلِيلُ

[من كلام الأعراب]

وقف أعرابيٌّ يسألُ، فعَبِث به فتى ، فقال : ممن أنت؟ فقال : من بنى عامر ابن صعصعة ، فقال : من أيّهم ؟ فقال : إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا المقـدار من المعرفة ، فليس مقامى بمقام مُجادَلة ولا مفاخرة ، وأنا أقولُ : فإن لم أكن من هاماتهم فلستُ من أعجازهم. فقال الفتى: ماروِيتَ عن فضيلتك إلا النقص فى حسبك. فامتعض الأعرابى لذلك؛ فجعل الفتى يَعْتذِر، ويخلط الهَزْل والدعابة باعتذاره،

وأطَال الـكلام ، فقال له الأعرابى : ياهذا ، إنك منذ اليوم آذيتنى بمَزْحِك، وقطعتنى عن مسألتى بكلامك واعتذارك ، و إنك لتكشف عن جَهْلِك بكلامك ما كان السكوت يَسْتُره من أمرك ، وَيْحك ! إنَّ الجاهل إن مَزَحَ أسْخَط، وإن اعتذر أفرط ، و إن حدّثَ أسقط ، و إن قدَر تسلّط ، و إن عزم على أمرٍ تورّط ، و إن جلس مجلس الوقار تبسّط ؛ أعوذُ منك ومن حالٍ اضطرتنى إلى احتمالِ مثلك !

وقال إسحاق الموصلى : قال أعرابى لرجل كان يعتمده بالعطية : أسأل الذى رحمنى بك أن يرحَمَك بى .

وسأل أعرابى رجلا ، فأعطاه ، فقال : الحمد لله الذى ساقنى إلى الرزق وساقك إلى الأجر :

[المقامة البَلْخِيَّةُ]

ومن انشاء البديع من مقامات الإسكندرى :

قال : حدثنا عيسى بن هشام قال : أفْضَتْ بى إلى بَلْخ تجارة البَزّ ، فوردتها وأنا بفَرْوَةِ الشباب(١) وبَالِ الفراغ ، وحِلْيَة الثروة ، لا يهمُّنى إلا نزهة فكر أستفيدها(٢) وشَريدة من الكلام أصيدها ؛ فما استأذن على سَمْعِى مسافةَ مُقامى ، أفصحُ من كلامى . ولمَّا حنى التفرقُ بنا قوْسَه أوكاد ، دخل إلى شابٌّ فى زى مِلْء العَيْن ، ولحية تَشُوكُ الأَخْدَعَيْنِ(٣) ، وطَرْفٍ قد شرب بماء الرَّافدين(٤) ، ولَقِيَنِى من البِرِّ فى السناء ، بما زِدْتُه من الشكر والثناء ؛ ثم قال : أظَعْنًا تُرِيد ؟ قلت:

---

(١) الفروة : الشعر ، وفى إحدى روايات المقامات « وأنا بعذرة الشباب » والعذرة : الناصية ، وهى الخصلة من الشعر فى مقدم الرأس

(٢) فى إحدى روايات المقامات « مهرة فكرة أستفيدها »

(٣) الأخدعان : عرقان فى صفحة العنق

(٤) الرافدان : دجلة والفرات . والكلام هنا كناية عن وفرة الشباب

إِي والله ، فقال : أخصَبَ الله رَائِدَكَ ، ولا أضلَّ قائِدَك ، فمتى عزَمْتَ ؟ فقلت : غداةَ غد ، فقال :

صَباحُ اللهِ لا صُبْحُ انطلاقِ ... وطَيْرُ الوَصْلِ لا طَيْرُ الفِرَاقِ

قال : أين تَريد ؟ قلت : الوطن ، قال : بُلِّغْتَ الوَطن ، وقضَيْتَ الوَطَر ، فمتى العَوْد ؟ قلت : القابل ، قال : طَوَيْتَ الرَّيْط[1] ، وثنَيْتَ الخيط ، فأين أنت من الكرم ؟ قلت : بحيث أردت ، قال : إذا رجعك الله من هذه الطريق ، فاستَصْحِب لى عدُوًّا فى بُرْدَةِ صديق، من نِجَار الصُّفر ، يدعو إلى الكُفر ، ويرقُص على الظُّفُر ، كدَارة العين ، يحطُّ ثِقَلَ الدَّين ، وينافِقُ بوَجْهين ! فعلمت أنه يلتمس دينارا ، قلت : لك ذلك نقدا ، ومثله وَعْدا ، فأنشأ يقول :

رَأْيُك مِمَّا خَطَبْتُ أعلى ... لا زلت للمَكرُمَات أهْلا

صَلُبْتَ عُوداً وفُقْتَ جُوداً ... وطِبْتَ فرعاً وطِبْت أصلا

لا أستطيعُ العَطاء حَمْلا ... ولا أطيق السؤال ثِقْلاَ

قصُرْتُ عَنْ مُنْتَهاكَ ظَنّا ... وطُلْتُ عما ظَنَنْتَ فعلاً

يا رجمة الله والمَعَالى ... لا لَقِىَ الدَّهْرُ مِنْكَ ثُكْلاَ[2]

قال عيسى بن هشام : فنُلْتُه الدينار ، وقلت : من أين نبتَ هذا الفَضل ؟ قال : نمتنى قريش ، ومُهد لى الشرفُ فى بَطْحائها . فقال بعض من حضر : ألَسْت أبا الفتح السكندرى ؟ ألم أرك بالعِراق ، تطوف بالأسواق ، مُكَدِّياً بالأوراق[3] ؟ فأنشأ يقول :

---

(١) الريط : جمع ريطة ، وهى الملاءة ـ وهذه العبارة كناية ، يدعو له بأن يطوى أيام البعد عن أهله (م)

(٢) فى إحدى روايات المقامات « يارجمة الدهر والمعالى » والرجمة ـ بضم الراء وسكون الجيم ـ ما يبنى تحت النخلة الكريمة لتعتمد عليه إذا ثقل حملها أو ضعف احتمالها (م)

(٣) كدى الرجل تكدية : أى سأل

إنَّ للهِ عبيـــدا أخذوا العُمْرَ خَليطا
فهمُ يُمسُون أعـرا با ويُضْحُون نَبيطا(١)

[من البديع إلى الميكالى]

وله إلى أبى نصر الميكالى يشكو إليه خليفته بهَرَاة :

كتابى أطال اللهُ بقاء الشيخ الجليل ،والماء إذا طال مُكْثُه، ظَهَرَ خُبْثه ، وإذا سكن مَتْنُه ، تحرَّكَ نَتْنُه ، كذلك الضيفُ يَسْمُج لقاؤه ،إذا طال ثَوَاؤه ، ويثقل ظِلّه، اذا انتهى مَحَلّه ؛ وقد حلَبْتُ أشطر خمسة أشْهر بهَرَاة وإن لم تكن دار مثلى لولا مُقامهُ ، وما كانت تسعنى لولا ذِمَامُه، ولى فى بَيْتَىْ قيسٍ مَثَلُ صدق ، وإن صَدَرَا مَصْدَرَ عِشْق :

وأَدْنَيتِنِى حتى إذا ما سَبَيْتنى بقولٍ يُحِلّ العُصْمَ سَهلَ الأبَاطحِ
تجافَيْتِ عنى حيث لا لِىَ حِيلةٌ وخَلَّفْتِ ما خلَّفْتِ بين الجوانِحِ

نعم . قنصتنى نِعَمُ الشيخ الجليل ، فلما عَلِقَ الجناح ، وقَلِقَ البَرَاح ، طرت مطارَ الريح ، بل مطارَ الرّوح . وتركتنى بين قوم ينقض مَسُّهم الطهارَةَ ، وتُوهِن أكفُّهم الحجارة . وحُدِّثت عن هذا الخليفة ، بل الجيفة ، أنه قال : قضيت لفلانٍ خمسين حاجةً منذ ورد هذا البلد ، وليس يَقْنع ، فما أصنع ؟ فقلت: يا أحمق ، إن استطعت أن ترانى محتاجاً ، فاستطع أن أراك محتاجاً إليك . أفّ لقولك ولفعلك ، ولدهر أحْوَج إلى مثلك ! وأنا أسأل الشيخ الجليل أن يبيِّضَ وجهى بكتاب يُسَوِّد وجهه ، ويعرّفه قَدْره ، ويملأ رعباً صدره ، إلى أن تَبين على صفحات جَنْبه ، آثارُ ذنبه .

وله إليه يعاتبه :

قد عرف الشيخ الجليـل السامى بعبوديّته ، ولو عرفْتُ وراء العبوديّة مكاناً لبلغته معه ، وأرانى كلماقدمت صُحْبة ، رجعت رُتْبة ، وكلما طالت خِدْمة ،قصُرت

(١) النبيط : جماعة من العجم يسكنون سوادا لعراق (م).

حِشمة ، ولست ممن يذهب عليه أن للسلطان أنْ يرفع عَبْداً حبشياً ، ويَضَع قُرَشيّا ، ولكن أحب أن أقف من مكانى على رُتبـةٍ كوكبها لا يغور ، ومنزلةٍ لو أن لَبها لا يَدُور ؛ فإذا عرفت قَدْرى وخطه ، لم أتخطّه ، ثم إن رأيت محـلّى وحدّه ، لم أتعدّه ، إن قدّمنى يوماً عليها علمت أن عنايةً قدمتنى ، وإن أخّرنى عنهـا علمت أنّ جناية أخرتنى . رُفع علىّ اليوم فلانٌ ولستُ أُنـكِر سِنَّه وفضْلَه ، ولا أجحد بيته وأصله ، ولـكن لم تجْرِ العادة بتقدّمه ، لا فى الأيام الخالية ، ولا فى هذه الأيام العالية ؛ وشديدٌ على الإنسان ما لم يُعوّد ؛ فإن كان حاسدٌ قد همّ ، أو كاشح قد نمّ ، أو خَطْبٌ قد ألمّ ، أو أمرٌ قد وقع وتمّ ، فالشيخُ الجليلُ أولى من يعرفه ويعرّفنيه ، وإلا فما الرأى الذى أَوْجَب اصطناعى ، ثم ضياعى ، والسبب الذى اقتضى بَيْعِى بعد ابتياعى ؟

[بين المأمون وإبراهيم بن المهدى]

ولما رضى المأمون عن إبراهيم بن المهدى أمر به فأُدْخِل عليه ، فلما وقف بين يديه قال : وَلىُّ الثأر محكّم فى القصاص ، ومَنْ تناوَله الاغترار بما مُدَّ له من أسباب الرجاء ، أَمِن عادية الدهر من نفسه ، وقد جعلك اللهُ تعالى فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كلّ ذى ذَنْب دونك ، فإن أخذتَ فبحقّك ، وإن عفوت فبفضلك . ثم قال :

ذَنبى إليـك عظيمٌ　　وأَنْت أعظم منـهُ
فخُذْ بحقِّـك ، أوْ لا　　فاصْفَحْ بفَضْلِك عنهُ
إن لم أكـن فى فعالى　　مِنَ الـكرام فكُنْهُ

فقال لى : إنى شاورتُ أبا إسحاق والعباس فى قَتْلك ، فأشارا به ، قال : فما قلتَ لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت لهما : بدأناه بإحسان ، ونحن نَسْتَأْمِره فيه ، فإن غيّر فالله يغير ما به ، قال : أما أن يكونا قد نصحا فى عظيم ما جَرَت عليه السياسة

فقد فعلا وبلغا ما يبلغك، وهو الرأيُ السديد ، ولكنك أبيت ألا تستجلب النصر إلاّ من حيث عوّدك الله . ثم استعبر باكيًا ، فقال له المأمون : ما يبكيك؟ قال : جَذَلا ! إذ كان ذنبي إلى مَنْ هذه صفته في الإنعام ، ثم قال : إنه وإن كان قد بلغ جُرْمي استحلال دمي ، فحِلْمُ أمير المؤمنين وفَضْله بلغاني عفوه ، ولي بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب ، وحقُّ الأبوة بعد الأب . فقال : يا إبراهيم ، لقد حُبِّبَ إليّ العفو حتى خِفْتُ ألاّ أُوجَر عليه ، أما لو علم الناسُ مالنا في العفو من اللذة لتقرّبوا إلينا بالجنايات ، لا تَثْرِيبَ عليك، يغفر الله لك ، ولو لم يكن في حقّ نسبك ما يبلغ الصفح عن جرمك لبلَّغك ما أملت حسنُ تنصلك ولطف توصلك ثم أمر بردّ ضياعه وأمواله ، فقال :

رددتَ مالي ولم تَبْخَلْ عليّ به ... وقبل رَدِّك مالي قد حَقَنْتَ دمي

وقام علمُكَ بي فاحتجّ عندك لي ... مقام شاهدِ عدل غَيْرِ متَّهَمِ

فلو بذلتُ دمي أبغي رضاكَ به ... والمالَ حتى أسلّ النَّعْلَ من قَدَمي

ما كان ذاك سِوَى عارِيّة سَلَفَتْ ... لو لم تهبها لكنت اليوم لم تُلَمِ

أخذ معنى قول المأمون : « لقد حُبّب إليّ العفو حتى خفت ألا أوجر عليه» أبو تمام الطائي فقال :

لو يعلمُ العافون كم لكَ في الندى ... من لذة وقريحةٍ لم تَحْمَدِ

فكان أبو تمام في هذا كما قال أبو العباس المعتز في القاسم بن عبيد الله :

إذا ما مدحناه استعنَّا بفِعْله ... فنأخذ معنى قَوْلِنا مِنْ فعاله

وكان تصويبُ إبراهيم لرأى أبي إسحاق المعتصم والعباس بن المأمون ألطفَ في طلب الرضا ودَفْع المكروه واستمالتهما إلى العاطفة عليه من الإزراء عليهما في رأيهما ، وكان إبراهيم يقول : والله ما عفا عني لرَحِمٍ ولا لمحبةٍ ؛ ولكن قامت له سوقٌ في العفو كَرِه أن يفسدها [بي] .

وكان المأمون شاور في قتل إبراهيم أحمدَ بن أبي خالد الأحول ، فقال:

إن قتلتَه فلك نظير؛ وإن عفوتَ عنه فلا نَظيرَ لك؛ فأخْتار لك العفو .

[بين المأمون وإسحاق بن العباس]

وقال المأمون لإسحاق بن العباس : لا تحسبني أغفلت أمْر ابن المهدى وتأييدك له ، وإيقادك لناره .

قال : والله يا أمير المؤمنين لَإجرامُ قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ من جُرْمى إليك؛ ولَرَحِمى أمسّ بك من أرحامهم؛ وقد قال لهم كما قال يوسفُ؛ على نبينا وعليه الصلاة والسلام لإخْوته : « لا تَثْريب عليكم اليومَ يَغْفِرُ اللهُ لكم وهو أرْحَم الراحمين » . وأنتَ يا أمير المؤمنين أحَقُّ وارثٍ لهذه الأمة فى الطَّوْل ، وممتثلٍ لخلال العَفْو والفَضْل .

قال : هيهات ! تلك أجرامٌ جاهلية عَفَا عنها الإسلام ، وجُرْمُك جُرْمٌ فى إسلامك ، وفى دارِ خلافتك .

قال : يا أمير المؤمنين؛ فوالله للمسلم أحَقّ بإقالة العَثْرة وغُفْران الذنب من الكافر . وهذا كتاب الله بينى وبينك إذ يقول : «وسارِعُوا إلى مَغْفِرةٍ من ربكم وجَنَّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرْضُ أُعِدّتْ للمتقين ، الذين يُنْفِقُون فى السراء والضَّرَّاء والكاظِمِين الغَيْظ والعافِين عَنِ الناس والله يحب المحسنين» . والناسُ يا أميرَ المؤمنين نسبةٌ دخل فيها المسلم والكافر ، والشريف والمشروف .

قال : صدقت ، وَرِيَتْ بك زنادى ، ولا بَرِحْتُ أرى من أهلك أمثالك .

[رجل يستعطف بعض الملوك]

وقال رجل لبعض الملوك وقد وقف بين يديه: أسألك بالذى أنت بين يديه غداً أذَلُّ منى بين يديك اليوم ، وهو على عقابك أقْدَرُ منك على عقابى، إلا ما نظرتَ فى أمرى نَظَرَ من بُرْئِى أحبُّ إليه من سُقْمِى ، وبراءتى أحبُّ إليه من بليتى .

[بين معاوية وروح بن زنباع]

وأراد معاوية عقوبة روح بن زنباع فقال : يا أمير المؤمنين: أنشدك الله تعالى

ألا تضع منى خسيسة أنتَ رفعتها، أو تنقض منى مَرِيرة[1] أنتَ أبرمتها، أو تشمت بى عدوًّا أنت كبته، وحاسداً بك وَقَمْتَه[2]؛ وأسألك بالله إلا أربى[3] حِلْمُك على خطئى وصفحك على جهلى.

فقال معاوية رضى الله عنه: إذا الله ثنّى عقد شىء تيسّرا.

أشار إلى هذا أبو الطيب المتنبى إذ قال:

أزل حَسَدَ الحُسّادِ عنى بكَبْتِهِمْ ... فأنتَ الذى صيرتَهم لِيَ حُسَّدَا

إذا شَدَّ زَنْدِى حُسْنُ رأيك فى يَدِى ... ضَرَبْتُ بسَيْفٍ يَقْطَعُ الهَامَ مُغْمَدَا

[عفو الملوك]

المأمون وبعض خاصته

وعَتَبَ المأمون على بعض خاصته، فقال: يا أمير المؤمنين، إن قديم الحرمة وحديث التوبة يَمْحُوَان ما بينهما من الإساءة. قال: صدقت، وعفا عنه.

بعض ملوك فارس

وكان فى ملوك فارس ملك عظيم المملكة، شديدُ النقمة، فقرّبَ له صاحبُ المطبخ طعامه، فنقطت نُقْطَةٌ من الطعام على المائدة، فزَوَى له الملك وَجْهَه، وعلم صاحبُ المطبخ أنّه قاتله، فعمد إلى الصَّحْفَة فكفأها على المائدة ثم ولّى، فقال له الملك: ما حَمَلك على ما فعلت، وقد علمتُ أن سقوطَ النّقطة أخطأَتْ بها يدك ولم يَجْرِ بها تعمُّدك، فما عندك فى الثانية؟ قال: استحَيتُ للملك أنْ يُوجِبَ قتلى، ويُبيح دَمَ مثلى، فى سِنّى وحُرْمتى، وقديم اختصاصى وخِدْمتى، فى نُقْطة أَخطأَتْ بها يَدى، فأرَدْتُ أن يَعْظُم ذَنبى ليَحْسُنَ بالملك قَتْلى.

قال: لئن كان اعتذارُك يُنجيك من القتل، فليس يُنجيك من التأديب؛ اجلدوه مائةَ جَلْدة، واخلعوا عليه خلع الرِّضا.

بهرام جور

وخرج بهرام جور متصيداً فعنّ له حمار وَحْشٍ، فأتبعه حتى صَرعه، وقد انقطع عن أصحابه، فنزل عن فَرسه يريدُ ذَبْحه، وبَصُرَ براعٍ فقال: أَمْسِك علىّ فرسى، وتشاغل بذبح الحمار، وحانَتْ منه التفاتة، فنظر إلى الراعى يقطع جَوْهَر عِذار فرسه، فحوّل بهرام جور وَجْهَهُ وقال: تأمُّلُ العيبِ عَيْب، وعقوبةُ

(١) أصل المريرة الحبل المحكم الفتل (م)

(٢) وقمته: قهرته وأذللته (م) (٣) أربى: زاد (م)

من لا يستطيع الدفاع عن نفسه سَفَه ، والعفوُ من أفعال الملوك ، وسُرْعَة العقوبة من أفعال العامة .

ثم قال : ياغلام ، ما بال شِبرْيَاِنك يضطربُ لعلّك آذاك تكسيرُنا أرْضك بحوافر خَيْلنا ، فقال : نعم ، وقد عزمتُ على أن أنقلع مائةَ فرسخ ، فقال بهرام: لا تُرَع ؛ فهذا الموضع وما فيه لك ، وكان الراعى خبيثاً ، فقال : إن الملوك إذ قالت قولا تمّتْ على قولها ، فرجع بهرام إلى عسكره وقال : اتبعنى لأُوثِّقَ لك من هذه الأرض ، فاتّبعه ، فلما بَصُر به الوزير قال : أيها الملك السعيد ، إنى لأرى جوْهَر عِذار فرسك مُقَلّما ، فتبسم وقال : أخذه من لا يردّه ، ورآه من لا ينمّ به ، فمَنْ أخذه صاحبُنا ولا نُطالبه به .

***

نقل ابن الرومى، قول بهرام : « تأمل العيب عَيْبٌ » كما اتفق موزوناً فقال :

تأمُّلُ الْعَيْبِ عَيْبُ ... مَا فى الذى قُلتُ رَيْبُ
وكلُّ خَيْرٍ وشَرّ ... دُونَ العَوَاقِبِ غَيْبُ
ورب جِلْبَابِ هَمٍّ ... فيه مِنَ الصُّنْعِ جَيْبُ
لا تَحْقِرنّ سُيَيْباً ... كَم قاد خيراً سُيَيب(١)

أخذ البيت الأخير من قول الطائى :

رُبّ قَليلٍ غداً كثيراً ... كَمْ مَطرٍ بَدْؤُهُ مُطَيْرُ

وقوله :

لا تَزِيلنْ صَغِيرَ هَمِّكَ وَانْظُرْ ... كم بذى الأَثْل دوحةً مِنْ قضيبِ

وقد أعاد ابن الرومى قوله :

وكُلُّ خَيْرٍ وَشَر ... دُونَ الْعَوَاقِبِ غَيْبُ

---

(١) سيبب : تصغير سيب ، والسيب ـ بالفتح ـ العطاء .

فى قصيدته التى مدح بها أحمد بن محمد بن ثوابة حين ساوره ، وقال : لو أتى لبيد لتعجَّب منه ، فاستجزله وقال :

وَلَمَّا دَعَانِي لِلْمَثُوبَةِ سَيِّدٌ   يَرَى الْمَدْحَ عَاراً قَبْلَ بَذْلِ الْمَثَاوِبِ

تَنَازَعَنِي رَغْبٌ وَرَهْبٌ كِلَاهُمَا   قَوِيٌّ ، وَأَعْيَانِي طُلُوعُ الْمَعَايِبِ

فَقَدَّمْتُ رِجْلاً رَغْبَةً فِى رَغِيبَةٍ   وَأَخَّرْتُ رِجْلاً رَهْبَةً لِلْمَعَاطِبِ

أَخَافُ عَلَى نَفْسِي وَأَرْجُو مَفَازَهَا   وَأَسْتَارُ غَيْبِ اللهِ دُونَ الْعَوَاقِبِ

أَلَا مَنْ يُرِينِي غَايَتِي قَبْلَ مَذْهَبِي   وَمِنْ أَيْنَ وَالْغَايَاتُ بَعْدَ الْمَذَاهِبِ

[من اعتذاراتِ البديع]

نسخة رقعة كتبها بديع الزمان إلى أبى على إسماعيل يعتذرُ إليه :

سوءُ الأدب من سكر النَّدْب، وسكر الغضب من الكبائر التى تنالُها المَغفِرَة ، وتَسَعُها المَعْذِرَة ، وقد جرى بحَضْرةِ الشيخ ما جرَى ، وقد أفنَيْت يدى عضًّا ، وأسنانى رَضًّا ، و إن لم أوف ما جرَى فالعُذْرَ أَمَدّ خطا ، فإنْ كان بساطاً يطوى ، وحديثاً لا يُرْوَى ، فأوْلى مَن عذَرَ اللاعب ، وأحْرَى من غَفَر الصاحب ؛ و إن كان ميتاً يُنْشَر ، وسبباً يُذْكَر ، فليَكن العقابُ ما كان، إن لم يكن الهجران ، على أنى قد أخذت قِسْطِى من العقاب، واستَفَدْت من ردِّ الجواب، ما كفى وأوْجَعَ القفَا ؛ فكان من مُوجب أدب الخِدْمَة ، إبقاءُ الحِشمة لولىِّ النعمة ، باحتمال الشَّتْم ، والإغضاء عن الخصْم ، لكنى أحْدَقَتْ بى ثلاثة أحوال لا يَسْلَمُ صاحبها : اللعب وسكره ، والخصم وهُجْره ، والإدلال والثقة ، وهُنَّ اللواتى حملننى على ماء الوَجْهِ فهرَقْتُه ، وحجابِ الحشمة فخرَقْتُه ، وقد منعنى الآن فَرْطُ الحياء من وَشْكِ اللقاء ، وعَهْدِى بوجهى وهو أصْفَقُ من العُدم الذى حملنى على جَهْلِه ، وأوْقَحُ من الدهر الذى أحوجنى إلى أهله ؛ لكن النعم إذا توالَتْ على وَجْهٍ رقَّقت قِشْرَته ، وألانت بَشَرته ؛ وأنا منتظرٌ من الجواب ما يريش جَنَاحِي إلى خِدْمَته، فإنْ رأى أن يكتب فَعل ، إن شاء الله .

وله رقعة إلى أبى على بن مشكويه أولها :

ويا عزّ إن واشٍ وشى بى عندكم فلا تُمهليه أنْ تقولى له : مَهْلا

كما لو وشى واشٍ بعزّة عندنا لقلنا : تزحزح لاقريباً ولا أهلا

بلغنى أطال اللهُ بقاءَ الشيخ أن قيضة كَلْب[1] وافتْه بأحاديث لم يُعِرْها الحقُّ نورَه ، ولا الصدقُ ظهورَه ، وأنه — أدام الله عزّه — أذن لها على مجال أذنه ، وفسح لها فِناء ظنّه ، ومعاذ الله أن أقولها ، وأستجيز معقولها ؛ بل قد كان بينى و بين الشيخ عِتابٌ لاينزل كنَفه ولا يجدف ، وحديث لايتعدّى النفسَ وضميرها، ولا يعرف الشفة وسَميرها ، وعَرْبدة كعَرْبدَة أهْل الفضـل ، لا تتجاوزُ الدّلال والإدلال ، ووحشة لا يكشفها عتابُ لَحْظة ، كعتاب جَحْظة ، فسبحان مَنْ رَبّى هذا الأمرَ حتى صـار أمراً ، وتأبّط شرًّا ، وأوْجَب عُذْراً ، وأوحش حُرًّا . وسبحان مَنْ جعلنى فى حَيِّز العدو أشيم بارِقَته ، وأتخوّف صاعِقَته ، وأنَا المُساءُ إليه، والجنىُّ عليه ، ولـكن من بُلى من الأعداء بمثل ما بُليت ، ورُمى من الحسد بما رُميت، ووقف من التوحّد والوحدة حيث وقَفْت ، واجتمع عليه من المكارهِ ما وصَفْت ، اعتذر مظلوماً ، وضَحِك مشتوماً ، ولو علم الشيخُ عددَ أولاد الجدد، وأبناء العدد ، بهذا البلد ، ممن ليس له همٌّ إلا فى سعاية أو شكاية أو حكاية أو نكاية ، لضنَّ بعِشْرَة غريب إذا بدر ، و بعيد إذا حضر ، ولصانَ مجلســه عمن لا يَصُونُه عما رقى إليه ، وهَبْنى قدقلت ماحكى ، أليس الشّاتِمُ مَنْ أسْمع ، والجانى مَنْ أبلغ ؟ فقد بلغ مِنْ كيد هؤلاء القوم أنهم حين صـادفوا من الأستاذ نفساً لا تُستفزّ ، وجبلالا يهزّ ، وشَوْا إلى خدمه بما أرّثوا نارهم[2]، وورد علىّ ما قالوه فما لبثت أن قلت :

فإن تكُ حربٌ بين قومى وقومها فإنى لهـا فى كلّ نائبة سِـلْمُ

---

(١) القيضة ، بالـكسر : قطعة صغيرة من العظم ، والكلام على التشبيه (م)

(٢) أرثوا نارهم : أججوها وأشعلوها (م)

وليعلم الأستاذ أنّ فى كبد الأعداء منى جَمْرة ، وأنّ فى أولاد الزنا عندنا كَثْرة ، وقُصاراهم نارٌ يَشُبُّونها ، وعقرب يدَبّبُونها ، ومَكِيدة يَطْلُبونها ، ولولا أن العذْرَ إقرار بما قيل ، وأكره أن أستقيل ، لبسطتُ فى الاعتذار شاذَرْوانا ، ودخلت فى الاستقالة مَيْدانًا ، لكنه أمرٌ لم أضعْ أوّله ، فلم أتداركْ آخره .

وقد أبى الشيخ أبو محمد — أيده الله — إلا أن يوصَلَ هذا النثر الفاتر بنظم مثله فيها كه يَلْعَنُ بعضه بعضا :

مولاى إنْ عدتُ ولم ترضَ لى ... أنْ أشربَ الباردَ لم أشْرَبِ
أمْتَطِ خدى وانْتَعِل ناظرى ... وصِدْ بكفى حُمةَ العَقْرَبِ
تالله ما أنطِقُ عن كاذبٍ ... فيك ، ولا أبْرِقُ عن خُلَّبِ
فالصفوُ بعد الكذب المفترَى ... كالصّحو عقْبَ المَطَرِ الصَّيِّبِ (١)
إن أجْتَنِ الغلطَةَ من سيدى ... فالشوكُ عِنْد الثمر الطيب
أو يفسد الزُّورُ على نَاقد ... فالحر قد يعصب بالثيّب

ولعل الشيخ أبا محمد — أيده الله — يقوم من الاعتذار بما قعد عنه القلمُ واللسان ؛ فنعم رائد الفضل هو ، والسلام .

فقرٌ من كلام سهل بن هرون للمأمون

كان المأمون استَثْقل سَهْلَ بن هرون ، فدخل عليه يوماً ، والناسُ على مَراتبهم ، فتكلّم المأمون بكلام ذَهَب فيه كلّ مذهب ؛ فلما فرغ من كلامه أقبل سهلُ بن هرون على الجَمْع فقال : مالكم تسمعُون ولا تَعُون ، وتشاهدون ولا تَفْقَهُون ، وتفهمون ولا تتعجَّبُون ، وتتعجَّبون ولا تُنصفون ؟ والله إنه ليقول ويفعلُ فى اليوم القصير ما فعل بنو مروان فى الدهرِ الطويل ، عَرَبُكم كعجمكم ، وعَجَمُكم كعبيدكم ، ولكن كيف يَعْرِف الدواء من لايشعر بالداء ؟ فرجع المأمونُ فيه إلى الرأى الأول .

(١) فى الرسائل (١٦٠ بيروت) « فالصفو بعد الكدر المفترى »

[من ترجمة سهل بن هرون ، وأخباره]

وكان أبو عمرو سهل بن هرون من أهل مَيْسَان(١) نزل البصرة فنُسِب إليها ، وهو القائل :

يأهل مَيْسان السلام عليكم الطيبون الفرعُ والجِذْمُ
أما الوجوهُ ففضّةٌ مُزِجَت ذهبا وأيدٍ سَحَّةٌ هُضُمُ(٢)
أتريدُ كلبٌ أن أناسبها قد قلّ من كلب بنى العِلْمُ
أجعلت بيتاً فوق رابية فرعُ النجومِ كأنه نَجْمُ
كبيَيْتِ شَعر وسط مجهلة بفنائه الجِعْلانُ والبهْمُ

وكان سهل شعوبيا ، والشعوبية: فِرْقةٌ تتعصب على العرب وتنتقصها ، وكان أبو عبيدة يُرْمَى بذلك .

وسهل ظريفٌ عالم حسَنُ البيان ، وله كتب ظريفة صنَّفها معارضاً للأوائل فى كتبهم بما لا يستضَو به منهم، حتى قيل له «بزرجمهر الإسلام» وقال يمدح رجلا :

عدوٌّ تِلادِ المال فيما يَنُوبُهُ مَنوعٌ إذا مامَنْعُه كان أحْزَما
مذلل نفس قد أبَتْ غيرأن تَرَى مَكارِهَ ما تأْتِى من العيش مَغْنَما

وهذا نظير قوله فى كتاب «ثَعْلَة وعُفرة» الذى عارض به كليلة ودمنة : اجعلوا أداء ما يَجِبُ عليكم من الحقوق مقدَّماً قبل الذى تجودون به من تفضُّلكم ؛ فإن تَقْديمَ النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مُظَاهر على وَهَنِ العقيدة ، وتقصير الروِيّة ، ومُضِرٌّ بالتدبير ، مخلٌّ بالاختيار ، وليس فى نفع محمدته عِوَض من فساد المروءة ولزوم النقيصة . وكتابه هذا مملوء حكما وعلما . وسهل القائلُ :

تقسَّمنى همَّان قد كسَفَا بالى وقد تركا قلبى محَلَّةَ بَلْبالِ
هما أذرَيا دَمْعِى، ولم تذر عَبْرَتِى رهينةُ خِدْرٍ ذات سِمْطٍ وخَلْخالِ
ولا قهوة لم يَبْقَ منها على المدى سوى أن تحاكى النورفى رأس ذيال
تحلَّل منها جِرمها وتماسكت لها نفسٌ معدوم على الزمن الخالى

---

(١) ميسان — بفتح فسكون — بين واسط والبصرة (م)
(٢) هضم : جمع هضوم ، واليد الهضوم : التى تجود بما لديها (م)

ولكنما أبكى بعينٍ سخينة على حدَث تبكى له عَيْنُ أمثالى
فراق خليل لا يقوم به الأسى وخَلَّة حُرٍّ لا يَقُوم لها مالى
فوا حسرتى حتّى متى القلب مُوجَع لفَقْد خليل أو تَعَذرِ إفضال
وما الفَضْلُ إلا أنْ تجودَ بنائلٍ وإلا لقاء الخلّ ذى الخُلُقِ العالى

وهو القائل :

إذا امرؤٌ ضاق عنى لم يَضِق خُلُقِى من أنْ يرانى غنيًّا عنه باليَاسِ
لا أطلبُ المال كى أُغنَى بفضلته ما كان مَطْلَبُه فَقْراً إلى الناس

وأنشد له الجاحظُ يهجو رجلا :

من كان يَعْمُرُ ما شادَتْ أوائلهُ فأنتَ تَعْمُر ماشادُوا وما سَمَكُوا
ما كان فى الحق أن تحوى فعالهمُ وأنت تَحْوِى من الميراثِ ماتركوا

وقال محمد بن زياد الزيادى : وجَدْتُ[1] على سهل بن هرون فى بعض الأمر، فهجوته ، فكتب إلىّ : أما بعد فالسلامُ على عهدك وداعَ ذى ضَنٍّ بك ، فى غير مَقْلِيَة لك[2] ، ولا سَلْوَة عنك ، بل استسلامٌ للبَلْوَى فى أمرك ، وإقْرارٌ بالمعجزة فى استعطافك ، إلى أوان فيئتك[3] ، أو يجعل الله لنا دَولة من رجعتك ،والسلام.

وكتب فى أسفل الكتاب :

إن تَعفُ عن عبدك المسىء ففى عفوك مَأْوًى للفضل والمِنَنِ
أتيتُ ما أستحقّ من خَطإ فجُدْ بما تستحق من حسنِ

[من عِظات الحسن البصرى]

وقال الحسن البصرى رحمه الله فى يوم [فطر] وقد رأى الناسَ وهيآتِهم : إنّ الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضماراً لخلقِه ، يستَبِقُون فيه بطاعته إلى مَرْضَاته ، فسبَقَ قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابُوا، فالعجب من الضاحك اللاعب

(١) وجدت عليه : حقدت أو غضبت (م) (٢) المقلية : الكراهية (م)
(٣) فيئتك : رجوعك (م)

فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ، ويَخْسَرُ فيه المبطلون ، أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ومُسِىء بإساءته .

ونظر إلى قوم منصرفين من صلاة الفِطْر يتدافعون ويتضاحكون ، فقال : اللهالمستعان ! إن كان هؤلاء قد تقرّرعندهم أن صومهم قد تُقُبِّلفما هذا محلُّ الشاكرين ، وإن علموا أنه لم يتقبل فما هذا محلُّ الخائبين .

وكان الحسن من الخطباء النّساك الفقهاءِ الأجواد ، ويقال : إنه لم يكن تابعيّ أفضل منه .

هـذا قول أهل العراق جميعاً ، وأهل الحجاز يقدمون سعيد بن المسيب عليه ، وكان سعيدٌ أحْسَنَ من الحسن وَرَعا ، وأشــــدّ الناس حَذَرا ، وأقلهم كلاما .. وكان الحسن لا يَدع أن يتكلّم بما هَجَس فى نفسه ، وجاش فى صدره .

وعلى ذكر الحسن شهرَ رمضان نقول:

ألفاظ لأهل العصر ، فى التهنئة بإقبال شهر رمضان
مع ما يتصل بها من الأدعية

ساق اللهُ تعالى إليكَ سعادةَ إهلاله ، وعَرَّفك بَرَكةَ كماله . قسم اللهُ لك من فَضْله ، ووفَّقَك لفَرْضِه وَنَفْلِه . لقّاك الله ماترجوه ، ورقاك إلى ما تحبُّه فيما تَتْلوه . جعل اللهُ ما أظلَّك من هـــذا الصوم مقرونًا بأفضَلِ القبول ، مُؤْذِنا بدَرْكِ البُغْيَةِ ونُجْح المأمول ، ولا أخْلاك من برّ مرفوع ، ودعاء مسموع . قابَلَ الله تعالى بالقبول صيامَك ، وبعظيم المَثُوبة تهجُّدك وقيامك . عرَّفك الله من بركاته ما يُرْبِى على عـدد الصائمين والقائمين ، ووفَّقك اللهُ تعالى لتحصيل أجْرِ المتهجِّدين . أسأل اللهَ تعالى أن يضاعِفَه بمنه لك ، ويجعله وسيلة بقبوله إلى مَرْضاته عنك . أعاد اللهُ إلى مولاى أمثاله ، وتقبّل فيه أعماله ، وأصلح فى الدين والدنيا أحواله ، وبلّغه منها آماله . أسعده الله بهذا الشهر ، ووفاه فيه أجزل المَثُوبة والأجر ، ووفّر حظَّه من كل مايرتفع من دُعاءالدّاعِين ، وينزل من ثواب العاملين ،

بل مساعيه وزكاها ، ورفع درجاته وأعلاها ، وبلّغه من الآمال مُنتهاها ،
لفِر بأبعدها وأقصاها .

أخلاق المؤمن

وقال الحسن : من أخلاق المؤمن قوةٌ فى دين ، وحَزْمٌ فى لين ، وحِرْص
ى العلم، وقناعة فى فَقْر ، ورحمة للمَجْهود ، وإعطاء فى حق ، وبرٌّ فى استقامة ،
قهٌ فى يقين ، وكسب فى حلال .

صفة الأخ الصادق

وقال محمد بن سليمان لأبى السماك : بلغنى عنك شىء ، قال : لاأباليه ، قال :
؟ قال : لأنه إن كان حقًّا غفرته ، وإن كان باطلا كذبته .

وقال محمد بن صُبَيْح المعروف بابن السماك : خيرُ الإخوان أقلّهم مصانعة فى
صيحة ، وخيرُ الأعمال أحلاها عاقبة ، وخيرُ الثناء ما كان على أفواه الأخيار ،
شرف السلطان مالم يخالطه البَطَر ، وأغنى الأغنياء من لم يكن للحِرْص أسيرا ،
خيرُ الإخوان من لم يخاصم ، وخيرُ الأخلاق أعونها على الورع ، وإنما يختبر وُدُّ
جال عند الفاقة والحاجة .

صفة الرجل الكامل

ووصف بعضُ البلغاء رجلا فقال : إنه بسيط الكف ، رَحْب الصَّدْرِ ،
طَّأ الأكناف ، سَهْل الخلق ، كريم الطباع ، غَيْثٌ مُغيثٌ ، وبَحْرٌ زَخور ،
حُوك السنّ ، بشير الوَجْهِ ، بادى القبول ، غير عَبُوس ، يستقبلك بطَلاَقةٍ ،
يحيِّيك ببِشْر ، ويَسْتَدْبِرك بكريم غَيْب ، وجميل سرّ ، تبهجك طَلاَقَتهُ ،
يرضيك بِشْرُه ، ضَحَّاك على مائدته ، عَبْدٌ لضيفانه ، غير ملاحظ لأكيله ،
طينٌ من العقل ، خَمِيص من الجهل ، راجح الحِلْم ، ثاقب الرَّأى ، طيِّب الخلق ،
صِّن الضريبة ، مِعْطاَء غير سائل ، كاسٍ من كل مَكْرُمة ، عارٍ من كلّ
لامة ، إن سُئِلَ بذَل ، وإن قال فَعلَ .

قال أبو الفتح كشاجم :

مزاجك لِلْمَثْنى من العودِ والصَّبا ... من الرِّيح والصافِى الرقيق من الخَمْرِ
فلو كنت وَرْداً كنت وَرْداً مُضاَعفا ... ولو كنت طِيباً كنت من عَنْبَرِ الشَّحْرِ

ولو كنت لحناً كنت تأليف مَعْبَدٍ ... ولو كنت عوداً ما افتقرتَ إلى زَمْرِ

وقال أعرابى :

ألا حبّـذا البُرْدُ الذى تَلْبَسِينهُ ... ويا حبذا مَنْ باعكِ البُرْدَ من تَجْرِ [1]

فلو كنت ماءً كنت ماء غمامةٍ ... ولو كنت درًّا كنت من دُرَّةٍ بِكْرِ

ولو كنت لَهْواً كنت تَعْليلَ ساعةٍ ... ولو كنت نَوْماً كنت إغفاءةَ الفَجْرِ

ولو كنت لَيْلاً كنت قَمْرَاء جُنِّبَت ... نُحُوس لَيَالِى الشَّهْرِ أو ليلَةَ القَدْرِ

---

(١) التجر ـ بالفتح ـ اسم جمع ، واحده تاجر ، ومثله شرب وسفر

تم ـ بحمد الله تعالى ومعونته ـ تحقيق الجزء الثانى من « زهر الآداب ، وثمر الألباب » لأبى إسحاق الحصرى . ويليه ـ إن شاء واهب التوفيق والسّداد ، ورازق القدرة والعون ـ الجزء الثالث مفتتحاً بـ « نبذ من ألفاظ بلغاء العصر تجرى فى المدح مجرى الأمثال ؛ لحسن استعاراتها ، و براعة تشبيهاتها » . نسأله ـ سبحانه ـ أن يعين على إكماله بمنّه وفضله ، آمين .

فهرس الجزء الثانى من كتاب

« زهر الآداب ، وثمر الألباب »

لأبى إسحاق الحصرى

ص	الموضوع

تمت فهرس الجزء الثانى من زهر الآداب للحصرى ، والحمد لله أولا وآخراً
وصلاته وسلامه على سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه



